المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

القصر الزجاجى

تأليف: أميتاف جوش

ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم

1355



الإبداع القصصى

القصر الزجاجى

(رواية)

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة : خيرى دومة

- العدد : ١٣٥٥
- القصر الزجاجى
- أميتاف جوش
- عبد المقصود عبد الكريم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

القصر الزجاجي

(رواية)

تأليف : أميتاف جوش

ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جوش ، أميتاف.
القصر الزجاجى/ تأليف: أميتاف جوش ؛ ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩
٧٠٤ ص ، ٢٤ سم
١ - القصص الإنجليزية
(أ) عبد الكريم، عبد المقصود (مترجم)
(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٣٤٧١
الترقيم الدولى 978-977-479-448-9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

إلى ذكرى والدى

المحتويات

الجزء الأول

مَنْدالي

(١)

فى كشك الطعام لم يعرف إلا شخص واحد حقيقة الصوت الذى أتى عبر السهل، بطول المنحنى الفضى لإراودِّى[١]، بجوار الحائط الغربى لحصن مندالى[٢]. كان هنديًا يُدعى رَجْكومار[٣]، ولدًا فى الحادية عشرة – لم يكن مصدر ثقة يُعتدُّ به.

كان الصخب غريبًا ومثيرًا، دويًا نائيًا، تبعه هدير متقطع منخفض. يشبه أحيانًا حفيف تويجات جافة، فجائيًا وغير متوقَّع. تحول، فجأة، إلى قعقعة عميقة رجَّتْ كشك الطعام وحركت إناء الحساء الذى يتصاعد منه البخار. لم يكن فى الكشك إلا طاولتان اكتظَّتا بأناس يجلسون محشورين بجوار بعضهم. كان الجو باردًا، بداية منتصف شتاء بورما القصير، شديد البرودة، ولم تكن الشمس ساطعة بما يكفى لإذابة الشبورة التى اندفعت فى الفجر من النهر. حين وصلت الدمدمة إلى الكشك ساد صمت، تبعته موجة أسئلة وإجابات الهامسة. تطلع الناس حولهم فى ذهول: ما هذا؟ با لى[٤]؟ ماذا يمكن أن يكون؟ ثم قطع صوت رجكومار، الحاد المستثار، طنين التكهن. قال بلهجة بورمية طليقة وعميقة: "مدفع إنجليزى: يطلقون النار فى مكان قريب من النهر، يصوبِّون فى هذا الاتجاه."

ظهر وجوم على وجوه بعض الزبائن وهم يلاحظون أن الولد الذى يقوم بالخدمة هو الذى تكلم، وكان كالا[٥] من عبر البحر– هنديًا، أسنانه بيضاء كعينيه، وبشرته بلون الخشب الصلب المصقول. كان يقف فى منتصف الكشك، يمسك بكمية من الأوانى الخزفية المكسورة. ابتسم ببلاهة، كما لو كان مرتبكًا من عرض معرفته المبكرة.

اسمه يعنى الأمير، ومظهره أبعد ما يكون عن مظهر الأمير، بصدرة ملوثة بالزيت، ولُنْجِى[٦] معقود بإهمال، وقدمين حافيتين عليهما خفٌّ سميكٌ من القشف. كان يقول، حين يسأله الناس عن عمره، خمسة عشر، وأحيانا ثمانية عشر أو تسعة عشر، وقد منحته القدرة على المبالغة بهذه الطريقة الهمجية إحساسًا بالقوة والقدرة؛ بدا كبيرًا وقويًا، جسديًا وذهنيًا، ولم يكن إلا طفلاً. قد يزعم أنه فى العشرين ويصدقه الناس، لأنه ولد ضخم قوى البنية، أطول من كثير من الرجال وكتفاه أعرض. وكان من الصعب، لشدة سواده، القول إن ذقنه بنعومة راحتى يديه، خالية إلا من بعض آثار الزغب.

كانت الصدفة وحدها مسئولة عن وجود رجكومار فى مندالى فى ذلك الصباح من نوفمبر. كان مركبه – سَمْبان[٧] يعمل عليه مساعداً ويقوم بمهام أخرى– فى حاجة لإصلاحات بعد الإبحار إلى إرأودِّى من خليج البنغال. سيطر الرعب على صاحب المركب وهو يقول إن الإصلاحات قد تستغرق شهراً، وربما أكثر. لم يكن يستطيع تحمل إطعام الطاقم طوال تلك الفترة، فقرر أن يبحث بعضهم على أعمال أخرى. وطلب من رجكومار أن يسير إلى المدينة، على بعد ميلين من الشاطئ. و يسأل فى بازار أمام الجدار الغربى للحصن عن امرأة نصف هندية تدعى ما شو[٨]، تدير كشكًا صغيراً للطعام؛ قد يكون لديها عمل له.

رأى رجكومار للمرة الأولى طريقًا مستقيمًا، وهو يسير فى مدينة مندالى، فى الحادية عشرة من عمره. على جانبى الطريق أكواخ جدرانها من البامبو وأكواخ بسقوف من سعف النخيل، قطع من الروث وأكوام من النفايات. لكن المسار المستقيم لمجرى الطريق لم يكن ملطَّخًا بالفوضى التى تحيط به: يشبه ممراً يقطع بحراً متلاطم الأمواج. تقود خطوطه العين إلى المدينة مباشرة، بجوار جدران الحصن، الحمراء الساطعة، إلى المعابد البعيدة فى هضبة مندالى، المتألقة كسلسلةٍ من الأجراس البيضاء على المنحدر.

كان رَجْكُومار، بالنسبة لعمره، على خبرة طيبة بالسفر. كان يعمل على مركب ساحلىٍّ، يبحر عمومًا فى المياه المفتوحة، قاطعًا المسافة الطويلة التى تربط بورما بالبنغال. زار رَجْكُومار شيتاجُنْج وباسين[٩] وعددًا كبيرًا من البلدات والقرى التى تقع بينهما. لكنه فى كل أسفاره لم يمر أبدًا بطُرِقٍ كطرق مندالى. اعتاد على حوارى وأزقة تلتف حول نفسها إلى ما لا نهاية بحيث لا ترى أبدًا أبعد من المنحنى التالى. كان هنا شىء جديد: طريق مستقيم، مسار منتظم، يبدو الأفق وسط المساكن تمامًا.

توقف رجكومار وسط الطريق حين بدا الحصن بضخامته الهائلة. كانت القلعة معجزة لا يمكن تصورها، تمتد أسوارها أميالا وحولها خندق مائى هائل. وكانت المتاريس، التى تحتوى على فتحات لإطلاق النار، ترتفع ثلاثة طوابق تقريبًا، تحلق بخفة، حمراء اللون، وفى قمتها مداخل مزخرفة بأسقف من سبع طبقات. كانت الجدران على الطرق الطويلة المستقيمة تشع، مكونة شبكة هندسية دقيقة. هكذا بدتْ روعة النمط الدقيق للشوارع التى تجول فيها رجكومار شاردًا ومستكشفًا. وحين حل الظلام، تذكَّر سبب مجيئه للمدينة. عاد إلى الجدار الغربى للحصن وسأل عن ماشو.

"ما شو؟"

"لديها كشك تبيع فيه الطعام – بايا جاو[١٠] وأشياء أخرى. نصف هندية."

"آه، ما شو." كان بحث هذا الولد الهندى الرث عن ما شو مفهومًا: كثيرًا ما عمل فى الكشك هنود ضالون. "هناك، النحيفة."

كانت ما شو ضئيلة الجسم، تبدو منهكة، تتدلى على جبهتها خصلات من الشعر الخشن، مثل مظلة بأهداب. فى منتصف الثلاثينيات؛ تبدو بورمية أكثر منها هندية. كانت مشغولة بقلى الخضراوات، تحدِّقُ فى الزيت المدخن فى حماية ذراعها المرفوعة. حدقت فى رجكومار بتوجس. "ماذا تريد؟"

قاطعتْه بمجرد بدء الحديث عن القارب والإصلاحات وحاجته لعمل عدة أسابيع. صرختْ بأعلى صوتٍ وعيناها مغلقتان: "ماذا تعتقد- هل لدى أعمال تحت إبطى، ألتقطها وأقدمها لك؟ هرب ولد فى الأسبوع الماضى بإناءين. من يضمن لى أنك لن تفعل الشىء نفسه؟" وهلم جرا.

فهم رجكومار أن هذه الثورة ليست موجهة إليه مباشرة: موجهة إلى الغبار والزيت الذى يطش وأسعار الخضراوات أكثر مما كانت موجهة إلى وجوده أو إلى كلمة مما تفوه به. خفض عينيه ووقف فى جَلَد، حتى هدأت الزوبعة.

توقفتْ، لاهثة، وتفحصته. نطقت أخيراً، وهى تجفف عرق جبهتها بكم أينجيها(١١) المصبوغ بالعرق: "من أبواك؟"

"ليس لى أب أو أم. ماتا."

اعتقدت أن الأمر انتهى، وقالت وهى تعضُّ شفتها: "طيب، اعملْ، لكن تذكَّرْ أنك لن تحصل إلا على ثلاث وجبات ومكان تنام فيه."

ابتسم. "ذلك كل ما أحتاج إليه."

كان فى كشك ما شو طاولتان تحت دعائم كوخ جدرانه من البامبو. كانت تطبخ وهى تجلس على مقعد صغير قرب نار متوهجة. إضافة إلى قلى البايا جاو، تعدُّ أيضاً المكرونة والحساء. كانت مهمة رجكومار توصيل أطباق المكرونة والحساء للزبائن. وفى لحظات أخرى ينظف الأوانى، ويعتنى بالنيران ويقطع الخضراوات فى إناء الحساء. لم تثق ما شو فيه فى إعداد السمك أو اللحمة وكانت تتولى أمرهما بنفسها بِدَا(١٢) حاميةٍ بذراع قصيرة. كان يغسل الأطباق فى المساء، ويحمل جردل الأوانى إلى خندق الحصن.

كان بين كشك ما شو والخندق طريق واسع مغبَّر يحيط بالحصن من كل جهة، مكوِّنًا ميدانًا هائلا. لم يكن على رجكومار إلا عبور هذه الساحة المفتوحة ليصل إلى

الخندق. كان أمام كشك ما شو مباشرة جسر يؤدى إلى مدخل أصغر للحصن، البوابة الجنائزية. كان ينظف الحوض تحت الجسر بإزاحة أكوام اللوتس التى تغطى سطح الماء. صار المكان بقعته: يغسل هناك ويستحم- تحت الجسر، حيث ألواح الخشب سقفه وملاذه.

كانت جدران الحصن على الجانب الآخر من الجسر. وكل ما يمكن رؤيته فى الداخل برج بتسعة أسقف ينتهى بمظلة متألقة مذهبة – الهتى(١٣) الذهبى العظيم لملوك بورما. وتحت البرج غرفة العرش فى القصر، حيث يحكم ثيبو، ملك بورما، مع زوجته الرئيسية، الملكة سوبايالات(١٤).

كان رجكومار فضوليًا تجاه للقصر، لكنه يعرف أن تخومه أرض محرَّمة على أمثاله. سأل ما شو ذات يوم: "هل دخلْتِه؟ أقصد الحصن؟"

أومأت ما شو باهتمام: "ثلاث مرات، على الأقل."

"كيف يبدو من الداخل؟"

"إنه ضخم جداً، أضخم مما يبدو بكثير. مدينة مستقلة، فيه طرق طويلة وقنوات وحدائق. فى البداية تجد منازل المسئولين والنبلاء. وبعد ذلك تجد نفسك أمام حاجز من أعمدة من خشب الساج. بعد أجنحة العائلة الملكية وخدمها – مئات ومئات من الغرف، بقوائم مذهَّبة وأرضيات مصقولة. وفى المنتصف تماماً بهوٌ فسيحٌ يشبه ممراً عظيماً من النور، بجدرانه الكريستال البرَّاقة وسقوفه المرصعة بالمرايا. يسميه الناس القصر الزجاجى."

"هل غادر الملك الحصن فى يوم من الأيام؟"

"لم يغادره أبداً فى السنوات السبع الأخيرة. لكن الملكة وخادماتها يسرن أحيانا بجوار الأسوار. ويقول من رأوهن إن خادماتها أجمل نساء الأرض."

"مَن أولئك الخادمات؟"

"فتيات صغيرات، يتيمات، معظمهن مجرد أطفال. يُقال إنهن جُلِبْن إلى القصر من الجبال البعيدة. تبنتْهُنَّ الملكة وربتهن ويعملن وصيفات لها. يُقال إنها لا تثق إلا فيهن لخدمتها هي وأطفالها."

قال رجكومار: "متى تذهب الفتيات إلى أعمدة البوابات. كيف يلمحهن؟"

لمعتْ عيناه، وبدا على وجهه توق شديد. سخرتْ ما شو منه: "لماذا، هل تفكر فى الدخول إلى هناك، أيها الهندى الأحمق، أنت الكالا الأسود كالفحم؟ سيعرفونك من على بعد ميل ويقطعون رأسك."

فى تلك الليلة تطلَّع رجكومار ،وهو منبطح على حصيرته، فى الفجوة بين قدميه ورأى الهتى المذهَّب الذى يميز القصر: يبرق مثل منارة فى ضوء القمر. بصرف النظر عما تفوهت به ما شو، قرر عبور الخندق – قبل مغادرة مندالى، سيجد طريقة للدخول.

***

كانت ما شو تسكن فوق الكشك فى غرفة بجدران من البامبو، مرفوعة على دعامات؛ وكان يصل الغرفة بالكشك سلَّمٌ من قطع رديئة من الخشب. قضى رجكومار لياليه تحت مسكن ما شو، بين الدعامات، فى الفراغ الذى يجلس فيه الزبائن فى النهار. كانت أرضية ماشو من ألواح خشبية رديئة غير متناسقة. وكان رجكومار يرى ما شو بوضوح من شقوق الأرضية حين تشعل لمبتها لتغير ملابسها. يستلقى على ظهره، وأصابعه معقودة خلف رأسه، ينظر إلى أعلى ولا تطرف له عين وهى تفك الإينجى المعقود دون إحكام حول ثدييها.

كانت ما شو فى النهار امرأة منهكة وسليطة بعنف، تنتقل بسرعة من مهمة إلى أخرى، وتصرخ بحدَّةٍ فى كل مَنْ فى طريقها. وفى الليل، حين ينتهى عمل النهار، يصيب حركاتها وهنٌ. تكور ثدييها وتكشفهما؛ تهوِّى على نفسها بيديها؛ تتهادى أصابعها فى شق صدرها، إلى نتوء بطنها، إلى ساقيها ووركيها. ورجكومار يشاهدها من أسفل تتسحب يده ببطء تحت عقدة لنجيه، حتى عانته.

ذات ليلة استيقظ رجكومار فجأة على صوت صرير منتظم فى الألواح فوقه، مع أنين ولهاث وتنفس سريع. لكن مَنْ معها؟ لم يرَ أحداً يدخل.

فى الصباح التالى، رأى رجكومار رجلا ضئيل الجسم، بنظارة، يشبه البومة، ينزل السلم الذى يؤدى إلى غرفة ما شو. كان الغريب يرتدى ملابس أوروبية: قميصًا وبنطلونًا وقبعةً رقيقة. رفع الغريب قبعته بطريقة رسمية وفحص رجكومار بنظرة وقورة متأنية. قال: "كيف حالك؟ كيسا هى؟ سب كوشه ثيك ثاك؟"(١٥)

فهم رجكومار الكلمات بدقة- كانت ما يُتوقَّع من هندىٍّ- لكن فمه ظلَّ مفتوحًا فى دهشة. منذ أتى إلى مندالى قابل أنواعًا كثيرة ومختلفة من الناس، لكن هذا الغريب لا ينتمى لأى منها. ملابسه أوروبية ويبدو أنه يعرف الهندوستانية(١٦) - إلا أن ملامح وجهه لم تكن ملامح رجل أبيض أو هندى. بدا صينيًا فى الحقيقة.

ابتسم أمام ذهول رجكومار، رفع قبعته مرةً أخرى قبل أن يختفى فى البازار.

سأل رجكومار ما شو حين نزلت السلم: "مَنْ هذا؟"

أزعجها السؤال بوضوح، رمقته بنظرة تبين منها أنها تفضل ألا تردَّ. لكن فضول رجكومار ازداد، وأصرَّ: "مَن هذا، ما شو؟ أخبرينى."

"هذا..." بدأتْ ما شو تتكلم باندفاعات انفجارية قصيرة كأن الكلمات تأتى من اضطراب عنيف فى بطنها. "إنه... معلِّمى... ساياجى(١٧)."

"معلمكِ؟"

"نعم... يعلمنى... على معرفة بأمور كثيرة..."

"أية أمور؟"

"لا تبالِ."

"أين تعلم الهندوستانية؟"

"فى الخارج، لكن ليس فى الهند... إنه من مكان ما فى الملايو. من ملقا[١٨] على ما أعتقد. اسأله."

"ما اسمه؟"

"لا يهمُّ. ستناديه سايا، مثلما أناديه."

"سايا فقط؟"

تحولتْ عنه فى غضب: "سايا جون. هذا ما نناديه به جميعًا. إذا أردْتَ معرفة المزيد فاسأله بنفسك."

مدَّتْ يدها فى نار الطبخ الباردة، سحبت حفنة رماد وألقتْها على رجكومار: "مَنْ قال إنك يمكن أن تجلس وتتكلم طول الصباح، أيها الكالا الأبله؟ انشغلْ بعملك."

لم يظهر سايا جون فى تلك الليلة أو الليلة التالية.

قال رجكومار: "ما شو، ماذا حدث لمعلِّمكِ؟ لماذا لم يأتِ ثانيةً؟"

كانت ما شو تجلس قرب نيرانها، تقلى بايا جاو. قالت باختصار وهى تحدِّق فى الزيت الساخن: "سافرَ."

"أين؟"

"فى الأدغال..."

"الأدغال؟ لماذا؟"

"إنه مقاول. يقدم إمدادات لمعسكرات الساج. يغيب معظم الوقت." سقطت المغرفة فجأة من قبضتها ووارتْ وجهها بيديها.

بتردد اقترب رجكومار منها: "لماذا تبكين، ما شو؟" مرر يده على رأسها فى إيماءة خرقاء على التعاطف: "هل تريدين الزواج منه؟"

بحث عن ثنايا لُنْجيه الرث ومسح دموعها بالثوب المنتفخ: "ماتتْ زوجته منذ عام أو اثنين. كانت صينية، من سنغافورة. له ابن، ولد صغير. يقول إنه لن يتزوج مرة أخرى أبدًا."

"قد يغير رأيه."

أزاحتْه بعيدًا فى إحدى إيماءات غضبها: "لا تفهم، أنت كالا غبى. إنه مسيحى. كلما أتى لزيارتى، ذهب إلى كنيسته ليصلى ويطلب الغفران. هل تعتقد أنى أريد الزواج من رجل مثله؟" التقطتْ مغرفتها من الأرض وضربته بها: "عد الآن إلى عملك وإلا قليتُ وجهك الأسود فى الزيت الساخن..."

بعد عدة أيام عاد سايا جون. مرة أخرى حيا رجكومار بهندوستانية مكسرة: "كيسا هى؟ سب كوشه ثيك ثاك؟"

قدم له رجكومار سلطانية مكرونة ووقف يشاهده وهو يأكل. وأخيرًا سأل بالبورمية: "سايا، كيف تعلمْتَ لغةً هندية؟"

تطلع سايا جون إليه وابتسم. قال: "تعلمتُها وأنا طفل، لأنى مثلك، يتيم، لقيط. تربيتُ على أيدى كهنة كاثوليك فى بلدة تدعى ملقا. كانوا من كل مكان – البرتغال

وماكو وجوا[١٩]. منحوني اسمي- جون مارتينز، ولم يكن كذلك. اعتادوا أن ينادوني جواو[٢٠]، لكني غيرته فيما بعد إلى جون. كان أولئك الكهنة يتحدثون لغات عديدة، ومن الجوبين تعلمت كلمات هندية قليلة. وحين بلغتُ سن العمل ذهبتُ إلى سنغافورة، حيث عملتُ لبعض الوقت عامل ارتباط في مستشفى عسكري. كان معظم الجنود من الهنود، وكانوا يسألونني هذا السؤال نفسه: كيف تتكلم لغتنا، مع أنك تبدو صينيًا وتحمل اسمًا مسيحيًا؟ وحين حكيتُ لهم كيف حدث ذلك، ضحكوا وقالوا، أنت دُهْبى كا كوتًا - كلبُ غسَّالٍ - نا جهار كا نا جهات كا[٢١] - لا تنتمي لأي مكان، على الماء أو الأرض، وقلتُ نعم، هذا هو أنا بالضبط." ضحك بصخب مُعْدٍ، وشاركه رجكومار.

ذات يوم جاء سايا جو بابنه إلى الكشك. اسم الولد ماثيو[٢٢]، في السابعة، طفل وسيمٌ بعينين براقتين وبوادر قدرة مبكرة في السيطرةِ على الذات. وصل للتو من سنغافورة، حيث يعيش مع عائلة أمه ويدرس في مدرسة تبشيرية شهيرة. كان سايا جون يرتب له زيارتين في العام إلى بورما لقضاء أجازة.

بداية المساء، وقت يزدحم الكشك فيه، ولكن ما شو قررت إغلاقه ذلك اليوم على شرف ضيفيها. سحبتْ رجكومار جانبًا، وطلبتْ منه أن يفسِّح ماثيو، لساعة فقط أو نحو ذلك. كان في الناحية الأخرى من الحصن بوي[٢٣]؛ قد يستمتع الولد بما يدور في الساحة.

"وتذكَّرْ"- وهنا ارتبكتْ إيماءاتها بعنف - "لا تنطقْ بكلمة عن..."

ابتسم لها رجكومار ابتسامة بريئة: "لا تقلقي، لا أنطق بكلمة عن دروسك."

"كالا غبي." أمطرته بقبضتيها بوابل من الضربات على ظهره: "اخرجْ - اخرجْ من هنا."

ارتدى رجكومار لُنْجيه السليم ولبس الصدرة البنِّية[٢٤] المتهرئة التي أعطتها له ما شو. دفع سايا جون بعض العملات في كفه. "اشترِ شيئًا- لكما، استمتعا."

فى الطريق إلى البوى، شاهدا بائع بندق. كان ماثيو جائعًا وألحَّ على رجكومار لشراء حفنتين من البندق. ذهبا وجلسا قرب الخندق ودليا أقدامهما فى الماء ناشرين البندق حولهما فى الأوراق الجافة التى كان ملفوفًا فيها.

أخرج ماثيو من جيبه ورقة عليها صورة- لعربة بثلاث عجلات إطاراتها من السلك، عجلتان كبيرتان فى المؤخرة وعجلة صغيرة فى المقدمة. حدق رجكومار فيها، مقطِّبًا: بدا أنها عربة خفيفة، لكن لم يكن هناك موضع لتعليق حصان أو ثور.

"ما هذا؟"

"عربة بمحرك." وأشار ماثيو للتفاصيل - محرك احتراق داخلى صغير، عمود كَرَنْك عمودى، عجلة اتزان أفقى. وبيَّن أن الآلة يمكن أن تولِّد طاقة مثل حصان تقريباً، وتسير بسرعة تصل إلى ثمانية أميال فى الساعة. كشف النقاب عنها كارل بِنْز[٢٥]، فى تلك السنة، ١٨٨٥، فى ألمانيا.

قال ماثيو بهدوء: "ذات يوم، سيكون عندى واحدة منها." لم تكن نبرته متبجحة ولم يشكَّ رجكومار فيه لحظة. تأثر بشدة لأن طفلا فى هذا العمر يعرف ما يريد بهذه البراعة فى موضوع بتلك الغرابة.

ثم قال ماثيو: "كيف جئت إلى هنا، إلى مندالى؟"

"كنتُ أعمل على مركب، سمبان، كالذى تراه فى النهر."

"وأين أبواك؟ عائلتك؟"

"ليس لى أبوان." توقف رجكومار. "فقدتُهما."

كسر ماثيو بندقة بين أسنانه. "كيف؟"

"كانت هناك حمَّى، مرض. مات فى بلدتنا، أكاب[٢٦]، كثير من الناس."

"لكنك عشْتَ؟"

"نعم. مرضْتُ، لكنى عشْتُ. أنا الوحيد الذى تبقى من عائلتى. كان لى أب وأخت وأخ..."

"وأم؟"

"وأم."

ماتت أم رجكومار على سمبان انحرف فى مصب نهر مغطى بالقرام(٢٧). يتذكر مطبخ المركب الذى يشبه النفق وسطحه المصنوع من خيزران وقش؛ كانت قرب رأس أمه لمبة زيت، على أحد الألواح المتعارضة فى السفينة. كانت حولها هالة من حشرات الليل، جعلتْ لهبها الأصفر المترنح شاحبًا. كان الليل ساكنًا ومكتومًا، وأشجار القرام وجذورها التى تقطر ماء تقاوم النسيم بصلابة مثبتة المركب بين الضفاف العميقة والوحل. ساد القلق فى الظلام الرطب حول المركب. من وقت لآخر، سمع ارتطام أكياس البذور تندفع فى الماء وصوت انزلاق السمك ينشط فى الوحل. كان الجو حارًا فى مطبخ السمبان الذى يشبه الجحر، وأمه ترتجف. طاف رجكومار بالقارب، وغطاها بكل ما وجد من ملابس.

عرف رجكومار الحمى جيداً. جاءت إلى منزلهم عن طريق أبيه، وكان يعمل يوميًا فى مستودع قرب الميناء. كان رجلا هادئًا، عمل طوال حياته دوباش ومُنشى(٢٨) - مترجمًا وكاتبًا - لمجموعة من التجار على طول الساحل الشرقى لخليج البنغال. كان بيت أسرته فى ميناء شيتاجُنْج، لكن أباه تشاجر مع أقاربه ورحل بأسرته، تنقل ببطء عبر الساحل، باع معرفته بالأرقام واللغات، واستقرَّ فى النهاية فى أكاب، الميناء الرئيسى فى أرَكان - امتداد الشاطئ نتيجة المد حيث تتصادم بورما والبنغال فى دوامة من المشاكل. بقى هناك حوالى اثنتى عشرة سنة، وأنجب ثلاثة أطفال- أكبرهم رجكومار. كان بيتهم على خليج صغير تفوح منه رائحة السمك المجفف. واسم عائلتهم

رها[٢٩]، وحين سأل جيرانهم عنهم وعن المكان الذى أتوا منه، قالوا إنهم هندوس من شيتاجُنج. هذا كل ما كان يعرف رجكومار عن ماضى أسرته.

كان رجكومار المريض التالى، بعد أبيه. أفاق ليجد نفسه وقد شفى فى البحر مع أمه. كانا فى طريق العودة للموطن الأصلى فى شيتاجُنْج، كما أخبرتْه، ولم يعد هناك سواهما- هلك الآخرون.

كان الإبحار بطيئًا لأن التيارات ضدهم. ناضل السَّمْبان المبحر بثبات وملاحوه الخلاسيون[٣٠] لشق طريقهم إلى الساحل، بمحاذاة الشاطئ. استعاد رجكومار صحته بسرعة، وجاء دور أمه فى المرض. بدأتْ ترتجف وهما على بعد يومين فقط من شيتاجُنْج. كان الشاطئ مزدحمًا بغابات القرام؛ وذات مساء دفع المالك السَّمْبان فى رافد واستقرَّ هناك ينتظر.

غطَّى رجكومار أمه بكل سارى وجده فى صرة ملابسها، ولنجيات استعارها من البحارة، حتى الشراع المطوى. لكنه لم يكد ينتهى حتى بدأتْ أسنانها تصطك من جديد، برفق، مثل زهر الطاولة. نادتْه إلى جانبها، مشيرة بالسبابة. حين اقترب بأذنه من شفتيها، شعر بجسمها متوهجًا مثل فحم متَّقدٍ على وجنته.

أرتْه عقدةً فى طرف ساريها، ملفوفًا فيها خلخالٌ من الذهب. أخرجتْه وأعطته له وطلبتْ أن يخبئه فى عقدة الخصر فى سارُنْجه[٣١]. أخبرته أن النَّاخوده[٣٢]، مالك الزورق، رجل عجوز جدير بالثقة؛ وطلبتْ من رجكومار أن يعطيه الخلخال حين يصلوا إلى شيتاجُنْج - حينها فقط وليس قبل ذلك.

طوتْ أصابعه حول الخلخال؛ كان ساخنًا من الحرارة الشديدة المنبعثة من جسمها، وبدا أن المعدن ينطبع فى راحته. همستْ: "ابقَ حيًّا، بِشى ثاكو[٣٣]، رجكومار. عشْ يا أميرى؛ حافظ على حياتك."

حين تلاشى صوتها سمع رجكومار فجأة الخفقان الخافت لسمك السلور(٣٤) يحفر فى الوحل. تطلع ليرى مالك الزورق، النَّاخوده، يقبع فى مقدمة السَّمْبان، ينفث دخان نارجيلته المصنوعة من قشور جوز الهند، ويعبث بأصابعه فى لحيته البيضاء الخفيفة. احتشد رجال طاقمه حوله يشاهدون رجكومار وهم يعانقون ركبهم القوية المثنية. لم يعرف الولد إن كان ما يكمن خلف خواء عيونهم شفقة أم نفاد صبر.

لم يكن يملك إلا الخلخال: كانت أمه تنتظر منه أن يستخدمه لدفع مصاريف عودته إلى شيتاجُنْج. لكن أمه ماتتْ فلماذا يعود إلى مكان هجره أبوه؟ لا، الأفضل أن يعقد اتفاقًا مع الناخوده. أخذ رجكومار الرجل العجوز جانبًا وطلب ضمه للطاقم، وعرض الخلخال هدية لتعلم المهنة.

تفحصه الرجل العجوز. كان الولد قويًا مفعمًا بالإرادة ، وقد نجا من حمى قاتلة قضت على كثير من سكان بلدات الساحل وقراه. وهذا وحده ينمُّ عن خصائص جسدية وروحية مفيدة. أومأ للولد وأخذ الخلخال – نعم، ابقَ.

فى الفجر توقف السَّمْبان عند حاجز رملى وساعد الطاقمُ رجكومار فى بناء محرقة أمه. ارتجفت يدا رجكومار وهو يضع النار فى فمها. هو، وكان غنيًا بعائلته، صار وحيداً، يتعلم مهنة خلاسى مقابل ميراثه. لكنه لم يخفْ لحظةً. كان فى أسى– لأنهم تركوه بهذه السرعة، مبكِّرًا جداً، بدون أن يذوق الثراء أو المكافآت التى عرفها، التى كانت ستئول له ذات يوم، بكل تأكيد.

***

مضى وقت طويل لم يتكلم رجكومار عن أسرته. لم يُناقَش هذا الموضوع بين زملائه البحَّارة إلا نادراً. كثير منهم من عائلات سقطتْ ضحايا لكوارثَ زارت ذلك الامتداد الساحلى كثيراً. فضلوا عدم الخوض فى هذه الأشياء. غريب أن يجعله هذا

الطفل، ماثيو، بكلامه البارع وسلوكه المهذب، يتكلم بحرية. لا حيلة لرجكومار فى أن يتأثر. فى طريق العودة إلى ما شو، وضع ذراعه على كتفى الولد. "كم تبقى هنا؟"

"أرحل غداً."

"غداً؟ لكنك وصلْتَ للتو."

"أعرف. كان يجب أن أبقى أسبوعين، لكن أبى يعتقد أنه ستحدث مشكلة."

بحلق فيه رجكومار: "مشكلة! أية مشكلة؟"

"يستعد الإنجليز لإرسال أسطول إلى إرَّاوَدِّى. ستنشب حرب. يقول أبى إنهم يريدون كل خشب الساج فى بورما. لن يتركهم الملك يأخذونه، لذا سيطيحون به."

انفجر رجكومار فى الضحك: "حرب على الخشب؟ من سمع شيئًا كهذا؟" خبط رأس ماثيو بخفة غير مصدق: كان الولد طفلا، رغم كل شىء، رغم أساليبه الناضجة ومعرفته بأمور غريبة؛ ربما رأى حلمًا مزعجًا فى الليلة الماضية.

لكن ثبت أنها أول مناسبة، من مناسبات كثيرة، ظهر فيها ماثيو أكثر وعيًا وبصيرة من رجكومار. بعد يومين اجتاحت إشاعات الحرب المدينة كلها. خرجتْ من الحصن قوات كبيرة نزلتْ إلى النهر، باتجاه معسكر ماينجان(٢٥). عمَّ الصخبُ البازار؛ أفرغت بائعات السمك بضائعهن فى أكوام الزبالة وهرولن إلى بيوتهن. جاء سايا جون أشعث يعدو إلى كشك ما شو، وفى يديه ورقة. أعلن: "بيان ملكى، صادر بتوقيع الملك."

صمتَ كل من فى الكشك حين بدأ يقرأ:

إلى كل رعايا الملك وسكان الإمبراطورية الملكية: وضع هؤلاء الزنادقة، الكالا الإنجليز الهمج، أفظع الخطط لإفساد ديننا

وتدميره، وانتهاك عاداتنا وتقاليدنا وإذلال جنسنا، يقومون باستعراض واستعداد كأنهم على وشك شنٍّ حرب على بلادنا. تم الرد عليهم طبقًا للاتفاقيات مع الأمم الكبرى وبكلمات مشروعة وقانونية. وإذا، جاء هؤلاء الغرباء الزنادقة، رغم ذلك، وحاولوا التحرش بأية طريقة ببلادنا أو إثارة الاضطراب فيها، فإن جلالته حريص على ألا يتعرض ديننا وبلادنا للخطر، سينطلق بنفسه مع جنرالاته، والرواد والضباط مع قوات كبيرة من المشاة وسلاح المدفعية والأفيال والفرسان، فى البر والبحر، وبقوة جيشه يمحو هؤلاء الزنادقة ويفتح بلادهم ويستولى عليها. لنعلى من ديننا، لنعلى من شرفنا القومى، لنعلى من شئون بلادنا، سيعود علينا ذلك بمصلحة ثلاثية الأبعاد – مصلحة ديننا ومصلحة سيدنا ومصلحة أنفسنا – ونكسب النتيجة المهمة بوضعنا على طريق السماوات والنيرفانا.

رفع سايا جون وجهه، وقال: "كلمات جريئة. لنرَ ما يحدث بعد ذلك."

بعد هلع البداية، هدأتْ الشوارع بسرعة. فُتِح البازار من جديد، وعادتْ بائعات السمك يفتشن فى أكوام الزبالة عن بضائعهن المفقودة. وفى الأيام القليلة التالية مضى الناس إلى أعمالهم كالمعتاد. وكان أبرز تغيير اختفاء وجوه الأجانب من الشوارع. لم يكن عدد الأجانب الذين يعيشون فى مندالى قليلاً– كان فيها مبعوثون ومبشرون من أوروبا؛ باعة وتجار من أصول يونانية وأرمينية وصينية وهندية؛ عمال وبحَّارة من البنغال والملايو وساحل كورومندل؛ ومنجمون بملابس بيضاء من مَنيبور؛ ورجال أعمال من جوجارات[٣٦] – تشكيلة من الناس لم يرها رجكومار أبدًا قبل الذهاب إلى هناك.

اختفى هؤلاء الغرباء فجأة. أُشيع أن الأوروبيين غادروا عبر النهر وتحصن الآخرون فى منازلهم.

بعد أيام قليلة أصدر القصر بيانًا آخر، بيانًا مبهجًا هذه المرة: أُعلِن أن القوات الملكية ألحقت بالمعتدين هزيمة كبيرة قرب حصن منهلا(٣٧). رُدَّت القوات الإنجليزية على أعقابها وفرَّتْ عبر الحدود. نزلت بارجة ملكية إلى النهر، تحمل أوسمة للجنود والضباط. وأقيم احتفال شكر فى القصر.

عمَّت الشوارع صيحاتُ مرحٍ، وانقشعتْ سريعًا سحابة القلق التى سيطرت على المدينة فى آخر بضعة أيام. شعر الجميع بارتياح لأن كل شىء عاد بسرعة إلى طبيعته: عادت حشود المتسوقين والباعة وازدحم كشك ما شو أكثر من قبل.

وذات مساء مر رجكومار، وهى يسرع إلى البازار لاستكمال مخزون ما شو من السمك، بالوجه الأليف ذى اللحية البيضاء لمالك المركب، الناخوده.

سأل رجكومار: "هل مركبنا على وشك الإقلاع؟ الآن انتهت الحرب؟"

ابتسم الرجل العجوز ابتسامة مبهمة من شفتين مضمومتين: "لم تنتهِ الحرب. ليس بعد."

"لكنا سمعنا..."

"ما نسمعه فى المناطق الساحلية يختلف تمامًا عما يقال فى المدينة."

سأل رجكومار: "ماذا سمعتم؟"

خفض الناخوده صوته، مع أنهما كانا يستخدمان لهجتما الخاصة، وأجاب: "سيكون الإنجليز هنا خلال يوم أو يومين. رآهم الملاحون. إنهم قادمون بأسطول كبير، لم يبحر مثله أبدًا فى نهر. لديهم مدفع يمكن أن يدك الجدران الصخرية لحصن؛ لديهم مراكب سريعة يمكن أن تجتاز ارتفاع المد؛ بنادقهم يمكن أن تنطلق أسرع مما تتكلم.

آتون مـثل المد: لا شيء يمكن أن يقف في طريقـهم. سـمـعنا اليـوم أن سـفنـهم أخـذت مواقع حول ماينجان. ربما تسمع صوت النيران غداً..."

كـما هو مـتـوقع، أتى في الصـبـاح التـالي صـوتٌ هادرٌ من بعـيد، يتدحـرج عبـر السهل، قاطعًا الطريق بطوله إلى كشك طعام ما شو قرب الجدار الغربي للحصن. كان السوق يعجُّ بالناس حين بدأ دوي إطلاق النيران. جاءت الفلاحات من ضواحي المدينة مبكِّرًا وفرشن حصيرهن في صفوف، ورصصن خضارواتهن في حزم صغيرة ببراعة. وقف الصيادون أيضًا بما اصطادوا من أسماك النهر في الليل. في ساعة أو ساعتين ستذبل الخضراوات وتبدأ عيون الأسماك تسودُّ. لكن كان كل شيء ناضرًا وطازجًا.

لم يُحدثْ دوي الطلقات الأولى من البنادق إلا توقفًا قصيرًا في حركة البيع في الصباح. تطلع الناس إلى السماء الصافية الزرقاء في حيرة وترك أصحاب المحلات بضائعهم ليتساءلوا. بذلت ما شو ورجكومار مجهودًا مضنيًا في العمل منذ الفجر. وكما هو الحال دائمًا في برودة الصباح، توقف عدد كبير لتناول شيء بسيط قبل العودة إلى بيوتهم. وفي ذلك الوقت قطع سكون وقت تناول الطعام دَويٌّ مفاجئ. تطلع الناس إلى بعضهم في قلق: ما هذه الجلبة؟

كـان هذا حـين تدخل رجكومـار قـائلاً: "مـدفع إنجليـزي، يصـوبون في هـــذا الاتجاه."

عوت ما شو منزعجة: "كيف تعرف حقيقة ما يحدث، أيها الولد الأحمق؟"

أجاب رجكومار: "رآهم الملاحون. يأتي أسطول إنجليزي كامل من هذا الطريق."

كان لدى ما شو ملء غرفة من الناس لتناول الطعام وكانت في حالة مزاجية لا تجعلها تسمح لمساعدها الوحيد بالانشغال بجلبة بعيدة.

قالت: "كف عن هذا الآن. عُدْ للعمل."

اشتدَّ إطلاق النيران عن بعد، رجَّ الآنية على الطاولتين. توجس الزبائن خيفة. فى المحل المجاور أسقط عامل كيسًا من الأرز، وتبعثرت الحبوب المسكوية كبقعة بيضاء على الطريق المغبَّر والناس يتدافعون للهروب. نظف أصحاب المحلات طاولاتهم، ووضعوا بضائعهم فى أجولة؛ وأفرغت الفلاحات سلالهن فى أكوام الزبالة.

وقف زبائن ما شو فجأة، طرقوا على أوانيهم وأبعدوا الطاولتين. فى فزع، التفتتْ ما شو إلى رجكومار: "ألمْ أقُلْ لك اهدأْ، أيها الكالا الغبى؟ انظرْ، سبَّبْتَ الهلع لزبائنى."

"ليستْ غلطتى..."

"غلطة مَنْ إذن؟ ماذا أفعل بكل هذا الطعام؟ ماذا يحدث للسمك الذى اشتريتُه أمس؟" انهارتْ ما شو على مقعدها.

كانت الكلاب تتصارع خلفهما، فى السوق الذى خلا، على بقايا اللحم المتروك، ملتفة فى حلقات حول أكوام الزبالة.

هوامش

(١) نهر إراودى Irrawaddy: (أو أياروى Ayeyarwady) يتدفق من شمال بورما (ميانمار). وهو أكبر أنهارها ويبلغ طوله حوالى ١٣٥٠ ميلاً (٢١٧٠ كم) وهو من أهم الطرق التجارية.

(٢) مندالى Mandalay: مدينة فى وسط بورما على نهر إراودى شمال رنجون. كانت عاصمة مملكة بورما من ١٨٦٠–١٨٨٥، حين استولى عليها البريطانيون، تعرضت لدمار هائل أثناء الحرب العالمية الثانية.

(٣) رَجْكومار: Rajkumar، والاسم مشتق من كلمة راجا rajah أو raja، وتعنى أميراً هندياً أو ملكاً.

(٤) با لى: Ba le.

(٥) كالا Kalaa: لقب كان البورميون يصفون به الهنودَ المقيمين فيها.

(٦) لُنْجِى (الجمع لنجيات) longyi: ثوب يخاط على شكل أسطوانى، يُلبس حول الخصر وينزل إلى القدمين، ينتشر فى بورما، وتوجد ثياب مماثلة له فى عدد من البلاد الآسيوية.

(٧) سَمْبان sampan: مركب آسيوى صغير مسطح بمجدافين.

(٨) ما شو: Ma Cho.

(٩) شيتاجُنْج Chittagong: مدينة تقع جنوب شرق بنجلاديش بالقرب من خليج البنغال. وهى ميناء كبير ومركز صناعى. باسين Bassein: عاصمة مقاطعة أياروى، بورما. تقع على الحافة الغربية لدلتا نهر إراودى، على نهر باثين، على مسافة ١١٨ ميلاً غرب رنجون.

(١٠) بايا جاو baya-gyaw: فطيرة البسلة الصفراء بالتوابل، تقدم كمشهيات أو وجبة خفيفة مع الشاى أو القهوة .

(١١) أينجى aingyi: نوع من البلوزات.

(١٢) دا da (الجمع دات das): نوع من السكاكين.

(١٣) هتى: hti.

(١٤) ثيبو Thebaw: آخر ملوك بورما. سوپايالات Supayalat: زوجة ثيبو ورفيقته فى منفاه.

(١٥) كيسا هى؟ سب كوشه ثيك ثاك؟ :Kaisa hai? Sub kuchh theek-thaak?

(١٦) الهندوستانية Hindustani: مجموعة من اللهجات الهندية تشمل الهندية والأوردو.

(١٧) ساياجى Sayagyi: اسمه سايا جون Saya John، جى تضاف للتبجيل؛ أو جون مارتينز John Martins.

(١٨) الملايو Malaya: شبه جزيرة فى جنوب شرق آسيا تضم جنوب غرب تايلاند وغرب ماليزيا وجزيرة سنغافورة. ملقا Malacca: بلدة صغيرة فى غرب ماليزيا (تأتى كلمة ملقا فى مواضع أخرى من الرواية بمعنى ساق نخيل الخيزران الهندى، ومنه تصنع العصى وأيدى الشمسيات).

(١٩) ماكو Macao أو Macau: مقاطعة تابعة للبرتغال تشمل شبه جزيرة ماكو وجزيرتين فى بحر الصين الجنوبى غرب هونج كونج. جوا Goa: مقاطعة على الساحل الغربى للهند. والجويون: Goans نسبة إلى جوا.

(٢٠) جواو: Joâo.

(٢١) دُهْبى كا كوتًا: a dhobi ka kutta؛ نا جهار كا نا جهات كا: na ghar ka na ghat ka.

(٢٢) ماثيو: Matthew.

(٢٣) بوى: pwe.

(٢٤) بِنِّى: pinni.

(٢٥) كارل بِنْز Karl Benz (١٨٤٤ – ١٩٢٩): رائد ألمانى فى مجال صناعة السيارات، صنَّع أول سيارة تسير بمحرك احتراق داخلى، وسجلت براءة الاختراع عام ١٨٨٦ .

(٢٦) أكاب Akyab: مدينة ساحلية غرب بورما، كانت الميناء الرئيسى فى أرَكان Arakan وهى منطقة ساحلية فى جنوب غرب بورما على خليج البنغال..

(٢٧) القرام أو المنجروف mangrove: شجر استوائى تنبثق من أغصانه جذور جديدة، ينمو على الشواطئ.

(٢٨) دوباش: dubash. مُنشى: munshi.

(٢٩) رها: Raha.

(٣٠) الخلاسى khalasi: الخادم أو العامل من أصل هندى، وخاصة البحَّار(هندى).

(٣١) سارُنْج sarong: جيبة تلف حول الخصر، يرتديها الرجال والنساء فى ماليزيا وإندونيسيا وجزر المحيط الهادى.

(٣٢) ناخوده: nakhoda.

(٣٣) بِشى ثاكو: Beche thako.

(٣٤) سمك السلور catfish : نوع من السمك بدون قشور، يعيش فى المياه العذبة، ويتميز بشوكة تشبه شارب القطة تمتد من الفك العلوى.

(٣٥) ماينجان: Myingan.

(٣٦) كورومندل Coromandel: منطقة ساحلية جنوب شرق الهند على خليج البنغال جنوب كشمير. مَنيبور Mani-pur: ولاية شمال شرق الهند. جوجارات Gujarat: منطقة غرب الهند على بحر العرب.

(٣٧) منهلا: Minhla.

(٢)

فى القصر، على بعد أقل من ميل من كشك ماشو، كانت زوجة الملك الرئيسية، الملكة سوبايالات، تصعد سلالم شاهقة لتسمع طلقات البنادق بشكل أفضل.

كان القصر فى وسط مندالى، عميقًا فى المدينة المحاطة بالأسوار، يمتد فيه مجمع الأجنحة، والحدائق والدهاليز، تجتمع كلها حول هتى ملوك بورما، ذى الأسقف السبعة. وكان يفصل المجمع عن الشوارع المحيطة به طوق من أعمدة طويلة من الساج. وكان عند كل ركن من الأركان الأربعة للطوق عمود للحراسة، عليه حراسات من الحرس الخاص للملك. قررت الملكة سوبايالات الصعود إلى أحد تلك الأعمدة.

كانت الملكة امرأة ضئيلة الجسم، نحيلة، خزفية البشرة، صغيرة اليدين والقدمين. وجهها صغير بارز العظام، ولم يكن يشوِّه تناسق ملامحها إلا عيب بسيط فى وضع عينها اليمنى. كان خصر الملكة، الشهير بنحافته، يشبه الفتلة، ممتلئًا بالحمل الثالث، فى الشهر الثامن.

لم تكن الملكة وحدها: خلفها مباشرة عدة خادمات، يحملن ابنتيها الصغيرتين، الأميرتين الأولى والثانية، أشين هتيك سو مات فيا جاى وأشين هتيك سو مات فيا لات[1]. بسبب الحمل المتقدم قلقت الملكة على مكان الطفلتين. وفى الأيام الأخيرة لم تسمح بغياب ابنتيها عن عينيها لحظة.

كانت الأميرة الأولى فى الثالثة، تشبه أباها، ثيبو، ملك بورما، شبهًا كبيراً. كانت هادئة ومطيعة، وجهها مدور وابتسامتها حاضرة. وكانت الأميرة الثانية أصغر بعامين،

لم تكن هادئة؛ كانت طفلة مختلفة تمامًا، تشبه أمها تمامًا. كانت تعانى من مغص، وتصرخ ساعات متواصلة. قد تصاب بنوبات غضب عدة مرات يوميًا. يتصلب جسمها وتغلق قبضتيها الصغيرتين؛ ويعلو صدرها ويهبط، وتفتح فمها عن آخره ولا يخرج صوت من حنجرتها. حتى المربيات ذوات الخبرة كن يفزعن حين تصاب الأميرة الصغيرة بإحدى هذه النوبات.

للتعامل مع الطفلة، أصرَّتْ الملكة على أن يكون تحت تصرفها فى كل الأوقات عدد من أخلص المرافقات– إفلين وهيمو وأُجُسْتا ونان بو[٢]. فتيات صغيرات، فى بداية المراهقة تقريبًا، يتيمات كلهن تقريبًا. اشتراهن وكلاء الملكة فى قرى صغيرة، كاشين ووا وشان[٣] على الحدود الشمالية للمملكة. البعض من عائلات مسيحية، والبعض من عائلات بوذية – وكان هذا لا يهم بمجرد أن يأتين إلى مندالى. تربَّيْنَ تحت إرشاد خدم القصر، وتحت إشراف الملكة شخصيًا.

حقَّقتْ صغرى هؤلاء الخادمات أكبر نجاح فى التعامل مع الأميرة الثانية. كانت طفلة نحيلة فى العاشرة، تدعى دلِّى، رعديدة كتومة، عيناها رائعتان وجسدها مرن كجسد راقصة وأطرافها طرية. جاءت دلِّى إلى مندالى فى سنٍّ مبكرة جدًا من بلدة لَشيو[٤] الحدودية؛ لا تتذكر شيئًا عن أبويها أو أسرتها. ويُعتَقَد أنها من الشان، لكنها مسألة حدس، اعتمادًا على نحافتها، ومظهرها الرقيق، وبشرتها الحريرية الناعمة.

فى ذلك الصباح لم تنجح دلِّى فى التعامل مع الأميرة الثانية. أقلقت البنادق الطفلة الصغيرة من نومها وأخذتْ تصرخ من حينها. وقد أصاب دلِّى، التى ترتعد بسهولة، فزع شديد. حين بدأت البنادق، غطَّتْ أذنيها وانزوت فى ركن، تصرُّ على أسنانها وتهزُّ رأسها. لكن الملكة أرسلت فى طلبها، وبعدها انشغلت دلِّى تمامًا، محاولة إلهاء الأميرة الصغيرة ولم يعدْ لديها وقت للشعور بالرعب.

لم تكن دلِّى قوية بما يكفى لأخذ الأميرة الصغيرة وصعود السلالم إلى قمة الطوق؛ كُلِّفتْ إفلين، وكانت فى السادسة عشرة وقوية بالنسبة لعمرها، بحملها. تبعت دلِّى الأخريات، وكانت آخر من وصلن إلى عمود الحراسة- منصة خشبية، حولها سياج من قضبان خشبية ثقيلة.

كان يتجمع فى ركن أربعة جنود فى ملابسهم الرسمية. أمطرتْهم الملكة بوابل من الأسئلة، لكن لا أحد منهم ردَّ ولا حتى نظر إلى عينيها. علقوا رءوسهم، واضعين أصابعهم على الخزانات الطويلة لزناد بنادقهم.

سألت الملكة: "كم تبتعد المعارك؟ ما نوع المدافع التى يستخدمونها؟"

هزَّ الجنود رءوسهم؛ كانوا لا يعرفون أكثر مما تعرف. حين بدأت الجلبة خمنوا سببها بشكل مثير. فى البداية لم يصدقوا أن ذلك الهدير من عمل الإنسان. لم تُسمعْ فى هذا الجزء من بورما بنادقُ بهذه القوة من قبل، ولم يكن من السهل تصور إطلاق النيران بسرعة إصدار خليط غير مميز من الأصوات.

رأت الملكة أنها لن تحصل على شىء من هؤلاء الرجال التعساء. أراحتْ جسمها على القضبان الخشبية لعمود الحراسة. لو كانت فقط أقل وزنًا، لو لم تكن مُرهَقة وبطيئة إلى هذا الحد.

ومن الغريب أنها فى آخر عشرة أيام، منذ عبر الإنجليز الحدود، لم تسمع إلا أخبارًا طيبة. منذ أسبوع أرسل قائد الحامية برقية يقول فيها إن الغرباء توقفوا فى منهلا، على بعد مائتى ميل من منبع النهر. احتفل القصر بالنصر، وبعث الملك بوسام للجنرال. كيف اقترب هؤلاء الغزاة بحيث يُسمَع صوت بنادقهم فى العاصمة؟

جرت الأمور بسرعة كبيرة: منذ بضعة أشهر نشب نزاع مع شركة أخشاب بريطانية- مسألة فنية تتعلق ببعض زنود(٥) خشب الساج. أخطأت الشركة؛ خرقت

لوائح الجمارك فى المملكة، وقطعت السجلات للتهرب من دفع الرسوم. فرض مسئولو الجمارك الملكية غرامة على الشركة، وطالبوا بدفع متأخرات عن خمسين ألف زند. اعترض الإنجليز ورفضوا الدفع؛ ورفعوا شكاواهم إلى الحاكم البريطانى فى رَنْجون[٦]. وتبع ذلك إنذارات مهينة. اقترح كنون منجاى[٧]، أحد كبار وزراء الملك، بتعقل أن قبول الشروط قد يكون أفضل؛ ربما يسمح البريطانيون للعائلة الملكية بالبقاء فى القصر فى مندالى بشروط مماثلة لشروط الأمراء الهنود- مثل خنازير المزرعة، بتعبير آخر، يرعاها أصحابها ويسمنونها؛ خنزير، يقيم فى زرائب زُيِّنَتْ بحلى تافهة.

قالت الملكة لكنون منجاى إن ملوك بورما ليسوا أمراء؛ إنهم ملوك، سادة، هزموا إمبراطور الصين، احتلوا تايلاند وأسام[٨] ومنيبور. وخاطرتْ هى نفسها، سوبايالات، بكل شىء لتحفظ عرش ثيبو، زوجها وابن زوج أمها. هل يمكن تخيل أن توافق على التخلى عن هذا كله الآن؟ وماذا إذا كان الذى فى بطنها ولداً (وكانت فى تلك المرة متأكدة من ذلك): كيف تبرر له أنها تنازلت عن إرثه بسبب نزاع حول بعض زنود الخشب؟ تغلبت الملكة، ورفض بلاط بورما الخضوع للإنذار البريطانى.

استمعت الملكة باهتمام، وهى تقبض على قضيب عمود الحراسة، لصوت طلقات البنادق عن بعد. تمنتْ فى البداية أن تكون البارجة فى تدريبات. كان أكثر جنرال يمكن التعويل عليه فى الجيش، هلِثين أتوينون[٩]، يتمركز فى حصن ماينجان، على مسافة ثلاثين ميلاً، بقوة من ثمانية آلاف جندى.

أمس فقط سأل الملكُ، بشكل عابر، عن سير الحرب فى الجبهة. يمكن أن تقول إنه اعتقد أن الحرب مسألة بعيدة، حملة نائية، مثل الحملات التى أُرسِلتْ إلى الشان العليا فى سنوات سابقة لتعقب قطَّاع الطرق ورجال العصابات.

قالت له: كل شىء يسير كما يجب؛ لا شىء يدعو للقلق. وكانت الحقيقة بقدر ما تعرف. التقتْ بأكبر الضباط يومياً، كنون منجاى، تنجدا منجاى[١٠]، حتى الونجيين

والوندوكوين والماوونين[11]. لا أحد منهم كان لديه ما ينمُّ عن وجود مشكلة. لكن لا شك فى صوت تلك البنادق. ماذا تقول للملك؟

***

فجأة ملأت الأصوات البهو أسفل الطوق.

ألقت دُلِّى نظرة أسفل الدرج. احتشد عشرات الجنود، يرتدون ألوان حراس القصر. لمحها أحدهم وبدأ يصيح - الملكة؟ هل الملكة فوق؟

تراجعت دُلِّى للخلف بسرعة، خارج مجال بصره. من هؤلاء الجنود؟ ماذا يريدون؟ سمعتْ وقع أقدامهم على السلالم. ومن مكان قريب صرخت الأميرة صرخات قصيرة بنفس متقطع. دفعتْ أُجُسْتا الطفلة بين يديها- هنا، دُلِّى، هنا، خذيها، لن تكفَّ. كانت الطفلة تصرخ، ضاربة بقبضتيها. وكان على دُلِّى أن تبعد وجهها لتتجنب الضربات.

صعد ضابطٌ عمودَ الحراسة؛ يمسك بسيفه المغمد فى جرابه بيديه الاثنتين، كأنه صولجان. كلم الملكة، اقترح عليها مغادرة الكابينة، والنزول إلى القصر.

التوى وجه الملكة غضبًا: "نحن سجناء إذن؟ مَن بعث بك إلى هنا؟"

قالت الضابط: "صدرت الأوامر من تنجدا مِنجاى. لسلامتكم، ميبيا[12]."

"سلامتنا؟"

امتلأ عمود الحراسة بجنود يسوقون الفتيات إلى الدرج. نظرت دُلِّى إلى أسفل: كانت السلالم شاهقة. لفَّ رأسها.

صرختْ: "لا أستطيع. لا أستطيع." كانت تعرف أنها قد تسقط. الأميرة ثقيلة جدًا عليها؛ والسلالم عالية جدًا؛ تحتاج إلى يد خالية تمسك بها لتحفظ توازنها.

"تحرَّكى."

"لا أستطيع." كانت لا تسمع صوتها من صرخات الطفلة. وقفتْ ساكنة، لا تتزحزح.

"بسرعة، بسرعة." كان خلفها جندى؛ ينخسها بمقبض سيفه البارد. شعرتْ بعينيها مترعتين بالدموع، غمرت الدموع وجهها. ألا يرون أنها قد تسقط، وتفلتْ الأميرة من قبضتها؟ لماذا لا يساعدها أحد؟

"سريعًا."

التفتتْ لتنظر فى وجه الجندى المتجهم: "لا أستطيع. الأميرة بين ذراعىَّ، وهى ثقيلة جدًا علىَّ. ألا ترى؟" لم يسمعْها أحد من عويل الأميرة.

"ما مشكلتك أيتها الفتاة؟ لماذا تقفين هنا؟ تحركى."

أغمضتْ عينيها وخطتْ خطوة. ثم، وساقاها على وشك السقوط، سمعتْ صوت الملكة: "دلِّى! قفى!"

"ليست غلطتى."انتحبتْ، وعيناها مغلقتان بقوة. انتزع شخص ما الأميرة من ذراعيها. "ليست غلطتى. حاولتُ أن أخبرهم؛ لا يسمعون."

جاء صوت الملكة حادًا لا يخلو من عطف: "خير. انزلى الآن. بحرص."

تعثرتْ دلِّى وهى تنزل السلالم وتعبر البهو، وبكتْ ارتياحًا. شعرتْ بأيدى الفتيات الأخريات على ظهرها، يقدنها إلى الدهليز.

كانت معظم البنايات فى مجمع القصر مبانى خشبية منخفضة، تتصل بدهاليز طويلة. وكان القصر بناء حديثًا نسبيًا، عمره ثلاثون عامًا فقط. صُمِّم على طراز المساكن الملكية فى العواصم البورمية الأولى فى أفا وأمارابورا(١٢). نُقِلتْ أجزاء من

المبانى الملكية بالكامل بعد تأسيس مندالى، لكن كثيراً من البنايات الخارجية الأصغر لم تنتهِ ومازالت مجهولة، حتى لسكان القصر. لم تدخلْ دُلِّى أبدًا الغرفة التى سيقتْ إليها. كانت مظلمة، بجدران جصية رطبة وأبواب ثقيلة.

صرخت الملكة فى الحرس: "أحضرْ تنجدا منجاى إلىَّ. لن أبقى سجينة. أحضرْه إلىَّ. فوراً."

انقضتْ ساعة أو اثنتان ببطء؛ عرفت الفتيات من اتجاه الظلال تحت الباب أن الصباح تحول إلى عصر. توقفت الأميرة الصغيرة عن البكاء وغلبها النوم بين ساقى دُلِّى المتشابكتين.

فُتِحَت الأبواب وجاء تنجدا منجاى ينفخ.

"أين الملك؟"

"فى أمان، ميبيا."

كان رجلاً بديناً، بشرته دهنية. كان فيما سبق جاهزاً دائماً بالنصيحة، لكن الملكة لم تستطع الحصول على إجابة واضحة منه.

"الملك بخير. لا تقلقى." اهتزَّ برفق الشعر الطويل المتدلى من شاماته قليلاً وهو يبتسم ويكشف عن أسنانه.

أظهر برقية. "حقق هلثين أتوينون نصراً مدوِّياً فى ماينجان."

"لكن البنادق التى سمعتُها هذا الصباح ليستْ بنادقنا."

"انتهى الغرباء. بعث الملك ميداليات وأوسمة للرجال." أعطاها ورقة.

لم تهتم بالنظر إليها. رأت برقيات كثيرة فى آخر عشرة أيام، امتلأت كلها بأخبار انتصارات مدوية. لكن البنادق التى سمعتْها ذلك الصباح ليست بورمية، لا شك فى

ذلك. قالتْ: "تلك البنادق إنجليزية. أعرف أنها إنجليزية. لا تكذب عليَّ. كم اقتربوا؟ متى، فى اعتقادك، يصلوا إلى مندالى؟"

لم ينظر إليها: "حالة ميبيا دقيقة. عليك بالراحة الآن. أعود فيما بعد."

أشارت الملكة إلى خادماتها، جالسات على الأرض: "راحة؟ الفتيات منهكات. انظرْ." أشارت إلى عينى دلِّى الحمراوين ووجهها الممتلئ بالدموع. أين خادماتى الأخريات؟ أرسلْهم إلىَّ. أحتاج إليهن."

وصلت الخادمات الأخريات بعد ساعة. كانت وجوههن كئيبة. لم تفه الملكة بكلمة حتى أغلق الحراس الأبواب. ثم احتشد الجميع بإحكام حول الوافدات الجدد. رفعتْ دلِّى رأسها لتلتقط ما يقلن.

وهذا ما قلن: دمَّر الإنجليز الحصن فىماينجان بدقة متناهية بالمدافع، ولم يفقدوا جنديًا واحدًا. استسلم هلثين أتوينون، وانهار الجيش؛ هرب الجنود فى الجبال ببنادقهم. بعث كينون منجاى وتنجدا منجاى رُسُلاً إلى الإنجليز. تصارع الوزيران معًا لوضع العائلة الملكية تحت الحراسة. كانا يعرفان أن الإنجليز سيمتنون لمن يسلم الملك والملكة؛ قد تكون هناك مكافآت سخية. ومن المتوقع أن يأتى الغرباء بسرعة لأسر الملك والملكة.

***

تقدم الغزو بسهولة أدهشت حتى من خططوا له. عبر أسطول الإمبراطورية الحدود فى ١٤ نوفمبر ,١٨٨٥ وبعد يومين، بعد ساعات قليلة من إطلاق القذائف، سيطر الجنود الإنجليز على نقط الحدود فى نايونجبنمو وسنجبونجوى(١٤). وفى اليوم التالى، فى منهلا، تقدم الأسطول تحت نيران كثيفة. كانت الحامية البورمية فى منهلا صغيرة، لكنها قاومت ببسالة غير متوقعة.

كانت القوات الإنجليزية مسلحة بأحدث البنادق التى تشحن من أعقابها. وكان سلاح المدفعية مزوَّدًا بسبعة وعشرين مدفعًا آليًا سريع الطلقات، أكثر مما اجتمع من قبل على قارة آسيا. لم يستطع البورميون مواجهة هذه النيران. بعد تبادل إطلاق النيران عدة ساعات، نزل المشاة الإنجليز إلى الشاطئ.

تألفتْ قوة الغزو البريطانى من حوالى عشرة آلاف جندى، معظمهم - الثلثان تقريبا - من السيبو[١٥] الهنود. كانت بين الوحدات المنتشرة فى منهلا ثلاث كتائب من السيبو، من فوج الهازارا[١٦] وروَّاد مدراس الأول. كانت القوات الهندية قوية محنكة. وأثبت الهازارا، وقد جُنِّدوا من الحدود الأفغانية، جدارتهم للإنجليز على مدى عقود من الصراع، فى الهند وخارجها. كان رواد مدراس الأول من بين أخلص جنود مشاة بريطانيا. وقفوا بثبات بجانب سادتهم حتى فى ثورة ١٨٥٧، حين ثار معظم هنود الشمال ضد البريطانيين. كان للمدافعين البورميين فى منهلا فرصة ضئيلة أمام هؤلاء السيبو، بمعداتهم البريطانية حديثة الصنع وتفوقهم العددى الكبير. انهارتْ قوة الدفاع الصغيرة الباسلة بعد ضرب الحاجز الدفاعى.

امتدتْ صدمة سقوط منهلا مسافات بعيدة عبر النهر. فى بَكوكو انهارت الحامية؛ فى ناونجو، قرب السهل المغطى بالمعابد فى باجان، دمر المدفعيون البورميون مدفعهم بعد إطلاق طلقات قليلة. فى ميجنجان[١٧]، وكانت تحت قيادة هلثين أتوينون، اضطر المدافعون إلى ترك أماكنهم بعد معركة استمرت عدة ساعات. بعد بضعة أيام، بدون إبلاغ الملك ثيبو، استسلم الجيش البورمى.

لم تستمر الحرب إلا أربعة عشر يومًا.

هوامش

(١) أشين هتيك سو مات فيا جاى: Ashin Hteik Su Myat Phaya Gyi. أشين هتيك سو مات فيا لات: Ashin Hteik Su Myat Phaya Lat.

(٢) إفلين: Evelyn؛ هيمو: Hemau؛ أُجُسْتا: Augusta؛ نان بو: Nan Pau.

(٣) كاشين Kachin: سكان ولاية فى أقصى شمال بورما، تحدها الصين من الشمال والشرق؛ وا Wa: مجموعة عرقية، فى منطقة تقع إلى الشرق من ولاية الشان، ومعظمهم من الصين؛ الشان Shan: قبائل تسكن الهضاب فى شمال شرق بورما والأجزاء المجاورة من الصين ولاوس وتايلاند.

(٤) دلّى Dolly أو دلى سين Dolly Sein. لشيو: Lashio.

(٥) زنود logs: الزند جزء كبير من جزع شجرة، أو قطاع طويل ثقيل من الخشب.

(٦) رنْجون Rangoon: اسمها الرسمى ينجون Yangon منذ ١٩٨٩، عاصمة بورما وأكبر مدنها، تقع فى جنوب البلاد على نهر رنجون، قرب مصبه فى دلتا نهر إراودى.

(٧) كنون منجاى Kinwun Mingyi: الوزير كنون.

(٨) أسام Assam: مملكة سابقة فى أقصى شمال شرق الهند، وهى الآن ولاية تفصلها بنجلاديش عن بقية البلاد.

(٩) هلثِين أتوينون: Hlethin Atwinwun.

(١٠) تنجدا منجاى Taingda Mingyi: الوزير تنجدا.

(١١) ونجى wungyi: مستشار؛ وندوك wundauk: وكيل وزارة junior minister؛ ماوون myowun: مسئول كبير، حاكم مقاطعة.

(١٢) ميبيا Mebya: الملكة.

(١٣) أفا Ava: مدينة، تابعة لمقاطعة مندالى إلى الجنوب من أمارابورا، على نهر إراودى، واسمها الحالى إنوا Innwa. أمارابورا Amarapura: مدينة تقع على بعد ١١ كم إلى الجنوب من مندالى.

(١٤) نايونجبنمو: Nyaungbinmaw. سنجبونجوى: Singbaungwe.

(١٥) السيبو sepoys: الجنود الهنود الذين كانوا يخدمون فى الجيش الإنجليزى.

(١٦) هازارا: Hazara.

(١٧) بَكوكو Pakokku: بلدة تقع وسط بورما على نهر إراودى. ناونجو Nyaungu: بلدة تقع شمال بكوكو. باجان Pagan: بلدة تاريخية مهمة فى بورما، تقع على الضفة الغربية لنهر إراودى. ميجنجان: Myingan.

(٣)

بعد يومين من معركةماينجان، كانت مندالى هادئة تماماً بصورة غريبة. ثم بدأت الشائعات. ذات صباح جرى رجل فى السوق، بجانب كشك ماشو. صاح بأعلى صوته: رستْ سفنٌ غريبة على الشاطئ؛ يزحف الجنود الإنجليز إلى المدينة.

ضرب الهلعُ السوق. جرى الناس وتدافعوا. شقَّ رجكومار طريقه وسط الزحام ليصل إلى الطريق. لم يرَ عن بعد: على الطريق تحلق سحابة من الغبار، أثارتها مئات الأقدام المتسابقة. جرى الناس فى كل اتجاه، تصادموا ودفعوا بتهور كل ما فى طريقهم. زحف رجكومار باتجاه النهر. وهو يجرى، شعر برجة فى الأرض تحته، بنوعٍ من قرع الطبول فى الأرض، رعشة منتظمة انتقلتْ إلى عموده الفقرى عبر أخمصى قدميه.

تناثر الناس أمامه وتفرقوا، متدافعين على جانبى الطريق. فجأة صار فى الصف الأمامى من الحشد، ينظر مباشرة فى جنديين إنجليزيين يمتطيان حصانين بُنِّيَّيْن. يبعد الفارسان الناس بسيفيهما المجردين، ويخليان الطريق. ترك الغبار أثره على حذاءيهما اللامعين. ولاحت خلفهما كتلة متماسكة من الأزياء الرسمية، تتقدم مثل موجة مد.

اندفع رجكومار إلى جانب الطريق واستند على حائط. تلاشى توتر البداية الذى أصاب الجماهير والفرقة الأولى من الجنود تمرُّ بهم والبنادق معلقة على الأكتاف. لم تكن هناك ضغينة على وجوه الجنود، لا مشاعر إطلاقًا. ولم يلْقِ أى منهم نظرة على الجماهير.

قال شخص: "الإنجليز!" وانتقلت الكلمة بسرعة من فمٍ لفمٍ، وأخذت تعلو وتعلو حتى صارتْ هتافًا مبهمًا. وحين مرَّتْ طليعة الجيش وظهرت الفرقة التالية، خيَّمَ صمتٌ غريب على المشاهدين: لم يكن الجنود إنجليزًا- كانوا هنودًا. تحرك الناس حول رجكومار، كأن منظرَ هنديٍ وسطهم أثار فيهم الفضول.

قال شخص: "مَنْ هؤلاء الجنود؟"

"لا أعرف."

اندهش رجكومار فجأة لأنه لم ير وجهًا من الوجوه الهندية المعتادة في البازار طوال اليوم: لا أحد من الحمالين والإسكافيين وأصحاب المحلات الذين يأتون يوميًا. للحظة بدا الأمر غريبًا، لكنه نساه واستغرق مرة أخرى في مشهد السيبو الزاحفين.

وجَّه الناس أسئلة إلى رجكومار: "ماذا يفعل هؤلاء الجنود هنا؟"

هزَّ رجكومار كتفيه. كيف يعرف؟ لا تزيد علاقته بالجنود على علاقتهم بهم. احتشدتْ مجموعة من الرجال حوله، ازدحموا حوله، فتراجع خطوات للخلف: "من أين يأتي الجنود؟ لماذا هم هنا؟"

"لا أعرف من أين يأتون. لا أعرفهم."

عرف رجكومار، وهو يتطلع فوق كتفه، أنه تراجع إلى زقاق مسدود، وحوله سبعة رجال أو ثمانية. سحبوا لنجياتهم، ربطوها على الخصر. ولم يكن السيبو، وكانوا بالمئات وربما بالآلاف، قد ابتعدوا إلا مسافة قصيرة. لكنه كان وحيدًا في الزقاق- الهندي الوحيد- بعيدًا عن أسماعهم، يحيط به هؤلاء الرجال، عازمين بوضوح على الانتقام منه لوجود الجنود.

لمعتْ يد بين الظلال. دفعه رجل على الأرض، وهو يمسك بشعره. حرَّك ساقًا ودفعها للخلف، مصوِّبًا كعبه في عانة المعتدِي. رأى الرجل الركلة قادمة فصدَّها بيده.

لوى رأس رجكومار وضربه فى وجهه بظهر قبضته. اندفعت الدماء من أنف رجكومار. جمَّدتْ صدمةُ الضربة الوضع لحظة. بدا أن قوس الدماء يتوقف فى مساره، معلَّقًا فى الهواء، شفافًا بشكل رائع، مثل خيط من العقيق. ثم تلقى رجكومار ضربة بالكوع فى بطنه، قطعت نفَسَه وألقتْ به إلى الحائط. تهاوى، ممسكًا ببطنه، كأنه يحاول إعادته إلى مكانه.

وصل العون فجأة. رنَّ صوت عبر الممر: "توقفْ."

التفت الرجال حولهم، فى فزع.

"اتركه."

كان صوت سايا جون يتقدم تجاههم وذراعه فى الهواء، يبدو أمرًا بشكل غريب بقبعته ومعطفه. وقد دسَّ بأناقة فى راحة يده المرفوعة مسدسًا صغيرًا بفوهة مفلطحة. تراجع الرجال ببطء، وبمجرد رحيلهم، دسَّ سايا جون المسدس فى جيب معطفه. خاطب رجكومار: "أنت محظوظ لأنى رأيتك. ألم تعرف ما هو أفضل من الخروج إلى الشوارع اليوم؟ تحصَّنَ الهنود الآخرون جميعًا فى مجمع الحاج إسماعيل فى سفح هضبة مندالى."

مدَّ يده وساعد رجكومار على الوقوف. نهض رجكومار وجفَّف الدماء من على وجهه المرتجف. خرجا من الزقاق معًا. على الطريق الرئيسية كان الجنود لا يزالون يسيرون. سار رجكومار وسايا جون متجاورين وشاهدا عرض النصر.

قال سايا جون على الفور: "اعتدتُ أن أعرف جنودًا مثل هؤلاء."

"سايا؟"

"فى سنغافورة، وأنا شاب، عملتُ فترة عامل اتصال فى مستشفى. وكان معظم المرضى سيبو مثل هؤلاء – هنودًا، عادوا من خوض حروب لصالح سادتهم الإنجليز.

مازلتُ أتذكر رائحة الضمادات العفنة على الأطراف المبتورة؛ صرخات أولاد فى العشرين طوال الليل، وهم يجلسون فى أسرَّتهم. كانوا قرويين، من قرى صغيرة: مازلت رائحة دخان الخشب ونيران الروث تفوح من ملابسهم وعمائمهم. سألتهم: "لماذا تقاتلون بدل أن تزرعوا حقولكم فى بلادكم؟" قالوا: "الفلوس"، ومع ذلك كانوا لا يكسبون إلا بضعة قروش[1] فى اليوم، لا تزيد كثيراً عما يحصل عليه حمال فى حوض للسفن. من أجل بضع عملات معدنية سمحوا لسادتهم باستخدامهم كما يريدون، يدمرون كل أثر لمقاومة تواجه الإنجليز. حيَّرنى ذلك دائماً: لم يفعل القرويون الصينيون هذا أبداً - لم يسمحوا باستخدامهم لخوض حروب الآخرين بمثل هذا المكسب التافه. نظرتُ فى تلك الوجوه وتساءلتُ: ماذا إذا كان لدىَّ ما أدافع عنه - بيتًا، بلداً، أسرة- ووجدتُ هؤلاء الرجال الأشباح، هؤلاء الأولاد المؤتمنين، يهاجمونني؟ كيف تقاتل عدواً لا يقاتل بباعث العداوة أو الغضب بل خضوعًا لأوامر رؤسائه، بدون اعتراض وبدون ضمير؟

"فى الإنجليزية تُستخدَم كلمة - جاءت فى الكتاب المقدس - الشر. اعتدتُ التفكير فيها وأنا أتحدث إلى أولئك الجنود. أية كلمة أخرى يمكن استخدامها لوصف رغبتهم فى القتل من أجل سادتهم، رضوخهم لأى أمر، بصرف النظر عن نتائجه؟ إلا أن هؤلاء السيبو، فى المستشفى، قدموا لى هدايا، تعبيراً عن امتنانهم- فلوسًا عليه نقوش، برتقالةً. نظرتُ فى عيونهم ورأيتُ أيضًا نوعًا من البراءة، من البساطة. هؤلاء الرجال، الذين لا يرون ضيراً فى إحراق كل القرى إذا أمرهم ضباطهم، لديهم أيضًا نوع من البراءة. شر برىء. لا أظنَّ أن هناك ما هو أخطر."

هزَّ رجكومار كتفيه بشكل عفوى: "سايا. إنهم مجرد أدوات. لا رأى لهم. لا يساوون شيئًا."

نظر إليه سايا جون فى فزع. فى الولد شىء غير عادى - نوعٌ من التصميم اليقظ. لا مزيد من الامتنان هنا، لا هدايا أو عطايا، لا حديث عن الشرف مع الطعن

فى القلب. لا بساطة فى وجهه، ولا براءة: عيناه مليئتيان بالدنيا والفضول والجوع. هذا ما كان.

قال سايا جون: "إذا أردْتَ عملاً فى أى وقت، تعال وكلمنى."

***

قبل الغروب مباشرة انسحبتْ قوات الاحتلال من الحصن. حمَّلوا العربات بالغنائم التى أخذوها. واندهش سكان البلدة لأنهم انصرفوا بدون أن يضعوا فرق حراسة حول الحصن. للمرة الأولى على ما يتذكر الجميع بقيت بوابات القلعة مفتــوحة بدون حراسة.

عاد الجنود من الطريق الذى أتوا منه لكن فى شوارع خالية. وحين تلاشى وقع أقدامهم، خيَّمَ هدوء قَلِقٌ على المدينة. ومع حلول الليل انفجر الموقف فجأة، اندفعتْ نسوة من الحصن يجرين على الجسر الجنائزى، وأقدامهن تقرع كالطبل على سطحه الخشبى.

تعرفتْ ماشو على بعض النسوة. كُنَّ من خادمات القصر؛ رأتهن يدخلن ويخرجن من الحصن لسنوات، يمشين بغطرسة على الطريق ينتعلن الشباشب، ولنجياتهن مربوطة بأناقة فوق كواحلهن. كن يجرين، يتعثرن فى الغبار بدون التفكير فى ملابسهن. يحملن صرراً من الملابس وأكياساً، وحتى أثاثًا؛ انحنتْ بعضهن مثل غسالات فى طريقهن إلى النهر. جرت ماشو إلى الشارع واستوقفت إحدى النساء: "ماذا تفعلن؟ ماذا حدث؟"

"كان الجنود ينهبون القصر. ونحاول الاحتفاظ ببعض الأشياء لأنفسنا." اختفت النسوة وهدأ كل شىء مرة أخرى. وتحركت الظلال حول الحصن. انتشرتْ موجات من النشاط فى الظلام، كانتشار العثة فى حنايا دولاب متعفن. زحف الناس ببطء من

المساكن حول القلعة. تقدموا إلى الأسوار، حدقوا بشكٍّ فى أعمدة الحراسة الخالية. لا جنود على مرمى البصر، ولا حتى حراس القصر. هل يمكن ترك البوابات بدون حراسة؟ مشى بعض الناس على الجسور، يختبرون الصمت. ببطء، ساروا على كعوب أقدامهم، وتقدموا باتجاه الضفة البعيدة للخندق الذى يبلغ اتساعه ثمانين قدماً. وصلوا للجانب الآخر وزحفوا إلى البوابات، مستعدين للرجوع مع أدنى مراقبة.

ذهب الحراس والخفر تماماً حقًا. القصر بدون حراسة. تسلل المقتحمون عبر البوابات وتلاشوا فى الحصن.

تفرجتْ ماشو فى تردد، هارشةً ذقنها. التقطت الدا الحادة. ثبتت اليد الخشبية فى خصرها، وسارتْ باتجاه الجسر الجنائزى. كانت أسوار الحصن بلون الدم فى الظلام أمامها.

جرى رجكومار خلفها، وصل إلى الجسر بجانب الجماهير المهاجمة. كان أوهى جسور الحصن، ضيقاً جداً بالنسبة للكتلة التى تحاول عبوره. انفجر جنون التنافس، وقد قفز الرجلُ الذى بجوار رجكومار فى الهواء وسقط على الجانب؛ طار لوح خشبى وقلب امرأتين أخذتا تصرخان فى الخندق. تسلل رجكومار، وكان أصغر من الذين حوله وأخف حركة، بين الأجسام المتزاحمة، ومضى مسرعاً إلى الحصن.

تخيل رجكومار الحصنَ مليئاً بحدائق وقصور، مطلية بترف ومذهَّبة بسخاء. لكن الشارع الذى كان فيه ممر مستقيم وضيق وقذر، به منازل خشبية، ولا يختلف عن أى جزء آخر فى المدينة. يقع أمامه مباشرة القصر وبرجه بأسقفه التسعة– رأى الهتى المذهب يومض فى الظلام. تدافع الناس فى الشارع، يحمل بعضهم كشافات متوهجة. لمح رجكومار ماشو تلفُّ فى ركن بعيد. أسرع خلفها، ولنجيه مربوط بإحكام حول خصره. كان للطوق مداخل عديدة، من بينها بوابات مخصصة للخدم والتجار، منخفضة فى الجدران، مثل جحور الفئران، لا يمر منها أحد بدون أن ينحنى. عند أحد

هذه المداخل الصغيرة التقى رجكومار بماشو مرة أخرى. دُفِعت البوابة بسرعة. تدفق الناس خلالها، كالماء فوق حافة ينبوع.

بقى رجكومار خلف ماشو مباشرة وهى تشق طريقها بكوعها إلى المدخل. دفعتْه وانحشرتْ عبر البوابة. شعر رجكومار بأنه سقط على ملاءة معطرة، تمرغ عليها ليجد نفسه مستلقيًا على سرير من العشب الناعم. كان فى حديقة تتصل بقناة متدفقة: فجأة صار الهواء نقيًا وباردًا، وخاليًا من الغبار. بوابات القصر باتجاه الشرق: الاتجاه الذى كان يأتى منه الزوار الرسميون، سائرين فى طريق رسمى يؤدى إلى الجناح الكبير المكسو بالزجاج حيث بلاط الملك. على الجانب الغربى من الطوق- الجانب الأقرب للبوابة الجنائزية - تقع أجنحة النساء؛ القاعات والمبانى التى أمام ماشو ورجكومار. نهضت ماشو وأسرعتْ لاهثة، فى اتجاه مدخل حجرى مقوس. كانت أبواب الغرفة الرئيسية فى قصر النساء تقع مباشرة خلف فتحة واسعة. توقف الناس ليتحسسوا بأصابعهم ألواح الباب المرصع باليشم. سقط رجل على ركبتيه وبدأ يدق شرائح الخشب بصخرة، محاولاً خلع الزخارف. جرى رجكومار، إلى البناية، خطوتين خلف ماشو. كانت الغرفة كبيرة جدًا، حوائطها وأعمدتها مكسوة بآلاف من قطع الزجاج. لمبات الزيت تخفق فوق حواملها، وبدت الغرفة كلها متوهجة، كل الأسطح تومض ومضات من الضوء الذهبى. امتلأت القاعة بضجة عمل، بطنين يشبه طنين عامل يقطع ويخبط، تكسير خشب وتهشيم زجاج. انهمك الناس، رجالاً ونساء، فى كل مكان فى العمل، مسلحين بفئوس ودات؛ ضربوا بالفئوس فى أوك(٢) مرصعة بحلى تملأ صناديق؛ وحفروا أحجارًا كريمة مزينة بالرسوم من الأرضية الرخام؛ مستخدمين الصنانير لخلع العاج المطعمة به صناديق الساديك(٣) المطلية. كانت فتاة، مسلحة بصخرة، تخلع زخارف قانون على شكل تمساح؛ واستخدم رجل ساطورًا لكشط الطلاء الذهبى من عنق قيثارة سونج جاك(٤)؛ ونحتت امرأة بضراوة فى عينين من

الياقوت لأسد تشينتي[٥] من البرونز. وصلوا إلى باب يؤدي إلى حجرة انتظار مضاءة بالشموع، بداخلها امرأة ، تقف بجوار النافذة المتشابكة في الركن البعيد.

لهثتْ ماشو: "الملكة سوبايالات!"

صرخت الملكة، مطوحة بقبضتها: "اخرجوا من هنا. اخرجوا." كان وجهها أحمر، مشحونًا بالغضب، كان مبعث ضراوتها العجز بقدر ما كان وجود رعاع في القصر. قبل ذلك بيوم، ربما سُجن شخص لأنه تطلع إلى وجهها مباشرة. أتى ذلك اليوم كل حثالة المدينة مندفعين إلى القصر ولا حيلة لها في مقاومتهم. لكن الملكة لم تكن مروَّعة أو خائفة، إطلاقًا. سقطت ماشو إلى الأرض، ويداها معقودتان على رأسها في شيكو[٦] للتبجيل.

سقط رجكومار على ركبتيه، عجز عن النأى ببصره. كانت الملكة ترتدي ثوبًا واسعًا من الحرير القرمزي، ينبعج على بطنها المتضخم. كان شعرها ملمومًا في لفات مصبوغة على رأسها الصغير الرقيق؛ وعلى قناع وجهها العاجي ندبة تجهم كئيبة، منحوتة بنقطة عرق. كان ثوبها مرفوعًا فوق كاحلها، ولاحظ رجكومار أن ساقيها ملفوفتان في ثوب من الحرير القرنفلي- جورب، شيء لم يره من قبل أبدًا. حملقت الملكة في ماشو، وهي مستلقية على الأرض أمامها. كان في يد ماشو شمعدان من النحاس بقاعدة من الأقحوان.

انطلقت الملكة في المرأة الساجدة: "أعطيني هذا؛ من أين أخذْتِه؟ أرجعيه." حاولت الملكة، مائلة بثبات على بطنها المنتفخ، انتزاع الشمعدان. ملصت ماشو يديها واندفعت للخلف، مثل سرطان البحر. همست الملكة لها: "هل تعرفين من أنا؟" انحنتْ ماشو بثني الركبة في تعبير آخر عن التقدير، ولم تفرط في شمعدانها. كأن التصميم على التشبث بغنيمتها لا يتناقض مع الرغبة في تقديم التقدير الواجب للملكة.

قبل يوم واحد فقط كانت جريمة دخول القصر الإعدام فوراً. هذا ما يعرفونه جميعًا – الملكة وكل من انضمَّ إلى الرعاع. لكن أمس انقضى: حاربت الملكةُ وانهزمتْ. لماذا لا تتغاضى عما فقدته؟ لم تعد هذه الأشياء ملكها: ماذا يُجنى من تركها ليأخذها الغرباء؟

فى سنوات حكم الملكة كرهها سكان المدينة لوحشيتها، وهابوها لقسوتها وجرأتها. والآن بخيمياء الهزيمة تبدلت فى عيونهم. كأن رابطة جديدة انبثقتْ للوجود. صارت للمرة الأولى فى حكمها ما يجب أن تكون عليه الملكة، وكيلة شعبها. كل من عبر الباب سقط على الأرض فى تعبير تلقائى عن الإجلال. الآن، وقد صارت بلا قوة لتعاقبهم، سعدوا بتقديم رموز الاحترام لها؛ سعدوا بلومها لهم. كان رائعًا أن يقدموا لها الشيكو وأن توبخهم. هل تقبل هزيمتها بخنوع، ولا يشعر أحد بالعار بعمق مثلهم. كأنهم يعهدون لها بعبء تحديهم المكبوت.

***

وقعتْ عينا رجكومار على إحدى خادمات الملكة؛ فتاة نحيفة طويلة الأطراف، بشرتها بلون مسحوق الثاناكا(٧) الخفيف الذى تضعه على وجهها. عيناها واسعتان وداكنتان ووجهها طويل ومتناسقٌ تمامًا. كانت إلى حد بعيد أجمل مخلوق رآه على الإطلاق، فتنة تفوق التخيل.

بلع رجكومار ريقه ليسلِّكَ حنجرته، وقد تورمت وجفت فجأةً. كانت فى ركن بعيد من الغرفة مع فتيات أخريات. أخذ طريقه إليها بجانب الحائط.

كانت مرافقة، خمَّن، ربما فى التاسعة أو العاشرة. يمكن القول إن الفتاة الصغيرة التى بجوارها، وكانت تتحلى بالمجوهرات، أميرة. فى الركن الذى خلفهن

كمية ملابس غنية بالألوان وأشياء من النحاس والعاج. ومن الواضح أن الفتيات كن مشغولات بإنقاذ ممتلكات الملكة حين قاطعهن الرعاع.

نظر رجكومار إلى الأرض ورأى صندوق مجوهرات من العاج منسيًا فى ركن. كانت قبضة الصندوق من الذهب، وعلى جانبيه مقبضان صغيران، منقوشان على شكل دولفينين فى وضع الوثب. عرف رجكومار ما عليه أن يفعله. التقط الصندوق من الأرض، وجرى عبر الغرفة وقدمه للفتاة الصغيرة النحيلة.

"خذى."

لم تتطلع إليه. أدارتْ رأسها بعيدًا، تحركتْ شفتاها فى صمت كأنها فى ترنيمة.

قالت فتاة أخرى: "خذيه. يعطيه لك."

قال لها مرة أخرى "خذى. لا تخافى."

اندهش من نفسه حين أخذ يدها ووضعها بلطف على الصندوق: "أعدتُه إليك."

تركتْ يدها تستريح على الغطاء. كان خفيفًا مثل ورقة شجر. نظرتْ عيناها فى البداية إلى الغطاء المرصَّع بالمجوهرات وانتقلتا ببطء من العُقَد السوداء فى مفاصل أصابعه إلى صدرته الممزقة القذرة وإلى وجهه. امتلأتْ عيناها فهْمًا وأنزلت بصرها. عرف أن عالمها مطوَّق بالخوف، كل خطوة تخطوها مغامرة فى المجهول.

قال رجكومار: "ما اسمكِ؟"

همستْ بمقطعين غير مسموعين.

"دُ-لى؟"

"دلَّى."

كرر رجكومار: "دلَّى، دلَّى." اعتقد أن لا شىء آخر يمكن أن يقال أو يساوى تكرار اسمها؛ كرر الاسم مرة أخرى بصوت أعلى وأعلى، حتى صاح: "دلَّى. دلَّى."

رأى ابتسامة صغيرة تزحف على وجهها، ثم جاء صوت ماشو فى أذنه. "الجنود. اجرِ." عند الباب، التفتَ لينظر خلفه. كانت دلِّى تقف كما تركها تمامًا، تمسك بالصندوق بين يديها، تحدِّقُ فيه.

شدَّتْ ماشو على ذراعه: "لماذا تحدق فى الفتاة، أيها الكالا الغبى؟ خذ ما حصلْتَ عليه واجرِ. الجنود عائدون. اجرِ."

كانت القاعة المليئة بالمرايا تردد صدى الصياح. عند الباب، عاد رجكومار ليومئ لدلِّى، كانت إشارة أكثر مما كانت تلويحا: " أراك ثانية."

هوامش

(١) قروش annas: عملات نحاسية كانت تستخدم فى الهند وباكستان.

(٢) أوك: Ook.

(٣) ساديك sadaik: نوع نادر من الصناديق البورمية المطلية باللك الأحمر.

(٤) سونج جاك: saung-gak.

(٥) تشينثى chinthe: كائن يشبه الأسد يرى على مداخل المعابد فى بورما ودول جنوب شرق آسيا، ويوجد دائمًا فى أزواج بهدف حماية المعابد، وهو مطبوع على العملة البورمية.

(٦) شيكو shiko: طقس للتبجيل، حيث يركع المرء ويداه معقودتان على رأسه.

(٧) الثاناكا thanaka: كريم تجميل أبيض مصفر، يوضع على الوجه والذراع فى بورما.

(٤)

قضت العائلة الملكية الليل فى إحدى أبعد البنايات فى أراضى القصر، قصر الحديقة الجنوبية، جناح تحيط به أحواض وقنوات وحدائق متواضعة. وفى اليوم التالى، قبل الظهر بقليل، خرج الملك ثيبو إلى البلكونة وجلس فى انتظار المتحدث البريطانى، الكولونيل سلادِن[١]. وضع الملك وشاحًا ملكيًا وجُنْج بُنْج[٢] أبيض، عمامة الحِداد.

كان الملك ثيبو متوسط الطول، وجهه ممتلئ وشاربه خفيف وعيناه رائعتان. اشتهر فى شبابه بجماله: وُصِف ذات مرة بأنه أوسم بورمى على الأرض (كان نصف شان، جاءت أمه إلى مندالى من إمارة صغيرة على الحدود الشرقية). تُوِّج وهو فى العشرين، وفى السنوات السبع التى اعتلى فيها العرش لم يغادر مجمع القصر أبدًا. وأدت هذه الإقامة الطويلة إلى تشوُّهات مفزعة فى مظهره. كان فى السابعة والعشرين وبدا فى منتصف العمر.

لم يكن الجلوس على عرش بورما فى يوم من الأيام طموحًا شخصيًا لثيبو. ولم يتخيل أبدًا شخصٌ فى المملكة أن يئول إليه التاج ذات يوم. التحق فى طفولته بدير بوذى تقليدى للأولاد، فى طبقة الرهبان، بحماس غير معتاد فى شخص من طبقته وأصله. قضى عدة سنوات فى دير القصر، ولم يغادره إلا مرة، قصيرة، بناء على أمر أبيه، الملك مِنْدُن[٣] المهيب. سجَّل الملكُ ثيبو وبعضَ أبناء زوجاته فى مدرسة إنجليزية فى مندالى. تحت تأثير المبشرين الأنجليكيين تعلم ثيبو بعض الإنجليزية وأظهر موهبة فى الكريكت.

لكن الملك مندن غير رأيه، سحب الأمراء من المدرسة وطرد المبشرين فى النهاية. عاد ثيبو سعيداً إلى الدير على أرض القصر، على مقربة من الساعة المائية والمنزل المقدس لسن بوذا. وتقدم ليحقق تفوقًا فى الدراسة الدينية، واجتاز فى التاسعة عشرة امتحان باتاما بيان[٤]، وهو امتحان صعب.

ربما كان الملك مندن أكثر حاكم جلس على عرش بورما حكمةً وتعقُّلاً. مع إنه قدَّر مواهب ابنه إلا أنه أدرك أيضًا نواحى قصوره. أشار ذات مرة: "إذا صار ثيبو ملكًا، فستنتقل البلاد إلى أيدى الغرباء." لكنه بدا احتمالاً بعيداً. كان فى مندالى ستة وأربعون أميراً غير ثيبو، حقوقهم فى المطالبة بالعرش مثل حقوقه، ومعظمهم يتفوقون عليه فى الطموح والقدرة السياسية.

لكن القدر تدخل فى هيئة مألوفة، حماته: كانت أيضًا زوجة أبيه، الملكة أليننْنو[٥]، الزوجة الكبرى والمدبرة الماكرة والقاسية لمكائد القصر. رتبتْ لزواج ثيبو من بناتها الثلاث فى وقت واحد. وقدمته على منافسيه الستة والأربعين ونصَّبتْه على العرش. لم يكن أمامه اختيار إلا إعلان الموافقة: كان القبول بديلاً أسهل من الرفض، وأقل انطواء على الموت. لكن حدث تطور جديد مروِّع ، شىء أفسد حسابات الجميع: وقع ثيبو فى حب إحدى زوجاته، ملكته الوسطى، سوبايالات.

من بين كل أميرات القصر، كانت سوبايالات الأعنف والأكثر عناداً، الوحيدة التى يمكن أن تساوى أمها فى المكر والتصميم. من هذه المرأة لا يتوقع غير اللامبالاة حين يتعلق الأمر برجل ذى نزعة ثقافية مثل ثيبو. إلا أنها أيضًا، خروجًا على بروتوكولات مكائد القصر، وقعتْ بتهور فى حبٍّ زوجها، الملك. بدا أن طبيعته الطيبة غير الفعالة فجَّرتْ فيها ضراوةً مستلهمة من الأم. لحمايته من عائلتها جردت أمها من قواها ووضعتها فى أحد أركان القصر، مع أخواتها والزوجات الأخريات. وبدأت تخلص ثيبو من منافسيه. أمرتْ بقتل كل فرد من العائلة الملكية يمكن أن يمثل تهديداً لزوجها. ذُبِح تسعة وسبعون أميراً بناء على أوامرها، كان البعض أطفالاً حديثى الولادة والبعض

مسنين لا يستطيعون المشى. ولتمنع انسكاب الدم الملكى، لفتهم فى سجاجيد وضربتهم بالسياط حتى الموت. وكانت الجثث تلقى فى أقرب نهر.

كانت الحرب أيضًا عمومًا من صنع سوبايالات: أثارت أكبر مجلس فى البلاد، الهلوتدو(٦)، حين أصدر الإنجليز إنذاراتهم من رنجون. فكر الملك فى استرضائهم؛ قدم كنون منجاى، أوثق وزرائه، عرضًا طيبًا للسلام، وكان يُغرَى بالاستسلام. ثم ظهرت سوبايالات من مكانها ومضتْ ببطء إلى وسط المجلس. كانت حاملاً فى الشهر الخامس، تتحرك بتأنٍ شديد، بخطى بطيئة زاحفة، تحرك قدميها الصغيرتين ما لا يزيد على بضع بوصات فى المرة، شخصية صغيرة وحيدة فى اجتماع نبلاء معممين.

كانت الغرفة مغطاة بالمرايا. حين وصلتْ إلى وسطها، بدا أن جيشًا من السوبايالات يتجسدن حولها؛ فى كل مكان، على كل قطعة من الزجاج، آلاف من النساء الضئيلات أيديهن معقودة على خصورهن المنتفخة. سارت إلى كنون منجاى البدين العجوز، وهو يجلس ممدَّدًا فى مقعده. قالتْ وهى تدفع بطنها المنتفخ فى وجهه: "لماذا، يا جد، أنت مَنْ عليه ارتداء جيبة وامتلاك حَجَر لطحن مسحوق الوجه." كان صوتها هامسًا، لكنه ملأ الغرفة.

انتهت الحرب، والملك يجلس فى بلكونة جناح الحديقة، ينتظر زيارة الكولونيل سلادن، الناطق باسم البريطانيين المحتلين. فى مساء اليوم السابق، استدعى الكولونيلُ الملكَ وأخبره، بأكثر اللغات كياسة وتحفُّظًا، إن على العائلة الملكية مغادرة مندالى فى اليوم التالى؛ وعلى جلالته أن يعمل جيدًا لاستغلال الوقت المتبقى للاستعدادات.

سبع سنوات لم يخطُ الملك خارج القصر؛ ولم يغادر منطقة مندالى طوال حياته. ماذا تكون استعداداته؟ ربما مثل استعداد المرء لرحلة إلى القمر. كان الملك يعرف الكولونيل جيدًا. قضى سلادن سنوات فى مندالى مبعوثًا لبريطانيا وكثيرًا ما زار

القصر. يتحدث البورمية بطلاقة وبدا دائمًا منضبطًا فى سلوكه، أحيانًا دمثًا وحتى ودودًا. أخبر الملكُ سلادن بأنه يريد مزيدًا من الوقت، أسبوعًا، بضعة أيام. ما أهمية هذا الآن؟ كسب الإنجليز وخسر: أى فرق يصنعه يوم أو يومان؟

***

أتى الكولونيل سلادن عصرًا، يسير فى الطريق المؤدِّى إلى قصر الحديقة الجنوبية، ممر مليء بالحصى بين أحواض بديعة وجداول مليئة بأسماك ذهبية. ظلَّ الملك جالسًا والكولونيل سلادن يقترب.

سأل الملكُ: "كم من الوقت؟"

كان سلادن فى كامل زيه الرسمى، وسيف معلق فى خصره. انحنى أسفًا. شرح أنه تباحث طويلاً مع القائد. عبر الجنرال عن تعاطفه، لكن لديه أوامر وكان مقيدًا بمسئوليات منصبه. على جلالته أن يفهم؛ لو أن الأمور فى يديه، سلادن، لأسعده إجراء تعديلات، لكن الأمور ليست فى يديه، ولا فى أيدى أى شخص فيما يتعلق بهذا الموضوع...

"كم من الوقت، إذن؟"

مدَّ سلادن يده فى جيبه وأخرج ساعة ذهبية: "حوالى ساعة."

"ساعة! لكن..."

كان حرس الشرف جاهزًا على بوابات القصر؛ ينتظر الملك.

روَّعت الأخبارُ الملكَ. استفسر فى ذعر: "أية بوابة؟" شُحِن كل جزء من القصر بالنُّذُر. كان المدخل الرسمى الميمون باتجاه الشرق. من خلال بواباته جاء الزوار الكبار

ومضوا. لسنوات كان المبعوثون البريطانيون إلى مندالى يُرسَلون إلى البوابة الغربية المتواضعة. اشتكوا فترة طويلة من ذلك. شنَّ سلادن معارك كثيرة مع القصر بسبب هذه النقط الدقيقة فى البروتوكول. هل يسعى لانتقام صارم ويرغم الملك على الخروج من البوابة الغربية؟ نظر الملك بتوجس إلى الكولونيل وأسرع سلادن يطمئن الملك. يجب أن يُسمَح له بالمغادرة من البوابة الشرقية. قرر البريطانيون فى الانتصار أن يكونوا كرامًا.

نظر سلادن إلى ساعته مرة أخرى. لم يتبق إلا وقت قصيرٌ جداً وهناك مسألة بالغة الأهمية لم تُحسَم: الحاشية التى ترافق العائلة الملكية إلى المنفى.

وسلادن يتباحث مع الملك، انشغل ضباط بريطانيون آخرون فى تنظيم حشد فى حديقة مجاورة. استُدعى عددٌ كبير من موظفى القصر، بما فيهم خادمات الملكة وكل الخدم الآخرين الموجودين. نظر الملك ثيبو والملكة سوبايالات والكولونيل يخاطب الخدم.

أخبر الكولونيل الوجهاء المحتشدين بأن العائلة الملكية ستُرسَل إلى المنفى. ستذهب إلى الهند، إلى مكان لم يُقرَّرْ بعد. تتمنى الحكومة البريطانية مدَّهم بمجموعة من المرافقين والمرشدين. وسيتحقق الأمر بطلب متطوعين.

ساد الصمت حين انتهى، تبعته نوبة من سعال الإحراج، موجة بشعة من تسليك الحناجر. حُكَّت الأقدامُ فى الأرض وخُفِضت الرءوسُ، وفُحِصت الأظافرُ. أطلق الونجيون العظماء نظرات غير مباشرة إلى الوندوكين الأقوياء؛ حدَّق الماوونون المتعجرفون بشكل بشع فى العشب. كثير من رجال الحاشية المحتشدين لم يكن لهم أبداً بيت إلا القصر؛ لم يستيقظوا أبدًا فى يوم لم تُقضَ ساعاته بأوامر الملك؛ لم يعرفوا أبداً عالمًا ليس مركزه هتى ملوك بورما، ذو الأسقف السبعة. كل حياتهم التى عاشوها دُرِّبتْ فى خدمة سيدهم. لكن تدريبهم ربطهم بالملك فقط طالما يجسد بورما واستقلال

البورمى. لم يكونوا أصدقاء الملك ولا مؤتمنين على أسراره، ولم يكن فى قدرتهم أن يخففوا ثقل تاجه. أعباء الملكية تخصُّ ثيبو وحده، بمفرده ولا تخصُّ أحداً منهم.

ذهبتْ مناشدات سلادن أدراج الرياح: لم يكن هناك متطوعون. مرّتْ نظرة الملك، علامة الاستحسان التى بحث عنها بشغف، مرور الكرام على رءوس أفراد حاشيته. تبلَّد ثيبو وهو يشاهد أخلص خدمه يشيحون بوجوههم، لامسين بارتباك الأوشحة التسلوى[٧] الذهبية التى تميز فئتهم.

هكذا تنحسر القوة: فى لحظة واقعية حية، بين انحسار إحدى فنتازيات الحكم واستبدالها بما يليها؛ فى لحظة والعالم يحلِّق متحرراً من مرسى أحلامه ويكتشف أنه مطوَّقٌ فى مسارات البقاء على قيد الحياة والحفاظ على الذات.

قال الملك: "لا يهمُّ من يأتى ومن لا يأتى." والتفتَ إلى سلادن: "لكن لابدَّ أن تأتى معنا، سلادن، لأنك صديق قديم."

ردَّ سلادن: "أعتذر هذا مستحيل، جلالتكم، تبقينى واجباتى هنا."

صوبت الملكة، وهى تقف خلف كرسى الملك، إحدى نظراتها القاسية إلى زوجها. كان مناسبًا تمامًا بالنسبة له أن يعبر عن عواطف رقيقة، لكنها حامل فى الشهر الثامن، ومشغولة أكثر برعاية الطفلة الصعبة المصابة بالمغص. كيف تواجه ظروفها بدون خادمات ومرافقات؟ من يهدئ الأميرة الثانية حين تنتابها نوبة غضب؟ تفحصتْ عيناها الحشد واستقرتْ على دُلِّى، وكانت تقف على كعبيها، تجدل أوراق عشب.

تطلعتْ دُلِّى للنظرة التى صوبتها إليها الملكة من مكانها فى بلكونة الجناح. صرخت وأسقطت الأوراق. هل حدث شىء؟ هل الأميرة تصرخ؟ وثبتْ وجرت باتجاه الجناح، تتبعها إفلين وأجستا وعدد من الأخريات.

تنفس سلادن الصعداء حين أتت الفتيات إلى سلالم الجناح. بعض المتطوعات أخيراً!

قال والفتيات يسرعن، ليتأكد فقط: "هل تذهبن؟"

توقفت الفتيات ليحدقن؛ ابتسمت إفلين وضحكت أجستا. بالطبع سيذهبن؛ كن يتيمات؛ وحدهن من بين خدم القصر ليس لهن مكان آخر يذهبن إليه، لا وسيلة أخرى تعينهم. ماذا باستطاعتهن إلا الذهاب مع الملك والملكة؟

ألقى سلادن نظرة أخرى إلى رجال الحاشية وخدم القصر. ألن يصحب أحد آخر الملك؟ ردَّ صوت وحيد مرتعش بالإيجاب. صوت موظف متقدم في العمر، بادين ون[٨]. يذهب لو استطاع أخذ ابنه معه.

"كم تبقى من الوقت؟"

نظر سلادن إلى ساعته: "عشر دقائق."

عشر دقائق أخرى فقط.

قاد الملكُ سلادن إلى الجناح وفتح بابًا. رفَّ بصيصٌ من النور في الغرفة المظلمة منبعثًا من يراعة[٩]، كاشفًا عن الذهب. في بورما أغنى مناجم الجواهر في العالم، وقد آلت ملكية الكثير من الأحجار الكريمة إلى الأسرة الحاكمة. توقف الملك ليضع يده على حقيبة مجوهرات تضمُّ أثمن ما يملك، خاتم نجاموك[١٠]، صنُع من أثمن ياقوت خرج من مناجم بورما. جمع أسلافه المجوهرات والأحجار الكريمة في وقت متأخر، كنوع من اللهو. بهذه الحلي عليه إعالة نفسه وأسرته في المنفى.

"كولونيل سلادن، كيف يُنقَل هذا كله؟"

تشاور سلادن بسرعة مع الضباط المرافقين له. كل شيء في الحفظ، طمأن الملك. سيُنقَل الكنز تحت حراسة إلى سفينة الملك. لكن حان وقت الرحيل؛ حرس الشرف في الانتظار.

خرج الملك من الجناح، بجواره الملكة سوبايالات وأمها. فى منتصف المسار الملتوى، التفتت الملكة خلفها. كانت الأميرتان على بعد بضع خطوات منها مع الخادمات. حملت الفتيات أشياءهن فى صناديق وصرر متنوعة. وضعت بعضهن زهوراً فى شعورهن، وارتدت بعضهن أزهى ملابسهن. سارت دُلِّى بجوار إفلين، والأميرة الثانية على خصرها. كانت الفتاتان تقهقهان، غافلتين، كأنهما فى الطريق إلى مهرجان.

مضى الموكب ببطء فى الدهاليز الطويلة للقصر وعبر قاعة المقابلات الرسمية، المغطاة بالمرايا، بجانب البنادق التى يحملها حرس الشرف على الأكتاف والتحيات الخاطفة من الضباط الإنجليز.

بجوار البوابة الشرقية عربتان تنتظران. عربتا عجول، يثين[١١]، أكثر المركبات شيوعاً فى شوارع مندالى. زُوِّدت العربة الأولى بمظلة رسمية. والملك على وشك الركوب لاحظ أن لمظلته سبع طبقات، الرقم المخصص لنبيل، وليس تسعاً، المستحقة لملك.

توقف ليلتقط أنفاسه. رغم كل شىء انتقم الضباط الإنجليز ذوو الكلام المعسول، وأضفوا على سكين النصر انحناءة صغيرة أخيرة. فى مواجهته الأخيرة مع رعاياه السابقين، تنازل على الملأ مثل تلميذ منحرف. كان تخمين سلادن صائباً: كانت، من بين كل الإهانات، آخر ما يتخيل ثيبو، وأبشعها.

***

كانت عربتا الثيران صغيرتين لا تتسعان للخادمات. سرن خلفهما على الأقدام، موكب صغير مهلهل من ثمانى عشرة فتاة، يتيمات فى ثياب زاهية يحملن صناديق وصرراً.

اصطف مئات الجنود البريطانيين إلى جانب عربتي الثيران والفتيات، مزوَّدين بأسلحة كثيرة، مستعدين لمواجهة أي اضطراب. لم يُتوقَّع من أهل مندالى الجلوس بتراخٍ وملكهم وملكتهم يساقان إلى المنفى. سُمِعتْ تقارير عن تخطيط لشغب ومظاهرات، عن محاولات يائسة لتحرير العائلة الملكية.

اعتقد القائد الأعلى البريطانى أنها أخطر لحظة فى العملية كلها. خدم بعضهم فى الهند، وهناك حادثة من الماضى القريب تجثم بثقلها على عقولهم. فى آخر أيام الثورة الهندية فى ١٨٥٧، أسر الميجور هُدْسُنْ(١٢) بهادر شاه ظَفَر(١٣)، آخر المغول، فى ضواحى دلهى. كان الإمبراطور العجوز الضرير والعاجز قد لاذ بمقبرة سلفه همايون(١٤) مع اثنين من أبنائه. حين رافقه الميجور هو وابناه إلى المدينة، احتشد الناس بأعداد كبيرة على جانب الطريق. ازدادت هذه الجماهير بشكل عاصف، وازداد تهديدها. فى النهاية، للسيطرة على الرعاع، أمر الميجور بإعدام الأميرين. دُفعا أمام الجماهير، وضرب دماغيهما على الملأ.

لم يمضِ أكثر من ثمانية وعشرين عامًا على هذه الأحداث، وذكراها محفوظة ناضرة فى أحاديث الميسات والأندية. وهناك أمل ألا تتكرر مثل هذه النهاية - لكن لو حدث هذا لوجدت مرافقى الملك ثيبو مستعدين.

فى مندالى شوارع قليلة تستوعب موكبًا بهذا الحجم. قعقعتْ عربتا الثيران ببطء فى الطرق الأوسع، ومالتا بحدة حول الأركان قائمة الزاوية. كانت شوارع المدينة، رغم استقامتها، ضيقة وغير معبَّدة. وقد حُفِرت فى الأسطح القذرة شقوق عميقة تركها الحرث السنوى للرياح الموسمية. كانت عجلات عربتى الثيران صلبة، منحوتة من قطعة واحدة من الخشب. تأرجحت الإطارات الجامدة وهم يشقون طريقهم فى المنخفضات. وكان على الملكة أن تنحنى على بطنها المنتفخ لتقى نفسها من الارتطام بجانبى العربة.

لم يكن الجنود أو أسراهم الملكيون يعرفون الطريق إلى الميناء. ضلَّ الموكب طريقه بسرعة فى المتاهة الهندسية لشوارع مندالى. ضلَّ فى اتجاه الهضاب الشمالية، وحين اكتُشِف الخطأ كان الظلام قد حلَّ تقريبًا. عادت العربتان إلى الطريق على ضوء كشافات منقوعة فى الزيت.

فى ساعات النهار حرص سكان المدينة على الابتعاد عن الشوارع: شاهدوا، من النوافذ وعلى الأسطح، عربتى الثيران تسيران، على مسافة آمنة من الجنود وحرابهم. وحين حل الظلام، خرجوا من بيوتهم. طمأنهم الظلام فالتحقوا بالموكب فى مجموعات صغيرة متناثرة.

بدت دُلِّى ضئيلة جداً حين لمحها رجكومار تسير بجوار جندى طويل، وصرة ملابس صغيرة ثابتة على رأسها. وجهها متسخ وهتامينها(١٥) مغبر.

كان لا يزال مع رجكومار بضعة أشياء مما وجده فى القصر فى الليلة الماضية. هرول إلى دكان واستبدل بها حفنات من حلوى سكر النخيل. لفَّ الحلوى فى ورقة موز وربط اللفافة بخيط. أسرع عائداً، ولحق بالموكب وهو يخرج من البلدة.

كان الأسطول البريطانى يرسو على بعد ميل تقريباً، لكن الظلام حلَّ وكان السير بطيئًا عبر الطرق الخشنة غير المستوية. مع حلول الليل، تدفق آلاف من سكان مندالى. ساروا بجوار الموكب، بعيداً عن الجنود وأضواء الكشافات المتحركة.

أسرع رجكومار إلى الأمام وتسلق شجرة تمر هندى. حين ظهرت عربة الثيران الأولى، لمح الملك، وكان لا يُرى إلا من النافذة الصغيرة. يجلس وظهره مستقيم، وعيناه مثبتتان أمامه، وجسده يتطوح مع حركة العربة المترنحة.

شق رجكومار طريقه ببطء بين الحشد حتى صار على بعد بضع أقدام من دُلِّى. حافظ على سرعته، ملاحظًا الجندى الذى يسير بجوارها. ابتعدت عينا الرجل لحظة

ليتبادل كلمة مع شخص خلفه. رأى رجكومار فرصته: اندفع إلى دلِّى وضغط لفافة ورقة الموز فى يدها.

همس: "خذيها، فيها طعام."

رمقته فى دهشة غير مفهومة.

هزَّتْ إقلين كوعها: "الولد الكالا الذى رأيناه أمس. خذيها."

عاد رجكومار مسرعًا إلى الظلال: على مسافة لا تزيد عشرة أقدام على دلِّى، يسير بجانبها، مستترًا بالليل. فتحت اللفافة وحدَّقتْ فى الحلوى. ثم أخذت اللفافة، وقدمتها للجندى الذى يسير بجوارها. ابتسم الرجل وهزَّ رأسه رافضًا بودٍّ. قال شخص شيئًا بالإنجليزية، وضحك. ضحكت الفتيات أيضًا، ومعهن دلِّى.

شعر رجكومار بدهشة، وحتى بغضب. ماذا فعلت دلِّى؟ لماذا أعطت هذه الأطعمة الشهية لرجال يقودونها إلى الأسر والمنفى؟ لكن تحول بعد ذلك، ببطء، إحساسه الأوَّلى بالخيانة إلى ارتياح، وحتى امتنان. نعم، بالطبع، هذا ما عليها أن تفعله؛ فعلت دلِّى ما يجب. ماذا يتحقق لهؤلاء الفتيات من إظهار استياء لا طائل من ورائه؟ كيف ينجحن فى المواجهة وجيش المملكة نفسه استسلم؟ لا، من الأفضل إلى حد بعيد أن تنتظر، وأثناء ذلك تبتسم. بهذه الطريقة كانت دلِّى تعيش.

على بعد نصف ميل من الميناء، شكل الجنود نطاقًا عبر الطريق لمنع الجماهير من التقدم. تسلق الناس الأشجار وتجمعوا على الأسطح، بحثًا عن مواضع متميزة. بشكل غير متوقع وجد رجكومار ماشو صدفة تجلس على جذل(١٦) شجرة تبكى وتحكى، بين الشهقات، لكل مَنْ يسمع قصة لقائها بالملكة فى الليلة السابقة.

حاول رجكومار مواساتها بتمرير يده بلطف على رأسها. لم ير من قبل شخصًا كبيرًا يبكى على هذا النحو. عم تبكى؟ تطلع، كأنه يبحث عن إجابة على الوجوه من

حوله. لم يكن قد لاحظ أن آخرين كثرا يبكون أيضاً. حافظ على سرعته مع دلًى بحيث لا يلفت أنظار الناس من حوله. وهو ينظر إلى الجانب الآخر، رأى كل الوجوه غارقة فى الدموع.

تعرف رجكومار على عدد من الناس شاركوا فى أحداث النهب فى الليلة السابقة. تذكر كيف حطموا الأثاث وحفروا الأرضيات. استلقى هؤلاء الرجال والنساء أنفسهم منبطحين تنتابهم مشاعر الأسى والحداد لفقد ملكهم، ينشجون فيما يبدو وكأنه محنة لا عزاء لها.

ارتبك رجكومار ولم يفهم هذا الأسى. كان، بطريقة ما، مخلوقًا وحشيًا، لا يدرك أنه يوجد فى بعض الأماكن روابط خفية تربط الناس بتجسيد عموميتهم. فى البنغال حيث وُلِد قَطَعَ هذه الروابط قرنٌ من الاحتلال، ولم تعد موجودة حتى فى الذاكرة. بعيداً عن روابط الدم والصداقة والتبادل الفورى، لم يعرف رجكومار ولاء أو التزامًا أو قيداً على نطاق حقه فى العمل لنفسه. يدخر ثقته وعواطفه لِمَنْ يستحقونها بوضوح ونية طيبة مؤكدة. بمجرد أن يُستَحَقّ ولاؤه، يمنحه من كل قلبه، بدون شرط من الشروط العتيقة التى يحتمى بها الناس عادة من الخيانة. وهو فى هذا أيضًا لا يختلف عن مخلوق عاد إلى البرية. كان هناك عالم من الولاء لا علاقة له به أو باحتياجاته الفورية– لم يكن مفهوماً إلى حد بعيد.

جرى لغط مبرِّح بين الجماهير: تحرك الأسرى، نزلوا من عربتى الثيران، ودخلوا السفينة. قفز رجكومار بسرعة إلى أغصان شجرة قريبة. كان النهر بعيداً ولم يرَ إلا سفينة بخارية وصفًا من أشخاص ضئال امتلأ بهم المعْبَر. كان التمييز بين الأشخاص مستحيلاً. مضت أضواء السفينة واختفتْ فى الظلام.

استيقظ آلاف كثر طوال الليل. كان اسم السفينة البخارية ثُريا(١٧)، الشمس. طلع النهار، حيث سطعت السماوات على الهضاب، رحلت.

هوامش

(١) الكولونيل سلادن Sir Edward Bosc Sladen (1831-1890): ضابط هندى، ولد فى مدراس وتوفى فى لندن، رافق القوة التى أرسلت لإسقاط الملك ثيبو، دخل قصر مندالى فى ٢٨ ديسمبر ١٨٨٥، واستلم وثيقة تنازل الملك عن العرش.

(٢) جَنْج بَنْج gaung-baung: عمامة، واللون الأبيض لون الحداد فى بورما، تعرف أحياناً بعمامة ميانمار، تصنع من الحرير أو القطن.

(٣) مِنْدُن Mindon: والد ثيبو، ملك بورما من ١٨٥٣ إلى ١٨٧٨، أسس مندالى واتخذها عاصمة له ١٨٦٠.

(٤) باتاما بيان patama-byan: امتحان دينى عالى المستوى.

(٥) الملكة أليننْدو Alenandaw Queen: زوجة مندن وأم سوبالايات.

(٦) الهلوتدو Hluttdaw: البرلمان البورمى.

(٧) التسلوى tsaloe: نوع من الأوشحة.

(٨) بادين ون: Padein Wun.

(٩) اليراعة firefly: خنافس ليلية، تتميز بوجود مواد كيميائية مضيئة فى القمة الخلفية لبطنها.

(١٠) خاتم نجاموك Nagamauk ring: خاتم من الياقوت، قصة سرقته معروفة فى تاريخ بورما.

(١١) يثا yetha: عربة تجرها العجول.

(١٢) الميجور هُدْسُنْ Major Hodson (١٨٢١ – ١٨٥٨): قائد بريطانى أثناء ثورة الهند فى ١٨٥٧.

(١٣) بهادر شاه ظَفَر Bahdur Shah Zafar (١٧٧٥ – ١٨٦١) : أبو ظفر سراج الدين محمد بهادر شاه ظفر آخر أباطرة المغول فى الهند.

(١٤) همايون Humayun: نصر الدين محمد همايون، ثانى أباطرة المغول (١٥٠٨-١٥٥٦).

(١٥) هتامين htamein: ثوب نسائى يشبه اللنجى عند الرجال، يلف حول الخصر.

(١٦) جذل stump: هو أصل الشجرة الباقى بعد قطع جذعها، والجمع جذول.

(١٧) ثُريا Thooriya: بالعربى فى الأصل.

(٥)

بعد خمسة أيام فى إراْوِدِّى عبرت الثريا إلى نهر رنجون مع اقتراب العتمة فى وقت متأخر من المساء. رستْ وسط النهر، على مسافة مناسبة من منطقة قريبة من حوض السفن المشغول فى المدينة.

مع أول ضوء فى اليوم التالى صعد الملك ظهر السفينة، يحمل منظاراً مذهَّبًا، نظارةً صُنِعتْ فى فرنسا، إرثًا نفيسًا، كان ذات يوم من مقتنيات الملك مِندُن. كان الملك الأب أكثر ارتباطًا بالمنظار، حمله معه دائمًا، حتى فى قاعة الزوار.

كان صباحًا باردًا وقد ارتفع ضباب قاتم من النهر. انتظر الملك بصبر أن تقشع الشمس الشبورة. حين قلَّ سُمْكها، رفع نظارته. فجأة رأى المنظر الذى تاق لرؤيته طوال حياته: الكتلة الشاهقة من معبد شوى داجون[١]، كانت أكبر مما تخيل، يرتفع هتيها فى عنان السماء، عائمًا على سرير من السديم والضباب، متألقًا فى ضوء الفجر. عمل هو نفسه فى الهتى، وساعد بيديه فى طلاء البرج بالذهب، واضعًا شرائح من ورق الذهب على بعضها. كان قالب الهتى عند الملك مندن، فى مندالى؛ أُرسِل إلى شوى داجون فى بارجة ملكية. كان ثيبو مبتدئًا فى الدير، وقد تنافس الجميع، حتى أقدم الرهبان، معًا لنيل شرف العمل فى الهتى.

خفض الملك المنظار ليفحص المناطق الساحلية فى المدينة. اكتظَّ إطار الآلة بكتلة معقدة من الأشياء: حوائط وأعمدة وعربات، وأناس يهرولون. سمع ثيبو عن رنجون من أخيه غير الشقيق، الأمير ثونزاى[٢]. تأسست البلدة على يد جدهما ألونجبيا[٣]، ولم يزرها إلا عدد صغير من أسرتهما. استولى البريطانيون، قبل ولادة ثيبو، على البلدة،

وكل المقاطعات الساحلية فى بورما. ومن وقتها تراجعت تخوم مملكة بورما حتى منتصف إراوَدى تقريبًا. من حينها لم يزر رنجون من أفراد العائلة الملكية إلا الثوار والمنفيون، الأمراء الذين اختلفوا مع القوى الحاكمة فى مندالى.

كان الأمير ثونزاى أحدهم: تشاجر مع الملك العجوز مندن وفرَّ عبر النهر، ولجأ إلى المدينة التى يسيطر عليها البريطانيون. ثم صدر عفو عن الأمير وعاد إلى مندالى. فى القصر حاصرتْه الأسئلة: طلب الجميع معلومات عن رنجون. كان ثيبو فى سنِّ المراهقة، استمع مسحوراً والأمير يصف السفن التى تُشاهَد فى نهر رنجون: السفن الشراعية الصينية والدَّهْو العربية وسمبانات شيتاجُنج والسفن الشراعية الأمريكية السريعة وسفن الخط البريطانية. سمع عن استراند وقصورها وبناياتها الكبيرة ذات الأعمدة، وشواطئها وفنادقها؛ عن رصيف مرفأ جدوين والمستودعات والطواحين الخشبية التى تملأ خليج بَزُنْدُنج؛ الشوارع الواسعة والحشود المهرولة والغرباء الذين تعج بهم الأماكن العامة: إنجليز وكورينجيون(٤) وتاميل وأمريكيون وماليزيون وبنغال وصينيون.

ومن القصص التى اعتاد ثونزاى روايتها قصة عن بهادر شاه ظفر، آخر أباطرة المغول. بعد إخماد ثورة ١٨٥٧ نفى البريطانيون الإمبراطور المخلوع إلى رنجون. عاش فى بيت صغير لا يبعد كثيراً عن شوى داجون. وذات ليلة تسلل الأمير مع بعض أصدقائه لمشاهدة بيت الإمبراطور. وجدوه يجلس فى شرفته، يسبِّح. كان كفيفًا وعجوزًا جداً. عزم الأمير وأصدقاؤه على الاقتراب منه، لكنهم غيروا رأيهم فى آخر لحظة. ماذا تقول لمثل هذا الرجل؟

قال الأمير فى رنجون شارع يحمل اسم الإمبراطور العجوز- شارع المغول، يعيش فيه كثيرٌ من الهنود: زعم الأمير أن عدد الهنود فى رنجون يفوق عدد البورميين. جلبهم البريطانيون إلى هناك، للعمل فى أحواض السفن والطواحين، لجرِّ العربات وإفراغ المراحيض العامة. من الواضح أنهم لم يعثروا على مواطنين للقيام بهذه المهام.

وبالفعل، لماذا يقوم البورميون بهذه الأعمال؟ فى بورما لم يجعْ أحدٌ أبداً، يعرف الجميع القراءة والكتابة، والأرض تجود بالخيرات: لماذا يجرون العربات ويحملون القانورات؟

رفع الملك نظارته إلى عينيه ولمح وجوهاً هندية عديدة على طول الأماكن القريبة من المياه. أى قدرة هائلة، أى قدرة غير مفهومة، تنقل أناساً بهذه الأعداد الهائلة من مكان إلى آخر- أباطرةً وملوكًا وفلاحين وعمالاً فى أحواض السفن وجنوداً وحمالين ورجال شرطة. لماذا؟ لماذا هذه الحركة العنيفة - يؤخَذ أناسٌ من مكان إلى آخر، ليجروا العربات، ليجلسوا مكفوفين فى المنفى؟

أين ذهب شعبه، صار جزءًا من هذه الإمبراطورية؟ لا يناسب شعبه، كل هذا التنقل. البورميون شعب لا يحبُّ التنقل؛ شخصيًا، عرف هذا، جيدًا. لم يشأ أبداً أن يذهب إلى أى مكان. إلا أنه كان فى طريقه إلى الهند.

استدار لينزل من على سطح السفينة مرة أخرى: لا يحبُّ الابتعاد كثيراً عن كابينته. اختفى عدد من نفائسه، بعضها فى اليوم الأول، حين نقلها الضباط الإنجليز من القصر إلى الثريا. سأل عن الأشياء المفقودة، تجمد الضباط وبدا عليهم الاستياء وتحدثوا عن تشكيل لجنة للبحث. أدرك أنهم، على الرغم من أساليبهم المتعجرفة وأزيائهم الرسمية الفخمة، ليسوا فوق شبهة السرقات الجماعية.

والغريب أنهم لو طلبوا منه لأهداهم بسعادة بعض حليه الرخيصة؛ ربما أعطاهم أشياء أفضل من التى أخذوها - على الرغم من كل شيء، ماذا يعرفون عن الأحجار الكريمة؟

حتى خاتمه الياقوت سُرِق. لم يهتم كثيراً بالأشياء الأخرى- أشياء ضئيلة القيمة- لكنه شعر بالأسى على النجاموك. كان عليهم أن يتركوا له النجاموك.

***

عند الوصول إلى مدراس، أُخِذ الملك وحاشيته إلى قصر أُعِدَّ لفترة إقامتهم في المدينة. منزل كبير فخم، فيه شيء محيِّر. ربما فرقة الجنود البريطانيين الذين يقفون على البوابة بمظهرهم العنيف، أو ربما شيء له علاقة بحشود المشاهدين الفضوليين الذين يتجمعون حول جدرانه يومياً. مهما يكن ذلك الشيء، لم تشعر أية فتاة بأنها في بيتها.

كثيراً ما ألحَّ مستر كوكس[٥] على المقيمين في المنزل بالخروج، للتمشية في الحدائق الرحبة المُنسقة (مستر كوكس الشرطي البريطاني الذي رافقهم في رحلتهم من رنجون وكان يجيد الحديث بالبورمية). سارت دلِّي وإفلين وأجستا حول البيت مطيعات، لكنهن سعدن دائمًا بالعودة إلى الداخل.

حدثتْ أشياء غريبة. وصلت أخبار من مندالي عن موت الفيل الملكي. فيل أبيض، عزيز جدًا حتى أنه رضع لبن الصدر: كانت المرضعات يقفن أمامه وينزلن بلوزاتهن. عرف الجميع أن الفيل لن يبقى على قيد الحياة طويلاً بعد سقوط الأسرة الحاكمة. لكن من كان يظن أنه سيموت بهذه السرعة؟ كانت أعجوبة. خيمت الكآبة على المنزل.

شعر الملك، مرات لا تحصى، بتوق للحم الخنزير. وبسرعة أصبح يستهلك كميات غير عادية من لحم الخنزير المقدَّد وفخذ الخنزير. ذات يوم أفرط في الطعام كثيراً ومرض. وصل طبيب بحقيبة جلدية وتجول في المنزل بحذائه. وكان على الفتيات أن يتبعنه وينظفن الأرضية. لم ينمْ أحد تلك الليلة.

ذات صباح خرجت أبودو مهتا[٦] تعدو، كانت امرأة عجوزًا تشرف على مربيات الملكة، وتسلقت شجرة. أرسلت الملكة المربيات الأخريات لإقناعها بالنزول. قضين ساعة تحت الشجرة، ولم تلتفت إليهن أبودو مهتا.

طلبت الملكة من المربيات العودة وأرسلت دلِّي وفتيات أخريات ليتحدثن إلى أبودو مهتا. كانت شجرة نيم[٧]، أوراقها كثيفة جداً. جلست الفتيات حول الجذع وتطلعن إلى أعلى. حشرت أبودو مهتا نفسها بين ملتقى فرعين.

قالت الفتيات: "انزلى. سيحلُّ الظلام عاجلاً."

"لا."

"لماذا لا؟"

"كنتُ سنجابا فى ولادتى الأخيرة. تذكرتُ هذه الشجرة. أريد أن أبقى هنا."

كان لأبودو مهتا كرش وفى وجهها ثآليل. همست إفلين: "تبدو أشبه بالضفدعة من السنجاب". غرقت الفتيات فى الضحك وجرين إلى الداخل.

خرج يو مُنج جى(٨)، المترجم، وهزَّها بقبضته. قال: الملك فى طريقه للنزول من غرفته، وسيحضر عصا ليضربك بها. وهنا نزلت أبودو مهتا مهرولة. عاشت فى قصر مندالى وقتًا طويلا وكانت ترهب الملك.

كان أى شخص يمكن أن يخبرها أن آخر شىء يمكن أن يحدث فى العالم أن يخرج الملك إلى الحديقة ويضربها بعصا. لم يخطُ خارج المنزل طوال مدة إقامته فى مدراس. فى بداية إقامتهم طلب مرة زيارة متحف مدراس. اندهش مستر كوكس وقال لا، بعنف شديد. بعد ذلك رفض الملك، فيما يشبه الاعتراض، أن يخطو خارج المنزل.

والملك يجلس فى غرفته لا يجد ما يفعله، سيطرت على عقله نزوات فضولية. قرر إعداد طبق ضخم من الذهب استعداداً لمولد طفله الجديد. سيكون وزن الطبق عدة أرطال ويرصع بمائة وخمسين من أفضل يواقيته. باع بعض مقتنياته لدفع تكلفة الطبق. وقام الموظفون التاميل المقيمون فى المنزل بدور الوسطاء.

كان بعض هؤلاء الموظفين جواسيس؛ عرف مستر كوكس فى الحال بالمبيعات. غَضِبَ. قال إن الملك يفقد ثروته، إضافة إلى أنه يُغَشُّ. باع خدمه أشياءه بجزء ضئيل من قيمتها.

صار الملك أكثر تكتمًا فى تعاملاته. أعطى دُلّى وإفلين جوهرة غالية وطلب بيعها. وكانت النتيجة انخفاض الأسعار التى يحصل عليها. عرف الإنجليز، عن طريق جواسيسهم حتْمًا، وأعلنوا أن الملك لا يمكن أن يؤتمن على المال وأصدروا قرارًا بالتحفظ على أقيم ممتلكات عائلته.

نزل هدوء تمردى على القصر. بدأت دُلّى تلاحظ تغيرات غريبة على إفلين وأجستا وصديقاتها الأخريات. صار الشيكو اللائى يقدمنه يتسم باللامبالاة؛ اشتكين من قُرَحٍ فى الرُّكَب ورفضن البقاء على أطرافهن الأربعة وهن ينتظرن الملكة، وعبسن فى وجهها أحيانًا حين صرختْ فيهن.

ذات ليلة استيقظت الملكة عطشانة ووجدت كل خادماتها نائمات بجوار سريرها. غضبتْ بعنف وألقت بلمبة فى الحائط وصفعت إفلين ومارى.

انزعجت إفلين بشدة. قالت لدُلّى: "لا يمكن أن يؤذونا ويضربونا بعد ذلك. يمكن ألا نبقى إذا أردنا."

سألت دُلّى: "كيف عرفْتِ؟"

"أخبرنى مستر كوكس. قال إننا كنا جوارى فى مندالى لكنا الآن حرائر."

"لكنا سجينات، أليس كذلك؟"

قالت إفلين: "ليس نحن. "مين(٩) وميبيا فقط" – تقصد الملك والملكة.

فكرت دُلّى فى هذا برهة: "وماذا عن الأميرتين؟"

جاء دور إفلين فى التفكير.

قالت فى النهاية: "نعم، الأميرتان سجينتان أيضًا."

وهذا حل المسألة التى تشغل دلّى. حيث توجد الأميرتان، عليها أن توجد أيضاً: لا تستطيع أن تتخيل حالهما بدونها.

ذات صباح وصل إلى البوابة رجل قال إنه جاء من بورما ليعيد زوجته إلى وطنها. كانت زوجته تُنجزين منثّمى[10]، إحدى المربيات المفضلات لدى الملكة. تركت أبناءها وراءها فى بورما وكانت فى شوق شديد إلى وطنها. قررت العودة مع زوجها.

ذكّرَ هذا الجميعَ بما حاولوا نسيانه، مسألة العودة إلى الوطن متروكة لهم جميعًا- ولا أحد منهم كان هناك لأنه يريد ذلك. بدأت الملكة تخشى أن تتركها كل فتياتها، لذا بدأت تقدم هدايا لمن تفضلهن. كانت دلّى إحدى المحظوظات، لكن لم تحصل إفلين أو أجستا على شىء.

غضبت الفتاتان لتجاهلهما، وبدأتا تقولان تعليقات ساخرة على مسامع الملكة. تحدثت الملكة إلى بادين ون، فأخذهما إلى غرفة مغلقة وضربهما وشد شعورهما. لكن ذلك جعل الفتاتين أكثر امتعاضاً. وفى الصباح التالى رفضتا انتظار الملكة.

رأت الملكة أن المسألة تجاوزت الحد. استدعت مستر كوكس وأخبرته برغبتها فى إعادة سبع فتيات إلى بورما. وكان عليها تدبير الأمر باستخدام خادمات محليات.

لم تكن هناك فرصة لحث الملكة على تغيير رأيها بمجرد أن تحزم أمرها على شىء. غادرت الفتيات السبع فى الأسبوع التالى: إفلين وأجستا ومارى وواهثو ونان بو ومِنْلون، وحتى هيمو[11]، وكانت من بينهم جميعًا الأقرب إلى دلّى فى العمر. كانت دلّى تعتبرهن دائمًا أخواتها الأكبر، عائلتها. عرفتْ أنها لن تراهن ثانية أبداً. فى صباح رحيلهن أغلقتْ غرفة على نفسها، ولم تخرج، حتى لتشاهد عربتهن تخرج من البوابات. أخذهن يو مُنْج جى، المترجم، إلى الميناء. حين عاد، قال إن الفتيات بكين على ظهر السفينة.

استُخدِم عدد من الخدم الجدد، رجالاً ونساء، كانوا جميعًا محليين. كانت دلّي إحدى آخر من تبقوا من أعضاء الفرقة الأصلية التى أتت من مندالى: وقع على عاتقها تعليم المجموعة الجديدة أساليب أهل المنزل. وكانت الأيات[١٢] والخادمات الجدد يأتين إلى دلّي حين يردن معرفة كيف كانت الأمور تجرى فى قصر مندالى. كان عليها أن تعلمهن تأدية الشيكو والحركة حول غرفة نوم الملكة على أيديهن وركبهن. كان الأمر بالغ الصعوبة فى البداية، لأنها لم تستطع التعبير بوضوح عما تريد. شرحت كل شيء بألطف أسلوب ولم يفهمن، صاحت أعلى وأعلى وكان رعبهن يزداد ويزداد. بدأن يفسدن أشياء ويكسرن مقاعد ويقلبن طاولات.

ببطء تعلمتْ بعض الكلمات التاميلية والهندوستانية، فصار العمل معهن أسهل، لكنهن لا يزلن يبدين بعض الخرق والحماقة بشكل غريب. كانت لا تقاوم الضحك أحيانًا– حين تراهُنَّ، على سبيل المثال، يجربن أداء الشيكو، يلوين المرافق ويعدلن السارى. أو حين تشاهدهن مكومات على ركبهن متذمرات، أو حين يتعثرن فى ثيابهن وينبطحن على وجوههن. لم تستطع دلّي أبدًا أن تفهم لماذا يجدن التنقل على أيديهن وركبهن صعبًا إلى هذا الحد. بدا بالنسبة لها أسهل كثيرًا من الوقوف كلما أرادت عمل شيء. طريقة مريحة أكثر: وأنت لا تفعل شيئًا محددًا، يمكنك الاسترخاء ووزنك على كعبيك. لكن الأيات الجدد اعتقدن أن الأمر صعب لدرجة الاستحالة. لا يمكن أبدًا أن تثق فيهن لحمل صينية إلى الملكة. قد يَسْكُبْن كل شيء وهن يحاولن السير فى الغرفة، أو الزحف ببطء، وقد يستغرق الأمر منهن نصف ساعة للوصول من الباب إلى سريرها. كانت الملكة تفقد صبرها تمامًا، وهى تستلقى على جانبها تشاهد كوب الماء يتحرك عبر الغرفة كأن قوقعة تحمله. صاحتْ أحيانًا، وربما كان هناك الأسوأ. قد تسقط الأيا المفزوعة والصينية وكل شيء، وتُعاد العملية برمتها من البداية.

كان الأسهل بكثير، بالطبع، ألا تلحَّ الملكة بشدة على الالتزام بكل القواعد القديمة التى كانت متبعة فى مندالى- الشيكو، الزحف - لكنها لم تكن لتسمح بأى تغيير. قالت إنها كانت ملكة بورما، وإذا لم تصر على أن تُعامل بالشكل المناسب، فكيف تتوقع من أى شخص آخر أن يقدم لها ما تستحق؟

ذات يوم تسبب يو مُنْج جى فى فضيحة كبرى. ذهبت إحدى مربيات الملكة إلى غرفة الأطفال فوجدتْه على الأرض مع مربية أخرى، ولُنْجيه مرفوع على خصره. وبدل أن يهرول خجلاً، استدار إلى مَنْ اكتشفته وضربها. طاردها إلى الدهليز وفى غرفة نوم الملك.

كان الملك يجلس إلى طاولة يلف شيروتاً(١٣). اندفع يو مُنج جى إلى المربية وهى تدخل عَدْواً. تعثَّرتْ وأمسكتْ بمفرش الطاولة. طار كل شىء فى الهواء: تناثر التبغ فى كل مكان. عطس الملك واستمرَّ فى العطس، استمرَّ فترة بدتْ ساعات. وحين توقف فى النهاية، كان فى حالة غضب لم يره أحد فيها من قبل. وكان هذا يعنى أنه مازالت هناك رحلات.

مع اعتقاد رئيسة المربيات أنها ستجاب وعودة أخرى إلى بورما، لم يبقَ للملكة إلا عدد ضئيل من المربيات اللائى يمكن الاعتماد عليهن، فقررت استخدام قابلة إنجليزية. عثر مستر كوكس على واحدة، مسز رايت(١٤). بدتْ على قدر كبير من الدماثة والودِّ، لكن وصولها أدى إلى مشاكل أخرى. لم تؤدِّ الشيكو أو تنزل على يديها وركبتيها وهى تنتظر الملكة. احتكمت الملكة إلى مستر كوكس، لكن الرجل الإنجليزى وقف فى صفِّ مسز رايت. قال، يمكنها أن تنحنى، من الخصر، لكنها ليست فى حاجة لأداء شيكو ومن المؤكد أنها لن تزحف. إنها إنجليزية.

قبلت الملكة حكمه، لكنه لم يحبب مسز رايت إليها. ازداد اعتمادها على مدلِّك بورمى التحق بطريقة ما بالحاشية الملكية. كانت يداه رائعتين تزيلان آلام الملكة. لكن

الطبيب الإنجليزى اكتشف الأمر وأثار ضجة هائلة. قال إن ما يفعله المدلِّكُ إهانة لعلم الطب. وقال إن الرجل يلمس جلالتها فى مواضع غير صحية. رأت الملكة أنه مجنون ولم تبعد المدلِّك. انتقم الطبيب ورفض علاجها بعد ذلك.

ولحسن الحظ جاء مخاض الملكة قصيراً والولادة سريعة وبدون مضاعفات. أنجبت بنتًا حملت اسم أشين هتيك سو مات بايا(١٥).

قلق الجميع لأنهم كانوا يعرفون رغبة الملكة فى إنجاب ولد. لكن الملكة أدهشتهم. كانت سعيدة، وقالت: قد تكون الفتاة أكثر قدرة على تحمُّل آلام المنفى.

***

لفترة صارت مندالى مدينة أشباح.

بعد الغزو البريطانى فرَّ كثير من جنود الملك إلى الريف بأسلحتهم. تصرفوا بمفردهم، شنُّوا هجمات على المحتلين، تمَّتْ أحيانًا داخل المدينة فى الليل. بدأ رد فعل الغزاة بتشديد قبضتهم. حدثت مطاردات وحالات إعدام وشنق. تردد صدى صوت نيران البنادق عبر الشوارع؛ قبع الناس فى بيوتهم وابتعدوا عن البازارات. انقضت أيام كاملة لم تتلقَّ فيها ماشو طلبًا لإشعال نار موقدها.

ذات ليلة تحطم كشك ماشو. تعاون رجكومار وماشو ونجحا فى إبعاد المعتدين. لكن حدث تدمير هائل بالفعل؛ أضاعت ماشو لبة واكتشفت أن معظم القدور والطاسات والأدوات سُرقتْ أو هُشِّمتْ. صرختْ صرخة مترعة بالأسى: "ماذا أفعل؟ إلى أين أذهب؟"

قبع رجكومار بجوارها. اقترح: "لماذا لا تكلمين سايا جون؟ ربما يساعدك."

شخرت ماشو باشمئزاز مختلط بالبكاء: "لا تحدثني عن سايا جون. ما فائدة رجل لا يوجد أبداً حين تحتاج إليه؟" انتحبتْ، ويداها تغطيان وجهها.

انبعثت الرقة في رجكومار. مرر يديه بعدم دراية على رأسها، ممشّطاً شعرها المجعد بأظافره: "لا تبكي، ماشو. توقفي، ماشو. توقفي."

دعكت أنفها واعتدلت. قالت بصوت أجش: "كل شيء على ما يرام. لا شيء." متعثرة في الظلام، مدَّتْ يدها إلى لُنْجيه، ومالتْ إلى الأمام لتجفف الدموع من وجهها.

كثيراً ما انتهتْ نوبات بكاء ماشو بهذه الطريقة، وهي تجفف وجهها بثوبه القطني الرقيق. لكن في تلك المرة، وأصابعها تلمُّ الملابس المهلهلة، سبب احتكاك القماش أثراً جديداً على رجكومار. شعر بتوهج الحرارة في أعماق جسده، وبشكل لا إرادي اندفع حوضه إلى الأمام، باتجاه أصابعها، وهي تغلق قبضتها. سحبتْ ماشو، غير مدركة للهجوم، قبضة من الملابس بفتور إلى وجهها، مسحتْ وجنتيها، ومسَّتْ الغضون حول فمها، ومرَّتْ على تجويفي عينيها المبللتين. ترنح رجكومار، وكان يجلس بجوارها تماماً، لفَّ مفصلي وركيه ليحافظ على المسافة مع يدها. لم يكشف القماش أمره إلا حين مررتْ طرف القماش المضموم بين شفتيها المتباعدتين. بين ثنايا الملابس المطبقة، وقد ابتلت والتصقت، شعرتْ بتصلب لا شكَّ فيه يلمس الزاويتين الرقيقتين لفمها. شددتْ من قبضتها، انتبهتْ فجأة، وضغطت على القماش المتجمع لتجسَّه. أُخِذ رجكومار، وقوَّس ظهره.

"أوه؟" نخرتْ. ثم، وبرشاقة مروِّعة، طارت إحدى يديها إلى عقدة لُنْجيه وحلَّتْها؛ ودفعته الأخرى لينزل على ركبتيه. فتحت ساقيها، وشدته، راكعاً، إلى مقعدها. صارتْ جبهة رجكومار على وجنتها؛ اندفع طرف أنفه الأسود في التجويف الذي تحت فكها. شمَّ رائحة الكركم والبصل تنبعث من بين ثدييها. وبعد ذلك ومض البياض المغشي أمام عينيه ودُفِع رأسُه إلى الخلف بأقصى ما يمكن، مشدوداً بتشنجات في عموده الفقري.

دفعتْه فجأة بعواء اشمئزاز. صرختْ: "ماذا أفعل؟ ماذا أفعل مع هذا الولد، هذا الطفل، هذا الكالا الغبي؟" أزاحته بكوعها، صعدت سلمها وتوارت في غرفتها.

مضى بعض الوقت قبل أن يستجمع رجكومار شجاعته ليتكلم. قال بصوت رفيعٍ متردِّدٍ: "ماشو، هل أنت غضبانة؟"

جاء النباح من فوق: "لا، لستُ غضبانة. انسَ ماشو ونمْ. فكِّرْ في مستقبلك."

لم يتحدثا أبدًا عما حدث تلك الليلة. في الأيام القليلة التالية لم ير رجكومار ماشو إلا نادراً: تختفي مبكراً في الصباح، وتعود في وقت متأخر من الليل. وذات صباح استيقظ رجكومار ليجدها رحلت إلى الأبد. تسلق، لأول مرة، السلم إلى غرفتها. ولم يجد فيها سوى لُنْجِي جديد أزرق، مطبَّق في منتصف الغرفة. عرف أنها تركتْه له.

ماذا يفعل؟ إلى أين يذهب؟ افترض دائمًا أنه سيعود في النهاية إلى سمبانه لينضم إلى رفاقه البحارة. لكنه حينذاك، وهو يفكر في حياته على المركب، عرف أنه لن يعود. رأى الكثير في مندالي وصارت لديه طموحات كثيرة.

فكر كثيراً، في آخر بضعة أسابيع، فيما قال ابن سايا جون، ماثيو- مِن أن الغزو البريطاني بسبب الساج. لا شيء آخر يمكن أن يُحسَب بدقة أكثر ليستقر في عقل مثل عقل رجكومار، فضولي ونهَّازٍ معًا. إذا قرر البريطانيون خوض حرب من أجل مجموعة أشجار، فلا يمكن أن يحدث ذلك إلا لأنهم يعرفون أن في الغابة ثروة خفية مخبأة. لم يعرف حقيقة تلك الثروات بالضبط، ومن الواضح أنه لن يعرف إلا إذا رأى بنفسه.

كان يسير بسرعة، حتى وهو يفكر في هذا، مبتعداً عن البازار. اكتشف، وهو يتلفت ليعرف موضعه، أنه أتى إلى واجهة كنيسة بيضاء. قرر التسكع سائراً بجوار الكنيسة مرة ومرة. لفَّ وانتظر، وبشكل مؤكد، لمح قبل مرور ساعة *سايا* جون يقترب من الكنيسة ويده في يد ابنه.

"سايا."

"رجكومار!"

الآن وجد رجكومار، وهو يقف وجهًا لوجه أمام سايا جون، نفسَه يعلِّقُ رأسه في حيرة. كيف يخبره عن ماشو وهو المسئول عن خيانة سايا؟

بدأ سايا جون بالكلام: "هل حدث شيء لماشو؟"

أومأ رجكومار.

"ماذا؟ رحلتْ؟"

"نعم، سايا."

تنهد سايا جون تنهيدة طويلة، محوِّلاً عينيه إلى السماء. قال: "ربما كان هذا أفضل. أظنها علامة على أن الوقت حان ليعود هذا الآثم أعزب."

"سايا؟"

"لا تبالِ. ماذا ستفعل الآن، رجكومار؟ تعود إلى الهند في مركبك؟

هزَّ رجكومار رأسه: "لا، سايا. أريد البقاء هنا، في بورما."

"وماذا ستفعل لتعيش؟"

"قلْتَ، سايا، إنني لو احتجتُ عملاً في أي وقت فعليَّ أن آتي إليك. سايا؟"

***

ذات صباح قرأ الملك في الصحف أن نائب الملك سيأتي إلى مدراس، أرسلَ إلى مستر كوكس في حالة استثارة هائلة.

سأل: "هل سيدعونا نائب الملك؟"

هزَّ مستر كوكس رأسه: "جلالتكم، لم أُخبَرْ بذلك."

"يتطلب البرتوكول ذلك. ملوك بورما أنداد لملوك سيام وكمبوديا وأباطرة الصين واليابان."

"آسف، جلالتكم، ربما كان الوقت متأخرًا جدًا بشكل لا يسمح بإجراء تعديل على خط رحلة نائب الملك."

"لكن يجب أن نراه، مستر كوكس."

"تحدد بالفعل عن وقت نائب الملك. أنا آسف."

"لكنا نريد معرفة ما تنوى الحكومة أن تفعله معنا. حين أتينا إلى هنا، قيل لنا إنه لن يكون المقر الدائم لنا. نودُّ معرفة أين سنعيش ومتى نذهب إلى هناك."

انصرف مستر كوكس ليعود بعد عدة أيام. قال: "جلالتكم، أنا سعيد لأنى أستطيع أن أخبركم بأن مسألة المقر الدائم لكم ولعائلتكم حُلَّتْ نهائيًا."

قال الملك: "أوه، وأين يكون؟"

"مكان اسمه رَتْناجيرى(١٦)."

حدَّق فيه الملك، فى حيرة: "ماذا؟ أين هذا المكان؟"

"حوالى مائة وعشرين ميلاً جنوب بومباى. مكان رائع، به مشاهد جميلة على البحر."

"مناظر جميلة؟"

طلب الملك خريطة وطلب من مستر كوكس تحديد مكان رَتْناجيرى. أشار مستر كوكس إلى نقطة فى مكان ما بين بومباى وجوا. ونبَّه الملك إلى أن المكان أقل أهمية من أن يُحدَّد على الخريطة.

"لكن يجب أن نكون في مدينة، مستر كوكس. هنا في مدراس. أو بومباي. أو كلكتا. ماذا نفعل في قرية صغيرة؟"

" رَتْناجيرى عاصمة مقاطعة، جلالتكم، وليست قرية بحال من الأحوال."

"كم نبقى هناك؟ متى يُسمَح لنا بالعودة إلى بورما؟"

كان مستر كوكس رجلاً عطوفًا، بطريقته الفظة. قال بصوت هادئ ومهذب: "جلالتكم، يجب أن تعدَّ نفسك للبقاء في رَتْناجيرى بعض الوقت. أخشى أن يكون وقتًا طويلاً. ربما..."

"ربما إلى الأبد؟"

سعل مستر كوكس: "لم أقل ذلك. ليس تمامًا. هذا ما أقول. لا، يجب أن أؤكد، لم أقل..."

نهض الملك فجأة وذهب إلى غرفته. ولم يخرج منها مرة أخرى لعدة أيام.

غادروا مدراس بعد شهر على سفينة بخارية اسمها كليف[17]. رحلة مختلفة تمامًا هذه المرة. أبحروا على طول الساحل ولم يبعد الشاطئ عن عيونهم إلا نادرًا. ساروا عبر مضيق بوك[18]، والطرف الشمالي لسيلان ظاهر على اليسار وأبعد نقطة جنوب الهند، رأس كُمورين[19]، في المشهد على اليمين.

بعد أربعة أيام من مغادرة مدراس دخلت كليف خليجًا واسعًا مشمسًا. كانت هناك منحدرات على جانبي الخليج، شاطئ جارف ونهر متعرج. البلدة على هضبة فوق الخليج؛ تغطيها أشجار جوز الهند بكثافة بحيث لا يمكن رؤية إلا القليل جدًا منها.

قضوا الليل على السفينة البخارية وذهبوا إلى الشاطئ في الصباح التالي. اندفعت كليف بجانب حاجز يمتدُّ مسافة طويلة في الخليج الضحل. كانت العربات تنتظرهم في الطرف البعيد، قرب قرية لصيد السمك. وتمت تحية الملك ببندقية وحارس

شرف. ثم انطلقت العربات فى مجموعة واحدة فى مسار ضيق تظلله الأشجار. على جانبى الطريق كانت المنازل مطلية باللون الأحمر، مع حدائق من أشجار المانجو وأشجار الأريقة[٢٠]. كان رجال الشرطة فى كل مكان، يبعدون الناس الذين احتشدوا للفرجة. مروا ببازار وسجن بحوائط رمادية وصف من ثكنات الشرطة. وانتهى الطريق عند بنجلو[٢١] كبير من طابقين داخل حديقة حولها سور. كان على جرف عال فوق البلدة، يطل على الخليج. اسمه منزل أُطْرام[٢٢].

دخل الملك فى البداية وصعد السلالم ببطء. ذهب إلى غرفة نوم كبيرة ودخلها. غرفة مؤثثة بمنضدة وسرير وثلاثة مقاعد؛ مفتوحة على بلكونة صغيرة ناحية الجنوب، باتجاه البحر. تجوَّل الملك ببطء شديد بين الغرف. عبث بالدُّرف الخشبية المضلعة، خدش زهرية الشموع ومرر إصبعًا على لوحة على الحائط شبه مطموسة، وفتَّتَ الجص المشقق بين إصبعه وإبهامه. كانت رائحة عفن خفيف تفوح فى الغرفة وآثار فطر عفنٍ على الحائط. حاول تسجيل تلك الأشياء فى ذاكرته، لأنه يعرف أنها ستشحب بمرور الزمن ويأتى يوم يريد أن يتذكرها- حيوية أول لقاء له بموضع أسْرِه، رائحة عفونته الفظيعة وخشونة ملمسه على البشرة.

فى الدور الأرضى كانت دُلِّى تجرى عبر الحديقة مع الأميرة الأولى، تطارد سحلية حمراء زاهية. كان المنزل مختلفًا عن قصر مدراس، أصغر بكثير لكنه أكثر رحابة. هنا يمكن للمرء أن يجرى ويلعب الاستغماية بين جذوع أشجار جوز الهند المتمايلة. ذهبتْ إلى شجرة مانجو فروعها تصل إلى نافذة فى الدور العلوى من البنجلو. ربما كانت غرفتها، نافذتها، والأغصان الصغيرة تحف فى الزجاج.

قُرِع جرس فى المعبد، فى مكان ما من البلدة. توقفتْ لتسمع، نظرت إلى منحدر الحديقة، عبر قبة من أوراق جوز الهند، باتجاه الخليج الواسع المتلألئ. شمَّتْ رائحة السمك المجفف والبخور. كم كان مشرقًا، كم كان هادئًا. بدا كل شىء آمنًا جداً هنا، خلف هذه الجدران الحجرية المرتفعة.

سمع الملك الأجراس أيضًا. خرج إلى بلكونة غرفة النوم فى الدور العلوى. البلدة كلها تتمدد تحت، يحيط بها اندفاع الخليج والنتوءان المرتفعان على الجانبين. مشهد رائع، كما قال مستر كوكس. عاد إلى غرفة النوم. جلس فى مقعد وشاهد الظلال الشبحية لأشجار جوز الهند تتمايل على جدران الغرفة المطلية بالجص الأبيض. مثل حيات الرمل، ستتراكم الساعات فى هذه الغرفة حتى تدفنه.

هوامش

(١) معبد شوى داجون Shwe Dagon Pagoda: يعرف أيضاً بالمعبد الذهبي، عبارة عن برج هرمى مذهب ارتفاعه ٩٨ متراً، يوجد فى ينجون، بورما. ويقع المعبد على هضبة غرب إحدى البحيرات. وهو من أكثر المعابد قدسية عند بوذيى بورما.

(٢) ثونزاى: Thonzai.

(٣) ألونجبيا Alaungpaya (١٧١٥ - ١٧٦٠) : ملك بورما ١٧٥٢-، ١٧٦٠ مؤسس أسرة كُنْبُنج Konbaung.

(٤) استراند: Strand. جدوين: Godwin. خليج بَزُنْدَنْج: Pazundaung Creek. كورينجيون Cooringhees: لم أعثر على الكلمة، لكن يفهم من موضع تال فى الرواية أنهم مجموعة عرقية تعيش شرق الهند.

(٥) مستر كوكس: Mr. Cox.

(٦) أبودو مهتا: Apodaw Mahta.

(٧) نيم neem: شجر طويل ينمو فى شرق الهند والمناطق الاستوائية فى أسيا، يستخرج من حبوبه زيت عطرى.

(٨) يو مُنْج جى: U Maung Gyi.

(٩) مين Min: الملك.

(١٠) تُنجزين منِثْمى: Taungzin Minthami.

(١١) واهثو: Wahthau. نان بو: Nan Pau. مِنْلوِن: Minlwin. هيمو: Hemau.

(١٢) أيا ayah: المربية أو الخادمة الهندية، وسوف أجمع الكلمة على أيات.

(١٣) شيروت cheroot: نوع من السيجار، كل من طرفيه على شكل مربع.

(١٥) أشين هتيك سو مات بايا: Ashin Hteik Su Myat Paya.

(١٦) رَتْناجيرى Ratnagiri: مدينة (فى مقاطعة تحمل نفس الاسم) على بحر العرب، فى أقصى جنوب غرب الهند.

(١٧) كليف: Clive.

(١٨) مضيق بوك Palk Strait: ممر مائى بين جنوب شرق الهند وشمال سريلانكا، مشهور بأخطاره ومياهه الغادرة.

(١٩) رأس كُمورين Cape Comorin: نقطة أقصى جنوب الهند، تمتد فى المحيط الهندى.

(٢٠) الأريقة areca: نوع من النخيل ينمو فى بعض المناطق الاستوائية.

(٢١) بنجلو bungalow: منزل صغير يتكون عادة من دور واحد ويضاف له أحيانًا دور آخر، ويحاط بفراندة واسعة.

(٢٢) منزل أُطْرام: Outram House.

الجزء الثانى

رَتْناجيرى

(٦)

كان موسم الشغل السنوى بالنسبة لرجكومار وسايا جون مع ارتفاع النهر. كل بضعة أسابيع يحمِّلان حمولة من الأكياس والأقفاص والصناديق على مركب نهرى من أسطول السفن البخارية فى إرَّاوِدِّى: سفن بخارية تتحرك بعجلة تجديف، يقودها غالبًا اسكتلنديون ومعظم ملاحيها من خلاسى شيتاجنج، وهو العمل الذى سعى رجكومار له ذات يوم. مع ثقل النهر الممتلئ خلفها، يندفعون مع التيار من مندالى بسرعات تعرقل رحلات الأسطول. عند الغروب، وقت الاندفاع إلى الشاطئ، كثيرًا ما رسوا على ضفة النهر خلف قرية صغيرة من أكواخ بسقوف من القش، تجتمع حول ساحة عرض قسم شرطة.

مهما يكن صغر القرية، يُنصَب فى الحال سوقٌ حول السفينة البخارية الراسية: باعة متجولون وباعة أطعمة وأصحاب محلات على المركب، يسرع باعة وجبات خفيفة مقلية ومقطرو المشروب المحلِّى ببضائعهم، مبتهجين بهذا الجمع غير المتوقع من الزبائن. تتسرب أحيانًا أخبار السفينة البخارية إلى فرقة متجولة. مع حلول الليل، بمصاحبة فرقة أزيز المطر تنشط شاشات محركى الدمى على الضفاف والتخوم الكالحة المرتجفة، تلوح من الظلام تخوم بوبو وباين، مِنْثامى ومنثاجى، نَتْكابو ونان بلو[1]، كبيرة وأليفة مثل الظلال على القمر.

كان سايا جون يحبُّ السفر بالدرجة الأولى فى كابينة: ازدهرت أعماله وكان يكسب ما يزيد على حاجته. انتقل إلى منزل كبير فى ٣٣ شارع مندالى - بناية يقيم

فيها رجكومار وكل من له صلة بأعماله بشكل ما. غيَّر الاحتلال البريطاني كل شيء: اندمجتْ بورما في الإمبراطورية بسرعة، تحولَّتْ بالقوة إلى إقليم من أقاليم الهند البريطانية. وصارت مندالي الهادئة مركزًا تجاريًا نشطًا؛ استُغلت الثروات بطاقة وكفاءة متناميتين تفوقان الحلم حتى ذلك الوقت. جُدِّد قصر مندالي ليخدم المتع المبهمة للمحتلين: تحول الجناح الغربي إلى نادٍ بريطاني؛ صارت قاعة استقبالات الملكة غرفة بليارد؛ غُطِّيَت الحوائط المرصعة بالمرايا بنسخ مضى عليها شهور من البنش وأخبار لندن المصورة[٢]؛ جُرِّفت الحدائق لتوفير مساحات لملاعب التنس والبولو؛ وصار الدير الصغير الرائع الذي قضى فيه ثيبو رهبنته كنيسة يقيم فيها القساوسة الأنجلوكان القربان المقدس للقوات البريطانية. كان من المتوقع بالتأكيد أن تصبح مندالي بعد وقت قصير شيكاغو آسيا؛ الازدهار مصير طبيعي لمدينة تشهد التقاء اثنين من أكبر الممرات المائية في العالم، إراَّودي وشِنْدوين[٣].

كان سايا جون يحقق مكاسب هائلة من توفير إمدادات ومؤن عبر النهر لمعسكرات الساج. ومع أنه لم يكن شغوفًا بالفخامة، إلا أنه شعر بضرورة الحصول على قسط كافٍ من النوم في الليل وهو يبحر على رحلات الإمدادات. وكانتْ كابينة في الدرجة الأولى على ظهر سفينة بخارية في إراودي، على رغم من كل شيء، رفاهية بسيطة.

كان رجكومار يقضي ليالي الإبحار على السطح السفلي للمركب. وكان بعض أفراد الطاقم أولادًا في مثل عمره، وظيفتهم التعلق بمقدمة السفينة، وشاقول[٤] في اليد، كما فعل ذات يوم، وملاحظة انحراف رمال الشواطئ وتحديد الأعماق: "إك جاز؛ دو جاز؛ تين جاز[٥]..." معهم يتحدث لغته، لغة شيتاجُنْج، وحين تَرْكنُ السفينة البخارية للراحة، يوقظونه من على حصيرته على ظهر السفينة ويصطحبونه إلى اليابسة، ليفرجوه على الأماكن التي يذهب إليها الملاحون في الليل.

وحين يعود رجكومار إلى الشاطئ فى اليوم التالى، تكون عيناه حمراوين، وسايا جون منتعشاً، يتناول فطوره بشهية مفعماً برغبة قوية لتفريغ بضائعه، ليشقَّ طريقه إلى المعسكر الذى يتوجه إليه. وكان الجزء الأول من الرحلة يتمُّ عادةً على عربات ثيران، تقاوم وحل الأنهار وهى تقعقع فى اتجاه الجبال البعيدة.

وحين يتم كل شيء طبقًا للخطة، تنتهى الرحلة عند قرية صغيرة داخل البلاد، حيث ينتظر فريق من الفيلة يريح العربات من حمولتها، وتعود فارغة من حيث أتتْ. لكن كثيراً جداً ما عرفوا، حين يصلون إلى رأس الطريق، أن المعسكر الذى قصدوه ليس به أفيال، مما يعنى أن عليهم العثور على حمالين لنقل حمولتهم إلى الجبال. وكان على رجكومار أيضًا أن يشدُّ سلة على ظهره، باهًا[٦]، مجدولة بغطاء عميق وشريط على الجبهة. وعلى عاتقه تقع وسائل الرفاهية الصغيرة التى يطلبها خاصة معاونو الغابة الذين يديرون معسكرات الخشب - سيجار وزجاجات ويسكى وعلب لحوم معبأة وسردين، وذات مرة أرسل روى وكو[٧]، المحل الكبير فى رنجون، إناء من الكريستال.

كانوا يشرعون فى الرحلة فى الفجر وسايا جون فى مقدمة صفٍّ من الحمالين ورجكومار يحرك المؤخرة؛ يتسلقون، كالبغال، طرقًا جانبية بطول مسارات مشبَّعة بالمطر، حافرين حواف أقدامهم فى وحل أحمر لا مهرب منه. وكان من طقوس سايا جون أن يبدأ هذه الرحلات دائمًا، فيما يشبه معتقداً خرافياً، بملابس أوروبية: قبعة سولا[٨] وحذاء من الجلد وبنطلون كاكى. وكان رجكومار يسير حافياً مثل الحمالين، لا يرتدى إلا صدرة ولُنْجِياً وقبعة مزارع بحافة كبيرة.

لكن بصرف النظر عن حرص سايا جون، لم تصمد تقاليده أبداً لفترة طويلة: كانت شجيرات تظهر للحياة وهم يمرون بها، تتطفل متجلية مثل محاليق[٩] تستيقظ بفعل حرارة الأجسام التى تمر بها. ولأن سايا جون يرتدى أثقل الملابس فى الجماعة، كان لابدَّ أن يجنى أغلى هذه الثمار الدموية. كان يطلب التوقف كل ساعة أو ساعتين.

كانت القوافل تحتمي بملاذات بسقوف من البامبو، يقيمها الخشابون على مسافات منتظمة. وكان سايا جون، وهو يجثم تحت سقف يَقْطر ماء، يمدُّ يده إلى حقائبه ليخرج علبة مغلفة وضع فيها رجكومار كبريته وشيروته. يشعل شيروتًا ويسحب نفَسًا عميقًا فيتوهج طرف طويل. ثم يفحص جسمه، ويحرق ديدانه(١٠) واحدةً واحدة.

كانت معظم الديدان تتجمع دائمًا بطول شقوق الجسد، حيث تحتك الملابس بالجلد: ترشد الثنايا والتجاعيد المخلوقات إلى غاياتها المفضلة: الإبطين والعانة والشقوق بين الساقين والردفين. ووجد سايا جون في حذائه أحيانًا أعدادًا هائلة من الديدان، التصق معظمها بالجلد بين الأصابع- أثمن ما يقدمه جسم الإنسان لدودة. وكان بعضها يندفع تحت ضغط الحذاء، تاركة ماصاتها مغروسة في الجسم. تلك المواضع تجذب الحشرات غالبًا كما تجذب الديدان؛ إذا تُركتْ وشأنها تتقيح وتتحول إلى قرح عميقة تنبعث منها رائحة عفونة. على هذه البقع كان سايا جون يضع كو يوك(١١) - جزء ضئيل من تبغ أحمر يشبه الزفت، يرش على ورقة أو قماش. قد تلتصق الضمادة بشدة في الجلد وتبقى متصلة به بعد غمرها في المياه، فتمنع التلوث وتحمي الجرح. كان سايا جون يخلع في كل محطة قطعة من الملابس، وفي ساعات قليلة يكون مثل رجكومار، لا يرتدي إلا لُنْجيًا وصدرة.

كانوا يتبعون دائمًا طريق شونج(١٢)، جدول جبلي مندفع. كل بضع دقائق يسقط زند مندفعًا إلى أسفل في طريقه إلى السهل. وكان الاصطدام في منتصف الجدول بإحدى هذه القذائف التي تزنُ طنين يعني العجز أو القتل. وحين يتحول المسار من إحدى ضفتي شونج إلى الأخرى، يوضع مراقب لتحديد الفواصل الزمنية بين الزنود ليعرف الحمالون الوقت الآمن للمرور.

لم تكن الزنود غالبًا تسقط فرادى بل مجموعات، عشرات الأطنان من الخشب الصلب تسقط معًا في الجدول: حين ترتطم ببعضها، يمتدُّ التأثير بطول الضفتين.

أحيانًا، كان يصطدم زند بجذع شجرة تحت المياه، فى تدفقها أو على الشاطئ، وفى دقائق يرتفع فى الماء سد متشابك يعوق التيار. مرة بعد أخرى تتصادم الزنود معًا مضيفة إلى وزن الخشب الجامد المتراكم. قد يرتفع وزن الكتلة بشكل لا يُقاوَم. وفى النهاية يحدث شىء؛ يتحرك زند، محيطه تسعة أقدام، كعود ثقاب. بانفجار هائل ينقلب وتتنظف موجة مد من الخشب والماء منحدرات الجبل.

كان سايا يحب القول: "جداول شونج هى الرياح التجارية للساج."

فى موسم الجفاف، حين تتشقق الأرض وتذبل الغابات، تتضاءل الجداول وتصبح قطرات على المنحدر، لا تقدر على حمل حفنة من أوراق الشجر، مجرد مجارٍ هزيلة من الوحل بين خيوط من البرك فى قاع النهر الغائم. فى ذلك الموسم يمشط الخشابون الغابة بحثًا عن الساج. وبمجرد العثور على الأشجار، تُقتَل وتُترَك لتجف، لأن الساج لا يبقى طافيًا وقلب الخشب رطبًا. يتم القتل بحزام من الحز. تُنحَت شرائح رفيعة فى عمق الخشب على ارتفاع أربعة أقدام وست بوصات من الأرض (تحكم الساج، على رغم من نموه فى البرارى، قيودٌ إمبراطورية تتعلق بأدق التفاصيل).

تُترَك الأشجار المغتالة لتموت حيث تقف، ثلاث سنوات أحيانًا وربما أكثر. ولا يشار بقطعها إلا بعد أن تجفَّ بما يكفى للطفو. يأتى رجال بالفؤوس، وأسلحتهم على أكتافهم، يحدِّقون بطول الشفرات لتحديد زوايا سقوط الضحايا.

ميتة إذا جاز التعبير، تَدقُّ الأشجارُ محتجةً نواقيسَ هائلةً وهى تسقط، انفجارات رعدية مدوية تُسمَع على بعد أميال، موقعة بكل ما فى مسارها: مجموعاتٍ من الشجيرات، شباك الخيزران الهندى الملتفة. تُسوِّى قوائم البامبو فى لحظات، تنفجر آلاف الأطراف المترابطة بشكل متزامن انفجارات انشطارية قاتلة، ملقية بغيوم من أطلال عش الغراب.

ثم تذهب فرق الفيلة للعمل، يقودها مدربوها، أوسيون وبيسيون[١٣]، يسوقونها وينخسونها ويحمِّلون ظهورها. توضع أحزمة من اللفائف الخشبية على الأرض، وتنقضُّ بين أرجل الفيلة أصابع البَكيكين[١٤] السريعة، المتخصصة في ربط السلاسل، تربط الأطقم الصلبة. وحين تتحرك الزنود في النهاية، يعني احتكاك مرورها أن على حملة المياه الجري بجوارها، غامرين البكر المدخن بجرادل مائلة.

كانت الزنود تُسحَب إلى ضفاف الشونج، تُكدَّس في أكوام وتترك حتى يستيقظ الشونج من سُبَات الموسم الحار. مع الأمطار الأولى، تتحرك البرك بطول قيعان الجداول وتتمدد وتربط الأطراف، ترتفع ببطء حتى تنظف البقايا المتراكمة طوال أشهر الجفاف. ثم، خلال أيام، والأمطار تهطل، ترتفع في قيعانها، ترتفع مئات المرات: كانت ذاوية تحت الأغصان وأوراق الشجر، إلا أنها بعد أسبوع تُلقِي بزنود يزن الواحد منها طنين في الجداول مثل سهام من الريش.

هكذا تبدأ رحلة الزنود إلى شوادر الخشب في رنجون: والأفيال تدفعها على المنحدرات إلى المياه المزبدة في جداول الشونج. بعد وضعها على الأرض، تشق طريقها من الجداول المغذية إلى الروافد، وتصل في النهاية إلى أنهار السهول الطافحة بالمياه.

في السنوات التي تشحُّ فيها الأمطار، حين تكون جداول الشونج واهية جداً بحيث لا تستطيع رفع هذه الأوزان الهائلة، تهبط أرباح شركات الخشب. وحتى في السنوات التي يكثر فيها المطر تكون هذه الجداول الجبلية غيورة، تعاقِب الرؤساء المتعسفين. في قمة الموسم قد تتسبب شجرة واحدة في قاع النهر في تراكم خمسة آلاف زند، وربما أكثر. كانت الخدمة في هذه المياه البيضاء عِلْمًا في ذاته، بكادر خبرائه، فرق خاصة من الأوسيين والأفيال تقضي شهور الرياح الموسمية تعسُّ دون توقف في الغابة: أسراب أنْجنْج[١٥] الشهيرة، المهرة في الفن الصعب الخطير، فن تنظيف الشونج.

ذات مرة، وسايا جون يستظل بجوار جذع شجرة ساج محتضرة ومطوّقة، أعطى رجكومار ورقة نعناع ليمسك بها في يد وورقة سقطت من الشجرة في الأخرى. قال، جسَّهما، افركْهما بين أصابعك.

الساج قريب النعناع، تِكتونا جرَنديس[١٦]، يولد من نفس جنس النبات المزهر لكنه من شعبة مغزلية، يترأسها ألطف الأعشاب، نبات رعى الحمام. ومن أقاربه المقربين عدد آخر كبير من الأعشاب العطرة المألوفة- المريمية والزعتر البرى والزعتر والخزامى وإكليل الجبل، والريحان المقدس الأروع، بسلالاته الكثيرة، الأخضر والأرجواني، الأوراق الناعمة والأوراق الخشنة، الحريف والعطر، المر والحلو.

كانت هناك شجرة ساج في بِجُو[١٧] ذات يوم، طول جذعها مائة قدم وستة أقدام من الأرض إلى أول فرع. تخيل حال ورقة النعناع إذا أورقتْ على نبات يرتفع في الهواء أكثر من مائة قدم، باسقًا من الأرض، بدون نحول أو انحراف، ساقه مستقيمة مثل الشاقول، تظهر أوراقه الأولى في القمة تقريباً، وتجتمع قريبة من بعضها وتنتشر مثل يدى غواص يصعد إلى سطح الماء.

ورقة النعناع في حجم إبهام رجكومار، والأخرى في حجم قدم فيل؛ إحداهما عشب يستخدم لإضافة نكهة للحساء، والأخرى من شجرة أهلكت أسرات حاكمة، وتسببت في الغزو، خلقتْ حظوظاً وخلقتْ طريقة جديدة للحياة. وحتى رجكومار، الذى لم يكن يميل بحال من الأحوال إلى الانغماس في الغريب أو العجيب، اعترف بأن هناك، بين الشعيرات الواهية لإحداهما والفراء النسيجى الخشن المنتصب للأخرى، علاقة لا شك فيها، رابطة أسرية محسوسة.

***

كانت أجراس الأفيال تميز معسكرات الساج. يُعتمد على الصوت دائمًا، حتى حين يخرسه المطر أو المسافة، لإنتاج تأثير سحرى فى طابور من الحمالين، يسرعون وينشطون.

كان رجكومار، بصرف النظر عن المسافة التى قطعها أو الإرهاق الذى حل به، يشعر بالحيوية فى أعماقه حين يلوح معسكر فجأة على مدى البصر – منطقة منزوعة الأشجار فى غابة بها بضعة أكواخ بسقوف من القش، تلتف حول طاى[١٨]، منزل خشبى مستطيل مشيد على ركائز.

كانت معسكرات الساج على شاكلة واحدة دائمًا، إلا أنها مختلفة تمامًا، لم يشيَّدْ أبداً معسكران فى الموضع نفسه بين موسم والموسم التالى. كانت الأفيال تبدأ بالنزول إلى الغابة، والنتيجة أن تحمل حتمًا المناطق منزوعة الأشجار آثار أشجار مقلوبة وحفر لم تردم جيداً.

يقام فى مركز كل معسكر طاى، يشغله معاون الغابة دائمًا، موظف الشركة المسئولة عن المعسكر. كانت هذه الطايات، فى عين رجكومار، بنايات لا نظير لها فى الفخامة: تُشيَّد على منصات خشبية، ترتفع حوالى ستة أقدام عن الأرض على أعمدة من خشب الساج. يتكوَّن كل منها من عدة غرف كبيرة، تؤدى كل منها إلى الأخرى وتنتهى أخيراً بفراندة واسعة، ويُصمَّم دائمًا بحيث يطل على أجمل منظر ممكن. وحيث يكون فى خدمة معاون الغابة فى معسكر لوجا لى[١٩] مُجِدٌّ، تظلل فراندة الطاى مظلة من الكروم المزهر، مع زهور تتوهج كالجمر على حصيرة من البامبو. هنا يجلس المعاون فى المساء، وفى إحدى يديه كأس من الويسكى وفى الأخرى بايب، يشاهد الشمس تغرب عبر الوادى ويحلم بوطنه البعيد.

كان هؤلاء المعاونون رجالاً مغرورين شاردين. يرتدى سايا جون قبل أن يذهب لمقابلتهم ملابس أوروبية دائمًا، قميصاً أبيض وبنطلوناً قطنياً. ويشاهد رجكومار عن

بعد سايا جون يقترب من الطاى ويلقى التحية، وإحدى يديه تستريح باحترام على الدرجة السفلى من السلم. إذا وجهت له الدعوة، يتسلق السلم ببطء، واضعًا قدمًا بعد الأخرى باحتراس. ثم تأتى موجة ابتسامات وانحناءات وتحيات. يعود فى دقائق أحيانًا؛ وكان المعاون يقدم له، أحيانًا، كأسًا من الويسكى ويطلب منه البقاء لتناول العشاء.

كقاعدة كان المعاونون مستقيمين دائمًا فى سلوكهم. لكن ذات يوم بدأ معاون يعنِّف سايا جون، ويتهمه بنسيان شىء طلبه. صرخ الرجل الإنجليزى: "اغرب بهذا الوجه الكالح من هنا...أراك فى الجحيم، يا صينى[٢٠]."

لم يكن رجكومار يعرف الإنجليزية، لكن لا شكَّ فى أنَّ فى صوت المعاون غضبًا وازدراء. للحظة رأى رجكومار سايا جون بعينى المعاون: صغيرًا وشاذًا وغريبًا بملابسه الأوروبية غير المناسبة، وقد بدا أكثر بدانة فى بنطلونه القطنى ذى الشرائط المعلقة فى ثنيتين سميكتين حول كاحليه، بقبعته السولا البالية تجلس غير مستقرة على رأسه.

كان رجكومار فى خدمة سايا جون منذ ثلاث سنوات ويراه مرشده فى كل شىء. ازداد غضبه وسخطه من سلوك معلمه. جرى عبر المنطقة منزوعة الأشجار إلى الطاى، بنيِّةٍ صادقة لصعود السلم ومواجهة المعاون فى الفراندة.

لكن فى تلك اللحظة نزل سايا جون مسرعًا، ووجهه مكفهر وحزين.

"ساياجاى! أصعد...؟"

"تصعد أين؟"

"إلى الطاى. لأرى ذلك اللقيط..."

"لا تكن أحمق، رجكومار. اذهب وابحث عن شيء مفيد تفعله." بنبرة انزعاج، أعطى سايا جون ظهره لرجكومار.

كانا يقضيان الليل مع الهسن أوق[٢١]، قائد معسكر الأوسيين. كان من المفضل أن تكون أكواخ الخشابين خلف الطاى، حتى لا تحجب الرؤية عن المعاون. وكانت هذه البنايات مساكن صغيرة مدعومة بركائز، وتتكون من غرفة أو اثنتين، وفى واجهة كل منها بسطة تشبه البلكونة. شيد الأوسيون الأكواخ بأيديهم، وحين يعيشون فى معسكر، يعتنون بالمكان بكل ما فى وسعهم، يصلحون الشقوق فى سواتر البامبو يوميًا، ويرممون السقوف ويشيدون أضرحة لناتاتهم[٢٢]. وكثيرًا ما زرعوا مساحات صغيرة، تُسيَّج جيدًا، بالخضراوات حول أكواخهم، ليقتصدوا فى حصص الطعام الجاف الذى يُرسل من السهول. وقد يربى بعضهم دجاجًا أو خنازير بين ركائز أكواخهم؛ وكان آخرون يسدون الجداول القريبة ويزودونها بالأسماك.

أخذت معسكرات الساج، نتيجة لهذا الاقتصاد، شكل قرى جبلية صغيرة: مبانٍ عائلية تجتمع فى نصف دائرة خلف منزل الريس. وكان هذا مضلِّلاً، لأن الإقامة مؤقتة تمامًا. يستغرق بناء المعسكر يومًا أو اثنين من فريق الأوسيين، لا يستخدمون إلا الكرم والبامبو المقطوع حديثًا والبوص المجدول. فى نهاية الموسم، يُهجَر المعسكر للغابة، وفى العام التالى يقام معسكر آخر فى موضع آخر.

فى كل معسكر يخصص للهسن أوق أكبر كوخ، وفيه يقيم عادة سايا جون ورجكومار. غالبًا ما يجلس سايا جون ورجكومار، حين يكونان فى المعسكر، فى بلكونة الكوخ، يتحدثان إلى وقت متأخر من الليل. كان سايا جون يدخن الشيروت ويستغرق فى ذكرياته– عن حياته فى الملايو وسنغافورة وعن زوجته الراحلة.

فى الليلة التى وبخ المعاون فيها سايا جون، استلقى رجكومار وقتًا طويلاً مستيقظًا، يحدق فى الأنوار المرتجفة فى الطاى. على رغم من نصيحة سايا جون لم يستطع التخلص من سخطه على تصرف المعاون.

ورجكومار ينجرف فى النوم، سمع شخصًا يزحف خارجًا إلى البلكونة. كان سايا جون، مسلَّحًا بعلبة كبريت وشيروت. استيقظ رجكومار فجأة من جديد غضبان مثلما كان فى أول المساء.

انفجر رجكومار: "ساياجاى، لماذا لم تقلْ شيئًا والرجل يصرخ بتلك الطريقة؟ غضبتُ وكنتُ أريد أن أذهب إلى الطاى وألقِّنه درسًا."

ألقى سايا جون نظرة عبر المنطقة مقطوعة الأشجار إلى طاى المعاون، وكان الضوء لا يزال مشتعلاً. كان شبح المعاون واضحًا، محددًا على حوائط البوص الرقيق؛ كان يجلس فى مقعد، يقرأ كتابًا.

"لا حق لك فى أن تغضب، رجكومار. هنا يجب ألا تبالى، وربما أسوأ. ما يحيرنى أن معظمهم ليسوا على شاكلة هذا الشخص."

"لماذا، ساياجاى؟"

"فكر فى الحياة التى يعيشها هنا هؤلاء الأوروبيون الشباب. أمامهم فى أفضل الظروف عامان أو ثلاثة فى الأدغال قبل أن تضعفهم الملاريا أو حمى الدنج[٢٣] بدرجة تجعلهم لا يحتملون البعد عن الأطباء والمستشفيات. تعرف الشركة ذلك جيداً؛ تعرف أن هؤلاء الرجال يصابون فى بضع سنوات بالشيخوخة قبل الأوان، يشيخون فى الحادية والعشرين؛ ويكون نقلهم إلى مكاتب المدينة ضروريًا. فقط عند وصولهم أول مرة، فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، يمكن أن يعيشوا حياتهم، وفى هذه السنوات القليلة على الشركة الاستفادة منهم قدر ما تستطيع. لذا يرسلونهم من معسكر إلى معسكر لشهور فى النهاية مع فترات راحة نادرة بينها. انظر إلى هذا الشخص: قيل لى إنه عانى من نوبة سيئة من حمى الدنج. هذا الرجل ليس أكبر منك بكثير، رجكومار– ربما فى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة– وهو هنا، مريض ووحيد، على بعد آلاف الأميال من وطنه، حوله أناس لم يعرف مثلهم أبدًا، فى أعماق غابة. انظر إليه: إنه هنا يقرأ كتابه، ولا أثر للخوف على وجهه."

قال رجكومار: "أنت أيضاً بعيد عن وطنك، ساياجاى. وأنا أيضاً."

"لكنا لسنا بعيدين مثله. وأمر بقائنا هنا، نجنى ثمار هذه الغابة، متروك لنا. انظر إلى الأوسيين فى هذا المعسكر؛ انظر إلى هسن أوق، يستلقى على حصيرته، دائخاً من الأفيون؛ انظر الزهو الزائف الذى ينتابهم لمهارتهم كمدربين للأفيال. يعتقدون، لأن آباءهم وعائلاتهم عملوا جميعا مع الأفيال، أن لا أحد يعرف حيواناتهم مثلهم. لكن لم يفكر أحد منهم أبداً فى استخدام الأفيال لنقل الخشب حتى جاء الأوروبيون. لم تُستخدَم أفيالهم إلا فى المعابد والقصور، فى الحروب والاحتفالات. الأوروبيون هم الذين رأوا أنه يمكن استغلال هذه الأفيال الأليفة فى العمل لصالح الإنسان ,وابتكروا كل ما نراه حولنا فى هذا المعسكر لتقطيع الخشب ونقله. هذا الأسلوب فى الحياة برمته من ابتكارهم. هم الذين فكروا فى هذه الطرق لتحزيم الأشجار، طرق نقل الزنود بالأفيال، نظام تعويمها فى النهر. حتى تفاصيل بناء هذه الأكواخ ومكانها، تصميم الطاى، استخدام سقوف البامبو والخيزران الهندى- لم يفكر الأوسيون بحكمتهم العتيقة فيها. جاءت كل هذه الأشياء من عقول رجال مثل هذا الرجل الذى يجلس فى هذا الطاى- هذا الولد الذى لا يكبرك بكثير."

أشار التاجر بإصبعه إلى شبح الشخص الذى فى الطاى. قال: "هل ترى ذلك الرجل، رجكومار؟ هذا شخص يمكن أن تتعلم منه. لتخضع أعمال الطبيعة لإرادتك؛ لتجعل أشجار الأرض مفيدة للبشر - ماذا يمكن أن يكون أكثر روعة، أكثر إثارة من هذا؟ هذا ما أودُّ قوله لأى ولد فى مقتبل العمر."

كان رجكومار يعرف أن سايا جون لا يفكر فيه، فى اللوجا لى، بل فى ماثيو، ابنه الغائب، مما أدى إلى غصة مفاجئة ومروعة من الأسى. لكن الألم لم يستمر إلا لحظة، وحين تلاشى شعر رجكومار أنه الأقوى جداً والأفضل إعداداً. كان هنا، على رغم من كل شىء، فى هذا المعسكر وماثيو بعيدٌ فى سنغافورة.

هوامش

(١) بودو Bodaw؛ باين Bayin؛ منثامى Minthami؛ منثاجى Minthagyi؛ نتكادو Natkadaw؛ نان بلو Nan Belu.

(٢) بنش Punch؛ أخبار لندن المصورة Illustrated London News.

(٣) شندوين Chindwin: نهر ينبع من الهضاب فى شمال بورما ويبلغ طوله ١١٥٨ كم، جنوب نهر إراودى.

(٤) الشاقول أو القادن plum-line: خيط يعلق فى طرفه قطعة من الرصاص لتحديد العمق.

(٥) إك جاز Ek gaz، دو جاز do gaz، تين جاز teen gaz: ياردة، ياردتان، عشر ياردات.

(٦) باه pah: نوع من السلال.

(٧) روى وكو: Rowe & Co.

(٨) قبعة سولا sola topee: قبعة من الفلين للحماية من الشمس.

(٩) المحلاق tendril: جزء لولبى رفيع من النبتة المعترشة يساعدها على التعلق بسنادها.

(١٠) ديدان leeches: نوع من الديدان المائية التى تمتص الدماء.

(١١) كو يوك: kow-yok.

(١٢) شونج: chaung.

(١٣) أوسيون oo-sis وبيسيون pe-sis: مدربو الأفيال أو الفيّالون.

(١٤) البَكيكون pakyeiks: متخصصون فى ربط السلاسل.

(١٥) أنجنْج: aunging.

(١٦) تكتونا جرَنديس tectona grandis: الاسم اللاتينى للساج.

(١٧) بجُو Pegu: مدينة فى بورما، عاصمة مقاطعة باجو، تبعد ٥٠ ميلا عن ينجون.

(١٨) طاى tai: فى الفقرة التالية وصف كاف له، وتجمع الكلمة هنا على طايات.

(١٩) لوجا لى luga-lei: مساعد.

(٢٠) يا صينى: الكلمة المستخدمة Chinaman وليس Chinese، وتستخدم عادة للتحقير.

(٢١) الهسِن أوق hsin-ouq: ريس الأوسيين، مدربى الأفيال.

(٢٢) نات nat: وتجمع الكلمة هنا على ناتات.

(٢٣) حمى الدنج dengue fever: مرض فيروسى فى المناطق الحارة، ينتقل عن طريق الناموس، ويتميز بارتفاع شديد فى درجة الحرارة وطفح جلدى وصداع وآلام شديدة فى العضلات والمفاصل.

(٧)

فى رتناجيرى اعتقد كثيرون أن الملك ثيبو أول من يعرف دائمًا متى يطلب البحر ضحية. كان يقضى الساعات فى البلكونة يوميًا، يرنو للبحر بنظارته ذات الإطار الذهبى. وتعلم الصيادون التعرف على الومضتين المتشابهتين المحددتين لمنظار الملك. كانوا، وهم عائدون إلى الخليج فى المساء، ينظرون فى اتجاه البلكونة على قمة الهضبة، كأنهم يطمئنون. قال الناس، لا شىء حدث فى رتناجيرى، إلا والملك أول من يعرف.

إلا أن الملك نفسه لم يُرَ أبدًا بعد اليوم الأول حين غادر المرفأ مع عائلته. كانت المركبات الملكية مشهدًا مألوفًا فى البلدة، مع فرقها من الجياد المرقطة وحوذيها بشاربه. لكن الملك لم يخرج معهم أبدًا، وإذا خرج، فمن المستحيل معرفة ذلك. كان للعائلة الملكية جاريان- إحداهما طراب مفتوحة والأخرى برام[١] بنوافذ عليها ستائر. كانت هناك إشاعات بأن الملك يختبئ أحيانًا فى البرام، لكن لم يتأكد أحد من ذلك بسبب الستائر المخملية الثقيلة.

كانت الأميرات، من ناحية أخرى، يُشاهَدْن فى البلدة ثلاث مرات أو أربعًا كل عام، ينزلن إلى مرفأ مَنْدفى[٢] أو معبد بهجفتى[٣]، أو منازل المسئولين البريطانيين المسموح لهن بزيارتهم. عرفهن أهل المدينة بالشكل- الأميرات الأولى والثانية والثالثة والرابعة (ولدت الرابعة فى رتناجيرى، فى السنة الثانية من نفى الملك).

ارتدت الأميرات فى السنوات الأولى فى الهند الملابس البورمية عادة - أينجيًا وهتامينًا. وبمرور السنوات تغيرت ثيابهن. ذات يوم، لا يتذكره أحد بدقة، ظهرن بالسارى - ليس السارى الغالى أو الفخم بل البسيط الأخضر والأحمر المصنوع من

القطن والشائع فى المقاطعة. بدأن يضفرن شعورهن ويضعن عليها الزيوت مثل فتيات المدارس فى رتناجيرى؛ تعلمن التحدث بالماراتية(٤) والهندوستانية بطلاقة مثل أهل المدينة – لا يتحدثن البورمية إلا مع أبويهن. كن جميلات، متميزات، مباشرات تمامًا وتلقائيات. حين يسرن فى الشوارع فى العربة، لا يشحن بوجوههن أو ينظرن بعيداً. كان فى عيونهن جوع وتوق كأنهن يشتقن لمعرفة معنى السير فى بازار جينجيناكا(٥)، والتسكع فى المحلات والمساومة على سارى. كن يجلسن منتبهات ومنتصبات، ويهتممن بكل شىء، ويسألن الحوذى أحيانًا: أى محل سارى هذا؟ ما نوع المانجو على تلك الشجرة؟ ما نوع السمك المعلق فى الكشك الذى هناك؟

كان موهان سوانت(٦)، الحوذى، ولدًا من أهل المقاطعة من قرية فقيرة قرب النهر، له عشرات الأقارب فى البلدة، يعملون فى جر الركشو وحمالين وأصحاب تونجا(٧): كان الجميع يعرفونه.

كان الناس يسعون إليه حين يذهب إلى البازار: "أعطِ الأميرة الثانية هذه المانجو. ألفونس من حديقتنا. أعطِ الفتاة الصغيرة حفنة من هذا الكوكم(٨) المجفف. رأيتها تسألك عنه."

مسَّتْ عيون الأميرات كل مَنْ نظروا إليها. كن أطفالا: ماذا فعلن ليعشن بهذا الشكل؟ لماذا يمنعن من زيارة عائلات المنطقة؛ من تكوين صداقات مع الأطفال الماراتيات المتعلمات؟ لماذا يصرن نساء بدون أن يصحبن إلا الخادمات؟

كانت الملكة تخرج فى العربة، مرة أو مرتين فى العام، مع بناتها، وجهها قناع أبيض، صارم ومتبلد، وشفتاها مصبوغتان بالبنفسجى الداكن المميت بفعل الشيروت. يحتشد الناس فى الشوارع ليشاهدوها وهى تمر بهم، لكن لا يبدو أبدًا أنها لاحظتْ، وهى تجلس منتصبة مثل قضيب بوجه صارم متبلد، أى شخص أو أى شىء.

وكانت هناك مس دلّي، بشعرها الأسود الطويل ووجهها الصريح، جميلة مثل أميرة فى قصة خرافية. على مر السنين، ابتعد ببطء كل مَنْ رافقوا العائلة الملكية إلى رتناجيرى - الخادمات والأقارب وموظفو المنزل. لم يبق إلا مس دلّي.

***

عرف الملك ما يقوله الناس عنه فى رتناجيرى، وإذا كان قد انتبه للقوى التى تُعزَى إليه، فإنه كان يتسلى أيضًا ولم يكن متملِّقًا تافهًا. حاول بطرق بسيطة أداء واجبه طبقًا للدور الذى أُلقِيَ على عاتقه. وقفتْ نساء على السطوح أحيانًا، ورفعن أطفالاً حديثى الولادة على أمل جذب البركَة المتخيلة لنظرته. كان يبقى نظارته موجهة إلى أولئك الأمهات الساذجات عدة دقائق فى كل مرة. بدا شيئًا صغيرًا جدًّا لا يستحق السؤال لماذا لا يهب الأشياء التى فى قدرته أن يعطيها؟

ولم يكن كل ما يقال عنه غير حقيقى. مسألة الملاحين، على سبيل المثال: كل يوم، حين يخطو إلى البلكونة فى الفجر، يرى الأشرعة البيضاء المربعة لأسطول صيد الأسماك تندفع عبر الخليج كمجموعة من الطوابع. كانت المراكب هوريات، قطمرانات(٩) عميقة بذراع واحدة، من قرية الصيادين فى كرلا(١٠) عند منبع النهر. وفى المساء، والشمس تكبر وتغطس فى الأفق، يرى المراكب نفسها تتأرجح أمام الريح وتنزلق فى الخليج. لم يهتم أبدًا بعدِّ المراكب المبحرة صباحًا، لكنه بطريقة ما عرف دائمًا العدد بالضبط. ذات يوم، والقطمرانات بعيدة فى البحر، رأى عاصفة مفاجئة تعصف بها. فى ذلك المساء والأسطول يكافح للعودة، عرف أن العدد لم يكن صحيحًا، فُقِد مركب.

بعث الملك إلى سوانت؛ كان يعرف أن قرية الصيادين لا تبعد كثيرًا عن القرية التى تعيش فيها أسرة الولد. لم يكن سوانت قد صار حوذيًا؛ كان فى الرابعة عشرة ولا يزال مجرد سائس(١١)، سائس.

قال الملك: "سوانت، هبت عاصفة فى البحر." وشرح ما حدث. هرول سوانت إلى أطراف الهضبة، ووصلت الأخبارُ قريةَ الصيادين قبل عودة المراكب. هكذا بدأت أسطورة ملك رتناجيرى اليقظ.

كان الموقع المتميز لبلكونة الملك يطلُّ على أفضل مشهد للبحر فى المقاطعة: من الطبيعى أن يرى بعض الأشياء قبل الآخرين. كان فى الخليج، فى مكان لا يبعد كثيراً عن المرفأ، منزل صغير للمراكب، سقيفة بسقف من القش قرب مستودع. كانت هناك حكاية عن منزل المراكب. قيل إن جنرالاً بريطانيًا، اللورد ليك(١٢)، سار ذات مرة فى رتناجيرى مع وحدة من القوات المتميزة، تُعرف بالكتيبة الملكية، بعد حملة طويلة اندحر فيها عدد من الحكام الوطنيين. كانت معنويات سموه مرتفعة، وذات ليلة، بعد مساء طويل من البهجة، نظَّم سباقًا بالمراكب لضباطه. صودرت المراكب من الصيادين المحليين وتدفق ضباط الكتيبة الملكية عبر الخليج فى الزوارق والقوارب، يجدفون بحماس، وجنودهم يهتفون لهم. طبقًا للأسطورة، فاز سموه بالسباق.

بعد ذلك صار التجديف فى الخليج تقليداً بين موظفى رتناجيرى. طرأتْ تحولات على أمور أخرى فى الهند مثل صيد الخنازير بالرماح والبولو؛ فى رتناجيرى كان الخليجُ المكانَ الوحيد الذى يوفر ذلك. ضم منزل المراكب، بمرور السنوات، ضريحًا صغيراً لأبطال التجديف وأساطير البحرية. ومن أشهرهم مستر جِب(١٣)، مجدف متميز من كمبريدج ومسئول مقاطعة يحظى بسمعة طيبة. كان مستر جِبْ مجدِّفًا صاحب خبرة كبيرة واشتهر بقيادة زورقه، زورق السباق الطويل البسيط عبر قناة الخليج الضيق المضطرب، إلى البحر الواسع. لاحظ الملك الأداء الأول لهذا العمل المدهش؛ ومن خلاله سمعت به رتناجيرى.

تطلع سكان رتناجيرى إلى الملك للحصول على معلومات يُعتد بها عن هبوب الرياح الموسمية أيضًا. كل عام يستيقظ ذات صباح ليرى زيادة طفيفة، وجلية، فى لون

الخط الذى يشطر نافذته. تلك البقعة فى الأفق، الرفيعة مثل خط أنتيمون على جفن العين، تكبر بسرعة وتتحول إلى كتلة متحركة من المطر. كان منزل أُطرام، على قمة الهضبة، أول مكان تصل إليه الرياح الموسمية على اليابسة؛ تأتى الأمطار بغزارة إلى البلكونة؛ يتسرب الماء تحت الباب ومن شقوق النافذة، ويتجمع بعمق بوصات تحت سرير الملك.

"سوانت! المطر هنا. أسرعْ! أحكمْ إغلاق النافذة، هات الجرادل وانقلْ كل ما على الأرضية."

فى دقائق تطير الأخبار إلى أطراف الهضبة. "رأى الملك الأمطار." تحدث حركة هائلة أسفل الهضبة؛ تندفع الجدات لنقل المخلل من الشمس، ويجرى الأطفال منشرحين خارج منازلهم.

كان الملك أول من يلحظ السفن البخارية تتجه إلى الخليج. فى رتناجيرى، كان قدوم هذه السفن وذهابها يشير لمرور الوقت، وهو ما تقوم به طلقات المدافع وساعات الأبراج فى البلدات الأخرى من المقاطعة. فى الصباح والسفينة البخارية على وشك الوصول، يحتشد الناس بأعداد كبيرة فى مرفأ مندفى. تنزلق مراكب صيد السمك إلى الخليج فى الفجر بحمولات من السمك المجفف. ويسير التجار فى عربات الثيران المحملة بالفلفل والأرز.

لم ينتظرْ أحد وصول السفن البخارية بنفاد صبر أكثر من الملك ثيبو. لم يستطع، على رغم من تحذيرات الطبيب، كبح شوقه للحم الخنزير. ولأنه لم يكن متوافراً فى رتناجيرى، كانت طلبات لحم الخنزير المملح وفخذ الخنزير تأتيه على السفن أسبوعيًا من بومباى؛ ومن جُوَا يأتى سجق الشوريكو(١٤) البرتغالى المتبل بالفلفل.

حاول الملك، بأقصى ما يستطيع، مقاومة هذه الرغبة الجامحة. وكثيراً ما فكر فى سلفه البعيد، ناراهيهاباتى(١٥) ملك بورما، الذى اشتهر بنهمه للحم الخنزير. نتيجة

لسلوكه الشائن فى التخلى عن عاصمته لجيوش كوبيلاى خان(١٦)، اكتسب ناراهيهاباتى اللقب المخجل "الملك الذى هرب من الصينى." دسَّتْ له زوجته وابنه السم الذى أنهى حياته. لم يكن حب لحم الخنزير بُشرَى طيبة فى ملك.

كان الملك يلمح السفينة البخارية عادة وهى بعيدة فى البحر، على بعد حوالى ساعة من المرفأ. "سوانت! المركب" وفى دقائق يكون الحوذى فى طريقه فى البرام.

صارت العربة بشارةَ السفينة البخارية. لم يعد الناس ينتظرون طول اليوم فى المرفأ: كان نزول البرام إشعارًا كافيًا بوصول السفينة البخارية. بهذه الطريقة، انتقل عبء تحديد الأيام ببطء من السفن البخارية إلى *العربة السوداء* بشعار *الطاووس*: كأن الزمن نفسه انتقل إلى عهدة ثيبو. صار ثيبو، مختفيًا فى بلكونته، الروح الحارسة للبلدة، صار ملكًا من جديد.

***

ودلّى فى الخامسة عشرة انتشر الطاعون على طول الساحل. تلقتْ رتناجيرى بشكل خاص ضربة قاسية. اشتعلت النيران ليلاً ونهارًا فى محرقة الجثث. خلت الشوارع. غادر البلدةَ أناسٌ كثيرون؛ ومكث الآخرون فى منازلهم.

كان منزل أُطرام بعيدًا عن أماكن انتشار الوباء، بعيدًا جدًّا عن المراكز الرئيسية للسكان مما يجعله فى مأمن من العدوى. لكن تبين والهلع ينتشر فى المقاطعة أن هذه العزلة لم تكن بدون مخاطر: حوصِر منزلُ أُطرام بالإهمال. لم يكن فى *البنجلو* صرف صحى أو إمدادات مياه. كان الكناسون يفرغون المراحيض يوميًا من القاذورات؛ والماء يحمل فى جرادل من أقرب جدول. ومع انتشار الطاعون، توقف الكناسون عن المجىء واستلقى حمالو المياه قلقين بجوار المطبخ.

قامت دُلّي عادة بدور الوسيط بين العاملين فى المجمع والعائلة الملكية. نتيجة النقص، على مدار السنوات، وقع على عاتقها المزيد والمزيد من الواجبات اليومية لسكان المنزل. لم تكن مهمة التعامل مع أعداد كبيرة من العاملين فى المجمَّع سهلة – الحمالين والسوّاس والبستانيين والأيات والطهاة. حتى فى أفضل الأوقات وجدت دُلّي مشكلة فى العثور على خدم أو تشجيعهم على البقاء. وكانت المشكلة دائمًا فى عدم توافر الأموال لدفع الرواتب. باع الملك والملكة كل ما جاءا به تقريبًا من مندالى: نفد الكنز، كله باستثناء بضع هدايا تذكارية وتذكارات الماضى.

شعرتْ دُلّي، والبلدة ساكنة خوفًا من المرض، بما تعنيه إدارة المنزل بدون مساعدة. بانتهاء اليوم الأول، فاحتْ من المراحيض نتانة لا تُحتمَل، وفرغت الخزانات ولم تكن هناك مياه للغسيل أو الاستحمام.

لم يتبقَّ من الخدم إلا عدد قليل، يعيشون فى العزبة، ومنهم سوانت. ترقَّى سوانت بسرعة من سائس إلى حوذى، وألقى عليه تبلده ومرحه بعض المسئولية على رغم من حداثة سنه. فى لحظات الأزمة لجأ إليه الجميع.

فى أول يومين عملتْ دُلّي، بمساعدة سوانت، على التأكد من امتلاء خزانات غرفة نوم الملكة. لكن لم يكن هناك ماء للملك، والمراحيض غير قابلة للاستخدام تقريبًا. توسلتْ دُلّي لسوانت: "افعل شيئًا، موهانبهى، كوشه تو كارو[١٧]".

"انتظرى."

وجد سوانت حلاً: إذا سمحت الملكة لعمال المنزل ببناء ملاجئ مؤقتة حول جدران المجمَّع، فسيكونون أيضًا فى مأمن من العدوى. سيعودون، والأكثر من ذلك، سيكونون دائمًا فى متناول اليد للقيام بمهامهم. ولن يكون على السعاة بعد ذلك الذهاب والعودة بين المجمع والبلدة، لاستدعاء هذا الطاهى أو تلك الأيا؛ ولن يكون هناك بعد ذلك كلام عن ترك العمل. يصبحون قرية صغيرة تتمتع باكتفاء ذاتى، أعلى الهضبة.

ضغطتْ دلّي على ذراعه ضغطة امتنان: "موهانبهي!" للمرة الأولى منذ أيام تشعر بالقدرة على التنفس مرة أخرى. يمكن الاعتماد عليه، جاهز دائمًا بحلٍّ. ماذا يفعلون بدونه؟

لكن، كيف تحصل على موافقة الملكة؟ تشكو دائمًا من صغر المجمع، وضيقه، ومن أنه يشبه سجنًا. ماذا تقول على منظر انتقال العاملين كلهم من البلدة؟ كان الوقت يمضى بسرعة. ذهبتْ دلّي إلى باب الملكة.

"ميبيا."

"نعم؟"

رفعتْ دلّي رأسها من الأرض وجلستْ على كعبيها: "توقف الخدم عن الحضور بسبب المرض فى البلدة. خلال يوم أو يومين يهربون إلى الريف. لن يبقى أحد فى رتناجيرى. بعد وقت قصير لن يكون هناك ماء فى المنزل. ستطفح المراحيض. ويكون علينا حمل القانورات بأنفسنا إلى أسفل الهضبة. يقول موهانبهى، لماذا لا ندعهم يبنون بعض الحجرات حول المجمع، وراء الجدار؟ ويرحلون حين ينتهى الخوف. يحلّ هذا كلَّ شىء."

تحولت الملكة عن الفتاة الراكعة لتنظر من النافذة. كانت أيضًا منزعجة من التعامل مع الخدم- تعساء، تعساء عاقين، ماذا تقول عنهم أيضًا؟ كلما أعطيتهم أكثر، بدا أنهم يريدون الأكثر- نعم، حتى الطيبون، مثل هذه الفتاة دلّي. مهما أخذوا، هناك دائمًا شىء آخر، طلب آخر- مزيد من الملابس، عقْد آخر. وبالنسبة للآخرين، الطهاة والكناسين والأيات، لماذا بدا العثور عليهم أصعب مع كل سنة تمرُّ؟ ما كان عليك إلا أن تخطو خطوة للخارج لترى آلاف الناس يقفون هنا وهناك، يحملقون، وليس هناك ما يفعلونه أفضل من التسكع على جانب الطريق. إلا أنك قد تعتقد أنك تعيش فى عالم من الأشباح حين تحتاج إلى خدم.

ومع انتشار المرض، كانوا على يقين من أنهم سيهلكون بالآلاف. ثم ماذا؟ صار الذين يريدون العمل أكثر ندرة – مثل الأفيال البيضاء. الأفضل السماح لهم بالانتقال قبل مرور الوقت. ما قالته الفتاة صحيحًا: بقاؤهم على الهضبة أكثر أمنًا، بعيدًا عن البلدة. وإلا نقلوا المرض إلى المجمع. وهناك مميزات تعوض البشاعة. سيكونون تحت الطلب كلما احتجنا إليهم، ليلاً أو نهاراً.

التفتت الملكة إلى دلّي: "قررتُ. ليبنوا ملاجئهم على الهضبة. اطلبي من سوانت أن يخبرهم بأنه يمكنهم البدء فوراً."

خلال أيام ارتفع بَسْتي(١٨) حول المجمع، مستعمرة من الأكواخ والعشش. انسابت المياه في حمامات منزل أُطرام؛ صارت المراحيض نظيفة مرة أخرى. شكر مستوطنو البستي الملكةَ يوميًا. حان دورها لتُؤلَّه: صارت طوال الليل الربة الحارسة، حامية سيئي الحظ، ديفي(١٩) المجسدة التي حمت المئات من ويلات الطاعون.

بعد شهر انقشع الوباء وكان حول المجمع حوالي خمسين عائلة يعيشون. لم يبدُ دليل على عودتهم إلى بيوتهم القديمة في الدروب المكتظة في البلدة: العيش على الهضبة المنعشة أجمل بكثير. تشاورتْ دلّي في الأمر مع الملكة، وقررتا ترك المستوطنين يقيمون. قالت الملكة: "ماذا لو حلَّ وباء آخر؟ على رغم من كل شيء، لا نعرف إن كان قد انتهى حقًا."

سعدت الأميرات ببقاء الأكواخ: لم يكن لهن أبدًا من قبل رفاق لعب في عمرهن. صار لديهن العشرات. كانت الأميرة الأولى في الثامنة، والصغرى في الثالثة. قضين أيامهن يجرين حول المجمع مع أصدقائهن الجدد، واكتشفن ألعابًا جديدة. حين يجعن يجرين إلى أكواخ أصدقائهن ويطلبن شيئًا يأكلنه؛ بعد الظهيرة، حين لا تسمح حرارة الجو باللعب في الخارج، يغلبهن النوم على الأرضيات الطينية في عشش بسقوف من النخيل.

بعد أربع سنوات حلَّ وباء طاعون آخر. انتقل مزيد من الناس إلى الهضبة. كما توقع سوانت، صار البستى حول المجمع قرية صغيرة فى ذاتها، بأزقة متعرجة ومحلات فى الأركان. لم تعد المبانى تقتصر على الأكواخ والعشش. ظهرت منازل من الطوب اللبن، واحداً واحداً. لكن المستعمرة الصغيرة لم تكن مزودة بالصرف الصحى أو أية تسهيلات أخرى. حين تحول النسيم، اجتاحت منزل أُطرام رائحة البراز والزبالة، قادمة من الوهاد على الجانب البعيد من الجُرْف.

اهتمَّ المسئول الإنجليزى عن المقاطعة بمسألة تعليم الأميرات ورتب لاستخدام مربية إنجليزية. أبدت الأميرة الصغرى فقط استعداداً للدراسة. كانت هى ودُلِّى أكثر من استفادتا من وجود المربية. بسرعة تحدثتا الإنجليزية بطلاقة، وبدأت دُلِّى ترسم بالألوان المائية. لكن المربية لم تمكث طويلاً. استاءت بشدة من أحوال أسر العائلة الملكية واختلفتْ مع المسئولين البريطانيين فى المنطقة. عادت فى النهاية إلى إنجلترا.

كبرت الأميرات، وكذلك رفاق اللعب. أحياناً يشدُّ الأولاد، وهم يجرون حول المجمع، ضفائر الفتيات ويتحرشون بهن. بدأ سوانت يأخذ دور الحامى والنصير. ينطلق مندفعًا إلى البستى، ليعود بكدمات على وجهه وجروح فى شفته. فتجتمع دُلِّى والأميرات حوله فى هلع صامت: بدون أن يسألن يعرفن أن جروحه كانت دفاعًا عنهن.

كان سوانت شاباً طويلاً داكن اللون بصدر عميق وشارب أسود مشذَّب. لم يكن مجرد حوذى لكنه كان بواباً أيضًا. ولذلك خُصِّصتْ غرفة حراسة بجوار البوابة لاستخدامه الخاص. غرفة صغيرة، بنافذة واحدة فقط وسرير ضيق، لا يزينها إلا صورة لبوذا– تذكاراً لتحول سوانت تحت تأثير الملك.

كانت غرفة سوانت، فى السياق الطبيعى، محرمة على الفتيات، لكن لم يستطعن البقاء بعيداً وهو فى الداخل، يعالج جروحه التى حدثت من أجلهن. وجدن طرقًا للتسلل إليها، متخفيات، ومعهن أطباق من الطعام وعلب الحلوى.

بعد ظهيرة يوم حار في يوليو، ودلّي تدخل غرفة سوانت لغرض من أغراض المنزل، وجدته نائمًا على سريره الضيق. كان عاريًا إلا من مئزر أبيض، لَنْجُتْ[٢٠] من القطن، معقود بين ساقيه. شاهدتْ، وهي تجلس بجواره، صدره يهتز مع نفَسه. فكَّرتْ في إيقاظه، مدَّتْ يدها إلى كتفه، لكن يدها سقطت على عنقه. كانت بشرته زلقة، مغطاة بطبقة رقيقة من الرطوبة. نزلت بالسبَّابة إلى وسط صدره، خلال بركة العرق التي تجمعتْ في المنحدر، حتى الحفرة اللولبية لسرَّته. كان خط من الشعر الناعم يتدلى إلى أسفل، مختفيًا في الثنايا الندية للَنْجُتْه القطني. لمست الشعيرات بطرف إصبعها، وسرَّحتْها إلى الخلف، عكس اتجاهها الطبيعي، دفعتْها منتصبة. تقلب وفتح عينيه. شعرت بأصابعه على وجهها، يتتبع شكل أنفها، ويباعد ما بين شفتيها، ويمسُّ طرف لسانها، ويتتبع المنحنى نازلاً إلى حلقها. حين وصل إلى فتحة الثوب، أوقفتْ يده.

"لا."

اعترض: "لمستِني في البداية."

لم ترد. جلستْ ساكنة وهو يتحسس أربطتها ومشابكها. كان ثدياها صغيرين، تأخرا في النمو، أعلاهما حلمتان ضئيلتان ناضرتان. كانت على يدي الحوذي نتوءات شائكة، وكانت حواف راحتيه خشنة على الحلمتين الرقيقتين. وضعتْ يديها على جانبيه وحركتهما إلى ضلوعه. انحلّتْ خصلة من الشعر على صدغه، ونزلت قطرات العرق ملتفة إلى الجدائل، منقطة ببطء من طرف، على شفتيه.

"دلّي، أنت أجمل فتاة في العالم."

لم يعرف أحد منهما ما عليه أن يفعل. بدا توافق أطرافهما معًا مستحيلاً. انزلق جسماهما، متعثرين، ومتورطين. ثم شعرت فجأة باشتعال لهب الألم العظيم بين ساقيها. صرختْ بصوت عالٍ.

فكَّ لنجُته القطنى وجفَّفَ دمها، مسحه من على وركيها. أمسكتْ بطرف اللنجت ونشَّفت البقع الحمراء على حشفته المحمرة. مدَّ يده بين ساقيها ونظَّف عانتها برقة. استراحا على كعوبهما، متواجهين وركبتا كل منهما بين ساقى الآخر. نشر قطعة الملابس البيضاء المبللة على سيقانهما المتشابكة: كان دمها الساطع مرقَّطًا ببقع من منيه. حدقًا فى قطعة الملابس الزاهية فى دهشة صامتة: كانت من صنع أيديهما، راية اتحادهما.

رجعتْ فى اليوم التالى وفى أيام كثيرة بعد ذلك. كان سريرها فى غرفة الملابس فى الدور العلوى. والأميرة الأولى تنام فى غرفة النوم المجاورة. بجوار سرير دُلِّى نافذة، وفى الخارج شجرة مانجو، يسهل الوصول إليها. اعتادت دُلِّى التسلل إلى الخارج فى الليل والعودة متسلقة قبل الفجر.

بعد ظهيرة أحد الأيام، فى غرفة سوانت، غلبهما النوم، وعرقا على الخيط الرطب لسريره. دوَّتْ صرخة فى الغرفة فانتفضا مستيقظين. كانت الأميرة الأولى تقف بجوارهما، وعيناها تبرقان، ويداها فى خصرها. فى حرارة غضبها تحولتْ من فتاة فى الثانية عشرة إلى امرأة.

"كنتُ محتارة، وقد عرفتُ الآن."

أمرتْ دُلِّى بارتداء ملابسها، ومغادرة الغرفة: "إذا رأيتكما وحدكما معًا مرة أخرى، فسأخبر جلالتها. أنتما خادمان. سيُلقى بكما إلى الخارج."

ركع سوانت، عاريًا تقريبًا، على ركبتيه، مشبِّكًا يديه معًا: "أميرة، كانت غلطة، غلطة. أسرتى، يعتمدون علىَّ. افتحى قلبك، أميرة. كانت غلطة. لن تتكرر مرة أخرى أبدًا."

منذ ذلك اليوم، تتبعتهما عينا الأميرة الأولى حيث يذهبان. أخبرت الملكة بأنها رأت لصًا يتسلق شجرة المانجو. اقتُطِعت الشجرة ووُضِعتْ قضبان في إطار النافذة.

***

صدر قرار بوصول صحف بومباي إلى منزل أُطْرام مع شحنة الملك من لحم الخنزير. حملت الدفعة الأولى تقارير عن موضوع بالغ الأهمية: قصة عن جولة أوروبية لملك سيام، شولالانجكُرْن[٢١]. المرة الأولى التي يسافر فيها عاهل آسيوي إلى أوروبا في زيارة رسمية. استغرقت الجولة عدة أسابيع وخلال ذلك الوقت لم يهتم الملك ثيبو بشيء آخر.

في لندن أقام الملك شولالانجكُرْن في قصر بكنجهام. رحب به في النمسا الإمبراطور فرانز جوزيف[٢٢]؛ أيده في كوبنهاجن ملك الدنمرك؛ في باريس كرمه الرئيس الفرنسي. في ألمانيا وقف القيصر فيلهلم[٢٣] ينتظره في المحطة حتى دخلها قطاره. قرأ الملك ثيبو التقارير مرة ومرة، حتى عرفها عن ظهر قلب.

لم تنقض فترة طويلة على غزو والد جد ثيبو، ألونجبايا، وجده، بجايدو[٢٤]، سيام، وتدمير جيوشها، وخلع حكامها، ونهب أوتاهيا[٢٥]، عاصمتها. ونتيجة لذلك، اختار النبلاء المهزومون حاكمًا جديدًا وأصبحت بانكوك العاصمة الجديدة للبلاد. بسبب ملوك بورما، بسبب أسلاف ثيبو، بسبب أسرة كُنْبُنْج، كان لسيام أسرة حاكمة جديدة وملكها الحاكم.

قال ثيبو لبناته ذات يوم: "حين غزا جدُّنا، ألونجبايا العظيم، سيام، أرسل خطاباً إلى ملك أوتاهيا. وكانت في أرشيف القصر نسخة. جاء في الرسالة: **"لا مثيل لمجدنا وكرمانا[٢٦]؛ أن تضع نفسك بجوارنا يعني أن تقارن جالون الفيشنو[٢٧] العظيم**

بسنونو؛ الشمس ببراعة؛ الحورية المقدسة فى السماوات بنودة الأرض؛ دهاتارتها، الملك همسا[٢٨]، بخنفساء الروث." هذا ما قال جدُّنا لملك سيام. لكنهم الآن ينامون فى قصر بكنجهام ونرقد نحن مدفونين فى كوم الروث هذا."

لم يكن هناك مجال لإنكار هذه الحقيقة. بمرور السنوات صار منزل أطرام شبيهاً بالأحياء الفقيرة المحيطة به. تهشم الطوب اللبن ولم يستبدل. سقط الجص من على الجدران، كاشفًا كميات هائلة من الطوب. مدَّتْ فروع شجرة التين جذراً فى الشقوق وتحولت بسرعة إلى شجيرات ثابتة. فى الداخل، زحف عفن الفطر من الأرض إلى أعلى حتى بدت الحوائط وكأن عليها ستارة من القطيفة السوداء. صار التحلل شارة التحدى عند الملكة. قالت: "صيانة هذا المنزل ليست مسئوليتنا. اختاروه ليكون سجننا، فليهتموا به."

تحدث أحياناً بعض الجباة[٢٩] عند وصولهم عن إزالة البستى وإعادة الخدم إلى البلدة. كانت الملكة تضحك: كم كانوا مخبولين، هؤلاء الرجال، فى عجرفتهم، ليتخيلوا أنهم يمكن أن يسجنوا عائلة فى عزلة على هضبة على أرض الهند. لماذا، التربة نفسها تثور ضد ذلك!

صدم الزائرون القليلون الذين سمح لهم بدعوتهم من منظر البستى، ورائحة القمامة والبراز، وكثافة دخان الخشب الذى يعلق كثيفًا فى الهواء. كثيراً ما نزلوا من عرباتهم ونظرات دهشة مهولة على وجوههم، عاجزين عن تصديق أن مكان إقامة آخر ملوك بورما صار نواة لبلدة من الأكواخ.

كانت الملكة تحييهم بابتسامتها المتكبرة الباهتة. نعم، انظروا حولكم، انظروا كيف نعيش. نعم، نحن الذين حكمنا أغنى أرض فى آسيا وصلنا إلى هذا الوضع الآن. هذا ما فعلوه بنا، هذا ما سوف يفعلونه ببورما كلها. أخذوا مملكتنا، واعدين بطُرُق وسكك

حديد وموانئ، لكن تذكروا كلماتى، هكذا تنتهى. فى عقود قليلة تنتهى الثروة - كل المجوهرات والخشب والزيت - وحينها يتركونها أيضًا. بورما فى عصرنا الذهبى، لم يجع فيها أحدٌ ولم يكن أحدٌ فقيرًا بحيث لا يكتب ولا يقرأ، لن يبقى إلا الفقر المدقع والجهل، المجاعة واليأس. كنا أول من سُجِنوا باسم تقدمهم؛ ملايين آخرون يتبعوننا. هذا ما ينتظرنا جميعًا؛ هكذا ننتهى جميعًا - سجناء، فى بلدات أكواخ أنجبها الطاعون. بعد مائة سنة من الآن سوف تقرأون اتهام الجشع الأوروبى فى الاختلاف بين مملكة سيام ودولة عالمنا المستعبد.

هوامش

(١) جارى gaari: عربة تجرها الدواب. طراب trap: عربة بعجلتين تجرها دابة واحدة. برام brougham: عربة خفيفة مغلقة بأربع عجلات ومقعد مكشوف للحوذى فى المقدمة.

(٢) مَنْدِفى Mandvi: مدينة هندية فى جوجارات اتخذها الملوك منتجعًا صيفيًا، وكانت ميناء مهمًا، تشتهر بصناعة السفن.

(٣) بهاجفتى Bhagavati: الكلمة تعنى الإلهة بالسنكرستية، وتعرف معابدها باسم Bhagavathi temple.

(٤) الماراتية Marathi: لغة هنود يسكنون الدكن الغربى وإقليم بومباى.

(٥) جينجيناكا: Jhinjhinaka.

(٦) موهان سوانت: Mohan Sawant.

(٧) الركشو rickshaw:عربة بعجلتين يجرها شخص أو اثنان. تونجا tonga: عربة بعجلتين يجرها جواد.

(٨) الكوكم kokum: نبات ماليزى، له أوراق سميكة وثمار كبيرة طيبة المذاق، يعرف فى الإنجليزية باسم mangos-teen أو المانجو الحمراء red mango.

(٩) هورى hori، وتجمع هنا على هوريات؛ قطمران catamaran: مركب يتكون من منصتين متوازيتين، خاصة المراكب الشراعية الخفيفة.

(١٠) كرلا: Karla.

(١١) سائس syce: هكذا فى الأصل.

(١٢) اللورد ليك: Lord Lake.

(١٣) مستر جِب: Mr. Gibb.

(١٤) الشوريكو: choriço.

(١٥) نارأهيهاباتى: Narahihapati.

(١٦) كوبيلاى خان Kubilai Khan (١٢١٥ – ١٢٩٤) : حاكم مغولى بارز، أسس أسرة يوان Yuan.

(١٧) موهانبهى Mohanbhi: موهان سوانت، اسم الحوذى. كوشه تو كارو: kuchh to karo.

(١٨) بَستى basti: قرية (هندوستانى).

(١٩) ديفى devi: الربة الأم عند الهندوس زوجة شيفا Shiva، الرب عند الهندوس.

(٢٠) لَنْجُتْ langot: مئزر، لباس داخلى.

(٢١) شولالانجكُرْن Chulalangkom (١٨٥٣ – ١٩١٠) : من أعظم ملوك سيام، تميز عصره بالتحديث والإصلاح.

(٢٢) فرانز جوزيف Franz Joseph (١٨٣٠ – ١٩١٦) : إمبراطور النمسا (١٨٤٨ - ١٩١٦).

(٢٣) القيصر فيلهلم Kaiser Wilhelm: قيصر ألمانيا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، تنازل عن الحكم بعد هزيمة بلاده فى الحرب العالمية الأولى.

(٢٤) بجايدو Bagyidaw (١٧٨٤ – ١٨٤٦): الملك السابع فى أسرة كُنبنج فى بورما، اعتلى العرش من ١٨١٩–١٨٣٧ .

(٢٥) أوتاهيا Ayutthaya: مدينة فى جنوب وسط تايلاند، على جزيرة فى نهر شاو فرايا Chao Phraya شمال بانكوك. تأسست عام ١٣٥٠ وكانت عاصمة مملكة سيام حتى ١٧٦٧ حين دمرها البورميون.

(٢٦) كرما karma: التأثير التام (فى الهندوسية والبوذية) لأعمال الشخص، وتعتبر محددة لمصير الإنسان.

(٢٧) جالون الفيشنو Galon of Vishnu: الفيشنو إحدى الربات الرئيسيات فى الهندوسية، تعتبر حامية العالم، وهى واحدة من الثلاثى الذى يضم براهما Brahma وشيفا Shiva.

(٢٨) دهاتارتها Dhatarattha وهمسا Hamsa: ملكان أسطوريان.

(٢٩) جباة Collectors: جمع جابى والجابى هو الرئيس الإدارى للمقاطعة، والمسئول فى النهاية عن التعامل مع العائلة الملكية البورمية. وقد منح الجابى هذا الاسم حتى لا تشعر القوى الأخرى فى البنغال أنه حاكم حقيقى بل مجرد مسئول عن جمع الدخل.

(٨)

لم يكن إراودى المجرى المائى الوحيد الذى استخدمه سايا جون. كثيراً ما أخذته أعماله إلى الشرق أكثر، إلى نهر سيتانج[١] ومرتفعات شان. بعد رحلة تستغرق يوماً داخل البلاد من بلدة بينمانا[٢] على ضفة النهر، توجد قرية اسمها هوِى زيدى[٣]. قبل سنوات طويلة، حين بدأت شركات الساج أول مرة استكشاف هذا الامتداد للغابة، كانت هوى زيدى نفسها معسكراً مؤقتاً للساج مثل أى معسكر آخر. لكن المعسكرات السنوية هاجرت بمرور السنوات إلى أعلى وأعلى على المنحدرات، وازدادت عملية تزويدها بالإمدادات صعوبةً. وقد صارت هوى زيدى، بسبب مميزات موقعها، على مفرق منحدر عند التقاء الجبال بالسهل، رأس الطريق إلى المرتفعات. واختار كثير من الخشابين ومدربى الأفيال، الذين رافقوا الشركة إلى هذه المنطقة التى لم تكن مأهولة، الإقامة فى هذه القرية وحولها.

كان قليل جداً من الأوسيين والبيسيين والباكيك[٤] الذين عاشوا فى هوى زيدى من أصول بورمية: البعض كارن، والبعض كارنى، والبعض با أو، والبعض بادُنْج، والبعض كادو كانان[٥]؛ وكان هناك عدد قليل من عائلات الفيالة[٦] الهنود، ومدربى أفيال من كورابُت فى جَنْس الشرقية[٧]. كان سكان القرية فى حالهم ولم تكن لهم علاقة بسكان السهول؛ كانت هوى زيدى مكاناً متفرِّداً، جزءاً من الدائرة الجديدة للحياة التى انبثقت إلى الوجود نتيجة الساج.

تقع القرية على تلٍّ رملى حيث يدخل شونج منحنى متعرج واسع. كان الجدول ضحلاً هناك، يمتد ضيقاً على قاع ممتلئ بالحصى، وفى معظم أيام السنة تكون المياه

بارتفاع الركبة – عمق رائع لأطفال القرية، الذين يحرسونه خلال اليوم بأقواس صغيرة. امتلأ الجدول بضحية سهلة، سمك، بظهور فضية، يدور فى المياه الضحلة، يدوخ نتيجة التغير المفاجئ فى سرعة الماء. معظم السكان المقيمين فى هوى زيدى من الإناث: يكون ذكور القرية الأصحاء، من الثانية عشرة فيما فوقها، خلال معظم السنة، بعيداً فى أحد معسكرات الساج على منحدرات الجبال.

كانت المستعمرة محاطة بأشجار ضخمة مستقيمة الغصون، تنمو بكثافة لتشكل جداراً مرتفعًا من أوراق الشجر. تختبئ خلف الجدار أسراب هائلة من الببغاوات وجيوش من القرود والنسانيس– لنجورات بيض الوجوه وريسوس[8] نحاسية البشرة. حتى الأصوات المنزلية الشائعة القادمة من القرية– كسر قشرة جوز الهند، مغرفة على قِدْر معدنى، عجلة فى لعبة طفل تصدر صريراً– كانت كافية لإرسال عواصف تنبيه تجتاح الظلام المرقط: تفرُّ القرود مثرثرة، وترتفع الطيور من على قمم الأشجار فى كتلة متموجة، مثل ورقة تعصف بها الرياح.

لا تختلف مبانى هوى زيدى عن مبانى معسكرات الساج إلا فى الارتفاع والحجم فقط – لكنها تتشابه تماماً فى التنظيم والمظهر، تُشيَّد من مواد متماثلة، بامبو وبوص مجدول، وترتفع بالمثل عن الأرض على أعمدة من خشب الساج بارتفاع الكتف. ولم تكن هناك إلا بنايات قليلة تتناقض بجلاء مع الخضرة المحيطة بها: جسر خشبى، ومعبد بحوائط بيضاء، وكنيسة بسقف من البامبو على قمتها صليب ملون من خشب الساج. وقد استخدم الأخيرة عدد لا بأس به من سكان هوى زيدى، كثير منهم من مجموعة الكارن والكارنى – أناس من عائلات غيرت دينها على أيدى أتباع المبشر الأمريكى المعمدانى، المبجل أدونيرام جُدْسون[٩].

كان سايا جون، حين يمر بهوى زيدى، يقيم عادة مع أرملة وقورة لهسن أوق سابق، مسيحية كارنية، تدير دكانًا صغيراً من بلكونة الطاى، المغطاة بكَرْمة. وكان لهذه السيدة ابن، دوه سى[١٠]، صار أحد الأصدقاء المقربين لرجكومار.

كان دوه سى أكبر من رجكومار بعامين، شاباً خجولاً طويلاً، بوجه عريض مفلطح وأنف يشبه عقب الشيروت. حين التقى به رجكومار أول مرة، كان يعمل فى وظيفة سنباكيك[11] المتواضعة، مساعد باكيك، عامل سلاسل: وكان هؤلاء الرجال يجهزون الأفيال ويجرون الزنود بالسلاسل. كان دوه سى صغيراً جداً وعديم الخبرة بشكل لا يسمح له بأن يربط بنفسه: كانت مهمته ببساطة رفع السلاسل الثقيلة لرئيسه. لكن دوه سى كان عاملاً مجداً ومجتهداً، وحين عاد رجكومار وسايا جون فى المرة التالية كان باكيك. وبعد ذلك بعام كان بيسى، أو راكباً خلفياً مع قطيع أُنْجِنج، المتخصص فى تطهير الجداول.

كان رجكومار ينضم لدوه سى فى المعسكر، يتبع خطاه، ويساعده أحياناً بإشعال النيران أو تسخين قِدْر من الماء. ومن دوه سى تعلم رجكومار إعداد الشاى بالطريقة التى يحبها الأوسيون، ثقيلاً ومراً ولاذعاً، بادئاً بقدر ممتلئ بالفعل إلى نصفه بالأوراق ثم يزوده فى كل مرة. فى الأمسيات يساعد دوه سى فى جدل حوائط البوص، وفى الليل يجلس على سلم كوخه، يمضغ البتل[12] ويستمع إلى حديث الأوسيين. لم يكن القطيع بحاجة إلى رعاية فى الليل: تقيد الأفيال بسلاسل متصلة وتترك مرخية لتتزود بالعلف فى الأجمة المحيطة.

كان دوه سى وحيداً فى المعسكر، وكثيراً ما تحدث عن حبيبته، نو دا[14]، فتاة فى بداية المراهقة، هيفاء نضرة، ترتدى بلوزة بيضاء بشراشيب ولُنْجيا بيتياً. سيتزوجان بمجرد أن يُرقَّى دوه سى إلى أوسى.

سأل دوه سى: "وماذا عنك؟ هل هناك فتاة تفكر فيها؟"

كان رجكومار يهزُّ كتفيه عادة، وذات مرة ألحَّ دوه سى فردَّ بإيماءة.

"مَنْ؟"

"اسمها دلّى."

أول مرة يتحدث فيها رجكومار عنها؛ مضى وقت طويل ولم يعد يتذكر شكلها إلا بصعوبة. كانت مجرد طفلة، لكنها أثرت فيه كما لم تؤثر أخرى ولا شىء قبلها. فى عينيها الواسعتين، المشبَّعتين بالخوف، رأى وحدته تبرز، تظهر، تشق الجلد.

"وأين تعيش؟"

"فى الهند، على ما أعتقد. لا أعرف بالضبط."

حكَّ دوه سى ذقنه: "عليك أن تبحث عنها ذات يوم."

ضحك رجكومار: "بعيدة جداً."

"سيكون عليك أن تذهب. ليست هناك وسيلة أخرى."

***

من دوه سى عرف رجكومار مظاهر كثيرة يداهم بها الموت حياة الأُوسيين: أفعى راسل[١٥]، زند بقرة، ضربة من جاموسة برية. إلا أن أسوأ مخاوف دوه سى لم تكن لها علاقة بالتجسيد المعروف للموت، لكن بشكل رهيب وغريب منه. الجمرة الخبيثة، الأكثر فتكًا بين أمراض الأفيال.

كانت الجمرة الخبيثة شائعة فى غابات وسط بورما وكان منع الأوبئة صعبًا. قد يكمن المرض فى الأراضى العشبية مدة تصل إلى ثلاثين عامًا. قد يظهر فجأة أن مسارًا أو طريقًا، يبدو هادئًا وآمنًا بعد أن بقى سنوات كثيرة لا يُستخدَم، دربٌ معبَّدٌ إلى الموت. قد تقتل الجمرة الخبيثة فى أكثر أشكالها قسوة فيلاً فى ساعات، فيلاً هائلاً، يرتفع خمسة عشرة ذراعًا كاملة عن الأرض، يأكل بأمان فى الظلام ويموت فى

الفجر. قد يُفقَد في بضعة أيام قطيعٌ عاملٌ من مائة فيل برمته. يقدر الفيل الناضج بآلاف الروبيات، وكانت تكلفة وباء تؤثر في سوق لندن للأوراق المالية. لا تقامر معظم شركات التأمين بالتأمين ضد الإصابة بمرض من هذا النوع.

كلمة الأنثراكس[١٦] مشتقة من الجذر الذي تشتق منه كلمة أنثراسيت[١٧]، بمعنى الفحم. حين يهاجم مرض الجمرة الخبيثة الإنسان، يظهر في البداية على شكل التهابات تشبه البثور الصغيرة. وحين تكبر هذه الإصابات، تظهر نقط سوداء صغيرة في مركزها، بثور ضئيلة تشبه الفحم: من هنا جاء اسم المرض. حين تظهر بثور الجمرة الخبيثة على جلد الفيل، تحمل الإصابات طاقة بركانية. تظهر أولاً على مؤخرة الحيوان، في حجم قبضة الإنسان تقريباً، لونها بني محمر. تتورم سريعاً، وبسرعة تكسو جلد القضيب في الذكور.

تكثر الجمرات في مؤخرة الحيوان، وهي تكبر قد تسدُّ فتحة الشرج. تستهلك الأفيال كميات هائلة من العلف وتتبرز باستمرار. لا يتوقف عمل أجهزتها الهضمية مع بداية المرض؛ تستمر أمعاؤها في إنتاج الروث بعد سدٍّ منافذ الإخراج، ويندفع الروث الحبيس على شكل انفجار في الممر الشرجي المسدود.

قال دوه سي: "يكون الألم عظيماً جداً، ويهاجم الفيل المصاب أي شيء تحت بصره. يقتلع الأشجار من جذورها ويهدم الحوائط. تصبح الفِيلْة[١٨] الأليفة قاتلة مجنونة؛ وتهاجم ألطف العجول أمهاتِها."

كانا معًا في معسكر ذات يوم حين هجم الوباء. كان سايا جون ورجكومار يقيمان، كالمعتاد، مع هسن أوق المعسكر، رجل ضئيل الجسم محدودب، بشارب يشبه رباط الحذاء. في وقت متأخر من المساء اندفع دوه سي ليخبر الهسن أوق بفقد أوسي: يُعتقد أن فِيلْتَه قتلته.

لم يستوعب الهسن أوق الأمر. كانت الفيْلة فى رعاية أوسيها منذ حوالى خمسة عشر عامًا ولم يُعرَف أنها تسببتْ فى مشكلة من قبل. إلا أن الأوسى قبل موته مباشرة قاد مطيته بعيدًا عن القطيع وقيَّدها. كانت تحرس جثته ولا تدع أحدًا يقترب. لا يجب أن يحدث هذا. ما المشكلة؟ فى وقت متأخر، اتجه الهسن أوق إلى الغابة مع دوه سى وبضعة أشخاص آخرين. قرر سايا جون ورجكومار الذهاب معهم.

تصادف أن المعاون المسئول عن المعسكر كان بعيدًا ليومين، يقيم فى مقر الشركة فى بروم(١٩). فى غيابه لم تكن هناك أسلحة نارية فى المعسكر. كان الأوسيون مسلحين بكشافات مشتعلة وأسلحتهم التقليدية، حراب ودَات.

سمع رجكومار الفِيْلَة عن بعد. ازدادت الجلبة مع اقترابهم، قبل أن يندهش رجكومار من هول ارتفاع الصوت، من أن هذا الصوت يمكن أن يصدر عن فيل واحد: صوت أبواق وصرخات حادة وانتفاخ وارتطام شتلات وشجيرات. كان يختلف عن صخب عربدة وقت تناول الطعام: اخترقت نبرة ألم الأصوات الأخرى المألوفة.

وصلوا إلى مكان الحادث ليجدوا الفيْلة اقتلعت مساحة كبيرة حولها، وسوَّتْ بالأرض كل ما فى متناولها، والأوسى الميت يرقد تحت شجرة، طريحًا غارقًا فى الدماء، على بعد ياردة أو اثنتين من الشجرة المقيدة فيها أقدام الفيْلة.

شاهد سايا جون ورجكومار عن بعد، وشكَّل الهسن أوق ورجاله دائرة حول الفيْلة الغضبى، محاولين تحديد المشكلة. ثم صرخ الهسن أوق ورفع يده ليشير إلى ردف الحيوان. على الرغم من خفوت ضوء الكشاف، فإن رجكومار رأى أورامًا على مؤخرة الفيْلة، حمراء فاقعة.

على الفور استدار الهسن أوق ورجاله واندفعوا مسرعين بتهور إلى الغابة، يتسابقون عائدين من حيث أتوا.

"ساياجاى، ما هذا؟ لماذا يجرون؟"

كان سايا جون يسرع بين الشجيرات، محاولاً الإبقاء على كشافات الأوسيين فى مجال البصر: "بسبب الجمرة الخبيثة، رجكومار." دفع سايا جون بالكلمة متقطع الأنفاس بسرعة.

"ماذا، سايا؟"

"الجمرة الخبيثة"

"لكن سايا، لماذا لا يحاولون إنقاذ الجثة؟"

قال سايا جون: "لا أحد يستطيع الاقتراب من هذا الكائن الآن خوفًا من العدوى. وعلى أية حال لديهم أمور أكثر إلحاحًا للتفكير فيها."

"أكثر إلحاحًا من جسد صديقهم؟"

"أكثر بكثير. يمكن أن يفقدوا كل شىء – حيواناتهم ووظائفهم وأرزاقهم. فَقَدَ الرجل الميت حياته وهو يسعى لمنع انتقال العدوى من هذه الفِيْلَة إلى البقية. يدينون له بإبعاد القطيع عن الأذى."

رأى رجكومار أوبئة كثيرة تأتى وتنقشع– التيفود والجدرى والكوليرا. ونجا من وباء قتل عائلته: المرض بالنسبة له مخاطرة وليس خطرًا، تهديدًا يتعايش معه من يوم إلى يوم. لم يصدق أن الأوسيين تركوا جثة رفيقهم بسهولة.

ضحك رجكومار: "جروا وكأن نمرًا وراءهم."

وهنا التفت إليه سايا جون، وكان عادة رصينًا وربما لطيفًا، فى غضب مفاجئ: "احذر، رجكومار." وهدأ صوت سايا جون: "الجمرة الخبيثة طاعون، كان الرب يرسله لعقاب المغرورين."

هدأ صوته وصار أكثر عمقًا وهو يقتبس من الكتاب المقدس: **"ثم قال الرب لموسى وهارون، خذا ملء أيديكما من رماد الأتون. وليذره موسى نحو السماء أمام عينى فرعون. ليصير غبارًا على كل أرض مصر. فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور على كل أرض مصر."**(٢٠)

لم يفهم رجكومار إلا كلمات قليلة، لكن كانت نبرة صوت سايا جون كافية لإسكاته.

عادا إلى المعسكر فوجداه خاليًا. رحل دوه سى والآخرون بالقطيع غير المحمَّل. لم يبق إلا الهسن أوق، ينتظر المعاون. قرَّر سايا جون البقاء معه.

فى وقت مبكر من الصباح التالى عادا إلى مكان الحادثة. كانت الفِيْلة المصابة أهدأ، دائخةً، أوهنها الصراع مع المرض. كبرت الأورام وصارت فى حجم الأناناس، وبدأ جلد الفيْلة يتشقق ويتفسخ. بمرور الساعات، ازداد حجم الإصابات وتعمقت الشقوق. وبسرعة نزَّت البثور نزًا أبيض. وفى وهلة بلَّلَ الإفراز جلد الحيوان. تساقطت على الأرض جداول من الصديد المعرَّق بالدماء. تحولت التربة حول أقدام الفِيْلة إلى وحل، يموج بالدماء والنَّزِّ. لم يعد رجكومار يستطيع النظر إليها. تقيأ، وانحنى على خصره، وشدَّ لُنْجيه.

قال سايا جون: "إذا كان هذا ما فعله بك هذا المنظر، فكِّرْ فيما تعنيه للأوسى رؤية أفياله تفنى بهذه الطريقة. يرعى هؤلاء الرجال حيواناتهم كأنها من عشيرتهم. لكن حين تصل الجمرة الخبيثة إلى هذه المرحلة لا يمكن للأوسيين إلا النظر إلى هذه الجبال الهائلة من اللحم وهى تتحلل أمام أعينهم."

ماتت الفيلة المصابة بعد الظهر بوقت قصير. وبعد قليل استعاد الهسن أوق ورجاله جسد رفيقهم. تطلع سايا جون ورجكومار عن بعد والجثة المشوَّه تحمل إلى المعسكر.

قال سايا جون بصوت منخفض، هامس: **"فأخذا رماد الأتون ووقفا أمام فرعون وذراه موسى نحو السماء. فصار دماملَ بثورٍ طالعة فى الناس وفى البهائم. ولم يستطع العرافون أن يقفوا أمام موسى من أجل الدمامل. لأن الدمامل كانت فى العرافين وفى كل المصريين..."**(٢١)

***

تاق رجكومار لمغادرة المعسكر، وقد أوهنته أحداث الأيام الأخيرة. لكن سايا جون صمد أمام توسلاته. قال إن الهسن أوق صديق قديم، وعليه أن يبقى برفقته حتى يُدفَن الأوسى الميت وتنتهى المحنة.

فى السياق المعتاد للأمور، يجب إقامة الجنازة بعد استعادة الجسد مباشرة. لكن نظرًا لغياب معاون الغابة ظهر أمر غير متوقع. كان من العرف أن يتم إخلاء طرف الميت من كل روابطه الأرضية بشكل رسمى بتوقيع مذكرة. لم يُلاحَظ هذا الطقس بهذه الصرامة فى أى مكان أكثر مما يلاحظ بين الأوسيس، الذين تبقى حياتهم فى مخاطرة يومية مع الموت. إلا أنه يجب توقيع مذكرة إخلاء طرف الرجل الميت، ولم يكن لغير المعاون، باعتباره مستخدِمه، أن يوقعها. بُعِثتْ رسالة للمعاون. كان من المتوقع أن يعود فى اليوم التالى بالمذكرة الموقعة. لم يبق إلا الانتظار طوال الليل.

مع الغروب هُجِر المعسكر كله تقريبًا. بقى رجكومار وسايا جون وعدد قليل. رقد رجكومار مستيقظًا وقتًا طويلاً فى بلكونة الهسن أوق. شعَّ النور فى الطاى وسط المنطقة منزوعة الأشجار فى المعسكر. أشعل لوجا لى المعاون كل مصابيحه وفى ظلمة الغابة كان للطاى الخالى جلال رهيب.

فى وقت متأخر من الليل خرج سايا جون إلى البلكونة ليدخن شيروتًا.

قال رجكومار فى نبرة شكوى: "لماذا ينتظر الهسن أوق كل هذا الوقت لإقامة الجنازة؟ ما الضرر الذى قد يلحق به، سايا، إذا دفن الرجل الميت اليوم وأبقى المذكرة إلى وقت لاحق؟"

سحب سايا جون نفَسًا عميقًا من شيروته، تألق طرف الشيروت محمَّرًا على نظارته. صمت فترة طويلة حتى شكَّ رجكومار أنه سمع السؤال. لكن وهو على وشك تكرار السؤال بدأ سايا جون يتكلم.

قال: "كنتُ فى معسكر ذات يوم، حين حدثتْ حادثة مروعة ومات أوسى. لم يكن المعسكر بعيدًا عن هذا المعسكر، مسيرة يومين على الأكثر، وكانت قطعانه فى مسئولية مضيفنا – هذا الهسن أوق نفسه. جرت الحادثة فى ذروة موسم العمل، قرب انتهاء الأمطار، وموسم العمل يقترب من نهايته. لم يكن متبقيًا إلا بضعة أكوام حين سقط زند ضخم بانحراف عبر ضفَّتَى الشونج، فأغلق المنحدر الذى يُستخدَم لدحرجة أكوام الساج إلى الجدول. انحشر الزند بين عقبى شجرتين، بطريقة تشلُّ كل شىء: لا يمكن دحرجة زند آخر قبل تحريك هذا الزند.

"كان المعاون فى ذلك المعسكر شابًا، فى التاسعة عشرة أو العشرين، وكان اسمه، إذا لم تخنى الذاكرة، ماك كى– كانوا ينادونه ماك كى ثاكين[٢٢]. لم يكن له فى بورما سوى عامين وكان أول موسم له فى إدارة معسكر بنفسه. كان الموسم طويلاً وشاقًا وقد تدفقت الأمطار عدة شهور. كان ماك كى ثاكين مزهوًا بمسئوليته الجديدة، يعمل بجدٍّ، قاضيًا فترة الرياح الموسمية كلها فى المعسكر، ولم يسترح أبدًا، ولم يبعد حتى فى عطلة نهاية الأسبوع. وعانى من عدة نوبات سيئة من الحمى. أنهكته النوبات وكان فى بعض الأيام لا يستطيع أن يجمع قوته للنزول من الطاى. والموسم على وشك الانتهاء، وُعِد بأجازة لمدة شهر فى الهدوء الرائع على هضاب ميماو[٢٣]. أخبرته الشركة بأنه حر فى أن يذهب بمجرد إخلاء المنطقة التى تقع تحت مسئوليته من كل

الزنود التي تحدد اقتلاعها. ومع اقتراب يوم رحيل ماك كى ثاكين، ازداد قلقه وأرهق فرَقَه أكثر وأكثر. كان العمل قد انتهى تقريبًا حين وقعت الحادثة.

"حدث سد المنحدر حوالى التاسعة صباحًا – والعمل على وشك الانتهاء. كان الهسن أوق قريبًا، أرسل على الفور باكيكه لربط الزند بالسلاسل حتى يمكن جره. لكن الزند كان محشورًا بزاوية بشعة تجعل السلاسل لا تُربَط جيداً. حاول الهسن أوق فى البداية تحريكه بربطه بفيل واحد قوى، وحين لم تنجح المحاولة أتى بفيلتين من أقوى أفياله. ذهبت جهوده أدراج الرياح: لم يتزحزح الزند. فى النهاية، أمر ماك كى ثاكين، وقد نفد صبره، الهسن أوق بإرسال فيل أسفل المنحدر ليخلص الزند العنيد.

"كان المنحدر شديد الانحدار وبعد شهور من السحق بعدد هائل من الزنود، كان سطحه يتفتت ويتحول إلى مسحوق. كان الهسن أوق يعرف أن قيادة أوسى لفيل فى منطقة بمثل هذا الموطئ المتقلب عمل بالغ الخطورة. لكن صبر ماك كى ثاكين نفد، وباعتباره الموظف المسئول، تغلب رأيه. أمر الهسن أوق، رغمًا عنه، أحد رجاله، أوسيًا صغيرًا، ابن أخته. أخطار المهمة المطلوبة واضحة تمامًا، وكان الهسن أوق يعرف أنه لن يطاع إذا طلب من شخص آخر النزول إلى المنحدر. ابن أخته مسألة أخرى. قال الهسن أوق: 'انزل، كن حذراً، ولا تتردد فى العودة.'

"تم الجزء الأولى من العملية بشكل جيد، وبمجرد تخليص الزند فَقَدَ الأوسى الصغير موطئ قدمه واندفع مباشرة فى مسار زند، وزنه طنان، يتدحرج. حدث المحتوم: سُحق. كان جسده خاليًا من الخدوش حين اكتُشِف، لكن كانت كل عظامه محطمة، مسحوقة.

"وكان هذا الأوسى الصغير محبوبًا جدًا من رفاقه ومن مطيته، فيْلة لطيفة حسنة الطباع اسمها شوى دوك(٢٤)، تدربت مع قطعان أُنجنج فى الشركة وكانت تحت مسئوليته من عدة سنوات.

"يدَّعِي من يعرفون الأفيال جيداً أنهم يستطيعون معرفة بعض مشاعرها- الغضب واللذة والغيرة والأسى. اغتمت شوى دوك بكل معنى الكلمة لفقد مدربها. ولم يكن الهسن أوق أقل حزنًا، انهار تمامًا نتيجة الشعور بالإثم وتأنيب الذات.

"لكن الأسوأ لَمَّا يأتِ بعد. في ذلك المساء، بعد إعداد الجسد للجنازة، أخذ الهسن أوق الخطاب التقليدى لإخلاء الطرف إلى ماك كى ثاكين وطلب منه التوقيع.

"لم يكن ماك كى ثاكين قد استرد صوابه. عبَّ زجاجة من الويسكى، وعاودته الحمى. لم تؤثر فيه توسلات الهسن أوق. لم يفهم المطلوب منه.

"عبثًا وضَّح الهسن أوق أنه لا يمكن تأجيل الدفن، ولن يبقى الجسد، ويجب إخلاء طرف الرجل قبل إتمام الطقوس. ناشد وتوسل، وفى يأسه حاول صعود السلم ليشقَّ طريقه داخل الطاى. لكن ماك كى ثاكين رآه قادمًا فخرج بخطوات واسعة وفى يده زجاجة وفى الأخرى بندقية صيد من عيار ثقيل. صرخ وهو يفرغ خرطوشة فى السماء: 'الرحمة، ألا يمكن أن تتركنى وحدى هذه الليلة فقط؟'

"انصرف الهسن أوق وقرر المضى قدمًا فى إجراءات الجنازة. دُفِن جسد الرجل الميت حين حلَّ الظلام.

"كنتُ أقضى الليل، كالمعتاد، فى كوخ الهسن أوق. تناولنا وجبة خفيفة وبعد ذلك خرجتُ لأدخن شيروتًا. يكون المعسكر ممتلئًا وصاخبًا فى ذلك الوقت من اليوم: من المطبخ يصدر خبط هائل للأطباق الصفيح والقدور المعدنية، وتخترق الظلام فى كل مكان أطراف الشيروت المتوهجة حيث يجلس الأوسيون بجوار أكواخهم، يستمتعون بآخر شيروت فى اليوم ويمضغون القطعة الأخيرة من البيتل. حينها لم أرَ أحداً حولى، اندهشتُ؛ لم أسمع إلا الضفادع والبوم والخفقان الخفيف لفراشات الأدغال الكبيرة. غاب أيضًا رنين أجراس الأفيال، أكثر الأصوات ألفة وبعثًا على الطمأنينة فى المعسكر.

من الواضح أنه بمجرد ردم قبر الرجل الميت هرب الأوسيون الآخرون من المعسكر، مع أفيالهم.

"لم يبقَ من الأفيال قرب المعسكر إلا شوى دوك، مطية الرجل الميت. تحمل الهسن أوق بعد الحادثة مسئولية فيْلة ابن أخته، وكانت بدون راكب. قال إنها قلقة وعصبية، وكثيراً ما تهز أذنيها وتضرب الهواء بطرف خرطومها. لم يكن هذا غير مألوف أو غير متوقع، لأن الفيلة، على الرغم من كل شيء، صنيعة العادة والروتين. وفسَّر ذلك بأن غياب مدربها الذى اعتادت عليه فترة طويلة قد يغضب حتى ألطف الأفيال، وبصورة خطيرة غالباً.

"والحال على هذا النحو، قرر الهسن أوق ألا يدع شوى دوك ترعى خلال الليل. قادها إلى منطقة منزوعة الأشجار، على بعد حوالى نصف ميل من المعسكر، وقدَّم لها كوماً هائلاً نضراً من غصون قمم الأشجار. ثم قيدها بشكل جيد بين شجرتين هائلتين راسختين. وليتأكد تماماً من بقائها مقيدة لم يستخدم القيود الخفيفة المعتادة التى تقيد بها الأفيال فى الليل؛ استخدم سلاسل جرٍّ من الحديد، تستخدم فى ربط الزنود. قال كان هذا احتراساً.

"سألته: 'احتراس من ماذا؟' كانت عيناه فاترتين بتأثير الأفيون. نظر إلىَّ بطرف عينه وقال بصوت خفيض مراوغ: 'مجرد احتراس.'

"لم يبق فى المعسكر إلا الهسن أوق وأنا، وبالطبع ماك كى ثاكين فى الطاى. كان النور ساطعاً فى الطاى، لمبات مضيئة فى كل نوافذه، وقد بدا مرتفعاً جداً، على أعمدته المرتفعة من خشب الساج. كان كوخ الهسن أوق بالمقارنة صغيراً وأقرب كثيراً إلى الأرض، حتى وأنا واقف على بسطته كان علىَّ أن أميل برأسى إلى الخلف لأنظر إلى تألق نوافذ ماك كى ثاكين. وأنا أجلس محدِّقاً، انبعث نحيب منخفض هزيل منطلقاً من النوافذ المضاءة باللمبات. كان صوت كلارينت[٢٥]، آلة كان ثاكين يعزف عليها أحياناً

فى المساء لقتل الوقت. كم كان غريباً أن تسمع تلك الموسيقى الكئيبة السوداوية تنساب من تلك النوافذ المضيئة، أنغامًا معلقة فى الهواء يتعذر تمييزها عن الصخب الليلى فى الغابة. فكرتُ، يجب أن تنظر باخرة كبيرة إلى بحَّارة زورق من جذوع النخيل وهى تندفع نحوهم فى الليل، وأصوات صالة الرقص تنبعث فى الماء المترجرج خلفها.

"لم يكن المطر غزيراً فى النهار، لكن مع اقتراب المساء تجمعت السحب فى السماء، فأطفأتُ مصباحى وطويتُ حصيرتى ولم أرَ نجمة فى السماء. بسرعة هبَّتْ عاصفةٌ. تدفقت الأمطار، ودوى الرعد عبر أرجاء الوديان، وتردد صداه بين المنحدرات. كنتُ نائمًا ربما من ساعة أو اثنتين حين أيقظنى جدول من مياه تسربتْ من سقف البامبو. نهضتُ لأنقل حصيرتى إلى ركن جاف من الكوخ، نظرتُ عبر المعسكر. فجأة انبثق الطاى من الظلام، أضاءته ومضة من البرق: انطفأت لمباته.

"كنت قد نمتُ من جديد تقريباً حين سمعتُ بين وقع المطر صوتًا منخفضًا واهيًا، رنينًا بعيدًا، بعيداً لكنه يقترب بثبات، وهو يقترب أكثر تعرفتُ على الرنين الجلى لجرس فيل. بسرعة، فى التوتر الواهى لحِزَم بامبو الكوخ، شعرتُ بثقل حيوان، يسير مسرعاً.

"همستُ للهسن أوق: 'هل تسمع هذا؟ ما هذا؟'

"'الفيْلة، شوى دوك.'

"يعرف الأوسى الفيلَ من جرسه: بمتابعة الصوت يحدد مكان مطيته كل صباح بعد الرعى طوال الليل فى الغابة. وليمارس هسن أوق وظيفته بشكل صحيح عليه أن يعرف صوت كل حيوان فى القطيع؛ عليه، إذا تطلب الأمر، تحديد موقع كل حيواناته ببساطة بالتركيز على رنين أجراسها. كان مضيفى هسن أوق يتمتع بقدرة وخبرة عظيمتين. عرفتُ أنه لا يوجد أدنى احتمال فى أن يخطئ فى تحديد الجرس المقترِب.

"غامرتُ: 'ربما، أصاب شوى دوك هلع نتيجة العاصفة؛ ربما نجحت فى الإفلات من قيودها.'

"قال الهسن أوق: لو أنها أفلتت لبقيت السلاسل مجرورة فى أقدامها." توقف ليسمع: "لكنى لا أسمع سلاسل. لا. حررتها يد إنسان."

"سألتُ: "ولكن يد مَنْ؟"

"أسكتنى فجأة بإشارة من يده. اقترب الجرس كثيراً، واهتزَّ الكوخ من وطأ الفيْلة.

"بدأتُ أسير باتجاه السلم فجذبنى الهسن أوق. قال: "لا. ابقَ هنا."

"فى اللحظة التالية شق البرقُ السماء. فى الومضة الخاطفة لهذا الشعاع البسيط رأيتُ شوى دوك أمامى مباشرة، تتحرك باتجاه الطاى ورأسها إلى أسفل وخرطومها ملتف تحت شفتها.

"قفزتُ واقفاً وبدأتُ أصيح محذِّراً: "ثاكين! ماك كى ثاكين..."

"كان ماك كى ثاكين قد سمع الأجراس، وشعر برجفة وزن الفيلة المقتربة. اشتعل لهب فى إحدى نوافذ الطاى وظهر شاب فى الفراندة، عارياً، وفى إحدى يديه فانوس وفى الأخرى بندقية صيد.

"على بعد عشرة أقدام من الطاى توقفت شوى دوك تماماً. خفضتْ رأسها كأنها تفحص البناية. كانت فيلة عجوزاً، تدرَّبتْ مع قطيع الأُنجنج، وهى حيوانات ماهرة فى فنون التدمير. لا يستغرق الأمر منها أكثر من نظرة لتقدر حجم سدٍّ من خشب عالق وتحدِّد نقطة الهجوم.

"أطلق ماك كى ثاكين النار حين بدأت شوى دوك مهمتها. كانت قد اقتربت بحيث لا يمكن أن يخطئها: أصابها حيث قصد، فى نقطة ضعفها، بين الأذن والعين.

"لكن زخم مهمة شوى دوك جعلها تستمر حتى وهى تحتضر واقفة. ضربت هى أيضاً الطاى حيث قصدتْ، فى نقطة الارتباط بين الحزمتين المتعارضتين اللتين

تمسكان به. بدا أن البناية تنفجر، والزنود والحزم والسقف تطير فى الهواء. قُذِف ماك كى ثاكين إلى الأرض على رأس شوى دوك.

"هذه حركة أقدام فيلة أنجنج ماهرة تحفظ اتزانها على حافة شلال، تجلس مثل ونش على جلمود صغير وسط جدول، تلفُّ فى مكان يتعثر فيه بغل. بهذه الخطوات الصغيرة العملية التفَّتْ شوى دوك لتواجه جسد المعاون المسجى. وببطء شديد، تركتْ وزنها المحتضر ينهار على رأسه أولاً، التفَّ وزنها فى حركة دائرية، فى إنجاز تقنى دقيق لعملية سقوط فيلة أنجنج – توظيف الاندفاع بدقة ليجعل كتلة وزنها عشرة آلاف طن من الساج تنحل مثل عقدة بحار. انطفأ فانوس ماك كى ثاكين، الملقى بجواره، ولم نرَ شيئًا.

"ألقيتُ بنفسى من على سلم الكوخ والهسن أوق خلفى. وأنا أجرى باتجاه الطاى، تعثرْتُ فى الظلام ووقعْتُ على وجهى فى الوحل. كان الهسن أوق يساعدنى حين شقتْ صاعقةٌ من البرق السماءَ. فجأة ترك يدى وأطلق صرخة أجشة متلعثمة.

"صرختُ: 'ما هذا؟ ماذا رأيت؟'

"'انظر! انظر إلى الأرض.'

"أومض البرق ثانية، ورأيتُ، أمامى مباشرة العلامة الهائلة الممزقة لأقدام شوى دوك. وبجوارها أثر أصغر، بلا شكل تمامًا، مستطيل تقريبًا.

"قلتُ: 'ما هذا؟ ما الذى فعل هذه العلامة؟'

"قال: 'بصمة قدم إنسان، إلا أنها سُحقتْ وشُوِّهت بطريقة لا يمكن معرفتها غالبًا.

"تجمدتُ وبقيتُ حيث كنتُ، داعيًا من أجل صاعقة أخرى من البرق لأتأكد بنفسى من حقيقة ما قال. انتظرتُ وانتظرتُ، لكن بدا أن دهراً سينقضى قبل أن تسطع السماوات مرة أخرى. وأثناء ذلك أمطرت وتلاشت العلامات من على الأرض."

هوامش

(١) نهر سيتانج Sittang: يقع جنوب بورما بين نهرى إراودى وسَلوين Salween. ينبع من هضبة الشان جنوب شرق مندالى باتجاه الجنوب ويبلغ طوله ٤٢٠ كم.

(٢) بينمانا Pyinmana: بلدة فى بورما تقع على بعد ٢٠٠ ميل شمال يَنْجون. كانت قاعدة جيش الاستقلال البورمى.

(٣) هوِى زيدى: Huay Zedi.

(٤) الباكيك pa-kyeik: عامل سلاسل.

(٥) كارن Karen: شعب تايلاندى يسكن جنوب بورما وشرقها. كارنى Karenni: ولاية على الحدود بين تايلاند وبورما. ويعتقد أن الكارنى شعب هاجر من منغوليا. با أو Pa-O. بادَنْج Padaung. كادو كانان Kadu-Kanan: من المجموعات العرقية فى بورما.

(٦) الفيالة mahouts: الفيال مثل خيَّال، وهو راكب الفيل.

(٧) كورابت: Koraput. جَتْس الشرقية eastern Ghats: الجتس سلسلتان من الجبال جنوب الهند. الجتس الشرقية تمتد حوالى ٩٠٠ ميل على خليج البنغال. الجتس الغربية تمتد حوالى ١٠٠٠ ميل عاى بحر العرب.

(٨) لنجورات langurs. ريسوس rhesus.

(٩) أدونيرام جُدْسون Adoniram Judson (١٧٨٨ - ١٨٥٠): مبشر أمريكى معمدانى عاش حوالى ٤٠ عاما فى بورما.

(١٠) دوه سى: Doh Say.

(١١) سنباكيك sin-pa-kyeik: مساعد باكيك.

(١٢) أنْجِنج: aunging.

(١٣) البتل betel: نبات متسلق، يوجد فى الهند، له أوراق بيضاوية تستخدم للف جوز البتل.

(١٤) نو دا: Naw Da.

(١٥) أفعى راسل Russell's viper: من أخطر أنواع الثعابين فى آسيا، تؤدى إلى وفاة الآلاف كل عام.

(١٦) الأنثراكس anthrax: الجمرة الخبيثة، ولما كان الكلام فى هذه الفقرة عن اشتقاق الكلمة فقد فضلت بقاءها بالنطق الإنجليزى.

(١٧) أنثراسيت: anthracite.

(١٨) الفِيلَة: أنثى الفيل.

(١٩) بروم Prome: مدينة فى بورما على نهر إراودى، ميناء ومدينة تجارية يربطها خط سكة حديد مع ينجون.

(٢٠) سفر الخروج- الإصحاح ٩، الآيتان ٩، ١٠؛ عن الترجمة العربية.

(٢١) المصدر السابق- ١١، ١٢.

(٢٢) ماك كى McKay – ماك كى ثاكين: McKay-thakin.

(٢٣) ميماو Maymyo: مدينة بورمية تابعة لمقاطعة مندالى، تقع على بعد ٦٧ كم إلى الشرق من مدينة مندالى على ارتفاع ١٠٧٠ مترا.

(٢٥) كلارينت clarinet: آلة موسيقية، تشبه المزمار.

(٩)

فى عام ١٩٠٥، بعد عشرين سنة من نفى الملك، وصل جابى مقاطعة جديد إلى رتناجيرى. والجابى هو الرئيس الإدارى للمقاطعة، والمسئول فى النهاية عن التعامل مع العائلة الملكية البورمية. كانت وظيفة مهمة، وكان الذين يُعيَّنون فى هذا المنصب أعضاء فى الخدمة المدنية الهندية غالبًا - كادر مهيب للمسئولين الذين أداروا ممتلكات بريطانيا فى الهند. وكان على طالبى الالتحاق بالخدمة المدنية الهندية اجتياز امتحان صعب يعقد فى إنجلترا. كانت غالبية المؤهلين بريطانيين، لكن كان من بينهم بعض الهنود.

كان الجابى الذى وصل فى ١٩٠٥ هنديًا، اسمه بِنِى برَساد دى(١). كان فى أوائل الأربعينيات ومن خارج منطقة رتناجيرى: بنغاليًا من كلكتا، التى تقع بميل على خريطة الهند، عند نتوء ينتهى بنقطة حادة تشبه المنقار. كان يرتدى بدل سافيل رو(٢) رائعة التفصيل ويضع نظارة بإطار ذهبى. وصل إلى رتناجيرى بصحبة زوجته، أوما(٣)، وكانت تصغره بخمسة عشر عامًا تقريبًا، امرأة طويلة نشيطة، شعرها كثيف مجعد.

كان الملك ثيبو ينظر من بلكونته حين اجتمع الموظفون عند مرفأ رتناجيرى لاستقبال الجابى الجديد وزوجته الشابة. وكان أول ما لاحظ أن مدام الجابى الجديد ترتدى ملابس غير مألوفة. أعطى منظاره للملكة فى حيرة: "ماذا ترتدى؟"

نظرت الملكة طويلاً. قالت فى النهاية: "مجرد سارى. سارى من طراز جديد." شرحت أن المسئولة الجديدة اتبعت طريقة جديدة فى ارتداء السارى، بإضافات

مستعارة من التقاليد الأوروبية – جيبة وبلوزه. سمعتْ أن النساء فى كل أنحاء الهند يستخدمون الطراز الجديد. لكن كل شىء يأتى بالطبع متأخِّرًا إلى رتناجيرى– هى نفسها لم تعرف هذه الموضة الجديدة للوهلة الأولى.

رأت الملكة جباة كثرًا يأتون ويذهبون، هنوداً وإنجليزاً؛ اعتبرتهم أعداءها وسجّانيها، مغرورين لا يستحقون أدنى احترام. لكنها فى هذه المرة كانت فضولية: "آمل أن يحضر زوجته حين يأتى للزيارة. من اللطيف أن أعرف كيف يُرتدَى هذا السارى."

على الرغم من هذه البداية المبشرة كاد أول لقاء للعائلة الملكية مع الجابى الجديد ينتهى بكارثة. وصل الجابى دى وزوجته حين زاد اهتمام الناس بالسياسة. نُشِرتْ يوميًا تقارير عن اجتماعات ومسيرات وعرائض: طُلب من الناس مقاطعة البضائع البريطانية؛ وصنعت النساء مشاعل من ملابس لنكشاير. فى الشرق الأقصى حرب دائرة بين روسيا واليابان، وبدا لأول مرة أن دولة آسيوية قد تتغلب على قوة أوروبية. امتلأت الصحف الهندية بأخبار هذه الحرب ومعناها بالنسبة للدول الاستعمارية.

لم يتعود الملك عمومًا مقابلة المسئولين الذين يأتون إلى منزل أطرام. لكنه كان يتتبع أخبار الحرب الروسية اليابانية باهتمام شديد ويحرص على معرفة رأى الناس فيها. حين أتى الجابى الجديد وزوجته للزيارة، كانت أولى كلمات الملك عن الحرب. قال فجأة: "الجابى صاحب(٤)، هل اطلعْتَ على الأخبار؟ هزم اليابانيون الروس فى سيبيريا؟"

انحنى الجابى بثبات حتى الخصر، وقال: "اطلعتُ بالفعل على التقارير، جلالتكم. لكن يجب أن أعترف أنى لا أرى أنه حدث كبير الأهمية."

قال الملك: "أوه؟ حقًا، إننى مندهش جداً لسماع ذلك." عبس بطريقة تبين بوضوح أنه لن يدع الموضوع يُغلق.

في الليلة السابقة اطلع الجابى وأوما بإسهاب على تعليمات زيارتهما المقبلة إلى منزل أطرام. قيل لهما إن الملك لم يحضر أبدًا فى هذه الحالات: تستقبلهما الملكة، فى غرفة الاستقبال فى الدور الأرضى. لكنهما دخلا فوجدا الملك: يرتدى لُنْجيًّا مجعدًا ويذرع الغرفة، خابطًا وركه بجريدة مطوية. وجهه شاحب ومنتفخ، وشعره الرمادى الناعم منكوش على قفاه بدون تسريح.

وكانت الملكة، من ناحية أخرى، فى مكانها، تجلس منتصبة بصرامة على مقعد طويل وظهرها إلى الباب. وكان هذا، كما تعرف أوما، جزءًا من نظام محدد للمعركة: ومن المتوقع أن يدخل الضيفان ويجلسان على مقعدين منخفضين حول جلالتها، بدون نطق كلمة ترحيب على الجانبين. كانت طريقة الملكة فى الحفاظ على روح بروتوكول *مندالى*: يصرُّ ممثلو بريطانيا على رفض أداء الشيكو *لها*، وتسجل بدورها نقطة بعدم الاعتراف بدخولهم إلى حضرتها.

طلب من أوما أن تكون حذرة فى غرفة الاستقبال، أن تنتبه لأكياس أرز جانحة وحقائب متناثرة من الدال[٥]. كانت الغرفة تستخدم أحيانًا غرفة إضافية للتخزين، وقد عُرِف أن عددًا من الزوار غير الحذرين وقعوا فى شراكها الخفية: لم يكن من غير المعتاد أن تجد أكوامًا من الشيلى[٦] تحت كنباتها وبرطمانات المخلل مكدسة على أرفف الكتب. ذات مرة جلس مراقب شرطة بدين بقوة على بقايا أشواك سمكة مجففة. وفى مرة أخرى، هوجم قاضى مقاطعة عجوز مبجل بهبَّةٍ قوية من الفلفل فعطس طاقم أسنانه عبر الغرفة. سقط محطَّمًا عند قدمى الملكة.

زادت قصص غرفة الاستقبال من قلق لأوما، مما شجعها على تأمين السارى بمزيد من المشابك والدبابيس. لكن عند دخول الغرفة وجدتها على غير المتوقع تمامًا. شعرتْ، على عكس ما قيل تمامًا، براحة غريبة نتيجة النكهة الأليفة للأرز والمنج دال[٧]. فى أية جلسة أخرى كانت الملكة سوبايالات تبدو، بوجهها الشبيه بالقناع وشفتيها

البنفسجيتين، شبحًا مرعبًا. لكن بدا أن روائح الحياة المنزلية تخفف حدتها بعض الشيء، وتضيف عنصر تلطيف إلى حضورها الصلب.

عبر الغرفة، كان الملك يخبط جريدته بقوة على كفه. قال: "حسنًا، جابى صاحب، ألم تفكر أبدًا فى أنك قد تعيش لتشهد يومًا تهزم فيه بلد شرقية قوة أوروبية؟"

حبست أوما أنفاسها. على مدى الأسابيع الأخيرة خاض الجابى مناقشات كثيرة حامية عما يعنيه تحقيق نصر يابانى على روسيا. انتهى بعضها بنوبات غضب. بدتْ قلقة وزوجها يسلك حنجرته.

قال الجابى بهدوء: "أدرك، جلالتكم، أن النصر اليابانى أدى إلى ابتهاج واسع بين الأهالى فى الهند وبدون شكٍ فى بورما أيضًا. لكن هزيمة القيصر لم تثر دهشة أحد، ولم تؤدِّ إلى مواجهة مع أعداء الإمبراطورية البريطانية. الإمبراطورية اليوم أقوى مما كانت فى أى يوم. ليس عليك إلا أن تنظر إلى خريطة العالم لترى هذه الحقيقة."

"لكن الآن، جابى صاحب، يتغير كل شىء. لا شىء يبقى على حاله إلى الأبد."

صار صوت الجابى أكثر حدة: "ربما أذكِّر جلالتكم أن الإسكندر الأكبر لم يقض فى سهوب آسيا الوسطى إلا بضعة أشهر، لكن الولايات التى أسسها استمرَّتْ قرونًا بعد ذلك؟ إمبراطورية بريطانيا، على العكس، لها أكثر من قرن، وتأكدْ، جلالتكم، من أن تأثيرها سيستمر لقرون قادمة. تبرهن قوة الإمبراطورية على وجودها أمام كل التحديات وسوف تبقى فى المستقبل المنظور. ربما تكون لى الحرية، جلالتكم، فى توضيح أنك ما كنت لتكون هنا اليوم لو عرفت هذا الأمر قبل عشرين عامًا."

اكفهرَّ الملك، وحدَّق فى الجابى ولم يتفوه بكلمة. قررت الملكة الرد. مالت إلى الأمام، وغرست أظافرها الطويلة الحادة فى ذراعى مقعدها، وقالتْ: "يكفى، مستر جابى، كفى، بَسْ كارو(٨)." سادت لحظة صمت لم يصدر فيها إلا صوت أظافر الملكة،

تخدش الذراعين المصقولتين لمقعدها. بدا أن الغرفة تومض كأن الأرضية أطلقت دفعة مفاجئة من الحرارة.

كانت أوما تجلس بين دلِّى والأميرة الثانية. استمعت إلى حوار زوجها مع الملك فى صمت رهيب، وهى تجلس متجمدة فى مكانها. كانت على الجدار الذى أمامها لوحة مائية صغيرة. لوحة تصوِّر منظراً طبيعياً عند الشروق، سهلاً أحمر مقفراً مرصعًا بآلاف المعابد المكللة بالسحب. فجأة، صرخت أوما صرخة مدوية وهى تصفق بيديها: "باجان!"

كان للكلمة تأثير انفجار فى مكان ضيق. قفز الجميع، والتفتوا إلى أوما. رفعتْ يدها لتشير: "على الحائط– صورة باجان، أليس كذلك؟"

كانت الأميرة الثانية تجلس بجوار أوما. قبضتْ بشغف على هذا التحول: "نعم – إنها كذلك. يمكن أن تخبرك دلِّى – لقد رسمتْها."

التفتتْ أوما إلى المرأة النحيفة المنتصبة على يسارها. تذكرت أن اسمها دلِّى سين: قُدِّمت عند الدخول. لاحظت أوما فيها شيئًا غريبًا، لكنها كانت شديدة التركيز فى البروتوكول على نحو لم يسمح لها بمزيد من التفكير فى الموضوع.

قالتْ: "هل رسمْتِ حقًا هذه اللوحة؟ مدهشة."

قالت دلِّى بهدوء: "شكراً لك، نسختُها عن كتاب به لوحات." تلاقت نظراتهما وتبادلتا ابتسامة سريعة. فجأة عرفت أوما ما أثار انتباهها: ربما كانت مس سين ألطف امرأة وقعتْ عليها عيناها.

نقرت الملكة ذراع مقعدها: "مدام الجابى، كيف عرفْتِ أنها صورة باجان؟ هل زرْتِ بورما؟"

قالت أوما بندم: "لا. أتمنى زيارتها، لكنى لم أزرْها. لى عم فى رنجون وقد أرسل لى صورة ذات يوم."

"أوه؟" أومأت الملكة؛ تأثرت بطريقة تدخل الشابة لإنقاذ الموقف. كانت السيطرة على النفس صفة أثارت إعجابها دائمًا. كان فى المرأة، أوما دى، شىء جذاب؛ تتناقض حيوية أسلوبها بلطف مع عجرفة زوجها. لولا حضور ذهنها لأمرت بطرد الجابى خارج المنزل ولم يكن ذلك لينتهى إلا بشكل سيئ. لا، أحسنتْ مسز دى التصرف بالكلام حين تكلمت.

قالت الملكة: "نودُّ أن نسألك، مدام جابى، ما اسمك الحقيقى؟ لم نتعود أبدًا على طريقتكم فى تسمية النساء بأسماء آبائهن وأزواجهن. لا نفعل هذا فى بورما. ربما لن تعترضى على أن تذكرى لنا اسمك الأصلى."

"أوما ديبى- والجميع يدعوننى أوما."

قالت الملكة: "أوما؟ اسم مألوف لنا. يجب أن أقول إنك تتكلمين الهندوستانية جيدًا، أوما." كانت فى صوتها نبرة تقدير صادقة. كانت والملك يتحدثان الهندوستانية بطلاقة وكانت اللغة التى تفضل استخدامها فى التعامل من المسئولين. وجدت أن استخدامها للهندوستانية عادة يضع ممثلى الحكومة فى موقف الخاسر - وخاصة الهنود. وكثيرًا ما كان العاملون فى الخدمة المدنية البريطانية يتكلمون الهندوستانية جيدًا ولم تكن لدى مَنْ لا يجيدونها مشكلة فى الردِّ بالإنجليزية. وكان الهنود، من ناحية أخرى، بارسيين(٩) أو بنغاليين غالبًا، مستر شترجى هذا أو مستر دُرَبجى ذاك(١٠)، لا يتحدثون الهندوستانية بطلاقة، ويترددون، على عكس نظرائهم البريطانيين، فى الانتقال من لغة إلى أخرى؛ يرتبكون لأن ملكة بورما تتحدث الهندوستانية أفضل منهم. كانوا يتلعثمون ويتهتهون وبعد دقائق تُعقَد ألسنتُهم.

قالت أوما: "تعلمت الهندوستانية وأنا طفلة، جلالتكم. عشنا فى دلهى فترة."

"أكها[١١]؟ حسنًا، الآن نودُّ أن نسألك عن شيء آخر، أوما." أتت الملكة بإيماءة دعوة. "يمكن أن تقتربى منا."

مضت أوما إلى الملكة وحنتْ رأسها.

همست الملكة: "أوما، نودُّ لو نفحص ملابسك."

"جلالتكم!"

"كما ترين، ترتدى بناتى السارى على الطراز المحلى. لكنى أفضل هذه الموضة الجديدة؛ أكثر أناقة - يبدو السارى أشبه بهتامين. هل نثقل عليك إذا طلبنا منك الكشف عن أسرار هذا الطراز الجديد؟"

انطلقت أوما فى الضحك: "يسعدنى، وقتما تشائين."

استدارت الملكة إلى الجابى بصلابة: "إنك، جابى صاحب، بدون شك شغوف جداً بالعودة إلى الكتشيرى[١٢] حيث تنتظرك أمور كثيرة ملحة. لكن هل لى أن أطلب منك السماح لزوجتك بالبقاء معنا بعض الوقت؟"

انصرف الجابى، وعلى الرغم من النُّذُر الأولى لكارثة، انتهت الزيارة ودية جداً، مع بقاء أوما فى منزل أطرام ما تبقى من بعد الظهيرة، تدردش مع دُلِّى والأميرات.

***

يعرف منزل الجابى بالمقر[١٣]؛ بنجلو كبير برواق على أعمدة، وسقف مرتفع من القرميد الأحمر. يقع على قمة هضبة، ويطلُّ من الجنوب على الخليج ووادى نهر كجالى[١٤]. وتحيط به حديقة حولها سور، تمتدُّ مسافة طويلة فى المنحدر، وتنتهى قرب مجرى النهر.

ذات صباح اكتشفتْ أوما مدخلاً ضيِّقًا يختبئ خلف أيكة بامبو أسفل الحديقة. كانت البوابة مغطاة بالعشب، لكنها فتحتْها بما يكفى للمرور من خلالها. على بعد عشرين قدمًا، كان على وادى نهر كجالى بروز خشبى: شجرة بيبول[١٥] على حافة المجرى، شجرة عجوز مهيبة لها لحية كثة من الجذور الهوائية المعلقة من فروعها الرمادية المعقدة. عرفت أن أغنامًا أتت لترعى هناك: نُظِّفت الأرض تحت قبة الشجرة تمامًا من الشجيرات. ورأتْ آثار روث أسود باتجاه المنحدر. شيد رعاة الأغنام لأنفسهم مسطبة ليجلسوا عليها قرب التراب والأحجار المكومة حول جذع البيبول.

اندهشت أوما من المشهد: النهر المتعرج والمصب ومنحنى الخليج ومنحدرات فى مهب الريح– ترى الوادى من هنا أفضل مما تراه من المقر على قمة الهضبة. عادت فى اليوم التالى والذى يليه. يأتى رعاة الأغنام عند الشروق ويُهجَر المكان بقية اليوم. اعتادت التسلل من المنزل كل صباح، تاركة باب غرفة النوم مغلقًا ليعتقد الخدم أنها لا تزال بالداخل. تجلس فى الظل العميق للبيبول ساعة أو اثنتين ومعها كتاب.

ذات صباح فاجأتها دُلِّى بظهورها غير المتوقع من بين لحية الجذور المعلقة للبيبول. طُلِب منها إعادة ملابس أرسلتْها أوما إلى منزل أطرام – جيبات وبلوزات، للأميرات لتفصل لهن خياطتهن مثلها. انتظرت فى غرفة الاستقبال فى المقر وذهب الخدم بحثًا عن أوما. بحثوا فى كل مكان قبل الاستسلام. قالوا: ميمصاحب[١٦] ليست فى البيت، ربما خرجتْ تتمشى.

"كيف عرفت أننى هنا؟"

"حوذينا قريب حوذيكم."

"هل أخبرك كنهوجى[١٧]؟" كان كنهوجى حوذيًا عجوزًا يأخذ أوما بالعربة إلى البلدة.

"نعم."

"يا للعجب كيف عرف بشجرتى السرية."

"قال إنه سمع عنها من الرعاة الذين يأتون بأغنامهم إلى هنا فى الصباح. إنهم من قريته."

"حقًا؟" صمتتْ أوما. كان غريبًا أن تعتقد أن رعاة الأغنام يدركون وجودها كما تدرك وجودهم: "حسنًا، المنظر عجيب، ألا تعتقدين ذلك؟"

ألقتْ دلّى نظرة روتينية على الوادى: "كبرتُ معتادة عليه تمامًا ولم أعد أفكر فيه."

"أعتقد أنه مدهش. آتى إلى هنا كلَّ يوم تقريبًا."

"كل يوم."

"لوقت قصير فقط."

"أفهم لماذا تأتين؟" توقفتْ لتنظر إلى أوما. "لابدَّ أنك تشعرين بأنك وحيدة هنا فى رتناجيرى."

"وحيدة؟" اندهشتْ أوما. لم يخطر ببالها استخدام الكلمة لتصف نفسها. لم تكن المسألة أنها لا تقابل أحدًا أبدًا أو أنها تحتاج إلى ما تفعله دائمًا - كان الجابى متأكدًا من ذلك. كان مكتبه يرسل لها كل اثنين مذكرة تعدد نشاطاتها فى أسبوع - مهمة محلية، يوم رياضى فى مدرسة، تسليم جوائز فى الكلية المهنية. كان لديها عادة موعدٌ واحد يوميًا، لم تكن المواعيد كثيرة حتى لا تُرهَق، أو ضئيلة فتشعر أن أيامها طويلة بشكل بشع. كانت تتفحص القائمة حين تصلها بدايةَ الأسبوع، وتضعها على التسريحة، وعليها شىء ثقيل حتى لا تطير. كانت فكرة ضياع موعد تزعجها، مع أن فرصة حدوث ذلك نادرة. كان مكتب الجابى بارعًا فى التذكير بالمواعيد: يأتى ساعٍ إلى

المقر قبل كل موعد بساعة تقريباً ليخبر كنهوجى بإحضار الجارى. كانت تسمع الجياد واقفة تحت الرواق؛ تصهل وتركل الحصى، وكنهوجى يطرقع لسانه، تك - تك - تك.

كانت الرحلة إلى البلدة والعودة منها ألطف ما فى هذه المواعيد. بين العربة ومقعد السائق نافذة. كل بضع دقائق يلصق كنهوجى وجهه النحيل المجعد فى النافذة ويحدثها عن الأماكن التى حولهما - الكتشيرى، السجن، الكلية، البازارات. ودَّتْ أحيانًا النزول لدخول البازارات ومساومة بائعات السمك. لكنها كانت تعرف أنه ستكون هناك فضيحة؛ يأتى الجابى إلى البيت ويقول: "عليك فقط أن تخبرينى لأرتب بعض البَنْدوبست[١٨]." لكن البندوبست دمر أية متعة قد تشعر بها فى هذه الحالة: اجتمع نصف البلدة، مع كل من يريد أن يحظى برضا الجابى. قدم لها أصحاب المحلات كل ما نظرتْ إليه، وحين عادت إلى البيت تجهَّم الحمالون والخنساما[١٩] كأنها وبختهم.

قالت أوما: "وماذا عنك، دُلِّى؟ هل أنت وحيدة هنا؟"

"أنا؟ عشتُ هنا عشرين عامًا تقريبًا، وهذا المكان الآن بيتى."

"حـقًّـا؟" تـأثرت أومـا لوجـود شىء يكاد لا يُصـدَّق فى فكرة أن امـرأة بكل هذا الجمال والاتزان قضتْ معظم حياتها فى بلدة صغيرة فى مقاطعة ريفية.

"هل تتذكرين شيئًا عن بورما؟"

"أتذكر قصر مندالى. وخاصة الحوائط."

"لماذا الحوائط؟"

"كانت المرايا تغطى الكثير منها. وكانت هناك قاعة ضخمة اسمها القصر الزجاجى. كان كل شىء من الكريستال والذهب. كنت ترين نفسك فى كل مكان إذا استلقيت على الأرضية."

"ورنجون؟ هل تتذكرين رنجون؟"

"رست السفينة هناك ليلتين، لكن لم يُسمَحْ لنا بالنزول إلى المدينة."

"لي عم في رنجون. يعمل في بنك. إذا زرْتِه فسوف أحدثك عنها."

التفتتْ دُلّي بعينيها إلى وجه أوما. "هل تعتقدين أني أريد أن أعرف شيئًا عن بورما؟"

"ألا تريدين؟"

"لا أريد. لا أريد إطلاقًا."

"لكنك بعدْتِ عنها فترة طويلة."

ضحكت دُلّي: "أظن أنك تشعرين بأسف من أجلي. أليس كذلك؟"

تلعثمتْ أوما: "لا، لا."

"ليس هناك ما يجعلك تأسفين من أجلي. اعتدتُ العيش في أماكن عالية الجدران. لم تكن مندالي تختلف كثيراً. لا أتوقع أكثر من ذلك."

"هل تفكرين في العودة؟"

جاء صوت دُلّي قاطعًا: "إطلاقًا. إذا ذهبتُ إلى بورما الآن فسأكون غريبة - ويدعونني كالا كما يدعون الهنود - آثمة، دخيلة من عبر البحار. أظن أن ذلك صعب جداً. لن أستطيع أبداً تخليص نفسي بفكرة الرحيل مرة أخرى في يوم من الأيام، كما كنتُ من قبل. تفهمينني إذا عرفْتِ معنى الرحيل؟"

"هل كان رهيباً جداً؟"

"لم أعدْ أتذكر الكثير، وأفترض أن ذلك نوع من الرحمة. أرى منه نتفًا أحيانًا. يشبه خربشة على جدار - مهما رسمْتِ عليها، يظهر جزء دائمًا، لكنه لا يكفي لتذكر الكل."

"ماذا ترين؟"

"غباراً، أضواء كشافات، جنوداً، جماهير تختفي وجوههم في الظلام..." ارتجفتْ دلّي. "أحاول ألا أفكر في ذلك كثيراً."

في وقت قصير جداً صارت دلّي وأوما صديقتين حميمتين. تأتي دلّي إلى المقر مرة أسبوعياً على الأقل، وأحياناً مرتين وربما أكثر، ويقضيان اليوم سوياً. تتحدثان عادة وتقرآن، لكن من وقت لآخر تطرح دلّي فكرة الخروج. يأخذهما كنهوجي إلى البحر أو الريف. وكانت دلّي تقيم برفقة أوما حين يكون الجابي بعيداً يتفقد المقاطعة. في المقر عدة غرف للضيوف، خصصت أوما إحداها لدلّي. كانتا تستمران في الحديث إلى وقت متأخر من الليل. وكثيراً ما استيقظتا مكومتين على سرير إحداهما، وقد غلبهما النوم وسط الحديث.

ذات ليلة أشارت أوما، مستجمعة شجاعتها: "أسمع أشياء بشعة عن الملكة سوبايالات."

"ماذا؟"

"قتلتْ أناساً كثيرين... في مندالي."

لم ترد دلّي، لكن أوما ألحّتْ، قالت: "ألا يرعبك أن تعيشي في منزل واحد مع واحدة بهذا الشكل؟"

هدأتْ دلّي لحظة، وخشيتْ أوما أن تكون قد جرحت مشاعرها. ثم تحدثت دلّي، قالت بصوت رقيق: "تعرفين، أوما. كلما أتيتُ إلى منزلك، ألاحظ تلك الصورة التي تعلقينها على الباب الخارجي..."

"تقصدين صورة الملكة فيكتوريا؟"

"نعم."

ارتبكتْ أوما: "ماذا عنها؟"

"ألم يدهشك أحيانًا عدد مَنْ قُتِلوا باسم الملكة فيكتوريا؟ لا بد أنهم ملايين، أليس كذلك؟ أظن أنى سأكون فى حالة هلع حين أعيش مع إحدى تلك الصور."

بعد بضعة أيام خلعتْ أوما الصورة وأرسلتها إلى الكتشيرى، لتعلق على مكتب الجابى.

***

كانت أوما فى السادسة والعشرين، متزوجة منذ خمس سنوات. كانت دُلّى أكبر ببضع سنوات. قلقت أوما: ماذا عن مستقبل دُلّى؟ ألن تتزوج أبدًا أو يكون لها أبناء؟ وماذا عن الأميرات؟ الأميرة الأولى فى الثالثة والعشرين، والصغرى فى الثامنة عشرة. هل على هؤلاء الفتيات ألا يتطلعن إلا إلى حياة السجن؟

قالت أوما للجابى: "لماذا لا يفعل أحد شيئًا، لترتيب زواج الفتيات؟"

ردَّ الجابى: "ليس شيئًا لم يحاوله أحد. الملكة لا تسمح به. "

وجد الجابى، فى مكتبه فى الكتشيرى، ملفًا سميكا لتدوين مراسلات أسلافه للتعامل مع مسألة مستقبل الأميرات. كانت الفتيات فى بداية أنوثتهن. إذا حدثت فضيحة أو حادثة فى منزل أطرام، سيعتبر الجابى القائم بالعمل مسئولاً: أمانة سر بومباى لم تدع مجالاً للشك فى هذا السجل. حاول عدد من الجباة السابقين، لتحصين أنفسهم، البحث عن عرسان مناسبين للأميرات. وكتب أحدهم لزملائه فى رنجون يطلب البحث عن عزاب بورميين جديرين بالزواج من الأميرات - فعرف أنه لا يوجد إلا ستة عشر فقط من هؤلاء الرجال.

كان من تقاليد الأسر الحاكمة فى بورما أن يتم الزواج من المقربين جداً فى العائلة. لم يكن الرجل جديراً بالزواج من العائلة الملكية إلا إذا كان من دماء كُنْبُنج خالصة. كانت الملكة مسئولة عن ضآلة عدد هؤلاء الأمراء ذوى الدماء النقية: أهلكتْ معظم أسرتها بذبح كل المنافسين المحتملين لثيبو. وبالنسبة للرجال القليلين الجديرين لم يلق أى منهم استحساناً عند الملكة. أعلنت أن لا أحد منهم كفؤ لأميرات كُنْبُنْج الأصيلات. ولم تكن لتسمح لبناتها بتدنيس دمائهن بالزواج ممن هم دونهن.

قالت أوما للجابى: "لكن ماذا عن دلِّى. دلِّى لا تنشغل بالعثور على أمير."

قال الجابى: "هذا صحيح، لكن قد تكون الظروف بالنسبة لها أكثر غرابة. قضتْ حياتها كلها بصحبة الأميرات الأربع. لكنها أيضاً تابعة، خادمة، من أصول عائلية مجهولة. كيف تنشغلين بالعثور على زوج لها؟ من أين تبدئين: هنا أمْ فى بورما؟"

لم تستطع أوما تقديم إجابة لهذا السؤال. لم تفتح هى أو دلِّى موضوع الزواج أو الأطفال. قد تتحدث أوما، مع بعض صديقاتها الأخريات، عن مواضيع قليلة لكن ليس عن الأزواج والزواج والأطفال – وبالطبع، عن علاجات لعدم إنجابها. لكن مع دلِّى كان الأمر مختلفاً: لم تتأسس صداقتهما على البوح الحميم والحياة العائلية – كانت على العكس تماماً. عرفتا، هى ودلِّى، غريزيًا ما لا يمكن التحدث عنه – جهود أوما للحمل، عنوسة دلِّى – مما أضفى على المقابلات حرصاً شديداً. تشعر أوما، مع دلِّى، كأن عبئاً هائلاً سقط من عقلها، وأنها تستطيع النظر لأمور خارجية بدل القلق بشأن إخفاقاتها كزوجة. كانت تتعجب، وهما تسيران بالعربة فى الريف، على سبيل المثال، من الطريقة التى يعدو بها الناس من بيوتهم للتحدث إلى دلِّى وإعطائها أشياء بسيطة: فاكهة أو خضراوات أو قطعاً من القماش. قد يتحدثون لحظة بالكونكانية[٢٠]، وهما فى الطريق مرة أخرى، قد تبتسم دلِّى وتقول موضحة: "عمل عم تلك المرأة – أو أخوها أو خالتها – فى منزل أطرام." وكانت أوما، على الرغم من اعتراضها على نكران الذات، تقول

إن لهذه الارتباطات عمقًا يتجاوز الصدفة بكثير. كثيراً ما اشتاقت أوما لمعرفة حقيقة هؤلاء الناس بالضبط وعما كانوا يتحدثون مع دلّي. لكن في تلك اللقاءات كانت هي الدخيلة، المصاحب: خيَّم عليها صمت المنفى فجأة.

أحيانًا، حين يكثر القرويون حولهما، يوبخهم كنهوجي من مقعده، ويطلب منهم إخلاء الطريق لجارى الجابى، مهددًا باستدعاء البوليس. تنظر النساء والأطفال إلى أوما؛ تتسع عيونهم وينسحبون حين يتعرفون على زوجة الجابى.

قالت دلّي ذات مرة وهي تضحك: "ترين، شعب بلدك يألف السجناء أكثر مما يألف السجانين."

"لستُ سجانتك."

"مَنْ أنت، إذن؟" قالتْ دلّي مبتسمة، بنبرة تحدٍ واضحة في صوتها.

"صديقة. بالتأكيد؟"

"أيضًا، لكن بالصدفة."

سعدتْ أوما، رغمًا عنها، بنبرة التوبيخ في صوت دلّي. كانت عقارًا مقويًا ضد الحسد والخنوع الذى قابلتْه في كل مكان، باعتبارها زوجة الجابى والمصاحب المرموقة للمقاطعة.

ذات يوم، في العربة، تبادلت دلّي كلمات حادة مع كنهوجي عبر نافذة الاتصال. استغرقا بسرعة في الجدال وبدا وكأن دلّي نسيتْ وجود أوما تقريبًا. حاولت على فترات استعادة أسلوبها الطبيعي، بالإشارة إلى العلامات وتقديم حكايات عن القرى. لكن غضبها كان، في كل مرة، يتغلب عليها ويسيطر عليها مرة أخرى في لحظات، قاذفة الحوذى بكلمات أخرى.

ارتبكتْ أوما: كانا يتحدثان الكونكانية ولم تفهم شيئًا مما يقولان. عم يتجادلان بأصوات تبدو عنيفة حقًا، أصوات لها نبرات الشجار العائلى؟

"دلِّى، دلِّى." هزتْ أوما ركبتها: "ما المسألة؟"

قالتْ دلِّى، ضاغطة شفتيها معًا بتكلف: "لا شىء، لا شىء إطلاقًا. كل شىء على ما يرام."

كانتا فى الطريق إلى معبد بهجفتى، على منحدرات فى مهب الريح فوق الخليج، تحميه جدران حصن رتناجيرى، حصن من القرون الوسطى. بمجرد توقف الجارى أمسكت أوما بذراع دلِّى وقادتها إلى المتاريس المنهارة. صعدتا إلى فتحات إطلاق النيران ونظرتا منها: تحتهما يمتد الجدار بعيدًا فى خطٍّ مستقيم، هابطًا إلى البحر مائة قدم.

"دلِّى أريد أن أعرف المسألة."

هزَّتْ دلِّى رأسَها بذهول. "أتمنى أن أخبرك، لكن لا أستطيع."

"دلِّى، لا يمكن أن تصرخى فى حوذىٍّ وترفضين إخبارى بما كنتما تتحدثان عنه."

تردَّدتْ دلِّى وألحَّتْ عليها أوما مرة أخرى: "يجب أن تخبرينى، دلِّى."

عضَّتْ دلِّى شفتها، ونظرتْ متعمدة فى عينى أوما، وقالت: "إذا أخبرتُك، تعديننى بألا تخبرى الجابى؟"

"نعم، بالطبع."

"تعديننى؟"

"بصدق. أعدك."

"عن الأميرة الأولى."

"نعم؟ استمري."

"إنها حامل."

صُعِقتْ أوما، طارتْ يدها إلى فمها غير مصدقة: "والأب؟"

"موهان سوانت."

"حوذيكم؟"

"نعم. وهذا سر غضب كنهوجي. إنه عم موهانبهي. وتريد أسرته أن توافق الملكة على الزواج حتى لا يولد الطفل لقيطًا."

"لكن، دُلّي، كيف تسمح الملكة لابنتها بالزواج من حوذي؟"

قالتْ دُلّي بحدة: "لا نعتبره حوذيًا. إنه، بالنسبة لنا، موهانبهي."

"لكن ماذا عن أسرته، عن أصله؟"

خبطتْ دُلّي رسغها في إشارة اشمئزاز. قالتْ: "أوه، أنتم أيها الهنود. كلكم متشابهون، كلكم مشغولون بطوائفكم وبزيجاتكم المنظمة. في بورما حين تحبُّ امرأةٌ رجلاً، فهي حرة في أن تفعل ما تشاء."

اعترضتْ أوما: "لكن، دُلّي، سمعتُ أن الملكة صارمة بشدة في هذه الأمور. تعتقد أنه لا يوجد رجل في بورما جدير بالزواج من بناتها."

ضحكت دُلّي: "سمعْتِ إذن عن قائمة الأزواج المرشحين؟ لكن، تعرفين، كانوا مجرد أسماء. لم تعرف الأميرات شيئًا عنهم. الزواج من أحدهم مسألة معقدة، مسألة

دولة. لكن ما حدث بين موهانبهى والأميرة ليس شيئًا معقَّدًا إطلاقًا. بالغ البساطة: مجرد رجل وامرأة قضيا سنواتٍ معًا، ويعيشان خلف الجدران نفسها."

"لكن الملكة؟ أليست غاضبة؟ الملك؟"

"لا. ترين، كلنا مرتبطون جدًا بموهانبهى – مين وميبيا أكثرنا. أعتقد أننا جميعًا بطرقٍ مختلفة نحبه بعض الشىء. كان معنا فى كل شىء، وقف بجانبنا دائمًا. إنه، بطريقة ما، الشخص الذى أبقى علينا أحياء، أبقى علينا عقلاء. الشخص الوحيد المنزعج من هذا هو موهانبهى. يعتقد أن زوجك سيسجنه حين يعرف."

"ماذا عن الأميرة؟ ماذا ترى؟"

"يبدو الأمر كأنها وُلِدتْ من جديد – نجتْ من منزل الموت."

"وماذا عنك، دلِّى؟ لم تتحدث أبدًا عنك أو عن مستقبلك. ماذا عن توقعاتك للزواج، أن يكون لك أبناؤك؟ هل تفكرين فى هذه الأشياء؟"

مالت دلِّى على الجدار، مركزة عينيها على البحر العارم: "لأقول لك الحقيقة، أوما، فكرْتُ فى الأطفال طوال الوقت. لكن بمجرد علِمنا بطفلِ الأميرة– طفل موهانبهى– حدث شىء غريب. تلاشتْ تلك الأفكار من عقلى. الآن حين أستيقظ أشعر أن الطفل طفلى، يكبر بداخلى. هذا الصباح، سمعتُ الفتيات يسألن الأميرة الأولى: 'هل كبر الطفل؟' 'هل شعرتِ به يتحرك فى الليلة الماضية؟' 'أين كان كعباه هذا الصباح؟' 'هل يمكن أن نلمس رأسه بأيدينا؟' وحدى لم أكن فى حاجة للسؤال عن شىء: شعرتُ أنى أستطيع الإجابة على كل هذه الأسئلة بنفسى؛ كأنه طفلى."

قالت أوما برقة: "لكنه ليس طفلك، دلِّى. مهما بدا أنه طفلك، فهو ليس طفلك ولن يكون أبدًا طفلك."

"لابدَّ أن الأمر يبدو غريبًا عليك، أوما. أستطيع أن أفهم أن يكون كذلك بالنسبة لك. لكنه مختلف بالنسبة لنا. فى منزل أطرام نعيش حياة صغيرة جداً. كل يوم على مدى السنوات العشرين الأخيرة استيقظنا على الأصوات نفسها والكلمات نفسها والمناظر نفسها والوجوه نفسها. علينا أن نقنع بما لدينا، أن نتطلع إلى السعادة التى يمكن أن نجدها. بالنسبة لى لا يهمُّ مَنْ تحمل الطفل. أشعر بصدق أنى مسئولة عن حمله. يكفى أن يأتى إلى حياتنا. سأجعله طفلى."

رأتْ أوما، وهى تنظر إلى دلّى، عينيها مترعتين بالدموع. قالت: "دلّى، ألا ترين أنه لن يبقى شىء على حاله بعد ولادة الطفل؟ ستنتهى الحياة التى عرفتموها فى منزل أطرام. دلّى، ارحلى متى استطعْتِ. أنت حرة فى أن تذهبى: أنت هنا وحدك بإرادتك."

ابتسمت لها دلّى: "أين أذهب؟ لا أعرف إلا هذا المكان. هذا وطنى."

هوامش

(١) بنِى برَساد دى: Beni Prasad Dey.

(٢) سافيل رو Savile Row: شارع تجارى فى وسط لندن.

(٣) أوما Uma أو أوما دیبی Uma Debi (اسمها الأصلى) أو أوما دى Uma Dey (اسمها بعد الزواج):

(٤) الصاحب sahib: لقب رسمى بمعنى "سيد"، يخاطب به الهنود شخصًا أوروبيا ذا مكانة اجتماعية أو منصب رسمى (أوردو عن العربية).

(٥) الدال dal: طعام معد من الفول المجفف بعد نزع قشرته وشقه (الفول المدشوش). وتشير الكلمة أيضًا إلى نوع من الطعام المتبل الذى يعد دعامة أساسية للمطبخ الهندى والباكستانى والبنجلاديشى.

(٦) الشيلى chillies: نبات يستخدم كنوع من التوابل.

(٧) منج دال mung dal: وجبة شهيرة فى الهند وباكستان من الفول الأخضر المشقوق.

(٨) بَسْ كارو bas karo: كفى بالهندوستانية.

(٩) بارسى Parsee: هندى من أصول فارسية، يؤمن بالزرادشتية.

(١٠) مستر شترجى Chatterjee هذا أو مستر دُرَبجى Dorabjee ذاك: زيد أو عمرو.

(١١) أكها achha: حسنا (هندوستانية).

(١٢) كتشيرى Cutchery: المقر الإدارى للجابى، يضم محاكم المقاطعة ومكاتبها.

(١٣) المقر Residency: مقر الإقامة الرسمى للمندوب أو القنصل البريطانى فى الإمبراطورية البريطانية.

(١٤) نهر كجالى Kajali River: من الأنهار الرئيسية فى رتناجيرى.

(١٥) بيبول peepul: شجرة تين هندى، لها أوراق بيضاوية عريضة. مقدسة عن البوذيين.

(١٦) ميمصاحب memsahib: لقب تُخاطب به زوجة المسئولين الأوربيين فى الهند، مدام صاحب.

(١٧) كنهوجى: Kanhoji.

(١٨) البَنْدوبست: bandobast.

(١٩) خنساما khansama: الطباخ.

(٢٠) كونكانية Konkani: اللغة الرسمية لولاية جوا فى الهند.

(١٠)

كان تأثير جداول الرياح الموسمية، المحملة بالأخشاب وهى تتدفق فى إراودى، يشبه تصادم القطارات. الاختلاف فى أن هذا التصادم يحدث باستمرار، يستمر بلا توقف نهاراً وليلاً، لأسابيع بانتظام، حين يكون النهر سيلاً جارفًا تتلاطم فيه التيارات والدوامات. حين تندفع الجداول المغذية إلى النهر مباشرة، يُلقى زند وزنه طنان كقطعة عملة فى الهواء؛ تُقذَف جذوع أشجار يبلغ طولها خمسين قدمًا عبر المياه مثل حصاة مقلطحة. وكان الصخب صخب بارجة مدفعية، وكان صوت الانفجارات يسمع على بعد أميال فى المناطق القريبة.

حيث يتقاطع النهر مع جداوله المغذية، تتعرض أرباح شركات الساج لخطر هائل. تكون تيارات إراودى سريعة جداً فى هذا الموسم وقد تُفقَد الأخشاب إذا لم تؤخذ بسرعة إلى الشاطئ. وهنا يجب أن تمر هذه الزنود من عمال البرِّ إلى عمال الماء، من أوسيِّين وأفيال إلى أهل النهر والرمَّاثين[١].

كان يحرس نقط التقاء الجداول مستردون متخصصون فى القبض على الزنود المحمولة فى النهر واستردادها: عمومًا، كان هؤلاء السباحون يشكلون، مقابل ثلاثة قروش لكل زند، شبكة إنسانية عبر النهر، يخلصون الزنود من التيارات ويسحبونها إلى الشاطئ. فى بداية الموسم تنقل قرى كاملة مواقعها لشغل محطات على طول النهر. ويظل الأطفال يتفرجون على طول الضفتين وكبارهم يصارعون التيارات، ينطلقون بين جذوع الساج الضخم، ويخوضون المياه حول الدوامات المزبدة. يعود بعض هؤلاء المستردين إلى الشاطئ منبطحين على الزنود التى قبضوا عليها ويعود

آخرون وهم يمتطونها، وسيقانهم متدلية. ويعتلي بعضهم الزنود الدوارة المغطاة بالطحالب وهم واقفون، يوجهونها بأصابع أقدامهم: هؤلاء ملوك النهر، سادة الاسترداد المشهود لهم.

كانت الزنود تُثبَّت وتُربط بمجرد جلبها إلى الضفاف. وحين يتجمع عدد كافٍ منها، يربطها رمَّاثون مهرة معًا في مركب جديد بالسير في النهر. وكانت هذه الرموث كلها بالحجم نفسه، وعدد الزنود التي تحملها محدد، بقانون الشركات، بثلاثمائة وستين لكل منها، أي ثلاثين دستة. وإذا كان كل زند طنًا أو أكثر فإن كل رمث يحمل حمولة سفينة حربية صغيرة وتكون مساحة ظهره أكبر بعدة مرات، مساحة واسعة تستوعب أرض معرض. في منتصف كل منصة من هذه المنصات الهائلة الطافية، كوخ صغير، يبنيه الرمَّاثون كمنزل للطاقم. مثل البنايات المؤقتة في معسكرات الساج، كانت هذه الكهوف المحمولة على الرموث تقام في ساعات. كانت كلها متشابهة تمامًا في التصميم ومختلفة دائمًا في التنفيذ- يُميَّز كوخ بالغصون الممتدة لكرمة سريعة النمو، وآخر بعشة فراخ أو حتى تعريشة لخنزير أو عنزة. كان كل رمث يحمل سارية طويلة وعمودًا مع حفنة أعشاب ملصقة في القمة، عرض لناتات النهر. وقبل إقلاع الرموث تُرقَّم، وتوضع الأرقام على صواريها مع أعلام الشركات التي تمتلكها. كانت الرموث تسير فقط بين الفجر والغسق، قاطعة ما بين عشرة أميال إلى خمسة عشر ميلاً يوميًا، يدفعها ببطء تدفق النهر وتُوجِّهها المجاديف فقط. وكانت الرحلة إلى رنجون من الغابات الواقعة داخل البلاد تستغرق خمسة أسابيع وربما أكثر.

وكان رجكومار في كل موسم يجد ذريعة ما لقضاء بضعة أيام على هذه الرموث. كان في الإيقاعات المتنوعة للحياة على هذه المنصات المستطيلة الهائلة شيء لذيذ ساحر- مقابل التراخي المتوقع لساعات الحياة اليومية، حين لا يكون هناك ما تفعله إلا مشاهدة صنارة تتحرك عبر المياه، والإثارة الشديدة لمرسى الغروب، حين تطير الحبال

مـهسـهسة بين ظهر السـفينة والشـاطئ ويتـسابق الجميع لسكب المياه على الزنود المدخنة. وعلى الرغم من أحجام الرموث الهائلة فإنها هشة البنيان: قد تتفكك فى دقائق إذا ارتطمت بمجموعة أسماك أو تلٍّ من الرمال. تبدو جامدة، إلا أن سطوحها خادعة مثل الوَعْث[٢]، تنفتح آلاف الفجوات بين الزنود وتغلق باستمرار؛ الفجوة صغيرة إلا أنها مصيدة مميتة إذا انزلقت فيها القدم.

كان كثير من الرمَّاثين من شيتاجُنْج، وكان رجكومار يشعر بارتياح خاص لقدرته على استعادة لهجة صباه؛ لتذوُّق لسانه للحرارة المتذكَّرة لدالات رءوس الأسماك وجهولات[٣] ذيول السمك، مرصعة بحبوب النيجلا[٤] والخردل؛ لمشاهدة تغير تدفق النهر، مرة أخرى يبطئ وهو ينتشر فى الوادى المغمور ويسرع فجأة عند الاقتراب من ممر ضيق؛ لملاحظة التحولات غير المتوقعة فى المشهد الطبيعى، حيناً خضرة كثيفة الأشجار وحينًا صحراء حمراء قاحلة، منقطة بجذوع هائلة لنخيل مترنح.

وكان أغرب مشاهد النهر كلها المشهد الذى يقع جنوب الرابية البركانية الهائلة لجبل بويا[٥]، حيث لإراودى منحنى واسع جارف، يتمدد باتساع هائل. على الضفة الشرقية للنهر، تظهر أكوام منخفضة عفنة؛ تلال مغطاة بطبقة سميكة من رشح، مادة تشتعل أحيانًا تلقائياً فى حرارة الشمس، باعثة جداول من النيران إلى النهر. وكثيراً ما كانت تُرَى فى الليل نيران مرتعشة عن بعد، تغطى المنحدرات.

كان أهالى المنطقة يعرفون هذا الرشح بزيت الأرض: كان داكنًا، أخضر وامضاً، بلون أجنحة الذباب الأزرق. ينضح من الصخور كالعرق، ويتجمع فى برك خضراء لامعة. فى بعض المواضع، حيث تتحد البرك معًا لتكوِّن جداول وغدرانًا، تنتشر دلتا زيتية بطول الشواطئ. كانت رائحة هذا الزيت قوية، تنتشر بطول الطريق عبر إراودى: ينحرف الملاحون كثيراً حين يمرون بهذه المنحدرات، هذا موضع جداول عفنة – ينانجيونج[٦].

كان من أماكن قليلة فى العالم نضح فيها البترول بشكل طبيعى إلى سطح الأرض. قبل اكتشاف آلات الاحتراق الداخلى بكثير قامت سوق كبيرة لهذا الزيت: استُخدِم على نطاق واسع كمرهم لعلاج بعض الحالات الجلدية. جاء التجار إلى ينانجيونج من أماكن بعيدة كالصين لينتفعوا بهذه المادة. وكانت تجمع الزيت جالية تستوطن تلك التلال المحترقة، أناس عرفوا باسم توين زاس(٧)، عقدة محكمة، مجموعة مغلقة من المتشردين والهاربين والغرباء.

على مر الأجيال ارتبطت عائلات توين زاس بعيون وبرك معينة، يجمِّعون الزيت فى جرادل وأحواض وينقلونها إلى البلدات المجاورة. تم العمل فى الكثير من برك ينانجيونج فترات طويلة حتى نزل مستوى الزيت تحت السطح، مما أرغم ملاكها على الحفر. وبهذه الطريقة، صارت بعض البرك آباراً، على عمق مائة قدم أو أكثر، حفراً هائلة مشبعة بالزيت، محاطة برمال وتراب من باطن الأرض. تم العمل فى بعض هذه الآبار بجدية حتى بدت مثل البراكين الصغيرة، بمنحدرات مخروطية حادة. عند تلك الأعماق لم يعد من الممكن تجميع الزيت بمجرد تغطيس جردل مثقل: ينزل التوين زاس بحبال، ويكتمون أنفاسهم مثل غواصين اللؤلؤ.

وكثيراً ما ذهب رجكومار إلى ينانجيونج، حين يرسو المركب على مسافة يمكن قطعها سيراً، ليرى التوين زاس وهم يعملون. يرى، وهو يقف على حافة بئر، رجلاً يهبط البئر، ملتفًا ببطء على حبل معلق. والحبل يتصل، بواسطة بكرة، بزوجته وعائلته ومواشيه. كانوا ينزلونه بالصعود إلى منحدر البئر، وحين يشعرون بشدِّه يخرجونه بالنزول مرة أخرى. كانت حواف الآبار زلقة نتيجة الزيت المراق وكثيراً ما سقط فيها عمال غير حذرين وأطفال صغار. وكثيراً ما مرَّتْ هذه السقطات دون أن يلاحظها أحد: لم تكن هناك بقع، كانت موجات قليلة. الشفافية إحدى خصائص هذا الزيت: لا يترك أثراً على سطحه بسهولة.

بعد تلك الزيارات إلى ينانجيونج، طاردتْه الأشباح المشبعة بالزيت. ماذا يعنى الغرق فى الرشح؟ أن تشعر بذلك الوحل الأخضر، لون أجنحة الحشرات، تجثم على رأسك، وتتسرب إلى أذنيك وفتحتى أنفك؟

وقعتْ عين رجكومار، وهو فى الثامنة عشرة تقريبًا، على مشهد غريب فى ينانجيونج. لاحظ غريبين، رجلين أبيضين، يسيران من بئر إلى بئر. منذ ذلك الوقت، حين يعود، ازدادت أعداد هؤلاء الرجال حول المنحدرات، مزودين بأدوات وأجهزة مسح ثلاثية القوائم. كانوا من فرنسا وإنجلترا وأمريكا، ويقال إنهم يقدمون للتوين زاس مبالغ كبيرة، ويشترون بركهم وآبارهم. ارتفعتْ مسلات خشبية على التلال، أهرام تشبه الأقفاص بداخلها حفارات تدقُّ بلا توقف فى الأرض.

فى إحدى تلك الزيارات إلى ينانجيونج التقط رمث رجكومار راكبًا، اسمه بَبُورو، من جونتور[٨] فى الهند. كان شعر جسمه كثيفًا حتى بدا وهو يرتدى صدرة من القطن، كأنه ارتدى شبكة من الأسلاك الرفيعة. كان معه أموال كثيرة وكان يوزع مشروبًا محليا بسخاء على الرماثين، فى وقت متأخر من الليل. قال إنه ميسترى[٩]، مقاول عمال: نقل على الفور ثمانية وأربعين كورنجيا من شرق الهند إلى ينانجيونج. لا يمكن كسب المال فى أى مكان بطريقة أسرع. انشغلت شركات أجنبية كثيرة بالحفر عن البترول، وكانت تبحث عن العمال باستماتة. تريد عمالاً وتنوى الدفع بسخاء. كان العثور على عمال فى بورما صعبًا: قليل من البورميين فقراء بدرجة تجعلهم يتحملون ظروف ينانجيونج. قال بَبُورو لكن بالرجوع إلى وطنه الهند هناك آلاف لا تُحصى من الناس تواقين لتركها مقابل التوقيع على مكاسب سنوات كثيرة. يمكن لشاب مثل رجكومار أن يصبح غنيًا بسرعة فى هذه الحرفة. هل هناك طريقة أسهل للحصول على المال؟ لا يحتاج المرء إلا مئات الروبيات لدفع أجرة سفر العمال الجدد.

تجول رجكومار ببطء على الرمث الراسى وأشعل شيروتًا، واستلقى على صدره. كان وجهه على بعد بوصات من المياه، وقد ارتفعت أنواع من الأسماك الصغيرة التى

تعيش بجانب ضفة النهر إلى السطح لتطبق على الرماد المتطاير. جاء اللقاء مع الميستري وهو في أوج انشغاله بالمستقبل. في معظم السنة الأخيرة كان سايا جون يحدثه عن التخطيط مباشرة: "أيَّامُك كلوجا لي على وشك الانتهاء، رجكومار. حان الوقت لتحتل مكانًا في العالم."

كان رجكومار يريد المضي في أعمال الخشب. كان متأكدًا من هذا، لأنه يعرف أنه لن يلمَّ أبدًا بمهنة أخرى بهذا الشكل. والمشكلة أنه لا يملك مهارة من المهارات الخاصة التي تجعله يلتحق بالقوة العاملة في شركة كأوسي أو رمَّاث. ولم تكن مسألة كسب عشرين روبية أو ثلاثين في الشهر تمثل إغراء. ثم ماذا؟

قرر رجكومار أن أفضل طريق للعمل في مجال الساج امتلاك شادر خشب. توقف رجكومار أحيانًا، في رحلاته في النهر، عند الميناء النهري في هنْزادا[١٠]، حيث يعيش صديقه القديم دوه سي ، مع زوجته نو دا، وطفليهما . كان يعمل في شادر صغير بجوار حوض للسفن، مشرفًا على فريق من فيلين. اقترح دوه سي على رجكومار البدء بشادر خشب بنفسه: العمل في المستودعات طريقة مناسبة لدخول المهنة. قال: "يمكن أن تبدأ صغيرًا . يمكن أن تدبر فيلاً واحدًا فقط. سآتي وأعمل معك بنصف الأجر المعتاد، مقابل حصة في العمل." رأس المال كل المطلوب.

كان رجكومار يحتفظ بجزء من راتبه، ويدخر الباقي مع سايا جون. لكن بعد كل هذه السنوات من الاقتصاد لم يكن معه ما يزيد على مائتي روبية. وتكلفة الشروع في شادر خشب تتطلب عدة ألوف - مبلغ كبير لا يستطيع أن يطلبه من سايا جون. وقد يحتاج الذهاب إلى الهند مع بيورو، من ناحية أخرى، أكثر مما ادخر. وإذا شجع سايا جون على أن يقرضه الباقي، ربما يكون معه خلال سنوات قليلة ما يكفي لإقامة شادر.

بعد العودة إلى مندالى انتظر وقتًا طويلاً ليصل إلى سايا جون. قال بهدوء، حذرًا من تقديم مزيد من الشرح: "أحتاج قرضًا ببضع مئات من الروبيات، وستعود إليك أضعافًا مضاعفة. سايا؟"

بعد ثلاثة أشهر غادر رجكومار بورما مع بيورو. استغرقت الرحلة أربعة أيام من رنجون إلى كلكتا وأربعة أيام أخرى للسفر على الساحل إلى مدراس. أجَّر بيورو عربتى ثيران من سوق بلدة صغيرة وزيَّنهما بقماش مبهرج. اشترى عدة أكياس من الأرز الجاف من البازار وجنَّد نصف دستة من اللَّثيال[11] الذين يستخدمون العصى للعمل كحراس.

اتجهوا إلى الريف فى صحبة طبالين: كأنهم فى موكب عرس، فى الطريق إلى حفل زفاف. فى الطريق سأل بيورو العابرين عن القرى التى يتجه إليها. فقيرة أم غنية؟ يملك القرويون أرضًا أم يعملون مقابل حصص؟ ما طوائف الناس الذين يعيشون فيها؟

توقفوا عند عزبة صغيرة، مجموعة أكواخ صغيرة بالية تحتشد حول شجرة بانيان[12] ضخمة. جلس بيورو تحت الشجرة وطلب من الطبالين البدء فى قرع آلاتهم. توقفت كل الأنشطة الأخرى على الفور. جاء الرجال يعدون من الحقول، تاركين ثيرانهم فى محاريثها. وتدفق الأطفال عبر حقول الأرز. وتسللت النساء من أكواخهن وأطفالهن متوازنون على خصورهن.

رحب بيورو بالجميع تحت ظل الشجرة. بمجرد أن أصبح الحشد كثيفًا وعميقًا بدأ يتكلم، جاء صوته بطيئًا كترنيمة، بأسلوب وقور يشبه أسلوب راوى الرامايانا[13]. تحدث عن أرض الذهب، بورما، التى أعلن السركار[14] البريطانى أنها جزء من الهند. أشار إلى الشال المشرشب المعلق حول رقبته ودعا مستمعيه إلى لمسه بأصابعهم؛ رفع

يده ليرى الجميع خواتم من الذهب والياقوت. قال ببورو، هذا كله من بورما، أرض الذهب. قبل الذهاب إلى هناك لم يكن يملك شيئًا، حتى عنزة أو بقرة.

قال ببورو لمستمعيه: "ويمكن أن يكون هذا كله ملكًا لكم أيضًا. ليس فى حياتكم التالية. ليس العام القادم. الآن. يمكن أن يكون ملكًا لكم الآن. لا تحتاجون إلا رجلاً سليمًا من عائلتكم يبصم على هذه الورقة."

أخذ حفنة عملات فضية من حقيبة مخملية وأسقطها مرة أخرى، رنين: "هل هنا شخص عليه ديون؟ هل هنا شخص مدين بفلوس لأصحاب الأرض؟ يمكن أن تتخلص من قيودك الآن، هنا. بمجرد أن يبصم أبناؤك أو أخوتك على هذه العقود، ستكون هذه الفلوس ملكًا لك. فى بضع سنوات يكسبون ما يكفى للوفاء بالدَّيْن. وبعد ذلك يكونون أحرارًا فى العودة أو البقاء فى بورما كما يشاءون."

وقَّع خمسة عشر رجلاً من تلك القرية وثلاثة وعشرون فى القرية التالية: اندفع البعض بشغف إلى الأمام، ودفع البعضَ أقاربُهم وأمسك آباء وأخوة بأيدى البعض بالقوة للتوقيع على الورقة. تبع المجنون عربة ثيران ببورو فى طريق العودة إلى البلدة، يحملون الصناديق الصفيح وصرر الملابس. ساق الثيال المؤخرة للتأكد من الحفاظ على السرعة. توقفوا كل بضع ساعات لتناول بعض الأرز المحمص والملح.

حين وصلوا إلى الشاطئ، استأجر ببورو سفينة لنقل الرجال إلى كلكتا. لم يركب كثير منهم سفينة من قبل. ارتعبوا من الأمواج، وفى تلك الليلة قفز رجل من السفينة. قفز ببورو خلفه وأعاده إلى السفينة. ابتلع الهارب ملء بطنه من المياه. كان منهكًا وهزيلاً، بارز العظام. سحب ببورو الرجل إلى جانب السفينة، وثناه على الحافة العليا. ثم صعد عليه، وثبت صدره تحت ركبته المثنية. بحركة قوية من قدمه، دفع الرجل على الدعامة، ضغط على بطنه فاندفع من فمه الماء الذى ابتلعه، وكتلة إسفنجية من الأرز المحمص والملح.

دندن ببورو برقةٍ، كأنه يغني لحبيبة: "أين تذهب؟ وماذا عن كل الفلوس التى أعطيتُها لأبيك ليسدد ديونه؟ ما أهمية جثتك، له أو لى؟"

فى كلكتا استقلوا إس إس دُفرين[١٥]، مملوكة لشركة بريطانية. رتَّبَ ببورو الأمر مع مشرف السفينة: كان زبونًا مهمًا نتيجة الشغل الذى جلبه. مُنِح تذكرة مجانية، فى الدرجة الثانية. دفع أجرة رجكومار، وسمح له بالنوم على أرضية كابينته. وأرسلِ الثمانية والثلاثين رجلاً الذين جلبهم إلى أسفل، إلى مساحة مُحْكمة فى مؤخرة السفينة.

كان هناك حوالى ألفين من المهاجرين المتوقعين. معظمهم رجال، وكان هناك حوالى مائة وخمسين امرأة أيضًا. فى المؤخرة، بارزة على المياه المترجرجة خلف السفينة، منصة خشبية ضيقة بها أربع فتحات تستخدم كمراحيض. كانت الرحلة صعبة وبسرعة امتلأت أرضية المنطقة المحْكمة بالقيء والبول. تدفقت هذه الطبقة العفنة من القذارة ذهابًا وإيابًا مع ترنح السفينة، مرتفعة بوصات على الجدران. جلس المجندون مكومين على صناديقهم الصفيح وصرر ملابسهم. عند النظرة الأولى للأرض، من ساحل أراكان، قفز من السفينة عدة رجال. فى اليوم الثالث من الرحلة نقص العدد فى المنطقة المحكمة بضع عشرات. وحُملتْ جثث من ماتوا أثناء الرحلة إلى المؤخرة وتم إلقاؤها فى المياه المترجرجة خلف السفينة.

عند الوصول إلى حوض السفن فى رنجون، اكتشف ببورو أن الرحلة كلفتْه رجلين. لم يحزن. قال لرجكومار: "اثنان من ثمانية وثلاثين ليس سيئًا. فقدتُ ستة أحيانًا."

سافرا معا إلى ينانجيونج ثم قال رجكومار لببورو إنه يريد الذهاب إلى مندالى. كانت خدعة. شرع رجكومار بالسير باتجاه الشمال، وبعد أن ابتعد قليلاً عن ببورو عاد

أدراجه، واتجه إلى رنجون مباشرة. اشترى من محل صغير فى شارع المغول سلسلة ذهبية وخاتمًا فيروزيًا لامعًا. ثم نزل إلى حوض السفن واستقل الدُّفرين. أثناء مروره الأخير، حرص على عقد صفقته الخاصة مع مشرفى السفينة: تم الترحيب به كميسترى بحكم حقه الشخصى.

عاد رجكومار إلى المقاطعة التى زارها مع ببورو. استأجر عربة ثيران من السوق نفسها واستخدم الثيال أنفسهم. ونجح فى الحصول على توقيع خمسة وخمسين رجلاً وثلاث نساء. وهو فى طريق العودة إلى كلكتا، وفى عقله ما حدث فى المرة الأخيرة، جلس طوال الليل فى السفينة التى استأجرها، مراقبًا مجنديه. متأكّدًا بما يكفى، لمح ذات ليلة رجلاً يحاول التسلل بصمت من على السفينة. كان رجكومار أضخم من ببورو وأكثر حذرًا ولم يكن بحاجة للقفز فى الماء. شدّ الرجل من الماء من شعره وأبقاه متدليًا أمام الآخرين. ونجح فى الوصول بالمجموعة كلها سالمة إلى ينانجيونج، وهناك باع عقودهم الملزمة إلى ريس محلى. وكان المبلغ كافيًا لتسديد قرض سايا جون.

***

مرت ثلاث سنوات قبل أن يجد دوه سى شادر أخشاب مناسبًا. قام رجكومار أثناءها بثمانى رحلات أخرى إلى الهند. وجمع حوالى ثلثى السعر المطلوب فى الشادر، وأقرضه سايا جون الباقى.

كان الشادر فى رنجون، فى طريق كمندين(١٦) السفلى، فى منطقة بها ورش كثيرة، وكان الهواء ممتلئًا دائمًا بعبق نشارة الخشب. بالقرب منه، فى سانشونج(١٧)، محرقة هندوسية، وأحيانًا، حين تغير الرياح اتجاهها، ترتفع سحب من الرماد فى دوائر فوق المحارق الجنائزية. يمتد جدار من القرميد فى معظم الطريق حول المجمّع،

وفى الخلف مرفأ صغير، مغروس مثل لسان فى نهر رنجون. كانت ضفة النهر، حين ينخفض المد، تتسع وتتحول إلى رف هائل من الوحل الطرى. أمام الشادر كابينتان صغيرتان، شيدتا من بقايا الخشب وقش البامبو. انتقل رجكومار إلى أصغرهما؛ وكانت الأخرى من نصيب دوه سى ونو دا والأطفال، وقد صاروا أربعة.

تناول سايا جون، فى زيارته الأولى للشادر، وجبة فى كابينة دوه سى ونو دا. لم يكن سايا جون يعرف أن دوه سى شريك فى أعمال رجكومار، لكنه لم يندهش كثيراً حين عرف. تمتع رجكومار دائماً بنوع عنيد من الاتساق – وهى صفة تختلف تماماً عن الولاء، لكنها ليست أقل ثباتاً. تكررت الظلال نفسها كثيراً فى حياته، كأنها تحدث على شاشات الدمى.

حصل سايا جون فى السنة التالية على نصف تقاعد وانتقل من مندالى إلى رنجون. وقد جعله سعر بيع شركته رجلاً غنياً. أنشأ مكتباً صغيراً فى الشارع التجارى واشترى شقة فى ممر بلاكبرن[١٨]. اشترى أثاثاً كثيراً لشقته، آملاً أن يعود ابنه، ماثيو، إلى بيته عاجلاً. لكن الولد أبعد مما كان فى أى وقت – أخذه أحد الأقارب إلى سان فرانسيسكو وكتب يقول إنه يدرس فى معهد كاثوليكى. ولم يذكر موعداً لعودته.

بدأ سايا جون، والوقت ملكه، يتمشى مسافات طويلة، يفسِّح طيوره الحبيبة. وكان شادر رجكومار على بعد نصف ساعة تمشية من بيته، وقد صار التوقف هناك كل صباح وقفص طيور فى يده وجريدة تحت ذراعه، طقساً من طقوسه.

ذات صباح وصل ليجد رجكومار فى انتظاره عند البوابة، متمنياً وصوله بنفاد صبر: "تأخرت اليوم، سايا."

"تأخرت؟ عن ماذا؟"

"تأخرت مع صحيفتك، سايا." انتزع رجكومار رنجون جازيت[١٩] من يد سايا جون. "سمع دوه سي في حوض السفن أن شركة السكك الحديد الهندية ستنشر إعلانًا، تطلب فيه عروضًا لتجهيز عربات النوم."

"عروضًا لتجهيز عربات النوم!" زقزقت المينة[٢٠] داخل قفص طيور سايا جون مقلدة الضحكة المهللة لصاحبها: "وماذا في ذلك، رجكومار؟ العقد مع شركة السكك الحديد يعني نقل آلاف الأطنان من الساج بالسفن. يعني تقديم خشب بهذه الكميات أنك ستحتاج إلى فرق من الأوسيين والبيسيين والرماثين وإلى وكلاء ومعاونين. وليس معك إلا دوه سي وفيل. كيف تفي بالعقد؟"

"شركة السكك الحديد هذه صغيرة وجديدة، وتحتاج إمدادات رخيصة. لن أبدأ بالحصول على الخشب؛ سأبدأ بالعقد. بمجرد أن يكون معي، يتدفق الخشب تلقائيًا. سترى. هناك العشرات من الياردات هنا مكدسة. بمجرد أن يروا أني أقدم أسعارًا منخفضة، فسيأتي الجميع إليّ."

"ومن أين تأتي بالفلوس لهذه الدفعات المنخفضة؟"

ابتسم رجكومار ببلاهة: "لماذا، سايا، منك، بالطبع. لماذا أقدم هذه الفرصة لشخص آخر؟"

"لكن ضع المخاطرة في حسبانك، رجكومار. قد تدمرك الشركات الإنجليزية الكبيرة، تجعلك أضحوكة في رنجون. قد تخسر مشاريعك."

"لكن، سايا، انظر لما عندي الآن." أشار رجكومار إلى كابينته والساحة شبه الخالية: "سايا، أليس هذا أفضل من محل شاي على قارعة الطريق – والعمل عند ماشو. إذا كنتُ على استعداد لتنمية هذه المشاريع، فلابدَّ من تحمل بعض المخاطر."

"فكِّرْ، رجكومار، فكِّرْ. مازلت مبتدئًا. ليست لديك فكرة عن طرق ضرب هذه المعاملات فى رنجون. كل الرجال الكبار هنا يعرفون بعضهم. يذهبون إلى الأندية نفسها، ويأكلون فى المطاعم نفسها، ويراهنون على جياد بعضهم..."

قال رجكومار: "ليس الرجال الكبار فقط هم الذين يعرفون دائمًا كل شىء، سايا. إذا استطعتُ معرفة المبلغ الذى ستضعه الشركات الأخرى لاستشهد به، فربما استطعتُ وضع العرض الفائز."

"وكيف تعرف؟"

"لا أعرف، سايا. لكن أعتقد أن لدىَّ وسيلة. سنرى."

"لكن، رجكومار، أنت حتى لا تقرأ الإنجليزية؛ كيف تقدم هذا العرض؟"

ابتسم رجكومار: "صحيح إننى لا أقرأ الإنجليزية، سايا، لكنى تعلمتُ الحديث بها. ولماذا أحتاج أن أقرأ ومن الممكن أن تفعل ذلك لى؟ سايا؟"

وهكذا بدأ سايا جون يتعامل مع الأعمال الكتابية للعرض. ذهب إليه رجكومار بالخطاب الذى ردت به الشركة.

وبمجرد فتح الظرف المزخرف، صرخ سايا جون بارتياب: "رجكومار! مطلوب منك مقابلة مدراء شركة شوتا نجبور للسكك الحديد[٢١] الأسبوع القادم. إنهم قادمون إلى بورما لفحص العروض. عليك الذهاب إلى مكاتب بنك شاترد[٢٢] فى ستراند فى العاشرة يوم الخميس."

طرقع سايا جون بلسانه بارتياب وهو يرفع عينيه عن الورقة التى تطقطق فى يديه: "رجكومار، لم أعتقد أبدًا أنك ستصل إلى هذا المدى."

ابتسم رجكومار: "قلتُ لك، سايا. عرفتُ ما قدمته الشركات الأخرى وقدمتُ عرضًا أفضل."

"وكيف عرفت؟"

ابتسم رجكومار: "سرى، سايا."

"سرك لن يساعدك الآن. يقرر اللقاء كل شيء. وهو ما عليك أن تفكر فيه." جرى سايا جون بعينيه بشكل انتقادى على لُنْجى رجكومار الأخضر والصدرة البنِّية المهلهلة: "على سبيل المثال: ماذا سترتدى؟ لن يسمح لك بنك شاترد حتى بعبور أبوابه إذا ذهبت بمثل هذه الملابس."

جاء سايا جون فى اليوم التالى إلى شادر الخشب مع شاب أنيق. قال مخاطبًا رجكومار: "يو با كيو(٢٣). كان يعمل عند صاحب مزرعة إنجليزى فى ميماو. يمكن أن يعلمك أشياء كثيرة، مثل طريقة الأكل على مائدة أوروبية بشوكة وسكين. اشتر ما يقول وافعل ما يقول بالضبط."

فى صباح يوم المقابلة وصل سايا جون إلى شادر الخشب فى عربة مستأجرة، مرتديا بدلته السوداء المفضلة ومعه خيزرانة ملقا رفيعة وقبعة جديدة. دخل كابينة رجكومار ليجده ارتدى بنطلونًا جديدًا وقميصًا ويقف متخشبًا ويو با كيو يربط له ربطة العنق.

حين اكتمل لبس رجكومار، تطلع إليه سايا جون وقرر أنه لا خطأ فى المظهر: كانت بدلته بسيطة وسوداء بشكل مناسب وربطة العنق مربوطة ببراعة، والياقة بزاوية قائمة تمامًا. صحيح أن ملابسه لم تكن حسنة التفصيل كما هو الحال فى سنغافورة أو هونج كونج، لكن بالنسبة لرنجون كانت أكثر من مناسبة. على أية حال، وبصرف النظر عما تكلفته ملابس رجكومار أو مدى مناسبتها، من المؤكد أن رجلاً ولد للثروة أو المنصب ما كان يعتبرها غير ذلك أبدًا. كانت خشونة وجهه ضد ذلك بالتأكيد.

قال سايا جون: "أنا آتٍ معك، رجكومار. لأجلب لك الحظ فقط."

فى بنك شاترد وجه صراف، هندى، سايا جون ورجكومار إلى غرفة انتظار. رأى سايا بدهشة أن رجكومار يعرف الرجل بالفعل – اسمه د. ب. روى[٢٤]. قال روى بصوت خافت: "رتِّب كل شىء. المدراء فى الغرفة الآن. سينادونك فوراً."

خرج الصراف وصارا بمفرديهما. كانت الغرفة مظلمة وضيقة، تفوح من مقاعدها الجلدية العميقة رائحة دخان السيجار. بعد انتظار طويل دخل ساعٍ معمم يستدعى رجكومار. وقف سايا جون أيضًا لينطق بكلمات تشجيع وطمأنة. لكنه توقف وهو على وشك النطق، واستقرتْ عيناه على رجكومار. استرعى انتباهه أن من كان ذات يوم لوجا لى له صار واثقًا جداً من نفسه، جريئًا جداً، حتى أن كل ما قد ينطق به لن يكون إلا لغواً. تراجع سايا جون قليلاً، انسحب خطوة أو اثنتين ليراه بشكل أفضل. فجأة، من تلك الزاوية المتغيرة للرؤية، كان لديه انطباع بأنه ينظر إلى شخص لم يره من قبل أبداً، كائن أُعيد ابتكاره، جلال مهيب ووجود آمر. فى تلك اللحظة ومضتْ أمام عينى سايا جون رؤية واضحة لذلك الصباح فى مندالى حين جرى إلى الزقاق لينقذ رجكومار– رآه ولداً، كالا مهجوراً، هندياً رثًا شرد كثيراً جداً عن وطنه. ثم عاش الولد حياة، ومن النظرة إليه الآن يتبين أنه استثمر بشكل جيد.

ثم فعل رجكومار شيئًا لم يفعله أبداً من قبل. وهو على وشك المرور من الباب، توقف ليلمس قدمى سايا جون بالطريقة الهندية.

"امنحنى بركاتك، سايا."

أدار سايا جون رأسه ليوارى دموعاً تدفقت من عينيه: "ما يحققه المرء بنفسه لا يمكن لأحد إنكاره. العقد من نصيبك. كنتُ مخطئًا حين شككتُ فى ذلك."

هوامش

(١) الرمّاث raftsman: البحّار الذى يعمل على رمث. والرمث مركب يتكون من مجموعة متراصة من ألواح الخشب.

(٢) الوَعْث quicksand: الرمل اللين تغيب فيه الأقدام.

(٣) جهول jhol (الجمع جهولات jhols): كلمة هندية بمعنى كوم أو فقس أو ميلاد.

(٤) نيجلا nigella: نباتات تنبت فى جنوب أوروبا وشمال أفريقيا وجنوب غرب آسيا. لها زهور مختلفة الألوان، وتحتوى ثمارها على الكثير من الحبوب.

(٥) جبل بوبا Mount Popa: بركان يرتفع ١٥١٨ متراً عن سطح البحر، يعتقد أنه قد خمد، يوجد فى وسط بورما على بعد ٣٠ ميلاً إلى الشرق من باجان. يمكن رؤيته من نهر إراودى على بعد ٤٠ ميلاً فى الطقس الصحو.

(٦) ينانجيونج Yenangyaung (المعنى الحرفى باللغة البورمية "جدول الزيت"): مدينة بورمية تقع على نهر إراودى. اشتهرت بالبترول لقرون، كانت الآبار تحفر فيها بالأيدى.

(٧) توين زاس: twin-zas.

(٨) بَبُورو: Baburao. جونتور Guntur: مدينة فى جنوب شرق الهند، تتبع حيدر آباد، أسسها الفرنسيون فى القرن الثامن عشر، وتم التخلى عنها بشكل رسمى للبريطانيين فى ١٨٢٣ .

(٩) ميسترى: maistry.

(١٠) هِنْزادا Henzada: مدينة جنوب غرب بورما، بها ميناء يشتهر بتجارة الأرز والحبوب.

(١١) اللّثيال lathiyals: فتوات، أو رجال مسلحون بالعصى.

(١٢) بانيان banyan: تين البنغال.

(١٣) رامايانا Ramayana: ملحمة سنكرستية ألفت سنة ٣٠٠ قبل الميلاد تقريباً، تحكى مآثر راما، وهو بطل مؤله عند الهندوس، ويعتبر تجسيداً للفشنو.

(١٤) سركار Sarkar: الحاكم العام، (أوردو، هندى).

(١٥) إس إس دُفرين: SS Dufferin.

(١٦) كمندين: .Kemendine

(١٧) سانشونج Sanchaung: حى فى غرب ينجون عاصمة بورما.

(١٨) ممر بلاكبرن: Blackburn Lane.

(١٩) رنجون جازيت: Rangoon Gazette.

(٢٠) المينة mynah: طائر يعيش فى جنوب شرق آسيا، مشهور بتقليد صوت الإنسان.

(٢١) شوتا-نجبور للسكك الحديد: Chota-Nagpur Railway.

(٢٢) شاترد: Chartered.

(٢٣) يو با كيو: U Ba Kyaw.

(٢٤) د. ب. روى: D. P. Roy.

(١١)

كان البريد يصل مرتين أسبوعيًا ويُسلَّم لمكتب الجابى فى الكتشيرى مباشرة. يلتقط الجابى خطابات أوما ويرسلها للمقر مع ساع. كانت معظم خطاباتها من والديها، وكان هناك أيضًا، مرة أو اثنتين شهريًا، كتاب أو مجلة، من مكتبة فى كلكتا.

كانت أوما، أيام وصول البريد، تقضى ساعاتٍ فى أحلام يقظة جوار شجرة البيبول. وإذا تصادف وجود موعد رسمى تكون سريعة الغضب ونافدة الصبر، مشتاقة للعودة إلى خطاباتها. تفكر فى أمها فى البيت فى كلكتا، تكتب فى السرير، وهى تخشى انسكاب دواتها على الورق.

فى صباح أحد أيام وصول البريد سلم ساعى الجابى خطابًا بختم بريدى غير معتاد. وقد خطَّ الجابى ملاحظة على الظرف: "من رنجون." قلبت أوما الظرف ورأت اسم عمها على الظهر، د.ب. روى. اندهشت: لم تسمع شيئًا عنه منذ سنوات. لكنها اعتادت بعد زواجها استلام خطابات من أقارب لم ترهم منذ فترة طويلة: للجابى نفوذ كبير؛ الرجل الذى يسير الأمور. خمَّنتْ أن عمها يحتاج شيئًا.

أخذت الخطاب معها إلى شجرة البيبول. كتب عمها، كما توقعتْ، يطلب مساندة لصديق- رجكومار رها، وكان فى طريقه إلى بومباى فى عمل. عبَّر الرجل عن رغبة فى النزول إلى رتناجيرى فى زيارة خاطفة. إنه حريص على تقديم احترامه للملك والملكة السابقين.

"سأكون بالغ الامتنان، أوما، إذا رتب زوجك لرجكومار بابو[١] دعوة للملك السابق. ولما علم بطريقة ما عن ارتباطى بالجابى، بحث عنى خصيصًا ليطلب منى

المساعدة فى هذه المسألة. وأضيف أنى مدين لرجكومار بابو بالكثير- استفاد كثيرٌ من أعضاء الجالية البنغالية فى رنجون من عونه بشكل أو آخر."

استمرَّ الخطاب، عاش رجكومار بابو سنوات طويلة فى رنجون، لكنه لم يتصل، معظم الوقت، بالبنغال الآخرين فى المدينة. وذات صباح هبط فجأة مثل قطرة ثلج من السماء إلى معبد دُرْجا فى شارع سبارك[٢]، مكان تجمع البنغال الهندوس فى المدينة. جاء بملابس مناسبة تمامًا للمناسبة، دوطى أبيض منشى وبنجابى[٣] بأزرار من الذهب. وليسهِّل دخوله حرص على أن يجلب معه تبرعًا سخيا للبوروهيت[٤].

تبين أن مستر رها يعمل فى تجارة الخشب. كان يخطط لعقد مناقصة كبيرة وجاء يطلب من البوروهيت الدعاء له. كان للبوروهيت، ككل من على شاكلته، حدس نمر جائع يحكم على الفريسة المحتملة. فعل أكثر بكثير من تقديم البركة. فى المعبد عدد من موظفى البنوك الأوروبية الكبيرة وشركات الخشب؛ أخذ البوروهيت على عاتقة مهمة تقديم رجكومار إلى هؤلاء الرجال جميعًا.

على مدى الأيام القليلة التالية طارت الرسائل ذهابًا وإيابًا بين شارع سبارك والشارع التجارى، بين كَليبارى[٥] ومكاتب شركات الخشب. فى النهاية، حين أعلن مدراء شركة شوتا نجبور للسكك الحديد القرار، عُرِف أن ذلك الشخص مستر رجكومار، وكان حينها اسمًا مجهولاً فى مجال الساج، نجح فى عرض ثمن أقل من كل الشركات الكبيرة.

فى ذلك العقد حصل رجكومار وحده على ربح صاف مقداره ثمانمائة ألف روبية - ثروة. أعاد، بدون منٍّ، بناء المعبد، بلَّطَ أرضه بالرخام، وطلى حوائط الضريح بالذهب وأقام بناية جميلة جديدة للبوروهيت وأسرته. بعد ذلك حقق نجاحات أخرى وارتفع إلى القمة فى مجتمع رجال الأعمال. كل ذلك وهو فى الثلاثين، قبل أن يجد حتى وقتًا للزواج.

تفهمين ما أقصد، أوما، حين أقول ليس رجكومار بابو شخصًا ممن اعتدْتِ عليهم. قد تجدينه فظًا بعض الشيء وغريبًا في سلوكه. تندهشين بلا شك حين تعلمين أنه على الرغم من أنه يتحدث عدة لغات بطلاقة، بما في ذلك الإنجليزية والبورمية، أميٌّ بمعنى الكلمة، يوقع اسمه بالكاد.

قد لا يحظى رجل مثل رجكومار بابو في وطنه، الهند، بفرصة القبول في مجتمع من أناس مثلنا. لكن المعايير في بورما أكثر مرونة. بعض أغنى الناس في المدينة هنود، ومعظمهم بدأ بصرة ملابس وصندوق من الصفيح.

أفهمُ تمامًا أن رجلاً مثل رجكومار بابو في الهند لا يأمل في أن يستضيفه - أو حتى يستقبله - جابي مقاطعة. ضعي في اعتبارك أنه عاش في بورما فترة طويلة وهو الآن بورمي أكثر مما هو هندي وقد يُعتبَر غريبًا. أتمنى وضع هذا في الحسبان، وتذكري أني سأكون بالتأكيد ممتنًا جدًا لاهتمامك بهذه المسألة.

ارتبطتْ أيضًا بأيام وصول البريد متعة خاصة: ثلج جديد، يأتي على السفينة البخارية من بومباي. في أمسيات أيام وصول البريد يحب الجابي الجلوس في الحديقة على مقعد من الخوص، ومعه مشروب مثلج. انتظرتْ أوما حتى أعدَّ الجابي الويسكي قبل أن تبدأ في قراءة خطاب عمها له. في نهاية قراءتها أخذ الجابي الورقة من يدها ليقرأ بنفسه.

أعاد الخطاب بإيماءة ندم. قال: "لو كنت أستطيع، لوددتُ أن أخدم عمك. لكنها لسوء الحظ مسألة مستبعدة. تعليمات الحكومة واضحة تمامًا. لا يُسمح لجلالته باستقبال زوار."

صرختْ أوما: "لكن لماذا لا؟ أنت الجابي. يمكن أن يأتي إذا شئْتَ. ليس من الضروري أن يعرف أحد."

وضع الجابى كأسه فجأة على طاولة صغيرة بجوار مقعده: "مستحيل، أوما. علىَّ أن أوجه الطلب إلى بومباى ومن هناك يُرسل إلى وزير المستعمرات فى لندن. قد تستغرق المسألة شهوراً."

"فقط لمجرد زيارة لمنزل أطرام؟"

"معلمونا"، بدأ الجابى - كانت نكتة مألوفة أن يتحدث عن زملائه البريطانيين باعتبارهم أمادر جوروجون[٦] - "لا يريد معلمونا مشاكل سياسية فى بورما. أغنى أقاليمهم ولا يريدون تحمل مخاطر. الملك الشخص الوحيد الذى يستطيع حشد البلد كلها ضدهم. هناك عدد كبير من القبائل والشعوب المختلفة. المَلَكِية الشىء الوحيد المشترك بينهم. يعرف معلمونا هذا ويريدون التأكد من أن الملك نُسِىَ. لا يريدون أن يكونوا قساة؛ لا يريدون شهداء؛ لا يريدون إلا أن يمحى الملك من الذاكرة- كمظلة قديمة فى دولاب مغبَّر."

"لكن أى اختلاف يمكن أن تسببه زيارة واحدة؟"

"ربما يعود ويتكلم. قد يصل شىء للصحف. لا تسمح وزارة المستعمرات حتى بالتقاط صور للملك خوفًا من وصول الصورة إلى بورما. قبل أيام تسلمتُ خطابًا من مصوِّرة بارسية. كانت فى جولة لالتقاط الصور وطلبت التوقف لالتقاط بعض الصور فى منزل أطرام. أحلتُ طلبها إلى بومباى وجاء الردُّ خلال أسبوع: لا يُسمح بالتقاط صور للعائلة الملكية. سياسة حكومة."

صرختْ أوما: "لكن هذا بشع."

ضاقتْ عينا الجابى: "لا، إطلاقًا. يتسم بالحكمة. هل تعتقدين أنه يمكن خدمة بورما جيداً بالمشاكل السياسية؟ هل تعتقدين أن هذا الرجل، رها، كان يمكن أن يغتنى فى بورما وثيبو لا يزال فى الحكم؟ لماذا، إن لم يكن من أجل البريطانيين، فمن المحتمل أن يثور البورميون ضد رجال الأعمال الهنود ويطردونهم كالأغنام."

تعرف أوما أنها لا تستطيع التفوق على الجابى فى مناقشة. خفضتْ صوتَها ووضعتْ يداً على ذراعه.

قالت: "تعرف، ليس من أجل الملك، ولا من أجل عمى، هذا ما أطلبه أنا."

"لماذا إذن؟"

ترددتْ أوما.

"أخبرينى."

"من أجل دُلّى."

"دُلّى؟"

"عاشت هنا طوال حياتها سجينة حقيقية، ولا تتخيل إلا الحياة التى تعيشها. وسيكون عليها مغادرة منزل أطرام ذات يوم، إلى أين تذهب؟ نستْ بورما وأعتقد أنها تحتاج إلى الحديث مع أناس قد يذكّرونها بها."

"يمكن أن تعود دُلّى إلى بورما وقتما تشاء."

"لكن ليستْ لها عائلة فى بورما ولا تعرف أحداً هناك. لهذا بالضبط تحتاج إلى مقابلة أناس يعيشون هناك."

صمت الجابى وشعرتْ أوما أنه بدأ يلين. شجعتْه: "شىء بسيط. أنا متأكدة من أنَّ هناك حلاً."

قال فى النهاية بنغمة غضب: "حسناً، وحيث إن الأمر يعنى الكثير بالنسبة لك، أعتقد أنه يوجد شىء وحيد أستطيع القيام به."

"ماذا؟"

"يمكن أن أدعو رها هذا كضيف شخصى لى. يمكن أن أقول إنه قريب بالزواج. وإذا كان له أن يقوم بزيارة إلى منزل أطرام، يمكن أن تكون مجرد زيارة خاصة– لا زيارة رسمية..."

"سأكون سعيدة جداً..."

فى صباح اليوم التالى أُرسِل تلغراف إلى عم أوما فى رنجون يخبره أن صديقه مستر رها مرحب به لزيارة رتناجيرى؛ وسيتم استقباله كضيفٍ للجابى.

هوامش

(١) بابو babu: كلمة تبجيل للرجل فى اللغة الهندية، تعادل مستر أو السيد.

(٢) معبد دُرْجا Durga temple: درجا إلهة هندوسية، وهى صورة من صور ديفى. سبارك: Spark.

(٣) دوطى dhoti: مئزر يرتديه الرجال الهندوس فى الهند. بنجابى Punjabi: الإشارة إلى نوع من الثياب.

(٤) بوروهيت purohit: كلمة تعنى القس وخاصة الذى يخدم أسرة ملكية أو ملكًا؛ شخص مخول لإقامة الطقوس للأسرة الملكية.

(٥) كَليبارى: Kalibari.

(٦) أمادر جوروجون amader gurujon: معلمونا.

(١٢)

انتشرتْ، فى لحظات من وصول السفينة البخارية، إشاعة بطول المنطقة الساحلية عن وجود أمير غنى على الرحلة، اسمه رجكومار، غريب ينفق أمواله بسخاء شديد. تلى ذلك ضجيج: حاصر شيالون وحمالون المعبر؛ اندفع الكسالى من الحافة الظليلة وتجمعوا على الشاطئ.

كان رجكومار لا يزال نائمًا فى كابينته حين رست السفينة البخارية. أيقظه يو با كيو. وكان رجكومار يصطحب عددًا من رجاله حين يسافر إلى الخارج، طريقته فى حماية نفسه من مخاطر ظروفه الجديدة. وسببت هذه الرحلة الخاصة مخاوف من نوع جديد، ولذا كانت بطانته أكبر من المعتاد. إضافة إلى كاتب اختزال ومحاسب، اصطحب أيضًا يو با كيو، الموظف الذى يثق فيه أكثر.

أرسل رجكومار يو با كيو ليصرف الحشد وانسلَّ بسرعة من السفينة البخارية. كانت هناك عربتان تنتظران عند نهاية المرفأ: إحداهما من المقر. كان الجابى خارج البلدة فى ذلك الصباح، لكنه ترك إرشادات دقيقة عن الطريقة التى يجب استقبال الزائر بها. يأخذه كنهوجى إلى بنجلو داك[١]، حيث سيقيم. وفى المساء يتناول العشاء فى المقر.

كانت العربة الثانية فى المرفأ فيتون[٢] منزل أطرام. كان كنهوجى يميل مع سوانت على حاجز، يشاهدان الجلبة فى المرفأ. اندهش الرجلان حين أشير لهما على رجكومار. من بين كل الجماعة بدا الرجل الأقل احتمالاً أن يكون كنهوجى بعث للقائه.

بعد توصيل رجكومار إلى بنجلو داك، اتجه كنهوجى للمقرِّ ليقدم لأوما رواية كاملة عن الجلبة فى المرفأ. جاء تقريره مفصلاً بإسهاب: حكى لأوما عن الشيروت شبه الممضوغ فى فم رجكومار، عن الإهمال الشديد فى ملابسه، ولُنْجيه المجعد، وصدرته المشحمة وشعره الأشعث. شعرتْ أوما بقلق. هل من الحكمة دعوة شخص كهذا على العشاء؟ ماذا يأكل بالضبط؟

فى خروج مذهل على العرف، عهد الجابى لأوما بتنظيم وجبة المساء. كان يشرف على حفلات المقرِّ عادة. على رغم من عدم اهتمامه بالشئون المنزلية، إلا أنه يدقق جداً فى حفلات العشاء التى يقيمها: يحبُّ فحص الطاولة ومواضع الجلوس بنفسه، يضع الزهور، ويشير إلى حاجة الأطباق والكئوس إلى دورة أخرى من التلميع. ويعود إليه الخدم لتلقى التعليمات بشأن ما يقدمونه وطاقم العشاء الذى يستخدمونه.

فى ذلك الصباح حين جاء الخنساما يسأل عن قائمة الطعام، اندهشتْ أوما. فكرتْ بسرعة، وطلبتْ أن يقدم ما قدمه الأسبوع الماضى، حين جاء مدير التعليم العام للعشاء. وذكرت فطيرة الراعى[٣] والسمك المقلى والمهلبية.

قالت للطباخ: "أريد هذا كله الليلة، إقدوم وه هى شيز[٤]." ثم كتبتْ، دون تفكير، ورقة لمدير الشرطة الأنجلوهندية، مستر رايت[٥]، تطلب منه الحضور إلى العشاء مع زوجته. وكانت قد طلبت ذلك من مستر يستيس نيدو[٦] ومسز نيدو- زوجين عجوزين، لطيفين دائمًا، بسيطين. وبالطبع يجب أن تأتى دُلِّى أيضًا: وهذا ما تم ترتيبه قبل ذلك بوقت طويل.

حاولت أوما، والمساء يقترب، تذكُّر كل ما يفعله الجابى قبل حفل عشاء. قالت لنفسها: ستكون ممصاحب جَيدة ذات يوم. ذهبتْ إلى غرفة الطعام وانشغلت بالأطباق والشوك والزهور. لكن حين عاد الجابى إلى البيت، اكتشفتْ أنها ربما قصَّرت أيضًا.

بدا عدم الارتياح على الجابى. بعد الدخول إلى غرفة الطعام لإلقاء نظرة على ما تفعل، بدا على وجهه اشمئزاز رهيب.

قال: "سكاكين السمك ليست في المكان المناسب. على كئوس النبيذ غبار..." طلب إعادة ترتيب كل شيء: "سأراجع الأمر مرة أخرى."

جلستْ أوما بجوار نافذة، ويداها معقودتان فى حِجْرها كتلميذة معاقبة، تنتظر وصول الضيوف. ربما كانت حفلة العشاء ودعوة دلّى لمقابلة هذا الغريب، غلطة. ربما حتى وجودها هنا غلطة. وهى فكرة لم تخطر ببالها من قبل أبداً، لكن صورتها المحبطة بدأت تكبر بسرعة في عقلها. أليس هذا ما يعرف بالهاجس؟

"مدام..."

نيدو وزوجته، بشعر رمادى، طويلان، وطيبان. "كم هو رائع..." ثم دخل رايت وزوجته، وتبعتهما دلّى بعد دقائق.

كان رجكومار آخر من وصل. كانت الانطباعات الأولى لأوما، وهى تنهض لترحب به، غير متوقعة. لاحظتْ، وهى تتفحصه ويداها معقودتان، أنه عانى فى ارتداء ملابس أنيقة وبسيطة، على الطريقة "الإنجليزية": بدلة سوداء وقورة، وربطة عنق معقودة بعناية. لَمَعَ حذاؤه جيداً، وكان يحمل عصا ملقا يدها منقوشة باليشم ببراعة: بدا أكبر بكثير مما توقعتْ: كان وجهه متأثراً بالكد وشفتاه ضخمتين وملونتين بعمق، حمراوين تماماً عكس بشرته السوداء. على طول خط فكه ثنية من اللحم تبشر بظهور لُغْدٍ. لم يكن جميلاً، لكن كان فيه شيء لافت، بِنْيَةٌ ضخمة متناسقة مع مرونة يصعب التعبير عنها – كأن الحياة نُفختْ فى حائط من الأردواز. لمحتْ أوما، وهى تنظر بعيداً، دلّى تجلس شبه مختفية خلف الذراع المتحركة للأريكة. كانت ترتدى هتاميناً موفاً وإينجياً من الحرير الأبيض. وتألقت سوسنة كالنور على بريق شعرها الأسود.

أتتْ أوما بإيماء تقديم باتجاه رجكومار "دلّي! مستر رها؛ لا أعتقد أنك قابلتِ..."

***

تعرف عليها فوراً، من النظرة الأولى، بدون أدنى احتمال للشك. ليس لأنها بدتْ على حالها، لأنها لم تبدل: وجهها أطول بكثير مما يتذكر، وحول زوايا عينيها وفمها آثار خطوط رقيقة لا تكاد تظهر، مثل آثار مثقب الصائغ. ما يتذكره شيء آخر- عنصر من تعبيرها، نوع من البؤس في عينيها. هذا ما أسره تلك الليلة وقد أسره مرة أخرى.

قالت أوما بنبرة اهتمام: "مستر رها، هل هناك شيء؟"

"لا." نظر إلى أسفل ليجد أنه يمسك بعصاه معلقة في الهواء: "لا. لا إطلاقًا. لا شيء."

حتى لا يغادر الغرفة، جلس بثقله في أقرب مقعد. حدث الأمر بسرعة شديدة: لم يتوقع رؤيتها هنا. لا يكره أكثر من المباغتة. توقع أن يستعد لهذه المواجهة بخطوات بطيئة محسوبة. كان من الصعب تمامًا أن يدخل هذا المنزل. حتى بعد سنتين من وجبات العشاء والحفلات، كان من الصعب أن يتعامل بنجاح مع مناخ العمل الإجباري.

"هل كانت رحلة لطيفة، مستر رها؟"

كانت مضيفته، زوجة الجابي: عرف من نظرة على وجهها أنها تحاول إخراجه من عزلته. أومأ وحاول أن يبتسم. شعر بنظرته تحدّق باتجاه الأريكة وبسرعة خفض عينيه. اقترب آخرون؛ شعر بهم يحومون حوله. ماذا يقول لهم؟ لم تنتابه أبدًا رغبة مماثلة في أن يُترك وحده.

"العشاء. هيا..."

فى الطريق إلى غرفة الطعام وجدتْ أوما نفسها وحدها لحظة مع دلّى، قالتْ بسرعة، بصوت خافت: "ما رأيك فى ضيفنا؟".

"ليس كما توقعتُ: لا يبدو شخصية مهمة إطلاقًا."

"لأنه هادئ جدًا، تقصدين؟"

"يبدو قلقًا، أليس كذلك؟"

"هل لاحظْتِ الطريقة التى تطلع بها إليك؟ يبدو كأنه رآك فى مكان ما من قبل."

اتسعتْ عينا دلّى: "غريب منك هذا الكلام، أوما. عجيبة، لماذا قلْتِ ذلك؟"

كانت غرفة طعام المقر أكبر من أن تضاء بشكل مناسب. سبحتْ على غير هدى طاولتها الطويلة المصنوعة من خشب الماهوجنى فى جزيرة من الظلام. على الطاولة شمعدانات كثيرة ، لكن بسبب البُنْكاه(٧) المدفوعة يدويًا على الرؤوس، كانت الشموع فى الفروع الفضية لا تضىء. ولذلك كانت أوجه الحضور شبه معتمة، لا تُرَى بوضوح، حتى بالنسبة للقريبين منهم.

جلستْ أوما ورجكومار على يمينها ومستر رايت، مدير الشرطة، على اليسار. جلستْ دلّى على الطرف الآخر من المائدة، بجوار الجابى. بطول الحوائط، على بعد ست خطوات من الطاولة، وقف صف من المساعدين، واحد خلف كل مقعد. وكما كان متَّبعًا، أتى كل ضيف بمساعده الخاص، كلهم إلا دلّى، وكانت بمثابة واحدة من أهل البيت. كان مساعدا نيدو وزوجته محليين، وكان مساعد مستر رايت من السيخ. وخلف مقعد رجكومار وقف يو با كيو، فى جُنْج بُنْج قرنفلية ولُنْجى أرجوانى: كان الآخرون كلهم قذرين بالمقارنة.

فرد الجابى منديله ونظر عبر المائدة إلى رجكومار. قال بطريقته الساخرة: "بورما، مستر رها، لم تكلمنا عنها. ماذا أخذك إلى هناك فى البداية؟"

قال رجكومار باختصار: "الصدفة."

"أية صدفة تحمل رجلاً إلى بلد أخرى؟"

"كنتُ أعمل على سفينة ووجدتُ نفسى دون قصد فى مندالى. بداية الغزو البريطانى، حين أُغلِق النهر أمام الملاحة."

"وقت زاخر بالأحداث."

"وقت غريب، سير."

"حقًا؟ كيف؟"

كانت دلّى تشاهده عبر الطاولة. كان وجهها الوحيد الذى يستطيع رؤيته: الآخرون جميعًا مدثّرون بالظلال.

قال رجكومار: "استغرق الأسطول البريطانى أسبوعين ليتقدم إلى النهر. وخلال معظم ذلك الوقت كانت مندالى هادئة جدًا. كنتُ ولدًا، لكنى كنتُ واحدًا من عدد قليل فى المدينة بدا أنهم يدركون أن المشاكل فى الطريق."

عند هذا الفاصل حدثتْ مسألة طفيفة وغريبة. كان السمك قد قدم للتو، نظر رجكومار بنفاد صبر إلى السكاكين والشوك التى تحيط بطبقه. ثم، كأنه ساخط من وفرة لوازم المائدة، رفع يده اليمنى ولعق أصابعه. وقبل أن يكمل الإيماءة ظهر بجانبه يو با كيو، ليقدم له الأداة المناسبة. لم يستغرق ذلك إلا وهلة، لكن كل من فى الغرفة التفتوا فى ذهول. بدا رجكومار وحده غافلا عن المقاطعة. واصل قصته كأن شيئًا لم يحدث.

"ذات صباح سمعنا طلقات مدافع في مكان بعيد. حين توقف الصخب، استمرَّ كل شيء مرة أخرى، كالمعتاد تمامًا. ولم يفهم الناس ما حدث إلا حين سار الجنود الأجانب في المدينة: هُزِم الملك، واحتُلَّت المدينة. قرب المساء رأينا قواتا تخرج من الحصن ومعهم أكياس الغنائم. عمال القصر أيضًا. اجتمعت الجماهير حور أسوار الحصن. لم أكن قد اقتربت من الأسوار أبدًا. حين رأيت الناس يعبرون الخندق، ذهبتُ وانضممتُ إليهم. ذهبْنا نعدو إلى الداخل. عند جدران القصر وجدنا مدخلاً متصدِّعًا. اخترقناه بالمئات. أفترض أنكم قد تعتبرون ذلك عربدة. لم يكن أحد منا يعرف ما يفعل، كان كل منا يتبع الآخر. ذهبنا نعدو في مؤخرة القصر: جناح النساء. كانت معظم الأشياء القيمة قد نُهِبتْ، لكن بالنسبة لنا بدا ما تبقى قيِّمًا يفوق التصور، نفيسًا يفوق الخيال. هجم الناس على كل ما في متناول اليد، كل ما في مجال الرؤية، حطموا الأثاث، خلعوا الأحجار من الأرضية. بعد لحظة غادرتُ الرواق الرئيسي ودخلتُ غرفة انتظار. كان بداخلها امرأة. كانت نحيلة بسيطة المظهر، ومع أني لم أرها أبدًا من قبل عرفتُ على الفور أنها الملكة سوبايالات."

"الملكة؟"

"نعم. جلالتها بنفسها. تخيلتُ أنها هناك لتنقذ ما يمكن إنقاذه من مقتنياتها. كانت بدون حرس، بدون مرافقين. يفترض أن تكون خائفة، لكنها لم تكن خائفة. صاحتْ فينا، هدَّدتْنا. لكن الأكثر روعة أن كل من دخل الغرفة خرَّ فوراً على الأرضية، لأداء الشيكو للملكة. تخيلوا مدى الغرابة: كانوا هناك، ينهبون القصر وفي الوقت نفسه يقدمون الولاء لملكتهم! فُتِنْتُ: جلستُ في ركن أتفرج. أدركتُ بعد لحظة أن الملكة ليستْ وحدها. كان معها طفلتان وبضع مرافقات، مجموعة فتيات صغيرات. ربما كانت كبرى الطفلتين في الثالثة. سلَّمْتُ بأنها أميرة من طراز ملابسها. وكانت تقف بجوار الأميرة مرافقةٌ، طفلة أيضًا، ربما أصغر مني بعام أو اثنين، وربما أكثر، ما كنت أستطيع

التأكد، لأنها كانت طفلة لم أر مثيلاً لها من قبل - جمال لا يُصدَّق، يتجاوز القدرة على الاستيعاب، تشبه القصر نفسه، شىء من زجاج، بداخلها يمكن أن ترى كل ما تتخيل. لم يكن حولنا إلا الصخب، صوت سكاكين وفئوس وأقدام تعدو. بدا الرعب واضحًا على الفتاة، إلا أنها، فى الوقت نفسه، كانت هادئة تمامًا. لم أستطع أن أُحوِّل عينى عنها. عرفتُ أننى أرى شيئًا لن أنساه أبدًا."

قاطعتْه أوما: "مَنْ كانت؟ الفتاة - مَنْ كانت؟ هل عرفْتَ فى أى وقت."

"لأقول الحقيقة..." كان رجكومار على وشك المتابعة حين قاطعتْه دلِّى.

قالتْ بأسلوب جاف، مخاطبة الجابى: "يبدو، يبدو أن ذلك كله كان رياضة عظيمة لمستر رها."

ارتفع صوت رجكومار: "لا. لا إطلاقًا."

أبقت دلِّى نظرتها بعيدة عنه. قالت: "مستر رها، يبدو أنه استمتع كثيرًا."

"لا. لم أقصد هذا."

رأت أوما، وهى تنظر إلى رجكومار، نظرة فزع يستحيل وصفها تعبر وجهه. وشعرتْ فجأة بأسف تجاهه: كانت دلِّى بدون داعٍ فظة وغير منصفة؛ أى شخص يستطيع أن يعرف أن هذا الرجل لم يقصد ازدراء.

"مستر رها..." مدَّتْ أوما يدها لتنقره على رسغه، لتعيده للحاضر وتذكره بأنه فى صحبة. لكن كوعها حكَّ صدفة فى الطاولة وهى تمدُّ يدها. انزلقت شوكة من طبقها وسقطتْ على الأرضية. كان الصوت خافتًا جداً، معدنيًا رقيقًا، لكن فى حدود تلك المساحة، بدا كأنه انفجار. وثب مساعدان فى وقتٍ واحد من مكانيهما عند الحائط: التقط أحدهما الأداة التى وقعت على الأرضية، وقدم الآخر أداة بديلة ملفوفة فى منديل.

"آه، مدام..."

جاء صوت الجابى عريضاً وعالياً، مفعماً بالسخرية المرحة. حين سمعتْ الصوت انكمشتْ فى مقعدها خزياً. كانت ترهب هذه النبرة الساخرة، هذا التغير فى الصوت، وكانت ترافق تعليقاته على أفعالها الخرقاء التافهة غالباً. عرفتْ أن المسألة سيتردد ذكرها كثيراً فى تلك الأمسية، وسيكون هناك عدد لا يحصى من النكات والتلميحات والتعليقات الجانبية: وسيمثِّل ذلك عقاباً لها.

استمرَّ الجابى: "آه، مدام، هل لى أن أحثك مرة أخرى على الكف عن اللعب بفضة الحكومة؟"

ارتجفتْ، وثبتتْ عينيها على طبقها. كيف تتحمل هذا؟ تطلعت إلى الشوكة الجديدة التى وضعت على طبقها، وتحركت يدها كأنها تتحرك تلقائياً. ارتفعت يدها قاذفةً بالشوكة لتحلق فى الهواء.

قبل أن تتم الأداة دورتها، اندفعت يد رجكومار والتقطتها من الهواء. قال، وهو يقذفها على مفرش المائدة: "هناك، لم يقع ضرر."

عبر الطاولة كان الجابى يشاهد باستغراب. صرخ وذهبت نبرة السخرية من صوته: "أوما، أوما! ماذا اعتراك اليوم؟"

تلت ذلك لحظة صمت سمعوا خلالها صوت عربة تقعقع إلى بوابة المقر. "كون هَى"[8]؟ جاءت صيحة الخفير متحدية. جاء الردُّ مكتوماً ومبهماً، لكن دُلِّى وقفتْ على الفور: "موهانبهى. لابدَّ أن شيئاً حدث فى منزل أطرام."

دخل مساعد، انحنى، وقدم للجابى ظرفاً: "عاجل، سير."

فض الجابى المظروف وأخرج ورقة مزخرفة من ورق المذكرات. قرأ الخطاب كله، ثم نظر مبتسماً برزانة: "أخشى أن علىَّ أن أترك هذه المتع. استدعاء رسمى. تريدنى جلالتها فى منزل أطرام على الفور."

دفعت دُلّي مقعدها إلى الخلف: "يجب أن أذهب أنا أيضًا."

ربت الجابى على يدها: "لا داعى. ابقى واستمتعى. تريدنى أنا لا أنت."

تبادلت دُلّى وأوما النظرات: عرفتا على الفور أن الملكة استدعت الجابى لتطلعه على حمل الأميرة. لم تستطع دُلّى أن تقرر إن كان الأفضل أن تعود إلى منزل أطرام أم تبقى بعيدة عنه.

ألحَّتْ أوما: "ابقى، دُلّى."

أومأت دُلّى: "حسنًا، سأبقى."

لم يغب اشتراك المرأتين فى السرِّ عن الجابى. نظر من أوما إلى دُلّى وأعاد النظر. قال: "ماذا يجرى فى منزل أطرام؟ هل لدى إحداكما فكرة؟"

ردتْ أوما بسرعة بنبرة صوت أعلى من المعتاد: "لا. مهما يكن، فمن المؤكد أن الأمر لا يتطلب وجود دُلّى."

"حسنًا إذن." تحرك الجابى حول الطاولة، مرددًا إلى اللقاء: "سأعود فى الوقت الذى تراه جلالتها مناسبًا. واصلوا تسليتكم..."

أدَّتْ مفاجأة رحيل الجابى إلى حدوث حركة بين الآخرين. نهض نيدو وزوجته ورايت وزوجته يتهامسون: "الوقت متأخر جدًا..." "علينا أن نذهب..." حدثت موجة مغادرة ومصافحة. توقفتْ أوما، وهى تتبع ضيوفها إلى الباب، لتهمس لدُلّى: "سأعود بعد أن أودعهم. انتظرينى..."

ذهبت دُلّى دائخة إلى غرفة الاستقبال وفتحتْ إحدى النوافذ الفرنسية. توقفت، وهى تخرج إلى الحديقة، لتسمع أصوات الضيوف المغادرين. كانوا يودعون بعضهم البعض. "شكرًا لك..." "رائع جدًا..." كان صوت أوما أحد الأصوات، لكنه بدا بعيدًا جدًا. لم تعد تستطيع التفكير بصفاء: بدا كل شيء مشوَّشًا. لاحظت أن عليها إغلاق

النافذة الفرنسية حتى لا تدخل الحشرات إلى المنزل. لكنها تركتْ الأمر يمر: تشغلها أمور كثيرة جداً.

في تلك اللحظة، في منزل أطرام، ربما تجلس الأميرات بجوار نوافذهن ينظرن إلى الطريق، ينتظرن سماع صوت عربة الجابي. في الطابق الأرضي، ربما غرفة الاستقبال مفتوحة، واللمبات مضاءة، اثنتان فقط، لتوفير الزيت. وستكون الملكة بسرعة في طريقها للنزول، في هتامين قرمزي مشجر؛ وبعد لحظة تجلس وظهرها إلى الباب. تنتظر حتى يظهر الجابي.

هذا ما آل إليه العالم المألوف في منزل أطرام: عرفتْ، هي والأميرات، ذلك منذ فترة طويلة. هكذا جرتْ الأمور: ذات يوم، فجأة، قررت الملكة أن الوقت حان. يجب أن ترسل إلى الجابي فوراً، بدون تأخير ولو دقيقة. في اليوم التالي يعرف الجميع: الحاكم، نائب الملك، بورما كلها. يجب إرسال موهانبهي بعيداً؛ وربما الأميرات أيضاً. وحدها، دلّي، تبقى، تتحمل المسئولية.

"مس دلّي."

تعرفتْ على الصوت. كان ذلك الرجل، الزائر القادم من بورما.

"مس دلّي."

التفتتْ إليه، ازدادتْ حدتها: "كيف عرفْتَ اسمي؟"

"سمعتُ..." توقف ليصحح: "الحقيقة، أنت التي أخبرتني باسمك."

"مستحيل."

"أخبرتني. هل تتذكرين؟ تلك الليلة، في القصر الزجاجي. أنت الفتاة التي كانت مع الأميرة. تذكّري. تحدثتُ معك، وسألتُكِ عن اسمك."

خبطتْ دلّي بيديها على أذنيها: "كذب. كل كلمـة مـنه. ألّفْتَ هذا كله. كل شـيء، كل كلمة بدون استثناء. ليست هناك ذرة حقيقة في كل ما قلتَ الليلة. كان مين وميبيا إلهين بالنسبة لشعب مندالي. ما كان أحد يجرؤ على فعل شيء مما وصفْتَ... بكى الناس حين أُبعدْنا."

"بكوا. تلك حقيقة. لكن هذه أيضًا حقيقة: الرعاع، القصر. كنتُ هناك، وأنتِ أيضًا. تذكّري– تلك الليلة في القصر، انتزع أحدُنا شيئًا منك – صندوقًا. وجدْتُه وأعدْتُه. وحينها أخبرتني باسمك: دلّي. ما زلتُ أسمع صوتك."

أشاحتْ بوجهها: "وأنت هنا بسبب هذا؟ بسبب ما رأيْتَ تلك الليلة في القصر؟"

"نعم."

ارتفع صوتها إلى صرخة إنكار حزينة: "أخطأْتَ، مستر رها. لستُ أنا مَنْ رأيتها. كانتْ واحدة أخرى. يتغير الأطفال حين يكبرون. لا أتذكر ما تصف. لم أكن هناك. كانت هناك فتيات كثيرات يعملن في القصر. ربما كانت واحدة أخرى. لا أعرف. لم تكنْ أنا. لم أكن هناك."

"أتذكر ما رأيتُ."

"كيف يمكن أن تكون متأكدًا؟ لا أتذكر شيئًا من ذلك الوقت. لم أرغب أبدًا أن أتذكر. وأنت نفسك كنت ولدًا، طفلاً."

"لكنني مازلتُ أتذكر."

"لهذا جئْتَ إلى هنا تبحث عني؟"

"مس دلّي، أنا بلا عائلة، بلا أبوين، بلا أخوة، بلا أخوات، بلا نسيج لذكريات صغيرة أقتطع منه ثوبًا كبيرًا. يعتقد الناس أن هذا محزن وهو كذلك. لكنه يعني أيضًا

أنه ليس أمامى إلا اختيار ارتباطاتى الخاصة. هذا ليس سهلاً، كما ترين. لكنها حرية من نوع ما، وبالتالى ليست بلا قيمة."

"وماذا توقعت أن تجد؟ هل أتيتَ إلى هنا معتقداً أنك ستجدنى مازلتُ طفلة؟ واحدة يمكن أن تعيدك إلى صباك؟"

"أتيتُ لأنى استطعتُ. لم أتوقع شيئًا."

هوَّتْ على وجهها بيديها. شمَّتْ زهور الفرنجيبانى(٩) تحتضر فى المساء على العشب من حولها. كانت أهدأ، تتنفس بانتظام أكثر: "مستر رها، يقال لى إنك رجل غنى، رجل ناجح. واضح أنك عشْتَ حياة مزدهرة. لا أفهم سبب مجيئك إلى هنا. يجب أن أقول لك إن هذا، بقدر ما يعنينى، وطنى وليس لى وطن آخر. قضيتُ عشرين عامًا هنا. أحيا حياة عملية وبسيطة جداً. لا شىء فىَّ أو فى الحياة التى أعيشها يمكن أن يحظى بأدنى اهتمام من شخص مثلك."

"أودُّ أن أقول، مع احترامى، إنك لا يمكن أن تحكمى على هذا."

"مستر رها، الأفضل أن تغادر الآن."

"لا يمكن أن أغادر بدون أن أخبرك بأنك أسأتِ فهمى الليلة على طاولة العشاء. وهذا سبب رجوعى على أعقابى وأنا فى طريقى إلى الخروج. قطعتُ طريقًا طويلاً. لا يمكن أن أغادر بهذه النبرة."

بدا ظلٌّ عن بعد، على النافذة المفتوحة فى غرفة النوم؛ أوما، تنادى وهى تكور يديها حول فمها: "أين أنت، دلِّى؟ فى الحديقة؟"

خفضتْ دلِّى صوتها: "مستر رها، أنا آسفة إذا كنتُ قد قلتُ شيئًا ظالمًا أو قاسيًا. أنا على يقين من أنك لا تقصد أذى. لكن مجيئك إلى هنا غلطة والأفضل أن تنهيها بأسرع ما يمكن. مما يدعو للأسف أنك ضيعت الكثير من الوقت والجهد."

"لم يَكن ضائعًا."

ضمَّتْ دُلِّى راحتيها معًا: "ليس عندى ما أضيفه، مستر رها. علىَّ أن أنصرف الآن. لا أعتقد أننا سنلتقى مرة أخرى، لكنى أتمنى لك الخير. نَامَسْتى(١٠)."

***

استقبلت الملكة الجابى، كالمعتاد، وهى تجلس فى مقعدها الأسود المزخرف وظهرها إلى الباب. كان وجهها قناعًا حادًا، وشفتاها حمراوين. وبدتْ بشرتها العاجية شفافة تقريبًا فى خفوت ضوء الشموع. ترتدى هتامينًا من الحرير الأحمر، وفى قدميها جورب وشبب أسود، مطرز بخيوط ذهبية.

أومأت للجابى بالجلوس، بدأت بدون تمهيد، متحدثة بالهندوستانية: "يريد عظمة الملك، جابى صاحب، أن يخبركم بأن ابنتنا الكبرى، الأميرة أشين هتيك سو مات فيا جاى، حامل، ولم يبق على موعد ولادتها إلا أسبوع أو اثنان. نكون ممتنين إذا نقلت الأخبار الطيبة لرؤسائك فى حكومة الهند."

بشكل غريزى صحح الجابى لها: "لكن، جلالتك، لا يمكن، لأن الأميرة ليس لها زوج."

"ربما ليس لها طبقًا لمعلوماتك."

قال الجابى: "ليستْ مسألة رأى. لم أصدر تصريحًا للأميرة بالزواج. لذا لا يمكن أن تكون متزوجة قانونيًا."

صمتت الملكة لحظة ثم ظهرت ابتسامة خفيفة على وجهها.

"جابى صاحب، أنت مطَّلعٌ بشكل جيد. يدهشنى أن أحدًا من جواسيسك لم يفكر أن يخبرك بأن الأطفال يمكن أن يولدوا بدون تصريح."

"تقصدين أن الطفل..."

"نعم. بقوانينكم، الطفل لقيط."

"والأب؟"

"قابلْتَه كثيراً." ثبَّتتْه بنظرة لا ترف: "حوذينا، شاب رائع."

حينذاك فقط قبض الجابى على مضمون ما قالت بشكل كامل: "لكن ماذا أبلِّغ. ماذا أقول للحكومة؟"

"تنقل ما قيل لك: تقول إن ابنتنا ستنجب طفلاً بعد وقت قصير وأن الأب حوذينا، سوانت."

قال الجابى: "لكن، جلالتكم، راعى سمعة الأميرة، راعى مقامكم فى المجتمع."

"مقامنا؟ ما هذا بالضبط، جابى صاحب؟"

"زوجكم ملك بورما، على الرغم من الخلع. ابنتكم أميرة."

"أؤكد لك، جابى صاحب، أن عليك، من بين الناس جميعًا، ألا تزعج نفسك وتذكرنا بهذا."

شعر بالعرق يتدفق على جبهته. لا يزال هناك وقت، قال لنفسه: يمكن معالجة المسألة بحكمة، بدون أن يصل الخبر للجمهور. يمكن حث الشاب على العودة بهدوء إلى قريته وأسرته. وإذا أثار مشكلة، يمكن أن يتعامل معه مستر رايت ورجال البوليس.

"جلالتكم، أتوسل إليك أن تفكِّرى. هل من المناسب أن ترتبط أميرة بورما بمستخدم فى المنزل، بخادم؟"

فرَّتْ ضحكة صغيرة مرتجفة من شفتى الملكة: "جابى صاحب، أنت خادم أكثر من سوانت. على الأقل ليست لديه ضلالات عن مكانه فى العالم."

حدّق الجابى فيها. قال: "أنا مندهش بصراحة، لأن جلالتكم اختارت إلقاء الضوء على هذه الفضيحة."

"فضيحة؟" قستْ عينا الملكة وهى تكرر الكلمة الإنجليزية: "هل بلغت بك العجرفة أن تأتى إلى هنا وتحدثنا عن الفضائح؟ لا فضيحة فيما فعلتْ ابنتى. الفضيحة فيما فعلتم بنا؛ فى الظروف التى أنزلتمونا إليها؛ فى وجودنا هنا. ما فعلتْه بناتى، جابى صاحب، إنهن قضين حياتهن فى هذا السجن؟ هل اقترفن جريمة؟ هل حوكمن أو صدرت ضدهن أحكام؟ سمعنا منك ومن زملائك محاضرات كثيرة عن بربرية ملوك بورما وإنسانية الأنجريز[11]؛ قلتم إننا طغاة، أعداء للحرية، قتلة. قيل لنا الإنجليز وحدهم يفهمون الليبرالية؛ لا يعدمون الملوك والأمراء؛ يحكمون بالقوانين. إذا كان الأمر كذلك، لماذا لم يُقدَّم الملك ثيبو أبداً للمحاكمة؟ أين القوانين التى نسمع عنها؟ هل جريمة أن تدافع عن بلادك ضد غازٍ؟ ألا يفعل الإنجليز الشىء نفسه؟"

كان الجابى يعرف أن الاستجابة المناسبة إيماءة اعتراض، عرض للسخط. لكنه تحت النظرة المتفحصة القاسية للملكة عجز عن إيجاد الكلمات المناسبة.

قال أخيرا: "جلالتكم، لستُ عدوكّم. بالعكس، اعترفتُ لك مرات كثيرة بأنى أؤمن بأن شكاواكم على أسس قوية. المسألة، لسوء الحظ، ليست فى يدى. من فضلك صدقينى حين أقول إنى لا أهتم إلا بمصالحكم. فقط بدافع الاهتمام بك وبأسرتك أطلب منكم التفكير فى قراركم بقبول هذا الرجل - هذا الحوذى - فى عائلتكم. ألتمس من جلالتكم التفكير فى الطريقة التى ستستقبل بها الجماهير هذا - فى تدمير سمعة عائلتكم."

أمالت الملكة رأسها: "لسنا موظفين حكوميين، جابى صاحب. بالنسبة لنا آراء الناس عموماً مسألة لا أهمية لها."

"أراك حسمْتِ أمرك."

"عار عليك، جابى صاحب، أن تتجرأ وتحكم على سلوك بناتى؛ عار عليك أن يكون لديك من الوقاحة ما يجعلك تأتى إلى هذا المنزل وتحدثنى عن الفضيحة."

نهض الجابى: "جلالتكم، هل لى أن أذكر اعتباراً أخيراً؟ لا أتوقع أن تروه عظيم الأهمية، لكنى أشعر بأن لى الحق، على الرغم من ذلك، أن أنبِّهَ إليه. عليكم أن تدركوا أن هذه المسألة لو انتشرت على الملأ، فسأتعرض أنا، على الأرجح، باعتبارى حارسكم المسئول، للوم. ومن المؤكد تقريباً أن يعنى هذا نهاية مهمتى هنا كجابى."

ضحكت الملكة: "أطمئنك، جابى صاحب، ندرك هذا جيداً." ضحكت مرة أخرى، ورفعت يدها الصغيرة لتغطى فمها: "أنا متأكدة من أنك ستجد طريقة تحافظ بها على نفسك. هذا ما يفعله عادة المسئولون الحكوميون. وإذا لم تجدْ فلا تلُمْ إلا نفسك."

لم يعد هناك ما يمكن إضافته. بكلمات قليلة مبهمة عن الأسف استأذن الجابى لينصرف من حضرة الملكة. لمح فى طريقه للخروج سوانت يخرج من بوابة المنزل. سمع صوت امرأة تنادى من الداخل. انحرفتْ عيناه بحذر وهو يسير بجوار الباب، شعر بهبة من الهواء الرطب الحار فى الداخل. أسرع من خطوته. هل الحوذى والأميرة الأولى يتعايشان هنا، فى تلك العشة الصغيرة المكونة من غرفة؟ تدفق سيل من الصور أمام عينيه، سوانت يميل على إطار الباب، يفرك شاربه المشحم، يومئ للفتاة بابتسامة؛ تتسلل الأميرة من باب مفتوح وبقية أهل البيت نائمون؛ الغرفة الصغيرة العفنة، تفوح بالعرق وتردد صدى صياحهما المكتوم؛ صرير شربى[١٢].

أسرع إلى الجارى، ينادى بنفاد صبر على كنهوجى: "شَلُو! يالدى[١٣]، شلو، يالدى، إلى المقر، بسرعة." مال للخارج من نافذة الجارى، كان يتنفس بصعوبة، لكن حتى هواء الليل البارد لم يخلص فتحتى أنفه من رائحة تلك الغرفة. هل كان هذا حباً، إذن: هذا الاقتران فى الظلام، أميرة بورما وحوذى ماراتى؛ هذا الامتزاج الطائش للعَرَق؟

والملكة، بعينيها السوداوين الحادتين؟ سمع ذات مرة أنها تحب ثيبو حباً حقيقياً. لكن ماذا يعرف هؤلاء الأرستقراطيون المتعطشون للدماء عن الحب أو أية مشاعر رقيقة، لم يقرأ هؤلاء الأميون كتاباً في حياتهم، ولم ينظروا أبداً باستمتاع إلى لوحة؟ ماذا يعني الحب لهذه المرأة القاتلة، المسئولة عن ذبح عدد هائل من أقاربها؟ إلا أنها في الحقيقة فضلت، من أجل زوجها، الأسر عن الحرية، حكمت على بناتها بعشرين سنة من النفي. هل تفعل أوما الشيء نفسه من أجله؟ هل تفعل أية واحدة؟ ارتجف، مدَّ ذراعيه ليسند على جانبي العربة.

في المقر، كانت أوما في انتظاره. جاءت إلى الباب تعدو لتدخله، مبعدة الخدم: "ماذا جرى؟ ماذا قالت؟ أخبرْني."

سأل الجابي: "أين دُلّي؟"

"مرهقة. ذهبت إلى السرير مباشرة."

"تعالي."

قادها الجابي إلى غرفة النوم وأغلق الباب.

"كنتِ تعرفين. أليس كذلك؟"

"بمَ؟"

"أوما، مهما أكن، لستُ أحمق. أتحدثُ عن حمل الأميرة."

كانت أوما تجلس على حافة سرير بناموسية، حولت نظرتها.

"كنتِ تعرفين إذن، أليس كذلك؟"

"بلى."

"دُلي أخبرتك؟"

"نعم."

"ولم يخطر ببالك أبدًا أن تخبريني؟ ربما تكون مسألة بالغة الأهمية؟ ربما يكون لها عواقب بالنسبة لي؟"

"كيف أخبرك؟ وعدتُ بألا أخبرك."

جاء ليقف بجوارها، نظر إلى رأسها المنخفض.

"وهل وعدك لدلّى أهم من الرابطة بيننا، أنتِ وأنا؟" مدَّ يديه إلى يديها وأمسكهما برقة: "انظرى إلىَّ، أوما. لماذا لا تثقين فىَّ؟ هل أهنتُك فى يوم من الأيام، بأية طريقة؟ هل اعتقدْتِ أننى لم أكن أتصرف بحكمة؟"

"وعدْتُ."

حدَّق فيها فى ذهول: "عرفتِ ذلك من أيام، وربما شهور. كنا معًا أثناء ذلك. ألم تشعرى أبدًا برغبة فى التحدث معى فى الموضوع؟ لا باعتبارى جابى رتناجيرى، ولا حتى باعتبارى زوجك، لكن مجرد رفيق، شخص تقضين أيامك فى صحبته؟"

خلصتْ يديها من قبضته. ماذا يريد منها؟ أطاعتْ أوامره فى كل شىء: تذهب إلى النادى حين يطلب منها ذلك؛ تذهب إلى كل مواعيدها. ماذا تقدم أكثر من ذلك؟

بدأت تنشج، مغطية وجهها بيديها. المزايا الزوجية التى قدمتها له لم تُجْدِ معه نفعًا: علمته كمبريدج أن يريد أكثر؛ أن يتأكد من ألا يبقى شىء معلَّقًا، أن يساوم على روح امرأة بعملة العطف والصبر. أصابها التفكير فى هذا الأمر بالهلع. كان خضوعًا يفوق ما تقتضيه الأصول، ما تتخيله. لم تستطع التفكير فيه. أى شىء أفضل من الاستسلام.

هوامش

(١) داك: Dak.

(٢) فيتون phaeton: مركبة خفيفة مفتوحة بأربع عجلات، تجرها الدواب.

(٣) فطيرة الراعى shepherd's pie: فطيرة باللحم تخبز مع بطاطس مهروسة.

(٤) إقدوم وه هى شيز: ekdum woh hi cheez. أريد هذا كله الليلة، من السياق.

(٥) رايت: Wright.

(٦) يستيس نيدو: Justice Naidu.

(٧) بنْكاه punkah: مروحة تستخدم فى الهند وتعلق فى السقف، يحركها الخدم بأيديهم (هندى).

(٨) كون هَىْ kaun hai؟: من هناك؟ (هندوستانية).

(٩) فرنجيبانى frangipani: أشجار استوائية، زهورها طيبة الرائحة، متنوعة الألوان.

(١٠) نَامَسْتى Namaste: كلمة هندية تستخدم للتعبير عن الاحترام العميق، ومعناها الحرفى "أنحنى لك".

(١١) الأنجريز Angrez: كلمة هندوستانية تستخدم للإشارة إلى الإنجليز، أو للغرباء عموما، وخاصة البيض.

(١٢) شربى charpai: سرير.

(١٣) شَلو chalo: ابعدْ، يالدى jaldi.

(١٣)

بدا لأوما أنها نامت للتو، بعد قضاء ساعات طويلة بدون نوم، حين سمعتْ صوتًا بجوارها: "ممصاحب! ممصاحب!"

تقلبتْ دائخة، ودفعت وسائدها إلى رأس السرير المصقول. "ممصاحب!" كانت أيا، غطى وجهها النسيج الغائم للناموسية: "انهضى، ممصاحب! انهضى!" كانت النوافذ مفتوحة والسقف يغرق فى ضوء الشمس المنعكس عليه. فاحت فى الهواء رائحة عشب مشذب نضر. سمعت صوت المناجل فى الحديقة وتذكرت أنها طلبت من المالين[١] قص العشب.

"ممصاحب، انهضى. جنتلمان ينتظر فى البيتاك خانة[٢]."

"جنتلمان؟ مَنْ؟"

"الذى كان هنا على العشاء بالأمس – البهاركه[٣] جنتلمان."

"مستر رها؟" انتصبت أوما على الفور: "ماذا يفعل هنا؟"

"طلب أن يراك. ودلِّى، ممصاحب."

"هل أخبرْتِها بذلك؟"

"دلِّى، ممصاحب، ليستْ هنا. غادرت فى وقتْ مبكر من الصباح."

"متى؟"

"فى وقت مبكر جداً. أعادها كنهوجى إلى منزل أطرام."

التفت الناموسية حول أوما: لم تستطع تخليص الناموسية من وجهها.

"لماذا لم أُبلَّغ؟"

"طلب الجابى صاحب ألا نوقظك."

خربشت الناموسية بنفاد صبر بمخالب أصابعها. كان هناك صوت تمزيق وفتحت أمامها فجوة فجأة. مرت من القطع، ونزلت بساقيها من السرير.

لم تكن تحب أن تنصرف دُلِّى بهذه السرعة بدون كلمة.

قالت للأيا: "أرسلى بعض الشاى إلى البيتاك خانة، وأخبرى الجنتلمان بأنى سأخرج فوراً."

ارتدتْ ملابسها بسرعة وأسرعت إلى الدهليز. أخذتْ الأيا معها إلى غرفة الاستقبال وتركتها تجثم قرب الباب طبقًا للأصول.

"مستر رها؟"

كان فى الناحية البعيدة من الغرفة، ينفث الدخان فى نافذة مفتوحة. استدار حين سمع صوتها، ونفض رماد الشيروت. كان يرتدى ملابس "إنجليزية"– بدلة بيضاء من الكتان.

"مدام الجابى، آسف لإزعاجك..."

"لا. لا إطلاقًا." سعلتْ. كانت الغرفة معبأة بدخان التبغ الحارق.

بدد سحابة الدخان مع إشارة اعتذار: "آسف. جئتُ أشكرك... على الليلة الأخيرة." توقَّفَ، سمعتْه يبلع ريقه كأنه يحاول استجماع نفسه ليقول شيئًا ما: "وأودُّ أن أشكر مس سين أيضًا، إذا استطعتُ."

"دُلِّى؟ لكنها ليستْ هنا. عادت إلى منزل أطرام."

"أوه." جلس فى مقعد، تتحرك شفتاه فى صمت، كأنه يحدِّث نفسه. لاحظت أن شعره منكوشٌ وعينيه غائمتان من نقص النوم.

"هل لى أن أسأل إن كانت ستعود إلى هنا اليوم؟"

قالت أوما بهدوء: "مستر رها، أودُّ أن أعبر عن دهشتى من اهتمامك بهذا الشكل بواحدة تكاد لا تعرفها."

تطلع إليها: "مدام الجابى..."

"نعم."

"أودُّ أن أخبرك بشىء."

"واصلْ"

"لم أكن صريحًا تمامًا معك. أو مع عمك."

"كيف؟"

"ليس هذا أول لقاء بمس سين. أتيتُ إلى هنا بسببها. أتيتُ بحثًا عنها."

حاولتْ أوما أن تضحك: "ماذا؟ لابدَّ أن هناك خطأ، مستر رها. من المؤكد أنك تفكر فى واحدة أخرى. لا يمكن أن تكون قد قابلْتَ دُلِّى قبل هذا. عاشت دُلِّى حياتها كلها هنا. أؤكد لك ذلك. لم تغادر رتناجيرى منذ كانت فى العاشرة."

"الفتاة التى تحدثتُ عنها الليلة الماضية- فتاة القصر الزجاجى؟"

"نعم؟"

"كانت هى - دُلِّى، مس سين."

شعرت أوما بنفَسٍ يندفع من جسمها. نهضت مترنحة لتجتاز إحدى النوافذ الفرنسية إلى الحديقة. "تعال، مستر رها." بدون انتظار، سارت عبر العشب المشذب

للتو. كان المالون مشغولين بكنس العشب المقطوع ليأخذوه إلى بيوتهم لأبقارهم وأغنامهم؛ تطلعوا وسلموا(٤) وهى تمر بهم.

التقى رجكومار بها أسفل الحديقة، وهى تفتح الباب الصغير: "ربما يبدو لك ذلك غريبًا جدًا."

"نعم. يبدو غريبًا."

قادته إلى المصطبة تحت شجرة البيبول. كان نهر كجالى يلمع كزجاجة فى الوادى. "اجلسْ من فضلك، مستر رها."

قال رجكومار: "لم أعرف أنى سأجدها هنا. لم أكن متأكدًا. كان مجرد مكان أبدأ منه– طريقة لحسم أمر مع نفسى. علىَّ أن آتى طالما هناك مكان يمكن أن أبحث فيه. لم يكن لى اختيار. كنتُ متأكدًا من أنى سأجد المسألة مستقرة: ستكون متزوجة، أو تحمل طفل شخص آخر. أو ميتة، أو تحولت إلى شىء لا يمكن التعرف عليه. أو قد تمحو نظرتها الذكرى من عقلى، تحررنى. ثم دخلتُ منزلكم الليلة الماضية، ووجدتها. عرفتُها فى الحال: وجهها، تعبيرها. وخرجت المسألة من يدى، لكن ليس كما توقعتُ."

"ولم ترها إلا تلك المرة؟"

"مرتين. فى مندالى. لكن لو قابلتُها ألف مرة لما اختلف الأمر. أعرف ذلك. أنا على يقين من ذلك. وأنا صغير جدًا، كنتُ أعمل على سفينة، سمبان شيتاجُنج. منذ زمن بعيد، حتى قبل أن أذهب إلى مندالى. ذات يوم حاصرتنا عاصفة. كنا فى البحر المفتوح، هبَّتْ عاصفة مفاجئة والسفينة تقلع من ساحل البنغال. تدفقت المياه فى السفينة، على مؤخرتها. ربطتُ بالصارى وقدم لى دلوًا لأنزح به. بسرعة اسودت السماء ولم أكن أرى ما حولى إلا مع البرق. مع إحدى تلك الومضات، لاحظتُ شيئًا. رأيتُ حيوانًا، سلحفاة صغيرة ظهرها أخضر. دفعتها موجة وبطريقة ما وقعت فى شبكة. كانت أبعد من متناول يدى بقليل، والأمواج تضرب السفينة بشدة فلم أجرؤ على

حل حبلى. كنا، السلحفاة وأنا، مقيدين فى مكانينا. ومع كل ومضة برق، أتطلع فأجدها هناك. هكذا استمرَّ الأمر فى تلك الليلة الطويلة، الطويلة: الحيوان وأنا، كل منا ينظر إلى الآخر، عبر الأمواج والرياح. قرب الفجر هدأت العاصفة. فككتُ حبالى وخلصتُ السلحفاة من الشبكة. أراها بوضوح حتى اليوم. إذا وضعْتِ ألف سلحفاة أمامى الآن، فلن تكون حقيقية بالنسبة لى كما كان ذلك الحيوان."

"لماذا تحكى هذا لى، مستر رها؟"

"لمن غيرك أحكى؟"

"احْكِ لدُلّى."

"حاولتُ. الليلة الماضية. رأيتها تمشى فى الحديقة فعدْتُ بعد أن تركتك."

"ماذا قالتْ؟"

"صممتْ على الغضب – كما كانت على العشاء. رأت أن ما قلتُ خطأ. طلبت منى أن أرجع. لن ترانى مرة أخرى. قضيتُ الليلة كلها أفكر فيما أفعله بعد ذلك؟ فى أى مكان آخر، أجد أناسًا أرجع إليهم: قد يعرف أصدقائى رأيها من أصدقائها. أطلب من شخص التحدث إلى عائلتها. ثم أذهب بنفسى للقاء أبيها، نناقش الفلوس ومكان الإقامة؛ أمورًا من هذا القبيل. أجد مساعدة من أناس يتكلمون نيابة عنى."

أومأت أوما: "نعم. سيكون هناك وسطاء، يتوسطون بينكما. أناس يستطيعون شرح ما نريد أفضل منا."

كانت محقة، عرفتْ كيف تحدث هذه الأمور: حمل شخص ما كلمة من فم إلى آخر واستمرَّت الأمور، همسات تسافر مثل المحاليق بطول تعريشات واهية. هكذا جرت الأمور فى حالتها: ذات ليلة جاءت جارى تقعقع فى الساحة المرصوفة لبيت أسرتها فى كلكتا – المنزل الذى أطلق عليه أبوها اسم لَنْكاسوكا(٥). سمعوا طَرْقًا عاليًا على الباب

الخارجي، فى الدور الأرضى. الوقت متأخر، بعد العَشَاء. أبوها فى المكتب، مشغول بالعمل فى أطروحة عن عمارة المعابد. أمها تستعد للنوم. قالت أمها: "لابدَّ أن شخصاً مات، لا تأتى فى هذا الوقت من الليل إلا الأخبار السيئة."

جرتْ أوما وأخوها الصغير إلى فراندة تطلُّ على ساحة البيت. كانت إحدى عماتها على الباب فى الدور السفلى. صاحت أوما: "هل مات أحد؟"

انفجرتْ عمتها فى الضحك: "مات؟ لا، يا سخيفة. أدخلينى."

أنصتتْ أوما وأخوها عند الباب والأم تتباحث مع الزائرة. سمعاهما تذكران اسم الجابى وتعرفا عليه: قرآ عنه حديثًا فى الصحف والمجلات. كان معروفًا كنابغة. كطالب، تفوق فى جامعة كلكتا وساهمت عائلات الجيران الموسرين ببعض الموارد ليُبعَث إلى كمبريدج. عاد بطلاً صغيراً، وقُبِل فى أعظم وأقوى كادر إمبراطورى، الخدمة المدنية الهندية.

تردد أنه رأى أوما فى بوجا[٦] وهى تلميذة فى السادسة عشرة. حين عاد من كمبريدج، استعلم عنها. لم تسعد أسرته كثيراً: أتتهم عروض زواج من كل أنحاء المدينة واعتقدوا أنهم يستطيعون تحقيق ما هو أفضل بكثير. لكنه أصر، صمم على أنه لا يريد زواجاً تقليدياً. يعمل مع الأوروبيين؛ ومن غير المناسب أن تكون زوجته محافظة حبيسة فى المنزل. يريد فتاة ترغب فى دخول المجتمع؛ فتاة صغيرة لا تقاوم تعلم الأساليب الحديثة.

"وهو يطلب ابنتى أوما؟"

ترددت فى أرجاء المنزل صرخة ارتياب أطلقتها أمها. لم تكن أوما، إطلاقًا، أجمل فتيات منطقتها أو أبرعهن: لم تكن تستطيع الغناء أو الخياطة؛ لم يكن شعرها ناعمًا تمامًا ويُعتقَد أنها أطول من اللازم.

"ابنتى أوما؟"

تراجع أخوها بعيدًا عنها، وفغر فاه غير مصدق: "أنت!" قالت لتضايقه: "حسنًا، لا يمكن أن يتزوجك أنت." انفجر فى البكاء، وكأنه كان يتطلع إلى ذلك.

"لماذا أنا؟" طرحت أوما السؤال مرات ومرات على كل الوسطاء والمتوسطين. "لماذا أنا؟" وأكثر ما استطاع أى شخص أن يقوله لها: "يعتقد أنك ستتعلمين بسرعة."

كان فرحًا لا مثيل له. جاء الحاكم، وكثير من مسئولى الخدمة المدنية الإنجليزية وضباط الجيش. بدل الشيهناى[٧] جاءت فرقة موسيقية عسكرية من حصن وليم[٨].

وهما وحديهما، فى غرفة النوم الغارقة فى الورود فى الليلة الأولى، جلسا لحظة طويلة صامتين على السرير، نتيجة الخجل، ولم يكن أقل خجلاً منها. سمعا أصوات الأصدقاء والأقارب، متجمعين قرب الباب المغلق، يضحكون ويتبادلون النكات البذيئة المألوفة. أخيرًا تكلم، فشعرتْ بارتياح: تحدث عن كمبريدج، عن الشوارع المرصوفة بالحصى، عن الجسور الحجرية، عن الحفلات الموسيقية التى حضرها. دندن بلحن موسيقى؛ لمؤلفه المفضل، كما قال. أحبَّتْ حيوية اللحن وسألت: ما اسمه؟ شعر بالسعادة لأنها سألت.

قال موضِّحًا: "من 'التروت'، لشوبرت.[٩]"

"جميل. دندن به مرة أخرى." غرقت فى النوم، واستيقظت بعد ساعات على لسانه. لم يكن الألم مروِّعًا كما قيل لها – لم يكن أسوأ بكثير من الذهاب إلى طبيب – كانت الغرفة معتمة جدًا، مما جعل الأمر أسهل. حين سألتْ أمُّها فى اليوم التالى، ارتبكت لأنها لم يكن لديها قصة مرعبة تحكيها، مثل الأخريات.

"كان عطوفًا ورقيقًا."

قالت أمُّها: "ماذا يطلب المرء أكثر من ذلك؟ أعدَّ لك أثاثًا رائعًا، أوما. لا تجعلى يومًا يمر بدون أن تعبرى عن امتنانك لما حصلت عليه."

بعد شهر، فى قطار، سأل الجابى فجأة إن كانت تتذكر اسم اللحن الذى دندن به تلك الليلة. نسيت كل شىء. كانا يسيران فى الامتداد المقفر لرجبوتانا الغربية[١٠]، مأخوذة بالمشهد الطبيعى. قالت: "لا أتذكر." ابتعد فجأة، استطال وجهه تعبيراً عن خيبة الأمل. شعرت برجفة رعب تسرى ببطء فى جسمها مثل الشلل. عرفتْ أن هناك الكثير: توالت هذه النوبات الصغيرة من خيبة الأمل بسرعة وراء بعضها فى سلسلة طويلة رديئة.

أعادها صوت رجكومار إلى الحاضر: "هل تساعديننى، مدام؟ أنت الوحيدة الذى يمكن أن أصل عن طريقها إلى دُلِّى الآن. ليس هناك شخص آخر يمكن أن ألجأ إليه."

حاولتْ أن تصور دُلِّى بعينى الرجل الذى يجلس بجوارها، هذا الغريب بالفعل. شعرت فجأة بقلبها يُفعَم بالحنان، بالحب. لمن هذا الحب؟ له؟ أم لها؟ ربما للاثنين؟ ماذا تفعل إذا تركتْها دُلِّى؟ انبعث بريق حياتها من دُلِّى، مع أن الأمر، بحق، يجب أن يكون بالعكس. دُلِّى السجينة على الرغم من كل شىء: وكانت، مسز أوما دى، المحظوظة، تكلَّمَ الجميعُ عنها دائمًا، ماذا تطلب أكثر من ذلك؟ لكن الآن، وهى تفكر فيما قد تكون عليه فى رتناجيرى بدون دُلِّى، شعرتْ بالدموع تنهمر فى عينيها. وصلت إلى حافة المصطبة لتهدأ ويدها تسند على يده.

حدَّق فيها، مقطِّبًا باهتمام: "مدام؟ مسز دى؟ مسز دى، هل أنت بخير؟"

انتزعتْ يدها: "نعم، نعم. مجرد دوخة بسيطة. لا أعرف ما المسألة."

"هل نعود إلى الداخل؟"

نهضتْ: "نعم. مستر رها، لم تقل لى ماذا تتوقع منى؟"

"يمكن أن تكلميها."

"كلمها بنفسك، مستر رها. الأمور لا تسير بشكل جيد فى وجود وسطاء."

نظر إليها عن قرب، ثم داهمها فجأة، قال: "الجابى رجل لطيف، مسز دى، رجل رائع. الرجال من أمثاله جديرون بكثير-"

قاطعتْه بسرعة: "نعم، بالطبع، نعم. تعال، لندخلْ."

***

أخذت الأيا دُلّى إلى غرفة الاستقبال وأرتها النافذة المفتوحة: "ذهبت المدام إلى الحديقة- منذ بضع دقائق فقط."

أومأت دُلّى: بالطبع، فى هذا الوقت من اليوم تكون أوما تحت شجرة البيبول دائمًا. أسرعتْ عبر العشب، مرت بالمالين الذين حيوها، إلى الباب الصغير. وهى تتلمس المزلاج، سمعت صوتًا. قبل أن تستدير، رأت أمامها أوما ورجكومار، يخرجان فجأة من لحية البيبول الرمادية المتشابكة. وقفوا، الثلاثة جميعًا، وكل منهم يحدق فى الآخر.

بادرتْ أوما بالكلام. قالت بسرعة: "مستر رها، آمل ألا تستاء إذا طلبتُ منك أن تتركنا وحدنا دقيقة؟ أودُّ أن أتحدث مع دُلّى - بضع كلمات ليس إلا. يمكن أن تنتظر عند بوابة الحديقة؟"

"بالطبع."

أخذتْ أوما ذراع دُلّى: "تعالى، لنذهب ونجلس تحت الشجرة لحظة."

وهما تشقان الطريق فى متاهة الجذور تحت شجرة البيبول، همستْ دُلّى: "ماذا يفعل هنا، أوما؟ ماذا يريد؟"

"كان يتحدث. عنك."

"ماذا قال؟"

"أعتقد أنه حاول أن يخبرني بأنه يحبك." جلست أوما تحت الشجرة وشدَّتْ دُلِّي بجوارها.

دفنتْ دُلِّي وجهها في يديها: "أوه أوما. الليلة الماضية، في حديقتك، قال لي أشياء كثيرة. كان غريبًا جدًا، مضطربًا جدًا. لم أنمْ، ظللتُ أفكر في الوطن- مندالي، القصر، حوائط الزجاج."

"قال إنك لا تتذكرينه."

"لا أظن."

"أنت، إذن؟"

"لستُ متأكدة، أوما. أتذكر شخصًا، ولدًا، أسود جدًا؛ أتذكر أنه أعطاني لفافة صغيرة من الطعام؛ أتذكر إفلين تقول، خذيها، خذيها، خذيها. لكن لا شيء واضح. ذلك منذ فترة طويلة، وحين أفكر فيه أشعر بالهلع."

"أعتقد أنه يحبك حقًا، دُلِّي."

"يحبُّ من يتذكرها. لا أنا."

"ماذا عنك، دُلِّي؟ بم تشعرين؟"

"أشعر بالهلع، أوما. ارتكبتُ هذه الأخطاء المروعة في الماضي. عاهدتُ نفسي ألا أرتكب خطأ آخر."

"أية أخطاء؟"

"لم أقل لك ذلك أبداً، أوما، لكن منذ سنوات طويلة، اعتقدتُ أني أحب موهانبهي-حوذينا. عرفت الأميرة. هددتْنا. أعتقد أنها كانت تحبه."

"هل كنت تريدين الزواج منه؟"

"لا أعرف، أوما. كنتُ صغيرة جداً، ولا أفهم حقًّا ما يحدث. في النهار أبعده عن تفكيري. وفي الليل أحلم به، فأستيقظ وأفكر: لماذا لا نهرب؟ لماذا لا ألفُّ أشيائي في صرة على الفور وأنزل إليه وأوقظه وأقول: موهانبهي، لنذهب، لا شيء لنا هنا في منزل أطرام؟ لكن إلى أين نذهب؟ وماذا نفعل؟ عائلته فقيرة جداً ويعتمدون عليه. عرفتُ حقًّا أنه لن يغادر حتى لو توسلتُ إليه. وكان هذا أسوأ ما في الأمر، الإذلال. فكرتُ في نفسي، هل صرتُ خادمة حقًّا، مثله؟"

"هل أخبرْتِه في أي وقت؟"

"لا. لم نتكلم أبداً إلا في المسائل اليومية. وبعد وقت توقفت الأحلام وفكرتُ، أنا متحررة منه الآن، استقامت الأمور أخيراً. لكن في الليلة الماضية، وأنا نائمة في غرفتكم تلك، حلمْتُ من جديد. كنتُ في منزل أطرام، في سريري. كانت هناك شجرة مانجو قرب النافذة. نهضتُ من سريري وربطتُ أشيائي، في صرة، وعلقتها على ظهري. نزلتُ وأخذتُ أجري في المجمَّع إلى كوخ البوابة. كان الباب مفتوحًا ودخلتُ. كان الجو مظلماً ولم أرَ إلا لنجوته الأبيض، معقوداً بإحكام بين ساقيه، يعلو ويهبط مع تنفسه. وضعتُ يدي على جسمه. وضعتُ أصابعي في التجويف أسفل زوره. استيقظ وتطلع إليَّ ولمس وجهي. ثم قال: نذهب؟ خرجنا، وفي ضوء القمر رأيتُ أن ليس موهانبهي."

"من؟"

"هو." أمالت رأسها باتجاه البوابة، حيث تركتا رجكومار.

"ثم؟"

"استيقظتُ مفزوعة. كنتُ فى منزلكم، فى غرفة النوم تلك. لم أحتمل البقاء لحظة. ذهبتُ وأيقظتُ كنهوجى."

"دلِّى. أعتقد أن عليك أن تخبريه."

"مَنْ؟"

"مستر رها."

بدأتْ دلِّى تنتحب ويدها على كتف أوما: "لا. لا. أوما، لا أستطيع التفكير الآن إلا فى ولادة طفلى. لا مكان فى رأسى لشىء آخر."

برقةٍ، مرت أوما بيدها على رأس دلِّى: "الطفل ليس طفلك، دلِّى."

"لكن كان يمكن أن يكون طفلى."

وضعتْ أوما يدها على كتفى دلِّى، أسندتْها لتتمكن من النظر فى وجهها: "دلِّى، اسمعينى. دلِّى، هل تصدقيننى إذا قلتُ لك إنى أحبك كما لم أحب أحداً من قبل أبداً؟ كنتُ مجرد فتاة قبل أن أقابلك. أطلعْتِنى على معنى الشجاعة، على ما يمكن أن يتحمله الإنسان. لا أستطيع التفكير فى الوجود بدونك. لا أعتقد أنى أستطيع البقاء هنا يوماً واحداً إن لم تكونى هنا. لكنى أعرف هذا أيضاً، دلِّى: يجب أن تذهبى إن استطعْتِ. يجب أن تذهبى الآن. ولادة هذا الطفل ستفقدك عقلك إن بقيتِ فى منزل أطرام."

"لا تقولى هذا، أوما."

"دلِّى، اسمعينى. هذا الرجل يحبك. أؤمن بهذا. اسمعيه على الأقل."

"أوما، لا أستطيع. ليس الآن. ليس مع قدوم الطفل. إذا كان ذلك فى السنة الأخيرة..."

"إذن قولى له ذلك بنفسك. أنت مدينة له بذلك."

"لا. أوما، لا."

وقفتْ أوما: "أنا ذاهبة لأبعث به إلى هنا. فى ظرف دقيقة فقط."

قبضتُ على يدى أوما: "لا تذهبى، أوما. من فضلك. من فضلك لا تذهبى."

"هذا ما يجب أن يُفعَل، دلِّى. لا سبيل غيره. سأبعث به إلى هنا. ثم أذهب إلى المنزل. سأنتظرك. تعالى وأخبرينى بما يحدث."

***

لمحها رجكومار وهو يشق طريقه حول الشجرة: كانت دلِّى تجلس منتصبة على المصطبة، ويداها معقودتان بدقة على حجرها. ألقى بشيروته المنتهى ووضع آخر فى شفتيه. ارتجفت يده بشدة وحاول إشعال الثقاب عدة مرات.

"مس دلِّى."

"مستر رها."

"اسمى رجكومار. سأكون سعيداً إذا ناديتنى به."

نطقت المقاطع بتردد: "رجكومار..."

"شكرًا لك."

"طلبتْ أوما أن أتحدث إليك."

"نعم."

"لكن ليس لدىَّ ما أقوله فى الحقيقة."

"إذن دعيني–"

رفعتْ يدها لتوقفه: "من فضلك. دعني أكمل. عليك أن تفهم. مستحيل.."

"ما المستحيل؟ أودُّ أن أعرف. أنا رجل عملي. أخبريني وسأحاول أن أفعل شيئًا"

"هناك طفل."

"طفل؟" أخرج رجكومار الشيروت من فمه: "طفل مَن؟ طفلك؟"

"الأميـرة الأولى على وشك الوضع. الأب يعمل في منزل أطرام. أنا أيضًا كنتُ أحبه– والد طفل الأميرة – ذات يوم. يجب أن تعرف ذلك. أنا لستُ الطفلة التي عمرها عشر سنوات كما كنتُ في مندالي."

"هل تحبينه الآن؟"

"لا."

"الباقي إذن غير مهم بالنسبة لي."

"مستر رها، يجب أن تفهم. هناك أمور لا يمكن أن تغيرها مهما كان لديك من أموال. أشياء قد تختلف بالنسبة لنا في وقت آخر أو مكان آخر. لكن الوقت متأخر جداً الآن. هذا وطني. عشتُ حياتي كلها هنا. مكاني هنا في منزل أطرام."

الآن، أخيراً، بدأت الآمال، التي ساندته كثيراً جداً، تتسرب ببطء. قال كل ما يستطيع. لم يستطع التفكير في وسيلة أخرى يناشدها بها، وقد أسكتته قبل أن يبدأ.

"من فضلك. أتوسل إليك، لا تقل أكثر من ذلك. ستسبب فقط ألمًا لا مبرر له. هناك أشياء في هذا العالم لا يمكن أن تحدث، مهما أردنا."

"لكن هذا ممكن... يمكن، فقط إذا فكَّرْتِ فيه."

"لا. من فضلك لا تقلْ شيئًا آخر. اتخذتُ قرارى. هناك شىء واحد فقط أودُّ أن أطلبه منك الآن."

"ماذا؟"

"أطلب منك أن تغادر رتناجيرى بأسرع ما تستطيع."

أجفل، ثم حنى رأسه.

"لا أرى سببًا للرفض." وبدون كلمة أخرى، استدار وابتعد فى ظلال شجرة البيبول الكثيفة.

هوامش

(١) مالى mali: الجنايني، وستجمع هنا على "مالون ومالين"، (هندوستانى).

(٢) بيتاك خانة baithaak-khana: غرفة الاستقبال.

(٣) بهاركه bahaarka: السيد.

(٤) سلَّم salaamed: هكذا فى الأصل، عن العربية.

(٥) لَنْكاسوكا: Lankasuka.

(٦) بوجا puja: طقس بوذى، يشمل الانحناء وتقديم القرابين والتراتيم، يؤدى عادة فى المنازل، لكنه يؤدى فى المعابد فى الأعياد.

(٧) شيهناى shehnai: آلة نفخ، يعتقد أنها تجلب الحظ، ولذا يكثر استخدامها فى شمال الهند في الأفراح. وهى آلة تشبه الأنبوب وتتسع تدرجياً باتجاه نهايتها السفلى. ويكون بها عادة بين ست فتحات وتسع فتحات.

(٨) حصن وليم Fort William: حصن بنى فى كلكتا على الضفة الغربية لنهر هوجلى أثناء الحكم البريطانى.

(٩) التروت The Trout: خماسية شهيرة للبيانو، ألفها شوبرت سنة ١٨١٩ وهو فى الثانية والعشرين من عمره، لكنها لم تنشر إلا سنة ١٨٢٩، بعد وفاته بسنة.

(١٠) رجبوتانا الغربية Western Rajputana: مجموعة من الولايات الهندية.

(١٤)

"سوانت."

رفع الملك منظاره عن عينيه، وأشار فى اتجاه الخليج. كان فى المرفأ مركب، رمث محلى كبير يعرف بالهورى: قطمران عميق البدن بذراع[1] واحدة.

"سوانت، إنه يغادر."

"مين؟" كان الوقت مبكرًا جداً وقد أحضر سوانت للملك كوب الشاى الذى يحب أن يشربه فى الفجر.

"الرجل الذى وصل قبل أيام على سفينة بومباى البخارية. يغادر. يحملون أمتعته فى المرفأ."

"مين، لا توجد سفينة بخارية اليوم."

"استأجر مركبًا." فى ذلك الوقت من العام، بعد انتهاء الرياح الموسمية مباشرة، يحدث تغير فى التيارات السائدة والمياه حول فم الخليج لوقت قصير، تغير خطير جداً. فى تلك الأسابيع كان الهورى الرمث البحرى الوحيد الذى يتحدى دوامات التيارات البحرية التى تجرف الشاطئ.

"مين." وضع سوانت براد الشاى بجوار مقعد الملك وغادر الغرفة بسرعة.

كان كل من فى المنزل نياماً إلا الملك وسوانت. كانت غرفة الانتظار التى تنام فيها دلّى على بعد بابين من الدهليز. كان لدلّى وحدها جناح، لأن الأميرة الأولى لم تعد تصعد إلى الدور العلوى إلا نادراً، مفضلة غالبًا البقاء فى كوخ البوابة مع سوانت.

دفع سوانت باب دلّي، انسلَّ إلى الغرفة. كانت نائمة، تستلقي على السرير الضيق الذي استخدمتْه في السنوات العشرين الأخيرة. كان شعرها مفكوكًا أثناء الليل ومنكوشًا على مخدتها. أثناء الراحة بدت بشرتها شفافة، وكان لوجهها جمال صافٍ يشبه نقشًا في معبد. تردَّد سوانت وهو يقف بجوار سريرها، يشاهد الإيقاعات البطيئة لتنفسها.

أمس، في طريقه إلى قريته عند المصب، قابل سوانت راعي أغنام في طريق عودته من جهة المقر. تحدثا بعض الوقت عن شجرة البيبول، عن ممصاحب الجابي، عن الأمير الغني من بورما المتيم بدلّي.

كان من المستحيل التفكير في منزل أطرام بدون دلّي؛ من المستحيل تخيل رتناجيري خالية من وجودها. لكن أفضل من أن يراها تضيع أمام عينيه. لا، من حقها عليه. ركع بجوارها ورفع يده.

كانت ترتدي ساريا ليليًا مجعدا، ثوبًا أبيض يتدلى كحجاب على أطرافها النحيلة الطويلة. فكر في الوقت الذي كانا يجلسان فيه معًا على سريره المصنوع من الحبال المرتخية، ولُنْجُته المصبوغ بالدماء يلتف على ساقيها المتشابكتين. تجمدتْ يده وهو على وشك إيقاظها. كان التفكير في أن يكون بدون دلّي جنونًا! بدأ يتراجع. لكنه توقف مرة أخرى. لا، من حقها عليه.

فجأة فتحتْ عينيها: "أنت!" انتصبت، وذراعاها مثنيتان على صدرها.

وضع إصبعا على شفتيه: "بهدوء. الجميع نيام. بهدوء. البسي."

"لماذا؟"

"إنه يغادر. رجلك."

اتسعتْ عيناها فزعًا: "بهذه السرعة؟"

"نعم."

"لكن ليست هناك سفينة بخارية. وفى هذا الوقت من السنة، اعتقدتُ أنه لن يستطيع الذهاب."

"استأجر هورى."

"لكن أليس الوقت متأخرًا جدًا الآن؟"

"لا. لن يستطيعوا الإقلاع قبل الشروق. بسرعة. عليك أن توقفيه. عانيتِ كثيرًا جدًا، دلِّى. لا تعانى مرة أخرى. تعالى. بسرعة."

"كيف؟"

"سأعد الطراب وآخذك إلى مَنْدفى. بسرعة."

حين انتهت من ارتداء ملابسها، كانت الطراب فى الخارج، جاهزة للمشى. علَّق فى الطراب أسرع جياده، فرس رمادية. مدَّ يده ليساعد دلِّى على الصعود ثم ضرب رأس الفرس بطرف سوطه. انطلقت الطراب متمايلة، ونزلا من الهضبة، بجوار طوابير البوليس والسجن والكتشيرى. فى بازار جينجيناكا، جرت خلفهما مجموعة من كلاب الحراسة تنبح وهما يسرعان بجانبها. من على مسافة طويلة أبصرا الهورى، يغادر مرساه ويندفع، بالمجداف، فى الخليج.

"موهانبهى!"

طرقع سوطه: "لا أستطيع أن أجرى أسرع من ذلك، دلِّى."

حين وصلا إلى المرفأ كان المركب قد قطع مسافة طويلة، ووصل إلى فم الخليج: "اجرى، دلِّى، اجرى!" قفز سوانت وشدَّ لجام الفرس: "اجرى! اجرى!"

جرتْ إلى المرفأ، مترنحة؛ كان المركب عن بعد يناور بمجاديفه الأمامية للانزلاق عبر المياه الضحلة والتيارات التى تواجهه. ارتجَّتْ مؤخرته بعنف وهو يقترب من المياه

المتدافعة فى البحر المفتوح. فى بضع دقائق يكون خارج الخليج. ترنحتْ مرة أخرى، وهى على وشك الاستسلام بدأت مجاديف الهورى تلفُّ، بعيداً عن فم الخليج. عاد الرمث الثقيل إلى الساحل، لفَّ الطريق كله حول الخليج، واندفع عند نهاية المرفأ. ارتفع الهورى عاليًا فى المياه وقدَّر رجكومار بسهولة المسافة بين المركب والحافة الخارجية للمرفأ.

سار إليها، وهو ينفث شيروته: "نعم؟"

شعرت بحمرة الخجل، وتدفق الدماء فى وجهها. قالتْ، مختارة كلماتها بعناية: "مستر رها، التيارات خطيرة فى هذا الوقت من السنة، وبنجلو داك محجوز لمدة أسبوع. ما من سبب يجعلك تغادر بهذه السرعة."

"لكنك قلْتِ –"

"نعم، لكن هناك أحيانًا فرق بين ما يقول المرء وما يعنى..."

"أخرج رجكومار الشيروت من فمه بيد تتحرك ببطء شديد، كأنه فى ذهول من عدم التصديق. ثم أطلق ضحكة ورمى بشيروته عاليًا فى الهواء. وقفا ينظران إليه، جنباً إلى جنب، يضحكان، ويشاهدانه يرتفع ملتفًا فوقهما. فجأة تحلل الطرف المتوهج وتطاير وابل من الشرر. كأن السماوات تمطر ألعاباً نارية.

***

ظهرتْ على الجابى علامات البهجة حين أخبرته أوما أن رجكومار ودُلِّى سيتزوجان. قال: "عظيم! عظيم!"

أوضحت أوما أن دُلِّى تريد احتفالاً هادئًا جداً: كانت متأكدة من أن الملكة ستبذل أقصى ما تستطيع لمنع الزواج إذا علمتْ به.

بروح اللحظة قدم الجابى عدة اقتراحات. لماذا لا يقام الحفل فى المقر؟ يمكن أن يصدر التصريح بنفسه ويشرف على الزواج شخصيًا. بعد ذلك، ربما الشمبانيا؛ للأربعة فقط- وعلى أوما أن تحرص على ادخار آخر كمية ثلج من بومباى... كان الحماس فى صوته قويًا بدرجة جعلتْ أوما لا تتمكن من التخلص من الإحساس بأن زوجها مبتهج لأنه لن يرى دُلّى مرة أخرى.

جاء اليوم، جهزت أوما إكليلين، من الزهور المخملية والياسمين. أعدتْهما بنفسها من زهور اقتُطِفتْ من الحديقة. فى نهاية الحفل المدنى، فى "مكتب معسكر" الجابى، وضع كل من دلى ورجكومار إكليلاً على الآخر، مبتسمين كالأطفال.

كانت الخطة المعدة للزوجين أن يقضيا ليلة الزفاف فى بنجلو داك، حيث يقيم رجكومار. هرَّبتْ دُلّى بعض مقتنياتها وملء حقيبة من الملابس من منزل أطرام بمساعدة الأميرتين الأولى والثانية. أعطتْها الأميرة الأولى حلَقًا والثانية سوارًا من اليشم. سعدتا لها وكانتا على يقين من الفتاتين الأخريين ستسعدان لها أيضًا. لكنهما، لتظل الأخبار سرًا، لم تخبرا الأميرتين الصغريين. فيما بعد، حين يتم التوقيع على كل شيء وختمه بسلام، يمكن أن تعود دُلّى إلى منزل أطرام مع زوجها الجديد لتقدم احتراماتها.

سار كل شيء طبقًا للخطة الموضوعة حتى أتى وقت توقيع دُلّى ورجكومار على الوثيقة. كانتْ أوما الشاهد الوحيد المتاح وتوقفتْ دُلّى فجأة عند السؤال عن المساعدين. لكن على الفور، وبمعجزة، جاءت مسز خمبتا(٢)، مصوِّرة من بومباى، فى جارى، تحمل حقائبها والكاميرا. خرج رجكومار بسرعة ليدخلها. وافقت بسهولة على أن تكون شاهدةً وبعد ذلك خرجوا إلى الحديقة. طلب الجابى الشمبانيا. هبَّتْ نسمة رقيقة من البحر. كان الضوء مبهجًا وذهبيًا.

كانت كاميرا مسز خمبتا آلة صنعت بمهارة فائقة: بعدسة جرَفلكس أحادية الانعكاس موديل ١٩٠١ وجسم يشبه الكوب، وبِلوز متمدد وغطاء من أربعة جوانب. مزودة بعدسة جلوب واسعة الزاوية، أثبتت دقتها فى البانوراما الممتدة أمام مصراع الكاميرا[٣]. قبل التقاط صورتها الأولى، قضت مسز خمبتا نصف ساعة تمامًا فى ضبط حاسبة هورتر ودريفيلد لقياس شدة الإشعاع، محدِّقةً فى مسطرتها الحاسبة ومعايرة أسطوانتها الدوارة بما يناسب الوقت وخط العرض. ثم، مشيرة إلى استعدادها برفع يدها، التقطت مجموعة صور متتابعة، وهى تقف خلف الكاميرا لتنظر إلى المجموعة قبل الضغط على ذر مصراع جيرى فلاب[٤].

فى الغسق جمع رجكومار ودلِّى مقتنياتهما. أقرضتهما أوما جارى كنهوجى. وفى الطريق إلى بنجلو داك غيَّرتْ دلِّى رأيها.

قالت لرجكومار: "لنذهب إلى منزل أطرام الآن. نتحدث مع الملكة وننهى الأمر معها."

كان الظلام قد حل حين وصلا إلى هناك. فى غرفة الملك لمبة مضيئة وأخرى فى غرفة سوانت قرب البوابة. اعتقدتْ دلِّى أن الأميرات فى الدور الأرضى، يجلسن حول لمبة واحدة لتوفير الزيت. كم كانت دهشتهما!

كانت البوابات مغلقة، طلبتْ من كنهوجى استخدام القارعة. طرق بقوة لمدة خمس دقائق، ولم يأتِ رد.

ذهبتْ دلِّى إلى نافذة غرفة البوابة وطرقت عليها. نادتْ: "موهانبهى. افتح البوابات. أنا، دلِّى. جئتُ أودعكم. افتح البوابات."

انطفأت الأضواء فى الغرفة، وبعد دقيقة أو اثنتين، سمعتْ صوت سوانت، يهمس: "دلِّى؟"

"أين أنت، موهانبهى؟"

"هنا. بجوار عمود البوابة." كان يبدو من خلال الشق بين الحائط والبوابة: "دُلِّى، ميبيا تعرف. طلبت منى ألا أسمح لك بالدخول، أو أفتح لك البوابات."

لهثتْ دُلِّى. كيف تغادر رتناجيرى بدون توديع مين وميبيا والأميرات؟ "لكن موهانبهى، أنا، دُلِّى. دعنى أدخل."

"لا أستطيع، دُلِّى. تعرفين، أفتح لو كنتُ أستطيع. لكن ميبيا فى إحدى نوبات غضبها. تعرفين كيف يكون غضبها."

حدث توقف ثم ظهرت صرة ملابس عند قمة البوابة."

قال سوانت: "حزمت ميبيا بعض أشيائك. طلبت منى التأكد من أنك ستأخذينها."

تركتْ دُلِّى الصرة تسقط على الأرض.

توسلت: "موهانبهى، دعنى أدخل. بضع دقائق فقط. فقط لأودعهم."

"لا أستطيع، دُلِّى. لا أستطيع حقًّا. قالت ميبيا إنها ستحبسنى إذا فعلتُ؛ طلبتْ ألا نذكر اسمك مرة أخرى فى هذا المنزل."

انتحبتْ دُلِّى، وهى تخبط رأسها فى عمود البوابة.

نظر سوانت من الشق: "لا تبكى، دُلِّى. سنفتقدك، كلنا. انظرى، البنات يلوحن لك من فوق."

كانت الأميرات الأربع يقفن متجاورات عند إحدى نواقذ الدور العلوى يلوحن وحاولت أن تلوح لهن، لكن ساقيها انثنتا تحتها. وقعت على ركبتيها منتحبة. اندفع رجكومار يرفعها من الأرض. رفعها بيد واحدة، والتقط صرة ملابسها باليد الحرة.

"تعـالى، دلَّى. لنذهبْ. لا يمكن فـعل شيء." كـان عليـه أن يرفـعـهـا من الأرض ليضعها فى الجارى.

"شلو، شلو، يالدى شلو."

وهمـا يمـران بثكنات الشـرطة، قـرب سـاحـة العـرض، خـرج بعض زوجـات الكونستبلات والأطفال للتلويح لهما. بدا أنهم جميعًا يعرفون أن مس دلَّى سترحل.

لوحت لهم، وهى تمسح الدموع بقوة من عينيها. لم تكن لتسمح لنفسها بأن تُحرم من هذه النظرة الأخيرة للزقاق: نخيل جوز الهند المتمايل، العلم البريطانى يرفرف فوق السجن فى صاريته المعوجة، محل الشاى المتهاوى فى مدخل الزقاق. هذا وطنها، هذا الزقاق الضيق بحوائط اللطريط[٥] التى يكسوها الطحلب. تعرف أنها قد لا تراه مرة أخرى أبدًا.

انحنتْ فى مقعدها، متشبثة بملابسها القديمة. صرة ملابس، مرة أخرى؛ هذه المرة فقط لا تحملها على رأسها.

***

لاحظتْ أوما، وهى ترفع يدها لتطرق باب مكتب الجابى أنه موارب بعض الشىء. رأته من الفتحة، يجلس منتصبًا فى مقعدٍ بظهر مستقيمٍ. تتدلى نظارته على عنقه، ويحدق فى الفضاء.

التفت فى البداية حين طرقت الباب: "ادخلى."

جلستْ فى مواجهته فى مقعد بلا أذرع، حيث يجلس كاتب الاختزال، خمَّنتْ، مستر راناد[١٠] القصير، والورق على ركبتيه، يكتب ما يملى عليه. تبادلا النظرات فى

صمت عبر امتداد المكتب الواسع المغطى بالجلد. كان أمامه خطاب مفتوح؛ لاحظت، وهى تمر، أنه بختم مزخرف من الشمع الأحمر على شكل وردة. كان أول ما استرعى انتباهها، وهنا فقط تكلم.

قال: "أتيتِ لتخبرينى بأنك تريدين الذهاب إلى الوطن. هل أنا مصيب؟"

أومأت: "نعم."

"هل لى أن أسأل لماذا؟"

"لا فائدة من وجودى هنا. ليس هناك ما يمكن أن أفعله لك ولا يمكن أن تفعله لنفسك بشكل أفضل. ومع ذهاب دلِّى..."

سلَّك حنجرته، وقاطعها: "وهل لى أن أسأل متى تعودين؟"

لم ترد، وهى تنظر فى صمت إلى حجرها.

"حسنًا؟"

"تستحقين من هو أفضل منى."

أشاحتْ بوجهها فجأة، بحيث لا ترى إلا جانبًا من وجهه.

قالت بسرعة: "يمكن أن تتزوج مرة أخرى. اتخذ زوجة أخرى. لن تعترض عائلتى."

رفع إصبعه ليسكتها.

قال بصوت رسمى بارد: "هل يمكن أن تخبرينى ما الخطأ الذى ارتكبته؟ هل أسأتُ معاملتك؟ هل أسأتُ التصرف؟"

تدفقت الدموع من عينيها، أعمتْها: "لا. أبداً. لم تكن إلا عطوفًا وصبوراً. ليس لديَّ ما أشكو منه."

قال متحدثًا إلى نفسه أكثر مما يتحدث إليها: "حلمتُ بالزواج الذى أريده. بالعيش مع امرأة ندٍّ، فى الروح والعقل: بدا ذلك لى أبدع ما يمكن أن تقدمه الحياة. نستكشف معًا عالم الأدب والفن: ماذا يمكن أن يكون أكثر ثراء من ذلك، أكثر إشباعًا؟ لكن ما حلمتُ به ليس ممكنًا بعد، ليس هنا فى الهند، ليس لنا." جرى بأصابعه على الخطاب الموضوع أمامه، نازعًا بتراخٍ ختم الشمع الثقيل.

"ستعودين للعيش مع أبويك، إذن؟"

"نعم."

ابتسم لها ابتسامته التهكمية الواهية: "قضيتِ وقتًا طيبًا. عليك أن تحزمى أشياءك بسرعة على أية حال."

انتبهتْ فجأة: "لماذا؟ عم تتحدث؟"

التقط الخطاب من فوق مكتبه ونقره بنظارته ذات الإطار الذهبى: "من السكرتير العام فى بومباى. وصل اليوم. توبيخ، إذا جاز التعبير. أيقظ حمل الأميرة معلمينا فجأة للجريمة المنكرة التى ارتكبت بحق هذه العائلة. لم يكن لكل الخطابات التى أرسلتُها وأرسلها من كانوا قبلى تأثيرٌ إطلاقًا. لكن رائحة اختلاط الأجناس نبهتهم كما لا يمكن لشىء آخر أن ينبههم: يمكنهم التسامح بشأن أشياء كثيرة، إلا هذا. يودون فصل أجناسهم بدقة. أثارت النظرة العامة للتعامل مع لقيط مختلط اهتياجًا بين مكاتبهم. ولابدَّ أن أكون كبش الفداء لعشرين عامًا من الإهمال. انتهتْ مهمتى هنا وعلىَّ أن أعود إلى بومباى."

وضع أنامله معًا وابتسم عبر المكتب بطريقته التهكمية الباهتة.

"كما قلتُ، اخترتِ الوقت المناسب للرحيل."

***

كان فى منزل مراكب رتناجيرى رمث واحد لم يُستخدَم إلا نادراً. زورق سباق بمجدافين، كان ذات يوم ملكًا لمستر جيب(٧)، أسطورة التجديف.

اعتاد الجابى أن يذهب إلى منزل المراكب مرتين أسبوعيًا. لم يمارس التجديف إلا قليلاً فى كمبريدج وكان يمكن أن يمارسه أكثر لولا انشغاله بالدراسة لامتحانات الخدمة المدنية. كان يستمتع بالتركيز التام فى الرياضة، الإحساس بالانطلاق بسرعة منظمة، بسرعة وبدون تسرع. بجانب ذلك، كان لديه اعتقاد دينى تقريبًا بأهمية ممارستها.

ذلك اليوم، والجابى يسير فى منزل المراكب، وقعت عيناه على زورق سباق مستر جيب. كثيراً ما تحدث الشوكيدار(٨) العجوز الذى يرعى منزل المراكب عن مستر جيب. كان ممثل الجامعة فى التجديف، وبحاراً ماهرًا بجانب ذلك. فى تاريخ نادى رتناجيرى كان الوحيد الذى عُرِف أنه أخذ الرمث النحيل الهش إلى البحر المفتوح وعاد ليحكى الحكاية.

عند رحيله وهب زورقه لمنزل المراكب. ومنذ ذلك الوقت تحول المركب إلى تذكار من نوع ما، وعاء مستر جيب للذخائر المقدسة. رُكِن فى أحد أطراف السقيفة ولم يُستخدَم أبداً. قال الجابى للشوكيدار: "ماذا عن هذا الزورق؟"

جاءت الإجابة: "ذلك مركب مستر جيب. فى هذا المركب اعتاد جيب صاحب أن يجدف إلى البحر."

"هل يصلح للاستخدام؟"

"نعم، صاحب. بالطبع." كان الشوكيدار مزهوًا بوظيفته ويعمل بجدية للحفاظ على مراكبه فى حالة جيدة.

"حسنًا، إذن. ربما أخرجه اليوم."

لهث الشوكيدار: "أنت، صاحب؟ لكن مستر جيب كان خبيرًا جدًا -"

كبح الجابى نبرته، قال ببرود: "أعتقد أنى أستطيع التعامل معه."

"لكن، صاحب -"

"من فضلك افعل ما أقول."

حُمِل المركب إلى الماء وصعد إليه الجابى والتقط المجدافين. جدف مرة عبر الخليج واستدار. شعر بانتعاش غريب. بدأت الهوة بين ذراعى الخليج تغريه.

مضتْ عدة أسابيع وهو يفكر فى تجريب مجرى البحر. شاهد صيادى السمك المحليين ينسلون خارج الخليج، وطبع فى ذهنه نقطة خروجهم، الطريق الذى قادوا رموثهم خلاله إلى البحر المفتوح.

ذات يوم، قال لنفسه، ذات يوم... يبدأ برحلة تجريبية قصيرة، يختبر المياه، إذا جاز التعبير. ذات يوم. لكن الآن لم تعد هناك أيام أخرى. الأسبوع القادم يكون فى بومباى فى مكتب بلا نوافذ، يتعامل مع النظام الضريبى المحلى.

لاحظ بالكاد انحراف الرمث عن مساره؛ مالت مقدمته إلى الغرب، إلى فتحة الخليج. كأن روح شخص آخر تحرك الزورق، مسئول راحل، كأنه يوجه نفسه.

شعر بطمأنينة غريبة، بسلام. كان من الأفضل دائمًا ترك هذه الأشياء لرجال مثل مستر جيب: كنت دائمًا فى أمان معهم، ترعى، تستعد.

لم يكن هناك مبرر للاستعجال فى العودة إلى المقر. لا أحد فى انتظاره. بدا البحر دافئًا وكريمًا وبدا أن الزورق يعرف طريقه.

عاليًا فوق الخليج، فى منزل أطرام، كان الملك فى طريقه إلى البلكونة ونظارة أبيه المذهبة فى إحدى يديه. رقد معظم الليل مؤرَّقًا واستيقظ مبكرًا حتى عن المعتاد. خلق رحيل دُلِّى حالة انزعاج فى المنزل. كان حسَّاسًا تجاه هذه الأشياء: تزعجه. لم يكن من السهل معالجة التغير بنجاح فى هذا العمر. وجد صعوبة فى النوم.

رفع النظارة إلى عينيه. لم يكن الضوء جيدًا. لم يخرج صيادو قرية كرلا من المصب بعد. ثم لمح الشكل النحيل الطويل لزورق سباق ينطلق عبر المياه المظلمة. كان الرماث يجدف بإيقاع قوى ثابت، يكاد يلمس ركبتيه بجبهته قبل أن يعتدل مرة أخرى.

دُهِش. مضتْ فترة طويلة منذ آخر مرة رأى هذا الزورق يتجه إلى البحر المفتوح- لم يتجه إليه منذ مستر جيب، منذ زمن بعيد، منذ أكثر من عشر سنوات. وحتى مستر جيب لم يجازف بالخروج إلى البحر أثناء الرياح الموسمية: لم يكن ليفكر فى ذلك، كان يعرف التيارات المتقاطعة التى تجرف الشاطئ أثناء الأمطار.

تفرج فى دهشة والرمث الانسيابى يندفع إلى الأمام فى اتجاه الخط الأبيض المزبد الذى يفصل المياه الهادئة فى الخليج عن المياه المتلاطمة فى البحر أثناء الرياح الموسمية. فجأة التوى المركب واندفعت مقدمته خارج المياه. رفع المجدِّف ذراعًا، وهنا سحبته الأمواج المنحسرة وقذفت به إلى أسفل، تحت السطح. وقف الملك فى صدمة. قبض على قضبان البلكونة، مال على الدرابزين. بدأ يصيح: "سوانت! سوانت!"

كان الوقت مبكرًا فى الصباح وجاء صوته ضعيفًا مبتسرًا. كان سوانت نائمًا فى غرفة البوابة فى سريره الضيق، وإحدى ذراعيه ملقاة على الأميرة الأولى كأنه يحميها.

"سوانت! سوانت!"

سمعت الملكة صيحاته. كانت أيضاً مستيقظة طوال الليل- تفكر فى دُلّى، تذكرتْ كيف جاءتْ إليها طفلة، كيف كانت الوحيدة فى القصر التى يمكن أن تهدئ الأميرة الثانية؛ كيف بقيتْ وتركها الآخرون.

"سوانت."

نزلتْ ببطء من السرير وذهبتْ لتعرف ماذا يريد الملك.

أشار الملك إلى بضع قطع صغيرة من الحطام، تنجرف عن بعد فى فم الخليج: "الجابى!"

نظرت نظرة طويلة بالمنظار المذهب.

"هل مات؟"

"أعتقد ذلك."

لولا ذلك الرجل، لكانت دُلّى لا تزال فى منزل أطرام: دُلّى، التى تبنتْها وربتها وأحبتها كواحدة من أطفالها. لكن رحلت دُلّى، وكان عليه أن يدفع الثمن. مالت على الدرابزين وبصقت فى الحديقة، احتفالاً بموت سجانها.

هوامش

(١) ذراع outrigger: ذراع تمتد من جانب السفينة لتحفظ السوارى، أو من السارى لتستخدم فى مد حبل أو سارٍ.

(٢) خمبتا: Khambatta.

(٣) جرَفلكس: Graflex. البلوز bellows: الجزء الجلدى المتمدد من الكاميرا. جلوب: Globe. مصراع الكاميرا shutter: جزء من الكاميرا، يوجد أمام العدسة للتحكم فى دخول الضوء.

(٤) حاسبة هورتر ودريفيلد لقياس شدة الإشعاع: Hurter and Driffield Actinograph Calculator. مصراع جيرى فلاب: Guery Flap-shutter.

(٥) اللطريط laterite: صخر أحمر مسامى.

(٦) راناد: Ranade.

(٧) جيب: Gibb.

(٨) الشوكيدار chowkidar: البواب، أو الحارس، أو عامل النظافة (هندى).

الجزء الثالث

شجرة الفلوس

(١٥)

كان مرفأ المسافرين فى شارع بار فى رنجون يثير بعض الفضول. بنى على شكل جناح عائم، نجارة دقيقة وسقف محدَّد، يشبه سقف كوخ فى جبال الألب. أمسك سايا جون بأحد أعمدته المنقوشة ومال على جانب المرفأ، يتفحص النهر بحثًا عن نوارة إليا[1]، السفينة البخارية التى يعود عليها رجكومار إلى رنجون مع دُلّى. لمح السفينة فى النهاية، بعيدة قرب فم خليج بزنْدُنْج، تقاوم التيارات القوية التى تمزق سطح النهر الأسمر بلون الطمى.

كان من المقرر أن يقيم رجكومار ودلّى فى البداية مع سايا جون، فى شقته الرحبة فى الدور الثانى فى ممر بلاكبرن - مجاملة لأن مجمع رجكومار فى كمندين بدائى جداً لا يصلح لسكن الاثنين معًا. أرسل سايا جون برقية إلى رجكومار يخبره إنه يرحب به هو ودلّى ليقيما فى ممر بلاكبرن حتى يشيد بيتًا يصلح للإقامة.

كان خليج بزندنج مدخلاً واسعًا يحدد الحدود الجنوبية للمدينة. يتركز كثير من ورش النجارة ومضارب الأرز فى رنجون على طول شاطئى هذا الممر المائى- ومنها شادر الخشب الذى كان المكان الرئيسى لأعمال رجكومار. ألقى رجكومار، وهو ينظر من مقدمة نوارة إليا، وهى تقترب من الخليج، نظرة خاطفة على كابينة خشب الساج المرتفعة التى يستخدمها مكتبًا. ثم انفتح ساحل رنجون كله أمامه: معبد بوتاتُنْج[2]، مبانى الاستراند الفخمة، والقمة الذهبية للشوى داجون عن بعد.

ابتعد رجكومار بنفاد صبر واتجه إلى كابينته. يحاول منذ الصباح تشجيع دُلّى على الخروج: يتوق لأن يفرجها على مشهد رنجون من النهر؛ يتوق أيضًا لمعرفة إن

كانت تتذكر شيئًا عن رحلة خروجها، منذ حوالى خمسة وعشرين عاماً. لكن فى آخر ثلاثة أيام، والسفينة تقترب من بورما، زادتْ عزلة دلَّى. فى ذلك الصباح رفضت الخروج إلى ظهر السفينة؛ قالت إنها مصابة بدوار البحر؛ يمكن أن تخرج بعد ذلك، حين تشعر بتحسن؛ كانت لا تريد إلا أن تستريح وتستجمع قواها.

لكن لم يعد هناك وقت إطلاقًا. يصلون المرفأ فى دقائق. اندفع رجكومار إلى الكابينة، جاء صوته متدفقًا ومرتفعًا: "دلَّى - نحن فى الوطن. تعالى - اخرجى..." حين لم ترد، توقف. كانت تجلس على السرير، وجبهتها على ركبتيها، ترتدى هتامين من الحرير الأحمر أعدَّ لهذه المناسبة.

لمس كتفها فوجدها ترتجف: "ما المسألة، دلَّى؟ ماذا حدث؟"

أبعدتْ يده: "لا شىء. أنا بخير. آتى فيما بعد؛ اتركنى فقط أجلس هنا حتى ينزل الجميع من السفينة."

كان يفضِّل ألا يلقى الضوء على مخاوفها. قال: "حسنًا، أعود إليك بعد عشرين دقيقة."

"نعم. سأكون جاهزة حينها."

بقيتْ دلَّى على حالها، ورأسها يستريح على ركبتيها، تحاول أن تهدئ من روعها. شعرتْ بصدمة حين رست السفينة البخارية، ثم سمعتْ أصوات الشيالين والحمالين تدوى فى جوانب السفينة. كانت الأنماط المترقرقة للضوء المتلألئ تتراقص على السقف، مضيئة فى الداخل من كوة، بعيدة عن سطح النهر المظلم المستطيل. فى لحظة، فُتِح باب الكابينة وأصدر صريراً. سمعت صوت رجكومار: "دلَّى..."

تطلعت لترى رجكومار يدخل شخصًا إلى الكابينة: رجلاً ضئيل الجسم، مهيبًا، يشبه البومة، يرتدى بدلة رمادية وقبعة من اللباد. خلع الرجل قبعته وابتسم ابتسامة عريضة حتى اختفت عيناه تقريبًا فى تجاعيد وجهه المخطط بعمق. عرفتْ أنه سايا

جون، صارت أكثر توجُّسًا مما كانت فى أى وقت. أكثر لقاء أفزعها: تحدث رجكومار عن معلمه بإسهاب شديد حتى صار سايا جون بمثابة حما فى ذهنها، يُهاب ويُستعطَف، أو يُقاوَم ويُحارَب – لم تكن لديها فكرة عن الطريقة التى قد تجرى بها الأمور بينهما. وهى تواجهه شخصيًا، وجدتْ نفسها تثنى ذراعيها معًا على الطريقة الهندية، بلا وعى، بحكم قوة العادة الطويلة.

ضحك ودخل الكابينة بسرعة. خاطبها بالبورمية، قال: "انظرى، معى شىء لك." لاحظت أن لهجته غريبة تمامًا.

وضع يده فى جيبه وأخرج سوارًا ذهبيًا مزخرفًا بالتثقيب وملفوفًا فى منديل. أمسك رسغها، ووضع السوار على مفاصل أصابعها. قال: "كان لزوجتى. ادخرْتُه لك."

لفت السوار حول رسغها. وَمَضَت الأسطح الذهبية المصقولة فى الضوء المنقط الذى يمر من الكوى. وضع ذراعه حولها، وتحت ضغط يده شعرت بهواجسها تتبخر. نظرتْ إليه بخجل وابتسمتْ: "جميل، سايا. سأحتفظ به."

رأى رجكومار، وهو ينظر من المدخل، الضباب الذى تكاثف حولها آخر بضعة أيام ينقشع. قال بسرعة: "تعالى. لنذهب. الجارى تنتظر."

فى الطريق إلى ممر بلاكبرن، فى العربة، وضع سايا جون يده فى جيبه مرة أخرى: "معى شىء لكَ أيضًا، رجكومار." أخرج شيئًا كرويًا صغيرًا، ملفوفًا فى منديل أيضًا. أعطاه لرجكومار بحرص.

حين فكَّ رجومار المنديل، وجد فى يده كرة إسفنجية من خيوط رمادية فاتحة تلتف حول بعضها، مثل الصوف. رفع الكرة إلى وجهه، مجعِّدًا أنفه من رائحة غريبة: "ما هذا؟"

"مطاط." استخدم سايا جون الكلمة الإنجليزية.

"مطاط؟" عرف رجكومار الكلمة لكنه لم يدرك ما تشير إليه إلا بشكل غامض. أعطى الكرة لدلِّى فاستنشقتْها، وتراجعتْ: رائحتها إنسانية أكثر مما هى نباتية، رائحة إفراز الجسد، العرق.

"من أين حصلت عليها، سايا؟" قال رجكومار فى حيرة.

"فى بلدتى الأصلية– مَلَقَا."

سافر سايا جون كثيراً ورجكومار فى الهند: مضى إلى الشرق إلى الملايو، زار أصدقاءه وألقى نظرة على أقارب زوجته. توقف فى مَلَقَا ليزور قبر زوجته. لم يذهب إلى هناك منذ سنوات، ولاح على الفور أن هناك أشياء تغيرت تغيراً جوهرياً، وظهرت أشياء جديدة. لسنوات كانت ملقا، بقدر ما يتذكر، بلدة تحتضر ببطء، يغمر ميناءها الطمىُ ويرحل تجارها، شمالاً إلى بِنَنْج[٣] أو جنوبًا إلى سنغافورة. تغيرت ملقا فجأة؛ دبَّ نشاط ملحوظ فى العروق الموحلة للمدينة العجوز النائمة. ذات يوم أخذه أحد الأصدقاء إلى ضواحى البلدة، إلى مكان تذكره جون مارتينز من طفولته، منطقة كانت ذات يوم موطنًا لعشرات من حدائق التوابل حيث تنمو نباتات الفلفل بين الكروم. لكن أشجار الكروم اقتلعت كلها، وحلت مكانها صفوف طويلة مستقيمة من شتلات جميلة بجذوع رفيعة.

نظر سايا جون بصعوبة إلى الأشجار ولم يعرف اسمها: "ما هذه"

"مطاط."

قبل ذلك بتسع سنوات، حوَّل مستر تان شاى يان، سليل أسرة صينية بِرَناكية[٤] شهيرة من ملقا، حدائقه المزروعة بالفلفل إلى مزرعة مطاط. فى ١٨٩٧ بدا ذلك عملاً جنونيًا. حذر الجميعُ منه: كان من المعروف أن المطاط خطر. حاول مستر ريدلى[٥]، أمين الحدائق النباتية فى سنغافورة، لسنوات حث المزارعين البريطانيين على محاولة

زراعة المطاط. أنفقت السلطات البريطانية في لندن ثروة لنهب مخزون البذور من البرازيل. لكن مستر ريدلي نفسه أول من اعترف بأن الأمر قد يستغرق ما يقرب من عشر سنوات لتثمر مزرعة مطاط. تراجع المزارعون الأوروبيون في الملايو حين علموا بذلك. لكن مستر تان شاي يان لم يتراجع ونجح في استحلاب المطاط من أشجاره في ثلاث سنوات فقط. واتبع الجميع حتى أجبن المؤسسات البريطانية، رائدهم، وزرعوا المطاط؛ تدفقت الفلوس على المدينة. وأرسلت شركة ب. ف. جودريتش مندوبين على طول الطريق من أكرون(٦) وأوهايو، لتشجيع مزارعي الملايو على زراعة المحصول الجديد. كان المطاط مادة العصر القادم؛ ما كان الجيل التالي من الآلات ليعمل بدون ماصة الاحتكاك التي لا غنى عنها. أحدث السيارات بها عشرات الأجزاء المطاطية؛ أسواق بلا قاع، وأرباح تفوق الخيال.

استعلم سايا جون، سأل بعض المطلعين عما تحتاجه زراعة المطاط. جاءت الإجابة مختصرة دائمًا: الأرض والعمال أكثر ما يحتاج إليه المزارع؛ الحصول على البذور والشتلات سهل. ومن الحاجتين الأساسيتين، كان الحصول على العمال أسهل: وكان هناك نقص في العمال. تطلعت حكومة المستعمرات البريطانية إلى الهند لمدها بشيالين وعمال للمزارع.

بدأت تداعب سايا جون فكرة شراء أرض لماثيو، ابنه. اكتشف بسرعة أن أسعار الأرض حول ملقا ارتفعت بحدة؛ نُصِح بالسفر إلى الشمال، باتجاه حدود سيام. بدأ غير مقتنع تمامًا. كان يعرف أنه أكبر من أن يبدأ مشروعًا جديدًا كبيرًا؛ لكن يمكن الاعتماد على رجكومار- يعرف كيف يؤسس قوة عاملة - وبالطبع هناك ماثيو دائمًا، مع أنه بعيد في أمريكا منذ سنوات طويلة. لا أحد يعرف ما يفعل ماثيو هناك؛ آخر ما سمعه أن الولد سافر شرقًا، إلى نيويورك. وصل خطاب منذ فترة؛ قال شيئًا ما عن البحث عن وظيفة - لا شيء إطلاقًا عن العودة إلى الوطن. ربما هذا ما يحتاج إليه

ليعيد الولد إلى الوطن: مشروع جديد ضخم يكرس له نفسه: شيء ملكه؛ شيء يمكن أن يكبر. رأى نفسه عجوزاً يعيش مع ماثيو - يجب أن تكون للولد أسرة، أطفال؛ يعيشون معًا في مكان هادئ، تحيط بهم الأشجار والخضرة.

وهذه الأفكار لا تزال تتشكل لمح مكانًا مناسبًا من على ظهر معدية: منحدراً على جبل يواجه الجنوب، بركانًا خاملاً انبثق من السهل مثل رأس وحش خيالي. كان مكانًا قفراً، دغلاً؛ لكنه في الوقت نفسه، على مسافة قصيرة من جزيرة بِنَنْج وميناء بتروورث(٧).

قال سايا جون لرجكومار: "لديَّ أرض هناك الآن، في انتظار عودة ماثيو."

لم يكن رجكومار، المتزوج حديثًا والمتلهف على ملذات الحياة المنزلية، على استعداد للتعامل مع معلمه بجدية: "لكن، سايا، ماذا يعرف ماثيو عن المطاط أو المزارع؟"

"لا يهم. سوف يعرف. وبالطبع، ستكون معه لتساعده. سنكون شركاء، ثلاثتنا: أنت وأنا وماثيو."

هزَّ رجكومار كتفيه: "سايا، حتى أنا معرفتي بهذا الشيء أقل من معرفة ماثيو. مهنتي الخشب."

"الخشب شيء من الماضي، رجكومار: تطلعْ إلى المستقبل - وإذا جاز القول إن الفلوس تنمو على شجرة، فهي، إذن، المطاط."

شعر رجكومار بيد دُلِّي تضغط على يده في بحث قلق. وكزها وكزة طمأنة كأنه يقول: مجرد نزوة من نزوات رجل عجوز؛ لا داعي للقلق.

***

عادتْ أوما، بعد ترملها مباشرة، إلى لَنْكاسوكا، منزل والديها فى كلكتا. كانتْ أسرة صغيرة: لها أخ واحد، أصغر منها بكثير. لم يكن منزلاً فخمًا إلا أنه كان رحبًا ومريحًا: يتكون من دورين، فى كل منهما بلكونة نصف دائرية. كانت الغرف جيدة التهوية ومنيرة، بسقوف عالية وأرضيات حجرية تبقى باردة حتى فى أشد مواسم الصيف حرارة.

لكن لم تكن عودة أوما إلى الوطن سعيدة. كان أبوها أثريًا وعالمًا: لم يكن من الذين يتمسكون بكل الطقوس التقليدية للترمل الهندوسى، لكنه لم يكن مستنيراً بحيث لا يتأثر تمامًا بانتقادات جيرانه. شعر فى أعماقه أنه فعل كل ما يستطيع ليخفف قسوة موقف ابنته. لكن كانت حياة أوما، كأرملة تعيش فى البيت، لا تزال تخضع للقيود الصارمة والحرمان: حُلِق شعرها؛ لا يمكن أن تأكل لحمًا أو سمكًا؛ ولا يُسمَح لها إلا بارتداء الملابس البيضاء. كانت فى الثامنة والعشرين وحياتها لا تزال أمامها. والشهور تزحف، تبين أنه لابد من التفكير فى حل آخر.

كانت أوما امرأة لها مواردها المستقلة، دخل من معاش كبير جداً. شغل الجابى فى حياته إحدى أكثر الوظائف دخلاً فى الإمبراطورية، وعند موته تبين أنه قام بالكثير من الاستثمارات الذكية، منها عدد باسم أوما. مع دخل مضمون وبدون أطفال تراعهم، لا شىء يقيدها فى الوطن وتدفعها كل الأسباب للرحيل. حُسِم الأمر حين تسلمت خطابًا من دلّى، تدعوها فيه لزيارة رنجون. وكان واضحًا أن مغادرة الوطن أفضل حل.

أثناء الرحلة، غطّتْ أوما رأسها بشال لتخبئ رأسها الحليق. قابلتها دلّى مع رجكومار عند مرفأ شارع بار، وحين نزلت مزّقتْ دلّى شالها.

قالت: "لماذا تخبئين وجهك؟ أعتقد أنك تبدين جميلة على هذا النحو."

اصطحب رجكومار ودلّى أوما مباشرة إلى البيت الجديد فى كمندين: انتقلا إليه حديثًا وكان لا يزال تحت التشييد. ولأن المنزل أنشئ بسرعة كبيرة فقد جاء بناء

عشوائيًا من طراز قديم - دورين من الغرف المتصلة تجتمع حول فناء مربع. الأرضيات من الحجارة الحمراء المصقولة، ويمتلئ الفناء ببلكونات تشبه الدهاليز. والدرابزين من الحديد الرفيع المشغول. ويطول جدران المجمع عدد من الغرف الخارجية الصغيرة. يقيم فيها الحراس والجنايني والمستخدَمون الآخرون الذين يعملون فى المنزل.

كانت رنجون مدينة غريبة تقريبًا بالنسبة لدُلّى بقدر ما كانت غريبة بالنسبة لأوما، بدأتا استكشافها معًا: تسلقتا درجات معبد شوى داجون؛ زارتا عم أوما فى *الكالا بستى*، *الحى الهندى*؛ وشاهدتا سباقات *الأفراس* فى حلبة سباق *كايكاسان*؛ سارتا فى الشوارع الضيقة فى سارِيام[٨]، عبر النهر؛ تنزهتا حول البحيرات الملكية وتفسحتا حول المعسكرات. ذهبتا إلى كل مكان، كانت دُلّى تُغازَل، تُطلب، تحاصرها جيوش من المعارف، سُئلتْ أسئلة لا تنتهى عن الملك والملكة وحياتهما خارج الوطن. كان الموضوع يحظى باهتمام عام فى بورما، وكانت دُلّى شخصية شهيرة لأنها شاركت *العائلة الملكية* فى المنفى.

مرَّ وقت أوما بسعادة بالغة. وكثيرًا ما تُدعى مع دُلّى وكان هناك ما تفعله دائمًا. ويمرور الأسابيع تنامى لديها إدراك أكثر إيلامًا بالمسافة بين سعادة دُلّى الغامرة وظروفها الخاصة. فى *الماضى*، تساءلتْ أوما كثيرًا حول زواج دُلّى: هل تزوجتْ رجكومار لتهرب من سجن منزل أطرام؟ أم وقعتْ فى الحب- ليس إلا؟ رأتْ أوما، وهى تشاهدهما معًا، أن السببين لا ينفى أحدهما الآخر: لعب كلٌ من الحافزين دورًا فى خلق كلٍّ مكتمل، مثل تطابق القطع المشوهة فى لغز. ورأت أيضًا أنه اكتمال لم تعرفه أبدًا؛ افتخرتْ دائمًا بمعرفة آرائها فى كل شىء، ربما لا تعرف أبدًا، لأنها لا تنوى أبدًا أن تذعن لحظة فى طريق دُلّى.

بدا أن دُلّى ورجكومار لا يعرف كل منهما شيئًا عما يحبه الآخر ويكرهه، عما يفضله وعن عاداته، إلا أن المعجزة أن عدم الفهم المتبادل - رأت أوما ذلك بوضوح - أدى إلى تقوية الارتباط بدل إضعافه. بينها وبين الجابى، من ناحية أخرى، حكمتْ كلٌّ

شيء قواعدُ ومعانٍ محددةٌ بوضوح. وحين يطرح سؤال عما يحبه أو يريده أي منهما، كان لا يستطيعان إلا إحالته للعرف والإتيكيت. وهي تفكر في الماضي، رأت أنها تشبه الجابي بأكثر مما اعترفت في أي وقت؛ هي أيضًا مخلوقة القواعد والمنهج والإصرار العنيد، وهي في هذا لا تشبه دلّي إطلاقًا.

بمرور الأيام، أدركت الأسى المتراكم، وهو أقوى شعور عرفته. في ضوء الإدراك المتأخر، أدركت أن الكلمات التي استخدمها الناس دائمًا لوصف الجابي – رجل طيب – صحيحة؛ كان رجلاً طيباً حقًا، رجلاً أمينًا – رجلاً عظيم الذكاء والقدرة تصادف أنه ولد في بيئة لا تستطيع تقديم المسار المناسب لإشباع مواهبه. استحوذ على قوة هائلة كجابي مقاطعة، إلا أن المنصب، للمفارقة، لم يقدم له إلا القلق والشك؛ تذكرت الطريقة العصبية التهكمية التي لعب بها دور الجابي؛ تذكرت كيف كان يشرف على المائدة، الدقة التي لا تُحتمَل في إشرافه، الجهد الذي استثمره في قولبتها بالصورة التي يطمح أن يكون عليها هو نفسه. بدا أنه لم تمر لحظة أبدًا لم يكن فيها فريسة الخوف من ألا يفكر فيه زملاؤه البريطانيون. إلا أنه بدا أن هناك اتفاقًا عامًّا على أنه من أنجح الهنود في جيله، نموذج لرجال بلده. هل يعني هذا أن الهند كلها ستصبح ذات يوم ظلاً لما كان عليه؟ يحاول ملايين الناس أن يعيشوا حياتهم بشكل ينسجم مع قواعد غير مفهومة؟ الأفضل أن تكون مثل دلّي: امرأة ليستْ لديها أوهام عن طبيعة حالتها؛ سجينة عرفتْ حقيقة أبعاد قفصها وسعتْ للقناعة في هذه الحدود. لكنها لم تكن دلّي ولا يمكن أن تكون أبدًا؛ جزء منها بشكل لا مفر منه من خَلْق الجابي، وإذا كان الحداد على هذا التشوه لا يقدم شيئًا، فمن واجبها أن توجه قدراتها للبحث عن علاج.

ذات يوم، قال لها رجكومار: "ندين لك بكلِّ ما نحن فيه. إذا احتجْتِ شيئًا نودُّ أن نكون أول من تطلبينه منه."

ابتسمتْ: "أي شيء؟"

"نعم، بالطبع."

أخذتْ نفساً عميقاً: "حسناً إذن، أطلب حجز رحلة إلى أوروبا..."

***

وسفينة أوما تشق طريقها باتجاه الغرب، انهمر سيل من الرسائل والكروت البريدية، غمر باب دُلّي في كمندين. من كولومبو صورة للبحر عند جبل لافينيا(٩)، مع رسالة عن مقابلة أوما لصديقة للعائلة على سفينتها، مسز كدمباري دوت - من عائلة هتخولا دوت الشهيرة في كلكتا، ابنة عم تورو دوت، الشاعرة، وقريبة المرموق مستر رومش دوت(١٠)، الكاتب والعالم. كانت مسز دوت أكبر منها بكثير وقد عاشت فترة في إنجلترا؛ ذات خبرة كبيرة ومطلعة على الأمور - شخصية من الرائع أن تكون معك على السفينة، مبعوثة الربِّ حقاً. استمتعا معاً.

من عدن كارت بريدي مع صورة لممر ضيق يتدفق بين أخدودين هائلين. كتبتْ أوما إنها ابتهجت باكتشاف هذا الممر المائي- الذي يربط المحيط الهندي والبحر الأحمر - ويعرف بالعربية باسم باب المندب، "مدخل النواح." هل يمكن أن يتم اختيار اسم أفضل؟

من الإسكندرية صورة لحصن، مع ملاحظات ظريفة عن زيادة ودِّ الأوروبيين على السفينة بمجرد عبور قناة السويس. اندهشتْ أوما، لكن مسز دوت قالت إن الأمر بهذه الصورة دائماً: في هواء البحر المتوسط شيء يحول حتى أبشع الاستعماريين إلى ديموقراطيين دمثين.

من مرسيليا، أرسلتْ أوما أول خطاباتها الطويلة: قرَّرتْ هي وصديقتها التي وجدتها حديثاً، مسز دوت، قضاء بضعة أيام في هذه المدينة. ارتدت مسز دوت جيبة

أوروبية قبل النزول إلى الشاطئ؛ عرضتْ على أوما أن تسلفها واحدة، لكنها شعرتْ بالحرج ورفضت؛ نزلت من السفينة بالسارى. لم يبتعدا كثيراً حتى اعتُبِرتْ كمبودية - من بين كل الأجناس؛ اجتمع عشرات الناس حولها، يسألونها إن كانت راقصة. وتبين أن سيسوث[11] ملك كمبوديا زار المدينة مؤخَّراً، مع مجموعة راقصات من قصره. وحققت الراقصات نجاحًا كبيراً؛ جُنَّت المدينة كلها بهن؛ جاء النحات العظيم مستر رودين[12] من باريس ليرسم صورهن. تمنت أوما ألا تحبط الجميع بتوضيح أنها هندية لا كمبودية.

قضتا، هى ومسز دوت، وقتًا مدهشًا؛ تجولتا فى البلدة وتفرجتا على معالم المدينة وغامرتا بالذهاب إلى الريف. أمر غريب ومتهوِّر ومنعش - تسافر امرأتان وحديهما، بدون تحرش، لا تتعرضان إلا لنظرة فضولية عارضة. تساءلت لماذا يستحيل أن تفعل الشيء نفسه فى وطنها- لماذا لا تفكر النساء فى الهند فى السفر على هذا النحو، مبتهجات بهذا المعنى للحرية. إلا أن هذا التفكير، فى أن القدرة على الاستمتاع بهذا المعنى للحرية مزية، كان مزعجاً. وقد صار، بشكل عارض، ممكنًا فقط نتيجة ظروف زواجها ولأن معها فلوساً للسفر. تحدثتْ عن هذا بإسهاب مع كدمبارى- مسز دوت: لماذا لا تتوافر هذه الحريات عمومًا للنساء فى كل مكان؟ قالت مسز دوت إن هذه بالطبع كبرى فوائد الحكم البريطانى فى الهند؛ منح النساء حقوق حماية لم يحظين بها أبداً من قبل. هنا، شعرت أوما، للمرة الأولى أنها لا تتعاطف إطلاقًا مع صديقتها الجديدة. عرفت غريزياً أنها مناقشة زائفة، بلا أساس وغير منطقية. كيف يمكن تخيل أن يحظى المرء بالحرية باستعباد بارز؟ أن يفتح المرء قفصاً بالاندفاع داخل قفص أكبر؟ كيف يأمل قطاع من الشعب فى تحقيق الحرية وكل الجماهير خاضعة؟ تناقشت طويلاً مع مسز دوت، وفى النهاية نجحتْ فى إقناع صديقتها بصواب رأيها. شعرتْ أنها حققت انتصاراً عظيماً - لأن مسز دوت بالطبع أكبر منها بكثير (وعلى قدر أفضل بكثير من التعليم)، وحتى ذلك الوقت كانت تعلَّمُ أوما كيف تفكر فى الأمور.

كانت دلّى فى السرير وهى تقرأ هذا الخطاب. تشرب مزيجًا لاذعًا وصفته داية، وتحاول أن تستريح. قبل أسابيع شكَّتْ فى أنها حامل وتأكد حدسها مؤخَّرًا. ونتيجة لذلك وُضِعتْ على رجيم تطلَّب أنواعًا كثيرة من المشروبات الطبية وكثيراً من الراحة. لكن الحصول على الراحة لم يكن سهلاً فى منزل مشغول يعجُّ بالفوضى مثل منزلها. حتى وهى تقرأ خطاب أوما، حدثتْ مقاطعات كثيرة - مع الطباخ ويو با كيو ودخول ريس عمال البناء يسأل عن تعليمات. بين محاولة التفكير فيما يجب إعداده للعشاء والفلوس التى يحتاجها يو با كيو مقدَّمًا فى زيارته التالية للوطن، حاولت التفكير فى أوما، مبتهجة بحرية القدرة على الخروج وحدها، فى أوروبا. فهمتْ بالحدس لماذا استمتعتْ أوما، مع أنها لم تهتم بذلك إطلاقًا. بدا أن عقلها لا يتسع إلا للزحام الأجوف فى حياتها اليومية. فوجئتْ بأنها لم تفكر إلا نادراً فى مسائل من قبيل الحرية أو التحرر أو ما شابه ذلك.

حين أمسكت بقلم لترد على أوما، لم تستطع التفكير فيما تقول؛ فى حياتها شيء عن قناعتها اليومية يتعذر التعبير عنه. قد تحاول، مثلاً، أن تكتب عن توقف صديقتها دو ثى[١٣] عندها يوم الأربعاء الماضى وذهابهما للفرجة على الأثاث الجديد عند روى وكو؛ أو قد تصف زيارتها الأخيرة لحلبة سباق كايكاسان وفوز رجكومار بحوالى ألف روبية وتنكيته حول شراء فرس. لكن لم يبد شيئًا من هذا جديراً بوضعه على الورق- من المؤكد ليس رداً على الاهتمامات التى عبَّرتْ عنها أوما. أو قد تكتب عن حملها، عن سعادة رجكومار، عن كيف بدأ فوراً يفكر فى الأسماء (سيكون الطفل ولداً، بالطبع). لكنها كانت مؤمنة بالخرافات المتعلقة بهذه الأشياء: لمَّا تخبر هى أو رجكومار الناس بعد ولن يفعلا هذا إلا حين يكون تجنب ذلك مستحيلاً. ولم تشأ أن تكتب لأوما عن هذا الموضوع: يبدو كأنها تتباهى بحياتها العائلية فى وجه صديقتها؛ مؤكدة على عدم إنجابها.

مضى شهران بدون اتصال آخر من أوما. وبمرور الأيام، قلّتْ قدرةُ دلّي على النوم. كانت آلام البطن المبرحة تجعلها تنثني على السرير فى الليل. انتقلت إلى غرفة خاصة حتى لا تزعج رجكومار. قالت لها الداية إن كل شىء يسير بشكل طبيعى، لكن دلّي لم تقتنع: ازداد يقينها بوجود مشكلة. وذات ليلة، فى وقت متأخر، تحولت الآلام المألوفة إلى تشنجات تهز النصف السفلى من جسمها كله. أدركت أنها أجهضتْ وصاحتْ على رجكومار. أيقظ كل من فى البيت وأرسل أناسًا فى كل اتجاه – ليأتوا بأطباء وممرضات ودايات. لكن كان الوقت متأخرًا جداً، وكان رجكومار وحده مع دلّي حين قُذِف الجنين الميت من بطنها.

***

ودلّي تتماثل للشفاء وصل الخطاب التالى من أوما. كان على الخطاب عنوان فى لندن واستُهِل بكثير من الاعتذار وتأنيب ضمنى. كتبتْ أوما إنها تحزن حين تفكر فى أنهما تركتا شهوراً كثيرة تمرُّ بدون تبادل الخطابات. قالتْ إنها مشغولة جداً فى لندن. ساعدتْها مسز دوت فى الحصول على سكن- كضيفة بمقابل لمبشرة عجوز قضتْ معظم حياتها فى الهند. كان ترتيبًا رائعًا ولم تعدْ أوما تفتقر إلى صُحْبة. بعد وصولها بقليل، بحث الناس عنها وعثروا عليها: فى الأساس أصدقاء وزملاء سابقون للجابى، معظمهم إنجليز. عرف بعضهم زوجها الراحل فى كمبريدج، وعمل آخرون معه فى الهند. كانوا جميعًا عطوفين جداً، فرجوها على المدينة، أخذوها إلى أحداث من نوع ما، كان الجابى يحب حضورها- حفلات موسيقية ومسرحيات ومحاضرات فى الأكاديمية الملكية. بعد فترة، شعرتْ أوما كأن الجابى معها من جديد؛ سمعتْ صوته يصف ممر دورى أو حديقة كوفنت[١٤]، مشيراً إلى السمات البارزة؛ يخبرها عما هو طيب المذاق وما هو ردىء المذاق.

لحسن الحظ، حافظت أيضًا على ارتباطها بصديقة السفينة، مسز دوت. تبين أن مسز دوت تعرف كل الهنود المقيمين فى لندن، أو معظمهم. من خلالها التقت بكثير من الشخصيات المهمة، من أبرزهم سيدة اسمها مدام كاما[١٥]، بارسية من بومباى. بدتْ مدام كاما، من النظرة الأولى، أوروبية أكثر مما هى هندية - فى الملابس والسلوك والمظهر. إلا أن أوما لم تعرف أبدًا أحدًا تكلم بطريقة أكثر صدقًا أو صراحة عن مسائل تخصُّ الهند. كانت عطوفة بما يكفى لأن تُدخِل أوما فى دائرتها. لم تقابلْ أوما أبدًا أناسًا بهذا الشكل - ممتعين ومثاليين، رجالاً ونساء، تشبه أشكالُهم وعواطفُهم شكلَها وعواطفَها. من خلال هؤلاء الناس فهمتْ أوما أن على امرأة مثلها أن تساهم بقدر كبير فى صراع الهند من عبر البحار.

فيما بعد شجَّعتْ مدام كاما أوما على زيارة الولايات المتحدة. كان لها أصدقاء أيرلنديون فى نيويورك، قالت إن كثيرًا منهم متعاطفون مع قضية الهند. اعتقدتْ أن مقابلة هؤلاء الناس مهمة لأوما وشعرتْ بأنها قد تحب الحياة فى تلك المدينة. فكرت أوما فى المسألة بجدية تامة، متأكدة على كل مستوى من أنها لن تبقى فترة طويلة فى إنجلترا. فى لندن سيطرت عليها فكرة أن المدينة كلها تتآمر لتذكرها بزوجها الراحل.

تركت دلِّى الخطاب، وقد أنهكتها قراءته، على الطاولة المجاورة للسرير. فيما بعد، حين عاد رجكومار إلى البيت، رآه والتقطه.

"من أوما؟"

"نعم."

"ماذا تقول؟"

"اقرأه."

فتح رجكومار الصفحة وقرأ الخطاب كله ببطء، متتبعًا خط أوما، الذى تصعب قراءته، بسبابته، طالبًا مساعدة دلِّى فى الكلمات التى لم يستطع تتبعها. فى النهاية، طوى الصفحات وأعادها على الطاولة المجاورة لسريرها.

"تتحدث عن الذهاب إلى نيويورك."

"نعم."

"هناك ماثيو."

"نعم. نسيتُ."

"ارسلى لها عنوانه. إذا ذهبتْ إلى هناك، يمكن أن يساعدها ماثيو على الإقامة فيها."

"صحيح."

"وإذا كتبْتِ إليها يمكن أيضًا أن تخبريها بأن سايا جون قلق على ماثيو. كتب إلى ماثيو ليعود إلى الوطن– لكنه لم يرد. ساياجاى لا يفهم لماذا لم يرجع. ربما تحلّ أوما اللغز."

أومأتْ دلِّى. قالت: "حسنًا. يقدم لى ذلك شيئًا أكتب عنه." قضتْ أسبوعًا فى تأليف الخطاب، تكتب مقطعًا فى كل مرة. لم تذكر شيئًا عن حالتها. ولم تقل شيئًا عن حملها، بدت الإشارة إلى إجهاض غير مناسبة. كتبتْ أساسًا عن سايا جون ورجكومار وأرسلت الخطاب إلى عنوان أوما فى لندن.

حين وصل الرد إلى دلِّى، كانت أوما قد عبرت الأطلنطى؛ كانت فى نيويورك منذ عدة أسابيع. مرة أخرى كانت شديدة الأسف لأنها لم تكتب قبل ذلك – هناك الكثير

مما يمكن أن تكتب عنه حتى أنها لم تعرف من أين تبدأ. أثبتتْ نيويورك أنها كل ما تمنتْ، ملاذ لواحدة مثلها، إلا أن الحماية التى تقدمها ليست سلاماً وهدوءاً بل العكس. مكان قد يفقد فيه المرء نفسه تحت ضغط الناس. قررت أن تبقى هناك فى ذلك الوقت: حتى وهى فى الطريق إليها، عرفتْ أنها مكان يناسب مزاجها لأن كثيراً من المسافرين أناسٌ أرهقتهم قسوة مظاهر الكذب فى أوروبا، مثلها بالضبط.

لكن كان لديها أيضًا شىء مهمٌّ، الكتابة عن الموضوع الخاص الذى كتبت دُلّى لها عنه. قابلتْ ماثيو مارتينز فور وصولها إلى أمريكا؛ التقت به فى إرسالية راماكريشنا[١٦] فى منهاتن، حيث تقيم مؤقتًا. لم يكن إطلاقًا كما توقعتْ؛ لا يشبه أباه. جسمه رياضى، وسيم جداً، سلوكه متمدن إلى أقصى حد. اكتشفتْ بسرعة شغفه القوى بالسيارات؛ السير معه فى الشوارع تثقيف لأنه يشير هنا وهناك ويعلن، مثل ساحر: "هذه ماركة جديدة هوتون ١٩٠٨" أو "تلك جاجنو[١٧]..."

وبسرعة انكشف "لغز" معارضته لمغادرة نيويورك. تبين أن له خطيبة أمريكية، اسمها إلسا هوفمان[١٨]. قدمها لإلسا، واعتقدتْ أوما أنها امرأة لطيفة جداً: سلوكها رائع جداً، بالطريقة الأمريكية، وجميلة أيضًا، وجهها رقيق يشبه القلب وشعرها أسود طويل. نشأت بينهما، هى وإلسا، صداقة بسرعة، وذات يوم أفضت لها إلسا بأنها مخطوبة سراً لماثيو. لم تُخبر أسرتها لأنها تعرف أنهم سيرفضون ويخشون أن يأخذها بعيداً. وماثيو نفسه غير متأكد من موقف أبيه - إلسا غريبة وبروتستانتية أيضًا. شعرت أوما أن هذا ما يمنعه من العودة. إذا كتب سايا جون لماثيو يخبره بأنه ليس لديه ما يخشاه بهذا الشأن، فمن المحتمل جداً أن يغيِّر رأيه بشأن البقاء فى أمريكا...

وصل الخطاب إلى دُلّى وقد تعافتْ تمامًا. ابتهجتْ كثيراً بتقرير أوما فقررت الذهاب فوراً إلى رجكومار فى شادر الخشب لتطلعه على الأخبار. أخذتها جارى مستأجرة مسرعة فى الطرق المغبرة فى كمندين، مثل طرق القرى، إلى الحصباء السوداء فى الاستراند، حيث تقف سفن الشحن راسية بطول أرصفة الميناء، بجوار

معبد بوتاتْنْج، ببركه المليئة بالأسماك الذهبية، عبر تقاطع خطوط السكك الحديد إلى الممرات الضيقة فى برُنْدُنج إلى مجمع محاط بالأسوار، يحدد بداية شادر رجكومار. كان مكدَّسًا بالزنود، وفريق الأفيال يعمل بجدٍ. لمحتْ دلِّى رجكومار يقف فى ظل كابينة خشبية مرتفعة، مكتبه. يرتدى لُنْجيًا وصدرة، ويدخن شيروتًا، وقد امتلأ رأسه ووجهه بنشارة الخشب.

"دلِّى!" فَزِع حين رآها فى الشادر.

لوَّحتْ له بالخطاب: "عندى أخبار."

صعدا السلم إلى مكتب رجكومار. وقفتْ على رأسه وهو يقرأ خطاب أوما، وحين وصل إلى النهاية، قالت: "ما رأيك، رجكومار؟ هل تعتقد أن يرفض ساياجاى- لأن خطيبة ماثيو ليست كاثوليكية، وكل ذلك؟"

انفجر رجكومار فى الضحك. قال: "ساياجاى ليس مبشِّرًا. يحتفظ بدينه لنفسه. طوال السنوات التى عملتُها معه لم يطلب منى أبدًا الانضمام للكنيسة."

قالت دلِّى: "لكن يبقى عليك أن تكون حذرًا حين تخبره..."

"بالطبع. سأذهب وأراه اليوم. أعتقد أنه سيشعر بالراحة حين يعرف أن هذا كل ما فى الأمر."

بعد ذلك مباشرة، عرفتْ دلِّى أنها حاملٌ مرة أخرى. نسيتْ كل ما يتعلق بماثيو وإلسا وحتى أوما: ذهبتْ كل طاقتها فى التأكد من أنه لن تكون هناك مشكلة مرة أخرى. مضت سبعة شهور بسرعة، وبناء على نصيحة الأطباء، نُقلتْ إلى مستشفى إرسالية على طريق دفرين(١٩)، لا تبعد كثيرًا عن كمندين.

ذات يوم جاء سايا جون ليراها. جلس بجوار سريرها وأخذ يدها، وضغطها بين يده. قال: "جئتُ أشكرك."

"على ماذا، ساياجاى؟"

"على عودة ابنى."

"ماذا تقصد ساياجاى؟"

"استلمتُ خطابًا من ماثيو. إنه عائد للوطن. يرتب للأمر. أعرف أنك الجديرة بالشكر. لم أخبر رجكومار بعد. أردتُ أن تكونى أول من يعلم."

"لا، ساياجاى - أوما الجديرة بالشكر. كل ذلك يعود إليها."

"لكما كلتيكما."

"وماثيو؟ هل سيعود وحده؟"

ابتسم سايا جون وسطعتْ عيناه: "لا. سيعود إلى الوطن بعروس. سيتزوجان بتصريح خاص قبل أن يغادرا مباشرة، ليتمكنا من السفر معًا."

"إذن ماذا يعنى هذا، ساياجاى؟"

"يعنى أن الوقت حان لانتقالى أيضًا. سأبيع أملاكى هنا. ثم أذهب إلى الملايو لأعدَّ الأمور لهما. لكن مازال هنا الكثير من الوقت. سأبقى هنا حتى ولادة الطفل."

بعد ستة أسابيع أنجبتْ دُلِّى ولدًا صحيحًا وزنه ثمانية أرطال. أغلق رجكومار شوادره احتفالاً وأعلن صرف منحة راتب أسبوع لكل مستخدَميه. تم استدعاء مُنجِّم لينصحهم بشأن اسمَىْ الطفل: اسمين كما جرت العادة بين الهنود فى بورما. بعد تدبر استمر أسابيع كان الاسم البورمى للولد سين وين، والهندى نيلادرى - نيل[٢٠] اختصارًا. حُسِم الاسمان فى هذه المدة ليسمعهما سايا جون قبل السفر إلى الملايو.

***

بعد أربع سنوات، أنجبتْ دُلِّي طفلها الثاني، ولداً آخر. مثل نيل حمل اسمين، اسما بورميًا وآخر هنديًا: وكانا بالترتيب، تون بى وديناثَث. اختصر الأخير بسرعة ليصبح دينو(٢١)، وعُرف به فى البيت.

بعد ولادة دُلِّي مباشرة استلم رجكومار خطابًا من سايا جون: فى الوقت نفسه وضعت إلسا طفلاً، طفلها الأول، بنتا، اسمها أليسون(٢٢). وقرر ماثيو وإلسا تشييد منزل فى المزرعة: انتزعت أشجار الأرض وتحدد تاريخ الاحتفال بوضع الأساس. حرص سايا جون بشدة على حضور رجكومار ودُلِّي الاحتفال مع طفليهما.

فى السنوات التى تلت رحيل سايا جون عن رنجون، قضى رجكومار قدرًا كبيرًا من وقته متنقلاً بين بورما والملايو والهند. كشريك فى المزرعة كان مسئولاً عن إمدادها باستمرار بالعمال، ومعظمهم من منطقة مدراس فى جنوب الهند. كان رجكومار يطلع دُلِّي على تطور المزرعة، لكن على الرغم من توسلاته، لم ترافقه فى أية رحلة من رحلاته إلى الملايو. قالت إنها ليست مسافرة جيدة. كان من الصعب أن تترك رتناجيرى لتأتى إلى بورما؛ ليست متعجلة للذهاب إلى مكان آخر. لذلك لم تقابل دُلِّي ماثيو وإلسا أبداً.

أطلع رجكومار دُلِّي على خطاب سايا جون مع تعليق: "إذا كان لك أن تذهبى إلى هناك فى وقت من الأوقات فقد حان الوقت."

وافقتْ دُلِّي بعد أن قرأت الخطاب: "حسنًا، لنذهبْ."

من رنجون، كانت الرحلة تستغرق ثلاثة أيام حتى جزيرة بِنَنْج فى شمال الملايو. فى اليوم الأخير فى البحر، فرَّج رجكومار دُلِّي على شيء ضبابى أزرق بعيد فى الأفق. كبر بسرعة وتحول إلى قمة خشنة، ارتفع خارج البحر مثل هرم. كان يقف وحده، ولا يبدو على مدى البصر مشهد غيره على اليابسة.

قال رجكومار: "جننج جيراى(٢٣). المزرعة هناك." قال بدا أن الجبل بُعث إلى الحياة، فى السنوات الماضية، وأشجار الغابة تُقتلَع. رأى رجكومار، وهو يسافر إلى

بِنَنْج، سحبًا سوداء هائلة من الدخان تتصاعد من الجبل إلى السماء: "ذلك منذ زمن بعيد: تغير المكان الآن تمامًا."

رست *السفينة البخارية* فى جورج تاون[٢٤]، *الميناء الرئيسى* على جزيرة بِنَنْج. من هناك تستغرق الرحلة إلى المزرعة عدة ساعات: فى البداية أخذوا معدية إلى الطريق ونهاية خط سكك حديد بترورث، عبر ممر ضيق من بِنَنْج. ثم استقلوا قطارًا أخذهم شمالاً عبر مشهد طبيعى لحقول الأرز الخضراء المورقة وبساتين جوز الهند الكثيفة. بدت الكتلة المحلقة لجننج جيراى أمامهم، من نوافذ العربة، وكان يحجب قمته سديم غائم. يرتفع بشكل حاد خارج السهل، وتتنزل منحدراته الغربية مباشرة إلى المياه الزرقاء المترقرقة فى بحر أندامان[٢٥]. ذهلتْ دلِّى، وقد اعتادت على المشاهد الطبيعية النهرية فى جنوب بورما، من الجمال المورق على السهل الساحلى. ذكَّرها برتناجيرى، وللمرة الأولى منذ سنوات طويلة افتقدتْ كراسة الرسم.

انتهى هذا الجزء من رحلتهم فى سنجى بتانى[٢٦]، عاصمة مقاطعة على جانب الجبل المواجه للرياح. أقيم خط السكك الحديد حديثًا وكانت المحطة قطعة أرض ممهدة وسقيفة من القرميد. لمحتْ دلِّى سايا جون والقطار يدخل المحطة؛ بدا أكبر وقد انكمش قليلاً؛ يحدق بدون تركيز فى صحيفة والقطار يتوقف فى المحطة. يقف بجواره رجل طويل يرتدى الكاكى وامرأة بجيبة سوداء تصل إلى الكاحل. حتى قبل أن يشير إليهما رجكومار عرفتْ دلِّى أنهما ماثيو وإلسا.

جاءت إلسا إلى نافذة دلِّى حين توقف القطار. وكان أول ما قالتْ: "عرفتك على أية حال؛ وصفتك أوما بدقة."

ضحكتْ دلِّى: "وأنتما أيضًا– كلاكما."

كان خارج المحطة الصغيرة البدائية مجمَّعٌ كبير. فى وسطه شجيرة نحيلة، ليست أطول من دلِّى نفسها.

قالت دُلِّى فى هلع: "لماذا، هذه شجرة بادوك[٢٧]، أليس كذلك؟"

قالت إلسا: "يسمونها هنا الأنجسانا. زرعها ماثيو بعد ولادة أليسون مباشرة. يقول إنها ستكبر فى بضع سنوات وتصير مظلة ضخمة، تسقط ظلها على المحطة كلها."

أُخذتْ عينا دُلِّى بمشهد جديد رهيب: سيارة – مركبة براقة بسطح مستوٍ بغطاء مصقول وإطارات متألقة باثنتى عشرة دعامة. كانت السيارة الوحيدة فى المجمع، وقد تجمع حولها حشد صغير للتعجب من لمباتها النحاسية ودهانها الأسود اللامع.

كانت سيارة ماثيو. أعلن: "أولدزموبايل ديفندر[٢٨]. سيارة متواضعة حقًا، لكنها صنعتْ حديثًا، موديل هذه السنة، ١٩١٤ أصيلة." لاحظت دُلِّى أنه تحدث مثل أمريكى، ولم يكن صوته يشبه صوت أبيه.

كان معهم مجموعة كبيرة: كان هناك أيا لدينو ونيل، ورجل يساعد فى حمل الأمتعة. لم تكن السيارة تسعهم جميعًا. بعد أن جلستْ دُلِّى وإلسا والأطفال لم يكن هناك موضع إلا للأيا وماثيو، وكان يقودها. تُرِك الآخرون ليتبعوهم فى بجى[٢٩].

ساروا بالسيارة فى سنجى بتانى، عبر شوارع طويلة مليئة بمحلات من القرميد – واجهات المحلات متصلة لتشكل أروقة طويلة ورائعة. ثم ابتعدت البلدة وبدأت السيارة تتسلق.

قالت دُلِّى لإلسا: "متى سمعْتِ آخر مرة عن أوما؟"

قالت إلسا: "رأيتها فى السنة الأخيرة. ذهبْتُ إلى الولايات المتحدة فى أجازة والتقينا فى نيويورك." قالت إلسا إن أوما انتقلت إلى شقة خاصة بها. تعمل مصححة بروفات عند ناشر. وتفعل أشياء أخرى أيضًا؛ بدت مشغولة جدًا.

"ماذا تفعل بالضبط؟"

قالت إلسا: "أشياء سياسية أساسًا، على ما أعتقد. تحدثتْ عن اجتماعات وأحاديث ومجلات تكتب لها."

"أوه؟" كانت دلِّى لا تزال تفكر فى الأمر حين أشارت إلسا أمامها: "انظرى - العزبة. من هنا تبدأ."

كانوا يتسلقون بشكل حاد، يسيرون فى طريق قذر تحيط به من الجانبين غابة كثيفة. رأت دلِّى، وهى تنظر أمامها، مدخلاً واسعًا بيافطة مقوسة عبر الطريق. على اليافطة ثلاث كلمات بحروف ذهبية ضخمة؛ قرأتها دلِّى بصوت عالٍ، وهى تقلبها على لسانها: "عزبة مطاط مُرْنِنْجْسَايد(٣٠)."

قال ماثيو: "سمتْها إلسا."

قالت إلسا موضحة: "عشتُ فى طفولتى قرب حديقة اسمها مُرْنِنْجْسَايد. أحببتُ الاسم دائمًا."

كان عند البوابة صدع مفاجئ فى الستارة المتشابكة من الخضرة التى تغطى جانب الجبل: امتدتْ أمامهم، بقدر ما ترى العين، صفوف منتظمة من شتلات، متشابهة كلها تمامًا، المسافات بينها متساوية بدقة، بانتظام هندسى. سارت السيارة على مكان مرتفع قليلاً، وظهر أمامهم وادٍ، حوضٌ ضحل على شكل كوب فى راحة قمة مقوَّسة. أشجار الحوض مقتلعة وفى الوسط مساحة مفتوحة، حولها مبنيان متداعيان سقفاهما من الصفيح، أقل من أن يكونا كوخين.

قالت إلسا بلهجة اعتذار: "قصد أن يكونا مكتبين للعزبة. لكنا نعيش فيهما حاليًا. بشكل أساسى جدًا، متأسفة - نحتاج لبناء مكان يصلح للسكن."

دخلوا، وفى وقت تالٍ من اليوم، أخذت إلسا دلِّى للتمشية بين أشجار المطاط. كان فى كل شجرة قطع مائل حول جذعها، وتحتها قشرة جوز هند مقسومة على شكل كوب. لفَّتْ إلسا سبابتها فى أحد هذه الأكواب وأخرجت هلالاً جامدًا من النسغ.

قالت إلسا وهى تعطى النسغ لدلّى: "يسمونها كتل الأكواب." رفعت دلّى الكتلة الإسفنجية الرمادية إلى أنفها: كانت الرائحة لاذعة ونتنة. أعادتها إلى كوب قشرة جوز الهند.

قالت إلسا: "يأتى النقارون لجمع الكتل فى الصباح. لا يمكن فقد نقطة واحدة من هذه المادة."

سارتا بين أشجار المطاط، صعدتا الهضبة، وواجهتا قمة جنْنج جراى، المغطاة بالسحب. بدت الأرض تحت الأقدام طرية ووثيرة بسبب سجادة الأوراق الميتة التى تسقطها الأشجار. شاهدا فى المنحدر ظلال آلاف الجذوع، متوازية كلها تمامًا، مثل خدوش آلية. كأن المرء فى برارى وهو ليس كذلك. زارت دلّى هوى زيدى عدة مرات وأحبت السكون المثير فى الأجمة. لكن هذا المكان لم يكن مدينة أو حقلاً أو غابة: فى اتساقه شىء غريب؛ فى أن هذا التشابه قد يؤثر على المشهد الطبيعى، على هذا الاحتشاد الطبيعى. تذكرتْ هلعها حين عبرت السيارة من الوفرة المندفعة للأجمة إلى الهندسة المنتظمة للمزرعة. قالت لإلسا: "كأننا نسير فى متاهة."

قالت إلسا: "نعم. وتندهشين من السهولة التى تتوهين بها."

دخلتا منطقة واسعة مقتلعة الأشجار وتوقفت إلسا، قالت: "هنا سيقام منزل مرتنجسايد."

رأت دلّى، وهى تتلفت حولها، أن البقعة تطل على مناظر مثيرة من كل اتجاه. إلى الغرب ينحدر الجبل انحدارًا خفيفًا إلى البحر حيث تغرب الشمس الحمراء؛ إلى الشمال ترتفع قمة جننج جراى، تطل عليهما مباشرة.

قالت دلّى: "بقعة مدهشة." لكن حتى وهى تنطق الكلمات فوجئتْ بأنها ما كانت لتحب العيش هناك تحت النظرة العبوس للجبل، فى منزل ألقى فى متاهة مليئة بالأشجار.

قالت إلسا: "جميلة، أليس كذلك؟ لكن كان عليك أن ترى منظرها قبل اقتلاع الأشجار منها."

قالت إنها كانت رهيبة حين جاءت أول مرة إلى جننج جراى. كان المكان جميلاً بشكل يفوق الخيال، لكنه كان أجمة- أجمة كثيفة شاهقة متشابكة يستحيل اجتيازها. شق ماثيو طريقًا ضيقًا، وبدا السير عليه مثل السير على صحن كنيسة مفروش بالسجاد، وقمم الأشجار تلتقى بعيداً فوقك، تشكِّل سقفًا بلا نهاية مزوداً بمراوح. كان تخيل أن هذه المنحدرات يمكن أن تتعرى، وتصبح قابلة للسكن، صعبًا، مستحيلاً تقريبًا.

مع بداية اقتلاع الأشجار من الغابة، انتقل ماثيو إلى الأرض وبنى كابينة صغيرة، حيث يوجد مكتب العزبة. عاشتْ بعيداً عنه فى منزل مستأجر فى بننج. كانت تفضل أن تكون مع ماثيو، لكنه لم يسمح لها بالبقاء. قال إن المكان خطير جداً، مثل ساحة معركة، والأجمة عقبة فى كل بوصة من الطريق. مكث سايا جون أيضًا مع ماثيو بعض الوقت، لكنه مرض وعاد إلى بننج. ومع أن المزرعة فكرته، إلا أنه لم يكن لديه تصور لما تحتاج إليه.

مرَّتْ عدة شهور قبل السماح لإلسا بزيارة الموقع مرة أخرى، وحينها فهمتْ لماذا حاول ماثيو إبعادها. بدا جانب التل وكأنه تعرض لسلسة من الكوارث: مساحة هائلة من الأرض مغطاة بالرماد والجذول المسودة. كان ماثيو نحيلاً، يسعل باستمرار. ألقتْ نظرة على أكواخ العمال - زرائب ضيقة بأسقف من الغصون والأوراق. كانوا كلهم هنوداً، من الجنوب: تعلم ماثيو التحدث بلغتهم - التاميل - لكنها لم تفهم كلمة مما يقولون. تفحصت الكوخ الطينى الذى يذهبون إليه للعلاج حين يمرضون: قذارة تفوق الخيال، أرضيات تغطيها القاذورات. أرادت أن تبقى وتعمل ممرضة، لكن ماثيو رفض بقاءها، فعادت إلى بننج.

لكنها حين عادت في المرة التالية، كان التحول هائلاً مرة أخرى، بدا معجزة. في الجولة السابقة شعرت أنها تدخل مكانًا موبوءًا؛ لكنها في تلك المرة شعرت بأنها تسير في حديقة أقيمت حديثًا. جرفت الأمطارُ الرمادَ، وأُزيلت جذول الأشجار المسودة وبدأت الشتلات الأولى من المطاط تكبر.

للمرة الأولى، سمح ماثيو لها بالبقاء، في كابينته. في الفجر تنظر من النافذة وترى الصباح يغمر جانب الجبل، يتمدد على أرضهم مثل ملاءة من الذهب.

قالت إلسا: "وحينها قلتُ لماثيو لا يمكن أن يكون لهذا المكان إلا اسم واحد: مُرْنِنْجْسَايد."

فيما بعد، في المؤخرة حيث كانتا تمكثان، فرجت إلسا دُلّي على رسومها التخطيطية لمنزل مرننجسايد. أرادت أن يبدو كمنازل الجزيرة الكبيرة الطويلة التي تحتفظ بها في ذاكرتها؛ أن يضم برجًا يشبه برج بارجة، جملونات[٣١] شاهقة، وفراندة تحيط به كله، لتطل على المناظر المدهشة. وكان السقف اللمسة الغربية الوحيدة، سيكون أحمر، بأفاريز مجعدة إلى أعلى منقوشة.

والمرأتان تحدقان في الرسوم التخطيطية، كان سايا جون يتصفح الجريدة التي اشتراها من محطة السكك الحديد: طبعة اليوم السابق من ستريتس تايمز[٣٢]، المنشورة في سنغافورة. فجأة نظر وأشار لرجكومار وماثيو عبر الغرفة.

قال: "انظرا إلى هذا."

طوى الجريدة نصفين، وأراهما تقريرًا عن اغتيال الدوق الكبير فرانز فرديناند[٣٣] في سراييفو. قرأ رجكومار أول فقرتين من التقرير بالكامل ثم نظر كل منهما إلى الآخر وهزَّ كتفيه.

قال رجكومار: "سراييفو؟ أين تقع؟"

ضحك ماثيو: "بعيداً جداً."

لم يظن أى منهم، أكثر من أى شخص آخر فى العالم، أن القتل فى سراييفو سيشعل حرباً عالمية. ولم يعرف أى منهم أن المطاط سيكون مادة استراتيجية حيوية فى الصراع؛ يصبح رمى المواد المصنوعة من المطاط فى ألمانيا جريمة يعاقب عليها القانون؛ تصبح السلعة أثمن مما كانت فى أى وقت، رافعة ثرواتهم بما يتجاوز أكثر أحلامهم تطرفاً.

هوامش

(١) نوارة إليا: Nuwara Eliya.

(٢) معبد بوتاتّنج Botataung Pagoda: معبد شهير يقع فى وسط ينجون (رنجون) بالقرب من نهر رنجون. بنى فى زمن بناء معبد شوى داجون. وقد أعيد بناؤه بعد تدميره فى الحرب العالمية الثانية.

(٣) بِنَنْج Penang: ولاية فى ماليزيا، على الساحل الشمالى الغربى لشبه جزيرة الملايو قرب مضيق ملقا.

(٤) تان شاى يان: Tan Chay Yan. بِرَناكية Peranakan: مصطلح يطلق على الصينيين الذين هاجروا فى وقت مبكر إلى المستعمرات البريطانية فى مضايق الملايو، وأماكن أخرى. وتستخدم الكلمة أيضاً لوصف الصينيين الذى يعيشون فى إندونيسيا.

(٥) ريدلى: Ridley.

(٦) أكرون Akron: مدينة شمال شرق أوهايو. تأسس فيها أول مصنع للمطاط فى ١٨٦٩ على يد ب.ف. جودريتش B. F. Goodrich(1841-1888). وفى أوائل القرن العشرين اعتبرت أكرون عاصمة المطاط فى العالم.

(٧) بتروورث Butterworth: مدينة فى ولاية بننج فى ماليزيا. يعرفها السكان المحليون باسم باجان Bagan.

(٨) كالا بستى Kalaa-basti: الحى الهندى، أو حى الكالا كما كان البورميون يدعون الهنود. كايكاسان Kyaika-san: من ضواحى رنجون. ساريام Syriam: ميناء فى جنوب غرب بورما على نهر رنجون.

(٩) جبل لافينيا: Mount Lavinia.

(١٠) كدمبارى دوت: Kadambari Dott. هتخولا دوت: Hatkhola Dutts. تورو دوت: Toru Dutt. رومش دوت: Romesh Dutt.

(١١) سيسوث (1840-1927) Sisowath: ملك كمبوديا من ١٩٠٤ حتى وفاته.

(١٢) رودين (1840-1917) Rodin: فنان فرنسى، كان أبرز نحات فرنسى فى عصره، وهو من أشهر النحاتين عموماً.

(١٣) دو ثى: Daw Thi.

(١٤) ممر درورى Drury Lane: شارع فى منطقة حديقة كوفنت Covent Garden، وهو حى فى لندن.

(١٥) كاما: Cama.

(١٦) إرسالية راماكريشنا Ramakrishna Mission: منظمة خيرية تطوعية تأسست فى مايو ١٨٩٧.

(١٧) هوتون: Hutton. جاجنو: Gaggenau.

(١٨) إلسا هوفمان: Elsa Hoffman.

(١٩) دفرين: Dufferin.

(٢٠) سين وين: Sein Win. نيلادرى: Neeladhri. نيل: Neel.

(٢١) تون بى: Tun Pe. ديناثَث: Dinanath. دينو: Dinu.

(٢٢) أليسون: Alison.

(٢٣) جننج جيراى Gunung Jerai: بروز هائل من الحجر الجيرى يرتفع ١٢٠٠ متر عن سطح البحر. يوجد بالقرب من سنجى بتانى، فى مكان لا يبعد كثيراً عن جزيرة بننج.

(٢٤) جورج تاون: Georgetown.

(٢٥) بحر أندامان Andaman Sea: جزء من المحيط الهندى، يقع جنوب غرب خليج البنغال، جنوب بورما، غرب تايلاند، شرق جزر أدامان، يبلغ طوله حوالى ٧٥٠ ميلاً وعرضه حوالى ٤٠٠ ميل.

(٢٦) سنجى بتانى Sungei Pattani: مدينة جبلية شمال ماليزيا.

(٢٧) بادوك padauk، أنجسانا: angsana: أشجار استوائية تنمو فى جنوب شرق آسيا.

(٢٨) أولدزموبايل ديفندر: Oldsmobile Defender.

(٢٩) بجى buggy: عربة صغيرة خفيفة، بأربع عجلات عادة فى الولايات المتحدة، واثنتين فى بريطانيا.

(٣٠) مُرْنِنْجْسَايد: Morningside.

(٣١) جملون gable: قطاع على شكل مثلث فى جدار فى نهاية سقف، فى المساحة بين منحدرى السقف.

(٣٢) ستريتس تايمز: Straits Times.

(٣٣) الدوق الكبير فرانز فرديناند (1914-1863) Grand Duke Franz Ferdinand: دوق النمسا وولى عهدها، اغتيل فى سراييفو فى ٢٨ يونيو ١٩١٤، وكان اغتياله السبب المباشر لقيام الحرب العالمية الأولى.

(١٦)

ظهر جليًا أن نيل ودينو، حتى وهما صغيران جدًا، يشبه كل منهما أحد والديه. بدا نيل شبيهًا برجكومار تمامًا: ضخمًا وقويًا، هنديًا أكثر منه بورميًا فى الجسم واللون. وكان لدينو، من ناحية أخرى، ملامح أمه الرقيقة، وبشرتها العاجية وجسمها النحيل الضعيف.

كل سنة، فى ديسمبر تقريبًا، يأخذ رجكومار ودُلِّى الولدين إلى هوى زيدى. وقد عاد دوه سى ونو دا إلى قريتهما القديمة قبل سنوات. صار دوه سى رجلاً ثريًا نتيجة اتساع الأعمال، وكان يمتلك عدة منازل فى القرية وحولها: خُصِّصَ أحدها للزيارات السنوية لدُلِّى ورجكومار. رأت دُلِّى أن الولدين يستمتعان بهذه الرحلات، وخاصة نيل، الذى صادق أحدَ أبناء دوه سى، ولدًا مثابرًا عميق التفكير اسمه ريموند[١]. وكانت دُلِّى أيضًا تتطلع لهذه الرحلات السنوية: منذ رحلة مرننجسايد بدأت ترسم مرة أخرى، وكانت تقضى الساعات بجوار جدول هوى زيدى وكراسة الرسم مفتوحة على حجرها ودينو يلعب بجوارها.

ذات عام، وهم فى هوى زيدى، مرض دينو فجأة. لم تنشغل دُلِّى أو رجكومار انشغالاً خاصًا بالأمر. كان دينو عرضة لنوبات من المرض، نادرًا ما يمرُّ أسبوع بدون أن يتعرض لنزلة برد أو سعال أو حمى. لكنه وُهِبَ أيضًا قدرة فطرية على التكيف جعلته يقاوم علَّته بنشاط، ونادرًا ما تستغرق الحمى معه أكثر من يوم أو اثنين. كان رجكومار ودُلِّى، وكانا يعرفان كيف يقاوم الحمى بشكل جيد، متأكدين من أنه سيشفى سريعًا. قرَّرا البقاء فى هوى زيدى.

كان البيت الذى يقيمون فيه يشبه إلى حد كبير طاى معسكر ساج، يرتفع حوالى ستة أقدام عن الأرض على أعمدة خشبية ضخمة. ولأنه يبعد قليلاً عن بقية القرية، مسافة قصيرة على منحدر كثيف الأشجار، فقد كان بمثابة ستارة خلفية للقرية. ترتفع الأجمة مثل جرف خلف الطاى، وتحيط به من ثلاث جهات. وكان يظهر من البلكونة جدول هوى زيدى، المفروش بالحصى، وبرج كنيستها الشاهق المشيد بالبامبو.

كما هو الحال فى كل طاى، كانت الغرف مبنية فى صف، وتؤدى كل منها إلى الأخرى. قررت دلّى أن تغير النظام المعتاد للنوم. أخذت الطفل فى سريرها ليلة ونام رجكومار فى غرفة داخلية. استغرقتْ دلّى فى حلم ودينو ينام بجوارها. رأتْ أنها ترفع الناموسية، وتنزل من السرير وتذهب لتجلس على كرسى فى البلكونة. كان الطاى معتمًا، والليل يعجُّ بأزيز الحصاد[٢] واليراعات. على بعد غرفتين سمعت رجكومار يتنفس بصعوبة فى نومه. رأت أنها تجلس فى الكرسى، وبعد برهة تحدث شخص بصوت معروف لها تمامًا: كان ثيبو. قال لها شيئًا بإلحاح عظيم. وكما يحدث فى الأحلام غالبًا، لم تعرف الكلمات فرادى، لكنها فهمتْ ما حاول توصيله.

صرختْ.

خرج رجكومار متعثرًا ومعه شمعة فوجدها تجلس على كرسى فى الفراندة، تتأرجح، متشبثة بذراعين مرتجفتين.

"ماذا حدث؟"

قالت: "علينا أن نرحل، أن نأخذ دينو إلى مستشفى فى رنجون."

"لماذا؟"

"لا تسألنى الآن. أخبرك فيما بعد."

تركوا هوى زيدى قبل أن ينقشع الظلام. أمدهم دوه سى بعربتى ثيران وأوصلهم شخصيًا إلى بيناما نا(٣). وصلوا إلى رنجون فى وقت متأخر من الليلة التالية. أخذا دينو إلى المستشفى فوراً.

بعد فحص طويل، أخذ الأطباء دُلّى ورجكومار جانبًا. قالوا إن الولد أصيب بشلل الأطفال؛ لكن لولا تعجل دُلّى فى أخذ الولد إلى المستشفى ربما فقدوه.

قالت دُلّى: "عرفتُ أن علىَّ أن آخذه."

"كيف عرفْتِ؟"

"قيل لى."

"من قال لك؟"

"لا يهمُّ. المهم أننا أتينا."

قضت دُلّى الليل فى المستشفى، وفى الصباح التالى أحضرت لها ممرضة الفطور على صينية. قالت الممرضة: "هل سمعْتِ، مدام؟ مات الملك العجوز. مات فى الهند."

انزلقتْ صينية الفطور من حجر دُلّى. سألت الممرضة: "متى حدث ذلك؟"

"لنرَ..." عدَّت الممرضة الأيام على أصابعها: "أظن أن ذلك حدث فى الليلة السابقة على حضورك."

***

كانت مهمة دُلّى القديمة، الأميرة الثانية، الملومة بموت الملك. فى يوم ساطع فى ديسمبر ١٩١٦، فرَّتْ مع واحد من عامة بورما واختبأتْ فى المقر. وكانت بداية النهاية.

في ذلك الوقت تغيرتْ أشياء كثيرة في رتناجيري. وضعت الأميرة الأولى طفلها، فتاة (بعد رحيل دلّي ببضعة أسابيع فقط). لُقِّبت الطفلة بيسو[٤]، أي البدينة، ومما أثار دهشة الجميع، أنها صارت بسرعة مفضلة عند الملكة.

بعد ولادة الطفلة مباشرة، اكتشفت إدارة المقاطعة أنها تمتلك ما يكفي لتشييد للملك قصره الذي وُعِد به منذ فترة طويلة. ظهر قصر على جانب التل الذي يواجه المقر. اكتمل بقاعة حفلات رسمية وجاليري وغرف حراسة ومياه جارية وجراج للسيارتين اللتين زُوِّد بهما الملك والملكة حديثًا (إحداهما فورد والأخرى دى ديون[٥]). خرجت رتناجيري كلها للاحتفال بالانتقال. ملأت الجماهير المبتهجة الطرق والعائلة الملكية تخرج بالسيارات من منزل أطرام لآخر مرة. لكن كما هو الحال مع كل الانتقالات، تبين بسرعة أن المكان الجديد به عيوب. تبين أن حراسته تتطلب جيشًا صغيراً، سبعةً وعشرين بواباً، وعشرة عمال وستة هزوردارس[٦] وعدد لا يحصى من المرافقين والمنظفين والكناسين والأيات – ما مجموعه مائة وواحد وستون ككل. بالإضافة إلى أنه صار هناك زوار كثر من بورما وأكثر بكثير من المتطفلين. كيف يتم إطعامهم؟ كيف يتم توفير احتياجاتهم؟ بدون دلّي لم يكن أحد يعرف كيف يتصرف.

ثم اختفت الأميرة الثانية ذات صباح. كشفت التحريات أنها هربت مع شاب ولاذا بالمقر. أعطى الملك رسالة لسوانت يسلمها لابنته، يطلب منها الرجوع إلى القصر. وهو يقف في النافذة، ركز منظاره على الدى ديون وهي تقوم برحلتها عبر التل. حين لفَّت السيارة لتعود لم ير ابنته فيها. سقط المنظار من يده. وقع على الأرضية، متعلقًا بذراعه اليمنى. وصل الدكتور في خلال ساعة وأعلن أنه أصيب بنوبة قلبية. بعد عشرة أيام مات الملك.

أعلنت الملكة حرمان الأميرة الثانية من المثول في حضرتها.

كتبت الأميرة الأولى فى الخطاب الأول من عدة خطابات سرية: والجنازة، دلَّى. كانت محزنة ومخزية حتى أن جلالتها رفضتْ حضورها صراحة. مثَّل الحكومة مندوب جابى! تبكين لو رأيتِها. لم يصدق أحدٌ أنها جنازة آخر ملوك بورما! أردنا حفظ الكفن بطريقة تمكننا من نقل الرفات ذات يوم إلى بورما، وحين علمت السلطات انتزعوا الكفن منا بالقوة. يخشون أن يصبح جسد الملك نقطة لمِّ الشمل فى بورما! شيدوا نصبًا تذكاريًا على قبره، فى الليل تقريبًا، لتستحيل استعادته فى أى وقت! كان يجب أن تكونى معنا، دلَّى. نفتقدك، حتى جلالتها، بالطبع على الرغم من أنها لا تفصح عن ذلك، لأنها هى التى حرمت علينا حتى أن ننطق باسمك.

خلال فترة نقاهة دينو، لم تتركْ دلَّى أبواب المستشفى أبدًا. كانت لها غرفة هى ودينو - واسعة ومشمسة ومليئة بالزهور. من النافذة ترى الهتى البراق المهيب لشوى داجون. فعل رجكومار كل ما يستطيع ليتأكد من راحتهما. يذهب يو با كيو إليهما بالسيارة فى أوقات الوجبات، ومعه طعام مطبوخ للتو فى حامل طعام نحاسى ضخم. تم إقناع المستشفى بتخفيف قواعدها. يأتى الأصدقاء فى كل وقت، ويمكث رجكومار ونيل إلى وقت متأخر من المساء، ولا يرحلان إلا فى موعد نوم دينو.

تحمل دينو البقاء فى المستشفى شهرًا طويلاً برواقية نموذجية، وأوسمة مستحقة من العاملين. ومع أن ساقه اليمنى فقدت وظيفتها جزئيًا، إلا أن الأطباء وعدوا بأنه سيشفى ولن يبقى من آثار مرضه إلا عرج بسيط.

عند العودة إلى البيت بعد خروج دينو، حاولت دلَّى جهدها استعادة الروتين المنزلى المعتاد. وضعتْ دينو فى غرفته تحت رعاية أيا. فى أول بضعة أيام لم يشكُ. وذات ليلة استيقظتْ دلَّى فجأة، فى وقت متأخر من الليل، بلمسة من نفَس ابنها على

وجهها، يقف بجوارها، مستنداً على حافة السرير. ترك أياه تشخر فى غرفته وتسلل إلى الدهليز، جاراً ساقه اليمنى خلفه. أخذته دُلّى فى سريرها، تشبثت بجسده النحيل على صدرها، تنفستْ فى شعره الناعم الذى تفوح منه رائحة المطر. نامت تلك الليلة أفضل مما نامت فى آخر عدة أسابيع.

فى النهار، وقد بدأ دينو يحاول المشى مرة أخرى، حامتْ دُلّى حوله، وشجعته على إبعاد الكراسى والطاولات عن طريقه. ودُلّى تشاهد ابنها يكافح لاستعادة حركته، أعجبتْ بإصراره ومرونته - بقوة الإرادة التى تجعله ينهض، مرة بعد أخرى، ليعرج خطوة أو اثنتين أكثر. رأت أيضاً أن هذا الكفاح اليومى يغيِّره. صار أكثر عزلة مما تتذكر وبدا أكبر بسنوات فى النضج وضبط النفس. لا يستجيب لأبيه وأخيه وكان بارداً معهما، كأنه بوعى ذاتى لا يشجع محاولات إدخاله فى ألعابهما الكثيرة.

استغرقتْ دُلّى فى نقاهة دينو بشكل كامل واستحوذت على عقلها تماماً. تقلص تفكيرها وتقلص بشأن دائرة أصدقائها والأنشطة الدورية التى شغلتْها من قبل - الاجتماعات وحفلات الشاى والرحلات الخلوية. حين تأتى أحياناً صديقة أو إحدى المعارف، يخيم صمتٌ بشع: تتظاهر بالاهتمام بحكاياتها ولا تساهم بكلمة. وحين تُسأل عما تفعل بوقتها، تجد صعوبة فى تفسير الأمر. ولأن النجاحات التى حققها دينو محدودة - خطوة أو اثنتين زيادة فى المرة، بوصتين زيادة - فقد كان من المستحيل أن يشارك فى المتع أو فى الفراغ الكئيب الذى يلازم مرور كل يوم. كانت صديقاتها يومئن بأدب وهن يستمعن لتفسيراتها، وحين ينصرفن تعرف أن وقتاً طويلاً سينقضى قبل أن تراهن مرة أخرى. والغريب أنها كانت لا تشعر بالأسف، كانت سعيدة.

فى نهاية أحد الأسابيع، قال رجكومار: "لم تخرجى منذ شهور." كان له حصان يشارك فى سباق كأس الحاكم فى نادى السباق فى رنجون: أصرَّ على أن تذهب معه إلى السباق.

بدأتْ عملية ارتداء الملابس للسباق وكأنها تمارس طقساً شبه منسي. حين ذهبت إلى الطريق، انحنى لها يو با كيو في السيارة كأنه يرحب بها في بيتها بعد غياب طويل. كانت السيارة بِكْبك – بيكارد بكتيت[٧] سويسرية الصنع – آلة واسعة ومتينة مع لوح زجاجي يفصل مقعد السائق عن الكابينة الداخلية.

لفَّت البكبك حول البحيرة الملكية، مرَّتْ بالمدافن الصينية وقرب نادي رنجون. شعرتْ دُلّي أنها بعيدة منذ فترة طويلة. بدتْ كل المشاهد المألوفة جديدة ومثيرة– انعكاس بريق الشوي داجون على البحيرة؛ المبنى الطويل المنخفض المعلَّق في نادي المراكب المقام على الشاطئ. كانت تنحني إلى الأمام في مقعدها ووجهها شبه خارج من النافذة، كأنها ترى المدينة لأول مرة. كانت الطرق حول حلبة السباق مكتظة بالبوليس، لكن البكبك كانت معروفة فشقوا طريقهم. بدت المنصات احتفالية، ورفرفت رايات وأعلام في الشرفات. في الطريق إلى مقصورة رجكومار لوحت دُلِّي لعدد هائل من أناس نسيت أسماءهم. بمجرد الجلوس، توقف عشرات الأصدقاء والمعارف للترحيب بعودتها. لاحظت، بعد لحظة، أن رجكومار يهمس لها بأسمائهم تحت غطاء من برنامجه، ليذكرها بهم – "يو ثا دين جاي، مدير نادي السباق؛ يو أُهْن[٨]، المراقب؛ مستر ماكدونالد، محاسب المراهنات..."

كان الجميع عطوفين. أرسل مستر بابيرنو[٩] العجوز، وكيل المراهنات، أحد أبنائه ليسألها إن كانت تريد وضع أي رهانات. تأثرت واختارت حصانين بشكل عشوائي من برنامجها. جاءت فرقة فوج جلوسترشاير[١٠] تسير وتعزف سيرينادا من لولا لفريدمان[١١]. ثم بدأت في مقطوعة أخرى بتألق هائل، وضغط رجكومار على يدها فجأة.

هس: "إنها 'يحفظ الرب الملك[١٢]'"

نهضت بسرعة: "آسفة، لم أكن منتبهة."

فى النهاية بدأ السباقات فشعرت بارتياح. كان هناك انتظار طويل قبل بدء السباق التالى وانتظار آخر بعد انتهائه. سرح عقل دلِّى حين صار كل من حولها أكثر استثارة. منذ أسابيع لم تبتعد عن دينو كل هذا الوقت – لكن بالطبع ربما لم يلاحظ حتى أنها خرجتْ.

أعادتْها نوبة مفاجئة من التصفيق إلى ما يحيط بها. كانت بجانبها دو ثى، زوجة السير ليونيل با ثان[١٣]، من مشرفى نادى السباق. كانت دو ثى ترتدى عقدها الياقوت الشهير، بتراخٍ تلمس بالأصابع أحجاراً بحجم ظفر الإبهام. رأتْها دلِّى تنظر إليها بتوقع.

قالت دلِّى: "ماذا حدث؟"

"كسب لوشينفار[١٤]."

قالتْ دلِّى: "أوه؟"

نظرتْ إليها دو ثى طويلاً وانفجرتْ فى الضحك. قالت: "دلِّى، يا له من أمر سخيف، هل نسيتِ؟ لوشينفار حصان زوجك!"

فى السيارة أثناء العودة، كان رجكومار هادئًا على غير العادة. حين اقتربا من البيت، انحنى ليغلق النافذة، التى تفصل مقعد السائق عن المؤخرة، بعنف. ثم التفت لينظر إليها بقلق. احتسى شمبانيا بعد زيارته لحلبة الفائزين وكان سكرانًا بعض الشىء.

قال: "دلِّى؟"

"نعم؟"

"حدث لك شىء."

هزَّتْ رأسها: "لا. لا. لم يحدث شيء."

"تتغيرين... تتركيننا خلفك."

"من؟"

"أنا... نيل..."

أجفلتْ. تعرف أنها أهملت ابنها الأكبر مؤخراً. لكن نيل مفعم بالحيوية، مرحٌ وودود، ورجكومار شغوف به. دينو، من ناحية أخرى، عصبي ومتردد؛ أزعجه الضعف والهشاشة، أربكاه: من غير المُتوقَّع أن يواجهما وحده.

قالتْ دلّي: "نيل لا يحتاجني كما يحتاجني دينو."

أمسك بيدها: "دلّي، نحتاجك كلنا. لا يمكن أن تنطوي على نفسك. لا يمكن أن تتركينا خلفك."

ضحكت بارتباك: "بالطبع لا يمكن. أين أذهب إذا تركتكما خلفي؟"

ترك يدها والتفتَ بعيداً: "لا أقاوم أحياناً الإحساس بأنك ذهبتِ بعيداً – أغلقتْ على نفسك خلف جدار زجاجي."

صرخت: "أي جدار؟ عم تتحدث؟" تطلعت لترى يو با كيو ينظر إليها في مرآة البكبك التي تعكس المؤخرة. عضَّتْ شفتها ولم تنطق بكلمة.

جاء هذا الحوار بمثابة صدمة. لم تفهمه في البداية. بعد يوم أو اثنين قررت أن رجكومار على حق، يجب أن تخرج أكثر، ولو إلى سوق سكوت[١٥] للفرجة على المحلات. صار دينو أكثر اعتماداً على نفسه؛ بعد قليل يذهب إلى المدرسة. عليها أن تعتاد على أن تكون بدونه، ولا يصحُّ أبداً أن تغلق على نفسها خلف جدران المنزل.

بدأت تنتظم مشاوير بسيطة لنفسها. ذات صباح وجدت نفسها محشورة في واحد من أكثر أجزاء المدينة ازدحامًا، قرب قاعة بلدة رنجون. وكان أمامها، عند تقاطع شارع دَلهوسي وشارع معبد سول[١٦]، ملف مزدحم. اصطدمت عربة ثيران بركشو؛ تعرض شخص للأذى. اجتمع حشد وامتلأ الهواء بالصخب والغبار.

كان معبد سول في مركز هذا الملف. تم تبييضه حديثًا، وكان يرتفع فوق الشوارع المزدحمة مثل صخرة تنبثق من البحر. مرَّتْ دُلِّي بالمعبد مرات لا تُحصى لكنها لم تدخلْه أبدًا. طلبتْ من يو با كيو أن ينتظر ونزلتْ من السيارة.

شقَّتْ طريقها بحذر عبر الملفِّ المزدحم وصعدتْ سلَّمًا بسرعة. خلعتْ حذاءها، وجدتْ نفسها تقف على أرضية باردة مبلطة بالرخام. ابتعدت ضجة الشارع وبدا الهواء نقيًا وخاليًا من الغبار. لمحت مجموعة رهبان يرتدون ملابس زعفرانية ويرتلون في أحد الأضرحة الصغيرة المحيطة بالصحن الدائري للمعبد. دخلتْ وركعتْ خلفهم على حصيرة. في كوة مرتفعة أمامها مباشرة، صورة صغيرة مذهَّبة لبوذا، موضوعة في بهوميسبارشامُدْرا[١٧]، والإصبع الوسط في يده اليمنى يلامس الأرض. كانت الزهور مكومة تحته– ورود وياسمين ولوتس قرنفلي – والهواء مفعمًا بعبيرها.

أغلقتْ دُلِّي عينيها، حاولتْ أن تسمع الرهبان، لكنها سمعتْ صوت رجكومار يتردد صداه في أذنيها: "تتغيرين... تتركيننا خلفك." لتلك الكلمات في سكينة ذلك المكان وقع مختلف: عرفتْ أنه على صواب، غيَّرتْها أحداث الماضي القريب ليس بأقل مما غيَّرتْ دينو.

في المستشفى، في الليل، وهي تستلقي في سرير دينو، سمعتْ أصواتًا لا تُسمَع في النهار: لغط الأقارب القلقين؛ صرخات الألم البعيدة؛ نساء يندبن موتاهن. كأن الجدران تُثقَب في سكون الليل، وتغمر غرفتها موجة خفية من الهزيمة والمعاناة. وكلما استمعتْ لهذه الأصوات، ازداد شعورها بأنها موجهة إليها مباشرة، أحيانًا بنبرات بدا أنها تسترجع الماضي، أحيانًا بنبرات تحذير.

ذات ليلة، في وقت متأخر، سمعتْ امرأة عجوزًا تصرخ طلبًا للماء. كان الصوت واهيًا - همسة خشنة مزعجة - لكنها ملأت الغرفة. ومع أن دينو كان نائمًا بعمق، وضعتْ دُلّي يدها على رأسه. رقدتْ بعض الوقت متخشبة على جنبها، وتشبثتْ بطفلها مستخدمة جسمه النائم لتمنع الصوت. ثم تسللت من السرير وسارت بسرعة في الدهليز.

أوقفتْها ممرضة كارينية بكاب أبيض: "ماذا تفعلين هنا؟"

قالت دُلّي: "هناك صوت، شخص يصرخ طلبًا للماء..." أَسْمَعَت الممرضة.

قالت الممرضة بشكل ارتجالي: "أوه نعم، من عنبر الملاريا تحت. شخص يهذى. ارجعي إلى غرفتك." توقف الأنين بعد ذلك مباشرة، لكن بقيت دُلّي مستيقظة طوال الليل، يسيطر عليها رنين الصوت.

في مرة أخرى خرجتْ من الغرفة لتجد نقالة في الدهليز، يسجى عليها جسد طفل، مغطى بملاءة بيضاء من ملاءات المستشفى. ومع أن دينو لم يكن يبعد عن دُلّي إلا بضعة أقدام، ينام بهدوء، إلا أنها لم تستطع دفع الهلع الذي انتابها حين رأت النقالة المغطاة. سقطتْ على ركبتيها في الدهليز، ومزّقت الملاءة التي تغطي الجثة. كان الطفل ولدًا، في عمر دينو ولا يشبهه في البنية. صرختْ دُلّي بهستيريا، غمرها شعور بالإثم كما غمرها شعور بالارتياح. وكان على ممرضة وعاملة أن رفعها وإعادتها إلى السرير.

مرة أخرى في تلك الليلة، لم تنمْ. فكرت في جسد الولد؛ فكرت فيما يمكن أن تكون عليه حياتها بدون دينو؛ فكرت في أم الولد المتوفي. صرختْ - كأن صوتها اختلط بصوت تلك المرأة المجهولة؛ كأن ارتباطًا خفيًا نشأ بينهم - هي ودينو والطفل المتوفي وأمه.

الآن، وهى تركع على أرضية معبد سول، تذكرتْ صوت الملك ثيبو فى رتناجيرى. فى سنواته الأخيرة بدا أن الملك كان يعتمد أكثر وأكثر على المبادئ التى تعلمها كراهب مبتدئ فى دير القصر. تذكرتْ كلمة استخدمها كثيراً، كرنا - إحدى كلمات بوذا، كلمة بالية[١٨] بمعنى الشفقة، حلول كل الأشياء الحية فى بعضها، جاذبية الحياة لتماثلها. قال لبناته يأتى وقت يكتشفن هن أيضاً ما تعنيه كلمة كرنا، ومنذ تلك اللحظة، لن تكون حياتهن مرة أخرى كما كانت أبداً.

***

بعد جنازة الملك ثيبو بوقت قصير، كتبت الملكة لسجانيها تطلب الإذن بالانتقال إلى بورما. رُفِض الطلب بحجة الأمن، بسبب الحرب فى أوروبا: بدا كأن وجودها قد يثير العصيان فى لحظة حرجة للإمبراطورية. لم يسمح للملكة وبناتها بالعودة إلى وطنهن إلا بعد انتهاء الحرب.

حينها تعرضت الأميرة الأولى لأزمة جديدة. تترك رتناجيرى لتذهب إلى بورما مع أمها؟ أم تبقى مع سوانت؟

وعدت الأميرة زوجها: قالت إنها ستذهب مع أمها إلى بورما وتعود بمجرد أن تستقر جلالتها فى بيتها الجديد. اكتفى سوانت بوعدها ولم يعترض. لكنها كانت خطى ثقيلة تلك التى خطاها إلى المرفأ فى مندفى يوم رحيل المجموعة الملكية. لأن كل ما كان يعرفه، إنها ستكون المرة الأخيرة التى يرى هو أو أطفاله فيها الأميرة إلى الأبد.

شقَّتْ مجموعة الملكة طريقها ببطء عبر شبه القارة مسافرة إلى الشرق من بومباى بالقطار. فى كلكتا أقامت الحاشية فى جراند أوتيل. وكانت الأميرة الثانية تعيش فى كلكتا مع زوجها: لم تستطع تجاهل وجود أمها وأخواتها. ذات مساء جمعت الأميرة التى تبرأت منها أمها عزيمتها وذهبتْ إلى جراند أوتيل لتكلمها.

رفضت الملكة بإصرار مقابلة ابنتها أو زوجها. تراجعت الأميرة، وكانت تعرف أمها جيداً، بكياسة تامة - ولم يكن هذا حال زوجها، الذى استجمع الغضب ليغامر بالدخول دون دعوة إلى حضرة جلالتها. صُدَّ هذا التَّهجُّم بسرعة: بصرخة واحدة غاضبة أرسلت الملكة زوج ابنتها المنحرف هارباً على السلم الرخامى لجراند. وكان لسوء حظه ينتعل حذاء من الجلد بنعل ناعم. انزلقتْ قدماه فطار إلى اللوبى، حيث تعزف فرقة غرفة لحشد من الضيوف. سقط وسطهم مثل سمكة تثب. تهشم تشيلو ورنَّ كمانٌ. كانت الأميرة الثالثة تجلس فى مكان قريب، وقد توترت أعصابها بحزن نتيجة أسفارها الحديثة. انفجرتْ فى نوبة هستيرية ولم تهدأ. وكان لابد من إحضار طبيب.

فى ١٦ أبريل ١٩١٩، أقلعت الملكة ومجموعتها على أرَنْكولا[١٩] التابعة للخدمة البحرية الملكية. وصلوا إلى رنجون بعد أربعة أيام وانتقلوا بهدوء إلى بنجلو فى طريق تشرشل. انقضى أسبوعان فى نوبة نشاط. ثم ردت الأميرة الأولى الجميع إلى الماضى بإعلان أنها جاهزة للعودة إلى سوانت. ضغط مستشارو العائلة عليها. وقيل إن على الأميرة، باعتبارها الابنة الأكبر، واجب البقاء مع أمها- سُمِح بخرق الوعود، على الرغم من كل شىء، لصالح الحس القويم والذوق. لم يشك أحدٌ فى وجود طريقة لغلق الباب بحكمة على سوانت.

حينها أظهرت الأميرة أنها ابنة حقيقية لأسرتها، كل خلية منها تنتمى لأسرة كُنْبُنج- ثبت أن حبها للحوذى السابق لأسرتها راسخ كإخلاص أمها للملك الراحل. تحدَّتْ أسرتها، عادت إلى سوانت ولم تترك رتناجيرى مرة أخرى. عاشت بقية حياتها مع زوجها وأطفالها فى منزل صغير فى ضواحى البلدة، حيث ماتتْ بعد ذلك بثمانية وعشرين عاماً.

عاشت الأميرة الثانية وزوجها فى كلكتا عدة سنوات قبل الانتقال إلى محطة الهضبة فى كليمبُنْج، قرب درجيلنج[٢٠]، حيث فتحت الأميرة وزوجها معمل ألبان.

هذا ما حدث للأميرات الأربع، الاثنتان اللتان ولدتا فى بورما اختارتا العيش فى الهند. واختارت أختاهما الصغريان، اللتان ولدتا فى الهند، الاستقرار فى بورما: تزوجتا وأنجبتا. أما الملكة فقد قضت سنواتها الأخيرة فى بيتها فى طريق تشرشل فى رنجون. أنفقت الأموال التى تنتزعها من السلطات الاستعمارية على الأعمال الدينية وإطعام الرهبان. لم ترتدِ أبداً إلا الملابس البيضاء، لون الحداد فى بورما.

بعد وصول الملكة إلى رنجون، كتبت لها دُلّى عدة خطابات، توسلتْ أن يُسمَح لها بالدخول إلى حضرتها. لم يُرَدّ على أى منها. ماتت الملكة فى ١٩٢٥، بعد ست سنوات من عودتها إلى رتناجيرى. ومع أنها عُزِلتْ سنوات طويلة، كان هناك اندفاع مفاجئ فى المشاعر فى المدينة وتدفق الناس يندبون. ودُفِنتْ قرب معبد شوى داجون فى رنجون.

هوامش

(١) ريموند: Raymond.

(٢) أزيز الحصاد cicadas: نوع من الحشرات، عريض الرأس، ويوجد فى الذكر عضوان يصدران أزيزاً حاداً.

(٣) بينامانا Pyinamana: بلدة قرب مندالى.

(٤) بيسو: Baisu.

(٥) دى ديون: De Dion.

(٦) هزوردارس: hazurdaars.

(٧) بِكْبك Pic-Pic– بيكارد بكتيت Piccard-Pictet.

(٨) يو ثا دين جاى: U Tha Din Gyi. يو أُهْن: U Ohn.

(٩) بايبرنو: Piperno.

(١٠) جلوسترشاير Gloucestershire: بلد فى جنوب غرب إنجلترا.

(١١) لولا Lola؛ فريدمان Friedemann (١٧١٠ – ١٧٨٤) : موسيقى ألمانى.

(١٢) يحفظ الرب الملك God Save the King (أو يحفظ الرب الملكة): نشيد يعزف فى عدد من دول الكمنولث، يعتبر النشيد الوطنى للمملكة المتحدة.

(١٣) ليونيل با ثان: Lionel Ba Than.

(١٤) لوشينفار: Lochinvar.

(١٥) سكوت: Scott.

(١٦) دَلهوسى: Dalhousie. سول: Sule.

(١٧) بهوميسبارشامُرْدا: bhumisparshamurda.

(١٨) كرنا karuna: العطف أو الشفقة. بالية Pali: اللغة التى كتبت بها الكتب البوذية المقدسة.

(١٩) أرَنْكولا: Arankola.

(٢٠) كليمبُنْج: Kalimpong. درجيلنج: Darjeeling.

(١٧)

في ١٩٢٩، بعد انقطاع دام عدة سنوات، استلمتْ دلِّي خطاباً من نيويورك. كان من أوما، كتبتْ تقول إنها تغادر أمريكا. كانت أوما في الخمسين، بعيدة عن الهند لأكثر من عشرين عاماً. في غيابها مات والداها، وتركا لها الدور الأرضى من المنزل، لنكاسوكا (كان الدور العلوى من نصيب أخيها، وقد تزوَّج وصار أباً لثلاثة أطفال). قرَّرت العودة إلى كلكتا لتستقر.

كتبتْ أوما تقول إن عليها، نظراً لالتزامات متنوعة في طوكيو وشنغهاي وسنغافورة، أن تبحر عبر المحيط الهادى بدلاً من الأطلنطى. وإحدى مزايا هذا الطريق أنه يمكِّنها أيضاً من زيارة الأصدقاء - ماثيو وإلسا في الملايو، وبالطبع دلِّي ورجكومار في رنجون. اقترحت أن تلتقي هي ودلِّي في مُرْنْتْجْسَايد لقضاء أسبوعين هناك: ستكون أجازة لطيفة، وبعد ذلك تعودان معاً إلى بورما - بعد تلك السنوات الطويلة، هناك أشياء كثيرة مغرية يجب أن تُعمَل. ومن الأفضل أن تأتى دلِّي مع نيل ودينو: يتيح لها ذلك فرصة للتعرف على الولدين.

اهتزَّتْ دلِّي بغرابة من هذا الخطاب. انتابها قلق واضح على الرغم من سعادتها لتلقى أخبار صديقتها. لم تكن استعادة صداقة خامدة لفترة طويلة مسألة سهلة. لم تملك إلا الإعجاب بأوما لصراحتها؛ عرفتْ أنها هى نفسها انسحبتْ من العالم، صارتْ أكثر عزلة، عزفتْ عن السفر أو حتى الخروج. قنعتْ بحياتها، لكن يقلقها أن الولدين لم يريا إلا القليل جداً من العالم - من الهند أو الملايو أو أى بلد أخرى. لم يكن صحيحاً ألا يعرفا مكاناً إلا بورما: لا أحد يتوقع ما تخبئه الأيام. حتى من النوافذ المغلقة في غرفتها يمكن أن تشعر باضطراب الأرض.

لم تعدْ دلّى إلى مرننجسايد منذ خمسة عشر عامًا، منذ الزيارة الأولى؛ ولا الولدان. كانت تعرف أن من غير المرجح أن يوافق رجكومار على الذهاب. كان مشغولاً فى أعماله أكثر من أى وقت، مرَّتْ أسابيع كاملة لا تراه خلالها. حين عرضت الفكرة عليه، هزَّ رأسه بشدة، كما توقعت: لا، مشغول جداً، لا يستطيع الذهاب.

لكن دلّى انجذبتْ أكثر وأكثر لفكرة لقاء أوما فى مرننجسايد. من الممتع أن ترى ماثيو وإلسا مرة أخرى: جاء مارتين وزوجته مع طفليهما ومكثوا معهم ذات يوم فى بورما– أنجبا، بعد أليسون، ولداً اسمه تيمى. كان الأطفال كلهم صغاراً وقد سعدوا معًا، حتى دينو الذى كان انعزاليًا بطبعه ويكون أصدقاء ببطء شديد. كان ذلك منذ زمن بعيد: دينو فى الرابعة عشرة الآن، طالب فى مدرسة سانت جيمس، إحدى أشهر المدارس فى رنجون. ونيل فى الثامنة عشرة، قويًا ومنبسطًا، تابع الدراسة على مضض فى كلية جدسون[1] فى رنجون: كان توَّاقًا للالتحاق بتجارة الخشب، لكن رجكومار قال إنه لن يشركه فى شئون الأسرة إلى بعد أن ينهى دراسته.

حين تحدثتْ دلّى مع نيل عن الذهاب إلى مرننجسايد، تحمس فوراً، وحرص على الذهاب. لم تندهشْ حقًا؛ تعرف أنه يتطلع دائمًا للتهرب من حضور دروسه. وأثبت دينو أنه أقل حرصًا لكنه قال إنه يريد أن يبرم اتفاقًا: سيذهب إذا اشترتْ له كاميرا برونى[2] من روى وكو. وافقتْ؛ كانت تشجع اهتمامه بالتصوير – جزئيًا لأنها اعتقدت أنه نبع من عادته فى طفولته فى النظر من فوق كتفها وهى ترسم، وجزئيًا لأنها شعرت أن عليها أن تشجع أى نشاط قد يخرجه من انطوائه.

جرى الترتيب بسرعة، بخطابات طارت بين بورما والملايو والولايات المتحدة (دخلتْ خدمة البريد الجوى رنجون حديثًا، مما جعل الاتصالات أسرع بكثير). فى أبريل من العام التالى أبحرت دلّى على سفينة بخارية إلى الملايو مع ولديها. جاء رجكومار ليودع الأسرة، وبعد أن أبحرت دلّى، نظرتْ جانبًا فوجدتْه يلوِّح لها من المرفأ،

يشير بعنف، يحاول لفت انتباهها إلى شيء. نظرت لمقدمة السفينة واكتشفت أنها على نوارا إليا، السفينة التى أتت بها إلى رنجون بعد الزواج مباشرة. صدفة غريبة.

كان ماثيو وأسرته فى الانتظار فى حوض سفن جورج تاون حين دخلـتـه نوارا إليا. وكان دينو أول من لمحهم، من خلال عدسـة الكاميرا البرونى: "هنـاك... إنهم هناك... انظروا."

مالتْ دلِّى على حافة السفينة، مظللة عينيها. بدا ماثيو بوضوح شديد بلفافة رمادية سميكة حول رأسه. صارت إلسا أرزن مما كانت فى اللقاء الأخير، لكن بشكل فخم ومهيب تمامًا. كان تيمى يقف بجوارها، طويلاً بالنسبة لعمره ونحيفًا مثل عود فول. هناك أليسون أيضًا، ترتدى عباءة التلميذات، وشعرها مضفر فى ذيل حصان طويل. اعتقدتْ دلِّى أنها فتاة غير عادية، وجهها مزيج مدهش من عناصر مأخوذة من أبويها: كان لها عظام وجنتى ماثيو وعينا إلسا؛ شعره الناعم وقامتها المنتصبة. يبدو أنها ستكون جميلة حقًا فى يوم من الأيام.

صعد ماثيو على السفينة ورافقهم وهم يغادرونها. كان عليهم جميعًا أن يقضوا الليلة فى جورج تاون وقد حجز الغرف فى فندق. يُنتظَر وصول أوما فى اليوم التالى حيث يتوجهون معًا إلى مرننجسايد. أحضر ماثيو سيارتين وسائقًا: ينتظرون فى بترورث، على أرض القارة.

فى الصباح التالى، بعد الفطور، مشوا معًا إلى الميناء، السبعة جميعًا. عند الرصيف الممتد فى البحر لفت انتباههم حشد صاخب. اجتمع أناس كثر، معظمهم هنود. يمسك كثير منهم بالزهور والأكاليل. وعلى رأس هذا الحشد وقف شخصان مزخرفان وملونان، الأول سادو يرتدى ملابس زعفرانية والآخر سيخى جيانى(٣)، بلحية مسترسلة وحواجب بيضاء كثة. شقَّ نيل، بقوة وحزم وقد تجاوز العشرين، طريقه بين الحشد ليعرف سبب الجلبة. عاد فى ذهول.

"سألتهم ماذا يفعلون هنا فقالوا: جئنا نرحب بأوما دى."

قالت دلِّى لإلسا غير مصدقة: "هل تعتقدين أنهم يقصدون أوما صديقتنا؟"

"نعم بالطبع. لا يمكن وجود اثنتين أوما دى على السفينة نفسها."

ثم ظهرت السفينة، وعلا هتاف الحشد: "أوما دى زنده باد، زنده باد – طول العمر، لك طول العمر يا أوما دى." وجاءت بعد ذلك صيحات أخرى بشعارات كلها بالهندوستانية: "انقلاب زنده باد"، "هلا بول، هلا بول[٤]!" حين رست السفينة تسلق قائدا الحشد المعبر يحملان الأكاليل والزهور المخملية. ثم ظهرت أوما على رأس المعبر وقابلتها نوبة كاسحة من الهتاف: "أوما دى زنده باد، زنده باد!" سادتْ حالة من الفوضى التامة لبعض الوقت.

عرفتْ دلِّى، وهى تشاهد من الطرف البعيد للمعبر، أن أوما فوجئت: لم تستعد، بوضوح، لاستقبال خصص لها ولم تعرف كيف ترد. تفحصت الجماهير كأنها تتطلع إلى شخص معين. رفعتْ دلِّى يدها ولوَّحتْ. لفتت الإيماءة عين أوما فردَّت التلويح بقلق، راسمة إيماءة يأس. أشارتْ دلِّى تطمئنها– لا تقلقى، سننتظرك.

توجهت أوما إلى المعبر ووُضِعتْ عليها أكاليلُ الزهور مرة أخرى. ألقى عدة أشخاص كلمات ووقف الجميع يتصببون عرقًا تحت الشمس الحامية. حاولت دلِّى بجهد أن تركز فيما يقال، لكن عينيها شردتا مرة أخرى فى صديقتها. رأتْ أن أوما هزلت وغارتْ عيناها فى تجويفين عميقين، كأنه احتجاج على الحياة القلقة والمتقلبة. لكن فى الوقت ذاته، كانت هناك ثقة جديدة بالطريق الذى أصرت على السير فيه. من الواضح أنها تعودت على أن تُسمَع، وحين حان دورها فى الكلام، لاحظت دلِّى، برهبة بازغة، أن أوما بدا أنها تعرف ما يقال وكيف تتعامل مع الجماهير.

ثم انتهت الكلمات فجأة وشقَّتْ أوما طريقها بين الجماهير. وقفتْ فجأة أمام دلِّى، وذراعاها مفتوحتان: كل هذا الوقت الطويل! كل هذا الوقت الطويل! ضحكتا وتعانقتا

وتشبـثت كل منهمـا بالأخـرى والأبناء ينظرون فى دهشـة، وهم يقـفـون بعيـداً بعض الشىء.

"كم تبدين فى حالة طيبة، إلسا! وابنتك- جميلة!"

"تبدين فى حالة طيبة أيضاً، أوما."

ضحكتْ أوما: "لا تكذبى علىَّ. أبدو فى ضعف عمرى...

قاطعتْها دُلِّى، دافعة ذراع صديقتها: "من هؤلاء الناس، أوما؟ اندهشْنا كثيراً..."

قالت أوما بسرعة "ينتمون إلى مجموعة أعمل معها. مجموعة تسمى جمعية الاستقلال الهندية. أخبرتُهم بمجيئى، لكنى افترضت أن الكلمة مرت مرور الكرام..."

"لكن ماذا يريدون، أوما؟ لماذا جاءوا؟"

"أخبرك فيما بعد." أمسكتْ أوما بيد دُلِّى ودفعتْ ذراعها فى ذراع إلسا: "هناك الكثير جداً لنتكلم عنه ولا أريد أن أضيع الوقت..."

بعد الظهيرة استقلوا معدية إلى بترورث، حيث تنتظر سيارتا ماثيو فى الميناء، إحداهما أطول من كل ما رأته دُلِّى، تقترب من حجم عربة السكة الحديد. وضح ماثيو أنها دويسنبرج موديل ج تورستر[٥]. بفرامل هيدروليكية ومحركها ٦,٩ لتر، ٨ سلندر. لها سلسلة من أعمدة الكامات العلوية ويمكن أن تسير بسرعة ٩٠ ميلاً فى الساعة فى السرعة الثانية. وفى أعلى سرعة يمكنها أن تقطع ١١٦ .

حرص ماثيو على أن يفرج نيل ودينو على الدويسنبرج، وركبا معه، إضافة إلى تيمى وأليسون. تبعتهم دُلِّى وإلسا أكثر هدوءاً فى السيارة التى أهداها ماثيو لإلسا فى عيد ميلادها الخمسين - إسوتا فراشينى تيبو ٨ أ برلينا ترنسفورمابايل[٦] فخمة باللونين الأسمر والذهبى بفرامل باور. الهيكل من صنع كستانا[٧] والتنجيد بالجلد الفلورنسى.

انطلقت الإسوتا فراشيني شمالاً والشمس تغطس في بحر أندامان، وحين وصلت إلى سنجي بتاني، كان الظلام قد حلَّ تقريباً. تسلقوا منحدرات جننج جيراي والأضواء الأمامية للإسوتا فراشيني تسطع في سحابة من الرماد. انطلقوا بسرعة، وهم يمرون تحت المدخل المقوس للعزبة، في مسار أحمر قذر. لفَّت السيارة منحنى، وظهر قصر أمامهما، انبثق بشكل مثير من المنحدر بمصابيح تسطع من نوافذه ومداخله. شكَّل البرج الدائري نقطة ارتكاز المنزل. شُيِّدت حوله فراندات واسعة نظيفة ورائعة وسقف مقوس قليلاً إلى أعلى على النمط الصيني.

أعلنت إلسا: "منزل مرننجسايد."

داختْ دلِّي. في الظلام الدامس، بدا كأن بريقًا وهميًّا يتدفق من المنزل؛ كأن الضوء ينبع من مصدر داخلي للإضاءة، ينبعث من الجبل الذي يقف عليه.

قالت دلِّي: "إنه فخم، إلسا. لا يمكن أن يوصف بكلمة أخرى. ربما أجمل منزل رأيته في حياتي..."

في الداخل، كان المنزل متألقًا بدفء ثراء الخشب المصقول. في الطريق للعشاء، شردتْ دلِّي وأوما، تاهتا في الدهاليز الطويلة، وشتَّتَتْهما التفاصيل الكثيرة الرائعة للداخل: الأرضية من الخشب المزخرف بصورة معقدة، والجدران مغطاة بأخشاب ناعمة غالية. جاءت إلسا لتبحث عنهما ووجدتهما تنقران درج السلم الكبير الذي يلتف حول مركز المنزل.

"كم هو جميل."

أضاء وجه إلسا بالبهجة: "هل يعجبكما؟" ونحن نشيد مرننجسايد، قال ماثيو ذات يوم: كل ما أملك أدين به للأشجار- الساج والمطاط. فكرتُ واستقر رأيي على أن يكون مرننجسايد نصبًا تذكاريًا للخشب! طلبت من رجكومار أن يرسل أفضل أنواع الساج من بورما؛ أرسلت أناساً إلى سليبيز(8) وسومطرة. ستلاحظان أن كل غرفة بها خشب

من نوع مختلف..."

قادتْهما إلسا إلى الدور الأرضى وأدخلتهما غرفة طعام كبيرة جداً. الحوائط مبطنة ببامبو متشابك والأضواء المعلقة فى السقف موضوعة فى صناديق براقة من الخيزران الهندى. وهن يدخلن نهض سايا جون من على الطاولة ومشى إلى دلِّى وأوما ببطء، بمساعدة عكاز: بدا أصغر حجماً وأكثر شبهاً بقزم، كأن جسمه انكمش بالنسبة لرأسه.

"أهلاً، أهلاً."

على العشاء، جلستْ أوما ودلِّى بين ماثيو وسايا جون. حاول الرجلان بكل جهد الإبقاء على طبقيهما ممتلئين بالطعام.

"هذا جولاى توميس، سمك مطبوخ ببراعم الزنجبيل الوردى، بُنجا كُنْتا[٩]."

"وهذا؟"

"جمبرى مشوى فى أوراق الصنوبر البرغى."

"فطير بالفستق."

"كعك أرز من تسع طبقات."

"فراخ بزهور زرقاء- بُنْجا تِلَنْج[١٠]."

"سمك مخلل بأوراق الكركم وأوراق الليمون والنعناع الأرجوانى."

"سلطة من شرائح الحبار وعصا الراعى ودون كادو[١١]، تزخر برائحة تشبه حديقة توابل."

مع كل لقمة امتلأتْ أفواههم بمذاق جديد، نكهات شهية غير مألوفة. صرختْ أوما: "ما هذا الطعام؟ اعتقدتُ أنى أكلتُ كل شىء فى نيويورك، لكنى لم أتذوق شيئاً

مثله أبداً."

ابتسم سايا جون: "تحبين طبخ نيونيا(١٢)، إذن؟"

"لم آكل أبداً شيئًا مدهشًا بهذه الصورة. من أين؟"

قالت إلسا: "من ملقا وبِنَنْج. أحد آخر الأسرار العظيمة فى العالم."

أبعدتْ أوما طبقها، وقد أتخمت أخيراً، وأسندتْ ظهرها. استدارت إلى دلّى، التى تجلس بجوارها.

"سنوات طويلة جداً."

قالت دلّى: "ثلاث وعشرون، باليوم تقريبًا، منذ رأيتك آخر مرة فى رنجون."

***

بعد العشاء، اصطحبتْ دلّى أوما إلى غرفة نومها. جلست القرفصاء على السرير وأوما تسرح شعرها عند التسريحة.

سألتْ دلّى بخجل: "أوما، تعرفين، ما زلتُ مندهشة..."

"مم؟"

"من استقبالك فى الميناء اليوم – كل أولئك الناس...".

"أوه، تقصدين الجمعية؟" تركتْ أوما المشط وابتسمت لدلّى فى المرآة."

"نعم. حدثينى عنها."

"قصة طويلة جدًا، دلّى، لا أعرف من أين أبدأ."

"لا تبالى. ابدئى فقط."

قالتْ أوما تعود القصة إلى نيويورك. هناك انضمَّتْ للجمعية أول مرة، قدمها أصدقاء، هنود آخرون يقيمون فى المدينة. كان الهنود قليلين ومترابطين تمامًا؛ أتى البعض بحثًا عن ملاذ من مراقبة دوائر المخابرات الإمبراطورية؛ وانسحب آخرون إلى هناك نتيجة الإمكانية النسبية للتعليم. كانوا كلهم تقريبًا بدون استثناء سياسيين عاطفيين؛ من المستحيل، فى ظروف النفى هذه، أن أبقى منعزلة. فى كولومبيا كان هناك المرموق والمجاهد داماصاحب أمبدكار، وتركناث داس[١٣]، رقيق السلوك عنيد الروح. ووسط البلدة، كانت هناك إرسالية الراماكريشنا، فى شقة ضيقة تشبه السندرة، يديرها سَنْت[١٤] وحيد يرتدى ملابس زعفرانية وعدد من المتعاطفين الأمريكيين؛ فى المنطقة التجارية، فى منزل جنوب شارع هُسْتون، كان هناك راجا غريب يعتقد أنه بوليفار[١٥] الهند. لم تكن أمريكا مستشفى لهم أو لمشروعهم: لم تكن غافلة وغير مهتمة فقط، بل لا مبالية بتقديم أى ملاذ.

بسرعة صارتْ شقة أوما من نقاط التقاء هذه الشبكة الصغيرة المكثفة من الارتباطات الهندية. كانتْ هى وأبناء بلدها مثل المستكشفين أو المنبوذين: يشاهدون ويلاحظون، يلتقطون تفاصيل ما يرونه حولهم، ويحاولون استنتاج الدروس لأنفسهم ولبلدهم. استطاعوا، وهم يشهدون مولد القرن الجديد فى أمريكا، أن يروا للوهلة الأولى أمواج الحقبة الجديدة وتياراتها. زاروا المعامل والمصانع وأحدث المزارع الآلية. رأوا أنماطًا جديدة فى العمل تُبتكَر، تدعو لأنماط جديدة من الحركة، وطرق جديدة من التفكير. رأوا أن تعلم القراءة والكتابة فى العالم حاسم للبقاء على قيد الحياة؛ رأوا أن التعليم مسألة ملحة تدفع كل أمة حديثة لجعله إلزاميًا. ومن أندادهم الذين سافروا إلى الشرق عرفوا أن اليابان تحركتْ بسرعة فى هذا الاتجاه؛ وفى سيام أيضًا صار التعليم حملة مقدسة تقودها للعائلة الملكية.

فى الهند، من ناحية أخرى، تلتهم القوات المسلحة معظم أموال الشعب: مع أن الجيش صغير العدد، إلا أنه يستهلك أكثر من ستين فى المائة من دخل الحكومة، أكثر

حتى مما عليه الحال فى البلاد التى توصم بأنها "عسكرية". لم يتعب أبداً لالا هار ديال[١٦]، أحد أبرز معاصرى أوما، من الإشارة إلى أن الهند، عمليًا، حامية عسكرية واسعة وأن هذا ما أفقر القروى الهندى الذى يدفع للعمليات المستمرة للجيش المحتل وللحملات البريطانية الشرقية.

ماذا يكون شعب الهند فى المستقبل حين يصبح وضع العالم بالصورة التى لمحوها فى أمريكا؟ رأوا أنهم لا يدفعون هم وأبناؤهم فقط ثمن هذه الإمبراطورية: أكدت أحوال وطنهم أن أحفادهم سيدخلون الحقبة الجديدة معوقين، تنقصهم أهم الوسائل اللازمة للبقاء على قيد الحياة؛ سيصبحون حقًا فى المستقبل كما لم يكونوا أبداً فى الماضى، عبئًا على العالم. يمكنهم أن يروا أيضًا أن الوقت يجرى، وقد يكون من المستحيل فى القريب العاجل أن يغيروا زاوية دخول بلدهم إلى المستقبل؛ يأتى هذا الوقت حين لا يكون حتى لسقوط الإمبراطورية ورحيل حكامها أى تأثير؛ وُضع مسار وطنهم على طريق لا يتزحزح يدفعه لا محالة إلى كارثة مستقبلية.

أضناهم ما رأوا وما فكروا فيه، حرقهم: شُوِّهوا جميعًا بدرجة ما بمعرفة أن الشر عدوهم. ارتبك البعض، وجُنَّ البعض، واستسلم البعض ببساطة. تحول البعض إلى الشيوعية، ولجأ البعض إلى الدين، منقبين فى الكتب المقدسة عن لعنات يصبونها على أنفسهم، كالبلسم.

كان بين المعاصرين الهنود لأوما فى نيويورك عدد كبير تأثروا بصحيفة إخبارية ينشرها طلبة هنود فى جامعة كاليفورنيا فى بريكلى. كان اسمها غَدَار، وهى كلمة هندوستانية أطلقت على ثورة ١٨٥٧ . وعُرِف المشاركون فى المجلة بحزب غدار. وقد جاءهم معظم الدعم من الهنود الذين استقروا على شاطئ المحيط الهادى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وكان معظم أولئك المهاجرين من السيخ - من الجنود السابقين فى الجيش الهندى البريطانى. حولت خبرة العيش فى أمريكا وكندا كثيراً من هؤلاء الموالين السابقين إلى ثوار. حين أدركوا الرابطة بين معاملتهم

خارج الوطن وموضوع الهند، صاروا أعداء ألداء للإمبراطورية التى خدموها ذات يوم. وركَّزَ البعض جهودهم على محاولة تغيير ولاء أصدقاء وأقارب لا يزالون يخدمون فى الجيش الهندى البريطانى. وتطلع البعض إلى حلفاء خارج الوطن، وطوروا روابط مع المقاومة الأيرلندية فى أمريكا.

كان الهنود، نسبيًا، مستجدين فى فنون العصيان. وكان الأيرلنديون معلميهم وحلفاءهم، يعلمونهم الطرق التنظيمية، يدرِّسون لهم حيل شراء الأسلحة لإرسالها إلى الوطن؛ ويقدمون لهم إرشادات فى تقنيات التمرد المُغطَّى بين رجال وطنهم الذين يخدمون الإمبراطورية كجنود. فى عيد القديس باتريك(١٧) فى نيويورك كانت فرقة صغيرة من الهنود تسير أحيانًا فى العرض الأيرلندى بشعاراتها الخاصة، ترتدى شروانى وعمائم، ومآزر وكرتا وأنجرخاس وأنجافَسْتراس(١٨).

بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى اختفى حزب غدار، تحت ضغط دوائر المخابرات البريطانية، تحت الأرض وتحول ببطء إلى مجموعات مختلفة. من أهمها جمعية الاستقلال الهندية، بآلاف من الأنصار بين الهنود عبر البحار: ومكاتبهم هى ما تزوره أوما فى شرق آسيا.

هنا، قاطعتْها دلِّى، التى ازدادتْ حيرتها كثيراً. قالت: "لكن، أوما، إذا كان ما تخبريننى به حقيقة، فلماذا لم أسمع أبدًا بهذه الجمعية؟ تمتلئ الصحف دائمًا بالكلام عن المهاتما غاندى، ولم يتحدَّثْ أحد أبدًا عن مجموعتكم."

قالت أوما: "السبب فى ذلك، دلِّى، أن مستر غاندى يرأس المعارضة الموالية. اختار، مثل كثير من الهنود الآخرين، التعامل بقفاز الإمبراطورية المخملى بدل الاصطدام بقبضتها الحديدية. لا يرى أن الإمبراطورية تبقى آمنة دائمًا طالما بقى الجنود الهنود موالين. سيقمع الجيش الهندى المعارضة دائمًا أينما حدثتْ – ليس فى الهند فقط، بل فى بورما والملايو وشرق أفريقيا أيضًا، بصرف النظر عن مكانها.

وبالطبع، تفعل الإمبراطورية كل ما يمكن لتبقى على هؤلاء الجنود فى قبضتها: لا تجند إلا طوائف معينة من الرجال؛ بعيدين تماماً عن السياسة والمجتمع الأوسع؛ منحت لهم الأراضى واطمأن أبناؤهم على وظائف."

سألتْ دلِّى: "ماذا تأملون أن تفعلوا إذن؟"

"نفتح عين الجنود. الأمر ليس صعباً كما تعتقدين. الكثير من قادة الجمعية جنود قدامى. جيانى أمريك سنجه(١٩) – على سبيل المثال – هل تتذكرينه؟ الجيانى السيخى البارز الذى جاء إلى المعبر اليوم، تتذكرينه؟"

"نعم."

"أحكى لك قصة عنه. قابلته أول مرة فى كاليفورنيا منذ سنوات طويلة. إنه عسكرى قديم: ترقى إلى رقيب فى الجيش الهندى البريطانى قبل تسريحه. حين سمعته أول مرة يتكلم، تكلم عن ضرورة فتح عين الجنود الهنود. بعد لحظة قلتُ له: "لكن جيانيجى، أنت نفسك خدمت فى هذا الجيش؛ لماذا استغرقت وقتًا طويلاً لتفهم أنك تحتل آخرين مثلك؟"

سألتْ دلِّى: "وماذا قال؟"

"قال: 'لا تفهمين. لم نعتقد أبدًا أننا نستخدم لاحتلال شعوبًا. لم نعتقد إطلاقًا: اعتقدنا العكس. قيل لنا إننا نحرر تلك الشعوب من الملوك الفاسدين أو العادات الشريرة أو أشياء من هذا القبيل. صدقنا ذلك لأنهم صدقوه أيضًا. استغرق الأمر وقتًا طويلاً لنفهم أن الحرية فى عيونهم توجد حيث يحكمون.'"

أقرتْ دلِّى هذا بابتسامة وإيماءة: "لكن ماذا أيضًا، أوما؟ هل قابلتِ شخصًا؟ رجلاً؟ هل تكلمت فى شىء غير السياسة مع ثوارك؟"

ابتسمتْ أوما ابتسامة فاترة: "قابلتُ رجالاً كثيرين، دلّي. وكنا دائماً مثل الإخوة أو الأخوات– هكذا كنا نتخاطب، بهي وباهن[٢٠]. وبالنسبة لى، لأنهم عرفوا أنى أرملة، أعتقد أن الرجال اعتبرونى امرأة مثالية، رمزاً للطهر – والحقيقة، لم أبالِ. كان ذلك الشيء حول السياسة– بمجرد أن الانهماك فيها، تدفعين كل شيء آخر خارج حياتك."

هوامش

(١) تيمى: Timmy . سانت جيمس: St. James . كلية جدسون: Judson College .

(٢) برونى: Brownie .

(٣) سادو sadhu: زاهد مقدس فى الهندوسية، عن السنسكريتية بمعنى مقدس. جيانى: Giani .

(٤) زنده باد zindabad: طول العمر. انقلاب زنده باد Inquilab zindabad: تعبير هندوسى يعنى ثورة طويلة الأمد، وكان شائعًا بين الثوار فى الهند أثناء الحكم البريطانى. هلا بول Halla bol

(٥) دويسنبرج موديل ج تورستر Duesenberg Model J Tourster .

(٦) إسوتا فراشينى تيبو ٨أ برلينا ترنسفورمابايل Isotta-Fraschini Tipo 8A Berlina Transformabile .

(٧) كستانا Castagna: بلدة صغيرة فى إيطاليا .

(٨) سلِبيز Celebes (أو سولاويزى Sulawesi): جزيرة متعرجة الشكل فى وسط إندونيسيا .

(٩) جولاى توميس: gulai tumis. بُنجا كُنْتا: bunga kunta.

(١٠) بُنْجا تِلَنْج: bunga telang.

(١١) دون كادو: duan kado.

(١٢) نيونيا: Nyonya.

(١٣) داماصاحب أمبدكار: Damasaheb Ambedkar. تركناث داس: Taraknath Das .

(١٤) سنت sant: كلمة هندوستانية بمعنى قديس.

(١٥) هُسْتون: Houston. بوليفار Bolívar: سيمون بوليفار (١٧٨٣-١٨٣٠)، المعروف بالمحرر. زعيم أمريكا الجنوبية الشهير، هزم الأسبان ١٨١٩، وصار رئيسًا لكولومبيا العظمى (تشمل الآن كولومبيا وفنزويلا والإكوادور)، وساعد فى تحرير بيرو وبوليفيا .

(١٦) لالا هار ديال Lala Har Dayal (١٨٨٤ - ١٩٣٩) : ثائر هندى، أسس حزب غدار سنة ١٩١٣ لتحرير الهند من الحكم البريطانى. وغدار كلمة هندوستانية أطلقت على ثورة ١٨٥٧ .

(١٧) باتريك Patrick (٣٨٩ - ٤٦١ تقريبا): مبشر مسيحى وراعى الكنيسة الأيرلندية.

(١٨) شروانى sherwani: الثوب التقليدى للرجال فى حيدر آباد. كرتا kurta: سترة، أنجرخا angarkha: بالطو، أنجافَسْترام angavastram: ثوب غير مخيط يوضع على الكتفين.

(١٩) جيانى أمريك سنجه: Giani Amreek Singh.

(٢٠) بهى bhai: أخ. باهن bahen: أخت.

(١٨)

استيقظتْ أوما في الصباح التالي لتجد الفطور مقدَّمًا في الفراندة التي تطلُّ على منحدر الجبل، باتجاه الزرقة الرائعة لبحر أندامان. كان نيل وتيمي يميلان على حاجز البلكونة، يتحدثان عن السيارات. وأليسون ودينو يستمعان دون أن يشاركا. خطر لأوما، وهي تنظر إليهم، أنها لم تكن لتعرفهم لو مرَّتْ بهم في الشارع قبل ذلك بيوم. إلا أنها الآن ترى تاريخ صداقاتها وحياة أصدقائها محفورة في وجوههم - القصص والمسارات التي ربطت حياة إلسا بحياة ماثيو، حياة دُلِّي بحياة رجكومار، ملقا بنيويورك، بورما بالهند.

"الأبناء"- يقفون هنا أمامها: مرَّ يوم ولم تنطق بكلمة لأي منهم. في سان فرانسيسكو، قبل الإبحار، ذهبتْ إلى محل لتشترى هدايا وأخذتْ تتجول باتجاه ملابس الأطفال واللعب والأكواب الفضية. بصدمة تذكَّرتْ أن "الأطفال" نضجوا غالبًا- نيل في العشرين تقريبًا، دينو وأليسون في السادسة عشرة وتيمي أصغر بسنتين فقط. خطر لها أنها لو كان لها أبناء لكانوا في العمر نفسه، لكانوا كلهم أصدقاء - يمكن أن تكتسب لوحة ارتباطات الحياة روعة جيل آخر. لكن ذلك لم يكن، والآن، وأوما تستمع إلى أبناء أصدقائها يمزحون في مستهل شبابهم، شعرتْ بخجل غريب: وهي تحاول التفكير فيما تقول لهم، أدركت أنها لا تعرف ما يفعلون بأوقاتهم، وما يفكرون فيه، والكتب التي يقرأونها.

انزلقتْ في صمت تعرف أنه يستعصى على العلاج إذا استمر. وهكذا، لأنها كانت ما كانت، فعلتْ ما تفعله في لقاء سياسي: وقفتْ، نادتْهم بشكل آمر: "لدى ما أقوله،

استمعوا من فضلكم. أشعر بأن عليَّ التحدث إلى كل منكم على حده، وإلا فإنى لن أعرف أبدًا ما يجب أن أقول لأى منكم..."

اتَّسعتْ عيونهم وهم يستديرون للنظر إليها. فكَّرتْ بينها وبين نفسها: ماذا فعلتُ؟ أصبتُهم بالهلع؛ فقدتُهم للأبد. لكن بعد ذلك، وقد ظهر معنى ما قالتْ عليهم، ابتسموا؛ جاءها انطباع بأنه لم يتكلم معهم شخص راشد بهذه الطريقة من قبل؛ لم يحاولْ شخص كبير أبدًا البحث عنهم لمرافقتهم.

"حسنًا، إذن، أليسون، لنتمشَّ."

بعد ذلك سهل الأمر: بدا أنهم يريدون أن يفرجوها على العزبة، أن يتمشوا. دعوها "عمة" وكان ذلك مبهجًا أيضًا بشكل غريب. بسرعة لم يعودوا مجرد "أطفال"؛ كان كل منهم شخصًا يمكن التعرف عليه: تيمى شخص واثق، يعرف ما ينوى أن يفعله: يريد الذهاب إلى أمريكا للدراسة، كما فعل ماثيو، وبعد ذلك يمارس أعماله بمفرده. نيل نسخة أوضح وأرق من رجكومار: ترى أباه فيه بوضوح تام، لكن مغطى بجيل من الثراء والراحة. وكانت أليسون لغزًا صغيرًا، أحيانًا هادئة وكئيبة وأحيانًا حماسية جدًا، مفعمة بالضحك والحدة، متحدثة ذكية.

دينو الشخص الوحيد الذى حيَّر أوما تمامًا. كلما حاولتْ أن تكلمه بدا حزينًا وعنيدًا، وكانت الملاحظات التى يقدمها أحيانًا لاذعةً عادة إلى حدٍّ بعيد. وحين يتكلم، يتكلم فى اندفاعات متقطعة غريبة، بالعًا نصف كلماته ومُطلقًا البقية: أسلوب فى الكلام جعلها تخشى النطق بشىء خوفًا من أن تبدو وكأنها تقاطعه. لم يبدُ دينو مسترخيًا وبسيطًا إلا والكاميرا فى يديه؛ لكن كان التحدث إلى شخص لا يهتم بشىء إلا عدسته مستحيلاً.

ذات صباح، قالت أليسون لأوما: "هناك شىء أريد أن أريه لك. هل يمكن أن آخذك للتجول بالسيارة؟"

"بكل ترحيب."

كان دينو فى مجال السمع والدعوة ممتدة بطريقة ما وتشمله بوضوح. لكن بدا أن عرض أليسون سبَّبَ للولدِ خجلاً مؤلمًا. تراجع، صانعًا مشهداً عظيمًا وهو يجرُّ قدمه اليمنى وراءه.

قالت أليسون: "دينو، ألن تأتى معنا؟"

"لا أعرف..." شحب وبدأ يغمغم فى ارتباك.

شاهدتْه أوما عن قرب وعرفتْ فجأة أن الولد مغرم بأليسون سراً. ودَّتْ أن تبتسم. يمكن أن تقول لا شىء يتأتى من ذلك: كانا مختلفين إلى أقصى درجة، هو كائن الظلال، وهى حيوان يتوق للضوء. يمكن أن يقضى حياته يربى حنينًا لا يبوح به. ودَّتْ لو تمسك به من كتفيه وتهزه لتوقظه.

أمرتْ بصوت حاد وقاطع: "تعال، دينو، لا تكنْ طفلاً."

قالت أليسون ببهجة: "نعم، تعال. أعتقد أنك ستستمتع."

"هل يمكن أن أحضر الكاميرا؟"

"بالطبع."

نزلوا السلم الماهوجنى الرائع، إلى ممر محصب حيث تركن رودستر حمراء بلون الكرز تحت الشرفة. كانت السيارة ٦- لتر بيج دايتونا[1]، بمقعد لثلاثة أشخاص مع مقعد لشخص واحد فى المؤخرة يُجرُّ مثل الدُّرْج، يستريح على لوح جرار. جرت أليسون المقعد الخلفى لدينو ثم فتحت الباب لأوما.

ارتفع صوت أوما فى دهشة: "أليسون! ألا يسمح لك أبوك بقيادة سيارتيه؟"

ابتسمتْ أليسون، وقالتْ: "هذه فقط. لا يريد أن يسمع أننا نقود الدويسى أو الإسوتا." أدارت المحرك وانطلقت السيارة إلى الأمام، فاندفع وابل من الحصى إلى الشرفة.

صرختْ أوما، متشبثة ببابها: "أليسون! "تسيرين بسرعة كبيرة جداً."

"ليستْ نصف السرعة التى أودُّ أن أسير عليها." ضحكتْ أليسون وألقتْ برأسها. أمسكت الرياح بشعرها ودفعتْه خلفها مثل شراع. اندفعوا من الباب فى نهاية الحديقة، وغطسوا فجأة فى سكون كآبة المزرعة، بأشجارها الرفيعة طويلة الأوراق، مقوسة فوقهم من الجانبين. تمتدُّ الأشجار مرتبة فى صفوف على مدى البصر، متضائلة فى أنفاق طويلة مستقيمة: كان التأثير يسبب الدوار وهم ينطلقون كالوميض بجوارها، آلافًا بعد آلاف. يشبه التحديق فى لقطات على شاشة سريعة الحركة: شعرتْ أوما بدوخة وكان عليها أن تخفض عينيها.

انتهت الأشجار فجأة وظهرتْ بلدة صغيرة من الأكواخ، صفوف من الأكواخ تغطى الطريق - أقفاص من الطوب والملاط مستترة تحت صفائح عالية من الصفيح. تتشابه الأكواخ فى التصميم تماماً إلا أن كلاً منها يتميز فى الشكل تماماً: بعضها رائع، بستائر بسيطة ترفرف على النوافذ الأمامية، والأخرى زرائب، تتكوم على أبوابها أهرام من القانورات.

"حى العمال"، قالت أليسون، مبطئة لحظة. فى لحظة تم تجاوزه وأخذت السيارة سرعتها من جديد. دخلوا، مرة أخرى، نفقًا من جذوع الأشجار المقوسة، واختفوا فى أنبوب من الصفوف المتتابعة.

انتهى الطريق عند جدول. شريط من المياه يتدفق على لوح مائل من الصخر، على سطحه موجات ضئيلة جداً. على الجانب البعيد، يصعد الجبل شاهقًا، تدثّره غابة كثيفة متشابكة. ركنت أليسون السيارة فى منطقة مظللة منزوعة الأشجار وفتحت الباب.

قالتْ: "هنا تنتهى العزبة. الآن علينا أن نتمشى."

ساعدتْ أليسون أوما آخذة بيدها لتشق طريقها ببطء على الجدول. على الجانب الآخر درب يقود مباشرة إلى الغابة، يتجه أعلى منحدر جُنتج جراى. كان المنحدر حاداً وبسرعة نهجتْ أوما.

قالت مباشرة لأليسون: "هل أمامنا طريق طويل؟"

"لا. وصلْنا تقريباً."

"أين؟"

فجأة أتى دينو ليقف بجوارها: "انظرى."

نظرتْ أوما متتبعة الاتجاه الذى يشير إليه إصبعه. خلال كتلة متشابكة من الكروم والبامبو، لمحت صفاً من أبنية حمراء. قالت: "لماذا، تبدو خربة بشكل ما."

تقدم دينو، يسرع بحماس خلف أليسون. تابعتهما أوما من بقعة يستوى عندها المنحدر، رفٌ صخرى. أمامها مباشرة بنايتان تشبهان نصباً تذكارياً، على ركائز مربعة: جدران غرف بسيطة التصميم، لكل منها مدخل يؤدى إلى حظيرة صغيرة. جدرانها الحجرية عفنة بفعل الزمن وسقوفها منهارة.

"آمل أن تقولى لنا ما هذا يا عمة أوما."

"لماذا أنا؟"

"كان والدك أثرياً، أليس كذلك؟"

هزّتْ أوما رأسها ببطء: "بلى، لكن... لم أتعلم الكثير منه..."

كان مشهداً مثيراً، لم تر مثله فى حياتها: حجر أحمر مفتت مرصوص بجانب خضرة الغابة المتشابكة، والجبل يرتفع فى جلال فوقها، وهالة من السحب حول قمته.

استغرق دينو فى تصوير الخرائب متنقلاً حول البنايتين بقدر ما تسمح له قدمه. شعرتْ أوما بغُصَّةٍ حسدٍ مفاجئة: لو كنتُ فى عمره لسيطر هذا على أيضًا، وغيَّر حياتى؛ كنتُ سأعود إلى هنا مرة بعد أخرى؛ ما كنتُ لأستريح حتى أشبع منه؛ لوددتُ أن أخلعهما وآخذهما معى...

قال لها دينو عبر المنطقة مقتلعة الأشجار: "عمة أوما" ما – هذه الخرائب؟"

مررتْ حافة إبهامها على الحجر الإسفنجى. قالت بصوت منخفض: "أعتقد أنها ما اعتاد أبى أن يسميه شاندى[٢]، ضريحًا."

قال دينو: "أى نوع من الأضرحة؟ من شيدهما؟"

ألقتْ بيديها يأسًا من جهلها: "يمكن القول إنهما ليسا ضريحين هندوسيين أو بوذيين. أتمنى لو قلتُ لك أكثر من ذلك."

قال دينو: "هل تعتقدين أنهما قديمان؟"

قالت أوما: "نعم. أنا متأكدة من ذلك. انظرْ فقط إلى تأثير المناخ على الحجر. يمكن أن أقول إن هذين الشاندين قديمان جدًا."

قالت أليسون بلهجة انتصار: "عرفتُ أنهما قديمان. عرفتُ ذلك. لم يصدقنى أبى. قال لا شىء هنا يمكن أن يكون قديمًا لأنه لم يكن هنا إلا الغابة حين جاء أول مرة."

التفتَ دينو إلى أليسون بطريقته غير المتوقعة: "وكيف عثرت على هذا المكان؟"

قالت أليسون: "يأخذنا أبى أحيانًا لننطلق فى الغابة. ذات يوم عثرنا على هذا المكان صدفة." أخذت يد دينو وقالت: "تعال لأريك شيئًا. تعال."

قادته داخل البناية الأكبر. توقفتْ عند الركيزة، أشارتْ إلى صورة على قاعدة، جانش[٣] تأثرت بعوامل المناخ، نُحتتْ فى حجر تغطيه الطحالب.

قالت أليسون: "وجدنا الصورة ملقاة على الأرض، فأعدناها- يبدو أن هذا مكانها."

لمحتْ أوما دينو وأليسون، يقفان في إطار المدخل الخرب، متجاورين. ظهرا صغيرين جداً، أقرب إلى الأطفال من المراهقين. قالت لدينو: "أعطني الكاميرا. ألتقط لكما صورة معًا."

أخذت البروني منه ورجعتْ للخلف، وعينها على العدسة. رأتْهما معًا في إطار. فهمتْ فجأة لماذا يرتب الناس زيجات لأبنائهم: طريقة لتشكيل المستقبل طبقًا للماضي، لتوطيد روابط المرء بذكرياته وأصدقائه. دينو وأليسون- لو كانا فقط متلائمين بشكل أفضل، كم يكون مدهشًا أن يجلبا معًا حكايات كثيرة جداً. تذكَّرتْ ما يفترض أن تفعل، وقد أزعجت نفسها بالتفكير في أشياء لم تكن من شأنها. داستْ على مصراع الكاميرا وأعادتْها إلى دينو.

***

بدأ اليوم مبكِّرًا جداً في المزرعة. كل صباح، قبل الفجر بكثير، تستيقظ أوما على وقع خطوات ماثيو، ينزل السلم الرئيسي ويخرج إلى سيارته. كانت ترى من نافذتها المصابيحَ الأمامية تخترق المنحدر في ظلمة ما قبل الفجر، في اتجاه مكتب العزبة.

ذات يوم قالت لماثيو: "أين تذهب مبكِّرًا جداً في الصباح؟"

"إلى التجمع."

"ماذا؟"

"لدينا أرض جمعية قرب مكتب العزبة. يأتي النقارون هناك في الصباح ويحدد لهم المقاولون مهام اليوم."

أثارت الرطانةُ فضولها: التجمع، المقاولون، النقارون: "هل يمكن أن آتى؟"

"بالتأكيد."

فى الصباح التالى ذهبتْ أوما مع ماثيو إلى المكتب، على طرق مختصر يصل بشكل لولبى إلى المنحدر. توافد كثير من النقارين أمام مكاتب المزرعة بسقوفها الصفيح على ضوء مصابيح الكيروسين المتوهجة: كلهم هنود، من التاميل أساسًا؛ النساء بالسارى والرجال بالسارُنْج.

تلى ذلك عرض عسكرى يشبه تجمع مدرسة. أشرف عليه مدير العزبة، مستر ترمْبل[٤]، أوروبى آسيوى مهيب. انتظم النقارون فى صفوف مستقيمة، فى مواجهة سارية علم طويلة، يحيون بتصنع، مع صفين من المراقبين الهنود اصطفوا خلفهم – وكان هؤلاء "المشرفين."

كان مستر ترمبل يُشاهِد باهتمام والمشرفون يسجلون الحضور. تنوع سلوكه بين سلوك الناظر الصارم والرقيب الفظ. انقضَّ أحيانًا بين الصفوف بعصاه الخيزران المدسوسة تحت ذراعه. ابتسم لبعض النقارين وقال لهم كلمة تشجيع سريعة؛ مع آخرين قدَّم عرضًا ضخمًا من الغضب، مع إيماءات وبذاءات متدفقة بالتاميلية والإنجليزية، مشيراً إلى من يصب عليه حنقه بطرف عصاه: "شيال كلب، ارفع وجهك الأسود وانظر إلى حين أكلمك..."

انزعجتْ أوما من المشهد: شعرت بأنها ترى شيئًا أثريًا، أسلوبًا فى الحياة اعتقدت أنه انقرض لحسن الحظ. فى السيارة سألها ماثيو عن رأيها فى "التجمع" فوجدتْ صعوبة فى التحكم فى صوتها.

"لا أعرف ما أقول، ماثيو. يبدو الأمر وكأن المرء يشاهد شيئًا انتهى منذ زمن: تذكرتُ الجنوب الأمريكى قبل الحرب الأهلية، تذكرتُ كوخ العم توم[٥]."

"أوه، تعالى، ألا تبالغين بعض الشيء؟ يتغذى نقارونا جيداً ويُراعون جيداً. أفضل بكثير مما يمكن أن يكونوا عليه لو عادوا من حيث أتوا."

"أليس هذا ما قاله السادة دائمًا عن العبيد؟"

رفع ماثيو صوته: "ليسوا عبيداً، أوما."

لمستْ أوما ذراعه اعتذاراً: "لا، بالطبع، لا. لا. لكن ألا ترى الرعب في وجوههم حين صرخ ذلك الرجل – المدير – فيهم؟"

"يمارس وظيفته، أوما. وظيفة بالغة الصعوبة يقوم بها بصورة جيدة جداً. ليس من السهل إدارة مزرعة، تعرفين. إذا نظرْتِ إليها وجدْتِها كلها خضراء وجميلة جداً– تشبه غابة. لكنها فعلياً آلة هائلة من الخشب واللحم. في كل دورة، يقاومك كل جزء من هذه الآلة، يصارعك، ينتظر أن تستسلمي."

أوقف السيارة فجأة: "أُريكِ شيئًا"، فتح بابه، وشقَّ طريقه في منصة من المطاط: "تعالى. تعالى هنا."

كان الضوء الأول يبزغ على قمة جننج جراي. الوقت الوحيد في اليوم الذي تُرَى فيه كل مرتفعات الجبل دائمًا، لا يحجبها الضباب الذي يرتفع فيما بعد من السهل الساخن. على المنحدرات فوقهما، تنبعث الحياة ببطء في الأجمة: تنهض أسراب الطيور من ظلال الغابة وتتنقل فرق لا تُرَى من القرود بين قمم الأشجار، مخلِّفةً وراءها أكواماً من الأوراق المتساقطة.

كان الندى يتساقط تحت أشجار المطاط ببطء. مال ماثيو على جذع شجرة وأشار قائلاً: "انظرى إلى هذه الشجرة، وانظرى إلى الأشجار الأخرى من حولها. ألا ترين أنها متماثلة كلها بالضبط؟"

أومأتْ أوما: "نعم، لفَتَ نظرى ذلك قبل أيام: حتى أطرافها تتفرع على الارتفاع نفسه وبالطريقة نفسها."

"هكذا يجب أن تكون. استُثمِر قدرٌ هائل من البراعة الإنسانية لجعل هذه الأشجار متماثلة تمامًا. تسمى نُسَخًا، تعرفين، عمل العلماء فيها لسنوات. معظم أشجارنا من نوع يسمى أفروس(٦) – طوره الهولنديون في سومطرة في العشرينيات. دفعْنا أموالاً طائلةً للتأكد من الحصول على بذور جيدة. لكن دعيني أُرِكِ شيئا."

أشار إلى كوب قشرة جوز هند مربوط في جذع الشجرة، تحت حزٍّ طويل ولولبي في اللحاء: "انظري كمية النسغ الذي أنتجته هذه الشجرة في الليل؟ امتلأت الكوب إلى النصف، وهي الكمية المطلوبة تقريبًا. إذا سرت إلى هذا الصف من الأشجار، تجدين أن معظمها أنتج تقريبًا كمية النسغ نفسها. لكن انظري هناك."

اتَّجهَ إلى شجرة أخرى: "انظري إلى هذه الكوب."

نظرتْ أوما ورأت الكوب التي أشار إليها فارغة تقريبًا. سألتْ: "هل هناك مشكلة في هذه الشجرة، إذن؟"

قال ماثيو: "لا يمكن أن أقول ذلك. تبدو على ما يرام– لا تختلف عن بقية الأشجار. فكري في الجهد البشري الذي بُذِل لتكون مثل البقية. ومع ذلك..."– أشار إلى الكوب الفارغة تقريبًا– "...هذا ما ترين."

"إذن ما المسألة في رأيك؟"

"يقول علماء النبات شيئًا ويقول الجيولوجيون شيئًا آخر ويقول علماء التربة شيئًا ثالثًا. لكن إذا سألْتِني فالحقيقة بسيطة تمامًا."

"ماذا؟"

"تقاوم."

ضحكتْ أوما ضحكة استغراب: "لا يمكن أن تصدق ذلك حقًا."

"زرعتُ هذه الشجرة، أوما. سمعتُ كل ما يقول الخبراء. لكن النقارين يعرفون أفضل. عندهم قول، تعرفين - دُفعتْ مقابلها كل شجرة مطاط فى الملايو حياة هندىٍ يعرفون أن هناك أشجاراً لن تفعل ما تفعله الأشجار الأخرى، وهذا ما يقولون - هذه الشجرة تقاوم."

خلال جنوع الأشجار المحيطة، ظهرت مكاتب المزرعة عن بعد أسفل المنحدر. أشار إليها ماثيو بإيماءة جارفة من يده.

"إمبراطوريتى الصغيرة، أوما. صنعتُها. أخذتُها من الغابة وطوعتُها كما أردتُ. الآن هى ملكى، أرعاها رعاية جيدة. هناك قانون، هناك نظام، كل شىء يجرى بصورة طيبة. انظرى إليها تعتقدى أن كل ما هنا أليفٌ، مدجَّنٌ، وكل الأجزاء تعمل معاً بشكل مناسب. لكن حين تحاولين جعل الآلة كلها تعمل تكتشفين أن كل جزء يقاوم. لا علاقة لهذا بى أو بالصواب والخطأ: قد أجعلها أفضل مملكة صغيرة تدار فى العالم وتظل تقاوم."

"لماذا؟"

"طبيعة: الطبيعة التى صنعتْ هذه الأشجار والطبيعة التى صنعتْنا."

ضحكتْ أوما: "تقول إذن... إن بعض أشجارك متمردة بالغريزة؟"

"ليس حرفيًا."

ضحكتْ أوما مرة أخرى: "لكن، ماثيو، ماذا تفعل إذا قرر نقاروك أن يأخذوا درساً من أشجارك؟"

وحينها جاء دور ماثيو فى الضحك: "نتمنى ألا يحدث ذلك أبداً."

***

بدأتْ أوما، وقد عجزت عن النوم بعد الفجر، تتمشى مسافات طويلة فى أيكات المطاط. مضتْ سنوات منذ استيقظتْ آخر مرة فى هذا الوقت المبكر: كان الفجر اكتشافًا. فى أيام تظهر فرق نقارى المطاط فجأة من ندى الصباح المبكر الذهبى، مع محاليق ضبابية مشبوكة فى السارى والسارنج. كانوا يمرون على بعد بوصات منها، غافلين عن وجودها، مستغرقين بمعنى الكلمة فى الحفاظ على المسافات بينهم، وسكاكينهم التى تشبه المناجل تلمع فى الضوء الخافت وهم يقشرون الأجزاء الفضية من اللحاء من جذوع الأشجار.

ذات يوم وأوما تتمشى فى الصباح الباكر، أدركتْ أن هناك من يتتبعها. نظرت من فوق كتفها فرأت شخصًا يختفى فجأة: ولدًا أو رجلاً، لم تعرف. من السهل عدم التمييز بين الأشياء فى أيكات المطاط، خاصة فى الضوء الخافت فى الفجر. كان ترتيب الأشجار يجعل الأشياء تبتعد عن البصر من صف لآخر، ولا تعرف موضعها منك.

فى اليوم التالى اختبأتْ، حين سمعت حفيف الأوراق خلفها، واستطاعت أن تلمحه عن بعد: كان ولدًا نحيفًا طويلاً أسود، يرتدى قميصًا وسارُنجًا مربعًا. افترضتْ أنه أحد أبناء العمال.

نادتْ، وتردد صدى صوتها فى أنفاق الأوراق: "أنت هناك... من أنت؟ تعال هنا." لمحتْ بياض عينيه، اندلع فجأة فى الظلام. ثم اختفى.

حين عادتْ إلى المنزل، وصفتْ أوما الولد لأليسون: "هل تعرفينه؟"

أومأت أليسون: "نعم. اسمه إلونجو(٧). من حى العمال. هل تتبعك؟"

"نعم."

"يفعل ذلك أحيانًا. لا تقلقى؛ لا يؤذى إطلاقًا. نسميه أبله قرية مرننجسايد."

قرَّرتْ أوما أن تصادق الولد. بدأتْ ذلك بعناية، أخذتْ هدايا صغيرة معها كل صباح، فاكهة في العادة، رَمْبوتن أو مانجو أو مانجوستين(٨). حين رأتْه توقفتْ ونادتْ: "إلونجو، إلونجو، تعال هنا." ثم وضعتْ هداياها على الأرض وابتعدتْ. وثق بسرعة واقترب منها. في المرات القليلة الأولى، لم تحاول أن تتكلم. كانت تضع هداياها وتشاهده عن بعد يأخذها. كان في العاشرة تقريباً لكنه طويل بالنسبة لعمره ونحيف جداً. عيناه كبيرتان ومعبرتان جداً: قد تصدق، وهي تنظر فيهما، أنه ساذج.

قالتْ له ذات يوم بالإنجليزية: "إلونجو، لماذا تتبعني؟" وحين لم يرد، تحوَّلتْ إلى الهندوستانية، وكرَّرت السؤال مرة أخرى.

أدى ذلك إلى تأثير مباشر: بصق بذرة المانجو، بدأ يتكلم.

"بعد أن تذهب أمي للتجمع، لا أحب أن أجلس في المنزل وحدي."

"أنت وحيد في البيت، إذن؟"

"نعم."

"ماذا عن أبيك؟"

"أبي ليس هنا؟"

"لماذا؟ أين هو؟"

"لا أعرف."

"هل قابلْتَه؟"

"لا."

"هل تعرف أين يعيش؟"

"لا. لكن عند أمي صورة له: تقول أمي إنه رجل مهم."

"هل يمكن أن أرى الصورة؟"

"عليَّ أن أسأل أمي." ثم أرعبه شيء وتلاشى بين الأشجار.

بعد يومين، وهما يمشيان بجوار صف من نقَّارى المطاط، أشار إلونجو إلى امرأة وجهها مربع قوى، فى أنفها حلق فضى.

قال: "أمى." همتْ أوما كأنها تقترب منها ففزع الولد: "لا. تعمل الآن. سيعاقبها المشرف."

"لكنى أودُّ أن أكلمها."

"فيما بعد. فى منزلنا. تعالى هنا فى الخامسة، وسوف آخذك."

فى ذلك المساء، سارتْ أوما مع إلونجو إلى حى من الأكواخ حيث يعيشان. كان المسكن صغيراً لكنه أنيق ومكشوف. غيَّرتْ أم إلونجو ملابسها وارتدتْ ساريًا أخضر زاهيًا تحسبًا لزيارة أوما. أخرجت الولد ليلعب ووضعتْ براداً به ماء على النار لإعداد الشاى.

"قال إلونجو إن لديك صورةً لأبيه."

"نعم." أعطتْها نسخة من جريدة باهتة.

تعرفتْ أوما على الوجه من أول نظرة. أدركت أنها عرفته طويلاً، ولم تشأ أن تعترف بذلك لنفسها. أغلقتْ عينيها وأدارت الصورة حتى لا تنظر إليها. كان رجكومار.

قالتْ أخيراً: "هل تعرفين هذا الرجل؟"

"نعم."

"هل تعرفين أنه متزوج؟"

"نعم."

"كيف حدث ذلك؟ بينك وبينه؟"

"أرسلوني إليه. على السفينة، وأنا آتية. نادوني من بطن السفينة وأخذوني إلى كابينته. ولم يكن هناك ما أفعله."

"كانت المرة الوحيدة؟"

"لا. لسنوات بعد ذلك، حين يكون هنا يبعث لي. ليس سيئًا جداً، أفضل من بعض الآخرين. ذات مرة، رأيتُ صورة لزوجته وقلتُ له إنها جميلة جداً، مثل أميرة – ماذا تريد من امرأة مثلي؟"

"ماذا قال؟"

"قال لي إن زوجته تحولتْ عن عالمه؛ فقدت اهتمامها ببيتها وأسرتها، وبه..."

"ومتى رأيتِه آخر مرة؟"

"منذ سنوات طويلة. لم يأتِ بعد أن أخبرته بأني حامل."

"ألا يريد أن يفعل أي شيء للولد – لإلونجو؟"

"لا. لكنه يرسل فلوساً."

"لماذا لم تكلمي زوجته؟ أو مستر مارتين أو مسز مارتين؟ قد يفعلون شيئًا. ارتكب خطأ فادحًا؛ لا يمكن أن يُسمح له بتركك في هذه الحالة."

نظرتْ أم إلونجو إلى زائرتها ورأتْ وجهها ممتعضًا من أجلها. دخلتْ نغمة قلق في نبرة صوتها: "مدام، لن تتكلمي في هذا مع أحد؟"

ردَّتْ أوما بشكل حاسم: "يمكن أن تثقي من أني سأفعل. هذا عمل مشين. سأذهب إلى البوليس إذا تطلب الأمر..."

أصيبت المرأة بهلع. جاءتْ بسرعة عبر الغرفة وغاصتْ على ركبتيها عند قدمي أوما وقالتْ وهي تهزُّ رأسها بعنف: "لا. لا. لا. افهميني من فضلك. أعرف أنك تريدين مساعدتي، لكنك غريبة. لا تعرفين كيف تجري الأمور هنا."

وقفتْ أوما غاضبة: "ماذا تريدين، إذن؟ هل تريدين أن أترك الأمر يمر ببساطة؟ أن يفلت بفعلته؟"

"هذا شأني. *ليس لك الحق في التحدث في هذا الأمر مع أحد*..."

كانتْ أوما تتنفس بصعوبة، يرتفع صدرها غضبًا. قالت: "لا أفهم. يجب أن يُعاقب هذا الشخص على ما فعل بك – بك وبزوجته وأسرته. لماذا تريدين الإبقاء على هذا الموضوع في الخفاء؟"

"لأن عقابه لن يساعدني؛ سيجعل الأمور أسوأ بالنسبة للجميع. ستتوقف الفلوس؛ سيحدث اضطراب. لستُ طفلة؛ *ليس لك أن تتخذي هذا القرار نيابة عني*..."

تدفقت دموع الإحباط من عيني أوما. كثيراً ما لامت النساء اللائي يسمحن لأنفسهن بالوقوع في شباك متاهات الخوف – لكنها، أمام هذه الظروف، وقفتْ عاجزة، كانت جزءًا من الارتباك.

"... مدام، أريد أن تعطيني كلمة بأنك لن تتكلمي عن هذا؛ لن أتركك ترحلين حتى تفعلي."

لم يكن هناك ما تفعله أوما إلا أن تومئ إيماءة موافقة قوية.

هوامش

(١) رودستر roadster: سيارة مكشوفة بمقعد واحد لشخصين أو أكثر. بيج دايتونا: Paige Daytona.

(٢) شاندى chandi: ضريح (سنكسرتية). وشاندى Chandi أيضًا صورة بشعة من الربة ديفى Devi، الربة الأم عند الهندوس.

(٣) جانش Ganesh: رب الحكمة عند الهندوس؛ مزيل العقبات.

(٤) ترمْبل: Trimble.

(٥) كوخ العم توم Uncle Tom's Cabin: رواية إنجليزية شهيرة من تأليف هاريت بيشر ستوى Harriet Beecher Stowe؛ ترسم صورة كئيبة لحياة العبودية.

(٦) أفروس: Avros.

(٧) إلونجو: Ilongo.

(٨) رَمْبوتن rambutans: نوع من الفاكهة فى الملايو، حمراء بيضاوية بها أشواك. مانجوستين mangosteens: نوع من الأشجار ينمو فى شرق الهند ثماره طيبة المذاق.

(١٩)

منذ تلك اللحظة، اكتسبتْ رحلة أوما طبيعة تلقائية تشبه الحلم، مع انطباعات وأحداث تتوالى متدافعة على بعضها، كحبات ثلج تتساقط على شاشة شبكية.

فى مرننجسايد، فى اليوم الأخير من إقامتها، كان لأوما حوار مع دينو أثار دهشتها تمامًا. لاحظتْ أن دلِّى تقضى وقتًا طويلاً بمفردها، تبقى فى غرفتها طوال الصباح ونادراً ما تظهر فى الدور الأرضى قبل الظهر.

مستسلمة للفضول سألتْ أوما دينو: "لماذا لا تتناول دلِّى الفطور معنا؟ لماذا تنزل متأخرة على هذا النحو؟"

نظر دينو بدهشة: "ألا تعرفين؟ تمارس لى يا طاى[1] فى الصباح."

"ماذا؟"

"لا أعرف كيف أشرح... يمكن أن تقولى إنها تتأمل."

لم تستوعبْ أوما: "أوه. ومتى بدأ هذا؟"

"لا أعرف. تفعل ذلك بقدر ما أتذكر... هل كانت لا تفعل ذلك فى وقت من الأوقات؟"

"لا أتذكر..."

غيَّرتْ أوما الموضوع فجأة ولم تمسسْه مرة أخرى.

كانت رنجون المحطة التالية فى خط رحلة أوما. خطَّطتْ جولتها بحيث تقوم برحلة إليها من الملايو بصحبة دلّى ونيل ودينو. ستبقى مع دلّى ورجكومار شهراً قبل الإبحار إلى كلكتا. تطلعتْ لهذه الخطوة، وهى تخطط للجولة، أكثر من غيرها: تخيلتْ نفسها مع دلّى تقضيان الساعات أثناء الرحلة، تتحدثان كما كانتا تفعلان ذات يوم. ملأها المشهد بالفزع.

لكن بمجرد أن استقلوا السفينة، اختفتْ قيود آخر بضعة أيام بشكل يكاد يكــون سحرياً. تدريجياً، عادت الألفة القديمة، لدرجة جعلت أوما تتشجع وتعلق على فترات عزلة دلّى يومياً.

ذات صباح، وهما على ظهر السفينة، قالتْ أوما: "تعرفين، دلّى، بعد أن تحدثنا فى الليلة الأولى فى مرننجساياد، اعتقدتُ أن الأمور ستجرى كما كانت فى الأيام الخوالى. هل تتذكرين، دلّى، فى رتناجيرى، كيف كنا نتحدث طوال الليل، ونبدأ مرة أخرى حين نستيقظ، كأن النوم فترة توقف؟ فى مرننجساياد، كل صباح، أقول لنفسى، اليوم أتمشى مع دلّى ونجلس تحت شجرة وننظر إلى البحر. لكنك لم تظهرى أبداً؛ لم تنزلى أبداً للفطور. حتى سألتُ دينو ذات صباح وأخبرنى بسبب بقائك فى غرفتك إلى وقت متأخر..."

"نعم."

"حاولتُ جهدى أن أحدثك عن حياتى ولم تنطقى بكلمة عن حياتك؛ لا شىء عما يدور فى عقلك أو كيف تشغلين وقتك."

"ماذا أقول، أوما؟ ربما أتكلم لو أن الكلمات تجعلنى أفضل. لكن لا أعرف ما أقول. وخاصة لك..."

"لماذا أنا بشكل خاص؟"

"معك أشعر أن علىَّ أن أعلِّق لنفسى – أقدم تفسيراً."

رأتْ أوما أن ذلك غير صحيح: "ربما تكونين على حق، دلَّى. ربما صعب عليَّ أن أفهم. صحيح أنى لستُ متدينة– لكن كنتُ سأحاول أن أفهم، من أجلك ببساطة. ويمكن أن أحاول، دلَّى، إذا سمحتِ لى."

صمتتْ دلَّى لحظة: "من الصعب أن أعرف من أين أبدأ، أوما. هل تتذكرين أنى كتبتُ لك عن مرض دينو؟ بعد أن انتهى، تغير فيَّ شيء. لم أستطع العودة إلى الحياة التى كنتُ أحياها. ولم يكن ذلك لأنى غير سعيدة مع رجكومار أو لأنى لم أعدْ أشعر بشيء تجاهه؛ فقط ما كنتُ أفعله لم يعد يملأ وقتى أو يشغل عقلى. كالشعور الذى ينتابك حين تكون أيامك فارغة وليس هناك ما تفعلينه– إلا أنها تمر، يوماً بعد يوم. ثم سمعتُ عن صديقة قديمة – ندعوها إفلين. سمعتُ أنها فى ساجاينج[٢]، قرب من مندالى، صارت رئيسة ثى لا شون كيونج[٣]– ماذا أسميه؟ – دير للراهبات البوذيات. ذهبتُ لرؤيتها، وعرفْتُ على الفور أنى فى المكان الذى أريده – حيث ستكون حياتى."

حدَّقتْ فيها أوما بذهول: "حياتك! لكن ماذا عن ابنيك؟"

"من أجلهما – هما ورجكومار – لم أرحلْ بعد. أريد أن أراهما أولاً وقد استقرا – فى الهند بالطبع، فى مكان بعيدٍ عن بورما، بأى درجة. بمجرد أن يصبحا آمنين، سأشعر بأنى حرة فى الذهاب إلى ساجاينج..."

"آمنين؟ لكن أليسوا آمنين حيث هما؟"

الأمور تغيرت فى بورما، أوما. أشعر بالفزع الآن. هناك كثير من الغضب، كثير من الامتعاض، ومعظمه موجه ضد الهنود."

"لكن لماذا؟"

"الفلوس، السياسة"– توقفت دلَّى– "اختلفتْ أشياء كثيرة، من يقول؟ استولى المرابون الهنود على كل الأرض الزراعية؛ يدير الهنود معظم المحلات؛ يقول الناس إن

الهنود الأثرياء يعيشون مثل المستعمرين، يحكمون البورميين. لا أعرف الخطأ والصواب في ذلك، لكنى أعرف أنى أشعر برعب على الولدين - وحتى على رجكومار. منذ فترة، صاحوا فى دينو فى الشوارع: قالوا له زِربادى[٤] - وهى شتيمة لمن هم نصف هنود ونصف بورميين. وفـــى يوم آخر فى رنجون، أحاط حشد بالسيارة وهزوا قبضاتهم لى. قلتُ لهم: 'لماذا تفعلون ذلك؟ ماذا فعلتُ لكم؟' وبدل أن يقدموا لى إجابة، أخذوا ينشدون: "أموريثا كوى كو مايسوكا با نت[٥]..."

"ماذا يعنى ذلك؟"

"أغنية سياسية؛ فحواها من الخطأ أن تتزوج بورمية من أجنبى - النساء مثلى، اللائى تزوجن هنوداً، خائنات لشعبهن."

"هل قلت لهم شيئًا؟"

"نعم قلتُ. غضبتُ بشدة. قلتُ: 'هل تعلمون أنى قضيتُ عشرين عامًا من حياتى فى المنفى مع آخر ملوك بورما؟ هنا نسيتم كل ما يتعلق بنا. أية بهجة تافهة أخذناها من الهنود.'"

"وماذا قالوا ردًا على ذلك؟"

"بدوا بلهاء وانصرفوا. لكن مرة أخرى- من يعرف ماذا يفعلون؟"

"هل أخبرت رجكومار - برغبتك فى أن تترك الأسرة بورما؟"

"نعم. لكنه بالطبع لا يسمع. يقول لى: 'لا تفهمين. لا يمكن للاقتصاد أن يعمل بدون رجال الأعمال الهنود؛ سينهار البلد. هذه الاعتراضات ضد الهنود من عمل محرضين ومشاغبين يحاولون تحريض العامة.' حاولتُ أن أقول إنه هو الذى لا يفهم؛ بورما اليوم ليست بورما التى جاء إليها فى الحادية عشرة. لكنه بالطبع لم يهتم..." توقفتْ: "ستعرفين كيف تبدو حين نذهب إلى هناك..."

فى اليوم التالى، وصلوا إلى رنجون. والسفينة البخارية تأخذ مكانها بجانب الجناح العائم لمرفأ المسافرين فى شارع بار لمحتْ أوما رجكومار يقف فى ظل أفاريز الزينة. ابتسمت ابتسامة عريضة ولوَّحتْ له. ابيضَّ شعرُه عند الصدغين وبدا أعرض وأضخم مما كان فى أى وقت، مع صدر هائل يشبه المنفاخ.

انطلقوا إلى كمندين فى سيارة رجكومار الجديدة، باكارد[٦] رمادية ١٩٢٩ صالون. فى الطريق أشار رجكومار للتغيرات التى طرأت على ما يحيط بهم. بدا أن المدينة تغيرت لدرجة أن أوما لا تتعرف عليها. كانت هناك فنادق فخمة وبنوك كثيرة، مطاعم حديثة ومحلات كبرى بأروقة، وحتى ملاهٍ ليلية. كان معبد شوى داجون العلامة الوحيدة المميزة التى ثبت أنها تقف ضد هذه التغيرات. كان كما تتذكره أوما، وهتيه الذهب الرائع يرتفع فوق المدينة مثل البَرَكة.

تغير منزل كمندين أيضًا: كان مظهره المرتجل العشوائى كما هو، لكنه صار أوسع بكثير، بإضافة أدوار فوقه وأجنحة منبسطة على جانبه. أينما نظرتْ أوما كان هناك مشرفون وجناينية وشوكيدار.

قالتْ أوما لدُلّى: "كم كبر منزلكم! يمكن أن يكون عندكم جيش هنا إذا أردتم."

قالتْ دُلّى: "يريد رجكومار أن يكون كبيراً بما يكفى لأن يعيش فيه الولدان. لكل منهما دور بمفرده. يرى نفسه يحكم إحدى تلك الأسرة الكبيرة المترابطة، التى تكبر مع كل جيل..."

قالت أوما: "لا يبدو أن إقناعه بالمغادرة سيكون سهلاً فى وقت من الأوقات."

"لا. الأمر بالغ الصعوبة..."

فيما بعد فى ذلك اليوم، أحضر دينو صديقًا بورميًا من المدرسة ليراها. اسمه مُنْج ثيها سو[7]، بدا ولدًا أخرق متلهفًا، بكتلة كبيرة من الشعر الأسود اللامع ونظارة سميكة ملطخة. كان متحدثًا بقدر ما كان دينو متحفظًا؛ أمطر أوما بأسئلة غير متوقعة عن أمريكا والكساد.

كان يومًا ساكنًا ومكتومًا بشكل غير عادى وكان الجو حارًا جدًا داخل المنزل. قالت أوما: "تعالا نتكلمْ فى الخارج – قد يكون الجو أبرد."

نزلوا إلى الدور الأرضى وخرجوا يتمشون حول المجمع. وهم يقتربون من عمود كهرباء طويل ينتصب أمام البوابة، لاحظت أوما أنه يميل. توقفتْ فجأة ووضعتْ يدها على عينيها. اهتزتْ قدماها فجأة. شعرت كأن ساقيها تدفعانها إلى الأمام.

صرختْ: "دينو، ماذا يحدث؟"

"زلزال!" وضع دينو يده على كتفها وجثما معًا وذراع كل منهما حول الآخر. بدا أن وقتا طويلاً جدا انقضى قبل توقف الأرض عن الاهتزاز. بحذر ترك كل منهما الآخر والتفتا حولهما، يقيِّمان الأمر. فجأة صرخ مُنْج ثيها ثو، وعيناه مثبتتان على الأفق.

"لا!"

دارت أوما فى الوقت المناسب لترى الهتى الذهبى العظيم للشوى داجون يتداعى.

***

بعد ذلك على الفور، رتبتْ أوما للقيام بجولات فى بورما مع أعضاء رفاق فى جمعية الاستقلال الهندية. ذهبتْ من رنجون شرقًا إلى مولمين وتحولت شمالاً إلى

تونجاى وتونجو وميكتيلا[٨] ومندالى. رأتْ حيثما ذهبتْ شقًّا يتسع بين الهنود وجيرانهم البورميين. كان الغضب عارمًا بين الطلبة والوطنيين لفصل إدارة بورما عن الهند البريطانية. ورأى كثير من الهنود فى ذلك إنذارًا، معتقدين أن الانفصال يهدد أمنهم.

تمزَّقتْ أوما نتيجة لهذا النزاع: تعاطفتْ مع مخاوف الأقلية الهندية وأزعجها اعتقادهم أن أمنهم يكمن فيما تراه السبب الأساسى للمشكلة - نظام الحكم الإمبريالى وسياسته فى تأكيد ضرورته عبر انقسام الخاضعين له. بادرتْ أوما فور عودتها إلى رنجون بتقديم اعتذار لدُلِّى: "دُلِّى، آمل أن تسامحينى على تعاملى مع مخاوفك بخفة. أرى الآن قلقًا متزايداً. بصراحة، أنا مرتبكة تماماً..."

خرجتْ أوما، قبل بضعة أيام من سفرها إلى كلكتا، مع دُلِّى فى الصباح الباكر فى البكارد الرمادية. ذهبتا أولاًإلى طريق تشرشل فى رنجون لإلقاء نظرة على المنزل الذى ماتتْ فيه الملكة سوبايالات قبل بضع سنين.

سألتْ أوما: "هل رأيتِها مرة أخرى، دُلِّى؟"

هزَّتْ دُلِّى رأسها ببطء: "لا. كنتُ فى نظرها فى قارب واحد مع الأميرة الثانية: مطرودة إلى الأبد من حضرتها..."

فى طريق العودة، سارتا بالسيارة بجوار معبد سول ووجدتا الشوارع هادئة على غير العادة فى هذا الوقت من اليوم: "أنا مندهشة لماذا لا توجد عربات ركشو ولا باعة متجولون..." توقفت دُلِّى لتنظر حولها: "يا له من أمر غريب: لا أرى هندياً واحداً فى الشارع."

عن بعد، فى ركن من الشارع، صف طويل من الرجال. رأتا، والبكارد تمر بهم، أن الرجال اصطفوا لوضع تصميمات تشبه الوشم على صدورهم. جاء رد فعل دُلِّى فورياً. مالت لتهز كتف يو با كيو.

"دلّى – ما المسألة؟ ماذا يحدث؟"

"علينا أن نلف. علينا أن نعود – نعود إلى المنزل."

"بسبب هؤلاء الرجال؟ لماذا؟ هل هناك ما يفعلونه بتلك الأوشام؟"

"ليست أوشاما، أوما. تلك تصميمات للجنود الذاهبين إلى الحرب..." بدأت دلّى تدقُّ بقبضتها على ركبتيها فى ذهول: "ستكون هناك اضطرابات على ما أظنُّ. علينا أن نعرف أين الولدان– أين رجكومار. إذا أسرعنا فربما نستطيع أن نوقفهم عن مغادرة المنزل."

على بعد حوالى عشرين ياردة أمام البكارد، قفز رجل من الرصيف وجرى فى الشارع. لاحظتْه أوما ودلّى حين ظهر فى ركن الزجاج الأمامى العريض المقوس للبكارد. كان هنديًا، دافع ركشو، يرتدى صدرة رثة ولُنْجيا. يجرى بمشقة وقطرات العرق تتطاير من ذراعيه. إحدى يديه تخدش الهواء، والأخرى تمسك لنجيه، لتمنعه من الاشتباك فى ساقيه. وجهه أسود وعيناه بيضاوان تماما ومنتفختان. حملته خطوتان من حافة الزجاج الأمامى إلى وسطه؛ التفت لينظر أعلى كتفه ووثبت عيناه فى رأسه. رأتا رجلاً يطارده عن قرب، خلفه بخطوات. كان الرجل عاريًا، على صدره تصميم أسود. كان يحمل شيئًا لكنهما لم تعرفا ما هو لأنه كان مختفيًا تحت حافة الزجاج الأمامى. ثم، فجأة، هزَّ المهاجم كتفيه وسحب ذراعيه إلى الخلف بالطريقة التى يستعد بها لاعب التنس لضرب الكرة. عرفتا أن الأداة التى فى يديه دا، شفرة طويلة لامعة بيد قصيرة، جزء من سيف، وجزء من فأس. شُلَّتا فى مقعديهما والدا تحش كالمنجل فى الهواء فى حركة دائرية. وصل دافع الركشو تقريبًا إلى الطرف البعيد للزجاج الأمامى حين سقطتْ رأسه مثل غصن يشذب، معلقة على عموده الفقرى، ممسوكة بقطعة رقيقة من الجلد. لكن الجسد لم يسقط على الأرض فى الحال: لجزء من الثانية بقى الجذع مقطوع الرأس منتصبًا. رأتاه يتقدم خطوة أخرى قبل أن يصطدم بالرصيف.

كان أول رد فعل أن تمد أوما يدها إلى مقبض الباب.

صرختْ دلّي: "ماذا تفعلين؟ توقفي."

"علينا أن نساعد، دلّي. لا يمكن أن نتركه فى الشارع...

همستْ دلّي: "هل جننتِ؟ إذا خرجت من السيارة الآن، فستقتلين أيضًا. شدَّتْ أوما، دفعتها إلى أرضية السيارة: "اختبئى، أوما. لا يمكن أن نتحمل خطورة أن يراك أحـــد." جعلتْ أوما تستلقى ونزعت أغطية المقعد الخلفى للبكارد: "سأغطيك بهذه. اسكنى ولا تنطقى بكلمة."

وضعتْ أوما رأسها على فرش الأرضية وأغلقتْ عينيها. ظهر أمامها وجه دافع الركشو: رأت رأسه مرة أخرى، يسقط إلى الخلف. فى اللحظة التى بقى فيها الجسم مقطوع الرأس منتصبًا، يتحرك إلى الأمام، لمحتْ تلكما العينين البيضاوين، متدليتين من عموده الفقرى: بدا أن نظرتهما تتجه إلى السيارة، إليها مباشرة. شعرتْ أوما بمعدتها ترتفع وتدفق القىء من فمها وأنفها، ملوِّثًا فرش الأرضية.

"دلّي." فقط وهى تبدأ رفع رأسها، وكزتْها دلّي بحدة. توقفت السيارة فجأة فتجمدتْ ووجهها على بعد بوصات من الفرش المغطى بالقىء. فى مكان ما فوقها تتحدث دلّي إلى شخص ما- مجموعة من الرجال - تشرح شيئًا ما بالبورمية. لم تستغرق المحادثة دقيقة أو اثنتين، لكن بدا أن الأبدية انقضتْ قبل أن تتحرك السيارة مرة أخرى.

***

استمرَّ الشغب عدة أيام وكان الضحايا بالمئات. كان الرقم مرشحًا للارتفاع لو لم يقمْ كثير من البورميين بحماية الهنود من الغوغاء وجعل بيوتهم ملاذًا لهم. تبين فيما

بعد أن الاضطرابات بدأت بخلاف بين العمال الهنود والبورميين فى أحواض السفن. هوجمت الكثير من الأعمال المملوكة للهنود والصينيين، ومنها أحد شوادر خشب رجكومار. وقُتِل ثلاثة من عماله وجُرِح العشرات.

كان رجكومار فى البيت حين اندلعت الاضطرابات. لم يعان هو أو أحد من أفراد أسرته من جراح شخصية. تصادف أن نيل كان آمنًا خارج البلدة حين بدأ الشغب، وقد أخذ دينو إلى البيت من المدرسة صديقُه مُنْج ثيها سو.

على الرغم من خسائر رجكومار فإنه كان أكثر صلابة بشأن البقاء فى بورما من أى وقت: "عشتُ حياتى كلها هنا؛ كل ما أملك هنا. لستُ جبانًا لأتخلى عن كل ما عملتُ من أجله مع أول علامة للاضطراب. وعلى أية حال، لماذا تعتقدين أن الترحيب بنا فى الهند سيكون أكثر من هنا؟ هناك شغب فى الهند طوال الوقت - كيف تعرفين أن الشىء نفسه لن يحدث لنا هناك؟"

رأتْ أوما أن دُلِّى على وشك الانهيار فقررت البقاء فى رنجون لمساعدتها على تجاوز المحنة. صار الأسبوع شهرًا وشهرًا. كلما تحدثتْ عن الرحيل، طلبتْ منها دُلِّى البقاء قليلاً: "لم ينتهِ الأمر بعد- أشعر بشىء فى الهواء."

والأسابيع تمرُّ، تعمَّقَ الإحساس بالقلق الذى خيم على المدينة. ازدادت الأحداث الغريبة. كان هناك كلام عن اضطراب فى مصحة الأمراض العقلية فى رنجون، حيث أوى آلاف من المشردين الهنود بعد الشغب. حدث تمرد فى سجن المدينة بين المساجين وتكلف قمعه أرواحًا كثيرة. كانت هناك همسات عن انفجار أكبر فى الأفق.

ذات يوم أوقف شخص غريب دُلِّى فى الشارع: "هل صحيح أنك عملْتِ فى قصر مندالى، فى زمن الملك ثيبو؟" حين أجابت دُلِّى بالإيجاب، ابتسم لها الغريب: "استعدِّى: سيكون هناك تتويج آخر قريبًا. وُجِد أميرٌ سيحرِّر بورما..."

بعد بضعة أيام علموا أن هناك بالفعل تتويجًا من نوع ما، ليس بعيدًا عن رنجون: توَّجَ معالِجٌ اسمه سايا سان[٩] نفسه ملكًا على بورما، بكلِّ الطقوس التقليدية. جمع فرقة متنوعة من الجنود وطلب منهم الانتقام لأسْر الملك ثيبو.

ذكَّرتْ هذه الإشاعات أوما بالأحداث التى سبقت اندلاع الثورة الهندية فى ١٨٥٧, حينها أيضًا، قبل الطلقة الأولى، ظهرتْ علامات اضطراب فى سهول الهند الشمالية. دارَ الشاباتى[١٠] – الطعام اليومى الأكثر شيوعًا – من قرية لقرية، كأنه تحذيرٌ. لم يعرف أحد من أين أتى أو من نقله – لكن الناس عرفوا بشكل ما أن اضطرابًا كبيرًا فى الطريق.

ثبت أن هاجس أوما صحيح. بدأت الثورة فى المناطق الداخلية من مقاطعة ثاراودى[١١]، حيث قُتِل مسئول عن غابة وعمدتا قريتين؛ فى اليوم التالى اقتحم المتمردون محطة سكة حديد. أُرسِلتْ مجموعةٌ من القوات الهندية للقبض على المتمردين. ظهر المتمردون فجأة فى كل مكان: فى إنسين ويَمْثين وبيابون[١٢]. ظهروا مثل الظلال من الغابة، والتصميمات السحرية على أجسامهم. قاتلوا مثل الممسوسين، وهم يجرون عراة الصدور بين نيران البنادق، يهاجمون الطائرات بالمنجنيق والرماح. أعلن آلاف من أهل القرى ولاءهم للملك المنتظر. قاومت سلطاتُ الاحتلال بإرسال مزيد من التعزيزات الهندية لاقتلاع جذور التمرد. احتُلَّت قرى؛ قُتِل آلاف البورميين وجرح الآلاف.

بالنسبة لأوما، كانت الثورة ووسائل قمعها ذروة كابوس استمرَّ شهرًا: كأنها تشاهد تجسيدًا لأسوأ أحلامها؛ مرة أخرى، يُستخدَم الجنود الهنود لدعم الإمبراطورية. بدا أن لا أحد فى الهند يعرف بهذه الأحداث؛ بدا أن لا أحد يبالى. بدا من الضرورى أن يأخذ شخص على عاتقه مهمة إخبار الشعب فى بلدها.

تصادف أن الخطوط الجوية الهولندية بدأت مؤخراً تسيِّر رحلات جوية تربط سلسلة مدن بين باتافيا[١٣] وأمستردام. وكانت هناك رحلات منتظمة بين مهبط رنجون الجديد فى منجلادون ودم دم كلكتا[١٤]. وكانت الرحلة من رنجون إلى كلكتا تستغرق حوالى ست ساعات– جزء ضئيل من الوقت الذى تستغرقه السفينة. ذهلت أوما بدرجة لا تجعلها تشرع فى رحلة السفينة البخارية التى تستغرق أربعة أيام: اشترى لها رجكومار تذكرة على الخطوط الهولندية.

فى البكارد، فى الطريق إلى مهبط منجلادون، بكت أوما: "لا أصدِّق ما رأيت هنا– القصة القديمة نفسها، يُستخدَم الهنود فى القتل من أجل الإمبراطورية، يقاتلون أناساً يُفترَض أن يكونوا أصدقاءهم..."

قاطعها رجكومار: "أوما، تتحدثين بكلام لا معنى له."

"ماذا تقصد؟"

"أوما، هل توقفْتِ لحظة لتسألى نفسك ماذا يحدث إذا لم يُستخدَم هؤلاء الجنود؟ كنتِ هنا أثناء الشغب: رأيتِ ما حدث. ماذا تعتقدين أن يفعل بنا هؤلاء المتمردون– لى، لدُلّى، للولدين؟ ألا ترين أن هؤلاء الجنود لا يحمون الإمبراطورية وحدها، يحمون دُلّى أيضاً ويحموننى؟"

انفجر الغضب الذى كتمتْه منذ مرنتجسايد: "رجكومار، لستَ فى وضع يسمح بتقديم آراء. أمثالك مسئولون عن هذه المأساة. هل فكرت أبداً فى النتائج وأنت تنقل الناس إلى هنا؟ ما فعلته أنت وأمثالك أسوأ بكثير من أسوأ ما ارتكبه الأوروبيون.

كقاعدة لم يكن رجكومار يجادل أوما فى السياسة. لكنه كان على الحافة هو الآخر، وقد ظهر شىء: "لك آراء كثيرة، أوما – عن أشياء لا تعرفين عنها شيئاً. أسابيع وأنا أسمعك تنتقدين كل ما ترين: وضع بورما ومعاملة النساء وحالة الهند وفظائع الإمبراطورية. لكن ماذا فعلتِ لتكونى مؤهلة لاعتناق هذه الآراء؟ هل بنيْتِ شيئاً فى أى

وقت؟ وفَّرْتِ وظيفة لشخص واحد؟ حسَّنْتِ حالة إنسان بشكل ما؟ لا. كل ما تفعلين دائمًا هو الرجوع إلى الخلف، كأنك فوقنا جميعًا، تنتقدين وتنتقدين. كان زوجك رجلاً مهذَّبًا أكثر من أى رجل قابلته فى حياتى، طاردته إلى حتفه بدوافعك الذاتية-"

صرختْ أوما: "كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ أن تتكلم معى بهذه الطريقة؟ أنت- حيوان، بِنَهَمِكَ، تصميمك على أن تأخذ كل ما تستطيع - بأى ثمن. هل تعتقد أن لا أحد يعرف ما فعلتَ بالناس الذين تحت نفوذك - لنساء وأطفال لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم؟ لست أفضل من نخاس أو مغتصب، رجكومار. كنت تعتقد أنك ستتلقى دائمًا ردًا على ما فعلت، سوى أخطائك؟

بدون كلمة أخرى لأوما، مال رجومار على يو با كيو وطلب منه إيقاف السيارة. نزل إلى الطريق وقال لدُلِّى: "سأجد وسيلة أعود بها إلى المدينة. ودِّعيها. ليس هناك ما أفعله معها."

فى منجلادون وجدت أوما ودُلِّى الطائرة تنتظر على المهبط؛ من طراز فوكر ف - ٨[١٥] بثلاثة محركات بهيكل فضى وأجنحة مرفوعة بقوائم. بمجرد النزول من السيارة، قالت دُلِّى بصوت هادئ: "أوما، كنتِ غاضبة جدًا مع رجكومار وأظن أنى أعرف السبب. لكن لا تحكمى عليه بقسوة شديدة، تعرفين؛ تذكرى أنى أيضًا أتحمل بعض الإثم..."

كانتا عند البوابات؛ عانقتْ أوما دُلِّى بقوة.

"دُلِّى، هل سيغير هذا كل شىء - بالنسبة لنا، أنت وأنا؟"

"لا. بالطبع لا. سآتى وأزورك فى كلكتا كلما استطعت. سيكون كل شىء على ما يرام - سترين."

هوامش

(١) لى يا طاى: le-ya-tai.

(٢) ساجاينج Sagaing: عاصمة مقاطعة ساجاينج فى بورما، على نهر إراودى، على بعد ٢٠ كم جنوب غرب مندالى، على الضفة الأخرى من النهر، وهى مركز دينى به عدد كبير من الأديرة البوذية.

(٣) ثى لا شون كيونج: thi-la-shun-kyaung.

(٤) زِربادى: Zerbadi.

(٥) أموزثا كوى كو مايوكا با نت: Amyotha Kwe Ko Mayukya Pa Net.

(٦) باكارد: Packard.

(٧) مُنْج ثيها سو: Maung Thiha Saw.

(٨) مولمين Moulmein: ثالث أكبر مدن بورما، تقع على بعد ٣٠٠ كم جنوب شرق ينجون. تونجاى Taunggyi: عاصمة ولاية شان فى بورما، ورابع أكبر مدنها، وترتفع ١٤٠٠ متر عن سطح البحر، واسمها بالبورمية يعنى "الجبل الكبير". تونجو Toungoo: مدينة فى مقاطعة باجو، على بعد ٢٢٠ كم كم ينجون تشتهر بالساج. ميكتيلا Meik-tila: مدينة تقع على ضفاف بحيرة ميكتيلا فى مقاطعة مندالى.

(٩) سايا سان Saya San (١٨٧٦ - ١٩٣١) : ناسك وطبيب بورمى، قاد ثورة الفلاحين البورميين فى ١٩٣٠-١٩٣١ وادعى أحقيته بعرش بورما، حكم عليه بالإعدام.

(١٠) شاباتى chapatti: الخبز التقليدى فى شمال الهند، يصنع من الدقيق والماء والملح.

(١١) ثاراودى: Tharawaddy.

(١٢) إنسين Insein: حى يقع شمال ينجون. يَمْثِين Yamthin. بيابون Pyapon: بلدة تقع على بعد حوالى ٧٥ ميلاً إلى الجنوب من ينجون

(١٣) باتافيا Batavia: الاسم القديم لجاكرتا عاصمة إندونيسيا.

(١٤) منجلادون Mingaladon: حى فى شمال ينجون. دم دم Dum Dum: اسم المنطقة التى يوجد مطار كلكتا، تقع شمال المدينة.

(١٥) فوكر ف-٨: Fokker F-VIII.

الجـزء الـرابع

الـعـرس

(٢٠)

على الناحية الأخرى من خليج البنغال، فى كلكتا، كان أخو أوما وأسرته ينتظرون لاستقبالها عند مهبط طائرات دمْ دمْ.

كان أخوها رجلاً هادئًا وشاحبًا إلى حدٍّ ما، يعمل فى قسم الحسابات فى شركة ملاحة. وكانت زوجته تعانى من أزمة ربو شديدة ولا تغادر المنزل إلا نادراً. عن أبنائه، كانت بيلا، الفتاة الصغرى، فى السادسة، وكان لها شقيقان، توأم أكبر منها بسبع سنوات. كان التوأم الأكبر ولداً، أرجون؛ والصغرى فتاة تعرف بلقب عائلتها، مَنْجو. كان اسمها الحقيقى - عجيباً بشكل يتطلب إعادة التفكير فيه - "بريهنّالا[1]"، وقد ثبت بقوة أنه لا يصلح للاستخدام اليومى.

بالنسبة للتوأم، كان وصول أوما إلى كلكتا حدثًا لا يوازيه شىء فى الأهمية. لم يكن ذلك فقط بسبب وضعها: كان ذلك، جزئيًا على الأقل، لأنه لم تُتَحْ أبداً لفرد من العائلة فرصة للذهاب إلى دم دم من قبل. انقضت عشر سنوات على وصول أول طائرة إلى كلكتا: فى ١٩٢٠، استقبلت الجماهير المبتهجة هاندلى بيج[2] فى حلبة السباق. منذ ذلك الوقت، هبطتْ فى المدينة طائرات تابعة للخطوط الجوية الإمبراطورية والخطوط الجوية الفرنسية أيضًا. لكن الخطوط الهولندية أول شركة تبدأ خدمة منتظمة لتقل الركاب وسيطرت دراما تدشين مجيئها وذهابها على المدينة لشهور.

يوم وصول أوما، غمرت الفرحة المنزل حتى أن الأسرة اتخذت خطوة غير مسبوقة واستأجرت سيارة، أوستين شومى[3] جديدة موديل ١٩٣٠ . لكن توقعات التوأم

تلاشتْ عند الوصول إلى مـهبط دم دم: لم يكن إلا مَـدْرَجًا، تحدُّه حقول الأرز ونخيل جوز الهند. كانت وسيلة سفر جديدة جداً بشكل لا يسمح بزخارف المراسيم. لم تكنْ هناك مواكب مما كان يرافق الذهاب إلى أحواض السفن: لم يكن هناك بحارة بزى رسمى أو قبعات بارزة أو مدراء موانئ مزينين بالأشرطة. كل ما هناك سقيفة بسقف من الصفيح ومجموعة مستخدمين ميكانيكيين ألسنتهم بذيئة، بأفرولات مشحمة ومسودة. كان هناك إحساس باللحظة، انبثق من وجود جماهير المؤيدين الذين جاءوا للترحيب بأوما.

كانت منطقة الانتظار حظيرة صغيرة بدون سقف مسيجة بسلك. تراجعت الأسرة، مرعوبة تمامًا، أكثر وأكثر، خلف أعداد ضخمة ممن يهتفون لأوما. سمعوا صوت الفوكر فـ–٨ وهى لا تزال مختبئة فوق السحاب. أرجون أول من لمحها حين اخترقت الجو، بجسمها الفضى الجاثم يلمع بين أجنحتها المزدوجة. حوَّم هيكلها الفضى فوق أشجار النخيل وهى تهبط إلى الأرض.

طال الانتظار فى الشمس قبل أن تظهر أوما. حين هلل الناس أمامهم، عرفوا أن أوما بينهم. وحينها ظهرتْ فجأة، ترتدى ببساطة شديدة ساريًا أبيض من القطن.

كانت أوما فى نظر التوأم مخلوقًا أسطوريًا: عمة أثارت القلاقل وكرَّستْ نفسها لحياة السياسة بدلاً من قبول النصيب المعتاد للأرملة الهندوسية. وهم فى حضرتها صمتوا رهبةً: لم يصدقوا أن بطلتهم امرأة هزيلة بشعر رمادى ووجه منهك.

فى طريق العودة إلى لنكاسوكا، جلسوا متزاحمين معًا فى الأوستين، يتبادلون الأخبار ويتجاذبون أطراف الحديث. ثم فعلتْ أوما شيئًا أثار دهشة أقاربها تمامًا: بدون مبرر، بدون سبب يفهمونه، بدأت تبكى. حدَّقوا فى هلع وهى تنشج فى ساريها. مأخوذين بأسطورتها، لم يستطيعوا مدَّ أيديهم لها. جلسوا فى صمت، متململين، ولم يجرؤ أحد على النطق بكلمة.

وهم على وشك الوصول، تماسكتْ أوما. قالتْ، بدون أن تخاطب أحداً بالتحديد: "لا أعرف ماذا سيطر على. كانت آخر بضعة أشهر قاسية جداً. أشعر كأنى استيقظْتُ من حلم رهيب. فى رنجون، قبل أن أغادرها مباشرة، نشب شجار فظيع. يجب أن أنسى بعض هذه الأشياء..."

***

استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن ترى العائلة شيئاً آخر من أوما. فى الشهور التالية كرست كل طاقاتها لتعريف الشعب الهندى بالتمرد البورمى. أرسلتْ مقالات إلى مودرن ريفيو(٤) فى كلكتا وكتبتْ رسائل للصحف الرئيسية؛ بذلتْ كل جهد لتنبه مواطنيها للدور الذى رسم للجنود الهنود ليلعبوه فى قمع الثورة. لم يكن لكتاباتها تأثير ملموس. كان الشعب الهندى مُستَهلَكاً بالانشغال بالسياسة الداخلية ولم يكن هناك وقت للتفكير فى بورما.

رأتْ ذات يوم، وهى تفتح صحيفة بنغالية، صورة بشعة لستة عشر رأساً مقطوعة ومصفوفة على طاولة. وجاء فى المقالة المرافقة للصورة: "رءوس متمردين بورميين سقطوا فى مواجهة مع القوات الإمبراطورية فى مقاطعة بروم فى بورما. ويعتقد أنها عُرِضتْ فى مركز القيادة فى بروم لإثارة الرعب فى قلوب الذين قد يُستمالون للتمرد".

قصَّتْ أوما المقالة بيدين مرتجفتين. أخذتْها إلى مكتبها لتضعها فى ملف تحتفظ فيه بقصاصاتها. وهى تضعها، وقعت عيناها على حافظة فيها بقايا تذكرة الخطوط الهولندية: نستْها فى زاوية من مكتبها منذ وصولها.

وهى تنظر إليها، فكرت فى المدينة التى أقلعت منها على الفوكر الفضية؛ فكرت فى رجال الأعمال - تجار الخشب وتجار النفط- الذين رافقوها فى السفر؛ فكرت كيف

كانوا جميعًا يهنئون أنفسهم لوجودهم فى فجر حقبة جديدة، عصر يجعل الطيرانُ فيه العالمَ صغيراً جداً، وتختفى تقسيمات الماضى. انضمَّتْ إليهم أيضًا: وهى تنظر من أعلى إلى الأمواج المزبدة فى خليج البنغال، بدا من المستحيل ألا تصدق أن العالم المنكمش الذى صنع هذه السفينة الهوائية سيكون أفضل مما سبقه.

بعد شهور، كانت هذه الصورة – ستة عشر رأسًا مقطوعة، تعرضها قوة حاكمة– صورة تنتمى بشدة للعصور الوسطى بقدر ما يمكن تخيلها. تذكَّرتْ أن بروم مكان معبد شوى ساندو[٥]، يعادل تقريبًا فى مهابته معبد شوى داجون فى رنجون؛ تذكرت حكاية حكاها لها أحد المسافرين معها، تاجر نفط ضخم داكن البشرة. فى يوم الزلزال كان يجلس فى نادٍ إنجليزى فى بروم، قرب معبد شوى ساندو. وأمام عينيه مباشرة تصدع المعبد نتيجة حركة الأرض. وانهار جزء كبير منه على أرض النادى.

امتلأتْ عينا أوما بصور تتذكرها: صورة المنظر الرهيب الذى رأتْه، مجسَّدًا فى الزجاج الأمامى لبكارد دلِّى؛ صورة رجكومار وسلسلة خياناته؛ صورة المشاجرة فى السيارة فى طريق المطار؛ والآن موت ستة عشر متمرِّدًا وقطع رءوسهم ببشاعة.

كان ذلك اليوم بداية تغير فى أوما لم يكن أقلَّ عمقًا من التغير العنيف الذى حدث بعد موت الجابى. مع هزيمة تمرد سايا سان فى بورما، راجعتْ أفكارها السياسية برمتها. وضعتْ، مع زملائها السياسيين فى حزب غدار، الآمال ذات يوم على ثورة مثلها. لكنها رأتْ أن عصيانًا شعبيًا مسلحًا، تلهمه الخرافة والأسطورة، ليستْ أمامه فرصة للتغلب على قوة كالإمبراطورية – ماهرة جداً وقاسية فى استخدام القوة الكاسحة؛ خبيرة جداً فى السيطرة. صار واضحًا بتأمل الماضى أن الشعوب غير المسلحة والمتخلفة تكنولوجيا مثل شعبى الهند وبورما لا يمكن أن تأمل فى أن تهزم بالقوة قوة عسكرية حديثة تمامًا وجيدة التنظيم؛ ولو نجح هذا الجهد فسيكون بإراقة

كميات من الدماء تفوق الخيال - تمرُّد سايا سان مكبَّراً مئات المرات- تضع الهنود أمام بعضهم بطريقة تجعل الانتصار غير مرغوب فيه كالهزيمة.

في الماضي، رفضت الفكر السياسي للمهاتما غاندي: اعتقدتْ أن اللاعنف فلسفة إشباع الأماني. رأتْ أن أفكار المهاتما كانت أمامها لعقود. ربما الأفكار الرومانسية عن التمرد التي احتضنتها في نيويورك أحلامٌ كاذبة. تذكرت كلمات المهاتما، التي قرأتْها كثيراً واستخفَّتْ بها دائمًا: الحركة ضد الإمبريالية ثورة لهنود عُزَّل ضد مَنْ يحملون السلاح - من الهنود والبريطانيين- وآلاتهم المختارة أسلحة اللاأسلحة، ضعفها الشديد مصدر قوتها.

بمجرد أن استقر رأيها، بدأت العمل بسرعة. كتبتْ إلى المهاتما تعرض خدماتها، فدعاها، بدوره، إلى معتزله في وُرْدهَا(٦).

هـوامش

(١) بيلا: Bela. أرجون: Arjun. مَنْجو: Manju. بريهنّالا: Brihannala.

(٢) هاندلى بيج: Handley Page.

(٣) أوستين شومى: Austin Chummy.

(٤) مودرن ريفيو: Modern Review.

(٥) شوى سانو Shwe Sandaw: معبد كبير فى باجان.

(٦) وَرْدهَا Wardha: مدينة فى مقاطعة هندية بنفس الاسم، مركز مهم لتجارة القطن.

(٢١)

اشتهر توأم أخى أوما، الابن والابنة الكبرى للأخ، بالجمال حتى وهما صغيران جداً. اشترك أرجون ومَنْجو فى خاصية أضفت عليهما سحراً غير عادى: غمازة تظهر حين يبتسمان، فى خدٍّ واحدٍ فقط، الخد الأيسر لمنجو والأيمن لأرجون. وهما معًا يبدو الأمر وكأن الدائرة اكتملتْ، وعاد التناسق.

وكان الانتباه الذى يثيره جمال منجو قد جعلها على وعى بمظهرها فى سن مبكرة. كبرتْ وهى تدرك بحدة الانطباع الذى تتركه عند الناس. وفى هذا كان أرجون عكسها: كان بسيطًا إلى درجة الإهمال ولم يحب أكثر من التسكع حول المنزل فى صدرة بالية، ولُنجى مربوط حول خصره.

كان أرجون من الأولاد الذين يشكو المدرسون من أن مستواهم أقل من قدراتهم بشكل لا يمكن إصلاحه. عرف الجميع أنه يتمتع بالذكاء والقدرة على التفوق فى المدرسة، لكن بدا أن اهتماماته انحصرتْ فى النظر للفتيات وقراءة الروايات. أثناء تناول الطعام، يتوانى بكسل على طبقه، بعد أن ينفضَّ الجميع، يمضغ عظام السمك ويلعق الأجزاء الأخيرة من الأرز المشبع بالدال من على أصابعه. وكان أرجون، كلما كبر، يزداد اهتمام جميع أفراد الأسرة به. بدأ الناس يهزون رءوسهم، قائلين: "هل يحقق هذا الولد شيئًا لنفسه؟"

وفى يوم حار فى أبريل، حطم صوت أرجون سُبات العصر فى لنكاسوكا، شهق وصرخ بوحشية. جرى كل من فى البيت إلى البلكونة الخلفية للنظر إلى الفناء.

قالتْ أمه: "أرجون، ماذا تفعل؟"

"دخلْتُها! دخلْتُها!" كان أرجون يرقص حول الفناء، يرتدى الصدرة القذرة المعتادة ولُنْجيًا ممزَّقًا، يلوح بخطاب فى إحدى يديه.

"دخلْتَ ماذا؟"

"الأكاديمية العسكرية الهندية فى دِهْرا دن[1]."

"ولد غبى. عم تتكلم؟"

"نعم؛ صحيح." صعد أرجون السلالم جريًا، ووجهه متورد، وشعره ساقط على عينيه: "قُبِلْتُ فى كلية الضباط."

"لكن كيف حدث هذا؟ كيف عرفوك؟"

"خضعت لاختبار، ماما. ذهبتُ مع" – ذكر اسم صديق من المدرسة– "ولم أخبركم لأنى لم أعتقد أنى سأدخلها."

"لكن مستحيل."

"انظرى."

مرروا الخطاب من يد ليد، متعجبين من المذكرة الرسمية الرائعة والشعار المنقوش فى الزاوية اليمنى العليا. ما كانوا ليندهشوا أكثر إذا أعلن أنه نبتتْ له أجنحة أو نما له ذيل. فى كلكتا فى ذلك الوقت، لم يُسمَعْ أن أحداً التحق بالجيش. لأجيال، حكمت الانضمامَ للجيش الهندى البريطانى سياسةٌ عرقية استبعدتْ معظم رجال البلد، بما فى ذلك البنغال. ولم يكن ممكنًا، حتى وقت قريب جداً، للهنود دخول الجيش كضباط. لم يمضِ على تأسيس الأكاديمية الهندية العسكرية إلا خمس سنوات ولم يعرفْ أحد تقريبًا حقيقةَ أنَّ مقاعدها مفتوحة لاختبارات.

"كيف فعلْتَ ذلك، أرجون؟ وبدون أن تخبرنا بشىء؟"

"أقول لكم، لم أعتقدْ أبدًا أنى سأدخلها. بالإضافة إلى أن الجميع قالوا إنى لن أصلح لشىء أبدًا - ومن ثم قلتُ حسنًا، لنَرَ."

"انتظرْ حتى يعود أبوك للبيت."

لكن والد أرجون لم ينزعج من الأخبار: على العكس، سعد ونظم على الفور رحلة شكر للمعبد فى كاليجات(٢).

"استقرَّ الولد الآن ولم يعدْ هناك ما يقلقنا على..." بدت الراحة على وجهه: "مهنة جاهزة: سوف يترقى سواء أداها بشكل جيد أم لا. وفى النهاية يكون هناك معاش رائع. طالما تقدم فى الأكاديمية، فستتم رعايته بقية حياته."

"لكنه مجرد ولد، وماذا إذا جُرِح؟ أو ما هو أسوأ؟"

"هراء. احتمالات ضئيلة جداً. مجرد وظيفة كأى وظيفة أخرى. بالإضافة، فكروا فى الوضع، المكانة..."

جاء ردُّ فعل أوما أكثر إثارة للدهشة. منذ زارت المهاتما غاندى فى معتزله فى وردها، غيَّرتْ انتماءاتها السياسية. انضمَّتْ لحزب المؤتمر وبدأت العمل مع جناح النساء. توقع أرجون أن تحاول إثناءه عن التوقيع. لكنها قالت: "يعتقد المهاتما أن البلد لا يمكن أن يستفيد إلا حين يكون له رجال ذوو ضمائر فى الجيش. تحتاج الهند جنوداً لا يطيعون رؤساءهم طاعة عمياء..."

***

أخذ مسار منجو منحى مختلفًا عن توأمها. فى الحادية والعشرين لفتت انتباه شخصية سينمائية بارزة - مخرج، ابنة أخيه زميلتها فى الكلية. انشغل المخرج،

وهو رجل شهير، بالبحث عن ممثلة رائدة. وأحدثتْ حكاية تفتيشه إثارة هائلة فى كلكتا.

لُحتْ منجو، بدون أن تدرى، وهى فى الكلية: لم تعرفْ شيئًا عن ذلك إلا حين تلقتْ دعوة لاختبار سينمائى. مالتْ منجو للرفض: تعرف أنها خجولة ومنطوية ومن الصعب أن تتخيل أنها يمكن أن تستمتع بالتمثيل. لكن حين عادت إلى لنكاسوكا عصر ذلك اليوم، عرفت أن التملص من الدعوة لم يكنْ سهلاً كما تخيلت. انتابتْها بعض الشكوك.

فى غرفة نوم منجو نافذة كبيرة؛ اعتادت التحدث مع أرجون وهى تجلس إلى حافة النافذة. لم تتخذ أبدًا من قبل قرارًا بمفردها؛ كان هناك أرجون دائمًا، تتشاور معه. لكن أرجون كان على بعد مئات الأميال فى مركز قيادة كتيبته فى سَهَارنبور[٣] فى شمال الهند.

جلست إلى حافة النافذة وحدها، تجدل شعرها وتفكه وتشاهد مَنْ يستحمون العصر وهم يعبثون فى البحيرة القريبة. نهضت وذهبت لتأتى بعلبة بسكويت هانتلى وبالمير[٤] تحتفظ فيها بخطابات أرجون. تعود الخطابات الأولى إلى أيامه وهو "طالب محترم فى كلية عسكرية"، كانت الأوراق مزينة بشعار الأكاديمية العسكرية الهندية. دلقطقت الصفحات بين أصابعها. كم كانت كتابته جيدة- جمل وفقرات صحيحة. كانا يتحدثان معًا بالبنغالية دائمًا، لكن الخطابات كانت بالإنجليزية- إنجليزية اصطلاحية غريبة، مع كلمات عامية لم تتعرف عليها ولم تعثر عليها فى القاموس. ذهب إلى مطعم "فى البلدة" مع طالب آخر فى كلية عسكرية، اسمه هرديال - معروف بين أصدقائه باسم "هاردى"[٥] - وأكلا "كثيرًا" من السندوتشات وشربا "كميات" من البيرة.

وصل خطابه الأخير منذ أيام قليلة. كانت الورقة مختلفة الآن وتحمل شارة فرقته الجديدة، مشاة الجات[٦] الخفيفة الأولى.

الجو هادئ هنا، لأنا فى محطتنا الوطنية فى سَهَارنبور. قد تعتقدين أننا نقضى وقتنا كله فى طوابير تحت الشمس. لكن لا شيء من هذا القبيل. الشيء الوحيد الصعب هو الاستيقاظ مبكرًا للذهاب إلى أرض الطابور للتدريب البدنى مع الرجال. الأمور، بعد ذلك، هادئة بشكل جميل؛ نتجول بين أخذ التحيات ومشاهدة ضباط الصف يدربون الرجال ويمرنونهم على الأسلحة. لكن هذا لا يستغرق إلا ساعتين، ثم نتحول للفطور، فى التاسعة (أكوام من البيض ولحم خنزير مملح وفخذ خنزير). ثم ينصرف بعضنا للانتظار فى مكتب الوحدة فى حالة وصول رجال فقط. ومن النادر أن يحدثنا ضباط الإشارة عن أحدث رموز المجال، أو نتلقى دروسًا فى قراءة الخرائط أو محاسبة التدوين المزدوج - أو أشياء من هذا القبيل. ثم يأتى الغداء - وبيرة وجن إذا أردنا (لكن ليس هناك ويسكى!)- وبعد ذلك نكون أحرارًا فى الذهاب إلى غرفنا. ويكون هناك وقت للعب كرة القدم مع الرجال. وفى حوالى السابعة والنصف نتجه إلى أرض الميس لتناول بعض الويسكى قبل العشاء. ونسمى الميس الحضانة، على سبيل الفكاهة، لأن النباتات الموضوعة فى آنية تموت حين تأتى- لا أحد يعرف السبب. يقول بعض الرجال إن السبب يرجع إلى غبار ماضى العقداء. نسخر من الحضانة، لكنى أقول لك إنى أتلفت حولى أحيانًا، حتى الآن بعد كل هذه الشهور هنا، فى منتصف العشاء، أو حين نشرب نخبًا، لا أصدق حظى...

فى المرة الأخيرة كان لمنجو حديث طويل مع أرجون على حافة هذه النافذة نفسها. منذ أكثر من سنة بقليل، بعد تخرجه فى الأكاديمية بالضبط. ظلت تدعوه

الملازم ثانى أرجون- من ناحية لتزعجه، وأيضًا لأنها أحبت صوت الكلمات. خاب أملها لأنه لم يلبس زيه أكثر، لكنه سخر منها حين أخبرته بذلك.

"لماذا لا تفرجين صديقاتك علىَّ كما أنا؟"

الحقيقة إن معظم صديقاتها فى الكلية وقعن فى حبه. غررن بها لمعرفة أخباره، وحين يكنَّ فى المنزل يدخلن فى حوارات مدهشة ليحظين برضا الأسرة - بالطبع، على أمل أن يتذكرهن أحد وقت البحث عن عروس لأرجون.

قبل أن يلتحق بالأكاديمية، لم تفهم أبدًا ما يجعل صديقاتها يرونه جميلاً: كان بالنسبة لها أرجون فقط، وجهه وجه أخ. ثم رجع فى زيارة وبدا كأنها تراه للمرة الأولى. اعترفتْ أنه ترك انطباعًا قويًا، بشاربه الرائع وشعره القصير. كانت غيورة، وخافت ألا يقضى الوقت معها. لكنه خلصها من مخاوفها بسرعة. جلس عند حافة النافذة يوميًا، وهو يرتدى صدرته المعتادة واللنجى القديم الرثّ. تحدثا لساعات وقشرت له برتقالاً أو مانجو أو ليشى(٨)- كان جائعًا كما لم يكن أبدًا.

تحدث بلا نهاية عن مشاة الجات الخفيفة الأولى. تقدم إلى عدد من الكتائب الأخرى، لكن فى البداية لم يكن يريد إلا واحدة- الجات الأولى. ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن صديقه هاردى تقدم أيضًا للجات الأولى وكان واثقًا إلى حد بعيد من التحاقه بها. ينحدر من أسرة عسكرية قديمة وقد خدم والده وجده فى الفوج. لكن الوضع، بالطبع، مختلف بالنسبة لأرجون- لم تكنْ له ارتباطات عسكرية- واستعدَّ لخيبة الأمل. ولذا كانت فرحته عارمة حين سمع أن الكتيبة قبلته:

ربما كانت الليلة التى تناولت فيها عشائى الرسمى فى الكتيبة أسعد ليلة فى حياتى. حتى وأنا أكتب هذا الخطاب، أدرك أن ذلك قد يبدو غريبًا، منجو. لكنه حقيقى: تذكرى أن الكتيبة

ستكون بيتى لخمسة عشر عامًا أو عشرين عامًا قادمة- وربما أكثر، إذا لم تجر الأمور بشكل جيد جدًا فى مسارى ولم أحصل أبدًا على أركان حرب (لا سمح الله!).

إلا أن كتيبتى ما يشغلنى حقًا. ربما يدهشك ذلك، لأن المدنيين يعتقدون دائمًا أن الفوج أهم شىء فى الجيش. لكن الفوج، فى الجيش الهندى، ليس إلا تجمُّعًا من الرموز - الألوان والأعلام، إلخ. نحن بالطبع فخورون بفوجنا، لكنه ليس وحدات قتالية ولا تجتمع كتائب فوج إلا حين يكون هناك تغيير فى الألوان- وهذا يتطلب سنوات طويلة.

بقية الوقت نعيش ونحيا مع كتيبتنا وهذا ما يهم حقًا: يمكن أن تكون الحياة جحيمًا إذا وجد المرء نفسه فى حشد لا يناسبه. لكن مرة أخرى كنتُ محظوظًا بشكل جهنمى - دفع هاردى اثنين من شرائطه "الفوجى[9]" وتأكد من أننا سنكون فى الكتيبة نفسها - الأولى. رسميًا نحن مشاة الجات الخفيفة ١/١، لكن الجميع يسموننا الجات ١/١- إلا أنه من وقت لآخر تلتقين بالعقيد القديم ولروس الذى مازال يستخدم الاسم القديم، "الملكية." والقصة أن الكتيبة قاتلت بشكل جيد فى حروب المهراتا وحين وصل اللورد ليك[10] إلى الشاطئ شرفنا بلقب خاص: الكتيبة الملكية.

أمس تأملتُ أنا وهاردى لوحة شرف معارك كتيبتنا، وأقسم لك، منجو، القائمة بطول ذراعى. أثناء التمرد بقيت قواتنا موالية- كان أحد رفاقنا فى القائمة التى أسرت الإمبراطور العجوز،

بهادر شاه ظفر، في مخبئه في مقبرة هوميون. لاحظت شيئًا أراهن أنه سيثير اهتمام دينو ونيل- كانت الكتيبة الملكية في بورما أثناء تقدم الجنرال برِنْدرْجاست في مندالى وحاربت بشكل جيد حتى عُرِفتْ باسم "جرنيل صاحب كي داني هات بلتان[11]"- كتيبة الذراع اليمنى للجنرال.

لأقول لك الحقيقة، منجو، إن التفكير في ذلك كله شيء بسيط. يجب أن ترى قائمة ميدالياتنا: صليب فيكتوريا من السوم[12]؛ صليبان عسكريان لخمد التمرد العربي في بلاد ما بين النهرين في عام ١٨؛ نصف دستة من أوسمة الخدمات المتميزة وأوسمة الإمبراطورية البريطانية منذ حاربنا المتمردين البوكسر[13] في الصين. أحيانًا حين أستيقظ في الصباح، لا أصدق أني أنتمي حقا لهؤلاء الرجال. إن التفكير في أن أعيش من أجل كل هذا يجعلني فخورًا، ومتواضعا أيضًا. وما يجعلني أكثر فخرًا فكرة أنني وهاردي أول ضابطين هنديين في الجات ١/١: تبدو مسئولية هائلة- كأننا نمثل البلد كلها!

وعلى رأس ذلك كله، لدينا قائد جذاب بصورة مطلقة- المقدم بكلاند- ويدعوه الجميع بكِي[14]. إذا نظرت إليه لا تعتقدين أنه عسكري إطلاقًا، يشبه بروفيسور. حاضر في الأكاديمية مرتين: وكان رائعًا، استطاع أن يجعل التاريخ العسكري شيقًا. وهو أيضًا بارع في العمليات والرجال يحبونه. كانت أسرته مع الجات ١/١ منذ كانت تسمى الكتيبة الملكية، ولا أعتقد أن هناك رجلاً في القاعدة لا يعرف اسمه. لا يعرف أسماءهم فقط- يعرف

القرى التى أتوا منها ومن بنات من تزوجوا والمهر الذى دفعوه. بالطبع، أنا مبتدئ ولا أستطيع حتى التأكد من أنه يعرف أننى موجود.

الليلة ليلة ضيوف فى الحضانة، لذا من الأفضل أن أذهب. المراسلة الجديد عندى مشغول بكيٍّ حزام الخصر، ويمكن أن أقول من الطريقة التى ينظر بها إلىَّ إن وقت سترة العشاء حان. اسمه كيشان سنجه(١٥) يعمل معى منذ بضعة أسابيع فقط. رفيق هزيل جاد المظهر لم أعتقدْ فى البداية أنه يصلح، لكن تبين أنه كفءٌ تمامًا. هل تتذكرين ذلك الكتاب الذى أرسلته إلىَّ أوما بيشى(١٦) – قصص أوه هنرى(١٧)؟ لن تصدقى أبدًا، تركتُه على سريرى ودخلتُ ذات ليلة فوجدته مستغرقًا فيه. كان على وجهه عبوس محير، مثل دب يخدش فى جهاز لاسلكى. ارتعب وكاد يفقد صوابه لأنى رأيتُه ينظر فى كتابى– وقف كالتمثال. ومن ثم حكيتُ له قصة عن العقد المفقود. كان يجب أن تريه، وهو يقف كأنه متهم فى مجلس عسكرى، يحدِّق فى الحائط، وأنا أقلب الصفحات وأترجمها إلى الهندوستانية. فى النهاية، صحتُ، بأعلى صوت لى فى أرض الطابور: "كيشان سنجه! ما رأيك فى هذه الكَهانى(١٨)؟"

وقال: "صاحب، إنها قصة حزينة جدًا..." أقسم أن الدموع كانت فى عينيه. أولئك الفوجى عاطفيون جدًا، على الرغم من شواربهم وعيونهم المحتقنة. صحيح أن البريطانيين يقولون: إنهم غير ملوثيــن حقًا؛ ملــح الأرض – يمكن الاعتماد على إخلاصهم؛ رجال تريدينهم بجوارك فى بقعة ضيقة.

خطاب أرجون هو ما جعل منجو تعيد التفكير في اختبار السينما. توأمها هناك، على بعد مئات الأميال، يحتسي الويسكي، ويأكل في ميس الضباط ويجعل مراسلته يكوي له سترة العشاء. وهي هنا في كلكتا، في الغرفة التي قضتْ فيها حياتها كلها، تضفر شعرها ذيل حصان كما كانت تفعل وهي في السابعة. البشع أنه لم يتظاهر حتى بافتقاد البيت.

كانت وحدها، عليها أن تفكر فيما هي مقدمة عليه. عرفتْ منجو أن مستقبلها، بقدر اهتمام أمها، تقرر بالفعل: ستترك البيت كزوجة لشخص ما وليس قبل ذلك بيوم. تأتي أمهات العرسان المتوقعين ويطلبن "رؤية" منجو. شدَّتْ إحداهن شعرها شدة حذرة للتأكد من أنها لا تضع باروكة؛ وطلبتْ أخرى أن تكشف عن أسنانها كأنها مهرة، دفعتْ شفتيها بأصابعها مصدرة صوت فرقعة واهية. اعتذرتْ أمها فيما بعد، لكنها أوضحت أنها لا تستطيع التأكد من عدم تكرار هذه الأحداث: هذا جزء من العملية. عرفتْ منجو أن المزيد من هذه المحن قد يقع مستقبلاً.

تطلعت منجو مرة أخرى إلى دعوة المخرج. كان الأستوديو في توليجُنْج[١٩]، في نهاية خط الترام رقم ٤، الذي تأخذه إلى الكلية يوميًا. كل ما عليها أن تركب في الاتجاه الآخر. لم يكن الأمر يستغرق وقتًا طويلاً للوصول إلى هناك. قررتْ أن تذهب– فقط لترى كيف يبدو الأمر.

لكن ظهرتْ على السطح فجأة عدة مشاكل عملية. ماذا ترتدي، على سبيل المثال؟ البناراسي[٢٠] الحرير "الجيد"، الساري الذي ترتديه في الأفراح، مقفول عليه في أَلميرا[٢١] أمها. إذا سألتها عنه، فستنتزع أمها الحقيقة منها في دقائق وتكون نهاية اختبار السينما. بالإضافة إلى ما يقوله الناس إذا خرجت من المنزل مزينة ببناراسي قرمزي وذهبي في الحادية عشرة صباحًا؟ إذا نجحتْ في التسلل من أمها، فسوف يثير الجيران كلهم جلبة قبل أن تصل إلى آخر الشارع.

قررتْ أن المخرج ما كان ليذهب للبحث عن فتاة فى كلية إذا كان يريد ممثلة متأنقة بشكل خيالى. استقرَّتْ على أفضل ثيابها القطنية البيضاء، ثوب بمربعات خضراء صغيرة. لكن بمجرد حل هذه المسألة، بدت عدة مشاكل جديدة تتوالى. ماذا عن المكياج؟ المساحيق؟ أحمر الشفاه؟ العطر؟

جاء الصباح وبشكل متوقع فشل كل شيء. لم يرجع السارى الذى قررت ارتداءه من عند الدهوبى[٢٢]؛ عليها اختيار سارٍ آخر، أقدم بكثير، به خياطة لقطع فى الأنشل[٢٣]. لن يبقى شعرها على حاله، مهما بذلت من جهد وهى تنحشر فى ساريها، ظلَّتْ حافته تزحف إلى أسفل وتعثرتْ فيها. وهى فى طريق الخروج، دخلت غرفة البوجا لتصلى- ليس لأنها ترغب بشدة فى أن يقع عليها الاختيار، لكن فقط لتجتاز الساعات القليلة التالية دون أن تعرض نفسها لحماقة.

لحقَتْها أمها، بشكل مؤكد، تخرج من غرفة البوجا: "منجو، هل أنت هناك؟ ماذا كنت تفعلين فى غرفة البوجا؟ هل تعانين من مشكلة؟" حدقت بتوجس فى وجه منجو: "ولماذا أغرقْتِ نفسك فى المساحيق؟ على أية حال هل ستذهبين بهذا الشكل إلى الكلية؟"

انسلَّتْ منجو بعيداً بحجة الذهاب إلى الحمَّام لتمسح وجهها. سارتْ بسرعة فى الطريق إلى محطة الترام. ظلت تنظر إلى أسفل، وساريها ملتف على رأسها، على أمل ألا يلحظ الجيران أنها تنتظر الترام فى الاتجاه الخطأ. وهى تفكر فى محاولة الانصراف بدون لفت الأنظار، جاء نيدهو بابو[٢٤] العجوز يعدو من صيدلية طريق البُحَيْرة.

"هل أنت حقا، منجو دِدْموني[٢٥]؟" رفع مئزره وانحنى أكثر بحيث يستطيع النظر إلى وجهها المغطى بالسارى: "لكن لماذا تنتظرين الترام فى الجانب الخطأ من الشارع؟ هذا الطريق ينتهى بك فى توليجنج."

حاولتْ، وهى تقمع رعبها، اختراع قصة عن الذهاب لزيارة خالة.

قال الصيدلى، وهو يهرش فى رأسه: "أوه؟ إذن تعالى وانتظرى فى المحل. لا تقفى فى الشمس."

ناشدتْه: "أنا بخير حقًا. لا تقلق بشأنى. أنا بخير. ارجعْ إلى المحل."

"كما تقولين." انصرف وهو يهرش فى رأسه، لكنه عاد بعد دقائق، مع مساعد يحمل مقعداً. قال الصيدلى العجوز: "إذا كان عليك أن تنتظرى هنا، فيجب على الأقل أن تجلسى." وضع مساعده المقعد فى محطة الترام ونظّفه جيداً.

بدا الاستسلام أسهل من المقاومة. جلست منجو على المقعد، بجوار محطة الترام المغبرة مباشرة. لكن فى خلال دقائق، تحقّقتْ أسوأ مخاوفها: اجتمع حشد حولها يحدقون فيها.

سمعت الصيدلى يشرح للحشد: "أخت رويس[٢٦]، تسكن على الطريق – فى المنزل الذى هناك. تذهب لزيارة خالتها فى توليجنج. تاركة الكلية.

ثم وصل الترام أخيراً فشعرتْ بارتياح. أبعد الصيدلى ومساعده الآخرين لتكون منجو أول من يركب. صرخ الرجل العجوز: "سأرسل لأمك لتعرف أنك ركبت بأمان إلى توليجنج."

ناشدته منجو، وهى تنحنى من النافذة وتهزُّ يديها بقوة: "لا، لا حاجة لذلك حقًا..."

رفع الصيدلى يده إلى أذنه: "ماذا؟ نعم، قلتُ سأرسل شخصًا إلى أمك ليخبرها. لا، ليست مشكلة، ليست إطلاقًا..."

كان انزعاج منجو أكبر، وقد هزّتْها هذه البداية المشئومة، حين وصلت إلى الأستوديو. توقعت شيئًا فخمًا– مثل جراند أوتيل أو سينما مترو، أو المطاعم فى شارع المنتزه بأضوائها البراقة ومظلاتها الحمراء. لكنها دخلت بناية تشبه مستودعًا أو

مصنعًا، سقيفة واسعة بسقف من الصفيح. كان النجارون والمسترى[٢٧] يعملون فى الداخل بجدٍ، يرفعون لوحات الستائر الخلفية وينصبون سقالات من البامبو.

قادها شوكيدار إلى غرفة المكياج، كابينة صغيرة بدون نوافذ بحوائط خشبية من صناديق الشاى المنشورة. بداخلها امرأتان متكاسلتان ، تتمددان على مقعدين مائلين، تمضغان بان[٢٨]، وسارياهما الشفافان يلمعان فى المرايا المضاءة بشدة خلفهما. ضاقتْ عيونهما وهما تنظران إلى منجو، تحركت فكوكهما فى اتساق تام.

غمغمتْ إحداهما للأخرى: "لماذا تبدو مثل ممرضة."

"ربما تعتقد أنها ذاهبة إلى مستشفى."

كانت هناك قهقهات ثم دُفِع سارى فى يدى منجو، قطعة من الشيفون الأرجوانى الغامق بحافة وردية زاهية.

"هيا. غيِّرى."

جازفت منجو معترضة: "لماذا هذا؟".

قالت إحدى المرأتين موجزة بحدة: "يناسب لونك، ارتديه."

تطلعتْ منجو فى الغرفة، بحثًا عن مكان تغير فيه. لم تجد مكانًا للتغيير.

وبَّختْها المرأة: "ماذا تنتظرين؟ أسرعى. يأتى اليوم للمخرج ضيف مهم. لا يمكن أن ينتظر طويلاً."

طوال حياتها، منذ كبرت، لم تخلع ملابسها أبدًا أمام أحد، حتى أمها. حين تبين أن عليها أن تتعرى أمام الفحص المدقق لهاتين المرأتين اللتين تمضغان البان، تخدرت ساقاها. تسربت الشجاعة التى أتت بها إلى هنا.

استعجلتْها المرأة: "هيا. يأتى للمخرج رجل أعمال ليدفع فلوسًا للفيلم. لا يمكن أن ينتظر طويلاً. يجب أن يكون كل شىء على أحسن ما يكون اليوم." انتزعت إحداهما

الساري من يدي منجو وشرعت تغير لها ملابسها. في مكان ما قريب توقفت سيارة. وتلى ذلك وابل من أصوات الترحيب. صرخ شخص عبر الباب: "الضيف وصل. بسرعة، بسرعة، سيحتاجها المخرج في أية دقيقة."

جرت المرأتان إلى الباب لاختلاس نظرة من الشخصية البارزة التي وصلت.

"ألا يبدو مهمًا، بهذه اللحية وفي كل شيء؟"

"وانظري إلى بدلته – كل ما يرتديه على هذا النحو..."

رجعت المرأتان تقهقهان ودفعتا منجو في مقعد.

"نظرة واحدة فقط وتعرفين كم هو غني..."

"أوه، لو تزوجني فقط...

"أنت؟ لماذا لا أكون أنا؟"

حدَّقتْ منجو في المرآة في دوخة غير مفهومة. بدا وجها المرأتين كبيرين ببشاعة، وشفاههما المتبسمة خيالية في حجمها وشكلها. خدش فروة رأسها أظفر حاد، فصرختْ معترضة: "ماذا تفعلين؟"

"نتأكد فقط من القمل."

صرختْ منجو في غضب: "القمل؟ ليس عندي قمل."

"كان عند الأخيرة. وليس على رأسها فقط." وتبع ذلك ضحك مجلجل.

تحدَّتْهما منجو: "كيف عرفتما؟"

"كان الساري يغصُّ بالقمل بعد أن ارتدته."

"الساري!" بصرخة وثبت منجو من على المقعد، وتشبثت بالساري، محاولة تمزيقه.

لم تكف المرأتان عن الضحك. "مجرد نكتة." كانتا تغصان بالقهقهة: "كان ساريا آخر. ليس هذا الساري."

انتحبتْ منجو. قالت: "أريد أن أذهب إلى بيتى. من فضلكما دعونى أخرج. لا تخرجانى أمامهما."

طمأنتها المرأتان: "كل من تأتى إلى هنا تقول ذلك وتبقى إلى الأبد."

أخذاها من ذراعيها وأخرجاها إلى الأستوديو المضاء إضاءة باهرة. كانت منجو فى ذهول تام، أعصابها منهكة وقلقة. وحتى لا تصرخ، ثبتت نظرها على الأرضية، والسارى يتدلى على رأسها. ظهر حذاء أسود لامع فى دائرة رؤيتها. سمعت أنها تُقدَّم للمخرج. وضعت يديها معًا وهمست نوموشكار(٢٩) بدون أن ترفع عينيها. ثم رأت حذاء آخر يقترب منها عبر الأرضية.

قال المخرج بصوت منغم: "وهذا صديقى الرائع، مستر نيلادهرى رها من رنجون..."

تطلعتْ إلى أعلى. لو لم تسمع الاسم لما عرفته. قابلت نيل ودينو منذ سنوات طويلة. قاما بزيارة لهم مع أمهما، وأقاموا فى الدور الأرضى فى شقة عمتها أوما. لكنه بدا مختلفًا تمامًا بلحيته السوداء الأنيقة وبدلته.

"نيل؟"

حدَّق فيها، فاغرًا فاه، ولسانه معقود على صيحة ذهول. لم تكن تلك التى عرفها؛ كان السبب الذى لا يستطيع البوح به أنها، بدون شك، أجمل امرأة تحدث إليها فى حياته.

قالت منجو: "نيل، أليس أنت؟ ألا تتذكرنى؟ أنا منجو - ابنة أخى أوما."

أومأ ببطء غير مصدق، وكأنه نسى صوت اسمه.

جرتْ إليه وألقت بذراعيها على صدره.

قالت، وهى تمسح عينيها فى سترته: "أوه، نيل، خذنى إلى البيت."

***

اختلفت غرفة الملابس حين عادت منجو لاستعادة ملابسها. عاملتها المرأتان بتبجيل.

"هكذا تعرفينه، إذن؟"

"لكن لماذا لم تخبرينا؟"

لم تُضِع منجو وقتًا فى التفسيرات. غيَّرتْ بسرعة وذهبت متعجلة إلى الباب. كان نيل فى الخارج، ينتظر بجوار باب سيارة جديدة ديلج د٨ درويهد[٣٠] موديل ١٩٣٨ . فتح لها الباب فركبتْ. تفوح من السيارة رائحة الكروم والجلد الجديد. قالت: "يا لها من سيارة جميلة. هل هى سيارتك؟"

ضحك: "لا. عرض على البائع أن أستعيرها عدة أيام. لم أستطع المقاومة."

التقتْ عيونهما لحظة وشاح كل منهما بعينيه بسرعة.

قال: "أين تحبين أن تذهبى؟" أدار مفتاح المحرك واستجابت الديلج بخرخرة.

"لنرَ..." كانت تجلس فى السيارة، لم تعد تشعر بالهدوء ومن ثم ضغطت للذهاب إلى البيت.

بدأ يقول شيئًا: "حسنًا..."

لم تستطع أن تقول إنهما كليهما يفكران فى خطوط متماثلة: "ربما..." جملة بدأت واعدة فى رأسها وماتتْ غير مكتملة على لسانها.

"أرى."

"نعم."

بشكل ما نجح هذا التبادل الموجز فى نقل كل ما أرادا توصيله. قاد نيل السيارة وخرجا من الأستوديو. عرفا أنهما لن يذهبا إلى مكان معين، كانا يستمتعان فقط بالمتعة الحسية للجلوس فى سيارة تتحرك."

قال نيل وهو يضحك: "اندهشتُ جداً لرؤيتك فى هذا الأستوديو. هل تريدين حقًا أن تكونى ممثلة؟"

شعرت منجو بلونها يتغير. قالتْ: "لا، أردتُ فقط أن أتفرج. الأمور رتيبة فى البيت..."

قالت هذا كثيراً ولم تستطعْ أن تتوقف. أخبرته بأشياء لم تخبر بها شخصاً آخر: كم افتقدتْ أرجون؛ كيف ملأتْها خطاباته من الأكاديمية العسكرية باليأس على مستقبلها؛ عن البلاء الذى يحل بالمرأة حين تعيش بالتفويض من خلال توأم ذكر. أخبرته حتى بالزيجات التى حاولتْ أمها أن ترتبها لها؛ عن أمهات العرسان المتوقعين وكيف شددن شعرها وفحصن أسنانها.

لم يقل الكثير، لكنها فهمت أن صمته يعود أساساً لافتقاره المعتاد للكلمات. كان وجهه جامداً بشكل لا يسمح بقراءة ما وراء لحيته الكثة، لكن انتابها شعور بأنه يستمع لها بتعاطف، متفهماً كل شىء.

قالتْ فى النهاية: "وماذا عنك؟ هل أنت حقًا منتج سينمائى كبير؟"

اندفعت الكلمة من فمه بقوة: "لا! لا. لم تكن فكرتى إطلاقًا. من اقتراح أبى..."

قال إن ما يريده حقًا العمل فى تجارة الخشب. طلب الانضمام إلى أسرة رجال الأعمال - فرفض أبوه. اقترح عليه رجكومار التفكير فى مسارات أخرى للعمل: قال

إن أعمال الخشب ليست للجميع، خاصة لولد تربى فى المدينة مثل نيل. حين أصرَّ نيل، أعطاه مبلغًا من المال وطلب منه العودة بعد مضاعفة رأس ماله. لكن كيف؟ تساءل نيل. ردَّ رجكومار: اذهب وضعه فى الأفلام- أى شيء. التزم نيل بكلمته. بحث عن فيلم يستثمر فيه ولم يعثرْ على فيلم فى رنجون، فقرر السفر إلى الهند.

قالت منجو: "منذ متى وأنت هنا، إذن؟ ولماذا لم تأتِ لزيارتنا؟ كان عليك أن تستقر مع أوما بيشى، فى الدور الأرضى."

هرش نيل ذقنه بشكل سمج. قال: "نعم، لكنك تعرفين، المشكلة أن..."

"ماذا؟"

"أبى ليس على وفاق مع عمتك."

قالت منجو: "هذا ليس مهمًا. كثيرًا ما تأتى أمك. وأنا متأكدة من أن أباك لن يهتم إذا أتيتَ أيضًا."

"ربما لا - لكنى لم أردْ على أية حال."

"لماذا لا؟"

"حسنًا." هرش نيل لحيته مرة أخرى: "ليس من الصواب..."

"ما الذى ليس من الصواب؟"

"لا أعرف إن كنتُ أستطيع أن أوضح." نظر إليها بارتباك ورأتْه يكافح للعثور على كلمات للتعبير عن فكرة لم ينطقها من قبل، حتى مع نفسه."

"استمر."

قال بلهجة تكاد تكون اعتذاراً: "ترين، أنا الوحيد الذى يقف بجانبه."

فزعتْ منجو: "ماذا تقصد؟"

قال نيل: "هذا ما أشعر به. أنا الوحيد الذى يقف بجانبه. خذى أخى، دينو، على سبيل المثال – أعتقد أحيانًا أنه يكره أباه حقًا."

"لماذا؟"

"ربما – لأنهما نقيضان."

"وأنت مثله؟"

قال: "نعم. على الأقل، هذا ما أودُّ أن أعتقده."

أشاح بعينه عن الطريق ليبتسم لها.

قال: "لا أعرف لماذا أخبرك بهذا كله. أشعر أنى أحمق."

"لست أحمق – أعرف ما تحاول قوله..."

واصلا السير، بشكل عشوائى، من شارع إلى آخر، مرتدَّيْن من الأزقة المسدودة ومستديرَيْن إلى الخلف فى الطرق الأوسع. كان الظلام قد حلَّ تقريبًا حين أنزلها. واتفقا على أن الأفضل ألا يدخل.

التقيا مرة أخرى فى اليوم التالى والذى يليه. مدَّ إقامته وبعد مرور شهر أرسل برقية إلى بورما.

ذات يوم ظهرتْ دُلِّى عند باب مكتب أوما.

"دُلِّى؟ أنت هنا؟"

"نعم. ولن تصدقى السبب أبدًا..."

هوامش

(١) دهْرا دن Dehra Dun: مدينة فى شمال الهند.

(٢) كاليجات Kalighat: واحد من أقدم الأحياء فى جنوب كلكتا.

(٣) سَهَارنبور Saharanpur: مدينة فى شمال الهند.

(٤) هانتلى وبالمر: Huntley and Palmer.

(٥) هرديال Hardayal. هاردى Hardy.

(٦) الجات Jat: قبيلة تنتشر على نطاق واسع فى شمال غرب الهند.

(٨) ليشى lychee: ثمرة حمراء، فيها بذرة كبيرة وحولها غلاف لحمى لذيذ.

(٩) فوجى fauji : عسكرى (سنكرستية).

(١٠) ولروس: Walrus. المهراتا Mahratta: ولاية هندية. ليك: Lake.

(١١) برِنْدرْجاست: Prendergast. جرنيل صاحب كى دانى هات بلتان: jarnail-saheb ki dyni haat ki pal-tan.

(١٢) سوم Somme: نهر طوله حوالى ١٥٠ ميلاً، شمال فرنسا، غرب وشمال غرب القنال الإنجليزى. استخدمت الدبابات لأول مرة فى معركة السوم المدمرة (١٩١٦).

(١٣) البوكسر Boxer: جمعية سرية فى الصين قامت بمحاولة فاشلة لطرد الأجانب من الصين عام ١٩٠٠.

(١٤) بكلاند: Buckland. بَكِى: Bucky.

(١٥) كيشان سنجه: Kishan Singh.

(١٦) بيشى pishi:

(١٧) أوه هنرى O. Henry: وليم سيدنى بورتر William Sydney Porter (١٨٦٢ - ١٩١٠)، كاتب أمريكى جمعت قصصه القصيرة فى عدة مجلدات، منها Cabbages and Kings (١٩٠٤)، The Four Million (١٩٠٦).

(١٨) كَهانى kahani: قصة.

(١٩) توليجنْج Tollygunge: ضاحية فى جنوب كلكتا.

(٢٠) بناراسى Benarasi: من أجود أنواع السارى فى الهند.

(٢١) ألميرا almirah: خزانة.

(٢٢) الدهوبى dhobi: الغسالة.

(٢٣) الأنشل anchal: طرف الثوب (هندوستانى).

(٢٤) نيدهو بابو: Nidhu-babu.

(٢٥) دِدْمونى: didmoni.

(٢٦) رويس: Roys.

(٢٧) مسترى mistries

(٢٨) بان paan: تقليد فى جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا يتكون من مضغ أوراق البتل وبندق الأريقة.

(٢٩) نوموشكار: nomoshkar.

(٣٠) ديلج د٨ دروبهد: Delage D8 Drophead:

(٢٢)

كان العرس يشبه الطبيعة فى قوته، غيَّرَ كل ما مسَّه. فى أيام تحول لنكاسوكا إلى معرض كبير صاخب. على السطح يعمل فريق من صانعى البندال[١]، ينصب مظلة هائلة من القماش الملون والبامبو. فى الساحة المظللة بالأشجار فى الخلف، ينصب جيش صغير من الطباخين المستأجرين خيامًا ويحفرون حُفَرًا لنيران الطبخ. كأن كرنفالاً انتقل إلى هناك.

كانت بيلا أصغر من فى البيت؛ فى الخامسة عشرة، فتاة نحيفة خرقاء، تتفتح فى مراهقة متأخرة وصعبة. تقلَّبتْ بين القلق والبهجة، غير متأكدة إن كان عليها إلقاء نفسها فى المهرجانات أم الاختباء فى السرير.

والعرس يقترب، عصفتْ زوبعة من البرقيات- حتى ذلك الوقت كانت نادرة ومفزعة- بلنكاسوكا، هزَّتْ أبوابه ونوافذه. لم يمر يوم لم تلمح فيه بيلا ساعى البريد يعدو على السلم بظرف وردى. وصل أرجون بالقطار، ومعه المراسلة، كيشان سنجه. وصلت دُلّى مع دينو ورجكومار قبل يومين على الطراز الجديد دى سى - ٣ إس[٢] للخطوط الهولندية.

وصلت الإثارة قمتها يوم وصول مجموعة رنجون. لحسن الحظ، قررت الأسرة شراء سيارة فى تلك السنة، بتكلفة تشارك فيها أوما وأخوها بالتساوى. تسلموا السيارة بمجرد بدء الإجراءات، جويت[٣] جديدة موديل ١٩٣٩ متواضعة بقوة ٨ حصان، بغطاء طويل وحاجز بيضاوى جميل. وبالإضافة إليها، استخدمت حفلة العرس الديلج درويهد، التى نجح نيل فى استعارتها من البائع مرة أخرى.

وصلوا إلى مطار دم دم ليجدوه تغيَّرَ تماماً منذ عودة أوما إلى الهند. امتلأ المهبط القديم تماماً بالطائرات، بدائرة جمركية خاصة به. أزيلت الأشجار من مائة وخمسين هكتاراً من الأرض وبنيت ثلاثة مدارج جديدة. ظهر مبنى إدارى مكون من ثلاثة طوابق وبرج تحكم بألواح زجاجية وغرفة للراديو. تغيَّرتْ منطقة الزوار أيضًا: دخلوا صالة كبيرة ساطعة الإضاءة بها مراوح تطنُّ بنشاط فوق الرؤوس. فى أحد أطراف الصالة راديو مفتوح على الأخبار، وفى الطرف الآخر طاولة لبيع الشاى والوجبات الخفيفة.

"انظروا!" جرتْ بيلا إلى النوافذ وأشارت إلى طائرة تحوم فوقهم. شاهدوا الدى سى-٣ تهبط إلى الأرض. دينو أول من ظهر، يرتدى لُنْجيًا وقميصًا واسعًا؛ رفرفتْ ملابسه على جسده الضئيل المائل وهو يقف على المدرج ينتظر والديه.

دُلِّى ورجكومار من بين آخر من ظهروا. ارتدتْ دُلِّى لنجيا أخضر مقلَّمًا، وكان فى شعرها، كما هو الحال دائماً، زهرة بيضاء. وكان رجكومار يمشى ببطء شديد، يميل قليلاً على دُلِّى. على شعره غطاء أبيض سميك خشن وخطوط وجهه مرتخية فى منحنيات مرهقة متدلية.

كان رجكومار فى أواسط الستينيات. وقد عانى مؤخَّراً من أزمات صغيرة وغادر سريره على الرغم من نصائح الطبيب. أصاب الكساد أعماله ولم تعدْ مربحة كما كانت. تغيَّرتْ صناعة الساج فى العقد الأخير، وصار تجار الخشب القدامى من أمثال رجكومار مفارقات تاريخية. كان رجكومار مثقلاً بديون هائلة واضطر لبيع كثير من أملاكه.

لكن رجكومار صمم، فيما يخصُّ عرس نيل، على تناسى مشاكله المالية. ودَّ أن يفعل كل ما فعل الآخرون على نطاق أكبر وأفخم. نيل المفضل لديه وقد عزم على أن يجعل عرس ولده مناسبة يعوض بها كل ما افتقده فى حياته من احتفالات.

***

كان دينو المفضل عند بيلا: أحبَّتْ شكله، بوجنتيه النحيلتين بارزتي العظام وجبهته العريضة؛ أحبَّتْ جديته وأسلوبه في الاستماع إلى الناس بعبوس لطيف، كأنه قلق بشأن ما يقال؛ أحبت حتى طريقته في الكلام، في اندفاعات صغيرة متفجرة، كأن أفكاره تتدفق منه في دفقات.

يوم ذهبوا إلى محطة هورا[٤] ليأتوا بأرجون، حرصت بيلا على الجلوس بجوار دينو. لاحظت أن معه حقيبة جلدية في حجره.

سألتْ: "ماذا أحضرت فيها؟"

فتح الحقيبة وفرَّجها على كاميرا جديدة، من نوع لم تره من قبل.

قال: "روليفليكس[٥]. بعاكس من عدستين متماثلتين..." أخرجها من الحقيبة وأراها كيف تعمل؛ تُفتَح مثل صندوق بمفصلات، ولها غطاء يتحرك إلى الخلف بحيث ينظر المرء إليها من فوق.

قال: "معي حامل ثلاثي لها. يمكن أن تنظري خلالها... حين أعدُّها..."

سألتْ: "لماذا تأخذها إلى المحطة؟"

هزَّ كتفيه بعنف. قال: "رأيتُ بعض الصور مؤخَّرًا. مشاهد لساحة السكة الحديد لألفريد ستيجليتز[٦]... أدهشتْني..."

أحدثت الكاميرا صخبًا حين أعدَّها دينو في هورا. كانت المحطة مزدحمة واجتمع الناس حوله يحدِّقون. ضبط دينو ارتفاع الحامل الثلاثي ليناسب بيلا: "هنا، تعالي... انظري."

كان رصيف المحطة طويلاً، يعلوه سقف شاهق من الصلب المتموج. تسربتْ شمس الأصيل من تحت حافة السقف الرقيقة، محدثة تأثيرًا شديدًا لإضاءة خلفية. في مقدمة الصورة ظهر عدد كبير من الناس: حمالون بسترات حمراء، باعة شاي يسرعون، وركاب ينتظرون مع جبال من الأمتعة.

كشف دينو التفاصيل لبيلا. قال: "أعتقد أنها أفضل من الصور التى فى عقلى، بسبب كل هؤلاء الناس... والحركة..."

نظرت بيلا مرة أخرى، وفجأة، كما لو بفعل السحر، ظهر أرجون فى الإطار، يتدلى من عربة وهو يمسك بقضيب الباب المفتوح. قفز حين لمحهم وأعطاه زخم القطار المتحرك بداية سريعة. خرج مسرعًا من الضباب الأبيض المعتم الذى يتدفق من ركام الدخان المتصاعد من المحرك، ضحك وهو يتفادى الباعة والحمالين المحتشدين عبر الرصيف. سترة زيه الكاكى محكمة حول خصره وكابه على رأسه يميل إلى الخلف. هبط عليهم وذراعاه مفتوحتان، يضحك، ورفع منجو عن الأرض وأخذ يلفُّ بها ويلف.

ابتعدتْ بيلا عن الكاميرا، آملة أن تختفى حتى ينتهى الوهج الأول لحيوية عودة أرجون إلى الوطن. لكنه لمحها على الفور. "بيلا!" انقضَّ عليها ليقذفها فوق رأسه، متجاهلاً صرخاتها الاحتجاجية. وهى تطير إلى أعلى، مع صخب المحطة، وتلفُّ حول رأسها، وقعت عيناها على جندى اقترب دون أن يراه أحد ووقف خلف أرجون. بدا أصغر من أرجون وأقل فى البنية؛ كان يحمل أمتعة أرجون.

همستْ فى أذن أرجون: "من هذا؟"

ألقى نظرة من على كتفه ليرى إلى من تنظر. قال: "كيشان سنجه، المراسلة."

أنزلَها واتَّجهَ مباشرة إلى الآخرين، تحدث بحيوية. سارتْ بيلا فى خطاه مع كيشان سنجه. اختلستْ نظرة: اعتقدت أنه جميل؛ كان لبشرته بريق يشبه القطيفة السوداء، ومع أن شعره قصير جداً إلا أنها رأتْه جميلاً وناعمًا؛ أعجبتها الطريقة التى زين بها حواف جبهته. ثبت عينيه أمامه، كأنه تمثال متحرك.

وهم على وشك ركـوب السـيـارة عـرفت، بدون أدنى شـــك، أنه يدرك وجــودها. التقت عيناه بعينيها لحظة وحدث تغير مفاجئ في تعبيره، ابتسامة خفيفة. التفَّ رأس بيلا: لم تعرف أبداً أن الابتسامة قد يكون لها تأثير جسدى - مثل ضربة من جسم طائر.

وبيلا على وشك ركوب السيارة، سمعتْ دينو يقول لأرجون: "هل سمعت؟ وقَّع هتلر معاهدة مع موسوليني... قد تنشب حرب أخرى."

لكنها لم تسمع إجابة أخيها. طوال الطريق إلى البيت، لم تسمع كلمة.

هوامش

(١) البندال pandal: بناء مؤقت، وهو هنا مظلة من القماش والبامبو (هندى).

(٢) دى سى - ٣ إس: DC-3s.

(٣) جويت: Jowett.

(٤) هورا Howrah: مدينة صناعية، غرب البنغال. تقع على الضفة الغربية لنهر هوجلى.

(٥) روليفليكس: Rolleiflex.

(٦) ألفريد ستيجليتز Alfred Stieglitz (١٨٦٤ - ١٩٤٦) : مصور فوتوغرافى أمريكى.

(٢٣)

مع أن دينو وأرجون تعارفا منذ فترة طويلة، إلا أنهما لم يكونا صديقين أبدًا. فكَّر دينو فى أرجون باعتباره حيوانًا أليفًا ودودًا وأخرق- ربما كلبًا كبيرًا، أو بغلاً مدرَّبًا- مخلوقًا لا يكلُّ، يهزُّ ذيله بحسن نية، لكنه متراخ بشكل لا علاج له وينطق بالكاد كلامًا مترابطًا. لكن لم يكن دينو متعجرفًا بحيث لا يعدل فكرته. فى محطة هورا، يوم صور أرجون وهو يجرى عبر الرصيف، رأى على الفور أنه اختلف تمامًا عن الولد الذى عرفه. فقد أرجون تراخيه، ولم تعد طريقة كلامه مشوشة ومبهمة. كانت مفارقة ممتعة، أن يكون كلام أرجون رطانة ممتزجة من أجزاء متجانسة من الإنجليزية وعامية البنجاب - كل شخص "فتى" أو "يار[1]."

لكن فى الطريق إلى البيت من المحطة فعل أرجون ما أذهل دينو. انطلق، وهو يتذكر تدريبًا تكتيكيًّا، يصف سمة طوبوجرافية- هضبة. عدَّد قممها وبروزاتها، وطبيعة نباتاتها والغطاء الذى تمنحه، واستشهد بزاوية ميل المنحدر وضحك من خطأ وقع فيه صديقه هاردى وهو يقيسها فجاءت نتائجه "غير عملية."

فهم دينو الكلمات والصور وجسر الاستعارة التى ربطت الاثنين- لم تكن لغاتٍ فكَّر أن يتواصل بها مع أرجون. لكن فى نهاية وصف أرجون، شعر دينو أنه يرى الهضبة فى رأسه. من بين الذين استمعوا لرواية أرجون، ربما أدرك وحده الصعوبة البالغة فى تحقيق هذه الدقة فى التذكر وهذا الوضوح فى الوصف: رُوِّع من دقة حكاية أرجون ومن نقص الوعى الذاتى الذى قُدِّمتْ به بشكل تلقائى.

قال، وهو ينظر إليه نظرته الصارمة الثابتة: "أرجون، أنا مندهش... وصفْتَ الهضبة كأنك تتذكر كل جزء منها."

قال أرجون: "بالطبع. يقول قائدى تحت النار تدفع حياتك إذا نسيت أى جزئية."

استوقف دينو هذا أيضًا. تخيل أنه يعرف أهمية الملاحظة، إلا أنه لم يتصور أنها قد تساوى الحياة. فى هذه الفكرة إذلال. اعْتَبر تدريبَ الجندى جسديًّا، فى المقام الأول، مسألة تتعلق بالجسم. استغرق الأمر محادثة واحدة ليكتشف أنه مخطئ. كان معظم أصدقاء دينو من الكتاب والمثقفين؛ لم يقابل فى حياته عسكريًّا أبدًا. فجأة، فى كلكتا، وجد نفسه محاطًا بالجنود. فى ساعات من وصول أرجون امتلأ المنزل بأصدقائه. وتبين أنه يعرف ضابطين فى معسكر حصن وليم فى كلكتا. بمجرد وصوله، تدفق أصدقاؤه فى كل وقت، فى السيارات الجيب وأحيانًا فى شاحنات، وكان وصولهم يتميز بالأبواق المدوية وصخب الأحذية.

قال أحدهم، فى تفسير اعتذارى: "هذا ما يحدث دائمًا فى الجيش، يار، حين يذهب فوجى، تتبعه البلتان(٢) كلها..."

فى الماضى، تراوح موقف دينو من الجيش بين العداء الصريح واللامبالاة المضحكة. حينذاك شعر بالحيرة أكثر مما شعر بالعداء، ازداد اهتمامه بالآليات التى تميزهم. اندهش من الطبيعية الاشتراكية لحياتهم؛ من المتعة التى يشعر بها أرجون، على سبيل المثال، من "الانغماس فى القذارة" مع الآخرين. كانت طريقته فى التفكير والعمل على النقيض من كل ما أيَّده دينو وآمن به. كان دائمًا أسعد ما يكون وهو وحده. كان أصدقاؤه قليلين ومع أفضلهم يوجد دائمًا بقايا قلق، احتراس تحليلى. وهذا من الأسباب التى جعلته يستمتع كثيرًا بالتصوير. كانت الغرفة المظلمة مكانًا للوحدة، بضوئها المعتم وإحكامها الكريه.

بدا أن أرجون، من ناحية أخرى، يشعر برضا هائل فى تنفيذ تفاصيل الخطط التى أمر بها آخرون– ليسوا بالضرورة أناسًا، لكن كُتَيْبات عملية. ذات يوم، وهو يتكلم عن انتقال كتيبته من معسكر إلى آخر، وصف روتين "انتقالهم بالقطار" بزهو كبير كأنه أرشد شخصيًا كل جندى إلى المحطة. لكن تبين، فى النهاية، أن دوره اقتصر على الوقوف على باب عربة القطار وتسجيل قائمة بالأسماء. واندهش دينو حين لاحظ أن رضاه ينبثق من هذا بالتحديد: تراكم بطىء لمهام صغيرة، تكدس قوائم الأسماء التى تبلغ ذروتها فى انتقال فصيلة ثم كتيبة.

كثيراً ما تألم أرجون وهو يشرح الضرورة الحيوية أن يفهم "الفتيان" فى الجيش كل منهم الآخر فهمًا شاملاً ودقيقًا؛ أن يعرف كل منهم كيف يتصرف فى ظروف معينة. وكانت هناك مفارقة لم تَفُتْ دينو: حين يتحدث كل واحد من أصدقاء أرجون عن الآخر، كان التقييم مبالغًا فيه حتى بدا أنهم يخترعون نسخًا من أنفسهم للاستهلاك الجماعى. فى مؤلفهم الخيالى عن الحيوانات فى الحديث حول الطاولة، كان هاردى الباحث عن الكمال بدقة، وأرجون رجل السيدات، وآخر بُكًّا[٣] صاحب إلخ. كانت هذه الصور الواهية جزءًا من المعرفة الجماعية لصداقتهم الحميمة– زمالة يزهون بها كثيراً، يغرسون فيها استعارات تمتد أحيانًا إلى أبعد من مجرد قرابة. كانوا عادة مجرد "إخوة"، لكنهم أحيانًا أكثر بكثير، حتى "أول هنود حقيقيين." كانوا يقولون: "انظر لنا، بنجاب وماراتا[٤] وبنغال وسيخ وهندوس ومسلمين. أين تجد فى الهند مجموعة مثلنا– حيث لا تهم المنطقة ولا يهم الدين – حيث يمكن أن نشرب جميعًا معًا ونأكل لحم البقر والخنزير ولا نعتقد أن فى ذلك شيئًا؟"

قال أرجون كل وجبة فى ميس الضباط مغامرة، انتهاك رائع للتابو. تناولوا أطعمة لم يمسسْها أحد منهم فى بيته: فخذ الخنزير والسجق فى الفطور؛ لحم البقر المشوى وقطع من لحم الخنزير فى العشاء. شربوا الويسكى والبيرة والنبيذ، ودخنوا السيجار والسجائر والسيجار الصغير. لم تكن مسألة إشباع رغبات؛ كان لكل لقمة معنى– تمثل

تقدمًا نحو نشأة هنود أكثر اكتمالاً. حكوا جميعًا قصصًا عن انقلاب بطونهم بعد مضغ أول قطعة من لحم البقر أو الخنزير؛ كافحوا للسيطرة على اللقم، قاوموا اشمئزازهم. إلا أنهم أصروا، لأنها معارك صغيرة لكنها ضرورية، لا تختبر رجولتهم فقط، بل تختبر لياقتهم أيضًا للدخول فى مصاف الضباط. عليهم أن يبرهنوا، لأنفسهم كما لرؤسائهم، على أنهم جديرون بأن يكونوا حكّامًا، أن يؤهلوا كأعضاء فى نخبة؛ كانت لديهم رؤية كافية للارتفاع فوق روابط التربة، للتغلب على الاستجابات المغروسة فيهم بالتنشئة.

قد يقول أرجون بعد كأس أو اثنتين من الويسكى: "انظر إلينا! نحن أول هنود عصريين؛ أول هنود أحرار حقًا. نأكل ما نحبُّ، نشرب ما نحبُّ، نحن أول هنود لا يثقلهم الماضى."

انزعج دينو بعمق: "لا يجعلك عصريًا ما تأكل وما تشرب، بل طريقة النظر إلى الأمور..." استخرج نسخًا مقطوعة من مجلات، صورًا من تصوير ستيجليتز وكننجهام وويستون(٥).

استهجنها أرجون بردٍّ ساخر: "بالنسبة لك العالم العصرى شىء تقرأ عنه. تحصل على ما تعرف من الكتب والمجلات. نحن نعيش فعليًا مع الغربيين..."

فهم دينو أن أرجون ورفاقه الضباط رأوا أنفسهم، بارتباطهم بالغربيين، روادًا. عرفوا أن الغرب بالنسبة لمواطنيهم تجريد بعيد: حتى لو عرف الهنود أن الإنجليز يحكمونهم، فإن عددًا صغيرًا منهم وضعوا عيونهم على رجل إنجليزى وعدد أصغر واتتهم الفرصة للتحدث معه. عاش الإنجليز فى مقاطعاتهم وتابعوا مطارداتهم؛ معظم الأمور اليومية للحكم قام بها هنود. الضباط الهنود فى الجيش، من ناحية أخرى، نخبة مختارة؛ عاشوا مع غربيين مجهولين جميعًا لمواطنيهم. شاركوهم الأحياء نفسها، أكلوا الطعام نفسه، قاموا بالعمل نفسه: لا يشبهون فى هذا الوضع شخصًا آخر من رعايا الإمبراطورية.

كان أرجون يحب أن يقول: "فهمنا الغرب أفضل منكم أيها المدنيون. عرفنا كيف تعمل عقول الغربيين. وحين يكون كل الهنود مثلنا يكون البلد عصرياً حقًا."

كانت الوجبات مع أصدقاء أرجون أحداثًا صاخبة، يرافقها "كميات كبيرة" من البيرة وضحكات عالية وقدر كبير من التنكيت اللاذع، بواسطة الضباط غالبًا، على بعضهم البعض. وهو ما سموه "إغاظة" وكان معظمه مقبولاً. لكن ذات يوم توقفوا عن الطعام نتيجة حدث تافه غريب. حين رأى أحد الضباط طبق شاباتى سخن يتصاعد منه البخار قال بصوت "إغاظة" عال وساخر: "يجب أن يكون هاردى هنا: إنه الشخص الذى يحب الشاباتى حقًا..." كان لهذه الكلمات، التى تبدو بريئة، تأثير مفزع؛ خمد الصخب فجأة واكفهرّتْ وجوه الضباط. تغير لون الضابط الذى تكلم، كأنه يعترف بتوبيخ جماعى. ثم سلّك أرجون حنجرته بصوت عالٍ، كأنه يذكر أصدقاءه بوجود غرباء - دينو ومنجو ونيل، بتعبير آخر - وتحولت المحادثة فوراً إلى موضوع آخر. لم يستغرق التوقف إلا لحظة ومضى دون أن يلاحظه إلا دينو.

فى تلك الليلة، توقف دينو عند غرفة أرجون، وجده يجلس فى سريره وعلى ركبتيه كتاب وفى يده كأس براندى. تباطأ دينو.

قال أرجون: "تريد أن تحدثنى بصراحة عما حدث هذه الليلة؟"

"نعم."

"لا شيء، حقًا."

"تفكر لتخبرنى..."

تنهد أرجون: "يتعلق الأمر بصديق عزيز، هاردى. الغريب أنه لم يكن هنا."

"عم كانوا يتحدثون؟"

"قصة طويلة. كان هاردى فى طابور فى السنة الأخيرة. ستبدو غباء بالنسبة لك..."

"ماذا حدث؟"

"هل أنت متأكد من أنك تريد أن تعرف؟"

"نعم."

قال أرجون: "هاردى سردار[٦]، من السيخ - من أسرة خدمتْ فى الجيش لأجيال. تندهش إذا عرفت عدد الجنود من هذه الأسرة. أسميهم الفوجى الحقيقيين. الرفاق من أمثالى، ممن ليست لهم ارتباطات بالجيش، استثناء..."

قال أرجون تربى هاردى فى مستودع الكتيبة فى سنغافورة. خدم أبوه وجده فى الجات الأولى. التحقوا بها كجنديين خاصين وشقًا الطريق وترقيا إلى رتبة مساعد- وكانت أعلى ما يصل إليه هندى فى تلك الأيام، فى مكان ما بين صف ضابط وضابط. وهاردى أول شخص فى أسرته يلتحق بالجيش كضابط، وعزم على الالتحاق بالجات ١/١ . اعتاد أن يقول ساخراً كان حلمه أن يناديه زملاء أبيه القدامى بكلمة "صاحب".

لكن كان بين حياة الضباط والرتب الأخرى اختلاف لم يضعْه هاردى فى الحسبان. يُقدَّم الطعام الهندى للرتب الأخرى فى الميس، طبقًا للوصفات الغذائية الدقيقة لأديانهم المتنوعة. ويقدم ميس الضباط، من ناحية أخرى، طعاماً "إنجليزيا"- ومشكلة هاردى أنه من الرجال الذين لا يستطيعون ببساطة، مهما اجتهدوا، أن يعيشوا بدون الدال روتى[٧] يوميًا. أكل مطيعًا كل ما قدم فى الميس، لكنه كان يختلق، مرة يومياً على الأقل، ذريعة ليغادر المعسكر ليأكل كفايته من مكان فى البلدة. كان هذا معتاداً بين الضباط الهنود، لكن هاردى عبر خطًا خفيًا: بدأ يزور ميسات الرتب الأخرى. واستمتع بهذه الزيارات البسيطة: نادى بعض الرجال ب"العم" وهو طفل وافترض أنهم سيمنحونه من التدليل والعاطفة ما يتذكره من الماضى. اعتقد أنهم سيبقون زياراته سراً. على الرغم من كل شيء، كان عدد منهم من القرية نفسها، من العائلة الممتدة نفسها. وكثير منهم يعرفون أباه.

تبين أنه ما كان يمكن أن يقترف خطأً أكبر. كان زملاء والد هاردى لا يستمتعون بالخدمة تحت قيادته، استاءوا بشدة من وجوده فى الكتيبة. كانوا أول جيل من الجنود الهنود يخدمون تحت قيادة ضباط هنود. قلق عدد كبير منهم من هذا الوضع: كانت علاقتهم بالضباط البريطانيين مصدر زهوهم ووضعهم. وكانت الخدمة تحت الهنود انتقاصاً من هذه المزية.

وجاء يوم أوصى فيه قائد الكتيبة، المقدم "بكى" بكلاند، بأن يشرف هاردى على السَّرِيَّة سى. بقدر ما يهم ضباط الصف، كانت القشة الأخيرة. عرف بعضهم المقدم بكلاند جيداً: خدم بعضهم معه سنوات طويلة وجزءٌ من وظيفتهم أن يخبروه بما يحدث فى الوحدة. شكَّلوا وفداً وذهبوا لمقابلته. قالوا له: هذا الولد، هاردى سنجه، الذى كلفته بقيادة السرية سى، والده معروف لنا، أخواته متزوجات من أخوتنا، بيته فى القرية بجوار بيتنا. كيف تتوقع أن نعامل هذا الولد كضابط؟ لماذا، إنه حتى لا يحتمل طعام الضباط. ينسلُّ سراً إلى ميساتنا ليأكل الشاباتى.

انزعج المقدم بكلاند بشدة من هذه الشكاوى: مستحيل ألا يثبطه خبث هذه المشاعر. إذا كانت هناك كراهية ذاتية ضمنية فى الثقة بأنفسكم، إذا كان الاشمئزاز من الذات عميقًا بحيث يدفع مجموعة من الرجال إلى عدم الثقة فى شخص لا لسبب إلا لأنه واحد منهم؟

أنَّبَ المقدم بكلاند ضباط الصف تأنيبًا حاداً: "تعيشون فى الماضى. سيأتى وقت يكون عليكم فيه أن تتعلموا أخذ الأوامر من الهنود. هذا الرجل ابن زميل سابق لكم؛ هل تريدون حقًا إهانته على الملأ؟

بقى ضباط الصف ثابتين على الرغم من هذا التقريع. وفى النهاية، استسلم المقدم. وُجِدَ دائمًا ميثاق ضمنى بين الرجال وضباطهم الإنجليز: كان مفهومًا أن رغباتهم فى مسائل معينة لابدَّ أن تؤخذ بعين الاعتبار. ولم يكن أمام المقدم إلا أن

يرسل إلى هاردى - يخبره أن مهمته لا يمكن أن يقوم بها. وكان هذا أصعب ما فى الأمر. كيف يشرح التغيرات لهاردى؟ كيف يدفع عسكرى عن نفسه تهمة أن يكون، إذا جاز التعبير، قد أكل شاباتى خِفْيَةً؟ كيف يؤثر ذلك على احترامه لذاته؟

تعامل المقدم بكلاند مع الموقف بأقصى لباقة يمكن أن يتمتع بها شخص، وخرج هاردى من المقابلة لا تبدو عليه علامات ارتباك. لم يعرف عمق جراحه إلا الأصدقاء المقربون؛ كم كانت مواجهة ضباط الصف صعبة فى اليوم التالى. ولأن الجيش مؤسسة صغيرة محكمة فإن الكلمة تنتشر دائمًا، ومن وقت لآخر قد ينطق حتى الصديق بكلام لا يليق، كما حدث فى تلك الليلة.

***

سأل دينو أرجون: "هل تواجهون جميعًا هذا الموقف، إذن؟ هل من الصعب أن يتقبلكم رجالكم كضباط؟"

ردَّ أرجون: "نعم ولا. ينتابك دائمًا شعور بأنهم يتفحصونك أكثر مما لو كنت بريطانيًا- خاصة أنا، على ما أفترض، حيث أنى تقريبًا البنغالى الوحيد فى المشهد. لكن ينتابك أيضًا إحساس بأنهم يتماهون معك - يحثك بعضهم، بينما ينتظر آخرون لحظة سقوطك. حين أواجههم، يمكن أن أقول إنهم يضعون أنفسهم مكانى، متخطين حاجزًا كبيرًا فى عقولهم. حين يتخيلون أنهم عبروا هذا الخط، يتغير شىء. لا يمكن أن يبقى كما كان."

"ماذا تقصد؟"

"لستُ متأكِّدًا من قدرتى على التوضيح، دينو. سأحكى لك حكاية. ذات يوم، زار عقيد إنجليزى عجوز ميسنا. كان عقله يزخر بحكايات عن الأيام القديمة الرائعة. بعد العشاء سمعته صدفةً يتحدث إلى بكى- قائدنا. كان ينفخ فى شاربه. كان رأيه أن

عملية إعداد ضباط من الهنود ستدمر الجيش؛ يقف كل منهم فى حنجرة الآخر وينهار كل شىء. كان بَكِي عادلاً ومهذَّبًا كما يمكن أن يكون الرجل ولم يحتمل. دافع عنا باستماتة وقال إن ضباطه الهنود يؤدون كل ما يتعلق بوظائفهم بشكل جيد. لكن، تعرف، الأمر الأساسى أنى عرفتُ بصدق أن بَكِي مخطئ والعجوز مصيب."

"لماذا؟"

"الأمر بسيط. لكل مؤسسة منطقها الخاص، والجيش الهندى البريطانى عمل دائمًا على مبدأ الفصل بين الهنود والبريطانيين. نظام صريح: بقوا متباعدين، وشعر الجانبان بأن ذلك فى مصلحتهما. وجد البريطانيون طريقة لتنفيذه، ونفذوه. لكن الآن، ونحن فى ميس الضباط، لا أعرف إمكانية استمرار ذلك."

"لماذا لا؟"

نهض أرجون ليصب لنفسه كأسًا أخرى من البراندى: "لأن ما قاله العجوز صحيح: يقف كل منا فى حنجرة الآخر."

"من؟"

"الهنود والبريطانيون."

"حقًا؟ لماذا؟ ما الأمر؟"

"معظمها أشياء بسيطة. فى الميس، على سبيل المثال، إذا أدار بريطانى مؤشر الراديو على محطة تذيع بالإنجليزية، تأكدْ أن هنديًا سيحوله على محطة تذيع أغانى أفلام هندية. ثم يعيده شخص آخر إلى ما كان عليه وهكذا، حتى يكون كل ما تتمناه أن يغلق تمامًا. أشياء من هذا القبيل."

"تبدون مثل... تلاميذ مشاغبين."

"نعم. لكنى أعتقد أن هناك شيئًا مهمًا خلف ذلك."

"ماذا؟"

"ترى، نقوم جميعًا بالعمل نفسه، نأكل الطعام نفسه إلخ. لكن الرجال الذين تدربوا فى إنجلترا يتقاضون أكثر منا بكثير. بالنسبة لنفسى لا أهتمُّ بذلك كثيراً، لكن رجالاً مثل هاردى يولون هذه الأمور اهتمامًا كبيراً جداً. بالنسبة لهم ليست مجرد وظيفة كما هو الحال بالنسبة لى. ترى، يؤمنون حقًا بما يفعلون؛ يؤمنون بأن البريطانى يمثل الحرية والمساواة. يميل معظمنا، حين نسمع كلمات كبيرة من هذا القبيل، إلى ابتلاعها مع بعض الملح. لا يفعلون. جادون بشدة فى هذه الأمور، لذا من الصعب عليهم اكتشاف أن المساواة التى قيلت لهم ليست إلا وهمًا– شىء يتدلى أمام أنوفهم ليستمروا لكنه يظل دائمًا بعيداً عن متناول أيديهم."

"لماذا لا يَشْكون؟"

"يفعلون أحيانًا. لكن عادة لا يوجد شىء محدد يشكون منه. خذ حالة منصب هاردى: على من يقع اللوم؟ هاردى نفسه؟ الرجال؟ من المؤكد أنه ليس القائد. لكن هكذا تجرى الأمور دائمًا. حين لا يحصل أحد منا على منصب أو ترقية هناك دائمًا غيمة من النظم تجعل الأشياء مبهمة. على السطح يبدو أن كل ما فى الجيش تحكمه اللوائح والنظم والإجراءات: يبدو الأمر قاطعًا وجافًا. لكن فعليًا، تحت السطح ظلال معتمة لا تراها تماماً: التمييز والارتياب والشك."

تجرع أرجون كأس البراندى وتوقف ليصب كأسًا أخرى. قال: "أخبرك بشىء، شىء حدث لى وأنا فى الأكاديمية. ذات يوم ذهبتْ مجموعة منا إلى البلدة– هاردى وأنا وبعض الآخرين. بدأت تمطر فدخلنا محلا. عرض صاحب المحل أن يسلفنا مظلات.

بدون تفكير فى الأمر قلتُ نعم، بالطبع، ستساعدنا. نظر الآخرون إلىَّ كأنى جننْتُ. قال هاردى: "ماذا تظنُّ؟ لا يمكن أن تُرَى بمظلة." ارتبكتُ. قلتُ: "لكن لماذا لا؟ لماذا لا يمكن أن أُرَى بمظلة؟" فكَّرْتُ فى الأمر وأدركْتُ أنى لا يمكن أن أوافق. قلتُ: "لا."

"هل عرفْتَ لماذا لا؟"

"لا."

"لأن المظلات فى سالف الأيام كانت علامة السيادة. لم يُرِد البريطانيون للسيبو أن يكونوا طموحين أكثر من اللازم. ولهذا لم تر أبداً مظلات فى معسكر."

"ذُهِلْتُ. هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ تأكدتُ من أنه لا توجد نُظُمٌ تحكم الرعية. هل يمكن تخيُّل قاعدة تقول: 'على الهنود عدم الاحتفاظ بمظلات فى ثكناتهم'؟ شيء لا يمكن تصوره. لكن فى الوقت نفسه، كان صحيحًا أيضًا أنك لم تر أبداً شخصًا معه مظلة فى معسكر. ذات يوم سألتُ مساعد القائد، الكابتن بيرسون[8]. قلتُ: 'سير، لماذا لا نستخدم مظلات أبداً، حتى حين تمطر؟' وكان الكابتن بيرسون رفيقًا قصيراً وصلْبًا، ممتلئ العنق. نظر إلىَّ كأنى دودة. لا شيء يمكن أن يسكتنى أسرع من الإجابة التى قدمها لى. قال: 'لا نستخدم مظلات، أيها الضابط، لأننا لسنا نساء.'"

بدأ أرجون يضحك. قال: "والآن يمكن أن أفعل أى شيء إلا أن أُرَى ومعى مظلة- أفضِّل أن أغرق فى المطر."

هوامش

(١) يار yaar: بمعنى فتى أو رجل.

(٢) البلتان paltan: الكتيبة (هندوستانى).

(٣) بكًا صاحب Pukka sahib: تعبير عامى مأخوذ عن الهندية، بمعنى أصيل أو من الطبقة العليا، ومازال كلمة بكا تستخدم فى العامية الإنجليزية بهذا المعنى.

(٤) ماراتا Marathas: هنود يسكنون منطقة وسط غرب الهند.

(٥) كننجهام Cunningham: مصورة أمريكية، ولدت فى ١٩٠١، ويستون Weston (١٨٨٦ - ١٩٥٨): مصور أمريكى، أثرت صوره للمشاهد الطبيعية والعرايا فى فن التصوير.

(٦) سردار sardar: كلمة فارسية، تصف القادة العسكريين والسياسيين.

(٧) دال روتى dal-roti: الدال طعام معد من الفول المدشوش، والروتى خبز بدون خميرة.

(٨) بيرسون: Pearson.

(٢٤)

بدا فى تلك السنة كأن الرياح الموسمية تكسَّرتْ على لنكاسوكا حتى قبل ظهور السحب الأولى فى السماء. كان عرس منجو فى أواخر يونيو، قبل هطول الأمطار مباشرة؛ أيام شديدة الحرارة، وقد امتلأت البحيرة أمام المنزل، إلى مستوى لا يمكِّن المراكب من الحركة على الماء. فى ذلك الوقت من السنة يبدو أن دوران الأرض يبطئ من سرعته، توقُّعًا للطوفان القادم.

لكن العرس فى لنكاسوكا كان أشبه بمناخٍ شاذ غريب: بدا وكأن المجمع غُمِر فى فيضان، دوَّم سكانه بشكل محموم تجاه النهر، يحملهم مدٌّ من أشياء متنوعة – أناس وهدايا وقلق وضحك وطعام. فى الفناء خلف المنزل، اشتعلت النيران طوال اليوم، وعلى السطح، تحت ظلال الخيام التى أقيمت بمناسبة العرس، بدا أنه لا توجد لحظة لم يجلس فيها عشرات الناس لتناول وجبة.

مضت الأيام فى عاصفة من الولائم والطقوس: أدى جلال الالتزامات المألوفة للباكا ديكها[1] بعناد إلى دهن كركم الجاى هولود[2]. ببطء، إلى حد بعيد كما يغمر ارتفاع مياه الرياح الموسمية تقسيمات تشبه رقعة شطرنج فى حقل أرز، طمس تقدم العرس بثبات الجسور التى تقسم حياة الناس فى المنزل. انهمكت رفيقات سياسيات لأوما بالسارى الأبيض فى المساعدة، كما فعل عدد كبير من أعضاء المؤتمر الذين يرتدون الكاكى؛ أرسل أصدقاء أرجون فى حصن وليم مجموعاتٍ مساعِدةً من الطباخين وعمال الميس والنُّدُل، وأحيانًا فرق استعراضات كاملة، مع آلات نفخ نحاسية وقادة فرق موسيقية بالزى؛ جاء عدد كبير من زميلات منجو يتدفقن، كما تدفق حشد

متنوع من معارف نيل من استوديوهات السينما فى توليجُنْج - مخرجون وممثلون وطلبة، ومقلدون لمطربين، حتى المرأتان المفزعتان اللتان تعملان فى المكياج، اللتان ألبستا منجو يوم تجربتها المصيرية.

لدلِّى أيضًا يدٌ فى تحريك الخليط. خلال السنوات التى زارت فيها أوما فى كلكتا، ارتبطتْ ارتباطًا وثيقًا مع المعبد البورمى فى المدينة. ومع أن المعبد كان صغيراً، إلا أن ماضيه لم يكن بدون مجد. قضى كثير من النجوم البورميين العظماء وقتًا هنا، ومنهم النشط الشهير الراهب يو ويسارا(٣). عن طريق علاقات دلِّى، حضر عرس منجو جزء كبير من الجالية البورمية فى المدينة- طلبة ورهبان ومحامون، وحتى بعض الرقباء الضخام فى قوة شرطة كلكتا (كثير منهم أنجلو بورميين فى الأصل).

بالنظر إلى هذا التنوع الغريب لهذه المجموعات، كانت النزاعات قليلة نسبيًا. لكن ثبت فى النهاية استحالة منع الرياح القوية التى تجرف العالم. ذات مرة وصل صديق لأوما، عضو بارز فى المؤتمر، فى ملابس على طريقة جواهرلال نهرو، فى قبعة كاكى وشروانى طويل أسود، ووردة فى عروة السترة. وجد السياسى البارز نفسه يقف بجوار أحد أصدقاء أرجون، ضابط فى زى فوج البنجاب الرابع عشر. قال السياسى، ملتفتًا إلى العسكرى بسخرية: "كيف يبدو الأمر لهندى حين يرتدى هذا الزى؟"

ردَّ صديق أرجون، مواجها السخرية بسخرية: "إذا كان لابدَّ أن تعرف، سير، يبدو هذا الزى أكثر دفئًا- لكنى أتخيل أن الكلام نفسه يمكن أن يقال عن ملابسك؟"

وفى يوم آخر، وجد أرجون نفسه فى مواجهة حشد متنوع وغريب من الرهبان البوذيين والطلبة البورميين النشطين وأعضاء حزب المؤتمر. كان لرجال المؤتمر ذكريات مُرَّةٌ عن المواجهات مع الجنود ورجال البوليس الهنود. شرعوا فى توبيخ أرجون لأنه يخدم فى جيش الاحتلال.

تذكر أرجون أنه عرس أخته وحاول التحكم فى نفسه. قال أرجون، بأقل ما يستطيع: "نحن لا نحتلُّ البلد. نحن هنا لحمايتكم."

"تحموننا مِنْ مَنْ؟ من أنفسنا؟ من الهنود الآخرين؟ تحتاج البلاد الحماية من سادتكم."

قال أرجون: "انظروا، إنها وظيفة أحاول القيام بها بأفضل ما أستطيع..."

ابتسم له أحد الطلبة البورميين ابتسامة صفراء: "هل تعرف ماذا نقول فى بورما حين نرى الجنود الهنود؟ نقول: يمضى جيش من العبيد - يزحفون للقبض على مزيد من العبيد من أجل سادتهم."

بجهد هائل نجح أرجون فى السيطرة على نفسه؛ بدل الانخراط فى قتال، استدار وانسحب بعيداً. فيما بعد اشتكى لأوما فوجدها غير متعاطفة تماماً. قالت أوما ببرود: "قالوا لك ما يعتقده معظم الناس فى البلد، أرجون. إذا كنت تستطيع مواجهة رصاص الأعداء، فيجب أن تكون لديك القدرة على سماعهم."

***

خُصِّصت لكيشان سنجه، فى فترة الإقامة فى لنكاسوكا، غرفة صغيرة مدسوسة فى مؤخرة المنزل. غرفة تستخدم، فى الأوقات الأخرى، للتخزين عموماً، تخزين الطعام أساساً. على طول الجدران مَرْتابان(٤) كبيرة من الحجارة، مكدسة بالمخلل؛ فى الأركان أكوام من المانجو والجوافة مركونة حتى تنضج؛ وعلى عوارض خشبية، بعيداً عن النمل والقطط، قدور فخارية معلقة فى حبال تخزن فيها الأسرة الزبد والجهى(٥).

بعد ظهيرة أحد الأيام، أُرسِلتْ بيلا إلى غرفة التخزين لتأتى ببعض الزبد. كان الباب الخشبى مشوهاً ولا يُغلَق بإحكام. رأت بيلا، وهى تنظر من الفتحة، كيشان

سنجه فى الداخل، يستلقى على حصيرة. غيَّرَ ملابسه وارتدى لُنْجيا لقضاء القيلولة، وعلَّق الملابس الكاكى على وتد. كان ينضح بالعرق فى حرارة يونيو، مكشوف الجسم باستثناء الظل الخفى لفانلة الجيش التى تشيط على صدره.

عرفتْ بيلا، من اندفاع حركة ضلوعه، أنه مستغرق فى النوم. انسلَّتْ إلى الغرفة ومشت على أطراف أصابعها حول حصيرته. وهى على ركبتيها، تفكُّ حبال قدر من الفخار، قدر الزبد، استيقظ كيشان سنجه فجأة.

قفز على قدميه وشدَّ سترته الكاكى، واحمرَّ وجهه من الارتباك.

قالت بسرعة وهى تشير إلى القدر الفخارى: "أرسلتْنى أمى... لآخذ هذا..."

وسترته عليه، جلس مقرفصًا على الحصيرة. ابتسم لها. ردَّتْ بيلا بابتسامة خجلى. شعرت أنها لا تميل لمغادرة المكان؛ لم تكن قد تحدثت إليه حتى ذلك الوقت وشعرتْ أن هناك أشياء كثيرة تريد أن تسأله عنها.

وكان السؤال الأول الذى طرحته السؤال الأهم فى عقلها. قالت: "كيشان سنجه، هل أنت متزوج؟"

قال برزانة: "نعم. وعندى ابن صغير. عمره سنة فقط."

"كم كان عمرك حين تزوجت؟"

قال: "كان ذلك منذ أربع سنوات. لابد أنى كنتُ فى السادسة عشرة."

قالت: "وزوجتك، ماذا عنها؟"

"من قرية بجوار قريتنا."

"وأين قريتك؟"

"فى الشمال – طريق طويل من هنا. قرب كوركِشِترا – حيث دارت المعركة الكبرى فى مهابهاراتا[٦]. وهذا سبب كفاءة جنود مقاطعتنا – هذا ما يقوله الناس."

"وهل كنت تريد أن تكون جندياً؟"

ضحك: "لا. لا إطلاقًا– لكن لم يكن أمامى اختيار."

وضَّح أن رجال أسرته كانوا يتعيشون دائمًا من الالتحاق بالجيش. خدم أبوه وجده وأعمامه جميعًا فى الجات ١/١ . مات جده فى بشنديل[٧] فى الحرب الكبرى. وقد أملى، قبل موته بيوم، خطاباً يرسل إلى أسرته، مليئًا بتعليمات عن المحاصيل فى الحقول وما يجب زراعته ومتى يجب أن يبذروا وأن يحصدوا. فى اليوم التالى خرج من خندقه لينقذ أفسَره[٨] الجريح، كابتن إنجليزى كان مراسلته لمدة خمسة أعوام وكان يبجله فوق كل الرجال. لهذا منح، بعد موته، ميدالية الخدمة الهندية المميزة، التى احتفظت بها أسرته فى حويلى[٩]، فى صندوق زجاجى.

"وحتى هذا اليوم ترسل أسرة الأفسر فلوسًا إلينا– ليس لأننا نطلب، وليس إحسانًا، لكن بدافع محبتهم لجدى وتقديرهم لما فعله من أجل ابنهم..."

تعلقت بيلا بكلماته، مستغرقة فى كل حركة من عضلات وجهه: "استمر."

قال إن والده أيضًا خدم فى الجيش. وجرح فى الملايو أثناء تمرد. جرح بطعنة مزقت جانبه واخترقت قولونه. وقد فعل أطباء الجيش ما فى وسعهم، لكن الجرح خلف آلامًا مزمنة ومعوقة فى بطنه. سافر إلى أماكن بعيدة، وزار خبراء فى الأيورفيدا[١٠] ونظم علاجية أخرى؛ واضطرته التكلفة إلى مقايضة حصته من أرض الأسرة. لم يكن يريد مصيراً كهذا لكيشان سنجه؛ كان يريد لابنه أن يذهب إلى الكلية ويفهم الأمور؛ هو نفسه لفَّ العالم – الملايو وبورما والصين وشرق أفريقيا – ولم يفهم شيئًا.

ودَّ كيشـان سنجه أيضـًا أن يذهب إلى الكلية، لكن وهو فى الرابعة عشـرة مات والده، ولم يعد خيار المدرسة متاحًا: الأسرة فى حاجة إلى فلوس. دفعه أقاربه لتسجيل اسمه بمكتب تجنيد محلى؛ قالوا إنه محظوظ لأنه وُلِد فى طائفة يُسمح لها بالالتحاق فى جيش سَرْكار الإنجليزى."

"كان ذلك سبب التحاقك بالجيش؟"

أومأ: "نعم."

قالت: "والنساء فى قريتكم، ماذا عنهن؟"

"لسن مثلك."

تأذت من هذا: "لماذا؟ ماذا تقصد؟"

قال: "إنـهن، بشكل ما، جنود أيضـًا. يتـعلمن منذ الصـغر مـعنى التـرمل فى سن مبكرة؛ تنشئة أطفال بدون رجال؛ قضاء الحياة مع أزواج مشوهين ومعوقين..."

سمعتْ أمَّها تناديها فخرجتْ تعدو من الغرفة.

***

أقام رجكومار وأسرته، فترة العرس، فى الفندق الشرقى الفخم. (لا يُعقَل على ضوء العداء القديم بين رجكومار وأوما، أن يقيم معها، كما تفعل دُلِّى عادة.) إلا أنه وافق على أن يقضى نيل ومنجو ليلة العرس- ليلتهما الأخيرة فى كلكتا- فى لنكاسوكا، فى شقة أوما.

حين جاء اليوم، أعدَّتْ أوما ودُلِّى غرفة الزفاف بنفسيهما. ذهبتا مبكرًا إلى سوق الزهور فى كاليجات وعادتا بعشرات السلال المحملة. قضتا الصباح فى تغطية سرير

العرس بأكاليل الزهور – مئات منها. وهما تعملان، تذكرتا عرسيهما وكيف كانا مختلفين تمامًا. بعد الظهيرة انضمَّتْ إليهما الأميرة الثانية، التي جاءت في رحلة خاصة من كَليمبُنْج: اكتملتْ بها الدائرة.

كان الجو حاراً وبسرعة غرقن في العرق. قالت دُلّي: "فعلتُ ما فيه الكفاية. كان عرسي أسهل."

"تتذكرين مسز خَمْبتا – والكاميرا؟"

جلسن على الأرضية، يسخرن من الذكرى.

واليوم يتقدم، تجمعت مائة أزمة صغيرة. تتعلق أساسًا بنثريات نسي شخص شراءها: دوطي للبوروهيت؛ حفنة طازجة من عشب دوربا[١١]؛ ساري لعمة منسية– أشياء صغيرة لكنها أساسية. قرب المساء طُلِب من أرجون تنظيم حملة تسوق سريعة في جويت العائلة. وكان على دينو وأوما وبيلا أن يذهبوا معه، وكل منهم مسلح بقائمة مشتريات.

أتى أرجون بالجويت إلى الفناء وركب الآخرون.

سألت أوما: "أين نذهب بالضبط؟"

قال أرجون: "إلى السوق في كاليجات."

قالت أوما: "حسنًا، عليك أن تسرع إذن."

"لماذا؟"

"هناك مظاهرة كبيرة اليوم – يمكن أن نقابلها."

اندهش أرجون: "مظاهرة. لماذا في هذا الوقت بالتحديد؟"

انزعجتْ أوما. قالت: "ألا تقرأ الصحف أبداً، أرجون؟ مسيرة ضد الحرب. نعتقد في المؤتمر أن على إنجلترا، في حالة نشوب حرب أخرى، ألا تتوقع دعمنا إلا إذا قدمت ضماناً باستقلال الهند."

هزَّ أرجون كتفيه: "أوه، أرى. حسناً، نحن آمنون إذن- يستغرق الأمر منهم وقتاً طويلاً لتنفيذ ذلك كله..."

ضحك دينو.

لم يستغرق الوصول إلى السوق إلا خمس عشرة دقيقة، وفي نصف ساعة انتهت عملية التسوق. وهم في طريق العودة لمحوا، حين تحولوا إلى طريق واسع، أول المتظاهرين يقتربون عن بعد.

قال أرجون بهدوء: "لا داعي للقلق. نحن منطلقون في طريق طويل. لن يحاصرونا." لكن وهو يتكلم قرقر محرك الجويت. وفجأة توقفت السيارة تماماً.

قالت أوما بحدة: "افعل شيئاً، أرجون. لا يمكن أن نقف هنا."

غمغم أرجون بشكٍّ: "تعطلت البطارية. كان علي أن أنظفها هذا الصباح."

"ألا يمكنك إصلاحها؟"

"يستغرق الأمر بضع دقائق."

قالت أوما: "بضع دقائق. سيكونون حولنا. أرجون، كيف تسمح بهذا؟"

"هذه الأشياء تحدث..."

ذهب دينو وأرجون إلى المقدمة وفتحا الكَبُّوت. كانت الجويت مركونة وقتاً طويلاً في الفناء وكان المحرك ساخناً جداً. حين أُصلِح العطل، كانت المظاهرة قد اقتربت منهم. تدفق المشتركون في المسيرة من كل ناحية، شق بعضهم الصفوف للتحديق في

السيارة المتوقفة والرجلين الواقفين بجوار الكبوت المفتوح. عاد أرجون ودينو إلى السيارة؛ ولم يكن هناك إلا الجلوس وانتظار مرور آخر المتظاهرين.

أسقط مشترك فى المسيرة كُتيبًا من نافذة السيارة. التقطه أرجون ونظر فى الصفحة الأولى. كانت هناك اقتباسات عن المهاتما غاندى وفقرة تقول: "لماذا يكون على الهند، باسم الحرية، أن تدافع عن هذه الإمبراطورية الشيطانية وهى نفسها أعظم تهديد للحرية عرفه العالم؟"

كان أرجون متوترًا جدًا فنخر فى غضب. قال: "بلهاء. أتمنى لو استطعتُ حشره فى حناجرهم. هل تعتقدون أن لديهم ما يفعلون أفضل من السير فى الشمس الحامية..."

قالت أوما بحدة من المقعد الخلفى: "لاحظ ما تقول، أرجون. آمل أن تعرف أنه كان من المفترض أن أكون أنا أيضًا فى تلك المسيرة. لا أعتقد أن عليك أن تصفهم بالبلهاء. ومع ذلك، ماذا تعرف عن هذه الأشياء؟"

"أوه، حسنًا..." كان أرجون على وشك أن يستهجن هذا حين بدأ دينو، بشكل غير متوقع، يدافع عنه.

قال: "أعتقد أن أرجون محقٌّ. هؤلاء الناس بلهاء..."

قالت أوما: "ماذا؟ عم تتحدث، دينو؟"

قال دينو: "أتحدث عن الفاشية، والسبب الذى يجعل محاربتها أهم شىء الآن. إذا نشبت الحرب، فلن تكون مثل أى حرب أخرى... هتلر وموسولينى من أكثر القادة استبدادًا وتدميرًا فى تاريخ البشرية كله... بشعان، وحشان. إذا نجحا فى فرض إرادتهما على العالم هلكنا جميعًا. انظرى إلى ما يؤمنان به... كل أيدلوجيتهما عن تفوق أعراق معينة وتدنى أخرى... انظرى إلى ما فعلا باليهود... وإذا استطاعا فسيدمران حركة الطبقة العاملة فى كل مكان من العالم... سيكون حكمهما أعنف

وأكثر طغيانًا مما تتخيلين، بعض الأعراق فى القاع وبعضها فى القمة... ولا تتخيلى لحظة أن الهند وبورما ستكونان أفضل حالاً إذا هُزِم البريطانيون... يسعى الألمان ببساطة إلى السيطرة على الإمبراطورية والحكم بدلاً منها... فكرى فيما سيحدث فى آسيا. يتطلع اليابانيون بالفعل إلى إمبراطورية، مثل النازيين والفاشست... فى السنة الماضية، فى نانكنج[١٢]، قتلوا مئات الآلاف من الأبرياء... وآخر ما سمعنا من سايا جون إن كثيرًا من أقارب زوجته قتلوا... صُفُّوا أمام الحوائط وأطلقت عليهم النيران... رجالاً ونساء وأطفالاً... هل تعتقدين أن الجيش اليابانى إذا وصل الهند لن يفعل الشىء نفسه هنا؟ إذا اعتقدت ذلك فأنت مخطئة... سيفعلون... إنهم إمبرياليون وعنصريون من أسوأ طراز... إذا نجحوا فستكون أسوأ كارثة فى تاريخ البشرية كله."

ردَّتْ أوما بهدوء. قالتْ: "دينو، لا تعتقد لحظة أن لدىَّ، أو لدى أى شخص فى المؤتمر، ذرة تعاطف مع النازيين والفاشست. لا، إطلاقًا: إنهم كما تقول- وحوش، بشعون. قال المهاتما غاندى مرات كثيرة، إنهم يمثلون نقيض كل ما نؤيده. لكنا، فى رأيى، بين فكى كماشة: مصدرين للشر المطلق. السؤال بالنسبة لنا، لماذا نختار طرفًا دون الآخر؟ تقول إن النازية ستحكم بالعنف والسيطرة، وتؤسس العنصرية وترتكب فظائع لا توصف. هذا كله صحيح؛ لا أجادل فيه لحظة. لكن فكِّرْ فى الشرور التى سردتها: العنصرية والحكم العدوانى والسيطرة. هل الإمبراطورية ليست مذنبة فى هذا؟ كم من عشرات الملايين من الناس هلكوا لتسيطر هذه الإمبراطورية على العالم - لتستولى على قارات كاملة؟ لا أعتقد فى إمكانية وجود إحصاء. والأسوأ أن الإمبراطورية صارت مثالاً للنجاح الوطنى - نموذجًا تستلهمه كل الأمم. فكر فى البلجيكيين، يتسابقون للاستيلاء على الكونغو - قتلوا هناك عشرة ملايين أو أحد عشر مليونًا. ماذا يريدون سوى خلق نسخة من الإمبراطورية؟ أليس هذا ما تريده اليابان وألمانيا اليوم - إمبراطوريتين لهما؟"

مـالت بيـلا على المقـعـد، مـحـاولة التـدخـل. صـرخـتْ: "علينا أن نرجع. لا يمكن أنْ نكتفي بالجلوس هنا نتجادل ليلة عرس منجو."

مرَّ آخر المتظاهرين. أدار أرجون السيارة وانطلق بها. ساروا بسرعة عبر الطريق إلى لنكاسوكا.

لكن المناقشة لم تنته بالنسبة لدينو. استدار في مقعده. قال: "عمة أوما، تتحدثين دائمًا عن شرور الإمبراطورية وما فعله البريطانيون بالهند... لكن ألا تعتقدين أن هذه الأشياء المفزعة كانت تحدث هنا قبل مجيئهم؟ انظري إلى الطريقة التي تُعامَل بها المرأة حتى اليوم، انظري إلى نظام الطائفة، النبذ[١٣]، حرق الأرملة... كلها مفزعة، أشياء مفزعة."

ردَّتْ أوما بحدة: "لأكن أول من تعترف بفظائع مجتمعنا- كامرأة، أؤكد لك أني أكثر وعيًا بها منك. قال المهاتما غاندي دائمًا إن صراعنا من أجل الاستقلال لا ينفصل عن صراعنا من أجل الإصلاح. لكن وقد قلتُ هذا، لأضفْ علينا ألا ننخدع بفكرة أن الإمبريالية مشروع إصلاحي. يود الاستعماريون أن نؤمن بهذا، لكنَّ هناك تفنيدًا بسيطًا وواضحًا. صحيح أن الهند تعجُّ بشرور كتلك التي تصفها- الطائفة وإساءة معاملة النساء والجهل والأمية. لكن خذ بلدك، بورما، على سبيل المثال، ليس فيها نظام الطائفة. على العكس، يؤمن البورميون بالمساواة تمامًا. النساء في منزلة عالية – ربما أكثر من الغرب. كانوا عمومًا يعرفون القراءة والكتابة. لكن بورما احتُلَّتْ أيضًا، واستُعبِدتْ. وعاني أهلها أسوأ مما عانينا على أيدي الإمبراطورية. من الخطأ ببساطة تخيل أن الاستعماريين يجلسون ويفكرون في الصواب والخطأ في المجتمعات التي يريدون احتلالها؛ لا تُبْنَى الإمبراطوريات بهذه الطريقة.

ضحك دينو ضحكة خشنة: "أنت هنا، مفعمة بالسخط على البريطانيين. إلا أنك تستخدمين اللغة الإنجليزية أكثر بكثير من..."

ردَّتْ أوما بحدة: "لا معنى لهذا. كتب كثير من الكتاب اليهود الكبار بالألمانية. هل تعتقد أن ذلك يمنعهم من معرفة الحقيقة؟"

من مقعد القيادة، صاح أرجون: "كفى!" ألقى بالسيارة فى ملف حاد، ودخل من بوابات لنكاسوكا. وهم ينزلون من السيارة، قابلتهم أصوات نباح القذائف ودويها. صعدوا السلم بسرعة ليجدوا نيل ومنجو يسيرون حول النار، ودوطيه معقود فى ساريها.

نظرت منجو من تحت غطاء السارى حول الغرفة، تبحث فى كل مكان عن أرجون. حين رأته أخيراً يدخل، مرتدياً ملابسه المسودة المشحمة، برزت برأسها، ملقية بالغطاء. تجمد كل من فى الغرفة، مندهشين من منظر عروس مكشوفة الوجه. وحينها، قبل أن تعيد منجو السارى إلى وضعه، انطلق فلاش دينو. فيما بعد، اتفق الجميع على أنها أفضل صور العرس.

***

كانت ليلة حارة لا تُحتمَل. غرق سرير بيلا فى العرق على الرغم من دوران المروحة الكهربية فوق رأسها. لم تستطع النوم؛ استمرَّتْ فى شم أريج الزهور - آخر عبير يهبُّ قبل هطول الأمطار. فكرت فى منجو، فى سريرها الذى تتناثر عليه الزهور فى الدور الأرضى مع نيل. كان تأثير الحرارة على زيادة أريج الزهور غريباً.

كان حلقها جافًا، فى جفاف الرمل. تركت السرير وذهبت إلى قاعة فى الخارج. كان المنزل مظلمًا وللمرة الأولى منذ أسابيع لم يكن هناك أحدٌ. بدا الصمت غير طبيعى، خاصة بعد صخب آخر بضعة أيام. سارت على أطراف أصابعها من القاعة

إلى الفراندة التى فى ظهر المنزل. كان القمر بدراً، يسقط نوره على الأرضية، يلمع مثل الرقائق الفضية. حدقت فى باب الغرفة حيث ينام كيشان سنجه. كان مواربًا، كالمعتاد. تساءلت إن كان عليها أن تغلق الباب. خطَتْ عبر الفراندة، وذهبتْ إلى الباب ونظرتْ فى الغرفة. رأته يستلقى على حصيرته ولُنْجِيه مطوى بين ساقيه. دفعت هبة من الرياح الباب فانفتح قليلاً. بدا الجو أبرد فى الداخل. تسللت وجلستْ فى زاوية وذقنها على ركبتيها.

تقلب فجأة ونهض: "ما هذا؟"

"أنا – بيلا."

"بيلا؟"

سمعت نبرة قلق فى صوته وفهمت أن الأمر يتعلق بأرجون أكثر مما يتعلق بها؛ كان خائفًا مما قد يحدث إذا وُجِدتْ فى غرفته – أخت ضابط، فتاة بلغت الخامسة عشرة للتو وغير متزوجة. لا تريد أن يشعر بالخوف. دفعت نفسها عبر الأرضية ولمستْ يده: "كل شىء على ما يرام، كيشان سنجه."

"وماذا إذا...؟"

"الجميع نيام."

"لكن يبقى..."

رأته لا يزال خائفًا، مدَّتْ ساقيها وتمددتْ بجانبه. قالت: "قل لى، كيشان سنجه، حين تزوجت – كيف كانت ليلتك الأولى مع زوجتك؟"

ضحك برقة. قال: "كانت غريبة. عرفتُ أن أصدقائى وأقاربى على الباب يسمعون ويضحكون."

"وزوجتك؟ هل كانت مرعوبة؟"

"نعم، لكن كنتُ مرعوبًا أنا أيضًا – أكثر منها بطريقة ما. فيما بعد حين تحدثنا فى ذلك مع الآخرين، عرفنا أن الأمور على هذا النحو دائمًا..."

كان يمكن أن يمارس معها الحب وتتركه، لكنها فهمت أنه لن يفعل، ليس لأنها خائفة ولكن نتيجة نوع من الأدب الفطرى، وكانت سعيدة لهذا لأنه يعنى أن وجودها لم يكن خطأ. سعدت بمجرد الاستلقاء بجانبه، شعرت بجسمه، وعرفت أنه يشعر بجسمها: "وحين ولد ابنك، هل كنت هناك؟"

"لا. كانت فى القرية وكنت فى القاعدة."

"ماذا فعلت حين سمعت الأخبار؟"

"اشتريتُ حلوى من حلاوى(١٤) وذهبت إلى أخيك وقلتُ: صاحب، هنا بعض الميثى(١٥). نظر إلىَّ وسأل: لماذا؟ فقلتُ، صاحب، جاءنى ابن."

حاولتْ تخيُّل أرجون فى زيه يتحدث إلى كيشان سنجه. لم تتجسد الصورة: "أخى – كيف يبدو؟ أقصد كعسكرى؟"

"ضابط ممتاز. نحبه، الرجال."

"هل هو صعب معك؟"

"أحيانًا. من بين كل هنود كتيبتنا، هو الأقرب شبهًا بالإنجليز. نسميه 'الإنجليزى.'"

ضحكتْ: "يجب أن أخبره."

فجأة وضع يده على فمها: "صه." سمع صوت شخص يتحرك فى الدور الأرضى. وقف محذِّرًا. قال: "سيطيرون إلى رنجون اليوم. سيستيقظون جميعًا مبكِّرًا. يجب أن تذهبى."

ناشدتْه: "لحظة أخرى. مازلنا فى الليل."

"لا."

شدَّها لتقف وقادها إلى الباب. وهى تتسلُّ خارجة، أوقفها: "انتظرى." بيد تحت ذقنها، قبَّلها، بسرعة شديدة، قبلة كاملة على الشفتين.

***

حين هزَّ نيل منجو ليوقظها، لم تصدق أن الوقت حان.

توسَّلتْ: "لحظة فقط. دقائق أخرى فقط."

وضع ذقنه على خدِّها وداعبها بلحيته. قال: "منجو، الطائرة تغادر فى الرابعة صباحًا. لا وقت أمامنا..."

كان الظلام لا يزال مخيِّمًا حين بدأ صخب الرحيل. وُجدتْ سلاسل مفاتيح ونُسيتْ؛ أُعِدَّتْ حقائب وربِطتْ بأحزمة بإبزيم؛ أُغلِقتْ أبوابٌ ونوافذُ وفُحِصتْ وأُغلقتْ مرة أخرى. قدمت دورة أخيرة من الشاى ثم حملت أمتعتهم، والجيران غارقون فى النوم، فى سيارة. وقف أفراد العائلة حول الفناء، يلوِّحون: أوما وبيلا وأرجون ووالداهما. نظر كيشان سنجه من الدور العلوى. صرختْ منجو قليلاً، لكن لم يكن هناك وقت طويل للتوديع. أسرع نيل بها إلى السيارة وأغلق الباب.

"سنعود فى العام القادم..."

كان الوقت مبكِّرًا والطرق خالية، ولم يستغرق الطريق سوى نصف ساعة للوصول إلى قاعدة ويلينجدون الجوية، على ضفاف نهر هوجلى(١٦). وبعد دقائق وصلت دلِّى مع رجكومار ودينو. فى الرابعة صباحًا بالضبط وُجِّهوا إلى رصيف، حيث ينتظر لنش آلى رمادى أملس. بدأ محرك اللنش يهدر وانطلقوا فى النهر، وظَهْرُ اللنش يميل للخلف

بزاوية كبيرة. كان الجوُّ معتمًا تمامًا، ولم تر منجو من حولها إلا دوائر طينية من الماء تضاء بكشاف اللنش القوى.

أبطأ اللنش وخفت هدير محركه إلى أنين رقيق. هبطت مقدمته فى الماء وشقَّ كشافه المياه. فجأة ظهر زورقان ضخمان أبيضان من المياه، ازداد الضوء وظهرت المركبة الهوائية التى ستقلهم إلى رنجون. كانت طائرةً ضخمة، مَرْكَبةً طائرة حمولتها ثمانية عشر طنًا ونصف. على ذيل الطائرة شعار شركة الخطوط الجوية وعلى مقدمتها اسم بحروف كبيرة– سنتوريس[١٧].

همس نيل فى أذن منجو: "طائرة بحرية من طراز مارتين سى ١٣٠ . نوع يقطع المحيط الهادى لصالح شركة بان آم[١٨]."

"مثل طائرة همفرى بوجار فى تشينا كليبر[١٩]؟"

ضحك: "نعم. وكانت هناك واحدة أيضًا فى الطيران إلى ريو، تذكَّرِى، مع فريد أستير وجنجر روجرز[٢٠]؟"

لم تتضح الأبعاد الكاملة لحجم الطائرة أمام منجو إلا حين تخطت الباب. كانت رحبة مثل بهو سفينة، بمقاعد عميقة مبطنة جيداً وقواعد نحاسية خفيفة براقة. ضغطت منجو أنفها فى النافذة ورأت المراوح تلف. ظهرت نقاط من الزبد الأبيض على المياه البنية المزبدة وبدأ جسم الطائرة المرتجفة يتقدم، امتد أثر موجتها المقوسة باتجاه الشاطئ غير المرئى، وهزَّ جزرًا صغيرةً من ياقوتية[٢١] الماء كانت تطفو باتجاه التيار. صدرت قرقرة مص من الزورقين والطائرة تتخلص من قبضة الماء، بكل سرعتها. فجأة انطلقت السنتوروس إلى الأمام وكأنها قذفت بهبة رياح على الماء. رأت منجو المياه التى ضربتها رياح الهوجلى تبتعد والمركبة الهوائية ترتفع ببطء فوق الجسور العالية على النهر. تلاشت فجأة أضواء المدينة ولم يكن تحتهم إلا الظلام: يحلقون فوق مستنقعات المنجروف فى السندربانز[٢٢]، باتجاه خليج البنغال.

بعد قليل اصطحب مضيفٌ منجو ونيل فى جولة على الطائرة. ذهبوا إلى منصة الملاحة، حيث يجلس الكابتن والضابط الأول متجاورين، خلف أجهزة تحكم متماثلة. أوضح الضابط الأول أن الرحلة من كلكتا إلى رنجون تقوم فى اتجاه واحد كل أسبوعين، رحلة دورية طولها أحد عشر ألف ميل تقطعها السنتوروس من سوثامبتون[٢٣] إلى سيدنى والعكس.

خلف المنصة تقع الكبائن الرئيسية: منطقة للمضيفين، كابينة وسط الطائرة، كابينة للتدخين وسطح للتنزه- منطقة خالية من المقاعد، ليمد الركاب أرجلهم أثناء الرحلة. أذهل منجو التصميم الرائع للمطبخ والمخزن وكان دقيقًا ككل شيء. وفى منطقة لم تكن أكبر من خزانة متوسطة، وُجِدت بشكل ما كل متطلبات مطعم من الدرجة الأولى- آنية فخارية ومفارش وآنية فضية، وحتى الزهور اليانعة.

مع اقتراب بزوغ الشمس، نصح المضيف منجو ونيل بالذهاب إلى سطح التنزه لمشاهدة شروق الشمس. سارا عبر مدخل مقوس فى الوقت المناسب ليريا الامتداد المظلم للسندرْبان يستسلم للبريق المعدنى لخليج البنغال. عن بعد ظهر لون فضى فى الأفق، كضوء يتسرب من مدخل. تحولت السماوات المظلمة بسرعة إلى اللون البنفسجى ثم انبعث الأخضر الشفاف المتألق مع خطوط قرمزية وصفراء.

ودينو يحاول تصوير الشروق، عبر منجو ونيل الممر للنظر فى الاتجاه الآخر. صرختْ منجو بصوت عال: إلى الغرب يقع مشهد مذهل. خيمت فى الأفق كتلة مظلمة، سحب بحجم سلسلة من الجبال. كأن جبال الهملايا نُقِلتْ بشكل سحرى عبر البحر. كانت كميات السحب ثقيلة حتى بدا أن قيعانها المنبسطة تلامس الأمواج تقريبًا بينما حلقت قممها بعيدًا، بعيدًا فوق الطائرة - قمم إفرست هائلة من السحب ترتفع عشرات الآلاف من الأقدام فى السماء.

قال نيل غير مصدق: "الرياح الموسمية. نجرى مباشرة فى الأمطار المقبلة."

سألت منجو: "هل ستكون خطيرة؟"

قال نيل بثقة: "ربما فى مركبات هوائية أخرى. لكن ليس فى هذه."

عادا إلى مقعديهما وبسرعة بدأت زخات المطر تلسع النوافذ بقوة جعلت منجو تجفل من الزجاج. إلا أن العنف الهائل للمناخ لم يؤثرْ تقريبًا على الطائرة - كان عداد السرعة فى الكابينة يبين أن السنتوروس تطير بسرعة ثابتة تبلغ ٢٠٠ ميل فى الساعة. لكن بعد لحظة أعلن الكابتن أن السنتوروس ستغير ارتفاعها لتجتاز العاصفة. ستنزل من الارتفاع الذى تطير عليه وكان ٣٠٠٠ قدم إلى بضع مئات من الأقدام فوق سطح البحر.

راحت منجو فى غفوة ولم تستيقظ إلا حين سرت فى الطائرة موجة من الإثارة. ظهرت الأرض على الجانب الأيمن: جزيرة تشبه صورة فى كتاب تحيط بها الشواطئ. أمواج هائلة تتحطم إلى رقائق من الزبد الأبيض على الرمال. وفى منتصف الجزيرة يقف برج مخطط بالأسود والأبيض.

أعلن الكابتن: "سيداتى سادتى، ما نراه هنا منارة أُوِستر ريف(٢٤). سترون أول مشهد من بورما بعد قليل. شاهدوا ساحل أركَان..."

ثم ظهرت - قريبة بما يكفى للمسها - سجادة من المنجروف متخثرة بكثافة ومعرَّقة بشقوق رقيقة وجداول فضية. ومنجو جالسة تنظر من النافذة، همس نيل فى أذنها، حاكيًا لها حكاية موت جدته - أم رجكومار - فى مكان ما تحت، على سمبان كان يرسو فى أحد هذه الخلجان المتشعبة.

كانت بلدة أكاب، عاصمة أركَان، محطتهم الأولى. قال نيل بزهو: "هنا ولد أبى." كانت قاعدة شركة الخطوط الجوية تقع فى ممر بحرى طبيعى، على مسافة كبيرة من البلدة. لم يروا من أكاب والسنتوروس تهبط إلا برج ساعة على مسافة كبيرة. بعد تزود الطائرة بالوقود حلقت فى الجو مرة أخرى. توقف المطر وتبين أن مياه الساحل فى

ضوء النهار الساطع تغطيها أميال من الشعب المرجانية وغابات عظيمة طافية من أعشاب البحر - بدت كلها من فوق كبقع على البحر المتلألئ. كانت رنجون إلى الشرق، وانتقلت السنتوروس بسرعة فوق الأرض، طائرة فوق امتداد ريفي غير مأهول. اقترب المضيف، موزعًا وجبات كبيرة مغلفة بالجلد.

وجدت منجو نفسها، بعد الانتهاء من تناول الفطور، تنظر على مشهد حقول الأرز المربعة. بعضها اخضرّ وبعضها في سبيله إلى الاخضرار، وصفوف من العمال يتقدمون في الوحل، ينقلون الشتلات. وقف العمال والطائرة تطير فوقهم، وألقوا برءوسهم إلى الخلف ملوحين بقبعات مخروطية ضخمة.

شاهدتْ منجو نهرًا ينحني عبر المشهد الطبيعي. سألتْ نيل: "هل هذا إراودى؟"

قال نيل: "لا. هذا نهر رنجون- إراودى لا يمر بالمدينة."

ثم شدّ عينيها بريق من ضوء الشمس على بناء هائل على مسافة بعيدة - جبل مُذهّب ينتهى بقمة من الذهب: "ما هذا؟"

همس نيل فى أذنها: "معبد شوى داجون. نحن فى الوطن."

نظرت منجو فى ساعتها ورأتْ أن الرحلة استغرقت خمس ساعات ونصف بالضبط. بدا مستحيلاً أن أقل من يوم انقضى على ليلة عرسها، منذ أغلق نيل باب غرفة النوم المزينة بالزهور. فكرت فى الهلع الذى انتابها، وانتابتها رغبة فى الضحك. عرفت فقط، والطائرة تلف حول المدينة التى ستكون وطنها، كم كانت واقعة فى الحب. كان حاضرها ومستقبلها، وجودها برمته. الزمن والوجود لا معنى لهما بدونه. وضعتْ يدها فى يده وتطلعتْ مرة أخرى إلى النهر الهائل العكر والقمة الذهبية. قالت: "نعم، أنا فى وطنى."

هوامش

(١) باكا ديكها paka-dekha: طقس تقوم فيه عائلة العريس بالذهاب إلى بيت العروس لإنهاء كل شيء بما فى ذلك موعد العرس.

(٢) جاى هولود gaye-holud: حرفيًا، كركم على الجسم، يشاهد أساسًا فى منطقة البنغال، يحدث قبل حفلات الزواج بيوم أو اثنين.

(٣) يو ويسارا U Wisara: راهب شهير قضى سنوات طويلة فى السجن ومات بعد ١٦٦ يومًا من الإضراب عن الطعام.

(٤) مَرْتبان martaban: برطمان.

(٥) الجهى ghee: نوع من الزبد يستخدم فى الهند للطبخ.

(٦) كورُكشترا: Kurukshetra. مهابهاراتا Mahabharata: ولاية فى غرب الهند على بحر العرب.

(٧) بشنديل Passchendaele: قرية فى البنغال، كانت مسرحًا لمعركة عنيفة فى الحرب العالمية الأولى.

(٨) أفسر afsar: كلمة فارسية بمعنى القائد.

(٩) حويلى haveli: كلمة أوردية من أصل فارسى بمعنى "المكان المغلق" والمقصود هنا صندوق زجاجى.

(١٠) أيورفيدا Ayurveda (سنكرستية): المعنى الحرفى علم الحياة، وهو نظام طبى تقليدى فى الهند، ويمارس فى أنحاء أخرى من العالم

(١١) دوربا durba: نوع من الأعشاب الزاحفة، يظهر طوال العام، ينتشر فى كل أنحاء بنجلاديش.

(١٢) نانكنج Nanking: مدينة وسط شرق الصين على نهر شانج يانج شمال غرب شنغهاى، كانت عاصمة للصين فى فترات مختلفة، ومنها الفترة من ١٩٢٨ إلى ١٩٣٧ حين اقتحمها اليابانيون، وهى الآن عاصمة مقاطعة يانجسو Jiangsu.

(١٣) النبذ untouchability أو المنبوذ untouchable: فئة فى الهندوسية، تشمل عدة فئات فرعية، تستبعد لاعتبارها قذرة فيما يتعلق بالطقوس وتدنيسًا للفئات الهندوسية الأربعة.

(١٤) حلاوى halwai: حلوانى.

(١٥) ميثى mithai: نوع من الحلوى الهندية، معروف فى معظم أنحاء العالم.

(١٦) ويلينجدون: Willingdon. هوجلى Hooghly: فرع من نهر جنجز Ganges فى شرق الهند، طوله حوالى ١٦٠ ميلاً، يربط كلكتا بخليج البنغال.

(١٧) سنتوريس: Centaurus.

(١٨) مارتين سى ١٣٠: Martin C-130. بان أم Pan Am: شركة الطيران الرئيسية فى الولايات المتحدة منذ ثلاثينيات القرن العشرين حتى انهيارها فى أواخر ١٩٩١ .

(١٩) همفرى بوجار: Humphrey Bogar. تشينا كليبر: China Clipper.

(٢٠) الطيران إلى ريو Flying Down to Rio: فيلم غنائى، عرض ١٩٣٣، من إخـراج ثورنتـون فريلاند. فـريد أستير Fred Astaire: (١٨٩٩ - ١٩٨٧) راقص وممثل أمريكى. جنجر روجرز Ginger Rogers: راقصة وممثلة، ولدت عام ١٩١١، شاركت مع فريد أستير فى بعض الأفلام، بما فى ذلك Swing Time (١٩٣٦)

(٢١) ياقوتية hyacinth: نبات له أوراق رفيعة، وزهور ملونة عطرة.

(٢٢) سندربانز Sunderbans (الغابة الجميلة بالبنغالية): أكبر غابة منجروف على سطح الماء فى العالم.

(٢٣) سوثامبتون Southampton: قرية جنوب شرق نيويورك، تعتبر منتجعًا صيفيًا.

(٢٤) أويستر ريف Oyster Reef.

الجزء الخامس

مُرْنِنْجْسايد

(٢٥)

لم يكن قد انقضى على زواج منجو ونيل إلا ثلاثة شهور حين أعلن رئيس الوزراء البريطانى، نفيل تشمبرلين[١]، الحرب على ألمانيا باسم بريطانيا وإمبرلطوريتها. مع بداية الحرب، أُعِدَّ نظام تحذير من الغارات الجوية فى رنجون. قُسِّمت المدينة عدة أقسام وشُكِّلت لجنة تحذير من الغارات الجوية لكل قسم. تعلم الأطباء التعامل مع الإصابات الغازية؛ تعلم المراقبون كيفية التعرف على القنابل الحارقة؛ تشكلت فرق مكافحة الحرائق؛ وتكونت مراكز للإسعافات الأولية. كان منسوب المياه الجوفية فى رنجون أعلى من أن يسمح ببناء خنادق تحت الأرض، لكن حُفِرتْ خنادق ضيقة فى نقاط مهمة حول المدينة. كان هناك "إطفاء للأنوار" بشكل دورى؛ وكانت القطارات تدخل محطة سكك حديد رنجون وتغادرها بنوافذ معتمة؛ وكان المراقبون ورجال الدفاع المدنى يؤدون مهامهم طوال الليل.

لم يكن هناك شىء غير مُرْضٍ فى القيام بهذه التدريبات: اتبع سكان المدينة التعليمات بروح طيبة وكانت الاضطرابات قليلة. لكن لا أحد ينكر حقيقة أن إطفاء النور فى رنجون بدا تأدية واجب أكثر مما كان تدريبياً: بدا أن الجماهير تتنقل بدون اقتناع سواء باقتراب الجرب أو بتأثيرها المحتمل على حياتهم. انقسم رأى الجماهير بعمق فى بورما، كما انقسم فى الهند: فى البلدين عبَّر كثير من الشخصيات المهمة عن دعمهم للحكومة الاستعمارية. لكن أدان أيضًا، بمرارة، عددٌ كبيرٌ إعلان بريطانيا للحرب باسمهم، بدون ضمانات لاستقلال نهائى. لخَّص مزاج الطلاب النشطين فى بورما شعار وضعه قائد طلابى صغير، اسمه أُنْج سان[٢]، قال: مشكلةُ الاستعمار فرصةٌ

للحرية. ذات يوم اختفى أُنْج سان: راجت إشاعة بأنه فى الطريق للصين بحثًا عن دعم الشيوعيين. فيما بعد عُرِف أنه سافر إلى اليابان.

كانت هذه الاهتمامات بعيدة نسبيًا عن حياة الشارع، وبدا أن الناس يعتبرون تدريبات التحذير من الغارات الجوية نوعًا من التسلية، لهْوًا جماعيًا. انتشرتْ علامات المرح فى الطرقات المعتمة؛ تحركِ الشباب خِفيةً فى الحدائق؛ واحتشد هواة السينما لمشاهدة نينوتشكا لإرنست لوبيتش[٣] فى مترو. وعُرِض عندما يأتى الغد فترة طويلة فى إكسلسيور[٤]، وبُجِّلت إيرين دن[٥] كإحدى معبودات المدينة. استمرَّ الرقص فى الكباريهات كالمعتاد فى السيلفر جريل فى ميدان فيتش[٦].

كان دينو وصديقه ثيها سو[٧] من بين عدد قليل كرسوا أنفسهم بصدق لنظام التحذير من الغارات الجوية. انهمك دينو وثيها سو بعمق فى سياسة اتحاد الطلبة. كانا على أقصى يسار الطيف السياسى وانهمكا فى نشر مجلة ضد الفاشية. وبدت المساهمة فى الدفاع المدنى امتداداً طبيعيًا للعمل السياسى.

كان دينو لا يزال يعيش فى مجمع كمندين، فى غرفتين فوق المنزل. لكنه لم يذكر فى البيت عمله كمراقب فى التحذير من الغارات الجوية - من ناحية لأنه عرف أن نيل سيقول له إنه يضيع وقته ويحتاج للقيام ببعض الأعمال، ومن ناحية أخرى لأن الخبرة جعلته يفترض أن آراءه تتناقض بعنف دائمًا مع آراء والده. وهو ما أثار دهشته حين وجد نفسه فجأة، فى اجتماع مراقبى التحذير من الغارات الجوية، وجهاً لوجه مع شخص لم يكن إلا أباه.

"أنت؟"

"أنت!" لم يكن معروفًا من منهما أكثر اندهاشًا.

نشأ بعد هذه المواجهة - للمرة الأولى تمامًا - ارتباط قصير بين رجكومار ودينو. أدَّى نشوب الحرب بهما إلى طريقين متعارضين لوضع مشترك: اقتنع رجكومار بأن

اقتصاد بورما سينهار فى غياب الإمبراطورية البريطانية. وتجذَّر دعم دينو لجهود الحلفاء فى الحرب فى نوع آخر من التربة: فى تعاطفه اليسارى؛ فى دعم حركات المقاومة فى الصين وأسبانيا؛ فى إعجابه بشارلى شابلن وروبرت كابا(٨). لم يكن، عكس أبيه، مؤمنًا بالاستعمار - فى الحقيقة، كان بغضه للحكم البريطانى لا يفوقه إلا اشمئزازه من الفاشية الأوروبية والعسكرية اليابانية.

بصرف النظر عن الأسباب، كانت لحظة اتفق فيها الأب والابن - موقفًا لا سابقة له فى ذكريات أى منهما. للمرة الأولى فى حياتيهما، عملا سويًا - حضرا اجتماعات، ناقشا مسائل من قبيل ضرورة استيراد أقنعة غاز وتصميم ملصقات الحرب. كانت خبرة جديدة، استمتعا بها فى صمت.

ذات ليلة رافق إطفاء النور للتحذير من الغارات الجوية عاصفة رعدية. على الرغم من الأمطار أصرَّ رجكومار على مرافقة المراقبين فى دوراتهم. تصبب عرقًا حين عاد إلى البيت. فى الصباح التالى استيقظ وهو يرتجف. جاء طبيب وقال إنه يعانى من التهاب رئوى. نُقِل رجكومار إلى المستشفى فى سيارة إسعاف.

كان رجكومار، فى الأيام القليلة الأولى، لا يدرك ما حوله، لا يتعرف على دُلِّى أو دينو أو نيل. اعتبرت حالته خطيرة ومنع الأطباء الزيارة عنه. استلقى عدة أيام فيما يشبه الغيبوبة.

تراجعت الحمى ببطء.

استكشف رجكومار، فى فترات صحوته، ما يحيط به. أخذته الصدفة إلى مكان أليف: غرفة المستشفى التى أقامت فيها دُلِّى مع دينو قبل أربعة وعشرين عامًا. تعرف رجكومار، وهو ينظر حول سريره، على المشهد من النافذة: كان الشوى داجون واضحًا كما يتذكر بالضبط. بهتت الستائر الزرقاء والبيضاء قليلاً لكنها لا تزال نظيفة ومنشاة

بشكل متموج؛ والأرضيات القرميد، كما كانت دائمًا، نظيفة بشكل مذهل؛ والأثاث الثقيل الداكن كما كان مميزًا، مع أرقام للجرد مطبوعة بالاستنسل على خشب مطلى باللون الأبيض.

وحين تحسنت حالة رجكومار أخيراً بحيث يستطيع القيام، رأى في الغرفة إضافتين. الأولى مكيف هواء كاريير والأخرى راديو بجوار السرير - بيلارد[٩] بسبعة صمامات مع "عين سحرية"، وخزانة معدنية ودعامات مطلية بالكروم. لم يكن رجكومار بحاجة إلى مكيف الهواء، لكن أثار الراديو فضوله. أدار مفتاحًا واستمع إلى محطة في سنغافورة: صوت مذيع الأخبار يسرد آخر تطورات الحرب، واصفًا إجلاء القوات البريطانية من دُنْكِرك[١٠].

بعد ذلك أبقى رجكومار الراديو مفتوحًا معظم الوقت. كل ليلة تغلقه الممرضة وهي تطفئ الأنوار؛ وينتظر رجكومار ابتعاد وقع خطاها ليفتحه مرة أخرى. يستلقي على جانبه يدير الزر، ويتنقل من محطة إلى أخرى. قبل أربعة وعشرين عامًا، ودُلّي تقيم في الغرفة، كانت حرب أخرى تهز أوروبا. ظلت دُلّي أيضًا مستيقظة في هذه الغرفة، تسمع أصوات الليل. جاءت الهمسات التي سمعتْها من داخل المستشفى؛ لكن حينذاك امتلأت الغرفة بأصوات من حول العالم- لندن ونيودلهي وشنجكنج[١١] وطوكيو وموسكو وسيدني. تحدثت الأصوات بإلحاح وإصرار حتى شعر رجكومار أنه فقد الاتصال مع تدفق الأحداث؛ أصبح ممن يسيرون وهم نيام إلى كارثة لفشلهم في ملاحظة أهمية ما يدور حولهم.

فكر، للمرة الأولى منذ سنوات طويلة، في الطريقة التي أدار بها أعماله. حاول يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، تقييم كل قرار ومراجعة كل الحسابات اليومية وزيارة كل موقع، كل ورشة وشادر ومنفذ. يدير شركته كأنها كشك طعام في بازار، وأثناء ذلك نسي نفسه على أوسع نطاق.

تحمس نيل فترة طويلة للقيام بدور أكبر فى إدارة أعماله؛ لكن رجكومار أبعده. أعطاه فلوساً وطلب منه استثمارها فى أفلام- كأنه يشترى لطفل بعض الحلوى. أثَّرت الحيلة، فقط لأن نيل يخشاه بدرجة تجعله لا يتحدى سلطته. انهار العمل، وهى حقيقة رفض مواجهتها. ألح له المحاسبون والمدراء، وصرخ فيهم حين حاولوا تحذيره. والحقيقة القاسية عليه ألا يلوم إلا نفسه: ببساطة، فقدَ البصيرة بما يفعل وبالأسباب التى دفعته إلى فعله.

جثم الندم على رجكومار، وهو مستلقٍ يستمع أصوات طقطقة الراديو، مثل لحاف خانق رطب. أخبره الأطباء بأنه فى حالة جيدة وفى طريقه للشفاء التام، لكن أسرته لم تر تحسناً فى سلوكه أو مظهره. كان فى منتصف الستينيات، وبدا أكبر بكثير: شاب حاجباه الكثان وتهدلتْ وجنتاه فى اللغد والفك المتداخلين. بدا أنه لا يدرك وجود مَنْ أتوا إلى الغرفة لزيارته؛ وكثيراً ما أسكتهم بتعلية الراديو حين حاولوا التحدث إليه.

ذات يوم قفلت دُلّى الراديو وأغلقت الباب: "رجكومار، ماذا يدور فى رأسك؟ أخبرنى."

لم يتكلمْ فى البداية، لكنها حثته حتى أجاب.

"أفكر، دُلّى."

"فيم؟ أخبرنى."

"هل تتذكرين كيف كنت أنت ودينو فى هذه الغرفة فى ذلك الوقت...؟"

"نعم. بالطبع."

"فى تلك الليلة فى هوى زيدى، حين مرض دينو وطلبتِ أن نأخذه إلى مستشفى- اعتقدت أنك فى حالة هستيرية. ذهبت من أجلك فقط."

ابتسمتْ: "نعم. أعرف."

"لكن كنتِ محقة."

"لم يكن إلا حظًا – هاجسًا."

"هذا ما تقولين. لكن حين أنظر للخلف، أراك على صواب غالبًا. حتى وأنت تعيشين بهذا الهدوء، مبتعدة فى المنزل، يبدو أنك تعرفين ما يدور فى العالم أكثر مما أعرف."

"ماذا تقصد؟"

"كنتُ أفكر فيما كنت تقولين فى تلك السنوات الطويلة، دُلّى."

"ماذا بالضبط؟"

"علينا أن نغادر."

تنهدت دُلّى ارتياحًا ومدّتْ يدها إلى يده: "فكّرْتَ فى هذا أخيرًا؟"

"نعم. لكن الأمر صعب، دُلّى – التفكير فى المغادرة صعب: أعطتنى بورما كل ما أملك. كبر الولدان هنا؛ لم يعرفا وطنًا آخر. حين أتيتُ إلى مندالى أول مرة، قال ناخوده مركبى: هذه أرض الذهب – لا أحد يجوع هنا أبدًا. وثبت أن هذا صحيح فى حالتى، وعلى الرغم من كل ما حدث مؤخرًا، لا أعتقد أنى يمكن أن أحب مكانًا آخر كما أحببت هذا المكان. ولكن إذا كان هناك ما تعلمتُه فى حياتى، دُلّى، فهو أنه لا يقين فى هذه الأمور. كان أبى من شيتاجُنْج وانتهى فى أركان؛ أنا انتهيتُ فى رنجون؛ أنتِ ذهبْتِ من مندالى إلى رتناجيرى والآن أنت هنا أيضًا. لماذا نتوقع قضاء بقية حياتنا هنا؟ هناك أناس من حظّهم أن ينهوا حياتهم حيث بدأت. لكنه ليس نصيبنا. على العكس، علينا أن نتوقع أن يأتى وقت يكون علينا فيه أن ننتقل مرة أخرى. بدل أن تجرفنا الأحداث، علينا أن نخطط ونتدبر مصيرنا."

"ماذا تحاول أن تقول، رجكومار؟"

"لا يهمُّ إن كنت أفكر في بورما كوطن أم لا. المهم ما يعتقده الناس بشأننا. واضح تمامًا أن أمثالي يُعتبَرون الآن أعداء - من كل جانب. واقع عليَّ الاعتراف به. مهمتي الآن أن أجد طريقة أتأكد أن يؤيدها دينو ونيل."

"من المؤكد أنهما يؤيدانها."

توقف رجكومار قبل أن يجيب: "دلِّي، أظنك تدركين أن العمل ليس على ما يرام في الفترة الأخيرة. لكن ربما لا تعرفين تمامًا مدى ما وصلت إليه الأمور."

"ما مداها؟"

"قال بهدوء: "الأمور ليست جيدة، دلِّي. هناك ديون - كثيرة."

"لكن، رجكومار، إذا بعنا المنزل، والشوادر، ونصيبنا في مرننجسايد - من المؤكد أن شيئًا سيتبقى بحيث يمكن للوالدين أن يبدآ في مكان آخر."

سعل رجكومار: "لن ينفع، دلِّي. والأمور على حالها في هذه الدقيقة، حتى لو بعنا كل شيء فلن يكفي. بالنسبة لمرننجسايد، يعاني ماثيو من مشاكل خاصة به، تعرفين. ضُرِب المطاط بقسوة نتيجة الكساد. لا يمكن أن نندفع إلى هذا، دلِّي- إننا على يقين من أن هذا الطريق يؤدي إلى كارثة. يجب أن يتم ذلك بحذر شديد جداً. يجب أن نفسح له وقتًا..."

"لا أعرف، رجكومار." بدأتْ دلِّي تلتقط هتامينها بقلق: "الأمور تحدث بسرعة كبيرة الآن - يقول الناس إن الحرب قد تمتد؛ ربما تدخلها اليابان؛ يمكن حتى أن يهاجموا بورما."

ابتسم رجكومار: "مستحيل، دلِّي. انظري فقط إلى خريطة. ليأتي اليابانيون إلى هنا عليهم أن يأتوا عبر سنغافورة والملايو. سنغافورة من أكثر الأماكن المحصنة

دفاعيًا فى العالم. للإنجليز هناك قوات بعشرات الألوف. بطول الشاطئ مدافع عيار ست وثلاثين بوصة. لا يمكن أن نطارد الدخان، دلّى، لا يمكن أن نتصرف بفزع. إذا كان لنا أن ننجح، فيجب أن نكون واقعيين، يجب وضع خطط دقيقة."

مالت دلّى عليه لتسوى الوسائد على سريره: "عندك خطة إذن؟"

"ليس بعد، لكنى أفكر. ما سنفعله يستغرق وقتًا مهما يكن- عامًا على الأقل، وربما أكثر. جهِّزى نفسك. أريد أن نغادر بورما بما يكفى بحيث يستقر الولدان مستريحين فى مكان ما- فى الهند أو حيثما أرادا."

"وبعد ذلك؟"

"نكون نحن الاثنان حرين."

"لنفعل ماذا؟"

"حسنًا، أنت قررْتِ بالفعل - تريدين أن تعيشى فى ساجاينج."

"وماذا عنك؟"

"ربما أعود أيضًا، دلّى. أفكر أحيانًا فى أن أعيش بهدوء فى هوى زيدى- أنا متأكد من أن دوه سى لديه مكان لى - ولن يكون بعيدًا جدًا عنك."

ضحكتْ دلّى: "تبيع كل شىء، تقتلعنا جميعًا من جذورنا، تفعل هذا كله، لتعود وتعيش بهدوء فى هوى زيدى؟"

"لا أفكر فى ذلك من أجل نفسى، دلّى - من أجل الولدين."

ابتسم رجكومار وترك رأسه يسقط على وسائده. ذات مرة من قبل فى حياته، عرف أنه فى مفترق طرق - وهو يحاول الحصول على أول عقد، لسكك حديد شوتا

نجبور. فكر بجدية ليتوصل إلى خطة ونجحت، ووضع أسس نجاحه المستقبلى. فى هذه المرة أيضًا عليه أن يفكر فى شىء، خطة تنفع: تحديه الأخير، آخر هضبة يجتازها، ثم يستريح. لا عار فى أن يكبر ويبحث عن الراحة.

***

جاءت الشهور الأولى من الحرب وأرجون وكتيبته على تخوم أفغانستان. كان أرجون على رأس حامية فى مركز حدودى صغير اسمه شاربجه، قرب ممر خيبر[١٢]. كانت الحدود هادئة – قال القائد إن هذا غير مألوف – وبدا الصراع فى أوروبا بعيدًا جدًا. كان فى شاربجه سرية واحدة من الجنود، وكان أرجون الضابط الوحيد. كانت المناطق المحيطة مدهشة الجمال: جبال برتقالية خشنة مقلمة بخطوط من الصخر الملون الرائع. ولم يكن هناك ما يفعل غير التدريبات اليومية ومعاينة الثكنات والمسيرات العارضة مع طوابير التدريب. وكان أرجون يقضى ساعات طويلة فى القراءة وبسرعة أتى على الكتب.

كان قائد الكتيبة، المقدم "بكى" بكلاند، يتوقف على فترات منتظمة كل أربعة عشر يومًا فى جولات للمعاينة. كان القائد رجلاً طويلاً يبدو محترفًا وخصلة من شعره النحيل تتدلى على قاعدة رأسه الأصلع المقبب.

سأل القائدُ بشكل تلقائى فى إحدى زياراته: "ماذا تفعل بوقتك أيها الضابط؟ هل تطلق النار؟ سمعت عن كثير من اللعب هنا."

قال أرجون بهدوء: "فعليًا، سير، أقرأ كتبًا..."

عاد القائد ينظر إليه باهتمام جديد: "أوه؟ لم أظن أنك قارئ. وهل لى أن أسأل ماذا تقرأ؟"

ثبت أن ذوقيهما متكاملان: قدم القائدُ لأرجون روبرت جريفز[١٣] وويلفرد أوين[١٤]. أعاره أرجون نسخه من كتاب هـ.ج. ويلز[١٥] حرب الأكوان، وكتاب جول فيرن[١٦] عشرون ألف فرسخ تحت البحر. وأصبح هذا التبادل جزءًا ممتعًا فى حياة أرجون فى شاربجه وبدأ يتطلع إلى زيارات القائد. بينها أيام طويلة لا شىء يحدث فيها. لم يكن هناك ما يُفعَل إلا التحدث إلى مسافر عابر.

فيما بعد فى الصيف، توقف هاردى صديق أرجون فى طريقه إلى معسكره، فى أعالى ممر خيبر. كان هادرى رجلاً هادئًا صافى العينين متوسط الطول والبنية. وكان، بزيه أو بدونه، أنيقًا دائمًا – طيات عمامته ملفوفة بدقة ولحيته ممشطة بعناية على ذقنه. لم يكن هاردى، على الرغم من خلفيته العسكرية، يشبه بحال من الأحوال المحاربين السيخ فى المعرفة العسكرية – كان رقيق الحديث بطىء الحركة، بتعبيره الوسنان المعتاد. أذنه حساسة للأنغام، وكان عادة أول من يعرف فى الميس آخر أغانى الأفلام الهندية. اعتاد دندنة هذه الألحان همسًا وهو يعمل. كانت عادة مزعجة للبعض ومسلية لآخرين. وقد جلبت بعض هذه الصفات أكثر مما يحتمل من "الغيظ" أحيانًا – إلا أن أصدقاءه عرفوا أن هناك حدودًا معينة لاستثارته: مع أنه كان عمومًا لا يتعجل فى اعتبار الأمر إهانة. كان هاردى عنيدًا حين يغضب ويتذكر الضغائن وقتًا طويلاً.

كان هاردى عائدًا من أجازة فى قريته. فى ليلته الأولى فى شاربجه أخبر أرجون بشائعات غريبة سمعها هناك. لمعظم جيرانه أقارب فى الجيش، تحدث بعضهم عن *اضطرابات*: قيل إن قوات قاومتْ أوامر بنقلها للخارج. فى بومباى، قيل إن وحدة من السيخ – سَرِيَّة من خيالة وسط الهند – تمرَّدَتْ. تركوا أسلحتهم ورفضوا الصعود على ظهر السفينة التى ستقلهم إلى شمال أفريقيا. أُعدِم شخصان. ونفى عدد آخر إلى سجون جُزُر أندامان[١٧]. كان بعض هؤلاء الرجال من قرية هاردى: ولا يمكن أن يكون هناك شك حول مصداقية هذه التقارير.

اندهش أرجون لسماع هذا، وقال: "عليك أن تخبر بَكِى. يجب أن يعرف."

قال هاردى: "لابدَّ أنه يعرف. وإذا لم يقلْ لنا، فلابدَّ أن لذلك أسبابًا..." نظر كل منهما إلى الآخر فى قلق وتجاهلا الموضوع؛ لم يذكرْ أى منهما تلك الحكايات لأى شخص آخر.

بعد بضعة أشهر عادت الجات ١/١ إلى قاعدة الكتيبة فى سَهارَنْبور، قرب دلهى. مع النزول إلى السهول تعرَّضتْ إيقاعات حياتهم لتغير درامى. كان الجيش يتمدد بسرعة رهيبة: تنشئ الأفواج كتائب جديدة ومراكز القيادة تبحث عن أشخاص ذوى خبرة. مثل أى كتيبة أخرى فى الفوج، نزفت الجات ١/١ عددًا من الضباط وضباط الصف. فجأة وجدوا أنفسهم يصارعون لملء الفجوات فى صفوفهم. بُعِثتْ سرايا مجندة حديثًا من مركز تدريب الكتيبة ووصلتْ دفعة جديدة من الضباط ليحلوا مكان من غادروها. وكان معظم الضباط الجدد مدنيين بريطانيين مغتربين مع لجان الطوارئ – كانوا حتى وقت قريب مزارعين ورجال أعمال ومهندسين، خبرتهم قليلة بالجيش الهندى وتقاليده وإجراءاته المعقدة.

كان أرجون وهاردى برتبة ملازم أول وكانا من بين عدد قليل من الضباط النظامين فى الجيش الذين تُرِكوا فى الوحدة. ازداد اعتماد المقدم بكلاند عليهما فى الأعمال اليومية فى الكتيبة.

فى البداية أثقل عليهما بمهمة تكوين فصيلة تنفيذية جديدة. ثم، أسرع مما توقع أى شخص، جاءتْ وسائل النقل الآلية للكتيبة لدعم قوتها. وصلتْ ثلاث دست من الشاحنات حمولة خمسة عشر قنطارًا ودستة لوريات أصغر. وتبين أن فى الكتيبة مدرِّبى بغال بوفرة وليس فيها سائقون. أُخِذ أرجون من الفصيلة التنفيذية وعُيِّن مسئولاً عن النقل الآلى. وقعتْ على عاتقه مهمة تعليم السائقين الجدد حيل المرور بالشاحنات الثقيلة عبر أزقة سهارنبور الضيقة والبازارات.

والكتيبة تتأقلم على مركباتها الجديدة، جاءتْ من نيودلهى شحنة معدات بالسفن: مدافع هاون عيار ثلاث بوصات، وبنادق رشاشة، وبنادق آلية خفيفة من طراز فيكرز بيرثير. ثم جاءت ثلاثة مدافع برن مع حواملها، ست بنادق آلية متوسطة وخمس بنادق مضادة للدبابات من طراز بوى(١٨)، واحدة لكل سرية. وكُلِّف هاردى بتدريب الرجال على الأسلحة.

وهاردى وأرجون يستقران بسعادة فى مهمتيهما الجديدتين، قلب القائد كل شىء رأسًا على عقب. أعفى أرجون وهاردى من مهمتيهما وكلفهما بإعداد خطة لتعبئة الوحدة.

فى ذلك الوقت أُرسِل معظم زملاء أرجون وهاردى فى الأكاديمية العسكرية إلى الخارج. يخدم البعض فى شمال أفريقيا، والبعض فى إريتريا (حيث فاز أحدهم بصليب فيكتوريا(١٩))، والبعض فى الشرق - الملايو وهون كونج وسنغافورة. وافترض أرجون وهاردى أنهما أيضًا سيذهبان عاجلاً إلى الخارج للالتحاق بالوحدات الأخرى من الجيش الهندى. حين طلب منهما القائد وضع مسودة خطة تعبئة، اعتبرا ذلك دليلاً على قرب الرحيل. لكن انقضى شهر بدون أخبار أخرى، وانقضى شهر آخر. فى ليلة رأس السنة، شاهدا بداية ١٩٤١ فى احتفال شاحب. على الرغم من النهى عن الثرثرة فى الميس، استمر الحوار بشأن ما إن كانوا سيرسلون شرقًا أم غربًا - إلى شمال أفريقيا أم إلى الملايو.

وانقسم الرأى دائمًا.

***

خرج رجكومار من المستشفى بأوامر صارمة بالبقاء فى السرير شهراً على الأقل. حين عاد إلى البيت، أصر على الانتقال لغرفة أعلى المنزل. أُحضِر سريرٌ ووضع بجوار

نافذة. أتى نيل براديو، بيلارد كالذى كان فى المستشفى، ووضعه على طاولة بجوار السرير. حين كان كل شىء كما أراد رجكومار، استلقى وخلف ظهره جدار من الوسائد، ضابطًا وضعه بحيث يستطيع النظر عبر المدينة، إلى شوى داجون.

بمرور الأيام تشكَّلتْ أمام عينيه معالمُ الخطة ببطء شديد. فى الحرب الأخيرة اشتعلتْ أسعار الخشب. ودعمته الأرباح التى جناها لعَقْدٍ. لا يستبعد حدوث شىء مماثل. يدعم البريطانيون والألمان دفاعاتهم فى كل بقاع الشرق - فى الملايو وسنغافورة وهون كونج وجاوا وسومطرا. من المنطقى أن يحتاجوا إلى مواد. إذا استطاع تخزين كمية كبيرة من الخشب فى شوادره، يمكن بيعها بسعر جيد فى العام القادم. المشكلة فى السيولة: عليه بيع كل أصوله أو رهنها ليحصل على نقد- عليه التصرف فى الشوادر والورش، وحقوق امتياز الخشب، وحتى منزل كمندين. قد يستطيع إقناع ماثيو بشراء نصيبه فى مرننجسايد: قد يكون هناك بعض الأموال.

كلما فكر فى الخطة بدتْ أكثر استساغة. المخاطر جسيمة، بالطبع، لكنها توجد دائمًا حين يُهدَّد شىء مهم بالضياع. لكن المكاسب، أيضًا، قد تكون كبيرة جدًا، تكفى تسديد الديون وتوفير بداية جديدة لنيل ودينو. وهناك مميزات لترتيب الأمور على هذا النحو: يكون قد تصرف فى كل أصوله وهو يتحرك حركته الأخيرة. وبعدها يكون حرًا فى أن يغادر- لا شىء يوقفه، ولا شىء يقلقه.

فى عصر أحد الأيام، ودلِّى تحضر له وجبته، شرح لها الخطوط العريضة لفكرته. واستنتج: "أعتقد أنها قد تكون مفيدة، دلِّى. أعتقد أنها الاختيار الأفضل لنا."

كان لدلِّى اعتراضات كثيرة.

"كيف يتم هذا كله، رجكومار؟ فى حالتك الصحية، لا يمكن أن تذهب إلى هنا وهناك، تسافر إلى الملايو وهذا كله."

قال: "فكَّرْتُ فى ذلك. يسافر نيل ودينو- لا أنا. أقول لهما ما يجب فعله. يتنقل أحدهما داخل البلاد و يذهب الآخر للتصرف فى حصتنا من مرننجسايد."

هزَّتْ دلِّى رأسها: "دينو لن يوافق. لم يحب أبدًا أن تكون له علاقة بالتجارة- تعرف ذلك."

"ليستْ هناك فى الحقيقة فرصة أمامه، دلِّى. إذا متُّ اليوم فسيجد نفسه يسدد ديونى شاء أم أبى. لا أطلب إلا بضعة أشهر من وقته. وبعدها يكون حرًا فى مواصلة اهتماماته."

خيم الصمت على دلِّى، ومدَّ رجكومار يده ليهز ذراعها: "قولى شيئًا، دلِّى – قولى رأيك."

قالت دلِّى بهدوء: "رجكومار، هذه خطتك – تعرف بما تُسمَّى هذه الأشياء؟"

"ماذا؟"

"تكديس – مكاسب حرب."

عبس رجكومار.

"ينطبق التكديس على سلع ضرورية، دلِّى، ولن أتعامل معها. لا شىء غير قانونى فى خطتى."

"لا أتكلم عن القانون..."

بدا نفاد الصبر فى نبرة رجكومار: "ليس أمامنا شىء آخر. علينا انتهاز الفرصة- ألا ترين ذلك؟"

وقفت دلِّى: "هل رأيى مهم حقًا، رجكومار؟ إذا كان هذا ما استقرَّ رأيك عليه، إذن فهو ما سوف تفعله. رأيى ليس مهمًا."

فى وقت متأخر من الليل، والبيت كله نائم، رنَّ التليفون فى المدخل فى الدور الأرضى. نزلتْ دلِّى من السرير وجرت لتلتقطه قبل أن يوقظ رجكومار. سمعت صوت عامل، يقرقع عبر الخط، يخبرها بمكالمة خارجية. بدا أن الجهاز مات لحظة، ثم سمعتْ صوت أليسون؛ كان مبهمًا جدًا، كأنها تصرخ فى غرفة مزدحمة.

"أليسون؟" سمعتْ صوتًا يشبه النحيب. رفعتْ صوتها: "أليسون، هل أنت؟"

"نعم."

"أليسون – هل الأمور بخير؟"

"لا... هناك أخبار سيئة."

"ساياجاى؟"

"لا." انتحبتْ مرة أخرى: "والداى."

"أليسون. آسفة. ماذا حدث؟"

"كانا فى أجازة. فى سيارة. فى مرتفعات الكاميرون. انحرفت السيارة على جسر..."

"أليسون. أليسون..." لم تستطعْ دلِّى التفكير فيما تقوله بعد ذلك: "أليسون، سآتى بنفسى إن استطعْتُ، لكن رجكومار ليس فى حالة جيدة. لا يمكن أن أتركه. لكنى سأرسل أحدًا– أحدًا من ولدىَّ، ربما دينو. قد يستغرق الأمر بضعة أسابيع، لكنه سيكون هناك. أعدك..." وانقطع الخط قبل أن تتمكن من قول شىء آخر.

هوامش

(١) نفيل تشمبرلين Neville Chamberlain (١٨٦٩ - ١٩٤٠) رئيس وزراء بريطانيا ١٩٣٧-١٩٤٠ . اتبع سياسة التهدئة مع النظم الفاشستية فى أوروبا، واضطر إلى إعلان الحرب على ألمانيا بعد غزوها لبولندا فى ١٩٣٩ .

(٢) أنج سان Aung San (١٩١٥ - ١٩٤٧) : ثائر بورمى، أسس الجيش البورمى الحديث، سعى لاستقلال بورما عن الحكم البريطانى، وقد اغتيل قبل تحقيق الاستقلال بستة أشهر. وهو والد أنج سان سو كى الحائزة على جائزة نوبل للسلام، والمحتجزة فى منزلها منذ حوالى ١٨ سنة (يأتى ذكرها فى نهاية الرواية).

(٣) إرنست لوبيتش Ernst Lubitsch (١٨٩٢ - ١٩٤٧) :مخرج ألمانى، من أعماله الكوميدية مشكلة فى الجنة Trouble in Paradise (١٩٣٢) ونينوتشكا Ninotchka (١٩٣٩) .

(٤) عندما يأتى الغد When Tomorrow Comes: فيلم رومانسى عرض فى أمريكا عام ١٩٣٩، من بطولة بوير Boyer ودن. الفيلم من إخراج John M. Stahl. إكسلسيور: Excelsior.

(٥) إيرين دن Irene Dunne (١٨٩٨ - ١٩٩٠) ممثلة ومطربة أمريكية شهيرة فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين.

(٦) سيلفر جريل: Silver Grill. فيتش: Fytche.

(٧) ثيها سو: Thiha Saw.

(٨) روبرت كابا Robert Capa (١٩١٣ - ١٩٥٤) : مصور غطى خمس حروب فى القرن العشرين.

(٩) بيلارد: Paillard.

(١٠) دُنْكِرك Dunkirk: مدينة فى شمال فرنسا على بحر الشمال. فى الحرب العالمية الثانية تم إخلاء أكثر من ٣٣٠٠٠٠ من قوات الحلفاء من شواطئها فى مواجهة نيران العدو (مايو ويونيو ١٩٤٠).

(١١) شنجكنج Chungking: مدينة تقع جنوب وسط الصين على نهر شانج يانج. كانت عاصمة الصين من ١٩٣٧-١٩٤٦.

(١٢) شاربجه: Charbagh. ممر خيبر Khyber Pass: ممر ضيق، يبلغ طوله حوالى ٣٢ ميلاً، بين الجبال على الحدود بين غرب أفغانستان وشمال باكستان. كان طريقًا تجاريًا مهمًا وطريقًا للغزو. ويبلغ ارتفاع أعلى نقطة فى الممر ١٠٦٨ مترًا.

(١٣) روبرت جريفز Robert Graves (١٨٩٥ – ١٩٨٥) : كاتب وناقد بريطانى تتضمن أعماله تصويراً شعرياً لجولته أثناء الخدمة فى الحرب العالمية الأولى، قصائد حب والعمل النقدى الإلهة البيضاء (١٩٤٨).

(١٤) ويلفرد أوين Wilfred Owen (١٨٩٣ – ١٩١٨) : شاعر بريطانى تعكس أعماله خبرته فى الحرب العالمية الأولى. قتل فى إحدى المعارك.

(١٥) هـ.ج. ويلز H.G. Wells (١٨٦٦ – ١٩٤٦) كاتب بريطانى، اشتهر بروايات الخيال العلمى، ومن أعماله آلة الزمن (١٨٩٥) وحرب الأكوان (١٨٩٨)، وله أيضاً كتابات شيقة فى التاريخ والعلم.

(١٦) جول فيرن Jules Verne (١٨٢٨ – ١٩٠٥) كاتب فرنسى يعتبر مؤسس قصص الخيال العلمى. من أعماله رحلة إلى مركز الأرض (١٨٦٤) وحول العالم فى ثمانين يوماً (١٨٧٣) وعشرون ألف فرسخ تحت البحر.

(١٧) جُزُر أندامان Andaman Islands: مجموعة من الجزر الهندية فى الجزء الشرقى من خليج البنغال جنوب بورما. يفصلها عن شبه جزيرة الملايو بحر أندامان، لسان من خليج البنغال.

(١٨) فيكرز بيرثير: Vickers-Berthier. مدافع برن: Bren guns. بوى: Boye.

(١٩) صليب فيكتوريا Victoria Cross : أعلى وسام عسكرى بريطانى للشجاعة.

(٢٦)

استعار أرجون، فى اليوم السابق على عيد ميلاده الثالث والعشرين، عربة جيب وانطلق مع هاردى إلى دلهى لقضاء نهاية الأسبوع. وهما يسيران فى الممرات المظللة لسيرك كونوت، جريا إلى أحد معارفهما، كومار[١]، وهو زميل لهما من الأكاديمية لطيف ومرِح.

كان كومار ينتسب لفوج البنجاب الرابع عشر، وكانت كتيبته تعسكر فى سنغافورة. كان فى الهند فى زيارة قصيرة، لحضور فرقة تدريب فى الإشارة. بدا كومار مشتتًا ومشغولاً، مختلفًا تمامًا عن روحه العالية المعتادة. خرجوا لتناول الغداء، وأخبرهما كومار بحدث غريب جدًا- شىء سبب قلقًا هائلاً فى مركز القيادة.

فى معسكر حديقة تيرسل[٢] فى سنغافورة أطلق جندى هندى النار بشكل غير مفهوم على ضابط وانتحر. وتبين من التحقيقات أنها ليست مجرد حادثة قتل وانتحار: سرتْ تيارات خفية من القلق فى الكتيبة. سُمِع بعض الضباط فى هذه الكتيبة يقولون إن على الهنود رفض المشاركة فى هذه الحرب؛ إنها تنافسٌ على السيادة بين مجتمعات تؤمن بأن استعباد الشعوب الأخرى قدرها المشترك - إنجلترا وفرنسا وألمانيا. ساد اهتمام كبير فى مركز القيادة: أكثر من نصف القوات فى الملايو من الهنود وقد يصبح الدفاع عن المستعمرة مستحيلاً إذا انتشر التوتر. على الرغم من الطبيعة التحريضية لهذه الشائعات، توصلت القيادة العليا إلى رد فعل عادل ومحسوب. كل ما جرى كإجراء تأديبى إعادة أحد صغار ضباط الكتيبة إلى الهند.

وتصادف أن الضابط الذى وقع عليه اللوم مسلم. وحين وصل خبر عقابه إلى كتيبته، ألقتْ سرية من الجنود المسلمين أسلحتها تعبيراً عن تعاطفها معه. وفى اليوم التالى ألقت كتيبة من الجنود الهندوس أسلحتها.

هنا اكتسب الحدث أهمية جديدة. على مدى أجيال، عمل الجيش الهندى البريطانى على مبدأ الحفاظ على توازن حذر بين القوات. تتكون كل كتيبة من سرايا من مختلف الطوائف والأديان - الهندوس والمسلمين والسيخ والجات والبرَهْمِيين[٣]. ولكل سرية ميسها، يدار بصرامة طبقًا للقواعد الغذائية للطائفة التى جندت منها القوات. وكإجراء احتياطى إضافى، تكونت فرق المشاة بحيث تتوازن القوات الهندية دائمًا بعدد معين من الوحدات الأسترالية أو البريطانية.

كان عمل القوات الهندوسية والمسلمة معًا لدعم ضابط هندى صدمة للقيادة العليا. ولا أحد فى حاجة إلى التذكير بأن شيئًا من هذا القبيل لم يحدث منذ التمرد الكبير فى عام ١٨٥٧. هنا تم تنفيذ نصف الإجراءات. أُرسِلتْ فصيلة من الجنود البريطانيين من الأرجيل وسكان مرتفعات سوثرلند[٤] لتطويق الهنود المتمردين.

طوال القصة لم يذكر لهما كومار اسم الكتيبة المقصودة أو اسم الضابط الذى عوقب. وحين ذكرهما أخيراً، تبين أن كومار، كحاكٍ رائع، احتفظ بسطر التشويق للنهاية. الكتيبة المقصودة وحدة شقيقة من الجات ١/١ - جزء من فوج مشاة حيدرأباد. والضابط الذى أعيد إلى وطنه عرفوه جميعًا فى الأكاديمية.

أنهى كومار القصة بملاحظة تلقائية، قال وهو يهزُّ كتفيه: "للانتقال عبر البحار تأثيرات مزعجة على القوات. وعلى الضباط أيضًا. ستريان."

قال هاردى متمنيًا: "ربما لا يحدث ذلك لنا. ليس من المؤكد أننا سنرسل للخارج. يحتاجون قوات هنا أيضًا، على الرغم من ذلك..."

كان أرجون سريع التحدى. قال: "ماذا يفعل هذا لنا؟ لك ولى؟ نجلس خارج الحرب وينتهى مسارنا تحت أقدامهم. أعتقد أن على أن آخذ فرصتى خارج الوطن."

ابتعدا فى صمت، لا يعرفان ماذا يفعلان بهذه المحادثة. فى قصة كومار شىء يستعصى على التصديق. عرفا الضابط الذى عوقب - كان رجلاً هادئًا ينتمى لأسرة من الطبقة المتوسطة، يحتاج إلى وظيفته لا أكثر. لماذا فعل ذلك؟ كان الفهم صعباً.

وإذا كانت القصة صحيحة - وهما غير متأكدين من ذلك بحال من الأحوال- فقد تضمنت الحادثة معانى أخرى أيضًا. تعنى، على سبيل المثال، أن الرتب الأخرى يأخذون التعليمات من الضباط الهنود وليس من القيادة العليا. لكن كان هذا مزعجًا - ليس أقل إزعاجًا لهم من القيادة العليا - لأنه لو فقد الرجال إيمانهم ببناء القيادة، فسيُعتبر الضباط الهنود أيضًا عديمى الأهمية فى النهاية. لا يمكن أن يأملوا فى منع هذا إلا باعتباره قضية مشتركة مع نظرائهم البريطانيين. ماذا يحدث إذا كان هناك شرخ حقًا؟ كيف يستجيب الرجال؟ لم يكن أحد يعرف.

بقدر ما كان الموضوع مزعجًا، شعر أرجون بانتعاش غريب: مسئولية غير شائعة عليه مواجهتها بهذه الأسئلة وهو فى الثالثة والعشرين.

فى تلك الليلة غيَّرا الملابس وارتدى كل منهما كُرْتَا وبيجامة شوريدار[٥] وذهبا إلى كوتا الراقصة قرب بوابة أجميرى[٦]. كانت الراقصة فى الأربعينيات، وجهها مصبوغ باللون الأبيض، وحاجباها رفيعان كالسلك. من النظرة الأولى بدت جامدة غير جذابة، وحين وقفت لترقص تلاشى جمود وجهها؛ كان جسمها لدنًا ورشيقًا مع خفة عجيبة فى قدميها. حين زادت سرعة إيقاع الطبلة[٧] لفَّتْ، مدوِّمة بسرعة مع الإيقاع. التف الأنْجَرْكها[٨] الشفاف الواصل إلى الركبتين حولها فى لفات محكمة. وبرزت هالتا ثدييها من قماش أبيض رقيق. جفَّ حلق أرجون. حين بلغ إيقاع الطبلة ذروته وضعت

إصبعها السبابة على جبهة أرجون. أشارتْ إليه أن يتبعها.

التفت أرجون إلى هاردى فى دهشة فابتسم صديقه ووكزه: "اذهب، يار، إنه عيد ميلادك، أليس كذلك؟ جا[٩]."

تبع أرجون الراقصة صاعداً سلَّماً ضيِّقًا. كانت غرفة صغيرة، سقفها منخفض. خلعتْ ملابسه ببطء، ملتقطة رباط بنطلون بيجامته الشوريدار القطن بأظافرها. وحين مدَّ يده إليها، أبعدتْه بضحكة.

"انتظر."

طلبتْ منه أن يضع وجهه على السرير ودلكت ظهره بحفنة من الزيت. تراقصت أنامل الراقصة على مفاصل فقراته مقلدة إيقاعات قدميها. وحين استلقت فى النهاية بجانبه، كانت لا تزال فى كامل ثيابها. مدَّ يده إلى ثدييها فأبعدتها: "لا، ليس ذلك." حلَّتْ رباط سروالها وأرشدته إلى جسمها، وشاهدته بابتسامة وهو يتمدد فوقها. حين انتهى انسلت بسرعة مبتعدة، وكأن شيئًا لم يحدث إطلاقًا: حتى رباط سروالها بدا أنه عاد فى مكانه فوراً.

وضعتْ إصبعها تحت ذقنه وأعادتْ رأسه إلى الخلف، مصمصمة شفتيها كأنها تتطلع لطفل جميل.

قالتْ: "صغير جداً. مجرد ولد."

قال بزهو: "أنا فى الثالثة والعشرين."

ضحكتْ: "تبدو فى السادسة عشرة."

***

حين نقلتْ أليسون فى البداية خبر موت والديها إلى سايا جون، كان رد فعله ابتسامة خفيفة. وتلتْ ذلك سلسلة من الأسئلة، سألها بلهو تقريبًا، كأن موضوع الحديث فى أفضل الأحوال احتمالاً بعيداً - خيالاً، فرضية قدَّمتْها أليسون لتشرح غياب والديها، الذى طال، عن مائدة العشاء.

خافت أليسون من تأثير الخبر على جدِّها وبالغتْ كثيراً فى الاستعداد، وضعت مكياجًا على وجهها الشاحب وربطتْ وشاحًا على شعرها الأشعث. حاولت الاستعداد لكل احتمال يرد إلى ذهنها. لكن منظر بسمة جدها، التى تشبه بسمة طفل، تجاوزت احتمالها. نهضتْ وجرتْ من الغرفة.

كان سايا جون فى أواخر الثمانينيات. وقد أفادته عادة ممارسة الرياضة فى الصباح الباكر طوال حياته، وكانت صحته جيدة نسبيًا. لم يتدهور سمعه كثيراً، ومع أن نظره لم يكن فى حالة جيدة إلا أنه لا يزال يرى طريقه حول المنزل والأراضى المحيطة به. قبل الحادثة تبدى تقدمه فى العمر فى ميل إلى التشوش أحيانًا. كثيراً ما ينسى ما قيل له منذ دقائق، بينما لا يزال قادراً على أن يتذكر، بأدق التفاصيل، أحداثًا جرتْ قبل أربعين عامًا أو خمسين. أسرعت الحادثة هذا الميل بشكل كبير: رأت أليسون أن خبر موت والديها سُجِّل فى عقل جدها، على عكس ما يتظاهر به. لكن استجابته لم تختلف عن رد فعل طفل على صخب غير مستساغ: سدَّ أذنيه بأصابعه بشكل مجازى، ليمنع ما لا يريد أن يسمعه. مع كل يوم يقلُّ كلامه. ينزل لتناول الطعام مع أليسون، لكنه يجلس على الطاولة الخشبية فى صمت تام. والجمل التى يوجهها لأليسون تبدأ، بشكل ثابت تقريبًا، بملاحظات من قبيل: "حين يعود ماثيو..." أو "علينا أن نتذكر لنخبر إلسا..."

استجابتْ أليسون فى البداية لهذه الملاحظات بضراوة غير مقنِّعة، تخبط الطاولة المصقولة بيديها بعنف وتكرر عدة مرات: "ماثيو لن يعود..." لم يكن هناك ما يبدو أكثر أهمية من أن يقرَّ حقًا بما حدث. تصورت أن هذا، إذا لم يكن لتقليل أساها، فهو على

الأقل للمشاركة فى عبثه. لكنه ابتسم خلال نوبات غضبها، وفى النهاية واصل حيث قاطعته: "... وحين يعودان..."

بدا من قلة الذوق، بل من البذاءة- تدنيس الأبوة- أن يستجيب بهذا الشكل التافه لخسارة بهذا الحجم. لكنها رأت إصرارها وخبطها بعنف على الطاولات بلا طائل: بعيداً عن الاصطدام به، لم يكن لديها وسيلة لتمزق بالقوة بطانية التشوش الواقية التى لفها حوله. اضطرَّتْ إلى التحكم فى غضبها، لكنه جاء على حساب الإقرار بفقد آخر - فقد جدها. كانت هى وبابا، كما تناديه، متلاصقين دائمًا. بدا وكأنها مضطرة لقبول أنه لم يعد له وجود فى حياتها، وأن راحة الصحبة التى يشاركان فيها انتهتْ للأبد؛ اختار فى أشد ساعات احتياجها، وكان دائمًا مصدر دعم لا يخذل، أن يصبح عبئًا. من بين كل الخيانات التى قد يكون اقترفها، بدت هذه الأكثر فظاعة- أن يكون طفلاً فى هذه اللحظة، لحظة الهجر المطلق. لم تتخيل ذلك أبداً.

لم تُحتمَلْ تلك الأسابيع إلا بسبب ظرف واحد سعيد. قبل سنوات تبنى سايا جون، فى نزوة، أحد أبناء العاملين فى المزرعة - "ذلك الولد الذى كان يلفُّ دائمًا حول المنزل" - إلونجو. استمرَّ الولد فى العيش مع أمه، لكن سايا جون دفع مصاريف تعليمه فى بلدة سُنْجِى بتانى القريبة، ثم أرسله إلى معهد فنى فى بِنَنْج وتأهل إلونجو ككهربائى.

كان إلونجو فى العشرين، شاباً أسمر مجعد الشعر، يتحرك ببطء ويتكلم بصوت منخفض لكنه بارز الطول والبنية. حين أنهى دراسة الكهرباء، عاد إلى منطقة قريبة من مرننجسايد - وكانت أمه تعيش فى منزل صغير بسقف من الصفيح فى ضواحى العزبة.

فى أعقاب الحادثة، كثيراً ما أتى إلونجو لرؤية سايا جون فى منزل مرننجسايد. بدأ تدريجيًا، وبدون عرض مقحم وغير ملائم للاهتمام به، يقوم بالكثير من الوظائف

اليومية التى تخصُّ الرجل العجوز. وكان وجوده غير محسوس إلا أنه يعول عليه تماماً، وبسرعة تطلعت أليسون إليه للمساعدة فى إدارة مكاتب المزرعة. نشأ إلونجو فى مرننجسايد وكان يعرف كل عمال العزبة. ومنحوه بدورهم سلطة تختلف عما منحوه لأى شخص آخر فى المزرعة. عاش فترة طويلة فى العزبة، لكنه ذهب خارج الحدود أيضًا، وتعلم الملايوية والإنجليزية، ونال قسطًا من التعليم. لم يكن فى حاجة إلى رفع صوته أو التهديد ليحظى باحترام: وثقوا فيه كواحد منهم.

وجد سايا جون أيضًا طمأنينة فى صحبته. كل أحد يستعير إلونجو شاحنة من العزبة ويذهب إلى كنيسة المسيح الملك فى سنجى بتانا. وفى الطريق يتوقفان عند الممرات المظللة حيث المحلات المبنية بالقرميد الأحمر تصطف فى الشارع الرئيسى فى البلدة. كان سايا جون يدخل مطعمًا صغيراً ويطلب صاحبه، آه فات(١٠)، كان رجلاً ضخمًا بأنياب ذهبية براقة. كان لآه فات ارتباطات سياسية بجنوب الصين، وكان سايا جون مساهمًا كريمًا منذ الغزو اليابانى لمنشوريا(١١). كل أسبوع يعطى آه فات مبلغًا من المال فى ظرف ليبعثه.

كان إلونجو يردُّ على التليفون حين يكون فى منزل مرننجسايد. ذات يوم جاء على دراجة من المنزل إلى أليسون فى مكتب العزبة.

"هناك مكالمة..."

"ممن؟"

"مستر دينو رها."

"مَنْ؟" كانت أليسون تجلس على مكتبها. نظرت عابسة: "دينو؟ هل أنت متأكد؟"

"نعم. اتصل من بننج. وصل للتو من رنجون. وهو قادم إلى سنجى بتانى بالقطار."

"أوه؟" عادت أليسون تفكر فى الخطابات التى كتبتها دُلَّى فى الأسابيع التى تلت موت أبويها: تذكرت إشارة إلى زيارة وشيكة- لكن الخطاب ذكر أن نيل هو الذى سيأتى، وليس دينو.

سألتْ إلونجو مرة أخرى: "وهل أنت متأكد أنه دينو؟"

"نعم."

نظرتْ فى ساعتها: "ربما أذهب إلى المحطة لمقابلته."

"قال لا حاجة لذلك: سيجد تاكسى."

"أوه؟ حسنا، سأرى. مازال هناك وقت." تركها إلونجو تجلس فى مقعدها، ملتفتة باتجاه النافذة التى تطل على المزرعة، باتجاه الأزرق البعيد لبحر أندامان. مضى وقت طويل على آخر زائر استقبلتْه. امتلأ المنزل بعد موت والديها مباشرة. جاء أصدقاء وأقارب من بننج وملقا وسنغافورة - ووصلتْ أكوام من البرقيات. جاء تيمى من نيويورك، عبر المحيط الهادى على تشينا كليبر التابعة لبان آم. فى الارتباك الغامر فى ذلك الوقت، دعتْ أليسون أن تبقى مرننجسايد مليئة بالناس إلى الأبد: كان من غير المتصور أن تواجه، بمفردها، تلك الغرف والدهاليز- السلم حيث تذكرها كل قطعة من الخشب بأمها. لكن بعد انقضاء أسبوع أو اثنين خلا المنزل فجأة كما امتلأ. تركها تيمى ليعود إلى نيويورك. لديه أعماله الخاصة ولا يستطيع الابتعاد فترة طويلة. عند السفر كان طيبًا بدرجة جعلته يعطيها حق التصرف فى مرننجسايد - تبيعها أو تديرها كما تشاء. بمرور الوقت جعلها الإحساس بالهجر تفهم أنها لا يمكن أن تنظر إلى الماضى لتملأ فجوات حاضرها؛ لا يمكن أن تأمل أن تكون الآثار المتبقية من حياة والديها حاجزًا بينها وبين العزلة المؤلمة فى مرننجسايد- الرتابة الساحقة، الوحدة

الناتجة عن إحاطتها دائمًا بالأوجه نفسها، بالصفوف المنتظمة نفسها من الأشجار، المشهد الذى لا مفر منه للسحب المعلقة على الجبل نفسه.

كان هناك دينو فى طريقه إلى مرننجسايد - دينو القديم الغريب - جاء بشكل لا حل له، مرتبك وغير واثق من نفسه. نظرتْ فى ساعتها ومن النافذة. من بعيد، رأتْ قطارًا يشق طريقه عبر السهل. مدَّتْ يدها إلى حقيبتها ووجدتْ مفاتيح الرودستر الدايتونا. قد يريحها أن تبتعد، ولو لساعتين.

هوامش

(١) كونوت: Connaught. كومار: Kumar.

(٢) تيرسل: Tyersall.

(٣) البرَهْمِيون Brahmins: الطبقة الأولى من الطبقات الهندوسية الأربع، مسئولة عن تأدية الطقوس الدينية ودراسة الفيدا Vedas (أقدم الكتب المقدسة عند الهندوس) وتعليمها.

(٤) أرجيل Argyll: منطقة غرب اسكتلندا. سوثرلند Sutherland: منطقة فى اسكتلندا.

(٥) كُرْتَا kurta: قميص أو سترة واسعة يرتديها الهندوس، رجالاً ونساء. بيجامة شوريدار churidar: بنطلون ضيق يرتديه الرجال والنساء فى جنوب آسيا ووسط آسيا.

(٦) كوتا kotha: منزل من الطوب الأحمر أو الحجارة (هندوستانى). أجميرى: Ajmeri.

(٧) الطبلة tabla: هكذا فى الأصل.

(٨) أَنْجَرْكها angarkha: رداء (هندوستانى).

(٩) جا: jaa.

(١٠) آه فات: Ah Fatt.

(١١) منشوريا Manchuria: منطقة شمال شرق الصين. الموطن الأصلى للمنشوريين الذين احتلوا الصين فى القرن السابع عشر. كانت منطقة قتال ساخنة بين اليابانيين والروس فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وقد سيطر عليها الشيوعيون الصينيون فى ١٩٤٨ .

(٢٧)

كانت الحرب وراء تأخر دينو كثيراً فى الحضور إلى مرننجسايد. اضطر تهديدُ نشاط الغواصات فى خليج البنغال شركاتِ السفن البخارية للتوقف عن نشر جداول رحلاتها. كان الإعلان عن الرحلة يتم قبل موعد الإبحار بساعات فقط. وكان هذا يعنى، فعليًا، أن يقظة دائمة تستمر فى مكاتب الشركات. واعتبر دينو نفسه محظوظًا لأنه وجد مكانًا عمومًا ولم يفكِّرْ إطلاقًا فى إرسال برقية.

كانت المحطة فى سُنْجِى بتانى جميلة مثل دمية: فيها رصيف واحد مظلل بمظلة منخفضة مطلية باللون الأحمر. لمح دينو أليسون والقطار يدخل المحطة: تقف فى ظل مظلة الصفيح، تلبس نظارة شمس وفستانًا أسود طويلاً. بدتْ نحيفة ومنهكة وذابلة – فتيلة شمعة حرقها لهيب الأسى.

أصابه شكلُها بنوبة خاطفة من الفزع. كانت المشاعر من أى نوع تبعث فيه الخوف، ولم يكن من بينها ما يشبه الأسى: لعدة دقائق بعد توقف القطار، لم يستطعْ حرفيًا النهوض من مقعده. ولم يتجه إلى الباب إلا حين لوَّح ناظر المحطة برايته الخضراء.

حاول دينو، وهو ينزل من القطار، تذكُّرَ عبارات التعزية التى حفظها استعداداً لهذه اللحظة. ومع اقتراب أليسون عبر الرصيف بدتْ فكرة التعزية وقاحة مستحيلة. من الألطف، بالتأكيد، أن يتصرف كأن شيئًا لم يكن؟

قال بصوت أجش، خافضًا عينيه: "ما كان يجب أن تأتى. كنتُ سأجد تاكسى."

قالتْ: "أنا سعيدة بالحضور. جميل أن أستريح بعض الوقت من مرننجسايد."

"قف." رفع حقيبة الكاميرا الجلدية على كتفيه، وأعطى حقيبته لحمال.

ابتسمتْ: "هل أبوك فى حالة أفضل؟"

قال دينو بصلابة: "نعم. إنه بخير الآن... ومنجو ونيل يتوقعان طفلاً."

ابتسمتْ له وأومأت: "أخبار طيبة."

خرجا من المحطة إلى مجمع مظلل بشجرة هائلة تشبه القبة. توقف دينو يتطلع. من أغصان الشجرة المكسوة بالطحلب تتدلى مجموعة نباتات متسلقة وزهور برية.

سأل دينو: "لماذا، أليستْ هذه شجرة بادوك؟"

قالت أليسون: "نسميها هنا أشجار الأنجسنا. زرعها أبى فى السنة التى ولدْتُ فيها." توقفتْ: "فى السنة التى ولدنا فيها، كان يجب أن أقول."

"لماذا، نعم... بالطبع... ولدنا فى السنة نفسها." ابتسم دينو بتردد، واندهشا من الحقيقة التى تذكرتها واختارت التعليق عليها.

كانت الدَّايتونا مركونة فى مكان قريب، وكبوتها مرفوع. انسلت أليسون إلى مقعد القيادة، ودينو يضع أمتعته فى الخلف. انطلقا من المحطة ومرا بالسوق الرئيسية بممراتها الطويلة والمحلات المطلية بالقرميد. فى ضواحى البلدة مرا بحقل محاط بسياج من الأسلاك الشائكة. فى منتصف الحقل عدة صفوف منتظمة من أكواخ أتاب[1]، بسقوف من ألواح من الحديد المتموج.

سأل دينو: "ما هذه؟ لا أتذكر شيئًا من هذا..."

قالت أليسون: "قاعدتنا العسكرية الجديدة. لسنجى بتانى وجود عسكرى كبير الآن، بسبب الحرب. يوجد مهبط للطائرات يحرسه جنود هنود."

بدأ الطريق يرتفع وبدا جُنُنْج جراى أمامهما، تحجب قمته غيمة الحرارة المعتادة أثناء النهار. غطس دينو فى مقعده، وهو يتفحص الجبل بعدسة خيالية. فاجأه صوت أليسون.

"هل تعرف الجزء الصعب؟"

"لا - ماذا؟"

"لا شىء له شكل."

"ماذا تقصدين؟"

"شىء لا تراه حتى يذهب - أشكال الأشياء والطرق التى يصوغ بها الناس من حولك تلك الأشكال. لا أقصد الأشياء الكبيرة - الأشياء الصغيرة فقط. ماذا تفعل حين تستيقظ فى الصباح- تدور فى رأسك مئات من الأفكار وأنت تغسل أسنانك: 'يجب أن أخبر أمى عن مشتل الزهور الجديد'- أشياء من هذا النوع. فى آخر بضع سنوات بدأت أفعل الكثير من الأشياء الصغيرة التى اعتاد أبى وأمى أن يفعلاها فى مرننجسايد. ثم أتذكر، لا، لا يجب أن أفعل شيئًا من تلك الأشياء؛ لا مبرر لذلك. وبطريقة غريبة، ما تشعر به فى تلك اللحظات ليس حزنًا بالضبط بل نوع من خيبة الأمل. وذلك بشع أيضًا، أن تقول لنفسك- هل هذا أفضل ما أستطيع أن أفعله؟ لا: هذا ليس جيدًا بما يكفى. يجب أن أصرخ- يقول الجميع من الرائع أن تصرخ. لكن الشعور الذى فى الأعماق ليس له اسم سهل: فى حينها لا يكون ألمًا أو أسفًا بالضبط. يبدو أشبه بإحساس ينتابك وأنت تجلس بقوة شديدة فى مقعد: يندفع النفس من جسمك، وتتقيأ. من الصعب فهم ذلك- أى شىء منه. تريد أن يكون الألم بسيطًا ومباشرًا - لا تريد أن يهاجمك من مكمن بهذه الطرق الملتفة كل صباح، حين تستيقظ لتفعل شيئًا آخر - تغسل أسنانك أو تتناول فطورك..."

انحرفت السيارة فجأة إلى جانب الطريق. أمسك دينو بعجلة القيادة ليثبتها: "أليسون! ببطء – احذري."

سارتْ بالسيارة على حافة معشبة تحيط بالطريق وتوقفتْ تحت شجرة. رفعتْ يديها ولمست وجنتيها غير مصدقة. قالت: "انظر. أبْكِي."

"أليسون." أراد أن يمدَّ يده إليها، لكن لم يكن من عادته استخدام الإشارة. خفضت جبهتها إلى عجلة القيادة، منتحبة، وفجأة تبخر تردده.

"أليسون." أخذ كتفها على كتفه وشعر بدفء دموعها تبلل القطن الخفيف لقميصه. كان شعرها حريريًا على وجنته وتفوح منه آثار رائحة عنب: "أليسون، هل أنت بخير..."

اندهش بعمق مما فعل. بدا وكأن شخصًا ذكَّره بأن هذه الإيماءات لم تأتِ إليه بشكل طبيعي. اهتزت الذراع التي تمسك بها من كتفه وثقلت وتخشبت وغمغم بشكل بشع: "أليسون... أعرف أنه كان صعبًا..."

أوقفه ضجيج شاحنة حمولة خمسة عشر قنطارًا تلف في الطريق. ابتعدتْ أليسون بسرعة واعتدلتْ. التفت دينو حيث قعقعت الشاحنة. كان على ظهر الشاحنة مجموعة جنود هنود يجلسون القرفصاء، ويرتدون العمائم والشورتات الكاكي.

تلاشى صوت الشاحنة ومرت اللحظة. جففتْ أليسون وجهها وسلَّكتْ حنجرتها. قالتْ، وهي تدير مفتاح المحرك: "لنذهب إلى البيت. لابد أنك مرهَقٌ."

***

في منتصف فبراير وصلت في النهاية أوامر التحرك التي انتُظِرتْ طويلاً. كان هاردي من أوائل من عرفوا وجاء يعدو إلى غرفة أرجون.

"يار – هل سمعْتَ؟"

كان المساء في بدايته ولم يبال هاردي بأن يطرق. دفع الباب وفتحه ونظر في الغرفة: "أرجون، أين أنت؟"

كان أرجون في ركن اللبس المغطى بستارة، ركن يفصل حمامه عن ركن المعيشة. انتهى للتو من غسل قذارة مباراة كرة قدم، وكان حذاؤه وشورته المغطيان بالطين مكومين على الأرضية. كان الخميس – ليلة، بحكم التقاليد، يتم فيها ارتداء السترات في الميس، وهو اليوم الذي وصلت فيه أخبار موت الملكة فيكتوريا إلى الهند. كان كيشان سنجه مشغولاً في غرفة نوم أرجون، يجهز ملابسه للمساء – سترة العشاء، البنطلون الميري، ووشاح الخصر الحريري.

اجتاز هاردي الغرفة بسرعة: "أرجون؟ هل سمعْتَ؟ وصلتْنا الأوامر."

شدَّ أرجون الستارة، وقد ربط فوطة حول خصره.

"هل أنت متأكد؟"

"نعم. سمعْتُ من مساعد القائد صاحب."

نظر كل منهما للآخر دون أن يعرفا ما يقولان بعد ذلك. جلس هاردي على حافة السرير وطرقع أصابعه. بدأ أرجون يربط أزرار قميصه الميري المنشَّى، وهو يثني ركبتيه ليرى نفسه في المرآة. ألقى نظرة على هاردي من خلفه، محدِّقًا بكآبة في الأرضية. حاول أن يبدو مازحًا، قال: "على الأقل سنرى إذا كانت خطط التعبئة الملعونة التي تطلعنا إليها جيدة بحال من الأحوال أم لا..."

لم يرد هاردي، ونظر أرجون من فوق كتفه: "ألست سعيداً بانتهاء الانتظار؟ هاردي؟"

كان هاردى يقبض بيديه على ركبتيه. نظر إلى أعلى فجأة: "أفكر..."

"فيم؟"

"هل تتذكر قاعة شيتود(٢)؟ فى الأكاديمية العسكرية فى دهرا دن؟"

"بالطبع."

"كان فيها نقش يقول: **يأتى أمن وطنك وشرفه ورفاهيته فى المقدمة، دائمًا وفى كل وقت. ويأتى شرف الرجال الذين تقودهم ورفاهيتهم وراحتهم بعد ذلك...**"

"**... ويأتى هدوؤك الشخصى وراحتك وأمنك فى النهاية، دائمًا وفى كل وقت.**" ضحك أرجون حين انتهى اقتباس هاردى: "بالطبع أتذكر. كان منقوشًا على منصة – يواجهنا كلما دخلنا قاعة شيتود."

"ألم يحيرك أبدًا – ذلك النقش؟"

"لا. لماذا يحيرنى؟"

"حسنًا، ألم تفكر أبدًا: هذا الوطن الذى يأتى أمنه وشرفه ورفاهيته فى المقدمة، دائمًا وفى كل وقت – ما هو؟ أين هذا الوطن؟ الحقيقة، إننا أنا وأنت ليس لنا وطن – ومن ثم أين هذا المكان الذى يأتى أمنه وشرفه ورفاهيته فى المقدمة، دائمًا وفى كل وقت؟ ولماذا حين حلفنا اليمين لم يكن للوطن بل للملك الإمبراطور – أن نحمى الإمبراطورية؟"

التفتْ إليه أرجون: "هاردى، إلام تحاول أن تصل؟"

قال هاردى: "هذا فقط. يار، إذا كان وطنى يأتى فى المقدمة حقًا، فلماذا أُرسَل خارجه؟ لا يوجد تهديد لوطنى الآن– وإذا كان هناك، فمن واجبى أن أبقى هنا وأدافع عنه."

قال أرجون باستخفاف: "هاردى، البقاء هنا لن يفيد مستقبلك الوظيفى كثيراً..."

طرقع هاردى بلسانه باشمئزاز: "المستقبل الوظيفى، المستقبل الوظيفى. يار، ألا تفكر أبداً فى شىء آخر؟"

"هاردى." نظر إليه أرجون نظرة تحذير ليذكره بوجود كيشان سنجه.

هزَّ هاردى كتفيه ونظر فى ساعته. قال وهو يقف ليذهب: "حسنًا، أسكتُ، "الأفضل أن أغيِّر أنا أيضًا. نتحدث فيما بعد."

غادر هاردى الغرفة وحمل كيشان سنجه البنطلون إلى ركن اللبس. تركه مفتوحًا من الخصر وهو يركع على الأرضية. مدَّ أرجون يده إليه بحذر شديد، مراعيا ألا يكسر الحدة الهشة لثنيته التى تتكسر بسهولة. بدأ كيشان سنجه، وهو ينهض، يلف حول أرجون، ويضع أطراف قميصه فى بنطلونه.

احتكتْ يد كيشان سنجه بظهر أرجون فتجمد: كان على وشك الشخط فى المراسلة ليسرع، حين توقف. أزعجه أنه بعد عامين كضابط لم ينجح بعد فى تدريب نفسه على الهدوء مع الألفة المفروضة مع الحياة العسكرية. كان يعرف أن ذلك ضمن أشياء كثيرة تبعده عن الفوجيين الحقيقيين، الذين كانوا عسكريين بالميلاد والتنشئة، مثل هاردى. شاهد هاردى ذات يوم وهو يمارس عملية اللبس ذاتها لليلة ضيافة بمساعدة المراسلة: كان يتجاهل وجود الرجل بطريقة لم يفعلها أرجون أبداً مع كيشان سنجه.

فجأة تحدث كيشان سنجه، ففوجئ أرجون. قال: "صاحب، هل تعرف إلى أين تنتقل الكتيبة؟"

"لا. لا أحد يعرف. لن نعرف إلا ونحن على السفينة."

بدأ كيشان سنجه لف وشاح الخصر حول خصره. قال: "صاحب، قال ضباط الصف سنذهب إلى الشرق..."

"لماذا؟"

"فى البداية تدربنا على أرض صحراوية وقال الجميع سنذهب إلى شمال أفريقيا. لكن المعدات التى تسلمناها مؤخَّراً كانت بوضوح من أجل المطر..."

قال أرجون فى دهشة: "من قال لك هذا كله؟"

"الجميع، صاحب. حتى فى القرى يعرفون. جاءت أمى وزوجتى فى زيارة الأسبوع الماضى. سمعتا شائعة بأننا على وشك الرحيل."

"ماذا قالتا؟"

"قالت أمى: 'كيشان سنجه، متى تعود؟'"

"وماذا قلت لها؟"

كان كيشان سنجه يركع أمام أرجون ، يفحص لسان الأزرار ويَعْدِل بنطلونه، يمسك بالثنية لتستعيد حافتها. لم يرَ أرجون إلا قمة رأسه وشعره القصير المموج.

تطلع إليه كيشان سنجه فجأة: "صاحب، قلتُ لها إنك ستتأكد من أنى سأعود..."

شعر أرجون، وقد أخذتْه المفاجأة، بالدم يندفع إلى وجهه. تحرك بشكل غير قابل للتفسير شىءٌ فى هذه الصراحة المطلقة فى هذا التعبير عن الثقة. شعر أن الكلمات ضاعتْ منه.

قال المقدم بكلاند، ذات مرة فى محادثة فى شاربجه، تكمن مكافأة الخدمة فى الهند، بالنسبة للرجال الإنجليز من جيل والده، فى ارتباطاتهم مع "الرجال." قال إن هذه العلاقة تختلف بمعنى الكلمة عن العلاقة فى الجيش البريطانى النظامى، الولاء المتبادل بين الجندى الهندى والضابط البريطانى قوى تماماً وغير قابل للتفسير حتى أنه لا يمكن أن يُفهَم إلا كنوع من الحب.

تذكر أرجون كم كانت هذه الكلمة غريبة على شفتى القائد الكتوم وكيف أغرته بالسخرية. بدا أن "الرجال" فى هذه القصص لا يمثلون إلا أشكالاً مجردة، جماعية بلا ملامح سجينة فى طفولة دائمة– رجال متقلبو المزاج، لا يمكن التنبؤ بما يقدمون عليه، شجعان بشكل خيالى، أوفياء بصورة مفرطة، عرضة لزيادة فائقة فى المشاعر. إلا أنه عرف أنه صحيح حتى بالنسبة لنفسه أنه كانت هناك أوقات بدا فيها كأن خصائص هذه الجماعية التى بلا ملامح – "الرجال" – تتجسد حقيقة بجندى واحد: كيشان سنجه: كانت الرابطة التى نشأتْ بينهما نوعًا من الحب حقًا. يستحيل أن يعرف إلى أى مدى كان ذلك من فعل كيشان سنجه نفسه وإلى أى مدى كان نتاجًا للألفة الخاصة نتيجة للظروف؛ وربما نتيجة شىء آخر تمامًا، صار كيشان سنجه، بفرديته الحقيقية، أكثر من نفسه – قرية، بلداً، تاريخًا، مرآة يرى فيها أرجون انكساراته؟

رأى أرجون للحظة مخيفة نفسه فى مكان كيشان سنجه: مراسلة يركع أمام سترة عشاء ضابط، يلمع حذاءه، يمدُّ يده إلى بنطلونه ليضع فيه قميصه، ويتفحص لسان الأزرار، متطلعًا من بين قدميه المتباعدتين، يطلب الحماية. كزَّ على أسنانه.

هـوامش

(١) أتاب attap: بناء تقليدى فى قرى برونى وإندونيسيا وماليزيا وسنغافورة، نسبة إلى نوع من النخيل يستخدم فى بناء الجدران والسقوف، ويتراوح البناء من كوخ إلى منزل، وحتى القرن التاسع عشر كانت تقام بعض المعابد بهذا الشكل.

(٢) شيتود: Chetwode.

(٢٨)

استعار دينو، فى صباح اليوم التالى لوصوله، دراجة وذهب يتفرج على الشانديين المنهارين لجننج جراى. رسمتْ له أليسون خريطة سار على هداها: كان المسار صاعداً معظم الطريق من منزل مرننجسايد، وكان عليه أن يركب الدراجة وينزل من عليها عدة مرات، ويحركها أعلى المنحدرات الحادة. لف خطأ مرتين ووجد نفسه فى النهاية فى البقعة التى ركنتْ أليسون فيها سيارتها آخر مرة. كان الجدول يتمدد تحت وكان ما يحيط به كما يتذكر بالضبط: مخاضة ضحلة، وُضِعتْ فيها أحجار مستوية بمثابة قنطرة. تحت المنحدر بقليل، يتسع الجدول ويتحول إلى بركة، تحيط بها صخور هائلة. على الجانب البعيد، ممر ضيق يؤدى إلى الغابة.

آلمتْه ساقه اليمنى بشدة. علق حقائب الكاميرا على غصن ونزل إلى البركة. كانت على الضفة صخرة مُعدَّة بشكل جيد لتستخدم مقعداً. خلع دينو حذاءه، وثنى بنطلونه حتى ركبتيه وغمر ساقيه فى الماء البارد المندفع.

تردَّدَ فى القدوم إلى الملايو، لكنه جاء، وكان سعيداً لابتعاده عن رنجون، سعيداً لأنه ترك وراءه توترات منزل كمندين والقلق الدائم بشأن التجارة. وكان من المريح أيضاً الابتعاد عن الخناقات السياسية التى بدا أنها تستهلك كل أصدقائه. عرف أن والده يريد من أليسون أن تبيع مرننجسايد - قال إنه عبء كبير جداً أن تشرف عليها بمفردها؛ العزبة تخسر. ولكن، بقدر ما رأى، تدار مرننجسايد بسلاسة كافية وبدت أليسون مسيطرة عليها تماماً. لم يرَ أنها بحاجة لنصحه، لكنه سعد بوجوده على أية حال. أعطاه فرصةً للتفكير فى أمور تخصه: انشغل فى رنجون باستمرار،

بالسياســة والمجـلة. كـان فى الســابعة والعشـرين وهى السن، إن كـانت هناك سن، التى عليه أن يقرر فيها إن كان التصوير سيكون مجرد هواية أم مهنة.

أشعل سيجارة وأتى عليها قبل أن يلتقط حقائب الكاميرا ليعبر الجدول. نمت فى الممر أشجار أكثر مما يتذكر، وكان عليه فى بعض المواضع أن يدوس على الشجيرات. حين وصل إلى المنطقة منزوعة الأشجار، رُوِّع من الجمال الساكن للمكان: كانت ألوان الشـانديين المغطيين بالطحلب أكثر حيوية مما يتذكر، والدروب فى الخلفيـة أكثـر روعـة. لم يضيِّعْ وقتًا فى نصب القاعدة الثلاثية. استهلك فيلمين وكانت الشمس تغرب حين عاد إلى منزل مرننجسايد.

عاد فى الصباح التالى والصباح الذى يليه. صارت قيادة الدراجة روتينًا منتظمًا: يستيقظ مبكِّرًا ويأخذ معه روتى للغداء. حين وصل إلى الجدول، انغمس لحظة فى حلم من أحلام اليقظة، وهو يجلس على صخرته المفضلة، وساقاه مـغموستـان بعمق فى المياه. ثم شق طريقه إلى المنطقة منزوعة الأشجار ونصب آلته. فى وقت الغداء يأخذ فترة راحة طويلة ثم يغفو مستلقيًا فى ظل شاندى.

ذات صباح، بدل التوقف عند الشانديين، ابتعد قليلاً عن المعتاد. اندفع فى الغابة، لمح أمامه على مسافة قصيرة تلا كثيف الأشجار. شقَّ طريقًا بين الشجيرات ووجد نفسه فى مواجهة بناء آخر منهار، مشيد من المواد التى شيد منها الشانديان – لطريط – لكن بتصـميم مـختلف: كـان ثُمـانِى الأضـلاع تقـريبًـا ويبـدو مـثل هـرم مـدرج أو زجورة[1]. على الرغم من التصميم التذكارى، كان البناء متوسط الحجم، لا يرتفع عن رأسه كثيرًا. تسلَّقَ القوالب المغطاة يالطحالب بحذرٍ شديدٍ وفى القمة وجد حجرًا مربعًا ضـخـمًا به فـتحـة مـستطيلة مـحـفورة فى المركز. نظر إلى تحت، وجد بركة من مـياه الأمطار مـحصورة فى الداخل. كانت البركة بلمعانها المعدنى تشبه مرآة أثرية. التقط صورة – لقطة – وجلس يدخن سيجارة. لماذا كانت الفتحة؟ هل كانت ذات يوم قاعدة

لتمثال – منليث[٢] ضخم مبتسم؟ لا يهم: مجرد فتحة، تحتلها أسرة من الضفادع الخضراء الصغيرة. حين نظر إلى أسفل على صورته المترقرقة، نقَّت الضفادع فيه بتحدٍّ صارخ.

فى مساء ذلك اليوم، حين عاد إلى المنزل، قال لأليسون: "هل تعرفين أن هناك بناء آخر منهارًا – هرمًا – يبتعد قليلاً داخل الغابة؟"

أومأتْ: "هناك أبنية أخرى أيضًا. تجدها إذا توغلت بما فيه الكفاية."

أثبت اليوم التالى أنها على صواب. اندفع دينو أكثر قليلاً أعلى المنحدر، عثر صدفة، بشكل جانبى تمامًا، على منصة مربعة طولها عشرة أقدام مبنية من قوالب الطريط – يبدو أنها كانت قاعدة لضريح صغير. كان تصميم المعبد واضحًا على الأرضية، معروضًا مثل تخطيطِ مهندسٍ معمارى بصف من فتحات مربعة تحدد موقع صف من الأعمدة. بعد يوم أو نحو ذلك وجد بناء آخر منهارًا أكثر غرابة: بناء ينم شكله عن أن العمل فيه توقف فجأة، يشبه دعامة فى وهْمٍ فوتوغرافى. كان فى المعبد جذر لشجرة بانيان وحين كبر شقَّ الجدران، مبعدًا قوالب متجاورة من البناء. انقسم المدخل إلى اثنين، كأن قنبلة انفجرت عند العتبة. انهار عمود حجرى، وأُنجِز آخر، ملتفًا فى خضرة متشابكة، مرتفعًا عدة أقدام عن الأرض.

سمع دينو أحيانًا، وهو يدخل الأبنية المنهارة، حفيفًا أو هسيسًا طويلاً. وتحركتْ أعالى الأشجار المحيطة أحيانًا كأن رياحًا عصفتْ بها. وكان دينو يتطلع إلى أعلى ليرى فرقة من القرود تتفحصه بحذر من فوق الأغصان. وسمع ذات مرة سعلة حادة، قد تكون سعلة نمر.

بدأ دينو، وألفته مع الأبنية المنهارة تتعمق، يجد عينه تتجه مباشرة إلى الصورة الأساسية لمعبد كان قائمًا ذات يوم: تمتدُّ يده تلقائيًا إلى الكوى حيث كانت قرابين الزهور توضَع؛ تعرف على الحدود التى لا يستطيع اجتيازها بدون خلع الحذاء. حين

يعبر الجدول، بعد السير بالدراجة عبر العزبة، لم يعد الأمر كأنه يخطو على أطراف أصابعه إلى مكان غريب غير مألوف، حيث تستسلم الحياة والنظام للظلام والظلال. ويشعر، حين يعود إلى ترتيب المزرعة أحادى اللون بأنه يمر إلى مقاطعة من الخرائب، تلويث أعمق بكثير من أن يكون انحلالاً مؤقتاً.

ذات يوم فى وقت الأصيل، وهو يقف عند الحامل الثلاثى، نبهته هوجة بين طيور الغابة إلى صوت سيارة. شقَّ طريقه بسرعة إلى موقع ممتاز حيث تسمح فجوة بين الخضرة بمشاهدة الجدول. لمح سيارة أليسون، الدايتونا الحمراء تقترب على الناحية البعيدة. ترك حامله الثلاثى منتصباً حيث كان وأسرع عبر الممر.

لم يرَ دينو أليسون إلا قليلاً جداً منذ يوم وصوله. تترك المنزل قبل الفجر، لتذهب إلى التجمع، وحين تعود، يكون عادة فى الخارج على أطراف الجبل يلتقط الصور. كانا يلتقيان عموماً على العشاء، حيث يحدُّ الصمت المطبق لسايا جون من الحديث حتماً. بدا أنها لا تعرف كيف تدخل زائراً فى الروتين الثابت لحياتها فى المزرعة بشكل مناسب، وكان دينو، من جانبه، مثقلاً بمعرفة المهمة التى أؤتمن عليها. يعرف أن عليه أن يجد طريقة ليخبرها أن والده يريد التصرف فى حصته من مرننجسايد وبدا ذلك مستحيلاً وهى مشغولة إلى هذا الحد، إضافة إلى الأسى لموت والديها والقلق اليومى فى الحفاظ على نجاح المزرعة.

حين وصل دينو إلى نهاية الممر، كانت أليسون قد عبرت الجدول. لم يستطع، وقد وجد نفسه معها وجها لوجه، التفكير فى ما يجب قوله وبدأ يبحث فى جيوبه عن سيجارة.

قال أخيراً من بين أسنانه، وهو يشعل عود الثقاب: "عائدة إلى المنزل؟"

"فكَّرْتُ فى أن آتى وأرى كيف تجرى الأمور معك."

"أعددتُ الكاميرا للتو..." سار معها إلى المنطقة منزوعة الأشجار، حيث كان حامله الثلاثي موضوعًا أمام شاندى."

سألتْ فى تألق: "هل يمكن أن أراك وأنت تلتقط الصور؟"

تردَّدَ، رفع السيجارة إلى فمه، محدِّقًا فى الدخان. قالتْ أليسون وقد شعرتْ بالتراخى: "هل تفكر؟ هل أزعجك؟"

قال: "لا. الأمر ليس كذلك... لا تزعجيننى إطلاقًا... المسألة فقط حين ألتقط الصور أركز تمامًا... وإلا أتتْ سيئة... كأى عمل آخر، تعرفين... ليس من السهل أن تمارسيه وأحد يشاهدك."

"أفهم." بين الوقع الأجوف لصوتها اعتبرت الكلام صدًا: "حسنًا، أذهب، إذن."

قال بسرعة: "لا، ابقى من فضلك... لكن إذن، مادمْتِ هنا، يمكن أن ألتقط لك بعض الصور...؟"

كانت سريعة فى إظهار الصدِّ بدورها: "لا. لستُ فى حالة ذهنية مناسبة لأن أصبح جزءًا من عمل – عملك." نهضتْ واتَّجهتْ إلى الممر باتجاه الجدول.

كان دينو يعرف أنه تورط بشكل غير متعمد فى شجار.

"أليسون... لم أقصدْ..." جرى وراءها، لكنها مشتْ بسرعة ووضعته ساقه فى وضع غير مناسب. "أليسون... ابقى من فضلك." لحق بها عند حافة الجدول. "أليسون... كنت أكلمك فقط عن حالتى... حين ألتقط صورة... لم أقصد أن أصدك... ألن تبقى؟"

نظرت فى ساعتها: "ليس الآن، ليس اليوم."

"ستعودين إذن؟"

بدأت بالفعل تعبر المخاضـة. فى وسط المخـاضـة، بدون أن تلتفت حـولها، رفعت يدها لتلوح له.

***

قبل رحيل الكتيبة من سهارنبور، وصلت قوائم معدات حربية جديدة. وكان هذا يعنى أن على أرجون وهاردى أن يظلا طول الليل يراجعان مخطط تعبئة الوحدة المعد بعناية. وفى النهاية كـان كل شىء على مـا يرام: رضـى القـائد ويمكن للكتـيبـة المضى لاستقلال القطار طبقًا للخطة. غادر القطار إلى بومباى فى الموعد المحدد.

فى أجمير[٣] حدث تأخر بسيط. تحولت الجات ١/١ جانبًا حتى يمر قطار محمل بأسـرى إيطاليين. حـدّق الإيطاليـون والهنود فى بعـضـهم البـعض فى صـمت عبـر الرصيف، من النوافذ ذات القضبان فى عرباتهم الخاصة. كانت النظرة الأولى للعدو.

فى الصـبـاح التـالى، وصلوا إلى نهـاية خط فيكتـوريا فى بومبـاى. أُخبِروا بأن السفينة التى ستقل فرقتهم، هـ م ت نوارا إليا[٤]، تنتظر فى الميناء. استقلوا السيارات إلى حوض سفن ساسون[٥] ليجدوا أوامر الصعود إلى السفينة صدرت.

كان حوض السفن محتقنًا بصورة غير متوقعة. وتبين أن كتيبة بريطانية كانت تستقل سفينة أخرى فى الوقت نفسـه. بسرعة تشابك بشكل يبعث على اليأس متـا ع الكتيبتين ومعداتهما. بدأ ضباط الصف يرفعون أصواتهم، وينشرون الفزع بين عمال حوض السفن. تاه هاردى وسط الفوضى: كان ضـابط المتا ع فى كتيبة الجات ١/١ وعلى عاتقه تقع محاولة استعادة النظام.

عرف أرجون، بالنظر فى جدول هاردى، أنه خُصِّصت له كابينة: لم يركب سفينة من قبل أبدًا واستطا ع بالكاد السيطرة على إثارته. أسرع إلى المعبر ليلقى نظرة على كابينته، وكيشان سنجه وراءه مباشرة، يحمل أمتعته.

كانا أول من صعدا السفينة وكانت خالية إلا من طاقمها. بدا كل شيء جديداً ومروّعًا: الحواف العليا البيضاء والممرات الضيقة، الفتحات الغائرة وأطر الكوى المدورة.

وهما يسيران على السطح العلوى، نظر كيشان سنجه إلى جانبه: "صاحب - انظر!" أشار لافتًا انتباه أرجون إلى مشادة تحت، فى حوض السفن. رأى أرجون هاردى فى مباراة صياح مع رقيب بريطانى ضخم. كانا يقفان على أطراف أقدامهما وهاردى يهز رزمة من الورق تحت أنف الرقيب.

"ابقَ هنا."

ذهب أرجون يعدو إلى أسفل من حيث أتى. وصل إلى المشهد فى لحظة متأخرة جداً. ذهب ضابط آخر من كتيبتهم قبله - كابتن بيرسون، مساعد القائد، وكان رجلاً إنجليزيًا ممتلئًا وقصيراً صوته مدوٍّ، سريع الغضب.

رأى أرجون، وهو يشاهد من على بضع خطوات، هاردى يلتفت إلى بيرسون. وبدا أن هاردى ارتاح لرؤية مساعد القائد، واثقًا تماماً من تأييد رئيسه - بدافع الوفاء لزميل فى الكتيبة، إن لم يكن بدافع آخر. لكن الكابتن بيرسون لم يُخْفِ أبدًا اعتقاده بأن هاردى "صعب" و"مفرط الحساسية." بدل أن يدعمه، قال فى استعراض مزعج: "أيها الضابط، عُدْ إلى الصف مرة أخرى...؟"

رأى أرجون النظرة على وجه هاردى تتغير من ارتياح إلى غضب مضطرم. كان مؤلمًا أن يقف كشاهد صامت على إهانة صديقه. استدار وانصرف بعيداً.

فى وقت تال من ذلك اليوم، جاء هاردى إلى كابينته.

قال: "علينا أن نلقن بيرسون ابن الزانية درسًا. هذا الرقيب الحقير وصفنى بالزنجى النتن أمام الرجال. وتركه بيرسون يفلت بفعلته. يار، هل تصدقنى، لامنى اللوطى! الطريقة الوحيدة لإيقاف هذا النوع من الممارسات هى بالالتحام معًا."

"ماذا تقصد بالضبط؟"

"أعتقد أن علينا مقاطعته."

قال أرجون: "إنه مساعد القائد، هاردى. كيف نقاطعه؟ كن عاقلاً."

قال هاردى بغضب: "هناك طرق نبعث برسالة من خلالها. لكن لا يمكن أن يحدث ذلك إلا حين تعرف فى أى جانب تقف." وقف فجأة وغادر كابينة أرجون.

انتظرتْ نوارة إليا يومين بعيداً عن الشاطئ وتسع سفن أخرى تحتشد فى الميناء. راجت شائعة عن غواصة ألمانية تكمن فى مكان قريب وقد خُصِّصتْ للسفن حامية من مدمرتين، سفينة تجارية مسلحة وزورق خفيف. حين رحلت القافلة فى النهاية، اتجهت غربًا، باتجاه الشمس الغاربة. كان مصيرهم لا يزال مجهولاً؛ لا يعرفون إن كانوا يتجهون شرقًا أم غربًا.

فى بومباى، استلم القائد ظرفًا مختومًا يجب أن يفتح بعد الرحيل بأربع وعشرين ساعة. فى الوقت المحدد، اجتمع أرجون والضباط الآخرون فى غرفة الطعام على السطح العلوى لنوارا إليا. فتح القائدُ الظرفَ بطريقته المتأنية المعتادة، ممزِّقًا الختم من على الورقة بسكين. انتظر الضباط فى صمت متوقع. شعر أرجون برطوبة باردة تتدفق فى راحتى يديه.

ثم، فى النهاية، تطلع القائد بابتسامة واهية. وضع الورقة أمامه وقرأ بصوت عال: "هذه السفينة متجهة إلى سنغافورة."

خرج أرجون إلى ظهر السفينة وكان هاردى هناك بالفعل، يميل على الحافة العليا، يهمهم بصوت مكتوم. وخلفهما شريط أبيض من المياه التى مخضتها السفينة بدأ يأخذ شكل منحنى والقافلة تغير اتجاهها ببطء.

هوامش

(١) زجورة ziggurate: هيكل بابلى أو آشورى هرمى الشكل مؤلف من عدة أدوار أو طوابق.

(٢) منليث monolith: حجر ضخم مفرد يكون عادة على شكل عمود أو مسلة.

(٣) أجمير Ajmer: مدينة فى شمال غرب الهندى، جنوب غرب دلهى، مركز تجارى وصناعى.

(٤) هـ م ت نوارة إليا: HMT Nuwara Eliya.

(٥) حوض سفن ساسون Sassoon Docks: أكبر حوض للسفن فى مومباى، يقع جنوب بومباى، وهو أكبر سوق للسمك فى المدينة.

(٢٩)

لم تسعد منجو أبداً كما سعدتْ فى أول شهور الحمل. استمتعتْ بكل ما يذكرها بتغير حالتها: الذبذبات والحركات المتخيلة غالبًا؛ آلام الجوع التى لا يمكن أن تكون سارَّةً حقًا؛ حتى الغثيان الذى يوقظها كل صباح والوخز الحاد فى أسنانها.

تغيَّر منزل كمندين تغيُّراً هائلاً فى السنتين التى قضتهما فى رنجون. ذهب دينو بالطبع وبقيتْ شقته فى الدور العلوى خالية. كان نيل ورجكومار بعيدين غالبًا، يرتبان للتصرف فى ممتلكات الأسرة أو يشتريان كميات جديدة من الساج. فى معظم الوقت تشغل منجو ودُلّى المنزل وحديهما. صار المجمع مهملاً؛ حيث كانت هناك خضرة ذات يوم نما العشب بارتفاع الركبة. أغلقتْ غرف كثيرة، إضافة إلى غرف الحراسة؛ وبيع معظم الأثاث. ذهب عشرات المستخدمين الذين شغلوا المكان ذات يوم - الخدم والمشرفين والجناينية وعائلاتهم. حتى يو با كيو، السائق، عاد إلى قريته. وكانت البكارد واحدة من بضعة ممتلكات منقولة أبقى عليها رجكومار، لكن نيل هو الذى يركبها أساساً.

لم تأسف منجو أو دُلّى لخلو المنزل. على العكس، بدا الأمر كأن ركامًا هائلاً من نسيج العنكبوت قد جُرِف، موفِّرًا لهما حريات جديدة غير معتادة. فى الماضى كثيراً ما بدتْ دُلّى بعيدة عن منجو، يستحيل الوصول إليها، لكنهما صارتا حليفتين، زميلتين، رفيقتين، تعملان معًا لتجديد العائلة. لم توجد مشكلة بين الاثنتين فى إدارة المنزل. حين تستيقظ منجو فى الصباح، تجد دُلّى على ركبتيها، ترتدى لُنْجِيا قديمًا رثًا، تمسح

الأرضيات بقطعة قماش ممزقة. كانتا تعملان معًا، تنجزان غرفتين كل يوم، وتتوقفان حين يأتى الرهبان فى الزيارة اليومية.

بالنسبة لمنجو كانت أوقات الراحة فى الضحى أحب أوجه الحياة اليومية فى رنجون. عرفتْ دائمًا أن الرهبان البوذيين يتعيشون من جمع الصدقات، لكن بدا مدهشًا أن تلاحظ أن الاعتقاد فى هذا مجرَّدٌ تقريبًا، ويُترجَم إلى آليات دنيوية فى الحياة اليومية – إلى واقع عادى لمجموعة، تبدو منهكة، من شباب وأولاد يسيرون فى الشوارع المغبرة فى أرواب زعفرانية وسلالهم متوازنة على خصورهم. كان فى حدوث هذه المقاطعة دائمًا وأعمال المنزل فى ذروتها شيء سحرى؛ وفى رأسها غرفة بالكاد، وتفكر فيما عليها أن تفعله بعد ذلك. فى وسط ذلك كله– تفتح الباب وترى الرهبان يقفون، ينتظرون بصبر، والشمس تضرب رءوسهم الحليقة: هل هناك طريقة أفضل للإخلال بتوازن الواقع اليومى؟

بدتْ كلكتا بعيدة جداً. كان تدفق الخطابات من الهند يعانى من عراقيل نتيجة تهديد الغواصات فى خليج البنغال. لم يعد طريق السفن البخارية بين كلكتا ورنجون منتظماً وكانت الخطابات تصل فى رُزَمٍ.

حملتْ إحدى هذه الرزم أخبار قرب رحيل أرجون وأخبار وصوله إلى الملايو. سعدتْ دُلِّى كثيراً بسماع هذه التطورات. قالتْ: "ربما يعرف أرجون ما جرى لدينو. مضى وقت طويل لم تصلْنا منه خطابات."

"نعم، بالطبع. سأكتب..."

أرسلتْ منجو خطاباً على العنوان الذى زودها به والدها – عن طريق مركز القيادة فى سنغافورة. وانقضت أسابيع كثيرة ولم تتلق رداً.

قالتْ منجو لدُلِّى: "لا تقلقى. أنا متأكدة من أن دينو بخير. لو أصابه مكروه لعرفنا."

"ربما تكونين محقة." لكن انقضى شهر ثم انقضى آخر وبدا أن دلَّى روَّضتْ نفسها على هذا الصمت المستمر من طرف ابنها.

كان الجنين يركل جدار بطن منجو ولا تنتبه إلا لحالتها. مع اقتراب الرياح الموسمية، ازدادت الحرارة وصار مجهود حمل الطفل أكبر بكثير. بأسرع مما توقعوا، جاءهم مهرجان واسو[1]. أخذت دلَّى منجو إلى الريف فى تاكسى استأجرتْه ليوم. توقفتا فى منطقة مشجرة على طريق بِجُو وجمعتا حملاً من زهور البادوك الصفراء العطرة. وهما فى طريق العودة إلى رنجون داخت منجو وأصيبت بإغماءة فى الكرسى الخلفى.

بعد هذه النوبة طلب الطبيب من منجو ملازمة الفراش. صارت دلَّى ممرضتها، تحضر لها الطعام، تساعدها فى اللبس، وتأخذها أحيانًا حول المجمع. مضت الأيام فى نوع من الخدَر؛ تستلقى منجو فى السرير حاملةً وبجوارها كتاب، مفتوح لا يُقرَأ. مضت ساعات لا تفعل شيئًا إلا الاستماع لصوت المطر المتدفق.

كانوا فى الثادين[2] - ثلاثة أشهر سنوية من التأمل والتقشف. كثيرًا ما قرأت دلَّى لمنجو، من الكتب المقدسة أساسًا - من الترجمات التى تجدها، لأن منجو لا تعرف البالية أو البورمية. ذات يوم اختارت دلَّى خطابًا لبوذا، موجهًا إلى ابنه، رهولا[3].

قرأت: **اجعل حالة ذهنك تشبه الأرض، رهولا، لأن على الأرض تُلقَى كل الأشياء، نظيفة وغير نظيفة، الروث والبول والبصاق والصديد والدم، والأرض لا تنزعج أو تتمرد أو تشمئز...**

شاهدت منجو حماتها وهى تقرأ: كان شعر دلَّى الأسود الطويل مرقَّطًا قليلاً بالرمادى ووجهها محفورًا بخطوط متشابكة. إلا إنه لا يزال هناك شباب فى تعبيرها الذى كذَّب هذه العلامات الدالة على تقدم العمر: كان من الصعب تصديق أنها امرأة فى منتصف الستينيات من العمر.

... اجعل حالة ذهنك تشبه الماء، لأن فى الماء تُلقَى أشياء كثيرة، نظيفة وغير نظيفة، والماء لا ينزعج أو يتمرد أو يشمئز. وهذا حال النار، التى تحرق كل الأشياء، نظيفة وغير نظيفة، والهواء، الذى يعصف بها جميعًا، والفضاء الذى لا يستقرُّ بحال من الأحوال...

بدا أن شفتى دُلِّى تتحركان بصعوبة، إلا أن كل كلمة نُطقتْ بدقة: لم تعرف منجو واحدة من قبل تستطيع إظهار السكينة وهى بالفعل فى أقصى حالات اليقظة المتعمدة، أقصى حالات التيقظ.

منعت دُلِّى نيل من بالسفر ومنجو فى الشهر الثامن من الحمل. كان فى البيت حيـن بدأت منجو الولادة. ساعدها لتركب البكارد وانطلق بها إلى المستشفى. كانوا لا يستطيعون دفع مصاريف الغرفة الخاصة التى أخذتها دُلِّى ورجكومار من قبل، فدخلت منـجو عنبـر ولادة عام. فى مساء اليوم التالى أنجبت بنتًا بصحة جيدة، حادة الصوت، بدأت ترضع بمجرد وضعها على ثدى منجو. حملت البنت اسمين- جايا الاسـم الهنـدى وتين ماى(٤) الاسم البورمى.

نامتْ منجو بعد أن استنفدتها الولادة. استيقظت فى الفجر. كانت الطفلة فى سريرها، مرة أخرى تبحث بشغف عن طعامها.

تذكرت منجو، وبنتها ترضع من ثديها، فقرة قرأتْها دُلِّى قبل بضعة أيام: كانت من العظة الأولى لبوذا، موجهة إلى سارناث(٥) قبل ألفين وخمسمائة سنة: ... **الولادة أسى، العمر أسى، المرض أسى، الموت أسى؛ الاقتراب من البغيض أسى، الانفصال عن السار أسى، كل أمنية لا تُشبَع أسى...**

كان للكلمات وقع عظيم عليها فى حينها، لكنها، وابنتها حديثة الولادة بجوارها، بدت غير مفهومة: لم يبد العالم أبدًا مشرقًا بهذه الصورة، مفعمًا بالوعد بهذه الصورة، مبذِّرًا فى مكافآته بهذه الصورة، كريمًا بهذه الصورة فى متعه وإنجازاته.

***

فى أول بضعة أسابيع فى سنغافورة عسكرت الجات ١/١ فى معسكر منتزه تيرسُل. المكان الذى تحدث عنه كومار، صديق أرجون - حيث أطلق جندى النار على ضابط وانتحر. فى نيودلهى بدت القصة مختلفة ومختلقة - وضعًا متطرفًا - مثل تقرير عن أم ترفع سيارة لتنقذ أطفالها. لكنهم كانوا فى سنغافورة بأنفسهم، والهند على بعد نصف قارة، ولم يعد هناك شيء غير محتمل - بدا أن كل شيء انقلب على رأسه. كأنهم ما عادوا يعرفون أنفسهم، ما عادوا يفهمون مكانهم بين الأشياء. حين غامروا بتجاوز الحقائق المألوفة للكتيبة، بدا أنهم يتوهون فى متاهة المعانى الخفية.

تصادف وجود كومار فى سنغافورة عند وصول الجات ١/١ . بعد ظهيرة أحد الأيام أخذ أرجون وهاردى إلى نادٍ خاص للسباحة. كان الحمام مزدحمًا جداً، ممتلئًا بالمغتربين الأوروبيين وعائلاتهم. كان اليوم حاراً ولزجًا وبدت المياه باردة ومغرية. بعد تقدم كومار، قفز أرجون وهاردى. بعد دقائق وجدوا أنفسهم وحدهم: فرغ الحمام بمجرد نزولهم إلى الماء.

كومار وحده لم يندهش. كانت كتيبته فى الملايو لأكثر من عام وقد سافر حول المستعمرة كلها.

قال كومار بابتسامة عابثة: "كان علىَّ أن أحذركم. الأمر بهذه الصورة فى كل أرجاء الملايو. فى البلدات الأصغر، تضع النوادى يافطات على أبوابها تقول، 'غير مسموح بدخول الآسيويين.' فى سنغافورة يتركوننا نستخدم الحمام - يغادر الجميع فقط. كان عليهم تخفيف حاجز اللون قليلاً لوجود عدد كبير من وحدات الجيش الهندى. لكن ربما بالمثل تعتادان عليه لأنكما ستصادفانه فى كل وقت - فى المطاعم والأندية والشواطئ والقطارات." ضحك. "يمكن أن نموت فى سبيل هذه المستعمرة - لكن لا يمكن أن نستخدم الحمامات." أشعل سيجارة وهو يهزُّ رأسه أسًى.

بسرعة أرسلت الكتيبة إلى الشمال. كان ريف الملايو مفاجأة للضباط الهنود. لم يروا أبداً مثل هذا الازدهار، مثل هذه الطرق الجميلة، مثل هذا النظام، البلدات الصغيرة الرائعة. حين يتوقفون، كثيراً ما يدعوهم السكان الهنود إلى منازلهم. كانوا عادة من الطبقة الوسطى ويشغلون وظائف متواضعة- محامين محليين وأطباء، كتبة وأصحاب محلات. لكن علامات الرخاء في بيوتهم أذهلتْ أرجون ورفاقه من العسكريين. بدا عامة الناس في الملايو قادرين على شراء السيارات والثلاجات؛ وكان عند البعض مكيفات هواء وتليفونات. في الهند لا يستطيع شراء هذه الأشياء إلا الأوروبيون وأغنى أغنياء الهند.

اكتشف الضباط، وهم يسيرون بالسيارات عبر الطرق الريفية أن عمال المزارع وحدهم يعيشون في فقر مدقع - وكلهم تقريبًا من أصول هندية. أذهلهم الفرق بين الخضرة المنسقة في المزارع وقذارة أحياء عمالها. أشار هاردي ذات مرة إلى قسوة التناقض، وردَّ أرجون بتوضيح أنهم في الهند يستسلمون لهذا الفقر؛ ولم يلاحظوه صدفة إلا لتجاوره مع بلدات الملايو المزدهرة. انكمشا خزيًا من الفكرة، كأنهما يتفحصان ظروفهما للمرة الأولى، بأثر رجعي؛ كأن صدمة السفر أزاحت لامبالاة غُرِستْ فيهما من الطفولة المبكرة.

انتظرتهم صدمات أخرى. بدون الزي كثيراً ما اعتُبِر أرجون وأصدقاؤه شيالين بطريق الخطأ. في الأسواق والبازارات عاملهم أصحاب المحلات باستهتار، كأنهم تافهون. وفي أوقات أخرى- وكان هذا أسوأ- نُظِر إليهم بما يشبه الشفقة. ذات مرة دخل أرجون في مناقشة مع صاحب محل فوصفه بكلمة كلانج(٦) - مما أربكه. اكتشف فيما بعد، وقد بحث عن معنى هذه الكلمة، أنها إشارة ازدراء إلى صوت السلاسل التي كانت تلتف حول العمال الهنود الأوائل الذين جلبوا إلى الملايو.

بدا بسرعة كأنه لا يوجد رجل في الكتيبة لم يتورط في مواجهة مزعجة من نوع أو آخر. ذات مساء كان كيشان سنجه يزيت مسدس أرجون، مقرفصًا على الأرض حين

نظر إلى أعلى فجأة وقال لأرجون: "صاحب، هل يمكن أن أسألك عن معنى كلمة إنجليزية؟"

"نعم. ماذا؟"

"مرتزقة – ماذا تعنى؟"

اندهش أرجون: "مرتزقة؟ أين سمعت هذه الكلمة؟"

شرح كيشان سنجه أنه فى إحدى جولاته الأخيرة، توقفت قافلة الشحنات فى كشك شاى على جانب الطريق قرب بلدة إبوه[7]. وكان هناك بعض الهنود المحليين يجلسون فى كشك الشاى. عرَّفوا أنفسهم بأنهم أعضاء فى جماعة سياسية – جمعية الاستقلال الهندية. بطريقة ما بدأتْ مناقشة. وقال لهم المدنيون إنهم – الجات ١/١ – ليسوا جنودًا حقيقيين؛ ليسوا إلا قتلة مستأجرين، مرتزقة. وكانت ستنشب مشاجرة لو لم تواصل القافلة طريقها مرة أخرى. لكن فيما بعد، حين عادوا على الطريق، تناقشوا مرة أخرى– كل واحد مع الآخر هذه المرة– عن كلمة مرتزقة وما تعنيه.

كان أرجون غريزيًا سيأمر كيشان سنجه بإغلاق فمه ومواصلة ما يفعل. لكنه يعرف أن المراسلة جيد بما يكفى لإدراك أن لا شىء يمنعه من البحث عن إجابة لسؤاله. فكر أرجون بسرعة، وتوصل إلى تفسير، وقال: المرتزقة مجرد جنود يُدفَع لهم مقابل عملهم. وبهذا المعنى كل الجنود، فى الجيوش الحديثة، مرتزقة. منذ مئات السنين حارب الجنود انطلاقًا من إيمان دينى، أو إخلاصًا لقبائلهم، أو دفاعًا عن ملوكهم. لكنها أيام موغلة فى القدم: العسكرية الآن وظيفة، مهنة، مستقبل وظيفى. كل عسكرى يُدفَع له وكلهم مرتزقة.

بدا ذلك مقنعًا لكيشان سنجه، ولم يطرح أسئلة أخرى. لكن أرجون انشغل بالإجابة التى قدمها للمراسلة. إذا كان صحيحًا (وهو صحيح بدون شكٍ) أن كل العسكريين المعاصرين مرتزقة، إذن لماذا كان للكلمة وخز الإهانة؟ لماذا يشعر بالحسرة

عند استخدامها؟ هل لأن العسكرية ليست وظيفة إطلاقًا، كما أقنع نفسه؟ لأن القتل بدون اقتناع يدنس دافعًا إنسانيًا عميقًا لا يتبدل.

ذات ليلة بقى هو وهاردى إلى وقت متأخر، يناقشان هذا الموضوع وهما يحتسيان زجاجة براندى. وافق هاردى على صعوبة تفسير العار الشديد الذى يشعر به حين يوصف بالمرتزقة. لكنه فى النهاية وضع إصبعه على السبب: "لأن يد المرتزقة تطيع رأس شخص آخر؛ لا اتصال بين الجزأين من الجسم." توقف ليبتسم لأرجون: "لأن، يار، بتعبير آخر، المرتزقة بُدهو(٨)، أحمق."

رفض أرجون الانسياق وراء مزاح هاردى. قال: "وهكذا هل ترى أننا مرتزقة؟"

هزَّ هاردى كتفيه، وقال: "كل العسكريين مرتزقة اليوم. ولماذا نتوقف عند العسكريين فقط؟ بطريقة أو أخرى نشبه جميعًا، إلى حد ما، تلك المرأة التى ذهبت معها فى دلهى- ترقص على نغمة شخص آخر، وتأخذ فلوسًا. ليس هناك فرق كبير." تجرع كأسه وهو يضحك.

وجد أرجون فرصة يحمل فيها شكوكه إلى المقدم بكلاند. حكى له ما جرى فى كشك الشاى وأوصى بتشديد الرقابة على اتصال الرتب الأخرى بالسكان الهنود المحليين. سمعه المقدم بكلاند بصبر، ولم يقاطعه إلا بإيماءة موافقة: "نعم، أنت محق، روى(٩)، لابد من عمل شىء."

لكن أرجون عاد من المناقشة أكثر حيرة مما كان. انتابه شعور بأن المقدم لم يفهم لماذا غضب بهذا الشكل من وصفه بأنه "مرتزقة"؛ كان فى صوته نبرة دهشة لأن شخصًا فى مثل ذكاء أرجون يعتبر شيئًا ليس إلا إقرارًا لحقيقة إهانة. بدا الأمر كأن المقدم عرف شيئًا عنه، أى أرجون، لم يعرفه أو لم يرغب فى معرفته. ارتبك أرجون وهو يفكر فى أنه سمح لنفسه بالانزلاق فى النهاية العميقة. كأنه طفل امتعض لأنه تكلم نثرًا طوال حياته.

كانت خبرات مميزة جداً، ومثيرة جداً للمشاعر البغيضة، حتى أن أرجون والضباط الآخرين لم يستطيعوا التحدث فيها. عرفوا دائمًا أن وطنهم فقير، إلا أنهم لم يتخيلوا أبدًا أنفسَهم جزءًا من ذلك الفقر: كانوا المميزين، النخبة. جاء اكتشاف أنهم أيضًا فقراء كإلهام. كأن ستارة وسخة من التكبر منعتهم من رؤية ما كان واضحًا أمام عيونهم – على الرغم من أنهم لم يجوعوا أبدًا، فإنهم أيضًا أفقرتهم ظروف بلادهم؛ كانت الانطباعات بأنهم في حالة جيدة ضلالات، تشكلت نتيجة المدى الذى لا يتخيَّل لفقر وطنهم.

والغريب أن تأثير هذه الخبرات كان أقوى على الفوجيين الحقيقيين– الجيل الثانى والثالث من عمال الجيش – مما كان على أرجون. قال أرجون لهاردى: "لكن أباك وجدك كانا هنا. ساعدا في استعمار هذه الأماكن. لابدَّ أنهما شاهدا بعض ما شاهدنا. ألم يتحدثا أبدًا عن هذا كله؟"

قال هاردى: "لم يريا الأشياء كما نراها. كانا أميين، يار. تذكر أننا أول جيل من العسكريين الهنود المتعلمين."

"لكن كانت لهما عيون، كانت لهما آذان، لابد أنهما تحدثا أحيانًا إلى السكان المحليين؟"

هز هاردى كتفيه: "الحقيقة، يار، لم يهتما؛ لم يباليا؛ كانت قريتهما المكان الحقيقى الوحيد بالنسبة لهما."

"كيف يمكن ذلك...؟"

كثيرًا ما فكر أرجون في ذلك في الأسابيع التالية: كأنه وأنداده وقع عليهم الاختيار لدفع ثمن الاستنباط التذكارى.

***

شعر دينو، مع كل يوم قضاه على أطراف الجبل، بتغير صوره. كأن عينيه تتكيفان على خطوط غير مألوفة للرؤية؛ كأن هذا الجسد يتهيأ لإيقاعات زمنية جديدة. كانت صوره الأولى للشاندين بزوايا ومحشوة بكثافة، والأطر مليئة بآفاق جارفة. رأى المكان مفعماً بالدراما البصرية – الغابة والجبل والمبانى المنهارة، الخطوط العمودية المندفعة لجذوع الأشجار المتجاورة، مقابل الخطوط الأفقية الجارفة للبحر البعيد – سعى لحشو كل هذه العناصر فى أطره. لكن كلما زاد الوقت الذى يقضيه على الجبل تقلصت أهمية الخلفية. أدت سعة المشهد الطبيعى إلى انكماش المنطقة منزوعة الأشجار، فى نطاق الغابة التى يقف فيها الشانديان، واتساعها: صارت صغيرة وحميمة، لكنها مشبعة بإحساس الزمن. بسرعة لم يعد يرى الجبال أو الغابة أو البحر. اقترب أكثر وأكثر من الشانديين، متتبعاً قالب اللطريط وشكل الطحلب الذى يغطى سطحه؛ محاولاً إيجاد طريقة لتأطير الأشكال الحسية الرائعة للفطر الذى نما بين الأحجار.

تغيرت إيقاعات عمله بطرق لم يستطع السيطرة عليها تماماً. قد تنقضى ساعات قبل أن يحدد مشهداً واحداً؛ كان يروح ويجىء عشرات المرات بين الكاميرا وموضوعه؛ بدأ يوقف عدسته أبعد وأبعد، ويختبر أوضاع الفتحات التى تتطلب المشاهدة لعدة دقائق فى كل مرة، قد تصل إلى نصف ساعة. كأنه يستخدم آلته ليقلد العيون الحادة للسحالى التى تتشمس على أرضيات الشانديين.

كانت تزحف فى الغابة المحيطة عدة اضطرابات غير قابلة للتفسير يومياً. تنطلق أسراب من الطيور صائحة من الأشجار المحيطة وترتد إلى السماوات، لتعود وتستقرّ فى البقاع التى انطلقتْ منها. بالنسبة لدينو بدا الاستماع لهذه الاضطرابات نبوءة بوصول أليسون، وبالاستماع إلى أسبابها – أحياناً ارتداد شاحنة إلى العزبة أو هبوط طائرة فى المهبط القريب – انسجمت حواسه بشكل خارق مع أصوات الغابة. كلما

اهتزَّت الأشجار بالحياة انفصل عن شغله وركَّزَ ليسمع صوت الدايتونا. وكثيراً ما جرى فى الممر إلى الفجوة التى يستطيع النظر منها إلى المخاضة. وكلما تراكمت خيبة الأمل نفد صبره باطراد: كانت بلاهة صريحة أن يتخيل أن أليسون ستأتى بالسيارة إلى هذا الطريق مرة أخرى، إذا وضع فى الاعتبار ما حدث فى المرة الأخيرة. وعلى أية حال، لماذا تقطع كل هذا الطريق إلى هنا وإذا كانت ستراه فى المنزل على العشاء؟

لكن ذات يوم ظهر وميضٌ أحمر على الناحية الأخرى من الجدول ورأى الدايتونا تتوقف تحت شجرة، شبه مختفية خلف شبكة من النباتات الخضراء. نظر دينو مرة أخرى، بشكٍّ، ولمح أليسون. كانت ترتدى عباءة زرقاء غامقة من القطن وحول خصرها حزام عريض. لكن بدل أن تأخذ طريقها إلى المخاضة، اتجهت إلى المجرى، إلى الصخرة التى يجلس عليها كل صباح، ودلَّتْ ساقيها فى البركة. عرف من طريقة جلوسها – رفعت قدميها وتمركزت لتغطسهما فى الماء – أنه مكانٌ أليفٌ، بقعة كثيراً ما أتت إليها وحدها.

وقدماها تنزلقان تحت الماء، التقطتْ أصابع يدها طرف الجيبة وسحبته. ارتفعت المياه إلى كاحليها، إلى ركبتيها، ومعها ارتفعت الجيبة أيضًا، متسلقة ببطء الخط الطويل لفخذها. اندهش حين اكتشف أنه لم يعد ينظر إليها مباشرة، لكن من الزجاج الأرضى لعدسة الكاميرا، بحيث تنفصل الصورة عما يحيط بها وتكتسب وضوحًا رهيبًا وحيوية. كانت الخطوط أنيقة ونقية وجميلة – كان منحنى فخذها عبر عدسة الكاميرا مائلاً، مثل علامة حذف رقيقة.

سمعتْ طقطقة وتطلَّعتْ إلى أعلى، مروَّعةً، وانحلت قبضة أصابعها فجأة من على الجيبة فسقط النسيج إلى الماء وانتفخ حولها، صانعًا دوامة فى التيار.

نادت: "دينو؟ هل أنت هناك؟"

عرف أنه ليس أمامه إلا هذه الفرصة، وعجز عن التوقف. ابتعد عن الفجوة وسار عبر الممر، تحرك بتدبر بطيء لسائر نائم، وهو يمسك بالكاميرا ثابتة أمامه.

"دينو؟"

لم يحاول أن يردَّ واستمر يتحرك، مركِّزًا على وضع قدم أمام الأخرى، حتى اجتاز المنطقة الخضراء. نظرت فى عينيه، من الناحية الأخرى للبركة، وابتلعتْ كلمات الترحيب التى كادت تنطق بها.

استمر دينو فى المشى. وضع الكاميرا على العشب ومشى على الضفة الرملية إلى البركة، باتجاه البقعة التى تجلس عندها مباشرة. ارتفعت المياه إلى ركبتيه وهو يخوض فيها، ثم إلى منطقة العانة، ووركيه، وصدره تقريبًا. سحب التيار ملابسه وامتلأ حذاؤه الخفيف المصنوع من القماش بالرمل والحصى. أبطأ حتى لا تزلَّ قدماه، ثم رأى قدميها تتدليان فى الماء، تهتزان فى التيار. ثبَّتَ عينيه على وميض التدفق، وحين وصلتْ يداه إلى ساقيها شعر بنفس عميق يخرج من رئتيه. كان متأكدًا من أن الماء جعل ذلك ممكنًا؛ أزاح الجدول حواجز الخوف والتردد التى قيدت يديه من قبل. حرك أصابعه إلى منحنى كاحلها، بطول الحافة الرقيقة لعظمة القصبة. ثم تحركتْ يداه تلقائيًا، ودفعتاه خلفهما، بين ركبتيها المتباعدتين، حتى صار فخذاها فجأة فى مستوى وجهه. بدا أن أكثر الأشياء طبيعية فى العالم أن يتبع يديه بفمه، أن يحرك شفتيه بطول خط الحذف فى فخذها، قاطعًا الطريق كله بطوله حتى يتفرع الخط. هناك توقف، دفن وجهه فى وجهها، ارتفعتْ ذراعاه إلى مستوى الكتف، وأمسك بها من خصرها.

"أليسون."

انزلقتْ من فوق الصخرة ووقفت بجانبه فى الماء الذى وصل إلى العنق. أخذتْ يده، أعادتْه عبر البركة، كما أتى، إلى الضفة الأخرى. سارا يدًا بيد، بكامل ملابسهما التى يقطر منها الماء، فى الممر الذى يؤدى إلى الشانديين المنهارين. أخذته عبر المنطقة منزوعة الأشجار، إلى أرض حجرية حيث يتمدد سرير سميك من الطحلب على اللطريط.

ثم مدَّتْ يدها إلى يده وشدَّتْه إلى أسفل.

هوامش

(١) واسو: Waso.

(٢) ثادين: Thadin.

(٣) رهولا: Rahula.

(٤) جايا: Jaya. تين ماى: Tin May.

(٥) سارناث: Samath.

(٦) كلانج: Klang.

(٧) إبوه: Ipoh.

(٨) بُدهو buddhu: كلمة (سنكرستية وبالية) تعنى المنتبه أو المستنير.

(٩) روى: Roy.

(٣٠)

لم يكن أرجون ولا أى شخص آخر فى الجات ١/١ يعرف المتوقع منهم عند الوصول إلى سنْجِى بتانى. قبل رحيلهم من إبوه اطلعوا - بسرعة - على المشاكل التى قد تواجههم هناك. عرفوا أن تمردًا تم تفاديه بصعوبة قبل بضعة أشهر، لكنهم كانوا غير مستعدين لسحابة القلق التى تخيم على القاعدة.

كانت القوات فى سنجى بتانى تابعة لفوج بَهاولبور[1] الأول. وقد حدثت احتكاكات كثيرة بين ضباط الكتيبة وقائدهم الإنجليزى. كان قائدهم لا يخفى رأيه الوضيع فى ضباطه الهنود: كان معروفًا أنه يسميهم "الشيالين" ويهددهم بعصاه الأنيقة. فى مناسبة سيئة ركل ضابطًا. وساءت الأمور فتدخل قائد الفرقة الحادية عشرة شخصيًا؛ أعفى القائد من منصبه وأعاد بعض الضباط إلى وطنهم فى الهند.

فهم أفراد الجات ١/١، من الخطبة الموجزة، أن هذه المعايير غيرت الوضع تمامًا؛ حلَّت مشاكل الماضى. لكن خلال يوم من وصولهم إلى سنجى بتانى تبين أن مشاكل البهاولبور بعيدة عن الانتهاء. طوال أول ساعتين لأول وجبة لهم فى ميس البهاولبور لم يتبادل ضباطه البريطانيون والهنود كلمة. وإذا كانت التوترات فى ميس البهاولبور ظاهرة بوضوح لهاردى وأرجون، فلم تكن بالتأكيد أقلَّ وضوحًا بالنسبة للمقدم بكلاند. فى اليومين التاليين كسب المقدم نقطة بالكلام إلى ضباطه على انفراد، وأخبرهم بعدم الترحيب بالتآخى مع البهاولبور. سعد أرجون بطريقة ما. كان يعرف أنه تصرف صحيح فى مثل هذه الظروف وامتنَّ أكثر من أى وقت لأن له قائدًا بالمقدرة والإحساس القويم اللذين يتمتع بهما المقدم بكلاند. لكن هذه المعرفة لم تذلل بعض الصعوبات التى ظهرت فى محاولة تجنب الضباط البهاولبور - كان بعضهم معارف من الأكاديمية.

كان لأرجون غرفة، مثل كل ضباط الجات ١/١ . تشابهتْ مساكنهم، رجالاً وضباطًا، كانت أكواخ أتاب– ثكنات خشبية بأسقف من سعف النخيل. وكانت محمولة على دعائم صُمِّمتْ لحفظها بعيدةً عن النمل الأبيض والرطوبة. إلا أن خبرة العيش فى هذه الثكنات أثبتت وجود الحشرات والرطوبة بوفرة. كثيرًا ما افترستْ أسرابُ النملِ الأسرَّةَ؛ بعد هبوط الليل يكثر الناموس وكان ترك السرير دقيقةً يعنى إعادة ربط الناموسية كلها؛ وكثيراً ما نقطت الأسقف، وفى الليل يغصُّ سعف النخيل بالفئران والثعابين.

ودَّ المقدم بكلاند أن تستغل الجات ١/١ وقتها فى سنجى بتانى فى تدريبات قتالية، لكن الظروف تآمرت لتبخر كل خططه. اعترض المزارعون حين غامروا بدخول مزارع المطاط المحيطة بهم. وألغيت محاولات إطلاع الرجال على تضاريس المنطقة. ثم بدأ الفيلق الطبى يشكو من ارتفاع نسب الإصابة بالملاريا، فأُلغِىَ التدريب الليلى. وضع القائد، وقد أحبطت مخططاته الأكثر براعة، الكتيبةَ على نظام رتيب لبناء تحصينات حول القاعدة ومهبط الطائرات.

كان المطار فى سنجى بتانى يتكون من مدرج أسمنتى واحد وبعض حظائر الطائرات فقط، إلا أنه كان من القواعد القليلة فى شمال غرب الملايو التى تتباهى بسرب عمليات جوية. كان يمكن أحيانًا إقناع الطيارين بتقديم رحلات ترفيهية على بلينهايمز وبريوستر بفلوز[٢] ذات الحمولات الثقيلة. ذهب أرجون فى كثير من هذه الرحلات، حلق فوق منحدرات جننج جراى، وشاهد مزارع المطاط، وعلى مستويات منخفضة شاهد المنازل الفخمة والفيلات. على قمة الجبل كان هناك نُزُلٌ صغير يُستخدَم كمكان عام للمصطافين. كثيراً ما اقترب الطيارون من النزل وكان الركاب يلوحون لمن يتناولون العشاء وهم يجلسون على الموائد فى الفراندة.

لم يعرف أرجون أول بضعة أسابيع فى سنجى بتانى أن دينو يعيش فى مكان قريب. كان يدرك بشكل مبهم أن لأسرة رها حصصًا فى عزبة مطاط فى الملايو، لكنه

لا يعرف مكان هذه المزرعة. ولم يعرف ذلك إلا حين استلم خطاباً من منجو، من رنجون.

لم تكن منجو على علم بمكان توأمها بالتحديد، لم تعرف إلا أنه فى مكان ما فى الملايو. كتبتْ تقول إنها بخير وحملها يتقدم بدون مشاكل. لكن نيل ووالديه قلقون على دينو: ذهب إلى الملايو قبل عدة أشهر ولم تُسمَع أخبار عنه منذ مدة. وسيسعدون لو بحث أرجون عنه. ربما كان يقيم فى عزبة مرننجسايد مع أليسون، التى فقدتْ والديها مؤخراً. أرسلتْ عنواناً بريدياً.

فى وقت تال من اليوم استعار أرجون سيارة ألفيس[٣] وانطلق بها إلى سنجى بتانى. ذهب إلى مطعم صينى أكل فيه مع هاردى مرتين. سأل عن آه فات، المالك، وأطلعه على العنوان.

أخذه المالك إلى الخارج فى الممر المظلل وأشار عبر الطريق إلى رودستر حمراء. أخبر أرجون بأنها سيارة أليسون، وكل من فى البلدة يعرفونها بالشكل. ذهبت إلى مصفف الشعر وستخرج خلال بضع دقائق.

"إنها هناك."

كانت ترتدى شيأنْجسام[٤] حريرياً أسود به شق طولى من مشط قدمها إلى ركبتها. وقد أطَّر شعرُها وجهَها مثل خوذة مصقولة، وتقابل بريقه الأسود العميق بجلاء مع تألق بشرتها برقة.

انقضتْ عدة أسابيع على آخر مرة تحدث فيها أرجون مع امرأة، ووقت طويل على رؤية مثل هذا الوجه الفاتن. خلع الكاب وبدأ ينقله فى يديه. وهو على وشك عبور الطريق ليقدم نفسه اندفعت السيارة الحمراء بعيداً عن المحل واختفتْ فى الطريق.

***

صار الاضطراب الدورى على أطراف الجبل نبوءة بوصول أليسون. وكان ارتقاع الطيور من السماء علامة مؤكدة على ذهاب دينو جريًا إلى الفجوة لينظر إلى أسفل- وكانت أليسون، غالبًا، ترتدى رداء من الأردية السوداء الكئيبة التى تذهب بها إلى المكتب. وحين تعرف أنه هناك تتطلع إلى أعلى وتلوِّح، وحتى وهى تعبر الجدول تبدأ فك أزرار البلوزة وحل الحزام. وتكون ملابسها قد خلعت حين تصل إلى المنطقة منزوعة الأشجار، وكان ينتظر ومصراع الكاميرا مُعَدٌّ.

بدا أن الساعات التى قضاها وعينه منسجمة مع أطراف الجبل كانت استعدادًا لاشعوريًا لها - لأليسون. قضى أوقات طويلة يفكر فى مكانها، بجوار أى حائط أو أى جزء من قاعدة التمثال؛ تخيلها تجلس منتصبة، منحنية على حافة نافذة، وإحدى ساقيها ممددة مستقيمة أمامها والأخرى مثنية إلى الخلف عند الركبة. فى الفجوة بين ساقيها لمح حزًا على سطح منقط من اللطريط أو كومًا ناعمًا من الطحالب، صدى بصريًا لشقوق جسمها وانحناءاته. لكن مادية وجودها كانت تبعثر هذه المخططات المتخيلة بعناية. بمجرد أن يُوضَع جسمُها حيث أراد، يتبين وجود شىء غير صحيح؛ يقطب فى لوحة زجاج الأرضية المريعة ويعود ليركع بجوارها، مغطسًا أنامله برقة فى فخذيها المشدودتين بقوة، محْدِثًا تغيرات طفيفة فى زوايا ساقيها. مبعدًا ما بين ساقيها - أو مقرِّبًا بينهما - يمرِّرُ إصبعًا فى الانتفاخ المثلث لعظمة العانة، يمشط الخُصل أحيانًا إلى أسفل، وأحيانًا يسويها إلى الخلف. بدا أن هذه التفاصيل، مؤطرة فى صفاء غير طبيعى فى عدسته، تكتسب أهمية تذكارية: ركع بين ساقيها، بل سبابته ليرسم أثرًا واهيًا للرطوبة، حدًا لامعًا للشعر.

سخرت من الجدية المتعمدة التى ينفذ بها هذه الملاطفات الحميمة ليسرع فورًا إلى الكاميرا. وحين ينتهى الفيلم، توقفه قبل أن يحمِّل آخر: "لا. كفى. تعال هنا الآن."

كانت تشدُّ ملابسه بنفاد صبر - القميص الموضوع بعناية فى حزام البنطلون، والفانلة التى تحته: "لماذا لا تخلعها حين تأتى إلى هنا - كما أفعل؟"

كان يتحول إلى فظٍّ: "لا أستطيع، أليسون... ليست طريقتى..."

كانت تشده إلى القاعدة الحجرية وتنزع قميصه. تدفعه للخلف فيستلقى فوق الحجر. يغلق عينيه ويعقد أصابعه خلف رأسه وهى تركع بين ساقيه. حين يَفرُغُ رأسُه، يراها تبتسم مثل لبؤة تتطلع من فوق ذبيحة، بفم متألق. كانت الخطوط دقيقة كما يمكن أن يتخيل، تتوازن تمامًا المستويات الأفقية لجبهتها وحاجبيها وفمها مع المستويات الرأسية لشعرها الأسود المستقيم والشعيرات الشفافة التى تتدلى معلَّقةً من شفتيها.

كانت ترى ما يفكر فيه منعكسًا فى عينيه، فتضحك بصوت عالٍ وتقول: "لا. هذه صورة لن تراها أبدًا إلا فى رأسك."

وبعد ذلك، بسرعة لكن بشكل منظَّم، يرتدى ملابسه من جديد، ويضع قميصه فى بنطلونه بعناية، ويربط حزامه، ويركع ليربط حذاءه القماش.

قالت تتحداه: "لماذا يا أخ؟ ستخلعها مرة ثانية."

ردَّ بجدية، دون أن يبتسم: "علىَّ، أليسون... علىَّ أن أرتدى ملابسى وأنا أعمل."

انتابها الملل أحيانًا من طول الجلوس. وكثيرًا ما حدثتْ نفسها وهو يضبط الكاميرا، لافظة كلمات بالملايوية والتاميلية والصينية، متذكرة أمها وأباها، مفكرة بصوت عال فى تيمى.

صاحتْ ذات يوم فى غضب: "دينو، أشعر أنك تهتم بى وأنت تنظر فى الكاميرا أكثر مما تهتم بى وأنت مستلقٍ هنا معى."

"ما الخطأ فى ذلك؟"

"لستُ مجرد شيء تركز عليه الكاميرا. يبدو أحيانًا أنك لا تهتم بي إلا لهذا."

رآها غاضبة فترك حامله الثلاثي ليجلس معها. قال: "أراك بهذه الطريقة أكثر مما يمكن أن أراك بأية طريقة أخرى. إذا تحدثت إليك لساعات ما كنتُ لأعرفك بشكل أفضل. لا أقول هذا أفضل من الكلام... إنها طريقتي فقط - طريقتي في الفهم... لا تظني ذلك سهلاً بالنسبة لي... لم أصور بورتريهات أبدًا؛ ترعبني... الألفة... أن يكون المرء في صحبة شخص طول هذا الوقت- لم أرغب أبدًا في تصويرها... وحتى الصور العارية أقل. هذه بدايتي وهي ليست سهلة."

"هل يجب أن أزهو؟"

"لا أعرف... لكني أشعر أن صوري ساعدتني على أن أعرفك... أعتقد أني أعرفك أفضل مما عرفت أي شخص في حياتي."

ضحكتْ: "فقط لأنك التقطْتَ بعض الصور؟"

"ليس لمجرد ذلك."

"إذن؟"

"لأنها أكثر الطرق ألفةً لأعرف أي شخص... أو أي شيء."

"هل تقول إنك ما كنتُ لتعرفني لولا بالكاميرا؟"

نظر إلى أسفل مقطِّبًا: "يمكن أن أقول لك: إذا لم أقضِ هذا الوقت معك، هنا، ألتقط الصور... ما كنتُ لأستطيع أن أقول بمثل هذا اليقين..."

"ماذا؟"

"إني أحبك."

نهضتْ، مروَّعة، لكن دينو واصل قبل أن تتمكن من الكلام: "... وأعرف أيضاً..."

"ماذا؟"

"أريد أن تتزوجيني."

"أتزوجك!" أراحت ذقنها على ركبتيها: "لماذا تعتقد أني أريد الزواج من شخص لا يستطيع التحدث معي إلا من خلال كاميرا؟"

"ألا تريدين، إذن؟"

"لا أعرف، دينو." هزَّتْ رأسها بنفاد صبر: "لماذا الزواج؟ ألا يكفي هذا؟"

"الزواج ما أريد– وليس هذا فقط."

"لماذا تتلف كل شيء، دينو؟"

"لأني أريده..."

"أنت لا تعرفني، دينو." ابتسمتْ له، وربتتْ بيدها على مؤخـرة رأسه: "أنا لا أشبهك. أنا عنيدة، أنا مزعجة: اعتاد تيمي أن يصفني بالمشاكسة. ستكرهني في أسبوع إذا تزوجتني."

"أعتقد أن الحكم على ذلك يرجع لي."

"ولأجل من نتزوج؟ تيمي ليس هنا ووالداك أيضاً. وتعرف سوء حالة جدي."

"لكن ماذا إذا...؟" مال ليضع يده على بطنها. "ماذا إذا كان هناك طفل؟"

هزَّتْ كتفيها: "سنرى إذن. لكن الآن– لنقنع بما نحن فيه."

***

بدون كلمة واحدة فى الموضوع، فهم دينو، بسرعة، بعد أول لقاء مع إلونجو، أن بينهما ارتباطًا – رابطة يعرفها إلونجو، ولا يدركها. نشأ هذا الفهم تدريجيًا، من المحادثات التى دارت بينهما، وعززته أسئلة وتعليقات جانبية مبهمة – من فضول إلونجو بشأن منزل رها فى رنجون، من اهتمامه بصور العائلة، من الطريقة التى تتحور بها ببطء إشاراته إلى "أبيك" حتى يختفى الضمير.

فهم دينو أن إلونجو مستعد، فى الوقت الذى يراه مناسبًا، لإطلاعه على ما بينهما مهما يكن. أثار هذا الوعى، بشكل غريب، فضولاً أقل لدى دينو – ولم يكن ذلك لمجرد أنه مشغول تمامًا بأليسون. كان أيضًا بسبب إلونجو نفسه – كان جديرًا بالثقة تمامًا بحيث لا يسبب التنازل عن التفوق المعرفى قلقًا لدينو.

رأى دينو فى إلونجو أكثر مما فى أى شخص آخر فى مرننجسايد، باستثناء أليسون: اعتمد عليه فى كثير من الأشياء الصغيرة – إرسال الخطابات بالبريد، صرف شيكات، استعارة دراجات. حين قرر تجهيز غرفته المظلمة ساعده إلونجو فى العثور على أدوات مستخدمة فى بننج.

فى يوم أحد، اصطحب دينو إلونجو فى جولته الأسبوعية إلى سنجى بتانى مع سايا جون. زاروا مطعم آه فات، حيث سلمه سايا جون ظرفًا، كما كان الحال دائمًا. قال لدينو: "أفعلُ ذلك من أجل زوجتى. كانت هكًا(٥)، تعرف، من الطرفين. كانت تقول دائمًا إنى هكًا أيضًا، إلا أنه لا أحد يمكن أن يتأكد من ذلك، لأنى لم أعرف والدىَّ أبدًا."

بعد ذلك أخذ دينو وإلونجو سايا جون إلى كنيسة المسيح الملك فى أطراف البلدة. بدت الكنيسة متألقة ومبهجة، وكان بها برج أبيض شاهق وواجهة مزينة بحواجز خشبية مصقولة. تحت ظلال شجرة مزهرة، اجتمع حشد فى ملابس ملونة. قاد قس

أيرلندى فى روب أبيض سايا جون بعيداً، وربَّتَ على ظهره: "مستر مارتينز! كيف حالك اليوم؟"

ذهب دينو وإلونجو إلى حفلة الصباح فى السينما وشاهدا إدوارد ج. روبنسون فى أنا القانون(٦). فى طريق العودة، بعد أن اصطحبا سايا جون، توقفوا فى منزل أم إلونجو لتناول سلطانية مكرونة.

ضعف بصر أم إلونجو وانحنتْ قبل الأوان. حين قدم إلونجو دينو، لم يعرف إن كانت قد عرفته. طلبتْ منه الاقتراب ولمست وجهه بأصابعها المشققة الغليظة. قالت بالهندوستانية: "ابنى إلونجو أكثر شبهًا بأبيك منك."

فهم دينو ما قالت بالضبط، فى منطقة ما من شعوره، لكنه استجاب لكلماتها كما يستجيب لدعابة: "نعم، ذلك حقيقى. أرى الشبه."

باستثناء هذه اللحظة الوحيدة المشحونة، مضت الزيارة بشكل جيد. بدا سايا جون متيقظًا بشكل غير عادى، ذاته القديمة تقريبًا. أكلوا جميعًا كميات من المكرونة، وفى نهاية الوجبة، قدمت أم إلونجو شايًا ثقيلاً باللبن فى أقداح زجاجية. حين غادروا، أدركوا جميعًا- بطريقة لم تكن على الأقل غير مريحة - أن الزيارة بدأت لقاء بين غرباء وتغيرت بشكل ما، فى النبرة والجوهر، إلى اتحاد عائلى.

فى طريق العودة إلى المنزل جلس الثلاثة متجاورين فى الشاحنة، إلونجو يقودها وسايا جون فى الوسط. بدا ارتياح واضح على إلونجو، كأنه اجتاز عقبة. لكن دينو وجد صعوبة فى تصور أن إلونجو قد يكون أخاه غير الشقيق. كان الأخ ما كان عليه نيل - حدًا تستند عليه. ولم يكن إلونجو على هذا النحو. إذا كان إلونجو شيئًا فهو

تجسيد لأبيه – كما كان فى شبابه، رجلاً أفضل بكثير من الذى عرفه دينو. كان هناك بعض السلوى فى ذلك.

فى تلك الليلة ذكر دينو شكوكه لأليسون للمرة الأولى. تسللت إلى غرفته بعد العشاء، كما كانت تفعل أحيانًا بعد استقرار جدها فى سريره. استيقظت فى منتصف الليل لترى دينو يجلس بجوار النافذة، يدخن سيجارة: "ما المشكلة، دينو؟ اعتقدتُ أنك نائم."

"لم أستطع النوم."

"لماذا؟"

حكى دينو عن زيارته لأم إلونجو وما قالتْ. ثم نظر فى عينيها مباشرة وسأل: "أخبرينى، أليسون... هل هذا كله من وحى خيالى– أم أن فى الأمر شيئًا؟"

هزَّتْ كتفيها وأخذت نفَسًا من سيجارته ولم ترد. سأل مرة أخرى، بإلحاح أكثر: "هل هناك حقيقة فى هذا، أليسون؟ يجب أن تخبرينى إذا كنت تعرفين..."

قالت: "لا أعرف، دينو. سرتْ شائعات دائمًا، لكن لم يقل أحدٌ شيئًا مباشرًا– لى على أية حال. تعرف طبيعة هذه الأمور – لا يتحدث الناس عن هذه الأشياء."

"وأنت؟ هل تصديقين هذه... هذه الشائعات؟"

"لم أعْتَدْ على ذلك. لكن جدى قال ذات يوم شيئًا جعلنى أغير رأيى."

"ماذا؟"

"طلبتْ منه أمك أن يرعى إلونجو."

"إذن فهى تعرف – أمى؟"

"أعتقد ذلك."

أشعل سيجارة أخرى فى صمت. ركعت أليسون بجواره وتطلعت فى وجهه: "هل أنت قَلِقٌ؟ غضبان؟"

ابتسم، وهرش ظهرها العارى: "لا. لستُ قلقًا... ولا أكثر غضبًا مما كنتُ دائمًا. غريب حقًا – لم أندهش لمعرفتى بنوعية أبى. جعلتنى فقط لا أرغب فى العودة أبدًا إلى البيت..."

بعد أيام قليلة أرسلتْ أليسون خطاباً وصل للتو. كان دينو يعمل فى غرفته المظلمة، وتوقف ليلقى نظرة على الظرف: كان من رنجون، من أبيه. بدون أى تفكير، مزقه وعاد للعمل.

فى ذلك المساء، بعد العشاء، سألتْ أليسون: "دينو، هل أخذت الخطاب؟"

أومأ.

"كان من أبيك، أليس كذلك؟"

"أفترض ذلك."

"ألم تقرأه؟"

"لا. مزقتُه."

"ألم ترغب فى أن تعرف ما كتب عنه؟"

"أعرف ما كتب عنه."

"ماذا؟"

"يريد بيع حصته فى مرننجسايد...

توقفت ودفعتْ طبقَها بعيداً: "هل هذا ما تريده أنت أيضاً، دينو؟"

قال: "لا. فيما يخصنى، سأبقى هنا إلى الأبد... سأجهز أستوديو فى سنجى بتانى وأتعيش من الكاميرا. هذا ما وددتُ أن أفعله دائماً – وهذا مكان مناسب."

هـوامش

(١) بَهاولبور Bahawalpur: مدينة في باكستان، عاصمة مقاطعة بنفس الاسم. تبعد ٧٠٠ كم عن إسلام آباد.

(٢) بلينهايمز: Blenheims. بريوستر بفلوز: Brewster Buffaloes.

(٣) ألفيس: Alvis.

(٤) شيأنْجسام cheongsam: رداء صيني حريمي بياقة مرتفعة وجيبة مفتوحة.

(٥) هكًا Hakka:جزء من الشعب الصيني، لهم لغتهم الخاصة. كان لهم تأثير كبير على الشعب الصيني، كانوا مصدراً للقادة الثوريين والسياسيين والعسكريين.

(٦) إدوارد ج. روبنسون Edward G. Robinson (١٨٩٣ - ١٩٧٣) : ممثل أمريكي اشتهر بتصويره لرجال العصابات، ومن أعماله القيصر الصغير (١٩٣٠) وأنا القانون.

(٣١)

فى الليلة التى اصطحب إلونجو فيها أرجون إلى منزل مرننجسايد، كان دينو وأليسون وسايا جون فى غرفة الطعام، يجلسون إلى المائدة الماهوجنى الطويلة. وعلى الجدران تبرق حوامل مغلفة بالبامبو، صممتها إلسا. امتلأت الغرفة بضوء ساطع ودافئ.

ابتسم إلونجو ابتسامة عريضة توقُّعًا لدهشة دينو: "انظر مَنْ أتى معى." ثم دخل أرجون من الباب بالزى الرسمى وكابه فى يديه. وحزامُه السام براون[1] يلمع فى الوميض الذهبى لحوامل البامبو.

"أرجون؟"

"أهلاً." سار أرجون حول المائدة وربت على كتف دينو: "جميل أن أراك مرة أخرى، أيها الرفيق القديم."

وقف دينو: "لكن أرجون... ماذا تفعل هنا؟"

قال أرجون: "سأحكى لك عاجلاً ما يكفى. لكن ألا تعرِّفنى بدايةً؟"

"أوه نعم. بالطبع." التفت دينو إلى أليسون: "أرجون. نسيب نيل – توأم منجو."

"أنا سعيدة جداً بمجيئك." مالت أليسون على سايا جون وتكلمت بصوت هادئ فى أذنه، قالت: "جدى، نسيب نيل. يعسكر فى القاعدة العسكرية فى سنجى بتانى؟"

اندهش أرجون بدوره: "كيف عرفتِ أنى أعسكر فى سنجى بتانى."

"رأيتُكَ في البلدة قبل أيام."

"حقًّا؟ مذهل أنك لاحظت."

"لاحظْتُ بالطبع." ألقت برأسها للخلف وضحكتْ: "يبرز الغريب في سنجي بتاني."

قاطعها دينو: "لم تقولي شيئًا، أليسون..."

ضحكتْ أليسون: "رأيتُ رجلاً في زي رسمي. كيف أعرف أنه نسيبك."

قال إلونجو: "عرفتُ. عرفتُ حين رأيته."

أومأ أرجون: "عرفني. دخلتُ مكتب العزبة لأسأل عن دينو. وقبل أن أفتح فمي قال: 'ألست نسيب مستر نيل؟' ذهلتُ تمامًا. قلتُ: 'كيف عرفْتَ؟' قال: 'فرجني مستر دينو على صورة – من عرس أختك.'"

"هكذا عرفته."

تذكر دينو أنه انقضى عامان على آخر لقاء مع أرجون – في كلكتا. بدا أن أرجون كبر في تلك الفترة– أم كان يملأ زيه الرسمي؟ ومع أن أرجون كان طويلاً دائمًا، لم يتذكر دينو أبدًا أنه شعر بأنه قزم في وجوده كما شعر آنذاك.

قالت أليسون متألقة: "حسنًا. يجب أن تتناول شيئًا – أنت وإلونجو."

كانت المائدة ممتلئة بعشرات السلاطين الصيني الصغيرة الملوّنة. لم تمس محتويات معظمها.

نظر أرجون للطعام بشغف: "لحم حقيقي أخيرًا..."

قالت أليسون: "لماذا؟ ألا يطعمونكم في القاعدة؟"

"أظن أنهم يفعلون أفضل ما في وسعهم."

قالت أليسون: "يوجد هنا الكثير لكما. اجلس- إلونجو، أنت أيضًا. تشتكي الطباخة دائمًا من أننا نعيد الطعام بدون أن يمس."

هز إلونجو رأسه: "لا يمكن أن أبقى..."

"أكيد؟"

"نعم. أمي تنتظرني."

انصرف إلونجو وشُغِل مكان آخر على الطاولة، بجوار أليسون. جلس أرجون وبدأت أليسون تكدس له الطعام في طبقه.

"تسمى هذا أيَام ليمو بوروت – دجاج بأوراق الليمون والتمر هندي؛ وهذا سمبل الجمبري بأوراق الصنوبر البرغي ؛ وهذا بلاكان برنجالز؛ وهناك بعض الشنشالوك(٢) بالشيلي – جمبري مخلل في عصير الليمون؛ وهذا سمك على البخار ببراعم الزنجبيل..."

"يا لها من مأدبة! ولم يكن إلا عشاء يوميًا؟"

قالت أليسون: "كانت أمي تزهو بمائدتها دائمًا. وأصبحت الآن عادة."

أكل أرجون باستمتاع: "طعام مدهش!"

"أحبته عمتك أوما أيضًا. هل تتذكر، دينو؟ ذلك الوقت؟"

أومأ دينو: "نعم أتذكر. أعتقد أن لديَّ صورًا."

قال أرجون: "لم أتناول أبدًا شيئًا بهذا الطعم. ما اسمه؟"

قالت أليسون: "طعام نيونيا(٣). أحد آخر الأسرار العظمى في العالم، كما اعتادتْ أمي أن تقول."

فجأة تكلم سايا جون، مما فاجأهم جميعًا.

"الزهور سر الاختلاف."

"الزهور، جدى؟"

نظر سايا جون إلى أرجون بعينين تغربان بسرعة: "نعم- الزهور فى الطعام. بُنجا كِنْتان وبنجا تِلَنْج(٤) – زهور الزنجبيل والزهور الزرقاء، هى ما يمنح الطعام مذاقه. هذا ما تقوله إلسا دائمًا."

مرَّ ظلٌ على وجهه وغيمت عيناه مرة أخرى. التفت إلى أليسون، وقال: "يجب أن نتذكر إرسال برقية إلى ماثيو وإلسا. يجب أن يتوقفا فى ملقا فى طريق العودة."

نهضت أليسون بسرعة من مقعدها. قالت لأرجون: "اعذرنى، جدى مرهق. يجب أن آخذه إلى السرير."

وقف أرجون: "بالطبع."

ساعدت أليسون سايا جون للوقوف وقادته ببطء عبر الغرفة. استدارتْ عند الباب لتنظر إلى أرجون: "رائع أن يكون لدينا ضيفٌ يحبُّ طعامنا – تقول الطباخة دائمًا إن دينو لا يأكل إطلاقًا. ستبتهج لأنك استمتعتْ بطهيها. يجب أن تأتى مرة أخرى."

ابتسم أرجون: "سآتى. تأكدى من ذلك."

كان فى صوت أليسون دفءٌ ومرح لم يشعر بهما دينو من قبل. نظر إليها من مكانه على الطاولة وشعر بهبة غيرة مفاجئة.

قال أرجون بصوت مدوٍّ ودود: "حسنًا، أيها الرفيق القديم. ألا تعرف أنك تقلق كل من فى البيت؟"

أجفل دينو: "لا. وليس هناك حقًا داعٍ للصياح." كافح للتحكم فى نفسه ليواصل الحديث إلى أرجون.

ضحك أرجون: "آسف. لم أقصد مضايقتك..."

"أنا متأكد من أنك لم تقصد."

"وصلني خطاب من منجو، ترى - هكذا عرفتُ أن أعثر عليك."

"أرى."

"قالت إنهم لم يسمعوا عنك منذ فترة."

"أوه؟"

"ماذا تريد أن أقول لهم؟"

رفع دينو رأسه بتدبر هائل. قال ببرود: "لا شيء. لا تقل لهم شيئًا..."

رفع أرجون حاجبه: "هل يمكن أن أسأل لماذا؟"

هزَّ دينو كتفيه: "المسألة ليست شديدة التعقيد. ترى... أرسلني أبي إلى هنا لأنه يريد بيع حصتنا من مرننجسايد."

"و؟"

"الآن أنا هنا... قررتُ أنها فكرة غير مناسبة."

"كبرْتَ إلى هذا الحد، أفترض؟"

نظر دينو إلى عين أرجون مباشرة: "الأمر ليس بهذه الصورة. إنها أليسون."

"ماذا تقصد؟"

"حسنًا، قابلْتَها..."

أومأ أرجون: "نعم."

"ربما تعرف ما أقصد."

سحب أرجون مقعده إلى الخلف بعيداً عن المائدة: "أعتقد أنك تريد أن تخبرنى بشىء، دينو. لأخمن: هل تقول إنك وقعت فى حبها؟" ضحك.

"شىء من هذا القبيل."

"أرى. وهل تعتقد أنها حريصة عليك هى الأخرى؟"

"أعتقد ذلك."

"ألم تقلْ لك ذلك؟"

"لا... ليس بالضبط."

"آمل أن تكون مُحقًا، إذن." ضحك أرجون مرة أخرى وتلألأ الضوء على أسنانه القويمة. "علىَّ أن أقول لا أعرف إن كانت امرأة مثلها تناسب فتى مثلك."

حاول دينو أن يبتسم: "لا يهم حقًا، أرجون... فى حالتى علىَّ أن أؤمن بذلك..."

"لماذا؟"

"ترى - أنا لستُ مثلك، أرجون. لم يكن التعامل مع الناس - خاصة النساء - سهلاً أبداً بالنسبة لى. إذا كان هناك خطأ... بينى وبين أليسون، فذلك... لا أعرف كيف أتغلب عليه..."

"دينو، هل أنا محق حين أعتقد أنك تحذرنى - تخبرنى بأن أبقى بعيداً؟"

"ربما أحذرك."

أبعد أرجون طبقه: "أفهمُ. لا حاجة لذلك حقًا، تعرف."

شعر دينو بالابتسامة تعود إلى وجهه: "حسنًا. حسنًا، ذلك خارج الموضوع إذن."

نظر أرجون في ساعته ووقف: "حسنًا، من المؤكد أنك أفصحت عن نفسك بوضوح. وربما عليَّ أن أنصرف. ستقدم اعتذاري لأليسون؟"

"نعم... بالطبع."

ذهبا معًا إلى الباب الخارجي. كانت سيارة أرجون فورد في-٨(٥) مركونة في الخارج، تحت الشرفة. فتح أرجون الباب ومدَّ يده. قال: "جميل أن أراك، دينو. حتى ولو لوقت قصير."

شعر دينو فجأة بالعار من افتقاره للكرم. قال وهو يشعر بالذنب: "لم أقصد أن أبعدك، أرجون... من فضلك لا تعتقد أنك غير مرحب بك. يجب أن تعود... عاجلاً... أنا متأكد من أن أليسون تريد ذلك."

"وأنت؟"

"نعم. أنا أيضًا."

قدَّر أرجون هذا بتجهم: "هل أنت متأكد؟"

"نعم، بالطبع. عليك... عليك أن تعود."

"سأعود، إذن، إذا كنت لا تبالي، دينو. شيء جميل أن أبتعد عن القاعدة من وقت إلى آخر."

"لماذا؟ هل هناك مشكلة؟"

"ليست مشكلة بالضبط - لكن الوضع ليس سارًا دائمًا كما كان..."

"لماذا؟"

"لا أعرف كيف أوضح، دينو. منذ أتينا إلى الملايو، لم يبق شيء على حاله."

***

كان دخول أرجون فى حياتهم يشبه تقلب الفصول. كان ينزل عليهم يوميًا تقريبًا، وكثيراً ما اصطحب معه هاردى أو أحد أصدقائه الآخرين. صارت سنجى بتانى مركز قيادة الفرقة الحادية عشرة، وارتبط أرجون بعدد كبير من المعارف والأصدقاء القدامى. يجمعهم فى الأمسيات وينطلق بهم من القاعدة فى أى مَرْكَبة متاحة - أحيانًا سيارة ألفيس، وأحيانًا فورد فى-٨، وأحيانًا حتى موتوسيكل هارلى دافيدسون(٦). يأتون عادة بعد هبوط الليل، يقودون المركبة وأضواؤها الأمامية ساطعة، ويصدرون هبات انتصار بأبواقهم.

كانت أليسون تجرى إلى المطبخ لتنبه الطباخة: "إنهم هنا!"

وضح استمتاعها بهذه الزيارات؛ عرف دينو أنها تبتهج لرؤية المنزل يمتلئ بالناس مرة أخرى. ظهرت ملابس لم يكن يعرف أنها بحوزتها: لم يرها حتى ذلك الوقت إلا فى الملابس البسيطة التى ترتديها للذهاب إلى المكتب وأحيانًا شيْأُنْجسام من الحرير. تدفقت ملابس كثيرة الألوان، جميلة التفصيل من خزاناتها - قبعات وعباءات رائعة طلبتْها أمها من باريس فى ذروة ازدهار مرننجسايد.

كل مساء تقريبًا ردد المنزل صدى الأصوات والضحكات فى ساحة العرض. بدا أن هؤلاء الضباط الشبان لن يكفوا عن الضحك أبداً- كانت النكات التافهة تجعلهم يقهقهون طارحة كلاً منهم على ظهره. كانوا يأتون عادة من الميس بزجاجات من الويسكى أو الجن أو الروم. وكان كيشان سنجه يأتى معهم أحيانًا ليقدم لهم المشروبات. كانوا يجلسون فى الفراندة، يرشفون مشروبى ستنجهز(٧) والجن. كما لو بفعل السحر، تظهر كميات هائلة من الطعام على مائدة غرفة الطعام. تقودهم أليسون إلى الداخل ثم يتولى أرجون المهمة، يفرج أصدقاءه على المائدة، شارحًا الأطباق بأدق التفاصيل: "انظروا هنا، هذا بط مطبوخ بعصير قصب السكر، لم تتذوقوا أبدًا شيئًا

بهذا الشكل. وهنا، شوفوا، هذا الجمبرى؟ مطبوخ بالزهور- براعم الزنجبيل - وهذا ما يمنحه هذا المذاق المذهل..."

بدا دينو مثل متفرج فى سيرك: كان يعرف أن عليه أن يلعب دور المضيف. لكنه شعر، مع كل أمسية من تلك الأمسيات، أن وجوده فى المنزل يتقلص، ينكمش. لا يهم سواء جاء أرجون وحده أمْ فى صحبة فرقة من أصدقائه. بدا أن لديه طريقة لملء المنزل حتى بمفرده. كان لا يمكن إنكار أن فيه شيئًا جذابًا - الثقة فى الذات، عادة قائد، شهية مفتوحة جداً. عرف دينو أنه لا يستطيع مجاراته.

فى نهاية كل وجبة، يشغل أرجون الجراموفون ويرفع السجاجيد من فوق الأرضيات الخشبية. كان وأصدقاؤه يتناوبون الرقص مع أليسون. وكان إلهامًا أن يكتشف دينو روعة رقصها - أفضل من كل من عرف، كراقصات الأفلام - بميل وإيقاع وطاقة بدا أنها لا تنفد. من بين الرجال، كان أرجون أفضل راقص بدون منازع. فى نهاية كل ليلة، يضع أسطوانته المفضلة- فرقة تومى دوسى[٨] تعزف "أحمل عاطفة لك". يتراجع الجميع لإفساح المجال لهما، وتمتلئ الغرفة بالتصفيق والأسطوانة على وشك الانتهاء. فى نهاية تلك الأمسيات بدا أن أليسون تتذكر بالكاد أن دينو لا يزال موجوداً.

من وقت آخر يعلن أرجون أنه نجح فى استجداء كمية إضافية من البترول من "الرفاق الطيارين" فى مهبط الطائرات. يخرجون فى نزهة، الثلاثة فقط أحيانًا، وضمن حشد كبير أحيانًا. فى إحداها ذهبوا إلى النُّزُل الذى يقع على قمة جننج جراى. صادرت مجموعة من الطيارين المكان لإقامة حفلة؛ كانا ضيفى أرجون.

ذهبوا فى سيارة فورد فى-٨ . ليصعدوا إلى القمة كان عليهم أن يلفوا حول الجبل، منطلقين بجوار كَمْبُنْج[٩] هادئة بها مساجد مظللة بالنخيل. لوّح لهم الأطفال

من حقول الأرز، واقفين على أطراف أصابعهم ليظهروا من بين العيدان المثقلة بالحبوب. كان يوماً غائماً من أيام ديسمبر، وقد هبَّتْ نسمة باردة من البحر.

لم يكن الطريق الذى سلكوه إلى القمة إلا مساراً قذراً، يتأرجح عبر المنحدر، ويرتفع بحدة. كانت أطراف الجبل كثيرة الأشجار والدرب يلتف فى بقاع كثيفة من الغابة. كان الجو أبرد بعدة درجات من السهل، وقد حجبت السماءَ باستمرار طبقةٌ من سحب سريعةِ الحركة. فى القمة انتهت الخضرة فجأة وظهر النزل – بدا، إلى حدٍّ ما، شبيهًا بكوخ إنجليزى، إلا أنه محاط ببلكونة تطل على مشاهد درامية للشاطئ والسهول المحيطة به.

اكتظت البلكونة بالعسكريين فى ثياب رمادية وكاكية وخضراء غامقة. وبين الأزياء الرسمية تناثرتْ بضع نساء يرتدين ملابس قطنية زاهية. فى مكان ما داخل النزل فرقة تعزف.

دخل أرجون وأليسون إلى النزل ليرقصا وتُرِك دينو لحاله. سار حول البلكونة، خلف الطاولات المفروشة بمفارش بيضاء. حجبت منظرَ السهل عباءةٌ من السحب تهب من البحر. لكن كثيراً ما شقت الرياح السحب، موفرة لقطات رائعة من السهل: رأى سنجى بتانى، عند سفح الجبل، ومئات من هكتارات المطاط تمتد مبتعدة فى كل الاتجاهات. عن بعد، لمح القمم المتعرجة لجزيرة بِنِنج وأرصفة ميناء بترورث، وكانت تشبه الأصابع. كان الطريق السريع بين الشمال والجنوب يجرى مثل شريط كبير عبر المشهد الطبيعى، يقترب من الطرف الجنوبى للسهل ويختفى باتجاه الشمال، حيث الحدود. بطول الغرب يقع بحر أندامان، مفعماً بالألوان الزاهية لغروب الشمس.

قرر دينو أن يأتى فى يوم صاف إلى النزل ومعه الكاميرات. ندم، لأول مرة فى حياته، لأنه لم يتعلم قيادة السيارات: كان هذا المشهد وحده يستحق المجهود.

عاد أرجون فى اليوم التالى إلى مرننجسايد فى ساعة غير مألوفة – فى الحادية عشرة صباحًا. يقود موتوسيكلا هارلى دافيدسون، بوسط نحيل ومقدمة حمامة، مطليًا بلون أخضر عسكرى باهت، يتصل بصندوق جانبى. انطلق أرجون إلى المنزل من مكتب المزرعة وأليسون تجلس فى الصندوق الجانبى.

كان دينو فى غرفته المظلمة حين صاح أرجون من الرواق: "دينو! انزل. عندى أخبار."

نزل دينو جريًا إلى الدور الأرضى: "حسنًا...؟"

ضحك أرجون ونخس كتفه: "أنت عم، دينو – وأنا خال. وضعتْ منجو طفلاً – بنتًا."

"أوه... أنا سعيد..."

"سنحتفل. تعال معنا؟"

"إلى أين تذهبان؟"

قال أرجون: "إلى البحر. اقفز. خلفى."

نظر دينو إلى أليسون، وقد بدت غائبة. شعر بقدميه تثقلان. كافح طوال الأيام الأخيرة ليتماشى مع الاثنين، لكنه لم يستطع أن يكون على غير طبيعته. لم يُرِدْ أن يكون معها فيكون وجوده عبئًا عليها – أى شىء إلا ذلك.

قال دينو بهدوء: "لا أعتقد أنكما تريدان حقًّا أن أكون معكما."

صاحا مثل كورس اعتراضات.

"أوه، دينو. زبالة!"

"أوه، تعال، دينو. لا تكنْ أحمق."

استدار دينو: "لدىَّ عمل فى الغرفة المظلمة علىَّ أن أنهيه. انطلقا. يمكن أن تحكيا لى حين تعودان." دخل المنزل وصعد الدرج عَدْوًا. سمع صوت سعال مفتاح تشغيل الموتوسيكل ولم يستطع الامتناع عن النظر من نافذة. أسرع هارلى دافيدسون فى الطريق، باتجاه العزبة. لمح وشاح أليسون، يرفرف مثل راية.

عاد لغرفته المظلمة وشعر بألم فى عينيه. اعتمد فى الماضى على جو الغرفة المظلمة للشعور بالطمأنينة دائمًا؛ كان وهجها الأحمر المعتم مصدرَ راحةٍ لا ينضب. لكن بدا الضوء ساطعًا جدًا، لا يُحتَمل. أطفأه وجثم على الأرضية، معانقًا ركبتيه.

كانت غرائزه صحيحة منذ البداية. عرف أن أرجون لا يمكن أن يكون موضع ثقة– ولا أليسون، معه. لكن ماذا يفعل؟ كانا راشدين، ولم يكن له حق عند أى منهما.

لمس وجهه، فى لحظة، فوجده مبلولاً. غضب من نفسه: إذا كانت هناك خيمة يريد أن يبنى فيها حياته، فلن تكون أبدًا بالاستسلام للشفقة على النفس– كان يعرف أنه طريق لا ينتهى، بمجرد السير فيه.

وقف على قدميه ومشى حول الغرفة فى الظلام، حاول تذكر حجمها وتخطيطها بدقة وأيضًا موضع كل قطعة من الأثاث وكل شىء. عد خطواته، وكلما لمس جدارًا أو تعثر فى شىء، بدأ من جديد.

اتخذ قرارًا بالرحيل. وضح أن أليسون فقدت الاهتمام به وليس هناك ما يُرجَى من البقاء فى مرننجسايد. عليه أن يحزم أشياءه ويقضى الليل فى منزل أم إلونجو. يذهب فى الغد إلى بننج وينتظر سفينة بخارية تعود به إلى رنجون.

***

اتجه الموتوسيكل غربًا، فى طريق تضاءل إلى شريط بالٍ مرصوف محفوف بالتراب والرمل. انطلقا إلى بلدة صغيرة بها مسجد بقبة زرقاء ثم ظهر البحر أزرق متلألئًا. كانت الأمواج ترتفع قليلاً بطول حافة الرمال. انحرف الطريق يسارًا وبقيا فيه، انطلقا فى خط مواز للشاطئ. وصلا إلى عزبة صغيرة وانتهى الطريق. فاحت من السوق رائحة ماء مالح وسمك مجفف.

سألتْ أليسون: "نترك الموتوسيكل هنا؟"

ضحك أرجون: "لا. لا يجب أن نفعل ذلك. يمكن أن نأخذه معنا. يذهب هذا الهارلى إلى أى مكان."

احتشد القرويون للتحديق فيهما وهما يسيران بالموتوسيكل فى السوق، متسللين فى الفجوات بين الأكواخ. عوى الموتوسيكل وهو يصعد كثيب يفصل العزبة عن البحر. كان الرمل ناصع البياض فى شمس الظهيرة. واصل أرجون السير على حافة الشاطئ، حيث تماسكت الأرض ببساط رقيق من الأعشاب. سار ببطء بين جذوع نخيل جوز الهند، تهزها الرياح.

ابتعدا كثيراً عن القرية وصادفا كهفًا مظللاً بالصنوبر البرغى. كان الشاطئ مكونًا من طبقة رقيقة بيضاء من الرمال. عند مدخل الكهف، على مسافة لا تزيد على مائة ياردة من الشاطئ، ظهرتْ جزيرة صغيرة كثيفة الأشجار، أجمات خضراء وأشجار صنوبر قصيرة.

قالت أليسون: "لنتوقف هنا."

وضع أرجون الموتوسيكل فى بقعة من الظلال ودفعه على الحامل. خلعا حذاءيهما وتركاهما على الرمل. طوى أرجون ثنيتى بنطلونه إلى أعلى وجريا عبر الشاطئ

الفضى المحرق، إلى الماء مباشرة. المدُّ منخفض والبحر شديد الهدوء، وأمواج خفيفة تعلو الشاطئ. الماء شديد الصفاء، يكبِّر الأشكال المتحولة لأرضية البحر، مضفياً عليها مظهر الفسيفساء الملونة.

قال أرجون: "لنسبحْ."

"لم أحضر شيئًا."

بدأ أرجون فك أزرار قميصه الكاكى. "لا أحد هنا."

كانت أليسون ترتدى رداء العمل القطنى. رفعته، ممسكة بطرفه فوق الماء. ثم تركته يسقط. تغلغل الماء بسرعة فى القطن، مرتفعًا باتجاه خصرها.

تعالى، أليسون. المكان كله ملكنا." حلَّقتْ أطراف قميص أرجون بحرية، والأزرار مفكوكة.

ضحكتْ: "لا. نحن فى ديسمبر. احترمْ شتاءنا."

"ليس باردًا. تعالى." مدَّ يده إلى يدها، ولسانه يضرب صفَّ أسنانه المتلألئة.

غرستْ أطراف أصابع قدميها فى الرمل. فى الماء الصافى، لمحت حافة مقوسة لقوقعة مدفونة بين قدميها. مدت يدها فى الماء وأخرجتها. كانت قوقعة ثقيلة بشكل غير متوقع، وكبيرة بما يكفى لملء يديها الاثنتين.

قال أرجون، ناظرًا من فوق كتفه: "ما هذا؟" ابتلَّ بنطلونه الكاكى حتى الخصر تقريبًا.

قالت: "إنها نوتيلوس(١٠)."

كانت للقوقعة فتحة بيضاوية فى أحد طرفيها، مثل البوق: اللون بداخلها لون طبقة غنية من عرق اللؤلؤ، بها بقع فضية. يلتفُّ جسمها فى كتلة دائرية بشكل يكاد يكون دقيقًا، وينتهى بانبعاج ضئيل يشبه حلَمَة.

سأل أرجون: "كيف عرفتِ اسمَها؟" شعرتْ بوجوده خلفها. كان ينظر من فوقها إلى القوقعة، وذقنه يستريح بخفة على رأسها.

قالتْ: "فرَّجنى دينو على صورة لقوقعة مثلها. يعتقد أنها من أفضل الصور التى التقطها."

التفَّتْ ذراعاه حول كتفيها، وأحاطتْ بجسمها. أغلقتْ يديها على القوقعة، وبدت أصابعها ضئيلة بالمقارنة بأصابعه وراحتاه المبلولتان على ظهر يديها. مرر إبهامه بطول حافة فم عرق اللؤلؤ، على الخط الذى يلف الجسم المنتفخ، إلى النقطة التى تعلو الكتلة وتشبه الحلمة.

"علينا..." شعرتْ بنفَسه يندفع فى شعرها. قالَ بصوت أجش: "علينا أن نأخذها معنا لدينو."

ترك ذراعيه تسقطان وابتعد عنها. قال مشيراً باتجاه الجزيرة التى تقع عند مدخل الكهف: "لنذهب ونستكشف. أراهنُ، يمكننا الوصول إليها. الماء منخفض جداً."

ضحكتْ: "لا أريد أن أبلَّ ردائى."

وعد: "لن تبليه. إذا ارتفع الماء، أحملك على ظهرى."

أمسك بيدها وشدَّها فى مياه أعمق. غارت الأرض ووصلت المياه إلى مستوى الخصر. ثم ارتفعت الأرضية الرملية تدريجيًّا باتجاه الجزيرة. أسرع أرجون وهو يشدها معه. كانا يجريان حين وصلا الشاطئ. أسرعا عبر حافة رملية محترقة بفعل حرارة الشمس إلى داخل الجزيرة حيث الظل. استلقت أليسون على ظهرها فوق الأرض الرملية الناعمة وتطلعت للسماء. أحاطت بهما أشجار صنوبر برغى كثيفة، وحجبتهما عن الشاطئ.

ألقى أرجون بنفسه إلى جوارها، على بطنه. كانت لا تزال تمسك بالقوقعة فحررها من قبضتها. وضعها على صدرها ومرر إصبعه على الحافة الحلزونية للقوقعة، ممسكًا بجسمها فى راحته.

قال: "إنها جميلة جداً."

رأتْ كم كان يريدها؛ كان فى إلحاح رغبته شيءٌ لا يقاوم. حين انزلقت يده من القوقعة، إلى جسمها، لم تبذل جهداً لإيقافه. من تلك اللحظة، وكل شيء متأخر جداً، تغير كل شيء.

كأنه لم يكن هناك حقًا ولم تكن هناك؛ كأن جسديهما اندفعا بحاسة الحتمية أكثر مما اندفعا بإرادة واعية؛ بسُكْرِ الصور والإيحاء - ذكريات الصور والأغانى والرقصات؛ كانا غائبين، غريبين، وجسداهما يؤديان وظيفة. فكرت فى الوضع مع دينو: حدة تركيزه على اللحظة؛ الإحساس بتوقف الزمن. لم تفهم، إلا أمام هذا التضاد لمعايشة الغياب، معنى الحضور التام - العين والذهن واللمس فى اتحاد مطلق، يمتلك كل منهما الآخر ويمتلكه الآخر.

حين تركها أرجون، بكت ساحبة رداءها على جسمها وشابكة ركبتيها. انتصب فى ذعر: "أليسون- ما المسألة؟ لماذا تبكين؟"

هزَّتْ رأسها، ووجهها مدفون بين ركبتيها.

ألحَّ: "أليسون، لم أقصدْ... ظننْتُ أنك تريدين..."

"ليست غلطتك. لا ألومك. لا ألوم إلا نفسى."

"على ماذا، أليسون؟"

نظرتْ إليه غير مصدِّقة: "على ماذا؟ كيف تنظر إلىَّ بعد ذلك وتسألنى هذا السؤال؟ ماذا عن دينو؟"

ضحك، وهو يمدُّ يده إلى ذراعها: "أليسون. لا يجب أن يعرف دينو. لماذا نخبره؟"

دفعتْ يده بعيداً. قالتْ: "من فضلك. من فضلك. لا تلمسنى."

سمعا صوتًا ينادى من بعيد، قويًا بما يكفى للوصول عبر تلاطم المياه.

"صاحب."

شدَّ أرجون زيه المبلول ووقف. رأى كيشان سنجه يقف على الشاطئ وخلفه سائق موتوسيكل بخوذة على هارلى دافيدسون يشبه الموتوسيكل الذى قاده أرجون من القاعدة.

لوَّح كيشان سنجه بقطعة من الورق، حركها بإلحاح فى الهواء.

"صاحب."

قال أرجون: "أليسون. حدث شىء. بعثوا برسالة من القاعدة."

قالتْ أليسون: "انطلق." لم تفكر فى تلك اللحظة إلا فى أن تلقى بنفسها فى الماء لغسل الإحساس بلمسته. "سأتبعك فى دقيقة."

مشى أرجون إلى الماء وخاضه إلى الشاطئ. كان كيشان سنجه ينتظر على حافة الماء؛ التقت عيناه بعينى أرجون لحظة. كان فيهما شىء فتراجع أرجون ونظر مرة أخرى. لكن كيشان سنجه تحرك للفت الانتباه، ويده مرفوعة بالتحية، وعيناه ثابتتان فى نظرة غافلة.

"ماذا، كيشان سنجه؟"

سلمه كيشان سنجه ظرفًا: "بعث هاردى صاحب بهذا."

مزق أرجون الظرف وفتح ورقة هاردى. كان لا يزال ينظر فيها مقطِّبًا حين خرجت أليسون من الماء وسارت إليه.

قالتْ: "ماذا؟"

قال أرجون: "عليَّ أن أعود. فوراً. يبدو أن شيئًا كبيراً على وشك الحدوث. ستغادر كتيبتى سنجى بتانى، هذا ما فى الأمر."

حدَّقتْ فيه أليسون كأنها لا تصدق ما سمعتْ: "ستذهب بعيداً؟"

نظر إليها: "نعم. وأنت سعيدة – أليس كذلك؟"

مشت ولم ترد، تبعها. وهما فوق قمة الكثيب، بعيداً عن نظر كيشان سنجه، أدارها بعنف مفاجئ.

قال بحدة: "أليسون، لم تردّى علىَّ."

ضيقت عينيها: "لا تتحدث معى بهذه النغمة، أرجون. لستُ مراسلة عندك."

"سألتُك سؤالاً."

"ماذا كان؟"

"هل أنت سعيدة لأنى أغادر؟"

قالتْ بشكل قاطع: "إذا كنت تريد أن تعرف حقًّا، الإجابة نعم."

جاء صوته متلعثمًا ومرتبكًا: "لماذا؟ أتيتُ إلى هنا لأنك أردْتِ. لا أفهم: لماذا أنت غاضبة منى؟"

هزَّتْ رأسها: "لستُ. لستُ غاضبةً إطلاقًا– أنت مخطئ فى ذلك. لا معنى لأن أغضب منك، أرجون."

"بحق الجحيم عم تتحدثين؟"

"أرجون– لستَ مسئولاً عما تفعل؛ أنت دمية، شىء مصنوع، سلاح فى يد شخص آخر. عقلك لا يسكن جسمك."

"زفت..." توقف فجأة، ثم قال: "لا تفلتين بذلك إلا لأنك امرأة..."

رأتْ أنه على بعد شعرة من ضربها وكان لهذا تأثير غريب، شعرتْ فجأة بأسف من أجله. ثم أدركتْ أنها شعرتْ دائمًا بالأسف من أجله، قليلاً، وكان هذا سبب مجيئها معه فى ذلك الصباح إلى الشاطئ. رأته، على الرغم من عِظَمِ سلطة وجوده، رجلاً بلا حيلة، رجلاً إدراكه لنفسه واهٍ جداً، هشٌ جداً؛ رأت دينو أقوى بكثير وأوسع حيلة، وفهمتْ أن هذا ما أغراها بالقسوة معه؛ وهو ما جعلها تخاطر بفقده. أقلقتها الفكرة فجأة.

سارت بسرعة إلى الهارلى دافيدسون. قالت لأرجون: "تعال. عد بى إلى مرنتجسايد."

هوامش

(١) السام براون Sam Browne: حزام عسكرى للضباط، بحمالة تحيط بالكتف اليمنى.

(٢) أيّام ليمو بوروت: ayam limau purut. سمبل sambal: طبق فى جنوب شرق آسيا يحتوى على كثير من التوابل. بلاكان برنجالز belacan brinjals. شنشالوك: chinchalok.

(٣) نيونيا Nyonya (بِرَناكان Peranakan) : مصطلح يطلق على الصينيين الذين هاجروا فى وقت مبكر إلى المستعمرات البريطانية فى مضايق الملايو، وأماكن أخرى. وتستخدم الكلمة أيضًا لوصف الصينيين الذى يعيشون فى إندونيسيا.

(٤) بُنجا كِنْتان: bunga kentan. بنجا تِلَنْج: bunga telang.

(٥) فورد فى-٨: Ford V-8.

(٦) هارلى دافيدسون: Harley-Davidson.

(٧) ستنجهز: stengahs.

(٨) تومى دوسى Tommy Dorsey (١٩٠٥ - ١٩٥٦) : قائد فرقة أمريكية. اشتهر هو وأخوه جيمى Jim-my (١٩٠٤ - ١٩٥٧) بفرقتيهما اللتين حققتا شعبية فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين.

(٩) كَمْبُنْج kampong: وتعنى قرية بالملايوية.

(١٠) نوتيلوس nautilus: حيوان رخوى من رأسيات الأرجل، يوجد فى المحيطين الهندى والهادى، له قوقعة مغطاة باللؤلؤ.

الجـزء السـادس

الجـبهـة

(٢٥)

في أول المساء غادرت الجات ١/١ سنجي بتاني. خرجوا من القاعدة في قافلة من الشاحنات، باتجاه الشمال على الطريق السريع بين الشمال والجنوب. حين وصلوا إلى بلدة ألور ستار[١]، توقفوا في محطة السكك الحديد في انتظار تعليمات أخرى. استقرَّ الرجال على طرف من الرصيف، وصادر الضباط الآخر.

كانت أصغر محطة رآها أرجون في حياته وأجمل محطة: بدتْ لعبة مقارنة بمحطات السكك الحديد التي عرفها في الهند. كان تحتوي على رصيف واحد ضيق تحت مظلة منخفضة مطلية بالأحمر. تدلى نخيل موضوع في أصص في مجموعة عوارض والتفت الأعمدة الخشبية التي تغطي الرصيف بأجمات البوجينفيلا[٢] الملونة الزاهية.

بقي المقدم بكلاند في مركز قيادة فرعي، ووصل متأخراً. في منتصف الليل جمع ضباطه وأخبرهم بإيجاز عن آخر التقارير العسكرية. تكلم عن تغير كبير في التكتيك. وعن مؤشرات على قرب دخول اليابانيين الحرب: يُعتَقَد أن قواتهم تستعد للهجوم على الملايو من الشمال. ولإحباط هذه القوة الهجومية لابدَّ من التوغل بعمق في سيام لحماية الساحل الشرقي: لشن هجوم استباقي يحرم قوة الغزو اليابانية من أراضي الإنزال المحتمل على الشاطئ. وعلى الجات ١/١ القيام بدور رئيسي في هذه العملية. صدرت أوامر للكتيبة بالاستعداد لاستقلال القطار خلال نصف ساعة من التنبيه عليهم. في الفجر تحركوا شمالاً لاحتلال نقطة ساحلية قرب بلدة في سنغافورة. "دوِّنوا هذا." قرأ المقدم بكلاند مفتاح خريطة وسجل الضباط الملاحظات.

بعد الكلمة السريعة نشر أرجون خريطة على أرضية المحطة تحت لمبة عارية، وطرد الحشرات والفراشات التى جاءت لتستقر على السطح. شعر بسبابته يهتز فى توتر وهو يتتبع الخط الرفيع الأحمر للطريق الذى يؤدى إلى النقطة الساحلية. هذا إذن دليل كل هذه السنوات من التدريب؛ انتهى الانتظار أخيراً. نظر أرجون للرصيف المزين بالزهور: فوجئ بأنه مكان غير محتمل تماماً لانطلاق عملية كبرى.

كان النوم صعباً. فى الثالثة صباحاً أحضر له كيشان سنجه كوباً من الشاى فى مَجٍّ مزخرف. أخذه أرجون بامتنان، ولم يسأل عن المكان الذى أتى به منه. بجواره يغفو هاردى فى سلام فى مقعد بذراع طويلة وعمامته مائلة للخلف. وقف أرجون وتمشى على الرصيف؛ شقَّ طريقه خلف الرجال المكومين. لاحظ ضوءاً فى مكتب ناظر المحطة فدخل.

كان ناظر المحطة مسيحيًا من جوا. كان نائمًا بعمق، يستلقى ممدداً على مكتبه. وكان هناك راديو على رف. لفَّ أرجون حول المكتب وأدار الراديو. عبث بتراخٍ فى الأزرار. جاء عبر خرفشة الموجات الهوائية صوت مذيع يقرأ الأخبار: "... قتال عنيف قرب كوتا بهارو(٢)..."

كوتا بهارو فى شرق الملايو: يعرفها أرجون لأن له صديقًا يعسكر فيها، وهى بلدة ساحلية خارج الطريق. رفع أرجون الصوت وسمع مرة أخرى: تحدث مذيع الأخبار عن إنزال يابانى ضخم بطول الساحل- سمعه يذكر سنغافورة، البلدة التى من المستهدف أن يحتلوها فى اليوم التالى. استدار أرجون وأسرع على الرصيف إلى غرفة الانتظار حيث ترك القائد.

"سير."

كان القائد والكابتن بيرسون يغفوان فى مقعدين.

"ارتفع البالون، سير: قام اليابانيون بإنزال."

انتصب القائد: "مستحيل، أيها الضابط."

"فى الراديو، سير."

"أين؟"

قادهما أرجون إلى غرفة ناظر المحطة. تحرك الرجال على طول الرصيف، أدركوا أن شيئًا ما يحدث. دفع أرجون باب ناظر المحطة وفتحه. استيقظ الرجل، وحكَّ قبضتيه فى عينيه مترنحًا. لفَّ أرجون حوله ورفع الصوت. ملأ صوت مذيع الأخبار الغرفة.

هكذا عرفوا أن هجومهم الاستباقى استُبِق بعملية من مستوى غير مسبوق تضمنت هجمات متزامنة على أهداف تبعد آلاف الأميال- هجوم جوى على بيرل هربور[٤] وإنزال طموح بطول شبه جزيرة الملايو. وكانت سنغافورة، البلدة سيتوجهون إليها، من أول ما احتُلَّ.

ابتسم المقدم بكلاند ابتسامة مهذبة لضباطه: "أيها السادة. إذا كانت معرفتى بالجيش دليلاً، أقترح أن تستريحوا هنا. ربما بعد برهة نسمع شيئًا من مركز القيادة..."

كان فى نبرة السخرية فى صوته شيءٌ مريح جداً: وجد أرجون، وهو يسمعه، صعوبة فى تخيل حدوث خطأ خطير.

كان فى ألور ستار مطار كبير، ومع أول ضوء حلَّق سرب بلنهايمز فى الجو. ساد المرح الجات ١/١ والطائرات تئزُّ فوق المحطة. بعد ساعتين، عادت البلنهايمز تحلق بخزانات وقود فارغة. بعد دقائق من عودتها جاء سرب طائرات يابانية يطنُّ فى الأفق.

هاجمت المطار فى تشكيل قريب، والبلنهايمز تتزود بالوقود، فى أضعف حالاتها. فى دقائق اشتعلت الطائرات. كان توقيت الغارة دقيقًا بصورة خارقة. لم يكن هناك شكٌ فى أن جاسوسًا، أو مخبرًا محليًا، زود العدو بمعلومات.

فى وقت تال من اليوم ذهب المقدم بكلاند بالسيارة إلى المطار مع بعض ضباطه. ضُرِب مركز طبى وفاحتْ رائحة كيماويات قوية. فى ساحة المطار ذاب الزفت حول البلنهايمز. وعن بعد كان هناك صف من أكواخ أتاب، ثكنات لقوات احتياط الملايو الذين يحرسون المطار. لم يُر الرجال فى أى مكان، أُرسِل أرجون للبحث عنهم. وجدت ثكناتهم على أكمل وجه: الأسرة مرتبة وكل منها بجواره حقيبة أدوات معلقة، والبنادق تقف مائلة على الحائط فى صفوف دقيقة، كما تتطلب اللوائح. ولم يكن هناك رجال. كان واضحًا أن القوات هجرت المكان بعد القيام بكل الأعمال اليومية لتنظيم الأماكن.

***

قضى دينو الليل على سرير سفرى فى فراندة منزل أم إلونجو. استيقظ مبكِّرًا، وإلونجو وأمه لا يزالان نائمين. نظر إلى ساعته. لم يكن القطار الذاهب إلى بننج يتحرك قبل منتصف النهار؛ أمامه ساعات طويلة.

خرج ونظر إلى الجبل. بدأ اللون يتغير؛ بدا أن الحياة تنبعث فى الغابة. فوجئ بأنه لم يصور الشانديين أبدًا فى هذا الوقت من الصباح. لمح دراجة إلونجو تقف فى المدخل. قرَّر الذهاب بالدراجة إلى الجبل ومعه الكاميرات.

وضع أدواته معًا بسرعة وسار بالدراجة أسرع من المعتاد. حين وصل إلى الجدول، تخلى عن طقوسه المعتادة: ذهب إلى المنطقة منزوعة الأشجار مباشرة ونصب

حامله الثلاثى. غير الفيلم وأولى الطائرات المغيرة على جننج جراى تحلِّق. لم يهتم فى البداية، مفترضاً أن الطائرات ستهبط فى القاعدة الجوية فى سنجى بتانى. لكن بعد دقائق، حين اهتزت الغابة مع صوت الانفجارات، عرف أن هناك مشكلة. حين جاء السرب التالى من قاذفات القنابل، نظر بدقة أكبر. كانت الطائرات على ارتفاع منخفض جداً ولم يكن هناك شك فى علاماتها. كانت يابانية.

كانت أليسون أول ما فكر فيه دينو. لم يرها منذ تركتْه لتذهب إلى الشاطئ مع أرجون، وتذكَّر أنها خططت للذهاب إلى سنجى بتانى فى ذلك اليوم- أخبرتْه بذلك فى اليوم السابق. لقضاء بعض المهام.

فاجأ دينو أنها ربما لا تزال فى البلدة. ترك حامله الثلاثى يقف حيث كان وأسرع إلى الدراجة. ذهب أولاً إلى منزل مرنتنجسايد، حيث أكدت الطباخة أن أليسون غادرت المنزل باكرًا جدًّا فى الصباح فى الدايتونا. فى طريقه للخروج توقف دينو لإلقاء نظرة على سايا جون. وجده يغفو هادئًا فى مقعد فى الفراندة.

لاحظ دينو، وهو يركب الدراجة فى طريقه للمكتب، اجتماع عدد كبير من الناس فى ساحة العرض. حين اقترب، رأى إلونجو يقف على كرسى يخطب فى الحشد، يتحدث بالتاميلية. نظر دينو فى عينه وأشار له بالتوقف فى كلمة سريعة.

"ماذا يحدث إلونجو؟"

"ألم تسمع الراديو؟"

"لا..."

"دخلت اليابان الحرب. ضُرِب مهبط طائرات سنجى بتانى بالقنابل."

استغرق دينو لحظة لاستيعاب الأمر، ثم قال: "ذهبتْ أليسون إلى سنجى بتانى هذا الصباح... علينا أن نذهب إلى هناك لنرى إن كانت بخير..."

"لا أستطيع الذهاب الآن." ألمحَ إلونجو إلى المجتمعين في ساحة العرض. "ينتظرون..."

"لماذا- ماذا يريدون؟"

"هجر مدراء بعض العزب المجاورة مكاتبهم وانطلقوا بالسيارات إلى سنغافورة. الناس هنا قلقون. يريدون التأكد من الحصول على أجورهم..." توقف إلونجو ليمدَّ يده في جيبه وأخرج مجموعة مفاتيح. "خذها- اذهب أنت. خذ شاحنة."

أبعد دينو المفاتيح: "لا أعرف القيادة."

"انتظرْ إذن - سأفرغ بعد وقت قصير."

كان دينو ينظر من بلكونة مكتب العزبة وإلونجو يخطب في المجتمعين. بدا أن اللقاء سيستمر إلى الأبد: تفرق الحشد في الظهيرة. بعد قليل أدار إلونجو شاحنة وانطلق في اتجاه سنجي بتاني.

مرَّا سريعًا بحشد آخر. انتهت الغارات الجوية قبل بضع ساعات، لكن الناس يتدفقون إلى الطريق، مبتعدين عن البلدة. يسير عدد كبير منهم على الأقدام؛ أخذت عدة عائلات ممتلكاتها معلقة على الأكتاف، مربوطة بالملاءات؛ ولد يدفع دراجة عليها راديو هائل مربوط في حامل؛ رجلان يدفعان امرأة عجوزًا بينهما في ترولي مؤقت. الطرق قرب البلدة مثقلة بسيارات تطلق الأبواق. بدأ إلونجو، وهو يجلس متوقفًا في الشاحنة، يطرح أسئلة وهو يميل من نافذة الشاحنة: عرف أن الغارة الجوية فاجأت البلدة؛ لم يكن هناك إنذار أو تحذير. اختار الجميع التوجه إلى الريف لانتظار انتهاء المشكلة.

ركنا الشاحنة خلف محل ومشيا إلى داخل البلدة. راجعا كل مكان تصورا أن أليسون قد تذهب إليه - كانت البنوك خاوية ومعظم المحلات مغلقة. وقد ذهب مصفف شعر أليسون.

"أين يمكن أن تكون؟"

"ستكون بخير- لا تنزعج."

في طريق العودة إلى العزبة، أخذا طريقًا قادهما قرب محيط مهبط الطائرات. امتلأت ساحة المطار بأكوام معدنية ينبعث منها الدخان، لكن المدارج لم تمس. مرًا بهندي- ناظرٍ أخبرهما بأن هناك شائعة بأن القنابل اليابانية انطلقت بمساعدة جاسوس، خائن من القوات البريطانية.

سأل دينو بقلق: "هندي؟"

"لا - إنجليزي. رأيناه يُقتاد مقبوضًا عليه.

صُدِم دينو وشعر بارتياح في الوقت نفسه.

لم يذكر دينو أنه كان يخطط للمغادرة إلى بننج إلا حين عادا إلى منزل إلونجو. قرر تأجيل الرحيل؛ لم يكن يستطيع الرحيل بدون التأكد من سلامة أليسون. ذهب إلى مرننجسايد وجلس ينتظر.

جاءت سيارة أليسون إلى الطريق وقت الغروب تقريبًا، ودينو ينتظر بالباب. كان لإرتياحه لرؤيتها سليمة تأثير خلصه من كل قلق اليوم. صاح وهي تخرج من الرودستر: "أليسون... في أي جحيم كنت؟ غبتِ طوال هذا اليوم اللعين..."

باغتته: "وماذا عنك؟ أين كنت الليلة الماضية؟"

قال بتحدٍ: "في منزل إلونجو. كنتُ سأغادر... إلى رنجون."

ضحكتْ ضحكة واهية قاسية: "حظ سعيد، إذن. لنر إلى أين تذهب."

"ماذا تقصدين؟"

"كنتُ في بتروورث هذا الصباح. هناك فوضى على الطرق. لا أظنُّ أنك ستذهب بعيداً جداً."

"بتروورث؟ ماذا كنت تفعلين في بتروورث؟"

رفعتْ حاجبًا وقالت بصوت بارد: "شيء لا يخصك." تركتْه وصعدت السلم إلى غرفة نومها.

وقف دينو يستشيط غضبًا في الرواق بضع دقائق ثم تبعها على السلم. طرق الباب، وصوته مفعم بالندم: "أليسون... آسف... كنتُ قلقًا عليك فقط."

فتحت الباب، مرتدية سلِبًا أبيض من الساتان، وقبل أن يضيف كلمة أخرى، ألقتْ بذراعيها حوله: "أوه، دينو."

"أليسون... كنتُ مروَّعًا... غبْتِ طوال اليوم، مع القصف..."

"ما كان يجب أن تنزعج، كنتُ بخير- بعيداً عن القنابل. كانوا يقصفون الميناء وكنتُ في الناحية الأخرى من البلدة."

"لكن لماذا ذهبت إلى هناك على أية حال...؟ بطول الطريق إلى بتروورث؟ من أجل ماذا؟"

أخذتْ وجهه بين يديها وقبلَّتْه، ثم قالت: "أخبرك فيما بعد. دعنا لا نتكلم عن ذلك الآن. لنسعدْ بوجودنا معًا وبأننا بخير."

هوامش

(١) ألور ستار Alor Star: عاصمة ولاية كيداه فى ماليزيا. تقع على بعد ٩٥ كم إلى الشمال من بترورث، بننج، وعلى بعد ٤٥ كم من حدود ماليزيا مع تايلاند.

(٢) البوجينفيلا bougainvillea: نبات متسلق، يوجد فى أمريكا الجنوبية، له أوراق ملونة حول قاعدة زهوره.

(٣) كوتا بهارو: Kota Baharu.

(٤) بيرل هربور Pearl Harbor: خليج على المحيط الهادى على الساحل الجنوبى لأهايو. فى يوم الأحد الموافق ٧ ديسمبر ١٩٤١، هاجمت الطائرات اليابانية القاعدة، مدمرة ١٩ سفينة بحرية وحوالى ٢٠٠ طائرة. دخلت الولايات المتحدة الحرب فى اليوم التالى لهذا الهجوم.

(٣٣)

مضت عدة ساعات ولم تتلق الجات ١/١ كلمة من مركز القيادة الفرعى. بعد هبوط الليل مباشرة، وصلتْ قافلة من الشاحنات لنقلهم إلى موقع آخر. كان يمكنهم القول إنهم يسافرون شمالاً، لكن الجو كان شديد الظلمة ولا يرون شيئًا من الريف.

فى الفجر اكتشف أرجون أنهم عسكروا فى مزرعة مطاط. على بعد بضع مئات من الياردات بدا أن الأشجار الخضراء تتجمد فى جدار دائرى منزوع اللحاء. وأنه لا يوجد ضوء مباشر أو ظلال بين مظلة الأوراق الخضراء فوق وبساط الأوراق تحت الأقدام. وأن الصوت ينتقل متسكعًا بدون الكشف عن نقطة انبعاثه. بدا وكأنه استيقظ ليجد نفسه فى متاهة هائلة بُطِّنت أرضيتها وسقفها بحشو من القطن.

فى كلمة الصباح عرفوا أن الكتيبة تعسكر قرب منطقة جيترا(١)، قريبًا جداً من أقصى الطرف الشمالى لولايات الملايو الفيدرالية. حيث تضيق شبه الجزيرة إلى عنق رفيع، مشكلة جسراً بين الملايو وسيام: أى جيش يتقدم من الشمال ينحشر فى هذا الممر الضيق بحيث يمكن التضييق على أى تقدم باتجاه الجنوب على أفضل وجه. تمركزت الجات ١/١، مع عدة كتائب أخرى بطول الطريق السريع بين الشمال والجنوب. كان من المتوقع أن يتقدم اليابانيون بطول هذا الطريق. وهكذا دفعت الصدفة الجات ١/١ إلى الخط الدفاعى الأول.

كان أرجون قائد السرية ج فى الكتيبة؛ تعسكر على بعد بضع مئات من الياردات إلى اليسار من الطريق السريع بين الشمال والجنوب. وكان هاردى مع السرية د، على

الجانب البعيد من الطريق. وكان يحيط بهم فوج ليسترشاير[٢] من ناحية والبنجاب الرابع عشر من الناحية الأخرى.

كانت المهمة الأولى حفر خنادق، وأثبتت التضاريس، مرة أخرى، أنها مراوغة. كان الحفر في التربة الطينية الناعمة سهلاً لكن كان رفع دعامات عليها صعباً. تسربت المياه الجوفية في أعماق غير متوقعة. بدأت الأجهزة اللاسلكية تعمل بشكل سيئ ونسبت المشكلة للبيئة: تبين أن الأشجار تعوق استقبال موجات الراديو. ولم يكن من الممكن الاعتماد على الرُسُل: كانوا يضلون طريقهم نتيجة الارتباك في المتاهة الهندسية للمزرعة.

ثم ظهرت الأمطار. نقَّطتْ باستمرار مما عزز الانطباع بأنهم محاصرون في قفص مبطَّن. رأى الجنود، وهم يتطلعون إلى أعلى، المطر يتدفق من السماء. وحين تصلهم المياه، تتباطأ الزخات إلى رذاذ مستمر. استمرَّ التنقيط فترة طويلة بعد توقف المطر. نظروا إلى أعلى فرأوا السماوات صافية؛ إلا أن المطر تحت، حيث يوجدون، لا يزال يتساقط، استمرَّ بشكل مزعج. كأن مظلة الأوراق فراش مبلول، يفرغ ما فيه من ماء ببطء.

مع تحول التربة إلى وحل، بدأت السيارات الجيب واللوري تنزلق بشكل لا يمكن السيطرة عليه. تبين أن المركبات مزودة بإطارات للسير على الرمال، لتستخدم في صحاري شمال أفريقيا. صدرتْ أوامر بمنعها من دخول المزرعة: كان يجب حمل الإمدادات سيراً على الأقدام.

بعد ظهيرة اليوم الثاني، جاء هاردي يجري ووقع في خندق. عرف أرجون من وجهه إنه محمَّل بأخبار.

"ماذا حدث؟"

"سمعت شائعة للتو."

"ماذا؟"

"حدثت مشكلة فى حيدر أباد الأولى فى كوتا بهارو."

"أية مشكلة؟"

"بعد الهجوم الأول لليابان حدث هلع فى مهبط الطائرات. كان الطيارون استراليين وقد تركوا المكان بسرعة. وأراد ضباط الصف الخروج أيضاً فلم يسمح لهم القائد. تمرَّدوا، وأطلقوا النيران على ضابطين. جُرِّدوا من أسلحتهم وتم توقيفهم. سيُرسَلون إلى بننج كقوة عمل."

تفحص أرجون خندقه وهو يتطلع بقلق فى وجوه رجاله: "الأفضل أن تحتفظ بذلك لنفسك، هاردى."

"فكرت فقط فى أن أطلعك على الأمر."

كانت قيادة الكتيبة فى أعماق المزرعة، خلف سرية أرجون بكثير. فى وقت متأخر من اليوم الثانى، ركَّبَ مهندسو الإشارة خط تليفون. وكانت المكالمة الأولى من الكابتن بيرسون.

"اتصال؟"

قال أرجون: "لا شيء بعد." انتهى اليوم بصورة لا يتخيلها عقل تقريبًا، تعمق الحزن ببطء فى الظلام المنقط الرطب. فى اللحظة ذاتها، اخترق الجدارَ الذى أمامهم وميض أحمر.

قال الهفيلدار(٢): "قناص! تحت، صاحب، تحت." تطلع إلى الأمام فى المياه الواصلة إلى الكاحل فى قاع الخندق. كانت هناك طلقة أخرى ثم أخرى. تلمس أرجون طريقه إلى التليفون فوجد الخطَّ ميتاً.

انتشر وميض نيران البنادق فى الظلام المحيط. انطلقت الطلقات على فترات غير منتظمة، بينها ضرب باهت لمدافع الهاون ورذاذ ضوء البنادق الآلية. إلى اليمين، من الاتجاه الذى يتمركز فيه هاردى، جاء صوت مدفع برنْ. وقد جلب لحظة ارتياح فقط، لأن أرجون لاحظ فجأة، بإحساس غامض غريب فى بطنه، أن البرن يطلق النار من مسافة بعيدة جداً: كأن الرجال أصابهم هلع شديد منعهم من تذكر الاندفاعات المنظمة التى حاول هاردى غرسها فيهم أثناء التدريب على السلاح.

ظهر أن قنَّاصى الأعداء يتحركون متمركزين بحرية حول موقعهم. بمرور الوقت بدا الخندق مصيدةً لا ملاذاً: تنعدم تماماً القدرة الدفاعية حين يحاصرك خصم متحرك وأنت فى موضع ثابت. حين ردُّوا على النيران، بدا أنهم يطلقون عشوائيًّا، كأن حيوانًا مقيَّداً يلف فى نهاية مقوده، ناهشاً فى طاغية غير مرئى.

استمرَّ تنقيط الأشجار بلا توقف فى الليل. رأوا بعد الفجر مباشرة طائرة استطلاع يابانية تحلق فوق الرؤوس. بعد نصف ساعة طارت طائرة أخرى على ارتفاع منخفض فوق خطوطهم. تركت وراءها كمية أوراق تطايرت ببطء من السماء، مثل سرب كبير من الفراشات. استقرَّ معظم هذه الأوراق على قمم الأشجار، لكن بعضها تساقط على الأرض. أمسك كيشان سنجه ببعضها، قدَّم واحدة لأرجون واحتفظ باثنتين له.

رأى أرجون أنه منشور، مكتوب بالهندوستانية ومطبوع بالحروف الدفانجارية(٤) والحروف العربية. كان التماساً موجهاً للجنود الهنود بتوقيع أمريك سنجه(٥) من جمعية الاستقلال الهندية. بدأ النص: **أخوانى، اسألوا أنفسكم من أجل ماذا تقاتلون ولماذا أنتم هنا: هل تريدون حقًّا التضحية بحياتكم من أجل إمبراطورية استعبدت بلادكم مائتى سنة؟**

سمع أرجون كيشان سنجه يقرأ المنشور بصوت عال للآخرين فاندفع الدم فى رأسه. صاح: "أعطنى ما معك." كوم المنشورات ودفنها تحت كعبه فى الطين. قال بحدة: "كل من يوجد معه منشور سيحال إلى مجلس عسكرى."

بعد دقائق وبانفجار عنيف يشبه حائط صوت يتحرك، فتحت المدفعية اليابانية الثقيلة نيرانها. تساقطت القذائف الأولى على قمم الأشجار، وأسقطتْ وابلاً من الأوراق والغصون الصغيرة. وبعد ذلك تحركت الانفجارات، ببطء، فى اتجاههم. ارتجت الأرض بقوة فاندفعت المياه إلى قاع الخندق وتناثرتْ على وجوههم. رأى أرجون شجرة مطاط ارتفاعها خمسون قدمًا ترتفع برشاقة من الأرض وتقفز عدة أقدام فى الهواء قبل أن تتشقلب باتجاههم. انبطحوا فى قاع الخندق فى الوقت المناسب لابتعاد عن طريقها.

استمر القصف ساعات بدون توقف.

***

كانت منجو مستغرقة فى نوم عميق حين هزَّها نيل ليوقظها. تقلبت فى ذهول. بدا كأن أسابيع انقضت على آخر مرة رأت فيها النوم. كانت جايا تعانى من مغص وكثيراً ما تصرخ لساعات. ولم يكن شىء يوقفها حين تبدأ. حتى أن ماء وودورد للمغص[٦] كان تأثيره ضئيلاً: كانت ملعقة كبيرة تجعلها تروح فى غفوة خفيفة، وبعد ساعة أو اثنتين تستيقظ مرة أخرى، وتصرخ أشدَّ مما كانت.

نظرت منجو إلى سرير جايا ورأتها لا تزال نائمة. دعكتْ عينيها وابتعدتْ عن نيل. لم تستطع إخفاء انزعاجها من إقلاقه لها. قالت: "ما هذا؟ لماذا أيقظتنى؟"

"اعتقدْتُ أنه يجب أن تعرفى..."

"ماذا؟"

"دخل اليابانيون الحرب."

"أوه؟" لم تفهم ماذا يمكن أن تفعل باستيقاظها.

"غزوا الملايو."

تبيَّنَ كل شيء فجأة. نهضتْ: "الملايو؟ أرجون؟ دينو؟ هل هناك أخبار؟"

هزَّ نيل رأسه: "لا. لا شيء بشكل مباشر. لكن الراديو قال شيئًا عن اشتراك الفرقة الحادية عشرة. أليست فرقة أرجون؟"

تلقتْ خطابًا من أرجون منذ أسبوع فقط. لم يتكلم كثيرًا عن نفسه- فقط إنه بخير ويفكر فيها. في معظم الخطاب، سأل عن جايا وعن صحتها. ذكر أيضًا أنه التقى بدينو وأنه بخير- وسعدتْ دلّي بسماع ذلك.

سأل نيل: "أما زال خطاب أرجون معك؟"

"نعم." قفزتْ منجو من السرير وذهبت لإحضار الخطاب.

قال نيل: "هل يقول الخطاب شيئًا عن فرقته؟"

قفز الرقم ١١ إليها فورًا من ثنايا الصفحة؛ قالت: "نعم. إنها فرقته." نظرت إلى زوجها وعيناها مليئتان بالدموع.

وضع نيل ذراعه حول كتفيها وضمَّها بقوة. قال: "لا سبب يدعو للقلق. بقدر ما يمكن أن أستنتج، مركز قيادة الفرقة الحادية عشرة قريب جداً من مرننجسايد. سوف يخبرنا دينو بما يحدث."

ثم استيقظت الطفلة. حينذاك، للمرة الأولى، امتنت منجو بمشاكسة جايا. لم يترك لها صراخها الذي لا يتوقف وقتًا للتفكير في شيء آخر.

في مساء ذلك اليوم زارهم عضو بارز في الجالية الهندية في رنجون- محام اسمه صاحب زادا بدر الدين خان. وتصادف أن الأسرة كلها كانت في البيت عند وصول الزائر.

كان مستر خان قلقًا وجاء يطلعهم على بعض الأخبار. حضر لقاء لعدد من أبرز هنود المدينة. قرروا تشكيل لجنة لإخلاء اللاجئين. ساد شعور بأنه فى حالة تقدم اليابانيين إلى بورما سيكون السكان الهنود عرضة للهجوم من الجبهتين – سيكونون عزلاً أمام القطاعات المعادية من الشعب البورمى بالإضافة، وهو الأفظع، كرعايا للإمبراطورية البريطانية، سيعاملهم اليابانيون كغرباء أعداء. وقد عبر عدد كبير من أعضاء الجالية عن مخاوفهم من كارثة وشيكة: كان هدف اللجنة إخراج أكبر عدد ممكن من الهنود من بورما.

ذهل رجكومار حين عرف بهذه الإجراءات. كان فى حالة مزاجية متفائلة على الرغم من الأخبار الجديدة. اكتشف للتو أن أحد أصدقائه أبرم عقداً لمد طريق طويل يربط بورما بالصين. كان يثق تمامًا من قدرته على بيع مخزونه من الخشب بالسعر الذى يأمل فيه.

تدخل رجكومار بضحكة غير مصدِّق: "ماذا؟ تقصد أنكم ستهربون من بورما – لأن اليابانيين غزوا الملايو؟"

"حسنًا، نعم. يشعر الناس..."

خبط رجكومار صديقه على ظهره: "هراء، خان. لا تساير مروجى الشائعات. الملايو بعيدة جداً عن هنا."

قال مستر خان: "ومع ذلك، لا عيب فى أن نستعد– خاصة حين يكون هناك نساء وأطفال..."

هزَّ رجكومار كتفيه. "حسنًا، خان، افعل ما تراه الأفضل. لكننى أعتقد أنها فرصة كبيرة–"

رفع مستر خان حاجبه: "فرصة! كيف ذلك؟"

"لا لغز في ذلك، خان. وأمريكا في الحرب، سيكون هناك مزيد من الأموال للاستعدادات الدفاعية. بورما أساسية لبقاء الحكومة الصينية في شُنْجكنج: سيكون الطريق بين الشمال والجنوب خط الإمداد الرئيسي لهم. أراهن أن الطريق سيبنى بأسرع مما توقع أي شخص."

"وإذا حدث هجوم؟"

هزَّ رجكومار كتفيه. "مسألة مستحيلة، خان. أفهم سبب رغبتك في الرحيل. لكن بالنسبة لنا الوقت مبكر جداً. قضيتُ وقتًا طويلاً وأنا أعدُّ لهذا ولن أرحل الآن."

طمأنتْ كلمات رجكومار منجو إلى حد بعيد. شعرتْ بارتياح شديد حين عرفتْ أنها لن ترحل إلى أي مكان. كان التغلب على صراخ جايا صعبًا بما فيه الكفاية في البيت؛ لم تتخيل ما قد يكون عليه الوضع في ظروف أسوأ.

***

في الصباح، أحضر عدَّاء رسالة إلى خندق أرجون، من مركز قيادة الكتيبة: كان عليهم التراجع إلى خط أسون(٧) – شريط من حصون دفاعية بطول نهر، بضعة أميال على الطريق. حين أصدر أرجون الأمر بالتحرك، حدث ترحيب صامت. شعر في نفسه أنه يشاركهم – أي شيء أفضل من البقاء محصورين في ذلك الخندق.

أخذوا طريقهم خلال المزرعة في نظام جيد، وحين وصلوا إلى الطريق تبين أن الانسحاب تحول بسرعة إلى تراجع متهور. ظهرت على الرجال علامات قلق والشاحنة خلف الشاحنة تمر بهم، مكتظة بقوات من وحدات أخرى. ظل أرجون معهم مسافة طويلة ليراهم في شاحنة ثم قفز في سيارة جيب مع هاردي.

قال هاردى بصوت منخفض: "يار، هل سمعْتَ؟".

"ماذا؟"

"أغرق اليابانيون أمير ويلز وريبلس[٨]."

نظر إليه أرجون غير مصدق. كانتا اثنتين من أقوى السفن الحربية التى صُنِعتْ، فخر الأسطول البريطانى: "مستحيل. لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً."

"صحيح - جريت إلى كومار؛ أخبرنى." أضاءت ابتسامة بهجة وجهه فجأة. "لا يمكن أن أنتظر لأخبر بيرسون: أريد أن أرى النظرة على وجه اللقيط..."

صاح أرجون: "هاردى، هل جننْتَ؟"

"لماذا؟"

"هل نسيْتَ أن السفينتين كانتا هنا للدفاع عنا؟ نحن جميعًا فى خندق واحد، هاردى. الطلقة اليابانية لا تفرق بينك وبين بيرسون..."

نظر إليه هاردى فى هلع، وللحظة نظر كل منهما للآخر بذهول متبادل. قال هاردى: "أنت مصيب، بالطبع. لكن تعرف..."

قال أرجون بسرعة: "لنكف عن الحديث فى هذا الموضوع."

حين وصلوا إلى نهر أسون، سكتت المدفعية اليابانية بشكل غير قابل للتعليل. ممتنين للمهلة، أخذت الجات ١/١ مواقعها بجوار الطريق، وظهورهم للنهر. هناك كان الطريق السريع بين الشمال والجنوب يجرى بطول جسر، حيث تمتد أعمدة سميكة من المطاط على الجانبين على امتداد البصر. تركزت الكتيبة كلها فى مكان واحد، للدفاع عن الأماكن القريبة من النهر. واصطفت مركباتهم بعيداً عن الطريق، بطول منحدرات الجسر.

رأى أرجون هاردى يخرج إلى الطريق فذهب لينضم إليه. وكان المقدم بكلاند على بعد خطوات قليلة، عند مركز مؤقت لقيادة الكتيبة. كان مع الكابتن بيرسون، يتفحص خريطة.

توقف أرجون فى منتصف الطريق للتشاور مع هاردى. قال: "لماذا توقفوا، فى رأيك، عن القصف؟"

قال هاردى: "يبدو أنهم يتراجعون أحيانًا. تَصعُب معرفة السبب."

"ألا تعتقد أن السبب يرجع إلى أن دروعهم تتحرك، أليس كذلك؟"

سخر هاردى من هذا الكلام: "أية دروع؟ لا أحد منا لديه دبابات- سواء هم أو نحن. ليست هذه بلاد دبابات."

"هذا ما قيل لنا. لكن..." فى مكان ما بعيد دوى صوت. التفَّا على الكعوب لينظرا إلى الطريق. كان وقت الغروب تقريبًا. انقشعت السحب لحظة وصارت السماء قرمزية صافية. كان الطريق السريع يجرى مستقيمًا مسافة مائتى ياردة قبل أن يختفى حول منعطف: ارتفعتْ أشجار المطاط على جانبيه، ملتقية تقريبًا عند القمة لتشكل قوسًا. الطريق خالٍ: لم يكن أمامهما شىء.

تنهد هاردى ارتياحًا. رفع كمه إلى جبهته: "أفزعنى ذلك... قلتُ لك- هذه ليست بلاد دبابات: علينا أن نكون متأكدين من ذلك، حمداً للرب."

بعد لحظة استدارت دبابة فى ركن، بصوت هائل لخطواتها المعدنية. على قمة برج الدبابة، المرتفعة فى السماء، ظهر رأس مدفعى بخوذة. كان برج الدبابة يدور على محور فى اتجاههما حتى صارت فوهته عينًا واحدة مستديرة. ثم ارتجت الدبابة وتحولت عينها الغائرة إلى اللون الأحمر المتوهج. فى قاع الجسر، انفجر خزان بترول وقفزت شاحنة حمولة نصف طن قليلاً وانفجرت مشتعلة.

تسمر أرجون مكانه لحظة. لا شيء فى تدريبه أعده لهذا. دفعه تذكر مبهم لمهام غير منجزة إلى أن يستدير ويجرى فى الطريق عائداً إلى سريته، ليحثهم على نصب حائط النيران الذى تحدث عنه القائد فى التعليمات الأخيرة. لكن القائد قال صراحة لن تكون هناك دبابات - وعلى أية حال، رحل القائد، نزل إلى جانب الجسر مع الكابتن بيرسون. على جانبى الطريق السريع، تناثر الرجال فى المزرعة، يجرون بحثًا عن غطاء.

جاء صوت هاردى، وقد دفعه إلى اليقظة: "اجرِ أرجون!. "اجرِ، اجرِ."

اندفع وسط الطريق مثل أيل مروَّع، وأول دبابة فوقه تقريباً، كانت قريبة حتى أنه استطاع رؤية عينى الرجل الذى فى البرج، محجوبتين بعدستين شمسيتين سميكتين. قفز، ملقيًا بنفسه على جانب الجسر، واندفع إلى جانب الطريق ليرى بوضوح جيب القائد تحترق. ثم حشد طاقته وجرى إلى الأشجار: فجأة كان داخل نفق من النباتات الخضراء، وقدماه مدثرتان ببساط من الأوراق المتساقطة.

تلاشى وضوح الرؤية الذى تملكه مؤقتًا وهو يقف فى منتصف الطريق. حلَّ مكانه إلحاح أعمى لا يميز. من المحتمل تمامًا أنه يتجه مباشرة إلى شبكة من البنادق اليابانية. لكن حتى لو عرف أن الأمر بهذا الشكل، ما كان ليتوقف. كأن نفَسه ودمه انصهرا معًا ليقرعا دماغه بانسجام، يلحان عليه، ويدفعانه للجرى فى هذا الاتجاه.

جرى عدة ياردات بدون توقف. ثم، مستنداً على جذع شجرة، التفتَ لاهثًا ينظر خلفه: كانت الأشجار ساقطة فى خط رؤية فى نهايته امتداد صغير لطريق واضح، مطوق بإطار مستدير، كأنه ينظر فى تليسكوب. رأى دبابة وراء دبابة تندفع فى الطريق السريع. بجوار جانبى الجسر كانت مركبات الجات ١/١، انقلب بعضها واشتعلت النيران فى بعضها.

كان فهم المشهد مستحيلاً. لم يعثر على وسيلة لتفسير ما حدث، ولو لنفسه. هل هذا المقصود بتعبير "دحره"- هذه الفوضى من الخوف والإلحاح والعار؛ هذا

الإحساس المضطرب بالانهيار فى رأس المرء، كأن روافع الاستجابات التى غرستْها سنوات التدريب التوتْ وسقطتْ؟

انتابتْ أرجون رؤية مؤلمة لمركز قيادة كتيبتهم فى سهارنبور: تذكر البناية التى يسمونها "الحضانة"- البنجلو الطويل المنخفض الذى يضم ميس الضباط. فكر فى اللوحات الثقيلة ذات الأطر المذهَّبة المعلقة على الجدران، مع الرؤوس المتطية لجاموس وبقر وحشى؛ الرماح والسيوف والحراب المريشة التى عاد بها أسلافه كغنائم من أفريقيا، وبلاد ما بين النهرين وبورما. تعلم أن يعتبره بيتًا ويعتبر الكتيبة عائلة ممتدة- عشيرة تربط ألف رجل معًا فى هرم من الفصائل والسرايا. كيف ينهار هذا المبنى الذى بنى منذ قرون مثل قشرة بيضة مع أول ضربة حادة- وفى ساحات معارك غير مألوفة، غابة زرعها رجال الأعمال؟ هل الغلطة غلطته؟ هل صحيح، إذن، ما قاله الرجال الإنجليز الأقدم: إن الهنود سيدمرون الجيش إذا صاروا ضباطًا؟ كوحدة مقاتلة لم تعد الجات ١/١ موجودة: كان ذلك على الأقل لا يعتريه شك. على كل رجل من الكتيبة أن يحافظ على نفسه.

ترك حقيبته فى الجيب، على النهر: لم يخطر بباله أنه سيجرى إنقاذًا لحياته بعد دقائق من النزول منها. كل ما كان معه ويبلى[٩] عياره ٤٥، وزجاجة الماء وحزام به حقيبة صغيرة فيها بعض النثريات.

تلفت حوله. أين هاردى؟ أين القائد والكابتن بيرسون؟ لمحهم قبل ذلك، وهو يجرى إلى المزرعة. لكن فى الظلمة المتراكمة لم يعرف ما يقع أمامه.

من المؤكد أن المشاة اليابانيين ينظفون خلف دباباتهم، يمشطون المزارع. من المحتمل أن يكون مراقَبًا حتى وهو يقف هناك، من خلال واحد من مئات خطوط الرؤية التى تتلاقى بدقة فى البقعة التى يقف فيها.

ماذا يفعل؟

هوامش

(١) جيترا Jitra: بلدة فى ولاية كيداه، ماليزيا. أثناء الحرب العالمية الثانية، حين هاجم اليابانيون الملايو، كانت جيترا من الخطوط الدفاعية الرئيسية التى أقامها البريطانيون، وقامت هناك واحدة من أعنف المعارك.

(٢) ليسترشاير Leicestershire: نسبة إلى منطقة فى وسط إنجلترا.

(٣) الهفيلدار havildar: رقيب فى الجيش الهندى.

(٤) الدفانجارية Devanagari: أبجدية تكتب بها السنسكرتية وعدد من اللغات الهندية الحديثة.

(٥) أمريك سنجه: Amreek Singh.

(٦) ماء وودورد للمغص Woodward Gripe Water: دواء لعلاج المغص كان ينتج في المملكة المتحدة

(٧) أسون: Asoon.

(٨) أمير ويلز: Prince of Wales؛ ريبلس: Repulse.

(٩) ويبلى: Webley.

(٣٤)

كان الذهاب إلى جننج جراى فكرة أليسون. تركت هى ودينو المنزل قبل الغروب بكثيـر فى الدايتونا، وأخذا الطريق الذى يلتف حول الجبل. بدت الكَمْبُنْج مهجورة، أدى الهلع فى النهار إلى هدوء مذهل. لم يكن فى الأسواق أناس على مدى البصر. انطلقتْ أليسون بسرعة كبيرة.

قضيا وقتًا طيبًا واستدارا على طريق القمة ولا يزال هناك كثير من الضوء. حين بدأ الصعود، ارتفع صوت السيارة إلى عواء حاد مستمر. ظهر الشفق على المنحدرات نتيجة الغطاء الكثيف من الأشجار. وكان على أليسون إضاءة المصابيح الأمامية.

كانت الملفات على الطريق حادة جداً. وصلا إلى منعطف يلتف للخلف حول نفسه، مرتفعًا إلى أعلى بزاوية حادة. وقفت أليسون وناورت بالسيارة لتجتاز الملف. وهما يخـرجـان من الركن، تطلعـا إلى أعلى فى الوقت ذاته. بدا أن السـمـاء فـوق الأفق الشمالى أظلمت ببقعة- سحابة من ضربات فرشاة صغيرة أفقية. توقفت أليسون تمامًا، وحدَّقا- مضت عدة دقائق قبل أن يدركا أنهما يريان سرب طائرات تتجه إليهما مباشرة، من الشمال. كانا يواجهان مركبة هوائية مباشرة وبدت الطائرات ثابتة فى الصورة، ولا يدل على تقدمها إلا سُمْك أشكالها الذى يتزايد تدريجياً.

أدارتْ أليسون السيارة مرة أخرى، وسارا بسرعة فى الطريق. لاح النزل أمامهما فى الظلام المتراكم. كان خاويًا، مهجوراً. ركنا السيارة تحت الرواق وصعدا إلى

الفراندة التى تلتف حول البناية. كانت الطاولات موضوعة بطولها، مغطاة بمفارش بيضاء، ومثقلة بطفايات سجائر. وكانت الأطباق موضوعة فى الخارج كأن هناك توقعاً لحشد قادم للعشاء.

شعرا بأزيز قاذفات القنابل المقتربة تحت أقدامهما، فى الألواح المهتزة فى الأرضية الخشبية. كانت الطائرات قريبة جداً، تطير على ارتفاع منخفض. وهما يشاهدان، انقسم السرب فجأة إلى اثنين، افترقا حول الجبل مثل جدول يتدفق بجوار صخرة. انحرف سرب، هابطًا بحدة، باتجاه منحدر الجبل المواجه للبحر فى ممر طيران أعد لبترورث وبننج. واتجه السرب الآخر إلى سنجى بتانى، على الجانب المواجه للأرض.

مدَّتْ أليسون يدها إلى يد دينو وبدآ يتمشيان فى البلكونة، شاقين طريقهما بين طاولات الطعام. كانت مفارش الطاولات ترفرف فى النسيم والأطباق مغطاة بطبقة رقيقة من الغبار.

فى ذلك اليوم لم تكن هناك سحب. بعيداً تحت، فى الشفق المعتم، بدت جزيرة بننج مثل سرب من الأسماك يطفو على البحر؛ إلى الجنوب الشرقى تقع سنجى بتانى، رمث صغير للسكن، ملقى فى محيط من أشجار المطاط. كانا يريان الطرق وخطوط السكك الحديد، تبرق فى الشعاع الأخير من ضوء النهار. بدا المشهد الطبيعى خريطة منشورة للعيان تحت الأقدام.

هبطت الطائرات استعداداً لإلقاء القنابل. كانت سنجى بتانى أقرب الأهداف وأول ما ضرب. اشتعلت الانفجارات فى المشهد الطبيعى المظلم، متقاربة جداً فى خطوط مستقيمة مثل صفوف من غرز تلمع فى قماش عليه حبر.

سارا حول الفراندة، تطلعا إلى مفارش الطاولات ومرَّرَا الأصابع على الأطباق المغطاة بطبقة من الغبار. شاهدا سحابة أخرى من الطائرات تقترب؛ على الجانب المواجه للبحر، كانت قاذفات القنابل تغوص فوق ميناء حصن بترورث. فجأة انطلق برج هائل من اللهب من الشاطئ، ارتفع مئات الأقدام في السماء؛ كان الانفجار الذى تلاه قويًا وقد هزَّ كل أطراف الجبل.

ارتمتْ أليسون على دينو: "أوه ربى! ضربوا خزانات الزيت فى بترورث."

دفنت وجهها فى صدر دينو، تشبثتْ بقميصه، مكومة القماش فى قبضتيها: "سرْتُ بجوارها، منذ أيام فقط."

ضمَّها دينو بقوة. "أليسون، لم تخبرينى بعد عن سبب غيابك..."

مسحتْ وجهها فى قميصه وابتعدتْ عنه: "أعطنى سيجارة."

أشعل دينو سيجارة ووضعها بين شفتيها. "حسنًا؟"

"ذهبْتُ إلى طبيب، دينو - طبيب لا يعرفنى."

"لماذا؟"

"اعتقدتُ أنى قد أكون حاملاً."

"و؟"

"لستُ حاملاً."

قال دينو بهدوء: "وماذا إذا كنت حاملاً، أليسون. هل كنت تريدين أن يكون الطفل ابن أرجون؟"

"لا." ألقتْ بذراعيها حوله، وشعر بها تنتحب فى قميصه.

"دينو، آسفة. آسفة جداً، جداً."

"علي ماذا؟"

"على كل شيء، دينو. على الذهاب بعيداً في ذلك اليوم- مع أرجون. كان خطأ- خطأ فظيعًا، فظيعًا. لو عرفتَ فقط، دينو..."

أسكتْها بوضع إصبعه على شفتيها: "لا أريد أن أعرف... مهما يكن ما حدث... لا أريد أن أعرف. تلك أفضل طريقة... لنا. لسنا في حاجة للحديث عن أرجون مرة أخرى."

أوقفه وميض ضوء انفجار أضاء كل بلدة سنجي بتاني. سلسلة انفجارات أقل يتبع كل منها الآخر، مثل سلسلة ألعاب نارية.

قالت أليسون: "مستودع الأسلحة". نزلتْ برأسها إلى ركبتيها وحشرته في فجوة بين أعمدة الفراندة، وأمسكتْ الأعمدة الخشبية بقبضتيها: "لابدَّ أنهم ضربوا مستودع الأسلحة."

ركع دينو بجوارها. قال بإلحاح وهو يمسك بكتفيها: "أليسون، مؤكد... عليك أن تبعدي. مع دخول اليابان وأمريكا الحرب، أنت في خطر هنا. أمك أمريكية... وأخوك مازال يعيش هناك... لا يمكن التنبؤ بما يحدث لو قرر اليابانيون مواصلة التقدم. عليك أن تبعدي."

"لكن إلى أين؟"

"إلى سنغافورة؛ ستكونين في مأمن هناك. محصنة جيداً. ونحن هنا قريبون جداً من الحدود... وعليك أن تأخذي جدك معك. عليك أن ترحلي."

هزتْ رأسها بعنف: "لا أريد. لا أريد أن أذهب."

"أليسون، لا يمكن أن تفكري في نفسك فقط."

"أنت لا تفهم، دينو- أنا حيوان إقليمي. أفضِّل الحصول على القليل ولا أتخلى عما هو لي."

قبض دينو على يديها وهزَّهما: "أليسون، استمعي إليَّ. عليك أن تفعلي ذلك... من أجل جدك، إن لم يكن من أجلك."

"وماذا عن العزبة؟"

"يديرها إلونجو وأنت بعيدة... ترين... يمكن أن تثقي فيه، تعرفين ذلك."

"وأنت- ستأتي معنا، بالطبع. أليس كذلك؟"

"أليسون، يجب أن أعود إلى بورما... أسرتي... قد يحتاجون إليَّ الآن."

"لكن يمكن أن تأتي معنا إلى سنغافورة أولاً؛ ربما تجد سفينة هناك. قد يكون ذلك أسهل."

توقف دينو ليفكر: "ربما تكونين على حق. نعم... سآتي."

مدَّتْ يدها إلى يديه: "لا أعتقد أني أحتمل الذهاب بدونك. وخصوصاً الآن."

"لماذا الآن؟"

غرست جبهتها في صدره: "لأني أعتقد أني أحبك، دينو- أو شيئًا من هذا القبيل على أية حال. لم أعرف ذلك من قبل، لكني أعرفه الآن."

شدَّها إليه أكثر. لم يهتم بما حدث بينها وبين أرجون؛ لا يهم إلا هذا - تحبه ويحبها. لا اعتبار لشيء آخر، سواء الطائرات أو القنابل، لا شيء إلا هذا. هذه هي السعادة - لم يعرفها أبداً من قبل؛ هذا الذوبان، هذا الشعور، انسكاب أمعائك في

رأسك، مائلة عينيك – تحول ذهنك إلى جسمك، غريزة جسمك مع بهجة ذهنك؛ وصل هذا الإحساس بالواقع إلى نهايته.

***

أظلم الجو بالفعل تحت أشجار المطاط مع أن الغروب يتبقى عليه بضع دقائق. استمع أرجون إلى شكاوى كثيرة من التضاريس فى آخر بضعة أيام، لكنه لم يدرك تمامًا إلا حينها الخداع المميز للمنطقة المحيطة به. انتابه إحساس غريب بأنه يسير فى صورة ابتُكِرتْ لخداع العين. بدت أنفاق الأوراق من حوله ساكنة وخالية أحيانًا، وبعد لحظات بدت مفعمة بالحركة. مع كل خطوة، بدا أن صورًا وأشكالاً تظهر وتختفى وصفوف الأشجار تسقط فى النظام أو تخرج عنه. تُقدِّم كل شجرة مقوسة برشاقة وعدًا بالتغطية، ولا توجد نقطة لا تتقاطع تمامًا مع خط نارٍ.

عرف أرجون أن كثيرًا من الآخرين لاذوا بالمزرعة؛ شعر بوجودهم من حوله أحيانًا. سمع من حين لآخر همساتٍ أو وقعَ أقدامٍ، يتردد صداها فى دهاليز طويلة مستقيمة تمتد مبتعدة عنه فى كل اتجاه. سمع أحيانًا صوتًا، فى مكان ما قريب منه، فاستدار ليجد أنه داس على غصن مختبئ تحت بساط الأوراق الميتة على الأرض. كان من المستحيل التمييز بين شكل وظلال، أو بين حركة وسكون– بدا الواقع والوهم متشابكين تمامًا.

بالضبط والشفق يتحول إلى ظلام، سمع نقرة أمان: "كُونْ هِيْ؟ من أنت؟"

بدا الصوت مألوفًا، لكن أرجون انتظر حتى سمع الهمس مرة أخرى: "كُونْ؟"

فى هذه المرة كان متأكدًا: "كيشان سنجه؟"

"صاحب."

خطا أرجون خطوتين إلى اليمين ليجد نفسه وجها لوجه مع المراسلة: "كيف عثرت علىَّ؟" ردَّ على تحية كيشان سنجه برزانة، محاولاً ألا يكشف تمامًا عن مدى إحساسه بالارتياح.

قال كيشان سنجه: "أرسلنى بكلاند صاحب."

"أين هو؟"

"هناك؟"

تبين أن كيشان سنجه هرب إلى المزرعة مع مجموعة أخرى من الكتيبة. نجحوا فى البقاء معًا أثناء الاضطراب الذى تلى هجوم الدبابات اليابانية. وفى النهاية التقوا بهاردى كما التقوا بالمقدم بكلاند. وكان الكابتن بيرسون لا يزال مفقودًا. وكانوا ينظرون ليروا إن كان فى استطاعتهم الالتقاء بأى شخص آخر.

كان المقدم بكلاند يجلس وظهره يستند على جذع شجرة، وذراعه اليمنى معلقة من عنقه بشكل مرتجل. ردَّ على تحية أرجون بإيماءة وإشارة بسيطة من يده اليسرى.

"سعداء بعودتك إلينا، أيها الضابط."

سعد أرجون بسماع صوته الساخر مرة أخرى. ابتسم: "وأنا أيضًا سعيد برؤيتك، سير. ماذا أصاب ذراعك؟"

"مجرد كشط – وقد تمت معالجته. لحسن الحظ معنا ممرض." ابتسم المقدم بكلاند لأرجون ابتسامة جامدة: "اجلس، روى. لا حاجة للالتزام بالمراسيم الآن."

"شكراً، سير." نظَّف أرجون مكاناً لنفسه على بساط الأوراق الميتة.

قال المقدم بكلاند: "ستسعد حين تعرف أن هاردى فعلها أيضاً. أرسلتُه للبحث عن ماء. إنه ناقص تماماً."

"حدث الأمر بسرعة كبيرة، سير."

"نعم، بدون شكٍّ، أليس كذلك؟" تلاشى صوت المقدم بكلاند. وحين تكلم من جديد جاء صوته أجشاً، خشناً، تمييزه مستحيل تقريباً.

قال: "أخبرْنى، أيها الضابط، هل تعتقد أنى تخاذلت؟"

فى نبرته شيء حرك أرجون. قال بحماس: "لا، سير. لم يكن هناك ما يمكن أن تفعله، سير."

"هناك دائماً شيء يمكن للمرء أن يفعله."

"لكن ماذا كان يمكن أن تفعل، سير؟ لم يكن معنا أى دعم جوى. لم نكن نعلم بوجود الدبابات. ليست غلطتنا، سير."

"إذا كنْتَ فى قيادة، فهى غلطتك دائماً."

سكتا مرة أخرى لحظة، ثم قال المقدم: "هل تعرف ما كنتُ أفكر فيه، روى؟"

"سير؟"

"*الحضانة* – فى سهارنبور. أتذكر حين شُيِّدتْ. كان أبى القائد فى ذلك *الوقت*، تعرف – والجات١/١ لا يزال اسمها الكتيبة الملكية. سافرنا إلى سيملا[١] فى الصيف وحين عدنا كانت هناك – البناية التى عرفت فيما بعد باسم الحضانة. كانت هناك مراسيم وبُرًّا خان[٢] للرجال. قطعتْ أمى شريطاً. أتذكر كم كنتُ فخوراً برؤية شاراتنا

معلقة هناك – ثقوب الفراشة وكل ذلك. وهذا ما جعلنى أبدأ فى التاريخ العسكرى. فى العاشرة عرفتُ أبطال معاركنا عن ظهر قلب. يمكن أن أحكى لك كيف حصل جمادر عبد القادر(٣) على صليب فيكتوريا. وأنا فى السنة الأخيرة فى المدرسة ذهبت الكتيبة الملكية إلى سوم. صادفْتُ عبارة قالها الفيلد مارشال سير جون فرنش(٤) فى حديث فقطعتها."

"ماذا قال، سير؟"

"شيئًا بمعنى 'لن تُنسى الجات أبداً على الجبهة الغربية.'"

"أرى، سير."

انخفض صوت المقدم إلى همس: "وماذا تعتقد أن يقولوا عما حدث لنا اليوم، روى؟"

ردَّ أرجون بهدوء: "أعتقد أنهم سيقولون إننا فعلنا ما استطعنا فى ظل هذه الظروف."

"سيقولون؟ لا أستطيع التوقف عن التساؤل. كانت واحدة من أفضل الوحدات فى واحد من أفضل الجيوش فى العالم. لكنا اليوم تبعثرنا بدون أن نرد على النيران. سأعيش وأنا أعرف ذلك بقية حياتى."

"لا يمكن أن تلوم نفسك، سير."

"حقًا؟" هدأ المقدم بكلاند مرة أخرى. فى الصمت الذى تلى ذلك أدرك أرجون أنها تمطر وبدأت المظلة تسقط النقط البطيئة الثابتة المعتادة.

"سير." ظهر هاردى فجأة من بين الظلام، مما أثار دهشتهما. قدم للقائد زجاجة خضراء. "ماء، سير."

كان صوت المقدم بكلاند عملياً مرة أخرى: "حسناً، إذن. من الأفضل أن تحصلا على بعض الراحة. غداً نتجه إلى الجنوب الشرقى. يمكن أن نوفق ونعود إلى خطوطنا."

استمر المطر بدون توقف، كانت الرطوبة تنزل بإصرار ثابت حتى أصيبوا جميعا بالهلع. صادر هاردى فراشاً ملفوفاً من أحد الرجال، وجلس مع أرجون مستندين على جذع شجرة، جلسا متعامدين، يتطلعان فى الظلام. طَنَّ الناموس بدون توقف ولمرة امتنَّ أرجون للفافتى ساقيه. لكن لم يكن هناك ما يفعله للرقبة والوجهين غير المحميين. هشَّ الناموس وفكر باشتياق فى كريم الناموس الذى تركه خلفه عند نهر أسون، محشوراً فى أعماق حقيبته.

أفزع صوت كيشان سنجه أرجون: "صاحب."

"كيشان سنجه؟"

"صاحب."

وضع كيشان سنجه شيئًا فى يده وانصرف قبل أن ينطق أرجون بكلمة أخرى.

قال هاردى: "ما هذا؟"

رفع أرجون يده إلى أنفه. قال: "أعتقد أنه كريم ناموس. لابد أنه أعطانى كريمه..."

قال هاردى بأسى: "شوتيا[٥] حقير محظوظ، يسعد مراسلتى وهو يرانى أُؤكَل حيًا قبل أن يتخلى لى عن كريمه. أعطِنى بعضاً منه - يا له من فتى طيب."

كان النوم مستحيلاً: لم يكن هناك إلا الانتظار طوال الليل. كان هاردى يهمهم بصوت منخفض أحياناً، ويحاول أرجون تخمين ما يقول من النبرة. تحدثا بشكل متقطع بأصوات خرساء، تتناول أحداث الساعات الأخيرة.

بهمس منخفض سأل هاردى: "ماذا كان بَكِي يقول لك هناك؟"

"كنا نتحدث عما حدث..."

"ماذا قال؟"

"كان يلوم نفسه."

"لكن لم يكن هناك ما يمكن أن يفعله."

"لا يرى الأمر على هذا النحو. كان غريبًا أن تستمع إليه - أن تسمعه يتكلم عن الأمر بطريقة شخصية، كأنه المسئول. لم أرَ الأمر بتلك الطريقة."

"حسنًا، كيف يمكن أن تفكر فى الأمر؟"

"لماذا لا يمكننى؟"

"بالنسبة لنا لا فرق حقًا، أليس كذلك؟"

"بالطبع يوجد. إذا لم يحدث ذلك، ما كنا نجلس هنا فى المطر."

"نعم، لكن فكر، يار أرجون - على سبيل المثال، ماذا يمكن أن يحدث لو بقينا فى موقعنا على أسون؟ هل تعتقد أن الفضل كان سينسب إلينا - نحن الهنود؟"

"لماذا لا؟"

"فكر فى تلك الصحف فى سنغافورة - الصحف التى كتبت عن الجنود الشباب الشجعان الذين أتوا للدفاع عن مستعمرتهم. هل تتذكر؟"

"بالطبع."

"هل تتذكر كيف كان الجنود الشباب الشجعان استراليين أو كنديين أو بريطانيين دائمًا؟"

أومأ أرجون: "نعم."

"كأننا لم نوجد أبدًا. لهذا لا يهمُّ ما حدث عند أسون- لا يهمنا، بحال من الأحوال. يبقى الأمر على حاله بقينا فى موقعنا أو لم نبقَ. يار، أفكر أحيانًا فى كل الحروب التى قاتل فيها أبى وجدى - فى فرنسا وأفريقيا وبورما. هل قال أحدٌ أبدًا- كسب الهنود هذه الحرب أو تلك؟ الأمر هنا لا يختلف. إذا تحقق نصر فلن ينسب الفضل إلينا. بالمنطق نفسه لا يمكن أن يقع علينا اللوم بسبب الهزيمة."

قال أرجون: "ربما لا يهم الآخرين، هاردى، لكنه يهمنا."

"هل يهمنا حقًا، أرجون؟ سأخبرك بما شعرتُ به وأنا أجرى للمزرعة. صراحةً، شعرتُ بارتياح - سعدْتُ لأن الأمر انتهى. والرجال، أراهن أن معظمهم شعر بما شعرتُ به. كأن فزورة وصلت إلى نهايتها."

"أية فزورة، هاردى؟ لا شىء كان ينم عن وجود هذه الدبابات."

هشَّ هاردى الناموس الذى يطن حولهما: "تعرف، أرجون، فى آخر بضعة أيام، فى الخنادق فى جيترا- انتابنى إحساس مخيف. غريب أن تجلس على جانب واحد من خط النار، وتعرف أن عليك أن تقاتل وتعرف فى الوقت ذاته أنه ليس قتالك حقًا- تعرف أن اللوم لن يقع عليك ولن ينسب الفضل إليك، كسبْتَ أم خسرْتَ. تعرف أنك تخاطر بكل شىء لتدافع عن طريقة حياةٍ تهمِّشُكَ. كأنك تقاتل ضدَّ نفسك تقريبًا. غريب أن تجلس فى خندق، تمسك ببندقية وتسأل نفسك: من المستهدف حقًا بهذا السلاح؟ هل خدعْتُ حتى أوجهه إلى نفسى؟"

"لا يمكن أن أقول إننى شعرت بنفس الإحساس، هاردى."

"لكن اسأل نفسك، أرجون: ماذا يعنى لك ولى أن نكون فى هذا الجيش؟ تتحدث دائمًا عن العسكرية باعتبارها مجرد وظيفة. لكن تعرف، يار، ليست مجرد وظيفة -

حين تجلس فى خندق تدرك أن هناك شيئًا بدائيًا جداً فيما نفعل. فى العالم اليومى متى وقفت وقلت – 'أنا ذاهب لأخاطر بحياتى من أجل هذا'؟ كإنسان لا يمكن أن تفعل شيئًا إلا إذا كنت تعرف لماذا تفعله. لكن وأنا أجلس فى ذلك الخندق، بدا الأمر كأنه لا يوجد اتصال بين قلبى ويدى– بدا كل منهما ينتمى لشخص مختلف. بدا كأنى لستُ إنسانًا حقًا– مجرد أداة، آلة. هذا هو السؤال الذى أطرحه على نفسى، أرجون: كيف أصبح إنسانًا مرة أخرى؟ كيف أربط بين ما أفعل وما أريد، فى قلبى؟"

"هاردى – لا خير يرجى من التفكير على هذا النحو..."

سمعا صوت المقدم بكلاند فى مكان ما قريب: "كفاية كلام، من فضلكما..."

توقف أرجون.

هوامش

(١) سيملا Simla: مدينة شمال الهند إلى الشمال من دلهى.

(٢) بُرًّا خانه burra khana: حفل عشاء (هندى).

(٣) جمادر عبد القادر: Jemader Abdul Qadir.

(٤) جون فرنش John French (١٨٥٢ - ١٩٢٥) : ضابط بريطانى كان قائد القوات البريطانية فى الحرب العالمية الأولى.

(٥) شوتيا chootiya: خسيس (هندى).

(٣٥)

حين جاء العرض، أخيراً، كان طيبًا، يفوق بكثير أكثر آمال رجكومار طموحًا، حتى جعل الرسول يكرره مرتين ليتأكد أنه سمع بشكل صحيح. عند سماع التأكيد، نظر إلى يديه فوجدهما ترتعشان. لم يثق فى قدرته على الوقوف على قدميه. ابتسم للرسول وقال شيئًا ما كان يسمح له اعتزازه بنفسه أن يقوله فى وقت آخر.

"هل يمكن أن تساعدنى على النهوض؟"

مال على ذراع الرسول، وذهب للنافذة المفتوحة فى مكتبه ونظر إلى شادر الخشب ليرى إن كان يستطيع أن يلمح نيل. كان الشادر مكدسًا بالخشب الذى جمعه طوال السنة الأخيرة. ووجه ابنه الملتحى شبه مختفٍ خلف كمية ارتفاعها ثمانية أقدام من الألواح المنشورة مؤخَّرًا.

"نيل." خرج صوت رجكومار من صدره مرحًا. صاح مرة أخرى: "نيل."

لم يكن هناك داعٍ لإخفاء سعادته: إن كان قد مر طوال حياته بلحظة انتصار فهى تلك اللحظة.

"نيل!"

رفع نيل وجهه إلى أبيه فى دهشة: "أبى؟"

"اصعد، نيل – هناك أخبار طيبة."

صارت قدماه أكثر ثباتًا. وهو يقف منتصبًا، ضرب الرسول على ظهره وأعطاه قطعة عملة: "فلوس الشاى..."

"نعم، سير."

ابتسم الرسول عند ظهور بهجة رجكومار. كان كاتبًا شابًا أرسله إلى رنجون مقاول من أصدقاء رجكومار - المقاول الذى يعمل فى طريق بورما الصين، فى أقصى الشمال. كما تنبأ رجكومار، اكتسب بناء الطريق ضرورة استراتيجية جديدة مع دخول أمريكا الحرب. يفترض أن يكون خط الإمداد الرئيسى لحكومة القائد العام شيانج كى شك[1]. خُصِّصتْ له اعتمادات جديدة وكان العمل يتقدم بسرعة. وجد المقاول نفسه فى حاجة لكميات أساسية جدًا من الخشب - ومن ثم جاء العرض المقدم إلى رجكومار.

لم تكن الصفقة بلا عيوب. لم يكن هناك مقدم بقدر ما يريد رجكومار، وكان تاريخ الدفع غير مضمون. لكنه وقت حرب، على الرغم من كل شىء، وقد تعلم كل رجال الأعمال فى رنجون التأقلم. لم يترددْ رجكومار فى قبول العرض.

"نيل!"

"أبى؟"

رأى رجكومار وجه ابنه عن قرب وهو ينقل إليه الأخبار. وابتهج وهو يرى عينى نيل تسطعان؛ كان يعرف أن نيل لم يسعد فقط نتيجة صفقة تمناها طويلاً ولكن أيضًا لأن ذلك قد يكون إثباتًا لإيمان يشبه إيمان طفل بأبيه. شعر رجكومار، وهو يتطلع إلى عينى ابنه الساطعتين، بصوته يخشن. شد نيل إلى صدره وتشبث به، أمسك به بإحكام، وضمه بقوة، حتى لهث ابنه وصرخ بصوت عال. كان بين الاثنين ارتباطٌ خاصٌ دائمًا، قرب معين. لم تكن هناك عينان أخريان فى العالم يمكن أن تنظرا فى عينى رجكومار بدون تحفظ، بدون حكم، بدون انتقاد - سواء عينًا دُلِّى، أو عينًا سايا جون، وعينا دينو أقلها جميعًا. لا شىء فى هذا الانتصار كان أحلى من استعادة ثقة ابنه.

خبط رجكومار كتف ابنه خبطة رقيقة: "والآن، نيل، هناك أشياء كثيرة يجب عملها. عليك أن تعمل أكثر مما عملت طوال حياتك."

أومأ نيل: "أبى."

عاد عقل رجكومار بسرعة طوع أمره وهو يفكر فى كل الإجراءات التى عليه القيام بها. قال وهو ينزل السلم: "تعال، لنحاولْ أن نفكر فيما علينا أن نفعل والوقت المتاح لنا."

باع رجكومار كل ممتلكاته إلا شادر الخشب على خليج بزُنْدُنْج. كان فم الخليج عند تقاطع نهر رنجون مع نهر بِجو يوفر مدخلاً سريعًا إلى ميناء النهر. وقد تركز عدد كبير من ورش الخشب والمستودعات ومستودعات البترول ومضارب الأرز بطول ضفتى هذا الطريق المائى. ولم يكن الشادر نفسه إلا مكانًا مفتوحًا، مكدسًا بالخشب تغطيه دائمًا غيمة من النشارة. يحيط به سور مرتفع وترتفع فى مركزه كابينة صغيرة على دعامات - بناية تشبه بشكل مبهم طايات الغابات فى داخل البلاد، إلا أنها أصغر بكثير. كانت الكابينة مكتب رجكومار.

لم يملك رجكومار، وهو يلفُّ فى أرجاء الشادر، إلا تهنئة نفسه على بصيرته بتخزين كل هذه الكميات فى مكان واحد- كان يعرف دائمًا أن الأمر، حين يأتى، سيكون تنفيذه بسرعة ضروريًا: وأثبتت الأحداث أنه مصيب. إلا أن المهمة لم تكن سهلة. رأى رجكومار أنه يحتاج إلى فرق كبيرة من الأوسيين والأفيال والشيالين والشاحنات. وقد بيعت أفياله منذ وقت طويل، وباستثناء اثنين من المشرفين تم الاستغناء عن كل مستخدميه المنتظمين. واعتاد على إنجاز أموره بعمال مؤقتين.

كان هناك الكثير مما يجب عمله وكان يأمل فى مزيد من المساعدة. كان رجكومار يعرف أن نيل يبذل أقصى ما فى وسعه، لكنه ابن مدينة، لا خبرة له فى أعمال الخشب.

وعرف رجكومار أن نيل لا يُلام على ذلك: غلطته هو لأنه لم يشجعه أبداً على العمل في مجال الخشب.

أسرَّ رجكومار لنيل: "لا أريد العمل مع غرباء، أفضل أن يكون معي دوه سي. يعرف كيف يتصرف في هذه الأمور."

"لكن كيف نصل إليه في هوى زيدى؟"

"يمكن أن نصل إليه عن طريق ريموند"، صديق قديم لنيل، وابن دوه سي. كان طالبًا في كلية جُدْسون في رنجون. اعتقد رجكومار أن الموضوع انتهى وأومأ لنفسه: "نعم، يمكن لريموند أن يخبره. لنذهب ونبحث عنه هذا المساء."

حين عاد رجكومار ونيل إلى كمندين، كان ألق الانتصار لا يزال ساطعًا على وجهيهما. خمنتْ دُلّي على الفور أن نجاحاً تحقق: "ماذا؟ قولا لي."

بدأ رجكومار ونيل يتحدثان في وقت واحد، بأصوات مرتفعة حتى أتت منجو تعدو على السلالم، والطفلة على ذراعيها.

"قولا لي أيضًا. ابدآ من جديد..."

لأول مرة منذ أسابيع كثيرة، عمَّت البهجة مناخ المنزل. لم يُسمع شيء عن أرجون أو دينو– لكن كان من المنطقي نسيان توترات الحرب في هذه المناسبة. حتى دُلّي، وكانت شكاكة منذ فترة طويلة، بدأت أخيراً تؤمن بأن خطط رجكومار على وشك أن تؤتي أكلها؛ وكانت بهجة منجو مفرطة. تكومت العائلة كلها في البكارد، ومنجو تمسك بالطفلة ونيل في مقعد القيادة. انطلقوا، يضحكون كالأطفال، إلى كلية جدسون للبحث عن ريموند، ابن دوه سي.

كان الكريسماس على الأبواب، ووسط رنجون يستعد للاحتفالات، في منطقة تضم المحلات الكبرى والمطاعم الفخمة والملاهي والبارات والفنادق. وكان هناك أيضًا – في

بضعة بلُكّات من بنايات جملونية مشيدة بالطوب الأحمر - معظم كنائس المدينة ومدارسها ومؤسساتها التبشيرية الأخرى. فى ديسمبر يصبح هذا الحى من عوامل الجذب القوية الموسمية فى المدينة. كان الناس يتوافدون إليه من الأحياء الأخرى - كمندين وكوكين وبوتاتنج وكالا بُستى(٢) - للتنزه فى الشوارع والفرجة على زخارف الكريسماس.

فى تلك السنة منع مراقبو الغارات الجوية الأضواء الساطعة المعتادة. ولم يكن للحرب، باستثناء ذلك، تأثير كبير على روح الحى؛ على العكس، كان للأخبار القادمة من خارج البلاد تأثير زاد من المتعة المعتادة فى فترة الكريسماس. أحدثت الحرب، بين كثير من السكان البريطانيين، تصميمًا متجدِّدًا على مواصلة حياتهم كالمعتاد. ولذا زُيِّنت المحلات والمطاعم الكبرى بتألق كالمعتاد. وضع روى وكو - المحل الكبير جدًا - شجرة الكريسماس التى اعتاد وضعها، شجرة صنوبر حقيقية، مرسلة، كما كان الحال دائمًا، من هضاب الميماو. كانت قاعدة الشجرة محاطة بحشو قطنى، وأغصانها مبيضة بزركشة من مسحوق بودرة كوتيكورا(٣). فى الطريق الأبيض، كانت شجرة ليدلو(٤)- محل آخر كبير جدًا- أكبر، مع زركشات مستوردة من إنجلترا. توقفوا عند سكوت ماركت(٥) وذهبوا إلى كافيه الشمس لأخذ عينات من حلوى عيد الميلاد المغطاة بالشيكولاتة الشهيرة. فى الطريق مروا بجزار مسلم يربى سربًا من الديوك الرومية الحية والإوز. كانت طيور كثيرة تحمل بطاقات أسعار فى أسلاك صغيرة - حجزتها مقدمًا قبل أشهر عائلات أوروبية، وسمَّنها الجزار من أجل الكريسماس.

كانت كلية جُدسون تقليديًا أحد مراكز احتفالات الكريسماس فى رنجون. كان يديرها معمدانيون(٦) أمريكيون، وكانت من أشهر المعاهد التعليمية فى بورما.

كان ريموند يتدرب مع الجوقة، فى كنيسة الكلية المشيدة بالطوب الأحمر، على مسيح هاندل(٧). جلسوا ينتظرون، خلف الكنيسة، واستمعوا إلى أصوات جماعية تتدفق عبر العوارض المقوسة. كانت الموسيقى رائعة حتى أن الطفلة سكنتْ فى صمت.

فى نهاية التدريب اعترض نيل ريموند واصطحبه. كان ريموند شابًا حسن الطلعة، قوى البنية، عيناه ناعستان وابتسامته حزينة. درس فى رنجون ثلاث سنين، وكان يفكر فى الاشتغال بالقانون.

ابتهج ريموند برؤيتهم وتعهد بإرسال كلمة إلى والده فوراً. كان واثقًا من قدرته على إرسال كلمة إلى هوى زيدى خلال بضعة أيام، عن طريق شبكة معقدة من البرقيات ووكلاء الشحن.

لم يشك رجكومار لحظة فى أن دوه سى سيأتى فوراً إلى رنجون لمساعدته.

***

فى الصباح التالى، أرسل المقدم بكلاند أرجون إلى الأمام مع كيشان سنجه ورجلين آخرين. كان الرجال مسلحين ببنادقهم المعتادة لى إنفيلد ٣٠٣ .(٨)، وكانت معه بندقيته الرشاشة الوحيدة.

قبل الظهر بقليل، جاء أرجون إلى منزل مدير المزرعة. كان بنجلو فسيحًا من طابقين بسقف من القرميد، ينتصب وسط منطقة منزوعة الأشجار، مربعة تقريبًا. وقد أحيطت المنطقة، من كل ناحية، بأعمدة مستقيمة ومنظمة من أشجار المطاط. كان هناك درب مفروش بالحصى يلتوى عبر أرض معشبة مستوية، يؤدى إلى الباب الأمامى. وحديقة منقطة بألوان كثيرة: معظم الزهور من أنواع إنجليزية – الخطمى وأنف العجل والكوبية. وفى الخلف شجرة جَكَرَنْدا طويلة وأرجوحة خشبية معلقة من غصن، بجوارها خزان ماء مرفوع. وأحواض مزروعة بالخضراوات – طماطم وجزر وقرنبيط. وممر ممهد بين رقعة الخضراوات إلى الباب الخلفى، وقطة تمسك الباب بمخالبها، تصرخ لتدخل.

لفَّ أرجون حول المنطقة، اختبأ بحذر فى ظل أشجار المطاط. تتبع الدرب مسافة صغيرة إلى المنحدر: بدا ملتفًا خلال المزرعة ليصل إلى طريق مسفلت مسافة نصف ميل أو نحو ذلك. لم ير أحداً على مدى البصر.

وضع أرجون أحد رجاله فى الحراسة وبعث آخر بتقرير للمقدم بكلاند. ثم لفَّ حول المنزل حتى واجه الباب الخلفى وكيشان سنجه يتبعه عن قرب. عبر الحديقة الخلفية من ممر، وهو يخفض رأسه بحذر. كان الباب مغلقًا بمزلاج لكنه فتح بسهولة حين دفعه هو وكيشان سنجه بالأكتاف. تسحبت القطة إلى المنزل من بين قدمى أرجون.

تخطى أرجون العتبة فوجد نفسه يقف فى مطبخ كبير على الطراز الأوروبى؛ فرن يشتعل بالخشب، مصنوع من الحديد، ونوافذ مغطاة بستائر بيضاء مزركشة. رصت الأطباق الخزف والسلاطين فى صفوف فى خزائن خشبية تغطى الجدران؛ وكانت المغسلة السيراميك نظيفة وقد تكدست بجوارها أقداح زجاجية وصف من زجاجات الأطفال التى نظفت مؤخراً. على الأرضية، سلطانية بها طعام كلب. ومكان الثلاجة بقعة مستطيلة محددة على الجدار الأبيض النظيف. وعلى طاولة المطبخ أكوام من البيض والخبز، وعلبتان مستخدمتان من الزبد الاسترالى وجبن مصنعة. من الواضح أن الثلاجة أفرغت بسرعة كبيرة قبل أن تؤخذ.

وعلى الرغم من تأكد أرجون من عدم وجود أحد فى المنزل، إلا أنه حرص على بقاء كيشان سنجه خلفه وهو يتفقد الغرف الأخرى. كان البنجلو ممتلئًا بعلامات رحيل متعجل. فى غرفة النوم، الأدراج مقلوبة وسونتيانات وملابس حريمى داخلية ملقاة على الأرضية. فى غرفة المعيشة مقعد بيانو مهجور بجوار الحائط. وجد أرجون مجموعة صور فى إطارات شبه مختفية خلف الباب. نظر إلى الصور– عرس فى كنيسة؛ أطفال

وسيارة وكلب – الصور مكومة فى صندوق، كأنها جاهزة للنقل. تخيل أرجون فجأة امرأة من أهل البيت تجرى فى هلع فى البنجلو، تبحث عن الصندوق، وزوجها والأسرة يجلسون فى الخارج فى لورى يكتظ بأمتعة مربوطة؛ تخيلها تفتش فى الدولاب وقد أدار زوجها المحرك والكلب ينبح والأطفال يصرخون. أسعده ابتعادهم فى الوقت المناسب؛ وقد انزعجوا من كل من كان يثنيهم عن الرحيل مبكرًا.

عاد إلى المطبخ وأدار مروحة السقف، واندهش حين دارت. على الطاولة زجاجتان من الماء، مازالتا مغمورتين فى ندي العرق الذى تكون حولهما حين أخرجتا من الثلاجة. قدَّمَ واحدة لكيشان سنجه وتجرع الأخرى، إلى آخر جرعة تقريبًا. كان للماء طعم معدنى سخيف وهو يجتاز حلقه: وحينها فقط تذكر أنه مضى وقت طويل على آخر مرة تناول فيها الطعام.

بعد دقائق وصل الآخرون.

قال أرجون: "هنا طعام كثير، سير."

أومأ المقدم بكلاند: "حسن. السماء تعلم، إننا بحاجة إليه. وأتخيل أننا يمكن أن نغتسل أيضًا."

كان فى الدور العلوى حمامان، وفوط نظيفة على الرفوف. استخدم المقدم بكلاند حمامًا، واستخدم أرجون وهاردى الآخر بالتبادل. كانت المياه تأتى من خزان مظلل خارج المنزل، باردة ولذيذة. سند أرجون بندقيته الرشاشة إلى الباب قبل أن يخلع ملابسه. ثم ملأ دلوًا وسكب الماء البارد على رأسه. كانت فى المغسل أنبوبة متغضنة من معجون الأسنان: لم يقاوم عصر بعضًا منه على سبابته. ومعجون الأسنان فى فمه نظر من نافذة الحمام. كان كيشان سنجه ورجلان آخران يقفون تحت خزان المياه عراة، يصبون المياه على رؤوسهم. ورجل آخر فى الحراسة، يدخن سيجارة، ويده تستريح بتراخ على بندقيته.

عادوا إلى غرفة الطعام فوجدوها منسقة بعناية بالأطباق والآنية الفضية. أعد عريف لديه بعض الخبرة فى ميس الضباط وجبة: سلطة طماطم وجزر؛ بيض مقلى فى الزبد وتوست ساخن. عثر على الكثير من السلع المعلبة فى دواليب المطبخ: باتيه كبد البط، وطبق من الرنجة المخللة، وشرائح سميكة من فخذ الخنزير الهولندى - وضعت كلها بشكل جميل فى أطباق من الخزف.

وفى البوفيه المجاور لمائدة الطعام اكتشف أرجون بعض زجاجات البيرة: "هل تعتقد أنهم اهتموا بذلك، سير؟"

ابتسم المقدم بكلاند: "لا، ترى لماذا يهتمون. أنا متأكد من أننا لو كنا التقينا بهم فى النادى لطلبوا منا أن ندفع حسابنا."

اعترض هاردى. قال بهدوء، مقدِّمًا تصحيحًا بكلمات مهذبة: "إذا كنت قد التقيت بهم فى النادى، سير. ما كان سيُسمَح لنا كلينا بالدخول."

توقف المقدم بكلاند وزجاجة بيرة مائلة فى قبضته. ثم رفع كأسه وابتسم لهاردى ابتسامة ساخرة، وقال: بالنسبة للنوادى التى لن تضمنا، الرجال المهذبين، ربما تظل كثيرة إلى الأبد."

هتف أرجون بفتور: "اسمع، اسمع." ترك كأسه ومد يده إلى طبق من فخذ الخنزير.

وهم يخدمون أنفسهم، هبت روائح طبخ جديد من المطبخ: نكهة براثها(٩) ملفوف حديثًا وشاباتى، نكهة بصل مقلى وطماطم مقطعة. نظر هاردى إلى طبقه وإلى الأكوام التى يحتويها من فخذ الخنزير والرنجة. وقف فجأة.

"سير، هل لى أن أستأذن دقيقة؟"

"براحتك، أيها الضابط."

دخل المطبخ وعاد بصينية من الشاباتى وأندى كا بهوجيا[١٠]- بيض مقلى بالطماطم والبصل. نظر أرجون إلى طبقه، شعر بالجوع مرة أخر: وكان من الصعب أن يبعد عينيه.

نظر هاردى إليه مبتسمًا: "حسنًا، يار، يمكن أن تحصل على بعض منها أيضًا. لن يجعلك الشاباتى همجيًا، تعرف."

غطس أرجون فى مقعده وهاردى يضع شاباتى وبهوجيا فى طبقه؛ خفض نظرته بطريقة حزينة كطفل محاصر بين أبوين حذرين. أتى تعب الليل أمامه مرة أخرى ولم يعد يستطيع لمس الطعام.

حين انتهوا من الطعام. طلب المقدم بكلاند من هاردى الخروج لمراقبة الرجال الذين يحرسون الطريق القريب من البنجلو.

حيى هاردى: "نعم، سير."

قام أرجون من على المائدة أيضًا، لكن المقدم بكلاند أوقفه: "لا تتعجل، روى." مد يده إلى زجاجة بيرة: "كمية أخرى؟"

"لا أرى ما يمنع، سير."

صبَّ المقدم بكلاند بيرة فى كأس أرجون ثم ملأ كأسه.

قال فوراً، وهو يشعل سيجارة. "أخبرْنى، أيها الضابط، كيف تقيم معنوياتنا فى هذه اللحظة؟"

قال أرجون بتألق: "بعد غداء كهذا، سير، يمكن أن أقول إنها لا يمكن أن تكون أفضل من ذلك."

ابتسم المقدم بكلاند خلال سحابة من دخان السيجارة: "كانت حكاية مختلفة فى الليلة الماضية، إيه، أيها الضابط؟"

"لا أعرف إن كان يمكن أن أقول ذلك، سير."

"حسنًا، تعرف أن لى أذنًا، أيها الضابط. ومع أن معرفتى بالهندوستانية قد لا تكون كمعرفتكم، يمكن أن أؤكد لك أنها كافية تمامًا."

نظر إليه أرجون فى فزع: "لستُ متأكدًا مما ترمى إليه، سير."

"حسنًا، لم يستطع أى منا أن ينام كثيرًا الليلة الماضية، هل كان يمكن أن ننام، أيها الضابط؟ والهمسات يمكن أن تسمع على مسافة طويلة."

شعر أرجون بصهد فى وجهه: "لا أفهم تمامًا ما تقصد، سير. هل تشير إلى شيء قلتُه؟"

"لا يهم حقًا، أيها الضابط. لنقلْ فقط إن نبرة كل الأصوات من حولى كانت متشابهة إلى حد ما."

"أرى، سير."

"أيها الضابط - أعتقد أنك ربما تعرف أننى- أننا- لسنا غافلين عن بعض التوترات فى كتائبنا الهندية. من الواضح تمامًا أن كثيرًا من ضباطنا الهنود يشعرون بقوة بالقضايا العامة- خاصة مسألة الاستقلال."

"نعم، سير."

"لا أعرف مشاعرك الخاصة، روى، لكن عليك أن تعرف أن استقلال الهند، بقدر الثقة فى الرأى العام البريطانى، مسألة وقت. يعرف الجميع أن أيام الإمبراطورية

انتهت – لسنا حمقى، تعرف. الرحيل إلى ماء راكد آخر ما يريد شاب إنجليزى متحمس اليوم. لسنوات قال الأمريكيون لنا إننا سائرون فى الطريق الخطأ. ليس علينا الإبقاء على إمبراطورية بكل أدوات الإدارة والجيش. هناك طرق أسهل وأكثر فاعلية فى القبض على الأشياء – يمكن أن تتم بتكلفة أقل وبقدر أقل بكثير من القلق. وقد قبلنا كلنا ذلك الآن – حتى الرفاق من أمثالى الذين قضوا حياتهم فى الشرق. لم يبق إلا سبب واحد تتمسك به إنجلترا – سبب ناتج عن إحساس بالالتزام. أعرف أنه قد يكون من الصعب أن تصدق هذا، لكنه حقيقى. هناك إحساس بأننا لا يمكن أن نمضى بالإكراه ولا نخلِّف فوضى وراءنا. وأنت تعرف تمامًا، كما أعرف، أننا إذا حزمنا حقائبنا الآن، فسيحارب رجالكم كل منهم الآخر فوراً– حتى أنت وصديقك هاردى، باعتباره من السيخ وباعتبارك هندوسيًا، باعتباره بنجابيًا وباعتبارك بنغاليًا..."

"أرى، سير."

"لا أقول لك ذلك، أيها الضابط، إلا لأنبهك إلى بعض أخطار الوضع الذى نحن فيه الآن. أعتقد أننا كلينا نعرف أن معنوياتنا ليست على ما يرام. لكن ولاء المرء، بشكل لم يسبق له مثيل، آخر ما يجب لأى شخص أن يتردد فيه. العثرات التى عانينا منها مؤقتة – إنها بطريقة ما نعمة مقنَّعة. دخول أمريكا الحرب يؤكد بصورة مطلقة أننا سوف ننتصر، عاجلاً أو آجلاً. وفى أثناء ذلك ربما علينا أن نتذكر أن ذاكرة الجيش لا تنسى ما يتعلق بمسألتى الإخلاص والولاء."

توقف المقدم بكلاند ليطفئ سيجارته. وجلس أرجون يحدق بصمت فى كأسه.

قال المقدم بكلاند بهدوء: "تعرف، روى، عاش جدى تمرد ١٨٥٧ . أتتذكر أنه لم يسخط على المدنيين الذين شاركوا فى الاضطرابات. لكن بالنسبة للجنود – السنيبو الذين قادوا التمرد – كانت مسألة مختلفة تمامًا. هؤلاء الرجال حنثوا بيمين: كانوا

خونة، لا متمردين، وليس هناك خائن أكثر وضاعة من جندي يعكس إخلاصه. وإذا حدث شيء كهذا في وقت صعب، أعتقد أنك تتفق معي، أليس كذلك، روي، أن من الصعب تصور شيء بهذه الشناعة الرهيبة؟"

كان أرجون على وشك الرد حين قاطعه صوت خطوات مسرعة. استدار إلى نافذة فرأى هاردي يجري عبر العشب الأمامي.

جاء هاردي يلهث إلى حافة النافذة: "سير. تحركْ، سير... يتدفق اليابانيون على الطريق."

"كم عددهم؟ هل يمكن أن نباغتهم؟"

"لا، سير... هناك فصيلتان على الأقل - ربما سرية."

دفع المقدم بكلاند مقعده بهدوء للخلف، ماسحًا شفتيه بمنديل. قال بهدوء: "الشيء الأساسي، أيها السيدان ألا تفزعا. لحظة لتستمعا إليَّ: هذا ما أريد منكما..."

تركوا المنزل من المدخل الخلفي، في المقدمة أرجون، وفي المؤخرة هاردي والمقدم بكلاند. عند الوصول إلى ملاذ في الصف الأول من الأشجار أخذ أرجون وضعًا دفاعيًا. كان معه جماعة مكونة من كيشان سنجه ورجلين آخرين. وكان دورهم تغطية الآخرين حتى يخرجوا جميعًا من المكان.

اندفعت أول دبابة يابانية إلى المجمع وهاردي والمقدم بكلاند يجريان عبر الحديقة الخلفية. للحظة اعتقد أرجون أنهما تمكنا من الهرب خفية. ثم تدفق وابل من النيران خلف الشاحنة وسمع أرجون عاصفة من الصفارات تُطلق بجانبه، فوق رأسه مباشرة.

كان المقدم بكلاند وهاردي بجواره تقريبًا. انتظر أرجون حتى بَعُدا قبل أن يعطي الأمر بالرد على النيران. "شالاو جولي[11]." أطلقوا النيران بدون تمييز في اتجاه

البنجلو. وكانت النتيجة الوحيدة تكسير نوافذ المطبخ على الفور. وأثناء ذلك، لفت الشاحنة اليابانية لتحتمي بالجانب البعيد من المنزل.

"بيش. شلو(١٢)."

أصدر أرجون أمراً بالتراجع وبقى فى موضعه، يطلق النيران عشوائياً، على أمل أن يعطى كيشان سنجه والآخرين وقتاً للتجمع من جديد. رأى الجنود اليابانيين الذين وصلوا مؤخراً ينسلون بين الأشجار واحداً واحداً. وقف وبدأ يجرى، ممسكاً برشاشه تحت ذراعه. نظر فوق كتفه، واجه منظر عشرات من مجموعات طويلة من الأشجار تحدق باتجاهه، وقد صار أليفاً- إلا أن كل نفق يقدم لمحة لشخص صغير يرتدى زياً رمادياً، فى مكان ما بعيد، يطارده.

بدأ أرجون يجرى أسرع، متنفساً بقوة، حذراً من أغصان تختفى تحت الأوراق المتساقطة. أمامه على بعد مائة قدم أو نحو ذلك بدا أن الأرض تنحدر بحدة. إذا وصل هناك، ربما استطاع الاختفاء عن عيون الجنود الذين يطاردونه. أسرع، مقصِّراً خطواته حين اقترب من حافة المنحدر. عند قمة المنحدر شعر بساقه اليمنى تخذله. سقط، وارتطم وجه فى البداية بالمنحدر. ضاعف الارتباك من صدمة الوقوع: لم يفهم سبب سقوطه. لم يتعثر ولم تزل قدمه - كان متأكِّداً من ذلك. استطاع أن يقف ممسكاً بشجيرة،. حاول السير مرة أخرى على قدميه ولم يستطع. نظر إلى أسفل فوجد رجل بنطلونه مغطاة بالدماء. شعر ببلل القماش على جلده، ولم يشعر بألم. اقتربت خطوات مطارديه، تلفت حوله بسرعة، ناظراً إلى بساط الأوراق الميتة، الممتد فى كل الاتجاهات.

حينها فقط سمع صوتاً، همساً مألوفاً: "صاحب."

التفتْ فرأى كيشان سنجه: كان المراسلة مستلقياً على وجهه، مختبئاً فى فتحة مظلمة - مجرور أو أنبوبة صرف من نوع ما. فتحة مغطاة بأوراق وشجيرات. مخبأة جيداً، غير مرئية تقريباً. لم يرها أرجون إلا لأنه كان منبطحاً على الأرض.

مد كيشان سنجه يده وسحبه إلى المجرور. ثم نثر بعض الأوراق على آثار دماء أرجون. بعد دقائق استمعا إلى وقع أقدام تجرى فوق رأسيهما.

كان المجرور يكفى بالضبط لهما متجاورين. فجأة، بدأ جرح أرجون يؤلمه، ألم يتدفق من ساقه فى موجات. حاول أن يكتم آهة، لكنه لم ينجح تمامًا. ألقى كيشان سنجه بيده على فمه وأسكته. أدرك أرجون أنه على وشك أن يفقد وعيه وكان سعيداً: فى تلك اللحظة لم يكن يريد إلا النسيان.

هوامش

(١) شيانج كى شك Chiang Kai-shek (١٨٨٧ – ١٩٧٥) : رئيس المجلس العسكرى الوطنى فى الصين من ١٩٢٨ حتى ١٩٤٨ .

(٢) كوكين: Kokine. كالا بستى Kalaa Bustee: الحى الهندى.

(٣) كوتيكورا: .Cuticura

(٤) ليدلو: Laidlaw.

(٥) سكوت ماركت: Scott Market.

(٦) معمدانيون Baptists: أتباع كنيسة بروتستانتية إنجيلية، يتبعون التقاليد الإصلاحية فى العبادة، ويؤمنون بحرية الفرد، والفصل بين الكنيسة والدولة.

(٧) مسيح هاندل Handel's Messiah: وهاندل (١٦٨٥-١٧٥٩) موسيقى ألمانى شهير من أشهر أعماله المسيح (١٧٤٢) وموسيقى الماء (١٧١٧).

(٨) لى إنفيلد Lee Enfield .303.

(٩) براثها paratha: خبز بالزبد من عدة طبقات.

(١٠) أندى كا بهوجيا ande-ka-bhujia: عجة.

(١١) شالاو جولى chalao goli: جولى بمعنى طلقة (سنكرسيتية)، أطلق النار.

(١٢) بيش. شلو piche. Chalo: شلو بمعنى ابعدْ.

(٣٦)

مع أن دينو تتبع الأخبار فى الراديو بدقة، إلا أنه عانى من مشكلة فى فهم ما يحدث بالضبط فى شمال الملايو. ذكرت البيانات تدخلاً كبيراً فى منطقة جيترا لكن التقارير غيرُ قاطعةٍ ومحيرةٌ. أثناء ذلك، ظهرت مؤشرات أخرى للطريق الذى تسير إليه الحرب، تنذر كلها بالشؤم. أحدها إعلان فى صحيفة رسمية يذكر إغلاق مكاتب بريد معينة فى الشمال. والآخر زيادة حركة السير إلى الجنوب: يتدفق تيار المهجَّرين على الطريق السريع بين الشمال والجنوب باتجاه سنغافورة.

ذات يوم لاحظ دينو، فى زيارة إلى سنجى بتانى، هذا الخروج الجماعى. بدا أن المهجرين أساساً من أسر المزارعين ومهندسى التعدين. امتلأت السيارات والشاحنات بأشياء منزلية - أثاث وصناديق وحقائب. صادف شاحنة محملة بثلاجة وكلب وبيانو فى وضع عمودى. تحدث إلى قائد الشاحنة: كان هولندياً، مدير مزرعة قرب جيترا. كانت أسرته تجلس متزاحمة فى مقدمة الشاحنة: زوجته وطفل حديث الولادة وبنتان. قال الهولندى إنه أفلَتَ للتو من اليابانيين. ونصح دينو بالرحيل بأسرع ما يستطيع- ألا يرتكب خطأ الانتظار حتى اللحظة الأخيرة.

فى تلك الليلة، فى مرننجسايد، أخبر دينو أليسون بكلام الهولندى. نظر كل منهما للآخر فى صمت: تكلما فى الموضوع عدة مرات من قبل. يعرفان أن الخيارات المتاحة قليلة جداً. إذا كان لهم أن يرحلوا، فلابدَّ من بقاء واحد منهم - شاحنة المزرعة لا تستطيع بحال من الأحوال قطع الرحلة الطويلة إلى سنغافورة والدايتونا لا تستطيع حمل أكثر من اثنين هذه المسافة الطويلة. والبديل الوحيد أن يذهبوا بالقطار - وكانت خدمات السكك الحديد معلقة مؤقتاً.

قال دينو: "ماذا نفعل أليسون؟"

قـالتْ أليـسـون فى أمل: "ننتظر ونرى. من يعـرف؟ ربما لا نـغـادر على الرغم من ذلك."

فى وقت متأخر من الليل استيقظوا على صوت عجلات دراجة تزحف على الطريق المحصَّب لمنزل مرننجسايد. نهض: "أليسون؟ من هذا؟"

قالت: "إلونجو. معه آه فات- من المطعم فى البلدة."

"فى هذا الوقت من الليل؟"

"أعتقد أنهما يريدان إخبارى بشىء." أسدلتْ أليسون الستارة. "سأنزل إلى الدور الأرضى." ارتدتْ عباءة وخرجت تعدو من الغرفة. بعد بضع دقائق، تبعها دينو. وجدها تجلس جـاثمـة مع الزائرين. آه فـات يتكلم على عـجل، بالملايوية، ويشـيـر بإصـبـع فى الهواء. وأليسون تعض شفتيها، وتومئ: رأى دينو قلَقًا عميقًا فى الخطوط المتجعدة فى وجهها.

بعض لحظة هزَّ دينو كوعها: "عم تتحدثون؟ أخبرينى."

وقفت أليسون وأخذته على جانب.

"يقول آه فات علينا أن نرحل أنا وجدى- إلى سنغافورة. يقول الوضع سيئ على الجبهة. ربما يستطيع اليابانيون الدخول خلال يوم أو اثنين. يعتقد أن الكمبيتاى[1] - بوليسهم السرى- لديه معلومات عنا..."

أومأ: "إنه على حق. لا يجب الانتظار أكثر من ذلك. عليكما أن تذهبا."

تساقطت الدموع من عينى أليسون: "لا أريد أن أذهب دينو. بدونك. لا أريد حقًا."

"عليكما أن تذهبا، أليسون. فكرى فى جدك..."

"مس مارتين." قاطعهما آه فات ليخبرهما بأنه سمع أن قطار تهجير خاص سيغادر برتورث فى ذلك الصباح. لم يكن متأكداً من إمكانية السفر عليه – لكن من الأفضل أن يحاولوا.

تبادل دينو وأليسون الابتسامات. قالت أليسون: "لن تسنح لنا أبداً مثل هذه الفرصة."

قال دينو: "لنوقظْ جدك. يجب ألا نضيع لحظة."

رحلوا فى وقت مبكر من اليوم التالى فى إحدى شاحنات العزبة. قادها إلونجو، وجلس دينو على ظهرها مع الأمتعة. جلست أليسون فى المقدمة مع سايا جون. كانت حركة المرور قليلة فى ذلك الوقت من اليوم، فوصلوا إلى سنجى بتانى فى نصف الوقت المعتاد. المدينة صامتة: محلات ومنازل كثيرة مغلقة أو مهجورة. وبعضها يعلق ملاحظات خارجها.

قرب البلدة أخذوا الطريق السريع الرئيسى. اكتظ جسر الطريق بمركبات مركونة. فى السيارات عائلات نائمة، يختطفون قسطاً من الراحة قبل بزوغ النهار. على فترات تأتى شاحنات عسكرية حمولة طن ونصف منطلقة إلى الطريق السريع، متجهة إلى الجنوب. تنطلق فجأة، دافعة السيارات الأخرى بعيداً عن الطريق، وأضواؤها الأمامية ساطعة، وأبواقها تدوى. لمح دينو بشكل عارض جنوداً، يقرفصون فى قيعان الشاحنات المغطاة بالمشمع.

حين اقتربوا من بترورث، كان الطريق يغصُّ بالسيارات والشاحنات. كانت محطة السكك الحديد تقع مباشرة بعد نقطة انطلاق عبَّارة تربط البلد بجزيرة بننج. تلقت تلك المنطقة عدة ضربات فى الغارات الأخيرة بالقنابل وعمَّت الفوضى شوارع تناثرت فيها الأنقاض. رأوا أناساً يتجهون إلى المحطة على الأقدام، حاملين حقائب السفر.

ركن إلونجو فى شارع جانبى وترك أليسون ودينو وسايا جون فى الشاحنة وذهب فوراً لاستطلاع الأحوال. عاد بعد نصف ساعة ليعلن أن أمامهم وقتًا طويلاً. هناك شائعات أن القطار لن يستطيع التحرك قبل منتصف الليل. كانت بننج تُخلى أيضًا، وأساطيل من العبارات تتحرك تحت غطاء الظلام. ولم يكن القطار ليرحل قبل عودة العبارات إلى بترورث بالمهجرين من بننج.

حجزت أليسون غرفة فى فندق ليستريح سايا جون. قضوا اليوم فى جولات لاستطلاع الأحوال. هبط الليل وحتى العاشرة لم تكن هناك أخبار. ثم، بعد منتصف الليل بقليل، جاء إلونجو يجرى إلى الفندق ليخبرهم بأن العبارات شوهدت عائدة من بننج، وبعد قليل سينتقل القطار إلى رصيف المحطة.

أيقظت أليسون سايا جون، ودفع دينو أجرة غرفة الفندق. خرجوا إلى شارع مظلم وانضموا لحشد يسرع باتجاه المحطة. كان المدخل مطوّقًا ولم يكن من الممكن الوصول إليه إلا عبر ممر ضيق يكتظ بالناس والأمتعة.

على بعد بضع ياردات من المدخل قرر إلونجو العودة. وضع ذراعًا حول سايا جون وعانقه بقوة: "مع السلامة، سايا."

ابتسم له سايا جون ابتسامة ودٍّ حقيقى: "كن حذراً وأنت تسوق، إلونجو."

ضحك إلونجو: "نعم، سايا." التفت إلى أليسون ودينو، وقبل أن يودعهما اندفعا إلى الأمام تحت ضغط الأجسام. صاح خلفهم: "سأقضى الليل فى الشاحنة. يمكن أن تجدونى هناك- إذا لم تركبوا. حظ سعيد."

ردَّ دينو بالتلويح: "ولك أيضًا... حظ سعيد."

كان على مدخل الرصيف حارسان هنديان. يرتديان زيًا أخضر وعلى كتفيهما بندقيتان معلقتان. لم تكن هناك تذاكر لفحصها: ينظر الحارسان للمهجرين ويشيران لهم بالدخول.

وصلوا إلى البوابة وسايا جون يميل على أليسون بثقله، ودينو خلفهما مباشرة، يحمل حقائب السفر. وهم على وشك عبور المدخل، مدَّ حارس ذراعه وأوقف أليسون. تلى ذلك مباحثات متعجلة بين الحارسين. ثم أشار الحارسان لدينو وأليسون وسايا جون بالابتعاد: "من فضلكم... ابعدوا عن البوابة."

قالت أليسون لدينو: "ما المشكلة؟ ماذا يحدث؟"

تحرك دينو ليواجه الحارسين. خاطبهما بالهندوستانية: "كيا هوا[٢]؟ لماذا أوقفتمانا؟"

"لا يمكن أن تعبروا."

"لماذا؟"

قال حارس بغلظة: "أليس لك عينان؟ ألا ترى أن القطار للأوروبيين فقط؟"

"ماذا؟"

"سمعْتَ – للأوروبيين فقط."

بلع دينو ريقه، محاولاً الحفاظ على هدوئه. قال بحذر: "اسمع، لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا... هذا زمن حرب. قيل لنا إنه قطار تهجير. كيف يكون للأوروبيين فقط؟ لابد أن هناك خطأ."

نظر إليه الحارس بعين وأشار للقطار بإبهامه. قال: "لك عينان. دكه لو[٣]– انظر."

من فوق كتف الحارس، تطلع إلى الرصيف، إلى نوافذ القطار: لم يجد وجهًا واحدًا يبدو أنه لملايوي أو صيني أو هندي.

"مستحيل... جنون."

أمسكت أليسون بذراعه: "ماذا؟ ما المستحيل؟ دينو، أخبرني بما يحدث؟"

"يقول الحارسان إن القطار للبيض فقط..."

أومأت أليسون: "نعم، انتابني إحساس بذلك- هكذا تجرى الأمور..."

"كيف تقولين ذلك، أليسون؟" كان دينو فى حالة هلع والعرق يتدفق على وجهه: "لا يمكن أن تواجه هؤلاء الناس... ليس الآن. ليس فى وقت الحرب..."

رأى دينو رجلاً إنجليزياً فى زى رسمى يسير على الرصيف، يراجع قائمة. بدأ دينو يتوسل للحارسين: "اسمعا - دعانى أدخل- دقيقة فقط... فقط لأكلم الضابط الذى هناك... أشرح له؛ أنا متأكد من أنه سيفهم."

"مستحيل."

فقد دينو أعصابه. صاح فى وجه الحارس: "كيف توقفنى؟ من أعطاك هذا الحق؟"

ظهر رجل ثالث فجأة، يرتدى زى السكك الحديد وتبين أنه هندى أيضاً. أبعدهما عن المدخل، باتجاه سلالم تؤدى إلى الشارع. قال لدينو: "نعم من فضلك؟ أنا ناظر المحطة - أخبرنى من فضلك: ما المشكلة؟"

بذل دينو جهداً ليحافظ على هدوء صوته: "سير... لا يسمحان لنا بالدخول... يقولان إن القطار للأوروبيين فقط."

ابتسم ناظر المحطة بشكل اعتذارى: "نعم - هذا ما بُلِّغْنا به لتنفيذه."

"لكن كيف يكون ذلك؟ ... إنه زمن حرب... هذا قطار تهجير."

"ماذا يمكن أن أقول؟ لماذا، فى بننج، مستر ليم(٤)، القاضى، أعيد وكان معه خطاب تهجير رسمى. لم يسمح له الأوروبيون بركوب العبارات لأنه صينى."

بدأ دينو يتوسل: "أنت لا تفهم... ليس الأوروبيون وحدهم فى خطر... لا يمكن أن تفعل هذا... إنه خطأ..."

امتعض ناظر المحطة، وهزَّ كتفيه استنكاراً: "لا أرى خطأ فى هذا. على الرغم من كل شىء، إنه إحساس عام. إنهم الحكَّام؛ إنهم يقاومون الخسارة."

ارتفع صوت دينو. صاح: "هراء. إذا كنتم تنظرون إلى الأمر بهذه الطريقة، فالحرب قد خُسِرتْ بالفعل. ألا ترى؟ تنازلتم عن كل ما يستحق الحرب..."

حدق فيه ناظر المحطة: "سير. لا مبرر لصياحك. أؤدِّى وظيفتى ليس إلا."

رفع دينو يديه وأمسك بياقة ناظر المحطة. قال وهو يهزه: "أنت لقيط. أنت لقيط... أنت العدو. أمثالك– الذين يؤدون وظائفهم ليس إلا... هم الأعداء."

صرختْ أليسون: "دينو. انتبه!"

شعر دينو بيد تمسك قفاه وتبعده عن ناظر المحطة. اندفعتْ قبضة إلى وجهه فسقط على الأرض. امتلأتْ فتحتا أنفه برائحة الدم المعدنية. نظر إلى أعلى فرأى الحارسين يحدِّقان فيه بغضب، وأليسون وسايا جون يبعدانهما: "اتركاه. اتركاه."

مدَّتْ أليسون يدها إلى دينو وساعدتْه على الوقوف: "تعال، دينو – لنذهب." التقطت الأمتعة وأشارت لدينو وسايا جون إلى السلالم. حين عادوا إلى الشارع. استند دينو على عمود نور ووضع يديه على كتفى أليسون. قال: "أليسون – ربما يسمحون لك، بمفردك. أنت نصف بيضاء. عليك أن تحاولى، أليسون."

وضعتْ يدها على فمه: "صه. لا تقل ذلك، دينو. لا يمكن أن أفكر فى ذلك."

جفف دينو الدم من أنفه: "لكن عليك أن ترحلى، أليسون... مع جدك– سمعت ما قال آه فات. بشكل أو آخر يجب أن ترحلا... لا يمكن أن تبقيا فى مرننجسايد أكثر من ذلك..."

من داخل المحطة صدر صفير حاد. بدأ كل الناس حولهم يجرون، ويتزاحمون في مدخل المحطة، متدافعين على البوابات. أمسك كل من دينو وأليسون وسايا جون بذراع الآخر، واستندوا على عمود النور.

أخيرا سمعوا القطار يبتعد. قال سايا جون: "رحل."

قالت أليسون بسرعة: "نعم، بابا. رحل."

تراجع دينو وحمل حقيبة. قال: "لنذهب ونبحث عن إلونجو."

"صباح الغد نعود إلى مرننجسايد."

"لنبقى؟"

هز دينو رأسه. قال: "سأبقى هنا، أليسون. لن يصيبوني بأذى- ليس لدى ما أخشى عليه. لكن أنت وجدك - بارتباطاتكما - أمريكية وصينية... لا أحد يعرف ما يمكن أن يفعلوه بكما. عليكما أن تذهبا..."

"لكن كيف، دينو؟"

أخيراً قال دينو كلمات أفزعتهما كليهما: "الدايتونا... الوسيلة الوحيدة، أليسون."

ألقتْ بنفسها عليه. "لا. ليس بدونك."

حرص على الكلام بهدوء، وتظاهر بثقة كانت أبعد ما تكون عنه: "سيكون كل شيء بخير، أليسون. سألحق بكما قريباً... في سنغافورة، سترين. لن نفترق كثيراً."

***

كان الظلام قد حل حين استعاد أرجون وعيه. تحول الإحساس في ساقه إلى ألم فج نابح. أدرك أرجون، حين صفا ذهنه، انسياب جدول ماء بالقرب منه، وكان المجرور يدوي بصخب شديد ممل. استغرق الأمر عدة دقائق ليفهم أنها تمطر.

وحين بدأ أرجون يتحرك، شعر بيد كيشان سنجه تقبض بكتفه محذرة. همس كيشان سنجه: "مازالوا حولنا، صاحب. نصبوا جماعة فى المزرعة. ينتظرون."

"كم يقتربون منا؟ على مدى السمع؟"

"لا. لا يستطيعون سماعنا فى المطر."

"كم من الوقت غبتُ عن الوعى؟"

"أكثر من ساعة، صاحب. ربطتُ جرحك. مضت الطلقة تمامًا من وتر ركبتك. ستكون بخير."

لمس أرجون فخذه بحذر شديد. فك كيشان سنجه لفافتى الساقين، وثنى بنطلونه ووضع ضمادة ميدان. وصنع أيضًا مهدًا من نوع ما ليحافظ على ساقه بعيدة عن الماء بتثبيت عصوين على جانبى المجرور.

"ماذا نفعل الآن، صاحب؟"

أربك السؤال أرجون. حاول أن ينظر أمامه، لكن ذهنه لا يزال مشوَّشًا نتيجة الألم ولا يستطيع التفكير فى خطة واضحة: "علينا أن ننتظر خروجهم، كيشان سنجه. نرى صباح الغد."

"هان(٥)، صاحب." بدا الارتياح على كيشان سنجه.

أدرك أرجون بقوة، وهى يستلقى بلا حراك فى مياه يبلغ عمقها عدة بوصات، ما يحيط به: طيات الملابس المبتلة تنفذ من المسام إلى جلده، ضغط جسم كيشان سنجه ممددًا بجواره. امتلأ المجرور برائحة جسديهما: رائحة الملابس العفنة المشبعة بالمطر والعرق، الرائحة المعدنية لدمه.

شرد ذهنه، مضطربًا بالألم فى ساقه. تذكر فجأة نظرة كيشان سنجه على الشاطئ قبل أيام، حين عاد من الجزيرة مع أليسون. هل كان ما رآه فى عينيه ازدراءً – حكمًا من نوع ما؟"

هل فعل كيشان سنجه ما فعله؟ سمح لنفسه بممارسة الحب مع أليسون؛ بافتراسها؛ بخيانة دينو، وهو صديق وأكثر؟ لم يعرف لماذا انقاد لهذا الفعل؛ لماذا رغب فيها إلى هذا الحد. سمع أحد الرفاق يقول إن هذه الأشياء تصادفك فى زمن الحرب - على الجبهة. لكن كيشان سنجه على الجبهة أيضًا- ومن الصعب التفكير فى أن يفعل شيئًا من هذا القبيل. هل هذا جزء من الاختلاف بين أن تكون ضابطًا وجوان(٦) - عليك أن تفرض نفسك، تؤكد إرادتك؟

خطر بباله أن يتحدث عن ذلك. تذكر أن كيشان سنجه أخبره ذات يوم أنه تزوج فى السادسة عشرة. ودَّ أن يسأل كيشان سنجه: ماذا كان الحال حين تزوجت؟ هل عرفت زوجتك قبلها؟ فى ليلة عرسك كيف لمستها؟ هل نظرت إليك فى وجهك؟

حاول أن يكوِّن الجمل فى رأسه ووجد أنه لا يعرف الكلمات المناسبة بالهندوستانية؛ لم يكن يعرف حتى نبرة الصوت التى يجب أن تُطرَح بها تلك الأسئلة. كانت أشياء لا يعرف كيف يقولها. إضافة إلى أنه لا يعرف كيف يقولها، بأية لغة، كان هناك شيء بشع، وحتى غير إنسانى، فى محاولة معرفة ما فى داخل رأس شخص. ماذا قال هاردى فى الليلة الماضية؟ شيئًا عن الارتباط بين يده وقلبه. دُهِش حين قال ذلك؛ لم يكن من المعتاد لرفيق أن يقول أشياء من هذا القبيل. لكن فى الوقت نفسه، من الممتع أن يعتقد أن هاردى - أو أى شخص فيما يتعلق بتلك المسألة، ولو كان هو نفسه - ربما كان يريد شيئًا لا يعرفه. كيف يحدث ذلك؟ هل لأن أحدًا لم يعلمهم الكلمات؟ اللغة المناسبة؟ ربما لأن ذلك قد يكون خطيرًا جدًا؟ أو لأنهم ليسوا كبارًا بما يكفى لأن يعرفوا. كان معوِّقًا بشكل غريب أن يفكر فى أنه لم يملك أبسط أدوات الوعى الذاتى - لم تكن لديه نافذة يعرف من خلالها ما فى داخله. هل هذا ما قصدته أليسون من أنه سلاح فى يد شخص آخر. غريب أن هاردى قال الكلام نفسه أيضًا.

شعر، وهو ينتظر مرور الدقائق، أن ذهنه يركز على ساقه الجريحة. ازداد الألم باطِّراد، وصل إلى درجة سيطرت على كل وعيه، لاغيًا كل الأحاسيس الأخرى. بدأ يتنفس بصعوبة، من بين أسنانه المتلاحمة. ثم، خلال غيمة الألم فى رأسه، أدرك أن يد كيشان سنجه تقبض على ساعده وتهزُّ كتفه تشجيعًا.

"سابَر كارو[٧]، صاحب؛ سينتهى."

سمع نفسه يقول: "لا أعرف كم من الوقت أتحمل، كيشان سنجه."

"يمكن أن تتحمل، صاحب. تماسكْ فقط. اصبرْ."

انتاب أرجون هاجس مفاجئ بأنه سيغيب عن الوعى مرة أخرى، غطس وجهه أولاً فى ماء المطر، وغرق حيث استلقى. فى هلع تشبث بكيشان سنجه، قبض على ذراعه كأنه قارب النجاة.

"كيشان سنجه، قل شيئًا. تحدثْ. لا تتركْنى أغيب عن الوعى مرة أخرى."

"عم أتحدث، صاحب؟"

"لا يهم. تحدث فقط، كيشان سنجه – عن أى شىء. حدثنى عن قريتك."

بتردد بدأ كيشان سنجه يتكلم.

"اسم قريتنا كوتانا[٨]، صاحب، قرب كُورُكشِترا– لا تبعد كثيراً عن دلهى. قرية بسيطة كأية قرية أخرى، لكنَّ هناك شيئًا نقوله دائمًا عن كوتانا..."

"ماذا؟"

"فى كل منزل فى كوتانا تجد قطعة من العالم. فى أحدها شيشة من مصر؛ وفى آخر صندوق من الصين..."

قال أرجون، متحدثًا عبر جدار الألم: "لماذا، كيشان سنجه؟"

"صاحب، لأجيال أرسلت كل عائلة من الجات فى كوتانا أبناءها للخدمة فى جيش السركار الإنجليزى."

"منذ متى؟"

"منذ عصر جدِّ أبى، صاحب – منذ التمرد."

"التمرد؟" تذكر أرجون صوت المقدم بكلاند، وهو يتحدث عن الشىء نفسه: "ما علاقة التمرد بهذا؟"

"صاحب، وأنا ولد، اعتاد الرجال الكبار أن يحكوا لنا قصة. كانت عن التمرد. حين انتهت الثورة ودخل البريطانيون دلهى، عرفوا أن عليهم الاحتفاظ بعدد كبير من العيون فى المدينة. من كوتانا فُوِّض عدد من الكبار بالذهاب. خرجوا فى الفجر، مع مئات من الآخرين، باتجاه المدخل الجنوبى للعاصمة القديمة. وهم لا يزالون بعيدين، رأوا سماء المدينة من فوقهم مسودة بالطيور. حملت الريح رائحة ازدادت قوة كلما اقتربوا من المدينة. كان الطريق مستقيمًا، على مستوى الأرض ويستطيعون الرؤية لمسافة بعيدة. كان المشهد محيِّرًا. بدا أن الطريق تغطيه قوات من رجال طوال جداً. كأن جيشًا من العمالقة ظهر لحراسة الجماهير. عند الاقتراب أكثر، رأوا أنهم ليسوا عمالقة بل رجالاً – جنوداً متمردون خوزقت أجسامهم فى خوازيق حادة. كانت الرائحة مروِّعة. حين عادوا إلى كوتانا، جمع الكبارُ القرويين معًا. قالوا: 'اليوم رأينا وجه الهزيمة ولن يكون وجهنا أبداً.' منذ ذلك اليوم، قررت عائلات كوتانا إرسال أبنائهم إلى جيش السركار الإنجليزى. هذا ما قال لنا آباؤنا. لا أعرف إن كانت القصة صحيحة أم زائفة، صاحب، لكن هذا ما سمعتُه وأنا ولد."

فى التشوش الناتج عن الألم، وجد أرجون مشكلة فى تتبع القصة: "ماذا تقولون، إذن، كيشان سنجه؟ هل تقولون إن القرويين التحقوا بالجيش نتيجة الخوف؟ لكن ذلك مستحيل: لا أحد أعلى الرغم منهم- أو أعلى الرغم منك على ذلك. مم خافوا؟"

قال كيشان سنجه بصوت منخفض: "صاحب، ليس كل الخوف بنفس الشكل. ما الخوف الذى يجعلنا نختبئ هنا، على سبيل المثال؟ خوف من اليابانيين، أم خوف من البريطانيين؟ أم خوف من أنفسنا لأننا لا نعرف من أيهما نخاف أكثر؟ صاحب، قد يخاف إنسان من ظل بندقية بقدر ما يخاف من البندقية نفسها - من يعرف أيهما حقيقى أكثر؟"

للحظة، بدا لأرجون أن كيشان سنجه يتحدث عن شىء غريب جداً، مخلوق خيالى: هلع يجعلك تعيد تشكيل نفسك، يجعلك تغير فكرتك عن مكانك فى العالم- فلا تدرك الخوف الذى شكَّلك. بدت فكرة بهذا القدر من الهلع فكرة عبثية- مثل التقارير عن العثور على كائنات من المعروف أنها اندثرت. اعتقد أن هذا هو الاختلاف، بين الرتب العادية والضباط: ليس لعامة الجنود مدخل للغرائز التى تجعلهم يعملون؛ ليست لديهم مفردات يشكلون بها وعيهم. قُدِّر لهم، مثل كيشان سنجه، أن يكونوا غرباء عن أنفسهم، أن يوجههم آخرون دائمًا.

لكن بمجرد تشكل هذه الفكرة فى رأسه بدلَّها هذيان الألم. انتابتْه هلوسة بصرية مفاجئة. كان هو وكيشان سنجه فيها، لكن بشكلين آخرين: كانا قطعتين من الطين، يلفان على عجلات الخزافين. كان هو، أرجون، أول من لمسه خزاف خفى؛ جاءت يد عليه، لمستْه، وسلمتْه لأخرى؛ تكوَّن، تشكَّل - صار شيئًا فى ذاته - لم يعد يدرك ضغط يد الخزاف، ولا يدرك حتى أنه انصرف. فى مكان آخر، كان كيشان سنجه لا يزال يدور على العجلة، لا يزال طينًا لم يتكوَّن بعد، طريًا، قابلاً للتشكيل. كان هذا اللاتشكل جوهر دفاعه ضد الخزاف ولمسة التشكيل.

لم يستطع أرجون محو الصورة من ذهنه: كيف يمكن أن يكون كيشان سنجه– غير المتعلم، غير المدرك لدوافعه– أكثر إدراكًا لثقل الماضى منه، أرجون؟

قال بصوت أجش: "كيشان سنجه، أعطِنى بعض الماء."

قدم له كيشان سنجه زجاجة خضراء فشرب، آملاً أن يبدد الماء سطوع هلوسة هذه الصور التى تمر أمام عينيه. لكن كان أثره عكسيًا تمامًا. اشتعل ذهنه بالرؤى، بالتساؤلات. هل يمكن – ولو نظريًا – أن تكون حياته واختياراته قد تشكلت دائمًا بمخاوف لم يدركها هو نفسه؟ فكر فى الماضى: لنكاسوكا ومنجو وبيلا، فى الساعات التى قضاها جالسًا إلى حافة النافذة، الإحساس اللذيذ بالتحرر الذى سيطر عليه حين عرف أنه قُبِل فى الأكاديمية العسكرية. لم يلعب الخوف دورًا فى شىء من هذا. لم يعتقد أبدًا أن حياته تختلف عن أية حياة أخرى؛ لم يشعر أبدًا بشك يتعلق باستقلاله الشخصى؛ لم يتخيل أبدًا أن عليه التعامل مع شىء إلا المجال التام للاختيار الإنسانى. لكن إذا كان صحيحًا أن هذه الحياة تشكلت بشكل ما بفعل قوة لا يدركها – فذلك يعنى بالتالى أنه لم يتبع إرادته أبدًا؛ لم يمر أبدًا بلحظة وعى حقيقى بالذات. كل ما افترضه بشأن نفسه كان كذبًا، وهْمًا. وإذا كان الأمر على هذا النحو، كيف يجد نفسه فى تلك اللحظة؟

هوامش

(١) كمبيتاى: Kempeitai.

(٢) كيا هوا: kya hua.

(٣) دكه لو: dekh lo.

(٤) ليم: Lim.

(٥) هان han: نعم (سنكرستية).

(٦) جوان jawan: جندى، من السياق.

(٧) سابَر كارو sabar karo

(٨) كوتانا: kotana.

(٣٧)

حين انطلقوا إلى مرننجسايد فى اليوم التالى، كانت الطرق مزدحمة أكثر من المخرج. بدا أن سيارتهم وحدها تتجه شمالاً: كل السيارات الأخرى فى الاتجاه العكسى - باتجاه كوالالامبور وسنغافورة. التفَّت الرءوس لتحدق وهم يمرون بها؛ أشار لهم بالتوقف عدة مرات أناسٌ يعرضون المساعدة أرادوا التأكد من أنهم يعرفون إلى أين يذهبون.

مروا بعشرات الشاحنات العسكرية، تسافر كل شاحنتين متجاورتين غالبًا، والأبواق تدوى، ليبتعدوا عن الطريق. اضطروا للسير فوق الحواف مسافات طويلة، زاحفين بسرعة تتراوح بين خمسة عشر ميلاً وعشرين ميلاً فى الساعة.

وصلوا إلى سنجى بتانى وقت الأصيل: مضى يوم واحد على سيرهم فيها، لكن البلدة بدت مكانًا مختلفًا. فى الصباح كانت خاوية كأنها بلدة أشباح؛ تناثر معظم سكانها فى الريف؛ وضعت ألواح على محلاتها وأغلقتْ. لم تعد سنجى بتانى خاوية: كان هناك جنودٌ أينما نظروا- استراليون وكنديون وهنود وبريطانيون. لم تكن المجموعات المنظمة التى اعتادوا رؤيتها؛ كانوا رجالاً كسالى بوجوه مرهقة، فى جماعات صغيرة ومجموعات ضئيلة متفرقة. يجوب بعضهم الشوارع وبنادقهم معلقة على أكتافهم مثل الصنانير؛ ويتسكع بعضهم فى ممرات المحلات المظللة، يأكلون من علب ولفائف، يخرجون الطعام بأصابعهم. صُبِغتْ أزياؤهم بالعرق والقذارة، ولطَّخ الوحل وجوههم. رأوا فى حدائق البلدة وطرقها الملتوية- حيث يلعب الأطفال عادة- مجموعاتٍ من رجال مرهقين، يتمددون نائمين، وأسلحتهم مثبتة فى أذرعهم.

لاحظوا علامات النهب: نوافذ محطمة، بوابات فتحت بالقوة، محلات حطمت درفاتها. رأوا نهابين يدخلون الثغرات ويخرجون منها - جنوداً ومحليين يتشاجرون معا، محطِّمين المحلات. لم يكن على مدى الرؤية رجال بوليس. كان واضحًا أن الإدارة المحلية رحلت.

خبط دينو على نافذة الشاحنة: "أسرعْ إلونجو. لنعبرْ..."

وصلوا إلى طريق أغلقته مجموعة من الجنود. وجَّه أحدهم بندقية إلى الشاحنة، ليقفوا. لاحظ دينو أنه يترنح. صاح في إلونجو: "واصل السير؛ إنهم سكارى..." انحرف إلونجو فجأة بالشاحنة من الوسط إلى ممر آخر. نظر دينو خلفه فرأى الجنود يجرون خلفهم، وهم يشتمون: "قرود أوساخ..."

دخل إلونجو زقاقًا، ثم سار بالشاحنة مبطئًا إلى طريق جانبي، خارج البلدة. بعد بضعة أميال، لمح على جانب الطريق شخصًا يعرفه. توقف ليسأل عما يجرى.

كان الرجل مقاولاً فى مزرعة مطاط لا تبعد كثيراً عن مرننجسايد. أخبرهم بأنهم محظوظون لأن الشاحنة لا تزال معهم: فى عزبته، صودرت كل المركبات. جاء ضابط إنجليزى مع مجموعة من الجنود فى وقت مبكر من الصباح: أخذوا شاحنته.

تبادلوا النظرات، وفكر كل منهم فوراً فى الدايتونا، فى جراج مرننجسايد.

بدأ دينو يمضغ مفاصل أصابعه: "هيا، لا تضيع وقتًا..."

بعد دقائق وصلوا إلى المدخل المقوس لمرننجسايد. بدا كأنهم دخلوا بلدًا آخر؛ لم تكن هناك علامة على شيء غير متوقع. كانت العزبة ساكنة وهادئة؛ لوح لهم الأطفال وهم يسيرون إلى الطريق غير الممهد. ثم ظهر المنزل، بعيداً أمامهم على المنحدر: بدا فخمًا وساكنًا.

أخذ إلونجو الشاحنة إلى الجراج مباشرة. قفز وفتح الباب. كانت الدايتونا فى الداخل.

وقف دينو وأليسون ينظران إلى السيارة. أمسك دينو بذراعها ودفعها إلى الجراج: "أليسون... يجب أن ترحلى الآن فوراً... ليس هناك وقت."

خلَّصتْ أليسون يدها من يده وأغلقت باب الجراج: "لا. أرحل فيما بعد- فى الليل. من يعرف كم من الوقت ينقضى قبل أن يرى كل منا الآخر مرة أخرى؟ أريد أن أقضى بضع ساعات معك قبل أن أرحل."

***

فى الصباح ذهب كيشان سنجه يستطلع الأمر ووجد اليابانيين انسحبوا من المزرعة تحت غطاء الليل. ساعد أرجون على الخروج من المجرور وسنده معتدلاً على أرض مفروشة بأوراق الأشجار. ثم سحب ملابس أرجون المبللة، وعصرها، ونشرها فى بقعة مشمسة.

تغضن صدر أرجون وبطنه من الانغمار طويلاً فى المياه، لكن ألم ساقه سكن. شعر بارتياح حين رأى أن الضمادة على فخذه أدت دورها وأوقفت النزيف.

وجد كيشان سنجه غصناً يمكن استخدامه عكازاً، وبدأ السير ببطء وكان أرجون يتوقف كل بضع خطوات ليعدل قبضته. وصلا إلى درب محصَّب. تبعا اتجاه الدرب محتمين بصف من الأشجار. لاحظا بعد لحظة علامات على وجود حى سكنى قريب – خِرَقًا وآثارَ أقدام وقشرَ بيض متناثر أبعدته الطيور. رأيا بعد قليل سحباً من دخان الخشب ترتفع فوق الأشجار. شمَّا رائحة مألوفة لأرز وبذور خردل محروقة. ثم لمحوا حى عمال المزرعة: صفين متشابهين من الأكواخ يواجه كل منهما الآخر عبر الدرب.

كان عدد كبير من الناس يتشاجرون فى الخلاء وكان واضحاً، حتى من بعيد، أن شيئًا غير طبيعى يحدث.

كانت الأكواخ فى منخفض بسيطٍ، حوضٍ، محاطٍ بأرض أعلى من كل جانب. بمساعدة كيشان سنجه صعد أرجون حافة منخفضة. تطلعا، وهما مستلقيان على بطنيهما، إلى الحوض.

كان هناك حوالى خمسين مسكنًا فى صفين متوازيين. وفى النهاية معبد هندوسى صغير - سقيفة بسقف من الصفيح يحيط بها جدار مدهون بالأحمر والأبيض. بجوار المعبد منطقة منزوعة الأشجار بسقيفة مفتوحة الجوانب، بسقف من الصفيح أيضًا. من الواضح أن هناك لقاء جماعيًا. كانت السقيفة مركز الإثارة، وكل من فى القرية يتجهون إليها.

"صاحب. انظر." أشار كيشان سنجه إلى سيارة سوداء تقف شبه مختبئة خلف السقيفة. كان هناك علم على الكبوت، مثبت فى قضيب عمودى. بدا العلم صغيراً جداً من تلك المسافة ولم يتعرف عليه أرجون من النظرة الأولى. كان مألوفًا وغير مألوف؛ تصميمًا يعرفه جيداً لكنه لم يره منذ فترة طويلة. التفت إلى كيشان سنجه فوجد المراسلة ينظر إليه بحذر.

"هل تعرف ذلك الجهندا(١)، كيشان سنجه؟"

"صاحب، إنه التيرنجا(٢)..."

بالطبع - كيف فشل فى التعرف عليه؟ علم الحركة الوطنية الهندية: عجلة تلفٌ على خلفية من البرتقالى والأبيض والأخضر. وهو لا يزال مرتبكًا بشأن العلم أتت دهشة ثانية. خرج من السقيفة شخص مألوف معمم بالكاكى، يتجه إلى السيارة. هاردى، يستغرق فى محادثة مع رجل آخر، غريب- سيخى بلحية بيضاء يرتدى سترة بيضاء طويلة يرتديها الرجال المتعلمون، جيانى.

لم يعد هناك سبب للانتظار. كافح أرجون مع قدميه: "كيشان سنجه، شلو..." مال بثقله على عكازه، وبدأ يسير إلى أسفل المنحدر باتجاه السقيفة.

"هاردى! أوى[٣]، هاردى!"

قطع هاردى المحادثة وتطلع إلى أعلى: "يار؟ أرجون؟"

جاء يجرى إلى المنحدر، والابتسامة تملأ وجهه: "يار- اعتقدنا بشكل مؤكد أن اللقطاء أمسكوا بك."

قال أرجون: "عاد كيشان سنجه من أجلى. لم أكن هنا الآن لولاه."

خبط هاردى كيشان سنجه على كتفه: "شاباش[٤]!"

هزَّ أرجون كوع هاردى: "أخبرْنى الآن، ماذا يحدث هنا؟"

قال هاردى: "لا تتعجل، يار. سأخبرك، لكن اغتسل أولاً. أين أصيبت؟"

"فى وتر الركبة، على ما أعتقد."

"هل الجرح شديد؟"

"أحسن اليوم."

"لنذهب إلى مكان يمكن أن نجلس فيه. ونضع ضمادة على جرحك."

أشار هاردى لجندى. "جالدى إم. أوه. كو بهيجو[٥]." أدخل أرجون إلى أحد الأكواخ وترك الباب مفتوحاً. قال بابتسامة: "قائدنا الأعلى."

كان الكوخ مظلماً، والنوافذ الصغيرة مغطاة بخِرَقٍ. والحوائط الخشبية مغطاة بطبقات من السناج، ورائحة الدخان قوية. بجوار إحدى الحوائط شربوى[٦] ضيق من الخيوط: أخذ هاردى أرجون إلى السرير وساعده على الجلوس.

كانت هناك طرقة على الباب ودخل ممرض. فحص ضمادة أرجون بدقة ونزعها بحركة واحدة سريعة. كشر أرجون فقدَّم له هاردى كوبًا من الماء.

"اشربْ. أنت فى حاجة إليه."

تجرع أرجون الكوب وأعاده. قال: "هاردى، أين بَكِى؟"

قال هاردى: "يستريح. فى سقيفة خالية على الطريق. المكان الوحيد المناسب له. يعانى من مشكلة ذراعه. أعطيناه مسكنات. راح فى غيبوبة طوال الصباح."

بدأ الممرض ينظف جرح أرجون وهو يتشبث بحافة السرير.

قال من بين أسنانه المنقبضة: "أخبرنى، هاردى، ماذا يحدث هنا؟"

قال هاردى: "سأحكى لك باختصار قدر ما أستطيع. حدث الأمر على النحو التالى: الليلة الماضية، بعد أن فقدناك بوقت قصير، التقينا بهنديين من نقارى المطاط. وحين تحدثنا إليهما قالا إننا سنكون آمنين فى حى العمال. حضرنا إلى هنا. كانوا كرامًا جدًا: قدَّموا لنا طعامًا وأسرَّة. أرونا السقيفة التى وضعنا فيها بكى. لم نكن نعرف، لكن تبين أن بعضهم أعضاء فى جمعية الاستقلال الهندية. أرسلوا كلمة إلى مكتبهم وفى هذا الصباح وصل جيانجى(٧) فى سيارة – يرفرف عليها العلم. يمكن أن تتخيل مدى دهشتنا. تبين أنه جيانى أمريك سنجه – تعرف الاسم؟ كان توقيعه على المنشورات التى أسقطها اليابانيون علينا فى جيترا."

قال أرجون، بجفاف: "نعم. أعرف ذلك الاسم. ماذا يريد؟"

توقف هاردى، مرددًا لحنًا بصوت منخفض. عرف أرجون أنه يفكر بدقة فيما يقول بعد ذلك.

"أرجون، هل تتذكر الكابتن موهون سنجه(٨)؟"

"نعم. البنجاب الرابعة عشرة، حسنًا؟ ألم يكن فى جيترا أيضًا؟ أعتقد أنى رأيته فى الطريق إلى خط أسون."

"نعم. تواروا فى المزرعة واتجهوا إلى الشرق كما فعلنا بالضبط."

"ماذا إذن عن الكابتن موهون سنجه؟"

"أخبرنى جيانجى أنه على اتصال بجمعية الاستقلال الهندية."

"واصلْ"

"انتظرْ." انتهى الممرض من وضع ضمادة على جرح أرجون. رآه هاردى يخرج فأغلق الباب. توقف، ممرِّرًا إصبعًا فى لحيته. قال. "انظرْ، أرجون. لا أعرف كيف ستفهم هذا. أخبرك فقط بما أعرف..."

"واصلْ، هاردى."

"اتخذ الكابتن موهون سنجه خطوة كبيرة."

"أية خطوة؟"

"قرر الانشقاق عن البريطانيين."

"ماذا؟"

قال هاردى بصوت ثابت وهادئ: "نعم. سيشكل وحدة مستقلة– الجيش الوطنى الهندى. معه كل ضباط البنجاب الرابعة عشرة – أقصد الهنود. كومار ومسعود وآخرون كثيرون أيضًا. وقد دعوا كلاً منا للانضمام..."

قال أرجون: "هكذا؟ تفكر فى هذا؟"

ابتسم هاردى: "ماذا أقول، أرجون؟ تعرف ما أشعر به. لم أخفِ آرائى أبداً – على عكس بعض رفاقك."

وجه أرجون إصبعًا إليه: "هاردى، انتظر. فكر دقيقة فقط. لا تتعجلْ. كيف تعرف هذا الجيانى؟ كيف يمكن حتى أن تعرف أنه يقول الحقيقة فيما يخص الكابتن موهون سنجه؟ كيف تعرف أنه ليس إلا أداة يابانية؟"

قال هاردى: "كان أمريك سنجه فى الجيش أيضًا. عرف أبى - لا تبعد قريته عن قريتنا كثيرًا. إذا كان أداة يابانية، فلابد أن هناك سببًا. على أية حال، من نحن لنسميه أداة؟" ضحك هاردى: "على الرغم من كل شىء، ألسنا، نحن، أدوات أكبر من الكل؟"

"انتظرْ." حاول أرجون ترتيب أفكاره. شعر بارتياح كبير لأنه تمكن من الإفصاح أخيرًا، من الإعلان عن مناقشات طويلة أجراها مع نفسه فى عقله.

قال أرجون: "إذن ماذا يعنى هذا؟ هل سيحارب موهون سنجه ورفاقه إلى جانب اليابانيين؟"

"نعم. بالطبع. حاليًا - حتى يخرج البريطانيون من الهند."

"لكن هاردى- لنفكرْ فى الأمر جيدًا. ماذا يريد اليابانيون منا؟ هل يهتمون بنا وباستقلالنا؟ لا يريدون إلا إخراج البريطانيين ليدخلوا ويأخذوا مكانهم. يريدون استغلالنا فقط: ألا ترى ذلك؟"

استهجن هاردى إذعانه: "بالطبع يريدون، أرجون. إذا لم يكن هم، فسيكون غيرهم. سيكون هناك دائمًا من يحاول استغلالنا. هنا تكمن الصعوبة، ألا ترى؟ نحاول للمرة الأولى فى حياتنا أن تكون لنا آراؤنا- لا أن نتلقى الأوامر."

اجتهد أرجون للحفاظ على هدوء صوته: "هاردى، انظر. هذا ما قد يبدو لك الآن، لكن اسألْ نفسك: ما فرص أن نتمكن من عمل شىء لأنفسنا؟ سننتهى على الأرجح

ونحن نحاول مساعدة اليابانيين على الدخول إلى الهند. ماذا يعنى استبدال اليابانيين بالبريطانيين؟ ليس البريطانيون، كما قال سادة استعماريون، بهذا السوء - أفضل من الكثير. من المؤكد أنهم أفضل بكثير مما سيكون عليه اليابانيون."

ضحك هاردى ضحكة عالية، ولمعتْ عيناه: "يار أرجون، فكر فى أين سقطنا حين بدأنا الحديث عن سادة طيبين وسادة أشرار. ماذا نحن؟ كلاب؟ أغنام؟ ليس هناك سادة طيبون وسادة أشرار، أرجون- بطريقة ما كلما كان السيد أفضل كانت حالة العبد أسوأ، لأنه يُنسيه حقيقته..."

حدق كل منهما فى الآخر، والوجهان لا يبتعدان أكثر من بوصات. ارتجف جفن هاردى وشعر أرجون بحرارة نفَسه. كان أول من انسحب.

"هاردى، لن يفيدنا أن نتعارك معًا."

"لا."

بدأ أرجون يمضغ مفاصل أصابعه. قال: "اسمع، هاردى. لا تظن أنى أختلف مع ما تقول. لا أختلف. أعتقد أنك على صواب فى معظم ما تقول. لكنى أحاول فقط أن أفكر فينا - فى رجال مثلك ومثلى - فى مكاننا فى العالم."

"لا أفهم."

"انظر فقط إلينا، هاردى- انظر فقط إلينا. ماذا نحن؟ تعلمنا رقص التانجو وعرفنا أكل لحم البقر المشوى بالشوكة والسكين. باستثناء لون بشرتنا، لا يستطيع معظم الناس فى الهند التعرف علينا كهنود. حين التحقنا بالجيش، لم نضع الهند فى عقولنا: أردنا أن نكون صحابًا وصرنا. هل تعتقد أننا نستطيع إلغاء هذا كله بمجرد وضع علم جديد.

هزَّ هاردى كتفيه اشمئزازًا. قال: "انظرْ، أنا عسكرى بسيط، يار. لا أعرف ما ترمى إليه. المسألة بالنسبة لى صح وغلط - ما هو جدير بالقتال من أجله وما هو غير جدير. هذا كل ما فى الأمر."

كانت هناك طرقة على الباب. فتحه هاردى فوجد جيانى أمريك سنجه يقف فى الخارج.

"الجميع ينتظرون..."

استدار هاردى إلى أرجون: "جيانيجى، إيك مينيت(٩)... انظرْ، أرجون-" كان صوته مجهداً من المناقشة- "سأقول لك ما أنا ذاهب لأفعله. عرض جيانى أن يأخذنا إلى خطوط اليابانيين إلى موهون سنجه. بالنسبة لى اتخذتُ قرارى بالفعل. أنا ذاهب لأشرح هذا للرجال؛ أنا ذاهب لأخبرهم لماذا أعتقد أن هذا ما علينا أن نفعله. يمكن أن يقرروا بأنفسهم. هل تريد أن تأتى وتسمع؟"

أومأ أرجون: "نعم."

أعطى هاردى أرجون عكازه، وذهبا معًا إلى السقيفة، سارا ببطء فى المسار المحصَّب. السقيفة ممتلئة؛ الجنود فى المقدمة، يقرفصون فى صفوف منتظمة. وخلفهم سكان حى العمال: الرجال فى السارُنج والنساء فى السارى. وكثير من النقارين معهم أطفال فى أيديهم. فى أحد أطراف السقيفة طاولة وكرسيان. احتلَّ هاردى مكانه خلف الطاولة وجلس أرجون وجيانى أمريك على الكرسيين. كان هناك صخب شديد: أناس يهمسون، يتحدثون؛ وأطفال يضحكون من طرافة المناسبة. كان على هاردى أن يصيح ليُسمَع.

بمجرد أن بدأ هاردى، أدرك أرجون، بدهشة، أنه متحدث موهوب، خطيب متمرس. ملأ صوته السقيفة، وردد السقف الصفيح صدى صوته - *الواجب*، *البلاد*، *الحرية*. أدرك أرجون، وهو يستمع باهتمام، أن طبقة من العرق تنساب على وجهه. نظر

إلى أسفل وأدرك أن العرق يتساقط منه، يتدفق من كوعيه وساقيه. شعر أن حرارته ترتفع كما كان الحال فى الليلة السابقة.

فجأة دوَّت فى السقيفة أصوات جماعية، صخب يصم الآذان. سمع أرجون هاردى يجأر فى الحشد: "هل أنتم معى؟"

كان هناك هياج آخر؛ انفجار هائل لأصوات تتدفق إلى السقف فيردد صداها. وقف الجنود على أقدامهم. أمسك اثنان منهم بأذرع بعضهما وبدآ يرقصان البهنجرا(١٠)، هازين الأكتاف وضاربين الأرض بالأقدام. ومن خلفهما العمال - رجال ونساء وأطفال - يصيحون أيضًا ملقين بأشياء فى الهواء، يخبطون، ويلوِّحون. نظر أرجون إلى كيشان سنجه فرأى وجهه متورداً، مبتهجاً، وعينيه ساطعتين.

لاحظ أرجون، بطريقة مستقلة وحيادية تقريباً، أن كل ما فى السقيفة، منذ دخلها، تغير. كأن لون العالم كله تغير، انتحل مظهراً مختلفًا. بدت حقائق بضع دقائق سابقة مثل حلم غير مفهوم: هل اندهش حقًا حين نظر على الجرف ورأى علمًا هندياً فى حى العمال؟ لكن فى أى مكان آخر كان هذا العلم؟ هل صحيح حقًا أن جد كيشان سنجه فاز بوسام فى الفلندرز(١١)؟ هل صحيح أن كيشان سنجه الرجل نفسه الذى عرفه دائمًا- أكثر الجنود إخلاصًا، المنحدر من أجيال من الجنود المخلصين؟ نظر إلى الرجلين الراقصين: كيف خدم مع هؤلاء الرجال مدة طويلة ولم يعرف أبداً أن إذعانهم لم يكن كما بدا؟ وكيف يمكن ألا يعرف ذلك أبداً عن نفسه؟

هل هكذا يشتعل التمرد؟ فى لحظة طيش، يصبح المرء غريبًا عن الشخص الذى كان عليه قبل لحظة؟ أم العكس؟ حدث الأمر حين تعرف المرء على الغريب الذى كان عليه دائمًا؛ تبدلت كل ولاءات المرء ومعتقداته؟

لكن إلى أين تذهب ولاءاته، وكانت طليقة؟ كان رجلاً عسكرياً، ويعرف أنه لا شىء- لا شىء مهم- بدون الإخلاص، بدون الإيمان. لكن لمن يدَّعى الإخلاص؟ الولاءات

القديمة للهند، الولاءات القديمة- حطموها منذ زمن بعيد؛ شيد البريطانيون إمبراطوريتهم بمحوها. لكن الإمبراطورية كانت ميتة- عرف هذا لأنه شعر بأنها تموت داخله، حيث كان لها أقوى نفوذ- ومع مَنْ يحافظ على إيمانه؟ الولاء، العام، الإيمان- كانت أشياء أساسية وهشة مثل عضلات قلب الإنسان؛ تحطيمها سهل، ومن المستحيل إعادة بنائها. كيف للمرء أن يبدأ العمل على إعادة خلق النسيج الذى يربط الناس معًا؟ يفوق ذلك قدرات شخص مثله، شخص تدرب على أن يدمر. إنه عملٌ لا يستغرق عامًا أو عشرة أعوام أو خمسين عامًا- عملٌ يحتاج قرونًا.

"هكذا، أرجون؟" فجأة كان هاردى يركع أمامه، ناظرًا فى وجهه. كان مبتهجًا، متألقًا بالانتصار.

"أرجون؟ ماذا أنت فاعل، إذن؟ هل أنت معنا أم ضدنا؟"

مدَّ أرجون يده إلى عكازه واندفع واقفًا على قدميه: "اسمعْ، هاردى. قبل التفكير فى أى شىء آخر- هناك شىء علينا أن نفعله."

"ماذا؟"

"بَكِى، القائد - يجب أن ندعه يذهب."

حدق هاردى فيه ولم ينطق بكلمة.

واصل أرجون: "علينا أن نفعل ذلك. لا يمكن أن نكون مسئولين عن قبض اليابانيين عليه وأسره. كان رجلاً عادلاً جداً، هاردى، وكانت الخدمة تحت قيادته جيدة- تعرف ذلك. يجب أن ندعه يذهب. ندين له بذلك."

هرش هاردى لحيته: "لا يمكن أن أسمح بذلك، أرجون. يمكن أن يبوح بموقعنا، تحركنا..."

قاطعه أرجون. قال بتعب: "ليست مسألة ما تسمح به، هاردى. لست رئيسى، ولستُ تابعك. أنا لا أطلب منك. أنا أخبرك بأنى ذاهب لأقدم للقائد بعض الطعام وبعض الماء وأدعه يعثر على طريق للعودة عبر الحى. إذا أردت أن توقفنى، فسوف تُشعل حربًا بيديك. أعتقد أن بعض الرجال سيأخذون جانبى. قررْ."

عبرت ابتسامة باهتة وجه هاردى. "انظر لنفسك، يار." كان صوته لاذعًا بالسخرية. "حتى فى هذا الوقت أنت شبلوس[١٢] – مازالت تفكر فى التملق. فيم تأمل؟ أن يقف بجانبك إذا لم تسر الأمور بشكل صحيح؟ تأخذ ضمانًا صغيراً للمستقبل؟"

"أنت لقيط." تمايل أرجون باتجاه هاردى، وهو يمد يده إلى ياقته، ويهزُّ عكازه.

ابتعد هاردى بسهولة. قال بصوت أجش: "آسف. كان لا يجب أن أقول ذلك. ثيك هَى[١٣]. افعل ما تريد. سأرسل شخصًا يريك مكان بَكِى. لكن أسرعْ – هذا كل ما أطلبه."

هوامش

(١) الجهندا jhanda: علَم (هندوستانية).

(٢) التيرنجا tiranga: العلم الوطنى الهندى (هندوستانية).

(٣) أوى: oye.

(٤) شاباش shabash: برافو (هندوستانية).

(٥) جالدى إم. أوه. كو بهيجو Jaldi- M.O. ko bhejo

(٦) شربوى charpoy: سرير يتكون من إطار خشبى حول مجموعة من الحبال المعقودة معًا.

(٧) جيانجى: Gianiji.

(٨) موهون سنجه: Mohun Singh.

(٩) إيك مينيت ek minit: دقيقة واحدة.

(١٠) بهنجرا bhangra (هندى، بنجابى): رقصة شعبية فى منطقة البنجاب، بدأت كرقصة يرقصها الفلاحون فى بداية الربيع.

(١١) الفلندرز Falnders: منطقة جغرافية تقع حاليًا فى بلجيكا وفرنسا وهولندا.

(١٢) شَبْلوس: chaploos.

(١٣) ثيك هَى: theek hai.

(٣٨)

استغرق دينو وأليسون ساعة فى إخلاء الغرفة المظلمة. لم يكن هناك كهرباء، وكان عليهما العمل على ضوء الشموع. أنزلا مكبِّره، كوَّما طفاياته، وحزما صوره والنيجاتيف، ولفاها فى ملابس قديمة ووضعاها فى صناديق. حين انتهيا، أطفأ دينو الشمعة، وهما لا يزالان واقفين فى الدفء الساكن فى غرفة تشبه الدولاب، يستمعان لصوت أزيز الحصاد فى الليل ونقيق ضفادع الطقس المطر. سمعا على فترات متقطعة، صوتًا متقطعًا، نوعًا من النباح، كأنَّ مجموعة كلاب أُقْلقتْ فى قرية نائمة.

همستْ: "بنادق."

مدَّ دينو يده إليها فى الظلام، وشدَّها إليه.

"إنهم بعيدون."

ضمَّها، التفَّتْ ذراعاه حول جسمها بقوة. فتح راحتى يديه ومسح على شعرها وكتفيها والمنحنى المقعر لظهرها. ارتطمت أصابعه بطوق ردائها، وسحب الثياب ببطء، رفعها عن كتفيها، وشدَّها للخلف. غطس على ركبتيه، مس وجهه جسمها بطوله، لمسها بخده وأنفه ولسانه.

استلقيا على الأرضية الضيقة، متلاصقين، والسيقان تلتف حول بعضها، والفخذ على الفخذ، والأذرع ممتدة، وسطح بطن كل منهما مطبوع على الآخر. علقتْ أغشية من العرق متشابكة بين جسميهما، ربطت بينهما، شدَّتْهما معًا.

"أليسون... ماذا أفعل؟ بدونك؟"

"وأنا، دينو؟ ماذا عنى؟ ماذا أفعل؟"

بعد ذلك، رقدا ساكنين، ورأس كل منهما على ذراع الآخر. أشعل سيجارة ووضعها بين شفتيها.

قال: "ذات يوم، حين نعود إلى هنا معًا، سأريك السحر الحقيقى لغرفة مظلمة..."

"ما هو؟"

"حين تطبعين بالتلامس... حين تضعين النيجاتيف على الورقة وترين الحياة تنبعث فيها... تصبح ظلمة أحدهما نور الآخر. تساءلتُ حين رأيتُ ذلك يحدث أول مرة، ماذا تكون هذه اللمسة؟... مع هذا الامتصاص التام؟... بالنسبة لشىء تصل إليه إشعاعات ظلال الآخر؟"

لمستْ وجهه بأناملها: "دينو."

"إذا استطعتُ فقط أن أبقى عليكِ بهذه الطريقة... بحيث تطبعين علىَّ... كل جزء منى..."

"دينو، سيكون هناك وقت." أخذتْ وجهه بين يديها وقبَّلتْه. "أمامنا بقية حياتنا..." قامتْ على ركبتيها، أشعلت الشمعة مرة أخرى. أمسكتْ باللهب أمام وجهه، نظرتْ بقوة فى عينيه، كأنها تحاول غرسهما فى رأسها.

قالتْ: "لن تطول المدة، دينو؟ أليس كذلك؟"

"لا... لن تطول."

"هل تؤمن بذلك حقًا؟ أم تكذب - من أجلى؟ أخبرنى بالحقيقة، دينو: أفضِّلُ أن أعرف."

أمسك بكتفيها. تكلم بكل ما استطاع من ثقة: "نعم، أليسون. نعم. سنعود إلى هنا بعد فترة قصيرة... نعود إلى مرننجسايد... سيكون كل شيء على حاله، إلا..."

"إلا؟" عضَّتْ شفتها، كأنها تخشى سماع ما سينطق به.

"إلا أننا سنكون متزوجين."

انفجرتْ فى ضحكة مبتهجة. قالت وهى تهزُّ رأسها: "نعم. نعم. سنكون متزوجين. تركنا ذلك فترة طويلة. كانت غلطة."

التقطت الشمعة وخرجتْ من الغرفة جريًا. استلقى ساكنًا، يسمع وقع خطاها: كان المنزل أهدأ مما عرف فى أى وقت. فى الدور الأرضى، كان سايا جون فى السرير، مرهقًا ونائمًا.

نهض وتبعها عبر الدهاليز المظلمة إلى غرفة نومها. فتحت أليسون الخزائن وكانت تفتش الأدراج. التفتتْ فجأة إليه، وهى تمدُّ يدها: "انظرْ." لمع خاتمان ذهبيان فى ضوء الشمعة.

قالت: "كانا خاتمى والدىَّ." مدَّتْ يدها إلى يده ودفعتْ خاتمًا فوق مفصل بِنْصَرِه: "بهذا الخاتم أتزوجك."

ضحكتْ وهى تضع الخاتم الآخر فى كفِّه. ثم مدَّتْ إصبعًا، ويدها تمتدُّ أمامها.

تحدتْه: "هيا. افعلْها. أتحداك."

قلَّب الخاتم فى يديه ثم وضعه فى مكانه فى إصبعها.

"هل نحن متزوجان الآن؟"

هزَّتْ رأسها ضاحكة، ورفعت إصبعها إلى ضوء الشمعة. قالتْ: "نعم. بطريقة ما. فى نظر أنفسنا. وأنت بعيد تبقى لى بهذا الخاتم."

شدَّت الناموسية المعلقة من السقف، وأسدلتْها على أطراف سريرها. "تعال." أطفأت الشمعة وسحبتْه إلى الناموسية.

بعد ساعة، استيقظ دينو على صوت طائرات تقترب. مدَّ يده إلى يدها ووجدها مستيقظة، تجلس منتصبة وظهرها إلى رأس السرير: "أليسون..."

"لا تقلْ حان الوقت. لم يحنْ بعد."

أمسك كل منهما بالآخر واستمعا. كانت الطائرات فوقهما مباشرة، على ارتفاع منخفض. ارتجَّت النوافذ وهى تقترب منها.

قال دينو: "وأنا صغير. حكى أبى ذات مرة حكاية عن مندالى. حين نُفِى الملك، كان على فتيات القصر أن يسرن فى المدينة، إلى النهر... كانت أمى معهن وتبعها أبى، محتميًا بالظلال. كانت المسافة كبيرة والفتيات مرهقات وفى حالة مزرية... وضع أبى كل ما معه من فلوس واشترى بعض الحلوى... ليرفع معنوياتهن. كان يحرس الفتيات جنودٌ، غرباء، إنجليز... استطاع أبى بطريقة ما التسلل عبر الطوق... أعطى أمى علبة حلوى. وعاد بسرعة إلى الظلال... رآها تفتح العلبة... ذهل... كان أول ما فعلتْه تقديم بعضها للجنود الذين يسيرون بجوارها. غضب فى البداية؛ شعر بإهانة... لمَ تخلَّتْ عنها... خاصة لأولئك الرجال، آسريها؟ لكن، بعد ذلك، ببطء، فهم ما فعلتْ، وكان سعيدًا... رآه صحيحًا – كانت طريقة للبقاء على قيد الحياة. كان إعلان التحدى لا يخدم أى هدف..."

قالت بهدوء: "أعتقد أنك تريد أن تقول لى شيئًا ما، دينو. ماذا؟"

"أريد فقط أن تكونى حذرة، أليسون... لا تكونى عنيدة... تخلى عن طباعك، لبعض الوقت فقط... كونى حريصة، هادئة..."

ضغطتْ على يده: "أحاول، دينو. أعدك. وأنت أيضًا: كن حذرًا أنت الآخر."

"سأكون – طبيعتي. لسنا متماثلين في هذا... لهذا أنا قلق عليك."

مرَّ سربٌ آخر من الطائرات. كان الحفاظ على السكون أكثر من ذلك مستحيلاً والنوافذ ترتج كأنها تتحطم. لفَّتْ أليسون ساقيها ونزلتْ من السرير. التقطتْ حقيبة يدٍ بها مفاتيح الدايتونا. كانت ثقيلة على غير المتوقع. فتحت الإبزيم، ونظرتْ داخلها ورفعتْ حاجبها لدينو.

"مسدس أبيك. وجدْتُه في درج."

"هل هو مشحون؟"

"نعم. فحصته."

أغلقت الإبزيم وعلقت الحقيبة على كتفها: "حان الوقت."

نزلا ووجدا سايا جون يجلس في مقعده المفضل. نزلتْ أليسون إلى ركبتيها بجواره ووضعتْ يداً حول خصره.

"أريد بركاتك، جدي."

"لماذا؟"

"سنتزوج أنا ودينو."

امتلأ وجهه بابتسامة. رأت، مما أسعدها، أنه فهم؛ كانت عيناه نقيتين وصافيتين. أشار لهما بالاقتراب أكثر ووضع ذراعيه حول أكتافهما.

"ابن رجكومار وابنة ماثيو." ترنَّحَ برقة من جانب إلى آخر، ممسكًا برأسيهما مثل إكليلين تحت ذراعيه: "هل هناك ما هو أفضل؟ ربطتما العائلتين. سيسعد آباؤكما."

خرجا، كان المطر ينهمر. أنزل دينو كبوت الدايتونا وأبقى الباب مفتوحًا من أجل سايا جون. ربت الرجل العجوز على ظهره وهو يدخل السيارة.

قال: "أخبرْ رجكومار بأنه سيكون عرسًا كبيرًا . سأصرُّ على حضور رئيس الأساقفة."

حاول دينو أن يبتسم: "نعم. بالطبع."

ثم ذهب دينو إلى ناحية أليسون وركع بجوار النافذة. لم تنظرْ إليه."

"لن نقول كلمات الوداع."

"لن نقول."

أدارت السيارة ورجع للخلف. في قاع الممر، توقفت الدايتونا. رآها تميل للخارج، ورأسها مظلل في أضواء السيارة المطوقة بالمطر. رفعتْ ذراعًا لتلوح، وردَّ عليها بالتلويح. ثم صعد السلالم جريًا، متنقلاً بسرعة من نافذة لأخرى. شاهد أضواء الدايتونا حتى اختفتْ.

***

كانت السقيفة التي قضى فيها المقدم بكلاند الليل بناية من الطوب الأحمر تحيط بها الأشجار، على بعد حوالى ربع ميل من حي العمال. قاد أرجون إلى هناك "مقاولٌ" شاب سريع الكلام يرتدي شورتًا كاكيًا: حمل زجاجة الماء وصرة الطعام الذي أعد للمقدم.

أطلع المقاولُ أرجون على درب يتجه للجنوب بين هضاب منخفضة. قال: "هناك بلدة تبعد ميلين. آخر ما سمعنا أنها مازالت في قبضة البريطانيين. سلَّمه المقاولُ زجاجة الماء وصرة الطعام.

"سيكون الكولونيل آمنًا إذا سار في هذا الدرب. لن يستغرق الأمر منه أكثر من ساعة أو اثنتين حتى يصل إلى البلدة، حتى لو سار ببطء شديد."

صعد أرجون، بحذر شديد، خطوات إلى الباب. طرق الباب وحين لم يسمع رداً استخدم طرف العكاز ليدفع الباب ويفتحه. وجد المقدم بكلاند مستلقيًا على الأرضية الأسمنت فوق فراش.

"سير."

جلس المقدم بكلاند فجأة، محدقًا حوله. قال بحدة: "من أنت؟"

"الضابط روى، سير." حيَّاه أرجون، مستنداً على عكازه.

صار صوت المقدم دافئًا: "أوه، روى. أنا سعيد لرؤيتك."

"أنا أيضًا سعيد لرؤيتك، سير."

"أنت جريح – ماذا حدث؟"

"رصاصة فى رباط الركبة، سير. ستكون على ما يرام. كيف حال ذراعك؟"

"تحسنتْ قليلاً."

"هل تعتقد أنك فى حالة تسمح لك بالمشى، سير؟"

رفع المقدم بكلاند حاجبًا. حدَّقَ بحدَّةٍ فى الصرة وزجاجة الماء اللتين فى يدى أرجون: "لماذا؟ ماذا تحمل فيها، روى؟"

"بعض الطعام والماء، سير. تقدم اليابانيون فى الطريق السريع بين الشمال والجنوب. إذا سرْتَ فى الاتجاه الآخر، يمكنك أن تجتاز الخطوط."

"أجتاز الخطوط؟" كرر المقدم بكلاند العبارة لنفسه ببطء: "أنا ذاهب وحدى، إذن؟ ماذا عنك؟ وعن الآخرين؟"

"نبقى هنا، سير. حاليًا."

"أرى." نهض المقدم بكلاند على قدميه، سانداً يمناه على صدره. أخذ زجاجة الماء من أرجون وفحصها، قلَّبها فى يديه. "ستنضمون لليابانيين، أليس كذلك؟"

"لا أعبِّر عن الأمر بهذا الشكل، سير."

"أنا متأكد من أنك لا تعبر عنه بهذه الطريقة." تطلَّع المقدم بكلاند فى أرجون عن قرب، مقطِّبًا.

قال أخيراً: "تعرف، روى. لم اعتبرْك انتهازيًا أبدًا. بعض الآخرين، نعم- ربما تستطيع أن ترى أين تكمن الإمكانية. لكن ليس لك مظهر الخائن."

"قال البعض إنى كنتُ خائنًا طوال الوقت، سير؟"

هزَّ المقدم بكلاند رأسه: "لا تؤمن حقًّا بذلك، أليس كذلك؟ لا تؤمن بأى من هذا."

"سير؟"

"لا تؤمن. وإلا ما كنت هنا، تأتى إلىَّ بطعام وماء. العسكرى غير الكفء فقط هو الذى يساعد عدواً على الهرب. أو الأحمق."

"شعرْتُ أن علىَّ أن أفعل ذلك، سير."

"لماذا؟"

قال أرجون: "لأنها ليستْ غلطتك، سير. كنْتَ دائمًا عادلاً معنا. كنت أفضل قائد يمكن أن نأمل فيه – فى ظلِّ هذه الظروف."

"أفترض أنك تتوقع منى أن أشكرك على هذا الكلام؟"

فتح أرجون الباب: "لا أتوقع شيئًا، سير. لكن إن كنْتَ لا تبالى، سير، ليس هناك وقت. سأريك الطريق."

خرج المقدم بكلاند وتبعه أرجون. نزلا الدرج وسارا بين الأشجار. حين ابتعدا قليلاً، سلك المقدم بكلاند حنجرته، وقال: "انظرْ، روى. لم يفت الوقت بعد. يمكن أن تغير رأيك. تعال معى. يمكن أن تتخلى عن هذه الزلة. سننسى هذا... هذا الحدث."

مضتْ لحظة قبل أن يردَّ أرجون: "سير، هل يمكن أن أقول شيئًا؟"

"قلْ."

"هل تتذكر وأنت تدرِّس فى الأكاديمية – اقتبستَ ذات مرة عبارة فى إحدى محاضراتك. جنرال إنجليزى– اسمه منرو(١) على ما أعتقد. اقتبستَ شيئًا قاله منذ مائة عام عن الجيش الهندى: **ستندلع روح الاستقلال فى هذا الجيش حتى قبل أن تصبح فكرة بين الناس بوقت طويل...**"

أومأ المقدم بكلاند: "نعم. أتذكر ذلك. جيداً."

"كنا جميعًا فى الفصل من الهنود وفوجئنا بأنك اخترت اقتباس هذه العبارة لنا. صممنا على أن منرو يقول كلاماً لا معنى له، ولم توافقْ..."

"هل حدث ذلك؟"

"نعم. اعتقدْتُ حينها أنك تلعب دور محامى الشيطان؛ تحاول استثارتنا فقط. لكن ذلك لم يكن صحيحًا، أليس كذلك، سير؟ عرفْتَ الحقيقة طوال الوقت: كنْتَ تعرف ما سوف نفعل– عرفتَه قبل أن نفعله. عرفْتَ لأنك صنعتنا. إذا أتيتُ معك الآن، فلن يندهش أحد أكثر منك. أعتقد أنك، فى أعماق قلبك، ستحتقرنى."

"هراء، روى. لا تكنْ أحمق، يا رجل. مازال هناك وقت."

توقف أرجون ومدَّ يده: "لا، سير. هذا كل ما عندى. من هنا أستدير."

نظر المقدم بكلاند إلى يده ثم إليه. قال بهدوء، بصوت مباشر يخلو من العاطفة: "لن أسلم عليك، روى، يمكن أن تبرر ما تفعل لنفسك بألف طريقة مختلفة، لكن لا تزيف الحقيقة، روى. أنت خائن. أنت عارٌ على النظام وعلى بلادك. أنت غثاء. حين يحين الوقت ستعاقب، روى. حين تجلس أمام مجلس عسكرى، سأكون هناك. سأراك مشنوقًا. سأراك. لا تشك فى هذا لحظة."

أنزل أرجون يده. للمرة الأولى منذ أيام طويلة شعر بثقة كاملة فى رأيه. ابتسم.

قال: "هناك شيء واحد عليك أن تتأكد منه، سير. فى ذلك اليوم، إذا جاء، ستقوم بواجبك، سير، وسأقوم بواجبى. سينظر كل منا للآخر كرجلين شريفين – للمرة الأولى. لهذا فقط يستحق الأمرُ العناء."

حيَّاه، وتوازن على عكازه. تردَّدَ المقدم بكلاند لحظة، ثم ارتفعتْ يده، بشكل لا إرادى، لردِّ التحية. دار على عقبيه وسار بين الأشجار.

رآه أرجون يرحل، ثم استدار على عكازه وعاد يعرج إلى حى العمال.

***

لاحظتْ إليسون بعد ساعة تقريبًا أن دواسات الديتونا تسخن تحت قدميها.

شاهدتْ غطاء المحرك ورأتْ كتلاً من البخار تتسرب. خرجتْ عن الطريق، وحين التفتَ إليها جدُّها، ابتسمتْ تطمئنه. قالتْ: "كل شيء على ما يرام، بابا. لا تقلقْ. يستغرق الأمر دقيقة فقط." تركتْه فى السيارة ونزلتْ.

والسيارة واقفة، رأت البخار يتسرب من الحاجز، كان غطاء المحرك ساخنًا بدرجة تجعل لمسه مستحيلاً. لفتْ وشاحها حول يدها وتحسست الكبوت لترفعه. اندفع وابل من البخار فى وجهها فتراجعتْ وسعلتْ.

كان الظلام شديداً. مدَّتْ يدها من النافذة وأضاءت الكشافات الأمامية. رأتْ غصنًا على الأرض قرب قدميها. استخدمته لترفع الكبوت فاندفعتْ سحابة من البخار. فتحتْ غطاء المحرك وعادتْ إلى النافذة لتطفئ الكشافات الأمامية.

قالتْ: "لن يستغرق الأمر وقتًا طويلاً، بابا. ننتظر فقط بعض الوقت."

إلى الشمال، رأتْ ومضات من النور. تقلصتْ حركة السير على الطريق السريع واقتصرتْ على سيارة مسرعة كل فترة. انتابها شعور بأنها من آخر من يسيرون على الطريق؛ مَنْ خططوا للرحيل رحلوا منذ فترة طويلة وينتظر الآخرون ما يأتي.

كان الليل بارداً وبعد وقت قصير توقف انبعاث البخار من الراديتير. لفَّتْ يدها فى الوشاح مرة أخرى وفتحت الغطاء. ثم أمسكتْ بزجاجة وصبَّتْ فيه بعض الماء: غلى فوراً وطفا إلى القمة. رشَّتْ بعض الماء على الراديتير وانتظرتْ فترة أطول قبل تصب البقية فيه. أغلقت الكبوت، وعادتْ إلى مقعد القيادة.

ابتسمتْ لجدها. قال: "كل شيء على ما يرام الآن. سنكون بخير."

أدارت المفتاح وشعرتْ بارتياح هائل حين استجاب المحرك. أشعلت الكشافات الأمامية، واندفعت على الطريق مرة أخرى. لم تمر بهما سيارة أخرى لفترة. أغراها الطريق، وهى تسير وحدها عليه، بالسير بسرعة عالية. كان عليها أن تتذكر أن تسير ببطء إذا أرادت ألا تسخن السيارة مرة أخرى.

لم يسيرا إلا بضعة أميال وبدأ المحرك يقرقع. عرفتْ أنه لا مجال للسير أكثر من ذلك. فى الملف التالى خرجتْ عن الطريق الرئيسى، إلى طريق جانبى مغبر، لم يكن إلا دربًا محصًّبًا. على جانبيه أعمدة من المطاط؛ امتنت لذلك بشكل مبهم، سعدتْ برؤية بيئة مألوفة.

قررتْ أن البقاء قرب الطريق أفضل شيء: ربما تستطيع طلب المساعدة في الصباح. أخذت السيارة مسافة قصيرة في الدرب ثم استدارت إلى الأشجار، مندفعة إلى بقعة مظللة بأجمة. أوقفت المحرك وفتحتْ بابها.

قالت: "نبقى هنا بعض الوقت، بابا. يمكن أن نواصل حين يكون النور أفضل." فتحتْ غطاء المحرك مرة أخرى وعادتْ إلى مقعدها. قالتْ: "نمْ، بابا. لا مبرر لأن تبقى مستيقظًا. لا شيء يمكن أن نفعله الآن."

نزلتْ من السيارة وتمشّتْ حولها. ومع انطفاء الكشافات الأمامية خيم ظلام شديد: لم تر ضوءًا أو دليلاً على منطقة سكنية. عادتْ إلى مقعدها وجلستْ مرة أخرى. جلس سايا جون يتطلع إلى يده باهتمام. فَرَدَ أصابعه أمامه، كأنه يعدُّ شيئًا.

قال: "أخبريني، أليسون. اليوم هو السبت – أليس كذلك؟"

"هل هو السبت؟" حاولت أن تتذكر ولم تستطع: "لا أعرف. لماذا تسأل؟"

"أعتقد أن غداً الأحد. آمل أن يتذكر إلونجو أن عليَّ أن أذهب إلى الكنيسة."

حدَّقتْ فيه. قالتْ بحدة: "آسفة، بابا. أخشى أنه سيكون عليك ألا تذهب إلى الكنيسة غداً."

نظر إليها مثل طفل خاب أمله وانتابها فجأة شعور بالندم لأنها كلمته بحدة. مدَّتْ يدها إلى يده: "هذه المرة فقط، بابا. نذهب إلى ماس[٢] في سنغافورة الأسبوع القادم."

ابتسم لها ومال للخلف، وسند رأسه على مقعده. نظرتْ في ساعتها. كانت الرابعة صباحًا. سيحلُّ الفجر قريبًا. بمجرد بزوغ الضوء تعود إلى الطريق السريع لترى إن كانت تستطيع إيقاف شاحنة أو سيارة: من المؤكد أن يأتي شيء. تركتْ رأسها يسقط على مقعدها: كانت مرهقة – لم تكن خائفة، كانت مرهقة فقط. سمعتْ جدَّها، وقد غرق في النوم، يتنفس ببطء وعمق. أغلقتْ عينيها.

أيقظها شعاع من ضوء الشمس يسطع خلال المظلة الخفيفة فوقها. تحركتْ وسقطتْ يدها على الكرسي الذى بجوارها. كان خاليًا. انتصبتْ، مروَّعةً وفركتْ عينيها. حين نظرتْ إلى المقعد لم تجدْ جدَّها.

فتحت الباب ونزلتْ. "بابا؟" ربما ذهب إلى الأشجار ليشعر بارتياح. رفعتْ صوتها. "بابا- هل أنت هناك؟" مظللةً عينيها، تلفتتْ فى الطريق كله من حولها، محدِّقة فى أنفاق المطاط من حولها. لم تره فى أى مكان.

تعثرتْ، وهى تسير حول السيارة، فى حقيبته الجلدية البنية. كانت مفتوحة على الأرض والملابس خارجها، مبعثرة بين أوراق الشجر. كان يبحث عن شىء - لكن ماذا؟ تلفتتْ حولها، لمحتْ بعض الملابس على الأرض تبعد بضع ياردات. فحصتها، وجدت بنطلونًا وقميصًا، الملابس التى كانت على جدِّها فى الليلة السابقة.

وانتها فكرة مفاجئة. عادتْ إلى حقيبته وفتشتْ بسرعة عن بقية ملابسه، بحثتْ عن البدلة السوداء التى يحبُّ ارتداءها وهو ذاهب إلى الكنيسة. لم تجدْها؛ كانت متأكدة أنه أخذها معه حين خرجا. لم يتعود الذهاب إلى أى مكان بدونها. ارتداها حين غيَّر ملابسه؛ كانت متأكدة من هذا. ربما سار على الطريق السريع، معتقداً أن سيوصله إلى كنيسته. عليها أن تسرع إذا كان لها أن تعثر عليه قبل أن يتعرض لمشكلة.

مدَّتْ يدها فى السيارة وأخذتْ حقيبة يدها من على المقعد. خطر لها أن تتبعه بالسيارة، لكنها قررت العكس. لا أحد يعرف كم من الوقت يمكن أن يضيع وهى تحاول تشغيل السيارة. ربما يكون السير على قدميها أسرع. علَّقتْ حقيبتها على كتفها، وجرتْ باتجاه الطريق السريع.

كانت تستطيع القول، حتى وهى بعيدة، إنه لا توجد حركة مرور. كان الطريق السريع هادئًا جداً. لكن وهى على بعد حوالى عشرين ياردة من الطريق، سمعت صوتًا

يأتي من بعيد. وقفت تتطلع، نظرت بحذر بطول دهليز من جذوع الأشجار. لمحتْ مجموعة على دراجات عن بعد: حوالى ستة يسيرون باتجاهها.

شعرت فى البداية بارتياح؛ عرفتْ أنها تستطيع، لو جرت بسرعة، الوصول إلى الطريق وراكبو الدراجات يمرون به. ربما يستطيعون مساعدتها. خطت خطوتين، ثم توقفت ونظرت مرة أخرى، محتمية خلف جذع شجرة. أدركت أن راكبى الدراجات جميعًا بكابات وملابس باللون نفسه. امتنتْ للاحتماء بالمزرعة، تسللتْ أقرب قليلاً إلى الطريق، وحرصتْ على الابتعاد عن المشهد.

وراكبو الدراجات على بعد حوالى عشرين ياردة، عرفتْ أنهم جنود يابانيون. كانوا غير حليقين وأزياؤهم الرمادية ملوثة بالغبار والطين، وستراتهم غارقة فى العرق. وضع بعضهم كابات حولها كوفيات طويلة، بينما وضع آخرون خوذات مغطاة بشبكات. كانوا يضعون لفافات سيقان محكمة وينتعلون أحذية من القماش. مع الرجل الذى يقودهم سيف فى حزامه: صلصل الغمد بشكل إيقاعى وهو يخبط فى رفرف الدراجة. ويحمل الآخرون بنادق مزودة بسونكى. كانت دراجاتهم تصر وتئن وهى تمر بها. سمعتهم يلهثون وهم يبدِّلون.

كان أمامها بمسافة قصيرة ركن به ملف حاد على الطريق السريع. كان راكبو الدراجات لا يزالون فى المشهد وهم يلفون المنعطف: سمعتْ أحدهم يصيح، رافعًا يده ليشير إلى الطريق. سيطر عليها فجأة إحساس حادٌ بالشكِّ. كان عليها أن تعتقد أنها ستجد جدَّها عائدًا، فى اتجاه سنجى بتانى؛ لكن ماذا إذا كان، بدلاً من ذلك، قد سار فى الاتجاه الآخر؟

نظرتْ فى الجهتين، وجدت الطريق السريع خاليًا. أسرعتْ عبر الطريق، انسلتْ إلى أعمدة المطاط على الجانب الآخر. اتجهتْ بميل خلال الأشجار، رأت الطريق

السريع مرة أخرى: رأت ظهور راكبي الدراجات، يبدلون، مشيرين لشخص ضئيل على مسافة بعيدة أمامهم. كان رجلاً يرتدى قبعة وبدلة، يسير متمهلاً على جانب الطريق. عرفتْ أليسون أنه جدها. كان الجنود يطبقون عليه، يبدلون بسرعة.

بدأتْ تجرى مسرعة، متنقلة بين الأشجار. وهى لا تزال على بعد مئات الياردات لحق الجنود بسايا جون. رأتْهم ينزلون من فوق الدراجات ويضعونها على العشب. أحاطوا به، سمعتْ صوتًا: كان أحد الجنود يصيح ويقول كلامًا لم تتبينه. همهمتْ لنفسها وهى تجرى: "من فضلكم، من فضلكم..."

عرفتْ أن جدها لا يفهم ما يقوله الجنود. لمس قبعته واستدار، محاولاً الابتعاد عنهم. مدَّ أحد الجنود يده ليوقفه فأبعدها. صاح فيه الجنود كلهم، لكن بدا أنه لا يسمع شيئًا. شوَّح بيده فيهم، كأنه يحاول أن يبعد كسالى يتسكعون فى أركان الشوارع. هاجمه جندى، وصفعه على وجهه، فقد توازنه. سقط بقوة على الأرض.

توقفتْ أليسون، لاهثة، مستندة على جذع شجرة، أمسكته بيديها. لو استطاع فقط أن يبقى ساكنًا، فسيبتعدون، كانت متأكدة من ذلك. همهمتْ لنفسها، داعية ألا يكون قد فقد الوعى. لم يبالوا به: من المؤكد أنهم رأوا أنه مجرد عجوز مشوش؛ وأنه لم يقصد أى أذى.

لكن بدأ جسم جدها المنبطح يتحرك مرة أخرى. تقلب وجلس وساقاه ممددتان أمامه، مثل طفل استيقظ فى الصباح. مدَّ يده إلى قبعته، وضعها على رأسه ووقف على قدميه مرة أخرى. نظر إلى الجنود بتجُّهمٍ وارتباكٍ، داعكًا وجهه. ثم أعطاهم ظهره وبدأ يبتعد عنهم.

رأت جنديًا يسحب بندقيته من ظهره. صاح بشىء ووضع البندقية بحيث يتجه السونكى مباشرة إلى ظهر الرجل العجوز.

بدون تفكير تقريبًا، مدَّتْ أليسون يدها إلى حقيبتها. أخرجت المسدس ونزلتْ على إحدى ركبتيها. مدَّت يسراها أمامها، ثبَّتتْ رسغها على ساعدها، كما علمها أبوها. وجهته إلى الرجل الذى يمسك بالسونكى، على أمل أن تسقطه. لكن فى تلك اللحظة كان جندى آخر فى مسار الطلقة؛ أصابته الطلقة فى ضلوعه، وسقط على الأرض صارخًا. تجمد الرجل الذى يحمل السونكى لحظة، لكن ذراعه تحركت بعد لحظة، فجأة، كما لو بدافع من الاسترخاء، غرست النصل فى جسد سايا جون ونزعته منه فى حركة سريعة. تداعى سايا جون، وسقط بوجهه على الأرض.

كانت ساكنة تمامًا، تتنفس بهدوء. حددت هدفًا بدقة وأطلقت النار مرة أخرى. فى هذه المرة أصابت الرجل الذى يحمل السونكى. صرخ وسقطتْ منه البندقية، وسقط بوجهه على الأرض. طاشت طلقتها الثالثة، وصلتْ إلى كتلة من العشب على جانب الطريق. استلقى الجنود على بطونهم، واحتمى اثنان منهم خلف جسد سايا جون الهامد. كانت أهدافها أصغر، ابتعدت طلقتها الرابعة. لكن الخامسة أصابت جنديًا آخر فترنح وسقط على جانبه.

ثم، فجأة، ضربها شىء ما بقوة هائلة، وألقاها على ظهرها. لم تشعر بألم، لكنها عرفتْ أنها أصيبت. رقدتْ ساكنة، تتطلع للغصون المقوسة على أشجار المطاط من حولها. كانت الأغصان تتمايل فى النسيم مثل المراوح.

كانت سعيدة لأنها انتهتْ بهذه الصورة؛ وعيناها تستريحان على شىء أليف. تذكَّرتْ ما قال دينو عن أمه والحلوى التى تقاسمتْها مع آسريها. جعلتْها الذكرى تبتسم؛ لم يكن ذلك ليناسبها إطلاقًا. كانت سعيدة لأنها دفَّعتْهم الثمن، لأنها لم ترحلْ بدون أن تردَّ عليهم.

سمعتْ وقع أقدامهم وعرفتْ أنهم يجرون باتجاهها. رفعتْ المسدس إلى صدغها وأغلقت عينيها.

هوامش

(١) منرو: Munro.

(٢) ماس: Mass.

(٣٩)

تخلَّى دوه سى، وكان دائمًا صديقًا وفيًا، عن احتفالات عائلته بالكريسماس ليكون فى عون رجكومار. وصل إلى رنجون يوم ٢٢ ديسمبر. كما توقع رجكومار، بدأ العمل بسرعة، رتب لاستئجار فريق من الفيلة وستة أوسيين. واتفق نيل على تأجير لوريين. وقرَّر البدء فى إخلاء شادر الخشب فى بَزُنْدُنْج فى اليوم التالى.

ترك دوه سى وريموند ونيل ورجكومار المنزل فى وقت مبكر من الصباح. ذهبوا فى البكارد، يقودها نيل. لوَّحتْ لهم دلِّى ومنجو. ذهبوا إلى الساحة ليجدوا الأوسيين وصلوا بأفيالهم. وصل اللوريان المؤجران أيضًا. شعر رجكومار بارتياح: كان يأمل فى بداية مبكرة. كان قلقًا من تأخر الفرق.

ظهرتْ بعد ذلك حركة غير متوقعة. قال سائق لورى: "نودُّ أن نتحدث إليك." وصل مفوض إلى الكابينة الصغيرة التى كانت مكتبًا؛ تبين أن الأوسيين وسائقى اللوريين يريدون جزءًا من مستحقاتهم فى منتصف اليوم.

لم يكن غير شائع، بالطبع، بالنسبة لجماعات مستأجرة أن تتقدم بطلبات بمجرد بدء العمل: وهم، بالطبع، فى أفضل وضع للمساومة. كان رجكومار قد خطط للذهاب إلى البنك بعد الظهر مباشرة، والعمل على وشك الإنجاز. ولما كانت أجازات الكريسماس ستبدأ فى اليوم التالى، فقد كان آخر يوم عمل للبنوك فى الأسبوع. حرص على الذهاب إلى البنك فى اليوم السابق للتأكد من أن الفلوس جاهزة ومتاحة.

كان يمكن أن يأخذها معه على الفور لكن واتته فكرة أفضل. لم يكن الأمر مأمونًا – وخاصة أنهم وحدهم فى المنزل، وبدون حارس. قرر أن يعود والعمل على وشك الاكتمال.

كان هذا التطور الجديد يعنى أن على رجكومار تغيير خططه. شجَّع الرجال على البدء فى العمل، ووعدهم بأن تكون الفلوس جاهزة فى منتصف اليوم. ذهب إلى نافذة مكتبه ليشاهدهم يبدأون.

ابتسم وهو ينظر إلى الشادر بأكوام الخشب الهائلة المرتبة. كان التفكير فى أن هذا حصيلة كل ما يملك يثير الأعصاب. كان يعرف أن عليه مواصلة الطريق، لكن لم تكن له حيلة فى تضييع الوقت. حتى بعد كل هذه السنوات، لم يقاومْ متعة مشاهدة الأفيال وهى تعمل: مرة أخرى يعجب بالثبات الذى تشق به طريقها فى الممرات الضيقة، وهى تمر بأجسادها الهائلة بين أكوام الخشب. كان ذلك شيئًا يكاد يكون خارقًا، يتعلق ببراعتها فى ثنى خراطيمها حول الزنود.

لمح نيل يندفع بين الأفيال. ابتهج رجكومار برؤية ابنه مع الأفيال.

نادى رجكومار: "نيل، كن حذراً."

استدار نيل، وابتسامة عريضة على وجهه الملتحى. لوَّح.

"سأكون بخير، أبى. يجب أن تذهب إلى البنك الآن. لا تتأخر كثيراً."

نظر رجكومار إلى ساعته: "مازال هناك وقت. البنك لم يفتح بعد."

ضمَّ دوه سى صوته إلى صوت نيل: "نعم، اذهب الآن، رجكومار. كلما ذهبْتَ أسرع عدْتَ أسرع. سأهتم بكل شىء هنا – سيكون كل شىء على ما يرام."

خرج رجكومار إلى الشارع فوجد ركشو بدراجة. بدَّل السائق بجدٍ وبسرعة اقتربا من مركز المدينة. كانت حركة المرور كثيفة وخشى رجكومار أن يتأخر. لكن السائق اندفع برشاقة عبر الشوارع ووصل إلى البنك فى وقت قصير.

دفع رجكومار أجرة السائق وصعد مجموعة عريضة من السلالم. كان الباب الرئيسى للبنك مغلقًا: هناك ربع ساعة على موعد الفتح. كان بعض الرجال ينتظرون عند الباب. انضمَّ رجكومار إلى الطابور. كان الصباح صافيًا بشكل استثنائى والسحب نادرة فى السماء. كان يومًا باردًا بشكل غير عادى بالنسبة لرنجون وعدد كبير من عابرى السبيل متلفعين بالشيلان والسترات الصوف.

كان البنك فى تقاطع مزدحم. والشوارع المحيطة تعجُّ كالمعتاد بالمرور فى ساعة الذروة مع بداية اليوم. تتهادى الحافلات على الطريق، وتقذف بالدخان؛ وتحت سلوك ملتفة معلقة، يدمدم الترام وأجراسه ترنُّ.

فجأة، انطلقتْ من بعيد صفارة إنذار، تعلن عن غارة جوية. لم يهتم رجكومار أو الناس من حوله كثيراً. انطلقتْ تحذيرات من الغارات الجوية عدة مرات فى آخر بضعة أسابيع – وتبين أنها كلها إنذارات زائفة. أسفل سلم البنك، كانت هناك بائعة متجولة تقلى بايا جاو فى قدر كبير مسود. كشرت وواصلت عملها. كان رد فعل رجكومار شبيهًا برد فعلها إلى حدٍّ بعيد: انزعج حين فكر فى التأخير الذى قد يحدث نتيجة لصفارات الإنذار.

انطلقتْ صفارات الإنذار مرة أخرى فانتبه الناس أكثر. لم يكن من المعتاد أن تنطلق الإنذارات مرتين متتاليتين بهذه السرعة. ظهرت الرؤوس من نوافذ الحافلات والترام؛ اتجهت العيون إلى السماء كأنها تبحث عن مطر.

لمح رجكومار مراقب غارات جوية بقبعة من الصفيح، يمشى فى الشارع، يلوِّح بذراعيه للمارة. عرف رجكومار المراقب: كان أنجلو بورمياً يعمل فى المراهنات، معرفة من أيام السباق. نزل السلالم مهرولاً ليبادره بالكلام.

لم يضيع المراقب وقتًا فى الكياسة. قال بفظاظة: "من الأفضل أن تجد مكانًا أمينًا، مستر رها. البالون فوق بالتأكيد. اجتازوا النظام الثانى للتحذير." كور المراقب يديه حول فمه وبدأ يصيح فى المارة: "ابعدوا عن هنا؛ اذهبوا إلى ملاجئكم، اذهبوا إلى بيوتكم..."

حدَّق بعض الناس، لكنهم لم يبالوا. استشاط المراقب غضبًا، ويداه فى خصره: "انظروا إليهم؛ يعتقدون أنه سيرك دموى..."

كانت هناك حديقة صغيرة أمام البنك. قبل شهور، حفرت خنادق ضيقة بين نخيل الزينة. تجمَّعتْ فى الخنادق، فى الوقت ذاته، برك نتنة الرائحة، إضافة إلى بذور المانجو ذات الوبر الأبيض ونفايات أخرى. توقف الناس وهم يثبون إليها.

عاد رجكومار وصعد السلالم ليرى إن كان البنك قد فتح. حينها دوَّتْ صفارات الإنذار للمرة الثالثة. اهتمَّ الجميع. أصيبتْ حركة المرور فى الشارع بشلل مفاجئ. لم يكن هناك هلع أو جرى بحثًا عن ملاذ. لكن الناس نزلوا من الترام والحافلات ووقفوا فى الشوارع فى ذهول يكادون لا يصدقون، وتطلعوا إلى السماء، مظللين عيونهم من النور. صعد عدة رجال الدرج ليقفوا بجوار رجكومار: كانت عتبة البنك تطلُّ على مشهد رائع يحيط بها.

"اسمعوا." صار الأزيز المنخفض المستمر مسموعًا عن بعد.

أضفى الصوت مصداقية مفاجئة منذرة بالشؤم على فكرة وجود غارة جوية وشيكة. سادتْ لحظة شكٍّ واندلع الهلع مثل عاصفة فى الشوارع. بدأ الناس يجرون.

انسلّ البعض إلى المبانى؛ وابتعد البعض مهرولين بين السيارات المتوقفة. وامتلأت الخنادق التى تفوح منها الروائح القذرة فى ثوانٍ.

فى مكان ما قريب، عوت امرأة من الألم. التفتَ رجكومار حوله ورأى عربة البايا جاو مقلوبة أسفل الدرج؛ انسكب قدر البائعة المتجولة، ناثرًا عليها الزيت المغلى. جرتْ فى الطريق تصرخ وتقبض بيديها الاثنتين على ملابسها.

قرر رجكومار عدم مواجهة الجماهير المروَّعة، واستند على الأبواب الثقيلة للبنك. تحول الأزيز البعيد إلى صخب إيقاعى مرتفع. ثم ظهرت الطائرات الأولى: بقع ضئيلة تقترب من الشرق. انطلقت المدافع المضادة للطائرات فى المدينة بصوت مدوٍّ مزعج. كانت المدافع قليلة ومركَّزة أساسًا بجوار مطار منِجَلادون ومعسكر الجيش. لكن كان هناك شىء مطمئِنٌ فى فكرة أن دفاعات المدينة تعمل. حتى وسط الهلع، يمكن سماع أناس كثيرين يهللون.

غيَّرتْ قاذفات القنابل الصورة وهى تقترب من الحدود الشرقية للمدينة، على ارتفاع منخفض فى السماء. انفتحتْ بطون الطائرات وبدأتْ حمولتها من القنابل تنزل، منتشرة خلف الطائرة مثل شرائط مبهرجة متلألئة، كأن ستارة فضية هائلة ظهرت فجأة فى الأفق الشرقى.

سقطت القنابل الأولى على بعد عدة أميال، وتعاقبت الانفجارات فى تتابع إيقاعى منتظم بدقة. دوَّى فجأة صوت أقوى، عدة مرات، من كل الانفجارات السابقة. من مكان ما فى المراكز الشرقية للمدينة، تمددت سحابة هائلة من الدخان الأسود إلى أعلى باتجاه السماء، وابتلعت قاذفات القنابل تقريبًا.

قال واحد: "ضربوا مخازن الزيت، فى خليج بَزُنْدُنْج."

عرف رجكومار فى الحال أن هذا صحيح. انقلبت معدته. كانت خزانات الزيت الرئيسية فى المدينة على الجانب البعيد من الخليج، على مدى البصر من شادر

الخشب. تطلع إلى قاذفات القنابل ورآها تقوم بطلعة أخرى فوق المنطقة نفسها. أدرك أنها لا تضرب عشوائيًا: استهدفت المنطقة الساحلية الطويلة فى المدينة، حيث المطاحن والمستودعات والخزانات وخطوط السكك الحديد.

فكر رجكومار فجأة فى الأفيال التى تعمل فى الشادر. تذكر رد فعل هذه الحيوانات لصخب غير متوقع. يتشتت القطيع أحيانًا من صوت واحد حاد. ذات مرة فى سالف الأيام، فى أحد معسكرات الساج، شاهد هذا التشتت؛ أفزع صدى طلقة بندقية فيْلةً عجوزًا فصرخت صرخة مدوية مميزة، وفجَّر ذلك استجابة غريزية فى القطيع، أدى إلى كثير من الدمار واستغرق الأمر ساعات من الأوسيين للسيطرة من جديد على الحيوانات.

ماذا يحدث إذا أصاب فريقَ الأفيال هلع فى المناطق المكتظة بالزنود فى شادر الخشب؟ شىء يفوق التصور.

لم يعد رجكومار يحتمل البقاء حيث كان. بدأ يسير على قدميه باتجاه بزُنْدُنْج. كانت القنابل تقترب أكثر، تتساقط حاجبة كل شىء، منطلقة باتجاه مركز المدينة. فجأة ظهرت أمامه عربة ثيران، تعدو إليه فى ممر المشاة. كانت أفواه الثيران المسرعة مزبدة وبياض عيونها واضحًا. صرخ السائق، وهو يمسك بجانبى العربة. قفز رجكومار وابتعد فى الوقت المناسب لتمر.

كان سرب من الطائرات فوق رأسه مباشرة. تطلع رجكومار إلى سماء ديسمبر الصافية الساطعة. اندفعتْ إلى أسفل وانفتحتْ مخازنها. ظهرت سلاسل من القنابل، تساقطتْ جانبيًا، جاذبة الأنظار إلى ضوء متألق مثل الماس.

لم تكن هناك خنادق قريبة. جثم رجكومار فى مدخل، ووضع يديه على رأسه. اهتزَّ الهواء وشعر بصوت زجاج يتحطم.

لم يعرفْ كم من الوقت بقى هناك. لم يتحرك إلا حين شعر بدفء خلفه. استدار فوجد كلبًا يندفع إليه وينبح خوفًا. أبعد الكلب ووقف. كانت أعمدة الدخان تتصاعد فى السماء من كل ما حوله. فكَّر فى دلِّى ومنجو وجايا، حفيدته. نظر فى اتجاه كمندين وشعر بارتياح حين رأى أن ذلك الجزء من المدينة لم يتأثر نسبيًا. بدأ يسير فى الاتجاه الآخر، باتجاه شادر الخشب فى بَرْنْدُنْج.

فى الشارع التجارى ضُرِب سوق. كانت الفواكه والخضروات مبعثرة على جانبى الطريق، والمتسولون وجامعو النفايات ينبشون فى الأنقاض. لاحظ البقايا المحترقة لمحل وتذكر، بإحساس النوستالجيا تقريبًا، أنه مكانه المفضل لشراء الدجاج التَّندورى(1). دفع الانفجار مجموعة أسياخ فى الجدران الطينية للفرن، فكسرته إلى نصفين مثل قشرة بيضة. سمع صوت رجل ينادى طلبًا للمساعدة. أسرعَ. لم يكن لديه وقت: كان عليه أن يذهب إلى الشادر فى برْنْدُنْج.

مرَّ بواجهة روى وكو. تحطمت النوافذ وظهرت فتحات مجوفة فى الحوائط. كان النهابون يتسللون من الفجوات. رأى شجرة الكريسماس التى وضعها المحل تستلقى بانحراف على الأرضية، وامرأةً عجوزًا تعمل بجد بجوارها، وقد ابيضَّ وجهها من بودرة التلك. كانت تلتقط حشو القطن من الأرضية، وتجمعه فى كيس.

أمام مكتب التلغراف ضُرِب أنبوب مياه رئيسى. انفجرتْ نافورة ارتفاعها عشرة أقدام فى السماء. كان الماء فى كل مكان، تجمع فى برك، وانساب فى الطريق. كانت هناك دوامة حول فتحة الأنبوب الرئيسى المحطم.

كان الناس يقبعون بطول جدران مكتب التلغراف حين ضرب مصدر المياه، ومات عدد كبير منهم. وظهرت أطراف لا تحصى فى البركة التى تجمعت حول الأنبوب الرئيسى: ذراع طفل، وساق. أشاح رجكومار بعينيه وواصل المشى.

حين اقترب من برُنْدُنْج، رأى جانبى الخليج يغطيهما اللهب. وهو لا يزال على مسافة كبيرة لمح جدران الشادر، تغطيها سحب من الدخان.

كل ما يملك فى ذلك المكان، كل ما عمل من أجله طوال حياته؛ حصيلة حياة من العمل مخزونة فى مخبأ واحد من الخشب. فكر فى الأفيال والقنابل التى سقطت حولها؛ فى اللهب يقفز من الخشب المكدس جيداً؛ فى الانفجارات والأصوات المدوية.

هو الذى ركز كل ما يملك فى مكان واحد – وكان ذلك أيضًا جزءًا من الخطة– أتت القنابل على هذا كله. لكن لا يهمُّ؛ لا شىء يهمُّ طالما لم يتعرض نيل للأذى. الباقى مجرد أشياء، ممتلكات. لكن نيل...

دخل إلى الزقاق الذى يؤدى إلى الشادر ورآه مليئًا بسحب كثيفة من الدخان. على بشرة وجهه، شعر بحرارة النيران المحرقة الثائرة فى الشادر. صاح وسط الدخان: "نيل."

رأى شخصاً يتشكل عن بعد. جرى: "نيل؟ نيل؟"

كان دوه سى. وجهه المخطط المتغضن مسودٌّ من الدخان. يبكى.

"رجكومار..."

"أين نيل؟"

غطَّى دوه سى وجهه: "سامحنى، رجكومار. لم يكن هناك ما أفعله. جرت الأفيال بهمجية. حاولتُ إبعاد ولدك، لم يستجبْ. تفككت الزنود وسقط تحتها."

رأى رجكومار دوه سى يجرُّ جسداً فى الزقاق، يبعده عن النيران. جرى إليه وسقط على ركبتيه.

لا يمكن التعرف على الجسد تقريبًا، سحقه وزن هائل. لكن على الرغم من التشويه المرعب عرف رجكومار أنه ابنه وأنه ميت.

***

ذات مرة شاهدتْ منجو، في الطفولة، حلاقة رأس أرملة. كان ذلك في منزل مجاور في كلكتا: أخذ الحلاق أجرًا ليفعل ذلك وساعدتْه نساء العائلة بالتناوب.

أخذتْ منجو مقصًا من صندوق *الخياطة*. وهي تجلس على *التسريحة*، نظرتْ في المرآة وجربت المقص في شعرها. *النصلان* باردان وشعرها قويٌ وكثيفٌ وأسود – شعر امرأة شابة. لم يُجْدِ المقص نفعًا. أعادتْه إلى صندوق *الخياطة*.

بدأت الطفلة تصرخ، فأغلقتْ منجو الغرفة عليها. نزلت السلالم إلى المطبخ – غرفة مظلمة مسخمة مكتومة خلف المنزل. وجدتْ سكّينًا، سكينًا طويلاً بنصل مستقيم وحافة مسننة، ومقبض خشبي. جرّبتْه في شعرها ووجدتْ أنه ليس أكثر نفعًا من المقص.

بحثتْ منجو حولها عن آلة أفضل، تذكرت المناجل التي استُخدِمتْ ذات يوم في قطع عشب المجمع. كانت مناجل حادّةً جداً: تذكّرتْ كيف تردد صدى هسيس أنصالها في أنحاء المنزل. رحل الماليون الذين اعتنوا بالأرض منذ فترة طويلة، وبقيت المناجل. كانت تعرف أين تجدها: في غرفة حراسة قرب البوابة الأمامية.

فتحت البوابة الأمامية وجرتْ عبر المجمع إلى غرفة *الحراسة*. المناجل حيث اعتقدت، مكومة مع أدوات أخرى تستخدم في *الحدائق*. وقفتْ على عشب المجمع، الذي يصل *إلى* الركبة، وأمسكتْ شعرها، سحبتْه بعيداً عن رأسها. رفعت المنجل وحشتّه، بتهور، ويدها خلف رأسها. رأتْ كمية من الشعر تسقط على العشب فتشجعتْ. جزّت

حفنة أخرى ثم أخرى. رأتْ كوم الشعر يكبر فى العشب حول قدميها. شعرتْ بألمٍ لمْ تعرف مصدره: لماذا يؤلم قص الشعر إلى هذا الحدّ؟

سمعتْ صوتًا يتكلم بهدوء فى مكان قريب. التفتتْ حولها فرأت ريموند يقف بجوارها. مدَّ يده إلى المنجل. ابتعدت خطوة: "لا تفهم..." حاولت أن تبتسم، لتخبره أنها تعرف ما تفعل ولا يمكن أن يُفعَل بطريقة أخرى. لكن يديه كانت على رسغها فجأة. لوى ذراعها فسقط المنجل من قبضتها. التقطه، وألقى به بعيداً.

اندهشتْ منجو من قوة قبضة ريموند؛ ومن الطريقة التى قيدها بها بقبضة مصارع. لم يمسكْها أحدٌ أبداً بهذه الطريقة – كأنها مجنونة.

"ماذا تفعل، ريموند؟"

لوى يديها أمام وجهها. رأتْ أصابعها ملطخة بالدم.

قال بهدوء: "جرحْتِ نفسك. جرحْتِ فروة رأسك."

"لم أعرف." حاولتْ تخليص ذراعيها، لكنه شدد من قبضته. أدخلها إلى البيت وجعلها تجلس على مقعد. وجد بعض القطن الطبى ومسح فروة رأسها. بدأت الطفلة تصرخ: سمعاها من الدور الأرضى. أخذها ريموند إلى السلم ودفعها.

"اذهبى. الطفلة تحتاج إليك."

صعدتْ بضع درجات، ولم تستطعْ أن تواصل. لم تستطعْ تحمل فكرة دخول الغرفة وحمل الطفلة. كان بلا جدوى. جفّ ثدياها. لم يكن هناك ما يمكن أن تفعله. دفنتْ وجهها فى يديها.

جاء ريموند إلى السلم وشدَّ رأسها للخلف، وهو يمسك به من بقايا شعرها. رأتْه يسحب ذراعه للخلف ويضربها بيده على خدِّها. نبشتْ وجهها الملسوع ونظرتْ إليه. كانتْ نظرته ثابتة ولا تفتقر إلى العطف.

قال: "أنت أم. اذهبى إلى الطفلة. لن يتوقف جوع طفل، مهما كان الأمر..." تبعها إلى الغرفة وظل يشاهدها حتى حملت الطفلة وأعطتْها ثديها.

***

كان الكريسماس فى اليوم التالى، فى المساء غادر دوه سى وريموند المنزل ليذهبا إلى الكنيسة. بعد قليل انطلقت صفارات الإنذار وعادتْ قاذفات القنابل. كانت الطفلة نائمة، أيقظتْها صفارات الإنذار وبدأتْ تصرخ.

يوم الغارة الأولى، عرفت منجو ودلّى ما يجب فعله: ذهبتا إلى غرفة بلا نوافذ فى الدور الأرضى وانتظرتا حتى توقفتْ صفارات الإنذار تمامًا. كان هناك إحساس بالضرورة؛ لكن لم يتبق منه شىء. كأن المنزل خالٍ بالفعل.

بقيتْ منجو فى السرير مع الطفلة والقنابل تتساقط. فى تلك الليلة بدا صوت الطفلة أعلى مما كان: أعلى من صفارات الإنذار والقنابل والانفجارات البعيدة. بعد بعض الوقت لم تعدْ منجو تحتمل سماع صوت صراخ الطفلة. تركت السرير ونزلت السلم. فتحت البوابة الأمامية ودخلت المجمع. كان الجو شديد الظلمة باستثناء اللهب ووميض الضوء الذى ينطلق فى السماء.

رأتْ شخصًا آخر أمامها، وبطريقة ما، حتى فى الظلام، عرفتْ أنه رجكومار. أول مرة تراه منذ موت نيل. لا يزال بالملابس التى كانت عليه فى ذلك الصباح: بنطلون وقميص ملطخ بالسواد. كان رأسه ملقًى إلى الخلف يحدِّق فى السماء. كانت تعرف ما ينظر إليه فذهبتْ تقف بجواره.

كانت الطائرات بعيدة فى السماء، تُرَى بالكاد، مثل ظلال الفراشات. تمنَّتْ لو تقترب أكثر؛ تقترب بما يكفى لترى وجهًا. تاقتْ لمعرفة أى كائن ذلك الذى يشعر بالحرية فى أن يدمر بلا حدود: من أجل ماذا؟ أى كائن يمكن أن يفكر فى شنِّ حربٍ

عليها وعلى زوجها وطفلتها - على أسرة مثل أسرتها - لأى سبب؟ من هؤلاء الناس الذين أخذوا على عاتقهم إعادة صنع تاريخ العالم؟

كانت تعرف أنها لو استطاعتْ فقط أن تجد معنى لهذا لاستطاعتْ إعادة النظام إلى ذهنها؛ لاستطاعت التبرير بالطرق المعتادة؛ لعرفت الوقت المناسب والطريقة المناسبة لإطعام الطفلة؛ لاستطاعتْ أن تفهم لماذا تلجأ إلى ملجأ، وترعى طفلتها، وتفكر في الماضي والمستقبل وفي مكانها في العالم. وقفتْ مع رجكومار ونظرتْ في السماء. لم يكن هناك ما يُرَى سوى ظلال بعيدة فوقهما وقريبة في متناول اليد، اللهب والانفجارات والصخب.

***

عاد دوه سى وريموند فى الصباح التالى، بعد الاحتماء فى الكنيسة طوال الليل. قالا إن الشوارع خالية تقريبًا. كان عمال المدينة من الهنود أساسًا، فرَّ الكثير منهم أو اختفوا. فاحتْ فى بعض المناطق نتانة القانورات التى لم يتم تنظيفها. فى الميناء، كانت السفن تسير فى اللهب وحمولاتهما مازالتْ سليمة فى بطونها. لم يكن هناك عمال تفريغ لإفراغ السفن: كان معظمهم من الهنود أيضًا. فتحت الإدارة بوابات المصحة العقلية فى رنجون وخرج نزلاؤها يتجولون فى الشوارع بحثًا عن طعام وملاذ. كان النهابون فى كل مكان، يدخلون المنازل المهجورة والشقق، حاملين غنائمهم بانتصار فى الشوارع.

قال سوه دى لم يعد البقاء فى رنجون آمنًا. نجت البكارد من القنابل بمعجزة. جددها ريموند وأعادها إلى كمندين. حملتْ دلّى السيارة ببعض الأشياء الضرورية- بعض الأرز والدال واللبن المجفف والخضراوات والماء. قاد ريموند السيارة وخرجوا من

المنـزل: كانت الخطة أن يذهبوا جميعًا إلى هوى زيدى ويبقوا هناك حتى تتغير الظروف.

أخذوا طريق بِجُو، واتجهوا إلى الشمال. كان وسط المدينة لا يزال خاويًا بشكل مرعب، واستحال السير فى عدد كبير من الطرق العامة، لفوا ولفوا للخروج من المدينة. هُجِرت الحافلات فى التقاطعات؛ خرجتْ عربات الترام عن مسارها وانجرفتْ فى القطران؛ انتشرتْ عربات الركشو على جانبى الطريق؛ وكانت كابلات خطوط الترام مفكوكة عبر طرق المشاة.

شاهدوا أناسًا آخرين- حفنات قليلة متناثرة فى البداية، وازدادت الأعداد تدريجيًا حتى ازدحمت الطرق بشدة وصاروا يتحركون بالكاد. يسير الجميع فى اتجاه واحد: إلى الشمال، ممر على اليابسة إلى الهند - مسافة تزيد على ألف ميل. ممتلكاتهم فى صرر على رؤوسهم؛ يحملون أطفالاً على ظهورهم؛ ويجرُّون المسنين فى العربات الكارو وعربات اليد. تقلبت الأقدام طويلاً، مثيرة سحابة هائلة من الغبار فوق الطريق مثل شريط يحدد الطريق إلى الأفق الشمالى. معظمهم من الهنود.

كانت هناك سيارات وحافلات أيضًا، إضافة إلى التاكسيات والركشو والدراجات وعربات الثيران. شاحنات مفتوحة، يقرفص فى قيعانها عشرات الناس. كانت المركبات الأكبر تسير أساسًا فى منتصف الطريق، تتبع بعضها فى خط مستقيم. وكانت السيارات تقفز فى هذا الخط، متخطية الحافلات والشاحنات بالدوىِّ الهائل لأبواقها. لكن ضغط المرور كان شديدًا والحركة بطيئة.

فى نهاية اليوم الأول لم تكن البكارد قد غادرت رنجون تمامًا. فى اليوم التالى، شقوا طريقهم باتجاه درب اللاجئين، وكانت الظروف أفضل. بعد ذلك بيومين وجدوا أنفسهم ينظرون عبر النهر باتجاه هوى زيدى.

عبروا وبقوا فى هوى زيدى عدة أسابيع. لكن تبيَّن أن تقدم اليابانيين يتسارع. قرَّر دوه سى إخلاء القرية ونقل سكانها فى أعماق الغابة. فى ذلك الوقت صار سلوك منجو مزعجًا جدًا: قرر رجكومار ودلِّى أخذها إلى الوطن. اختاروا القيام بمحاولة أخيرة للوصول إلى الهند.

أخذتْهم عربة ثيران إلى النهر – منجو ودلِّى ورجكومار والطفلة. وجدوا مركبًا سار بهم فى النهر، عبر ميكتيلا، مرورًا بمندالى، إلى بلدة موليك[٢] الصغيرة، على نهر شندوين. هناك واجههم مشهد مذهل؛ يقرفص حوالى ثلاثين ألف لاجئ على طول ضفة النهر، فى انتظار التحرك باتجاه سلاسل جبلية كثيفة الأشجار تقع أمامهم. لم تكن أمامهم طرق، لم يكن هناك إلا مسالك وأنهار من الوحل، تنساب عبر الأنفاق الخضراء فى الغابة. منذ بداية الخروج الهندى، اكتظت المقاطعة بشبكة من قوافل التهجير المعروفة رسميًا: كانت هناك طرق "بيضاء" وطرق "سوداء"، كانت الأولى أقصر وتستخدم بكثافة. سافر مئات الألوف بالفعل عبر هذه البرية. ولا يزال يتوافد عدد هائل من اللاجئين يوميًا. كان الجيش اليابانى لا يزال يتقدم إلى الجنوب ولم يكن هناك مجال للتراجع.

***

حملوا الطفلة فى شال علِّق على أكتافهم مثل أرجوحة. كل بضع مئات من الياردات يتوقف الثلاثة جميعًا، منجو ودلِّى ورجكومار، ويبدلون الأحمال، بالتبادل. يبدلون بين الطفلة وصرر ملفوفة بالمشمع يحتفظون فيها بملابسهم وحزمة حطب الوقود.

كانت دلِّى تستخدم عصا، كانت تعرج بشدة. ظهرتْ قرحة على مشط القدم اليمنى، ظهرت فى البداية مثل بثرة حميدة. فى ثلاثة أيام صارت التهابًا ضخمًا

بعرض قدمها تقريبًا. كانتْ تنزُّ صديداً كريه الرائحة وتأكل الجلد والعضل واللحم باستمرار. التقوا بممرضة، قالت إنها "قرحة ناجا"[٣]؛ قالت إن دلّي محظوظة لأن اليرقات لم تغزُ قدمها. وقد سمعت عن حالة أصيب فيها ولد بهذه القرحة في فروة رأسه: حين عولجت بالكيروسين، خرج منها ما لا يقلُّ عن ثلاثمائة وخمسين يرقة، كل منها في حجم دودة صغيرة. إلا أن الولد بقي على قيد الحياة.

على الرغم من الألم اعتبرت دلّي نفسها محظوظة. قابلوا أناسًا تآكلتْ أقدامهم كلها تقريباً، أكلتها الالتهابات: لم تكن إصابة قدمها بذلك السوء. وقد جعل ذلك منجو تجفل من مشاهدتها: ليس بسبب ألمها الشديد، ولكن بسبب احتمالها له في تكتم. كانا كلاهما، دلّي ورجكومار، قويين، متماسكين جداً- كانا مترابطين معًا بقوة، حتى حينذاك، رغم العمر، وعلى الرغم من كل شيء. كان فيهما شيء ينفِّرُها، يملؤها بالاشمئزاز: ربما دلّي أكثر من رجكومار، بانفصالها الجنوني، كأن ذلك كله كابوس في مخيلة شخص آخر.

في مرات رأت منجو الشفقةَ في عيني دلّي، نوعًا من التعاطف- كأنها كائن أكثر حزنًا منها؛ كأنها هي التي فقدتْ سيطرتها على عقلها وصوابها. جعلها هذا المنظر تغلي. ودَّتْ لو تضرب دلّي، تصفعها، تصيح في وجهها: "هذا واقع، هذا هو العالم، انظري إليه، انظري إلى الشرِّ المحيط بنا؛ التظاهر بأنه وهم لن يجعله يتلاشى." كانت هي العاقلة، لا هما. هل هناك دليل على الجنون أفضل من أنهما لا يريدان الاعتراف بحجم الهزيمة؛ الفشل المطلق، كأبوين، ككائنين بشريين؟

كان الحطب الذي معهم ملفوفًا في أوراق ساج كبيرة تشبه الفرو لحفظه من المطر. كان مربوطًا بحبل لفه رجكومار من غصن كرمة. كان الحبل يرتخي أحيانًا وتقع عصا أو قطعة خشب. كل قطعة تسقط تختفي في الحال - يأخذها الناس من خلفهم أو تداس في الوحل بعمق بحيث لا يمكن استعادتها.

كان للوحل تكوين غريب، كان أقرب إلى الوعث من الطين. يمكن أن تغور فيه فجأة؛ قد تغطس إلى الفخذ قبل أن تعرف. ولا تستطيع إلا أن تقف ساكنًا وتنتظر حتى يأتي شخص يساعدك. وكان الحال أسوأ حين تتعثر أو تسقط على وجهك؛ يمكن أن يمسك بك مثل حيوان جائع، ويتشبث بملابسك وأطرافك وشعرك. يمسك بك بإحكام فلا تستطيع الحركة؛ يمكن أن يشلَّ ساقيك وذراعيك، ويغرسها بقوة فى المكان، كما يمسك الصمغ بالحشرات.

فى مكان ما مروا بامرأة نيبالية تحمل طفلاً بالطريقة التى يحملون بها طفلتهم، معلقة فى قماش ملفوف. سقطتْ على وجهها فى الوحل وعجزتْ عن الحركة؛ ولسوء حظها حدث ذلك والحركة قليلة. لم يكن هناك أحد يساعدها؛ ماتتْ حيث كانت مغروسة فى الوحل وطفلها مربوط على ظهرها. جاع الطفل حتى الموت.

كان رجكومار يغضب بشدة إذا فقدوا جزءًا من كنز الحطب الذى معهم. جمع معظمه. كان يتطلع وهم يمشون ومن حين لآخر يلمح غصنًا أو أغصانًا صغيرة لم يلاحظها عشرات الألوف الذين ساروا أمامهم، ومروا فى الطريق نفسها، واجتازوا الأرض المشبعة بالماء إلى نهر من الوحل. فى المساء، حين يتوقفون، يمشى إلى الغابة ويعود بحمل من الحطب. كان معظم اللاجئين يخافون من ترك القافلة؛ هناك شائعات مستمرة عن لصوص وعصابات يقتلون الشاردين. كان رجكومار يذهب على أية حال؛ قال لا يمكن أن تعرضا عليه أن يفعل غير ذلك. كان الحطب رأسمالهم، ثروتهم الوحيدة. فى نهاية كل يوم يقايض رجكومار على الخشب مقابل الطعام – هناك دائمًا أناس فى حاجة إلى الخشب؛ لم يكن للأرز والدال فائدة بدون نار للطبخ. كان الخشب يشترى الطعام أسهل مما تشتريه الفلوس أو الأشياء القيمة. لم يكن للمال قيمة. قدَّم أناس – تجار أثرياء من رنجون – قبضات من الأوراق المالية مقابل بضع علب من الدواء. ولم تكن الأشياء القيمة، إلا وزنًا إضافيًا. كُدِّستْ طرق القوافل ببضائع

مرمية – أجهزة راديو وإطارات دراجات وكتب وأدوات حرفيين. لم يتوقفْ أحدٌ حتى لإلقاء نظرة.

مروا ذات يوم بسيدة، ترتدى ساريًا حريريًا جميلاً، كَتْجيفارام(٤) أخضر كالطاووس. يبدو أنها من عائلة ثرية، لكنها أيضًا تسير بدون طعام. حاولت التسول من مجموعة أناس يجلسون قرب نار. بدأت فجأة تخلع ملابسها، وحين خلعت ساريها رأوها ترتدى ساريات أخر على الملابس الداخلية، جميلة من الحرير الفخم تساوى مئات الروبيات. عرضتْ ساريًا منها مقابل حفنة من الطعام. لم تكن له فائدة عند أحد؛ يطلبون بدلاً من ذلك ولْعة وخشبًا. رأوها تجادلهم دون طائل– ثم، ربما وقد عرفتْ أخيرًا انعدام قيمة ما تدخر من ثروة، كوّمت السارى إلى كرة ووضعتْه فى نارهم: احترق الحرير بطقطقة وتقافز من اللهب.

كان فى الحطب شظايا، يمكن أن تأخذ طريقها للجسم، لكن منجو فضّلتْ حمل الخشب عن حمل ابنتها. كانت الطفلة تبكى كلما اقتربت منها. كانت دلّى تقول: "إنها جائعة. أعطيها ثديك." كانوا يتوقفون، فتجلس فى المطر والطفلة فى ذراعيها، وينصب رجكومار فوقهما ساترًا من الأوراق والأغصان.

قالوا، لم يتبق الكثير. لم تعد الهند بعيدة. لم تتبق إلا مسافة قصيرة.

لم يكن فى جسمها شىء – كانت منجو متأكدة من ذلك– لكن بشكل ما كانت الطفلة تجد طريقة لعصر بعض النقط من ثدييها المقرحين المتقيحين. وحين يجف المجرى الهزيل، تصرخ مرة أخرى– بطريقة غاضبة انتقامية، كأنها لا تريد أكثر من أن ترى أمها ميتة. حاولتْ أحيانًا إطعام الطفلة أشياء أخرى – تعجن بعض الأرز وتضعه فى ركن من فم الطفلة. بدا أنها تتلذذ بالطعم: كانت فتاة جائعة، تواقة للحياة؛ تشبه جديها أكثر مما تشبهها.

ذات يوم غلب النوم منجو وهى تجلس والطفلة فى ذراعيها. استيقظتْ فوجدت دُلِّى واقفة بجوارها، تتطلع إلى وجهها فى قلق. سمعتْ أزيز حشرات تطير حول رأسها. ذباب أزرق بأجنحة لها وميض، يسميه رجكومار "ذباب الجشع" لأنه يُرى دائمًا على الضعاف جدًا الذين لا يستطيعون مواصلة الطريق- أو من اقتربوا من الموت.

سمعتْ منجو الطفلة تصرخ فى حجرها، لكن لم يزعجها الصوت لحظة. سرى خدر مريح فى جسدها؛ لم تكن تريد إلا أن تجلس بقدر ما تستطيع، متلذذة بغياب الإحساس. لكن كما هو الحال دائمًا أزعجها جلاداها؛ صاحتْ دُلِّى فيها: "انهضى، منجو، انهضى."

قالت: "لا. دعينى من فضلك. لحظة فقط."

صاحتْ: "تجلسين هنا منذ أمس. انهضى، منجو، وإلا بقيتِ هنا للأبد. فكرى فى الطفلة؛ انهضى."

قالت منجو: "الطفلة سعيدة هنا. دعينا. غدًا نواصل المشى. ليس الآن."

لكن لم تكنْ دُلِّى تسمع: "لن نتركك تموتين، منجو. أنت شابة؛ لديك طفلة، فكرى فيها..." أخذتْ دُلِّى الطفلة من ذراعيها، وشدَّها رجكومار لتقف على قدميها. هزَّها بقوة، حتى اصطكَّتْ أسنانها.

"واصلى، منجو؛ لا تستسلمى."

وقفتْ تحدق فيه والمطر يتدفق وهى فى ساريها الأبيض، سارى أرملة، وشعرها مقصوص. كان يرتدى لُنْجِيًا رثًا، وينتعل شبشبًا غارقًا فى الوحل. كان بطنه غائرًا، وهيكله هزيلاً من الجوع، ووجهه منقطًا ببقع بيضاء، وعيناه محتقنتين، حولهما هالتان حمراوان.

"لماذا، أيها الرجل العجوز، لماذا؟" صاحتْ فيه. دعته بورو[٥] بازدراء؛ لم تعد تبالى بأنه أبو نيل، وكانت تخشاه دائمًا: كان آنذاك معذبها فقط، الذى لا يجعلها تستمتع بالمتبقى مما كسبتْ: "لماذا أواصل؟ انظرْ إلى نفسك: واصلتَ – وواصلت وواصلتَ وواصلت. وماذا جلب ذلك لك؟"

ثم، لدهشتها، تدفَّقت الدموع فى عينيه وانسابتْ على تجاعيد وجهه وشقوقه. بدا مثل طفل مروَّع: يائسًا وعاجزًا عن الحركة. ظنَّتْ لحظة أنها ربحتْ أخيرًا، لكن دُلِّى تدخلتْ. أخذت ذراعه وأدارتْه بحيث ينظر أمامه، إلى السلسلة التالية من الجبال. وقف حيث كان، وكتفاه متهدلتان، كأن حقيقة حالتهم بزغتْ أمامه أخيرًا.

دفعتْه دلِّى. "لا يمكن التوقف الآن، رجكومار – واصل." عند انطلاق صوتها، بدا أن غريزة داخلية سيطرتْ عليه. علَّق صرة الحطب على كتفيه وواصل السير.

كانت هناك أماكن تتجمع فيها طرق القوافل وتضيق. كانت عادة على ضفاف الجداول والأنهار. عند كل من هذه التقاطعات يتجمع آلاف وآلاف معًا، يجلسون، ينتظرون – يتحركون فى الوحل، بخطى صغيرة مرهقة.

وصلوا إلى نهر يبدو واسعًا جداً. يتدفق بسرعة جدول جبلى، ومياهه باردة كالثلج. كان هناك، على امتداد ضفة رملية محاطة بغابة مرتفعة، أكبر تجمع التقوا به: عشرات الألوف – بحر من الرءوس والوجوه.

انضموا لتلك الكتلة الهائلة من البشر وجلسوا مقرفصين على ضفة النهر الرملية. انتظروا، وبمرور الوقت وصل رمث. بدا ثقيلاً جداً وليس كبيرًا جداً. شاهدتْه منجو يترنح على النهر المفعم بالمياه: أجمل مركب رأتْه فى حياتها، رأته مخلِّصها. امتلأ فى دقائق وابتعد فى النهر، يتحرَّك ببطء حول انحناءة كبيرة. لم تفقد الإيمان؛ كانت متأكدة أنه سيعود. وبتأكيد كافٍ، فى برهة، عاد الرمث مرة أخرى. ومرة أخرى وأخرى، وفى كل مرة يمتلئ فى دقائق.

فى النهاية جاء دورهم وركبوا. أعطتْ منجو الطفلة لدُلّى ووجدتْ مكانًا على حافة الرمث فجلستْ قرب المياه. انطلق الرمث ورأت النهر يندفع بجوارها؛ رأت دواماته وتياراته تدوِّم – ظهرتْ أشكالُ انسيابه وحركته على السطح. لمست المياه ووجدتْها باردة جداً.

فى مكان ما بعيد، سمعتْ طفلة تصرخ. مهما يكن الضجيج حولها، مهما يكن عدد الناس الذين تراهم يحيطون بها، تعرف دائمًا صوت ابنتها. وتعرف أن دُلّى ستبحث عنها فوراً وتعطيها الطفلة؛ ستقف على رأسها، تشاهدها، لتتأكد أن الطفلة رضعتْ. تركتْ يدها تسقط فوق حافة الرمث وارتجفتْ من لمس الماء. بدا أنه يشدُّها، يرغمها على النزول فيه. تركتْ ذراعها تنزل قليلاً ثم غرستْ قدمها فيه. شعرتْ بساريْها يصبح أثقل، ينتشر فى المياه، يبتعد عنها، يسحب جسمها، ويعلى الرغم منها على أن تتبعه. سمعت صوت الصراخ وكانت سعيدة لأن ابنتها فى ذراعى دُلّى. مع دُلّى ورجكومار ستكون الطفلة فى أمان؛ سيريانها وطنها. كان ذلك أفضل: أفضل أن يأخذاها، وكانا يعرفان ما يعيشان من أجله، فى رعايتهما. سمعتْ صوت دُلّى يناديها - "منجو، منجو، توقفى- احذرى..." عرفت أن الوقت حان. لم يكن مجهداً إطلاقًا أن تنزلق من الرمث إلى النهر. كان الماء سريعًا ومظلمًا وشديد البرودة.

هوامش

(١) التندورى tandoori: المطبوخ فى التنور، فرن من الطين، يتم تسخينه إلى درجة حرارة عالية على الفحم أو الخشب ويستخدم فى الهند لصناعة الخبز واللحم المشوى.

(٢) مولِيك Mawlaik: بلدة شمال غرب بورما، على نهر شندوين.

(٣) ناجا Naga: ناجا كائن فى الميثولوجيا الهندوسية والبوذية، نصفه بشر ونصفه حية.

(٤) كَنْجيفارام Kanjeeevaram: نوع فخم من السارى.

(٥) بورو: buro.

الجزء السابع

القصر الزجاجى

(٤٠)

كانت بيلا فى الثامنة عشرة حين عبر رجكومار ودلّى الجبال. وقد بقى يوم وصولهما إلى لنكاسوكا حيًا فى ذهنها للأبد.

كان ذلك فى ١٩٤٢ . كانت سنة مرعبة لم تعرف لها البنغال مثيلاً. فى ذلك الوقت، لم يعرفوا فى الهند إلا القليل عن الظروف فى بورما والملايو. نتيجة الإجراءات الأمنية وقت الحرب، كانت الأخبار هزيلة، وقد قُطِعتْ كل قنوات الاتصال المعتادة. فى السنة التى قبلها، حين وصلتْ أول سفينة تهجير من رنجون إلى كلكتا، ذهبتْ بيلا ووالداها لمقابلتها فى حوض السفن. كانوا يأملون فى رؤية منجو بين المسافرين النازلين من السفينة. لكنهم علموا أن رجكومار وأسرته قرروا البقاء فى بورما.

ثم جاء قصف رنجون بالقنابل والخروج الكبير للهنود باتجاه الشمال. حين وصل أول اللاجئين إلى كلكتا، بحثتْ عنهم بيلا، وسألتْ عن معلومات، مسجلة أسماء وعناوين. لم تعرف شيئًا.

وفى ١٩٤٢ أيضًا أطلق المهاتما غاندى حركة *الهند الحرة*[1]. وكانت أوما واحدة من ألوف كثيرة من أعضاء المؤتمر الذين تعرضوا للسجن. سجن بعضهم حتى انتهاء الحرب. كانت إقامة أوما فى السجن قصيرة نسبيًا؛ أصيبت بالتيفود وسمح لها بالعودة إلى بيتها.

كانت أوما فى البيت منذ شهرين حين جاء البواب العجوز، بعد ظهيرة أحد الأيام، يخبرها بوجود بعض المعدمين فى الخارج، يسألون عنها. كان ذلك شائعًا جدا

فى ذلك الوقت؛ كانت البنغال فى آلام المجاعة، واحدة من أسوأ المجاعات فى التاريخ. كانت المدينة مليئة بالمهاجرين الجوعى من الريف؛ أناس ينزعون الأعشاب وأوراق الشجر من المنتزهات، باحثين بين البالوعات عن حبات أرز.

فى لنكاسوكا، كان الطعام الفائض يوزع على الفقراء مرة يوميًا. فى ذلك اليوم المحدد، كان توزيع الطعام فى الصباح قد انتهى منذ وقت طويل. كانت أوما مشغولة فى مكتبها حين دخل الشوكيدار يخبرها بهؤلاء المعدمين. قالت: "أخبرْهم بأن يعودوا غداً فى الوقت المناسب."

لم يبتعد الشوكيدار إلا ليعود بعد وقت قصير: "لا يريدون أن ينصرفوا."

تصادف أن بيلا كانت قريبة. قالت أوما: "بيلا، اذهبى لترى ما الأمر."

خرجتْ بيلا إلى الفناء وسارتْ باتجاه البوابة. رأت رجلاً وامرأة تمسك القضبان المعدنية. ثم سمعتْ صوتًا ينطق باسمها فى همس أجش- "بيلا"- فنظرتْ بتفحص فى وجهيهما.

سمعتْ أوما صرخة فجرتْ إلى الفناء. انتزعت المفاتيح من يدى الشوكيدار. جرت إلى البوابة وفتحتها.

"انظرى."

كان رجكومار يجثم على الرصيف. فتح ذراعيه فرأوه يحمل طفلة رضيعة- جايا. فجأة تحول وجه الطفلة إلى الأحمر القاتم المتألق وصرختْ بأعلى صوتها. فى تلك اللحظة لم يكن فى العالم صوت أجمل من هذا التعبير عن الغضب: أعلن هذا الصوت البدائى، صوت الحياة تصميمه على الدفاع عن نفسه.

***

لم تبدأ الشائعات الأولى عن الجيش الوطنى الهندى فى الوصول إلى الهند إلا فى الشهور الأخيرة من السنة التالية، ١٩٤٣ - لكن لم يكن القوة نفسها التى انضمَّ إليها أرجون فى شمال الملايو. لم يبق الجيش الوطنى الهندى الأول طويلاً. بعد حوالى عام من تأسيسه، حلَّه قائده، الكابتن موهون سنجه، خوفًا من أن يحاول اليابانيون السيطرة. تم إحياء الجيش على يدى سُباهس شندرا بوس[٢]، السياسى الوطنى الهندى، الذى وصل إلى سنغافورة فى ١٩٤٣ عن طريق أفغانستان وألمانيا. أعاد بوس تقوية الجيش الوطنى الهندى، جاذبًا عشرات الألوف من المجندين الجدد من الهنود فى جنوب شرق آسيا: انضمَّ إليه أرجون وهاردى وكيشان سنجه وإلونجو وكثير من الآخرين.

فى نهاية الحرب أعيد ألوف من أعضاء الجيش الوطنى الهندى إلى الهند كسجناء حرب. بالنسبة للبريطانيين كانوا أعضاء الطابور اليابانى الخامس - اعتبروهم خونة - لكل من الإمبراطورية والجيش الهندى، الذى واصل هيكله القتال مع الحلفاء فى شمال أفريقيا وجنوب أوروبا، وأخيرًا فى الغزو المضاد البريطانى لبورما. إلا أن الشعب الهندى رأى المسألة بشكل مختلف تمامًا. رأى الإمبريالية والفاشية شرين توأمين، أحدهما مشتق من الآخر. واستقبل سجناء الجيش الوطنى الهندى المهزوم، لا المنتصرين العائدين، استقبال الأبطال.

فى ديسمبر ١٩٤٥ اختارت الحكومة الاستعمارية إلقاء التهم على ثلاثة أعضاء من الجيش الوطنى الهندى - "ثلاثى الحصن الأحمر" الشهير: شاه نواز خان وجوربخش سنجه دهلون وبريم ساجال[٣]. اندلعت الاعتراضات والمظاهرات فى البلاد؛ تشكَّلتْ جمعيات التأييد فى كل أرجاء الهند رغم الحظر الرسمى. عمَّ الإضراب العام كل الولايات؛ عقد الطلاب اجتماعات شعبية هائلة متحدين الأوامر الصارمة. فى مدينة

مادوراى[٤] الجنوبية مات اثنان بعد إطلاق البوليس النيران على مظاهرة. فى كلكتا تدفق عشرات الألوف إلى الشوارع وسيطروا على المدينة عدة أيام. وأطلق البوليس النيران على عشرات منهم. فى بومباى تمرد جنود البحرية. وكانت المحاكمة كسبًا مفاجئًا لحزب المؤتمر. كان الحزب قد فقد الزخم الذى اكتسبه فى سنوات ما قبل الحرب ويحتاج بشدة لقضية تحرك البلاد. وقدمت المحاكمة هذا السبب.

بمجرد بدء المحاكمة، دخلت الدعوى فى المشاكل بسرعة. لم تكن هناك قدرة على إقامة دليل بين الجيش الوطنى الهندى والفظائع اليابانية فى جنوب شرق آسيا أو إساءة معاملة الأسرى البريطانيين أو الاستراليين. بينما ثبت أن بعض السجناء الهنود أسيئتْ معاملتهم، ولم يكن هناك ارتباط لهذه الحالات بالثلاثة المدَّعى عليهم.

فى ١ ديسمبر ١٩٤٥، قدم بهولابهى ديساى[٥]، كبير محامى الدفاع، دفاعه الختامى. قال: "ما يحاكم الآن أمام هذه المحكمة هو الحق فى شن حرب نيابة عن جنس خاضع مع التمتع بالحصانة."

قال هناك تهمة واحدة فقط ضد موكليه، وهى شن الحرب ضد الملك، وكل التهم الأخرى مشتقة من الأولى. وأوضح ديساى أن القانون الدولى اعترف بحق الرعايا بشن حرب من أجل حريتهم وسرد سلسلة من الأحداث السابقة. بيَّن أن الحكومة البريطانية نفسها اعترفتْ بهذا الحق، حين كان فى مصلحتها، فى حالات ترجع للقرن التاسع عشر. دعموا، على سبيل المثال، اليونانيين وبعض القوميات الأخرى فى ثوراتهم ضد الإمبراطورية العثمانية؛ وفى وقت أحدث، دعموا الجيش الوطنى البولندى والثوار التشيكوسلوفاكيين؛ وأكدوا بالمثل على حق رجال المقاومة[٦] الفرنسية فى أن يعاملوا كمحاربين حتى لو كانت حكومة المرشال باتين[٧] فى ذلك الوقت الحكومة التى حلفت اليمين والفعلية[٨] لفرنسا. وانتهت المحاكمة باعتبار المدَّعى عليهم الثلاثة مذنبين

"بشن حرب ضد الملك." وحكم عليهم بالنفى مدى الحياة. وقد حررتْهم الجماهير الغاضبة واستلمتْهم. كان هاردى فى ذلك الوقت شخصية وطنية (صار فيما بعد سفيراً ومسئولاً بارزاً فى الحكومة الهندية) وجاء لرؤية جدى جايا فى كلكتا فى ١٩٤٦ . ومنه عرفوا أن أرجون مات وهو يقاتل فى إحدى المهام الأخيرة للجيش الوطنى الهندى – قاتل فى وسط بورما فى الأيام الأخيرة من الحرب.

عند تلك النقطة فى الصراع، كان اليابانيون ينسحبون وجيش الحلفاء الرابع عشر، تحت قيادة الجنرال سليم(٩)، يتقدم بسرعة إلى الجنوب. كانت الوحدات الهندية فى وسط بورما من بين آخر من استمروا فى المقاومة. كانت أعدادهم ضئيلة وأسلحتهم عتيقة تعود للأيام الأولى من الحرب. والقوات التى يحاربونها صوراً مطابقة غالبًا لما كانوا عليه فى بداية الحرب: معظمهم من الهنود، من الأفواج نفسها غالبًا، جُنِّدوا غالبًا من القرى والمقاطعات نفسها. وكان من غير المعتاد بالنسبة لهم أن يقاتلوا إخوتهم الأصغر وأبناء أخوتهم.

كانت مقاومة الجيش الوطنى الهندى فى تلك المرحلة رمزية إلى حد بعيد، تُنفَّذ على أمل إثارة تمرد فى الجيش الهندى. وعلى الرغم من أنهم لم يمثلوا أبداً تهديداً كبيراً للجيش الرابع عشر المنتصر، فقد كانوا أكثر من مهيِّج صغير. قاتل عدد كبير وماتوا بشجاعة كبيرة، مقدِّمين أبطالاً وشهداء للحركة. وأرجون من بين الذين ماتوا أبطالاً، كما قال هاردى. وكذلك كيشان سنجه. وذلك كل ما عرفوا عن موت أرجون واطمأنوا لأنه كان كذلك.

***

على مدى السنوات الست التالية أقامت دلِّى ورجكومار مع أوما فى شقتها. نُسى تراث شجار رجكومار مع أوما وربطت الطفلة، جايا، بين كل سكان المنزل.

عملتْ دلِّي مع وحدة نشر تابعة للجيش، ترجمتْ كتيبات فترة الحرب إلى البورمية. وقام رجكومار بعمل إشرافى مؤقت فى ورش نجارة وشوادر خشب. فى يناير ١٩٤٨ نالت بورما استقلالها. وبعد قليل قرَّرتْ دلِّي العودة مع رجكومار إلى رنجون، على الأقل لبعض الوقت. وفى أثناء ذلك تبقى جايا فى كلكتا مع خالتها بيلا وجديها الآخرين.

وكان شغف دلِّي بالعودة إلى بورما يعود أساسًا إلى أنها لم تسمع شيئًا عن دينو منذ سبع سنوات. كانت دلِّي تؤمن بأنه لا يزال على قيد الحياة وتحرص على العثور عليه. عبَّر رجكومار عن رغبته فى الذهاب معها فحجزتْ تذكرتين.

لكن مع اقتراب اليوم، تبين أن رجكومار لم يكن متأكِّدًا من رأيه. على مدى السنوات الست الأخيرة، ارتبط ارتباطًا شديدًا بحفيدته اليتيمة. أكثر من أى شخص آخر فى المنزل، أخذ على عاتقه مسئوليات الاهتمام اليومى بها: يجلس معها أثناء وجباتها، ويمشى معها فى المنتزه، ويحكى لها حكايات قبل النوم. بدأتْ دلِّي تشك فى قدرته على تحمل ألم الابتعاد عن الطفلة.

استقرَّ السؤال حين اختفى رجكومار قبل موعد السفر إلى بورما بيومين. عاد بعد أن أبحرت السفينة. عبر عن ندمه وقدم أعذارًا كثيرة؛ قال إنه لا يتذكر أين ذهب أو لماذا. ألحَّ على دلِّي أن تحجز مرة أخرى؛ ووعد بألا يحدث ذلك مرة أخرى. وأثناء ذلك، قررت دلِّي أن الأفضل ترك رجكومار حيث كان - من أجله ومن أجل جايا. ولم تعترضْ أوما من جانبها؛ كانت مطمئنة إلى بقائه: لم يكن مزعجًا وكثيرًا ما يقوم بأعمال مفيدة فى المنزل.

عادتْ دلِّي إلى مكتب شركة السفن البخارية وحجزتْ تذكرة ذهاب إلى رنجون. كانت تعرف أن رجكومار سيضطر إلى مرافقتها إذا علم بخططها. قرَّرتْ ألا تخبره.

واصلت انشغالها اليومى كالمعتاد. فى صباح يوم رحيلها طبخت مكرونة موهينجا(١٠)، طبق رجكومار المفضل. ذهبا للتمشية حول البحيرة وبعد ذلك نام رجكومار.

تم الترتيب لذهاب أوما مع دُلّى إلى حوض سفن خيدربور(١١). لم تقل أى منهما الكثير فى الطريق؛ كان رحيلاً نهائيًا وهو ما لم تستطعْ أى منهما الاعتراف به. فى النهاية، ودُلّى على وشك الصعود إلى السفينة، قالت لأوما: "أعرف أن جايا ستكون بخير. هناك كثير منكم للاهتمام بها. أنا قلقة على رجكومار."

"سيكون بخير، دُلّى."

"هل ستعتنين به، أوما؟ من أجلى؟"

"سأعتنى به؛ أعدك."

فى لنكاسوكا، استيقظ رجكومار ليجد ورقة على مخدته، بخط دُلّى الجميل. التقط الورقة وفتحها برفق. كان فيها: رجكومار - أعرف من أعماق قلبى أن دينو لا يزال على قيد الحياة وأنى سوف أجده. بعد ذلك أذهب إلى ساجاينج كما كنتُ أريد منذ وقت طويل. وأنا أعرف أن لا شىء فى هذا العالم أصعب علىَّ من أن أتخلى عنك وعن ذكرى حبنا. دُلّى.

لم يرها مرة أخرى أبدًا.

هوامش

(١) حركة الهند الحرة Quit India movement: حركة أسسها المهاتما غاندى فى ٨ أغسطس ١٩٤٢ للمطالبة بالاستقلال الفورى عن الحكم البريطانى، وكان شعارها "العمل أو الموت".

(٢) سُباهس شندرا بوس Subhas Chandra Bose (١٨٩٧ – ١٩٤٥) :من أبرز قادة حركة الاستقلال الهندى عن الحكم البريطانى.

(٣) شاه نواز خان Shah Nawaz Khan: سياسى وضابط هندى كبير (من قرية تابعة لباكستان حاليًا)، انضم للجيش الوطنى الهندى؛ جوربخش سنجه دهِلون Gurbakhsh Singh Dhillon: (١٩١٤ – ٢٠٠٦) : أحد قادة الجيش الوطنى الهندى؛ وبريم ساجال Prem Sagal: أحد قادة الجيش الوطنى الهندى. بدأت المحاكمة التى يشير إليها المؤلف فى ٥ نوفمبر ,١٩٤٥

(٤) مادوراى Madurai: مدينة جنوب الهند جنوب غرب مدراس، مشهورة باسم "مدينة المهرجانات والمعابد".

(٥) بهولابهى ديساى Bhulabhai Desai (١٨٧٧ – ١٩٤٦): محام هندى شهير دافع عن الحرية.

(٦) رجال المقاومة maquis: بالفرنسية فى الأصل.

(٧) المرشال باتين Marshal Pétain (١٩٤٠ – ١٩٤٤) . عسكرى وسياسى فرنسى قاد الحكومة الفرنسية الموالية للألمان (١٩٤٠-١٩٤٤). اتهم بالخيانة وسجن عام ١٩٤٥ .

(٨) حلفت اليمين de jure، الفعلية de facto: بالفرنسية فى الأصل.

(٩) الجنرال سليم General Slim (١٨٩١ – ١٩٧٠) : قائد عسكرى بريطانى. خاض الحربين العالميتين.

(١٠) موهينجا mohingya: أرز بشربة سمك، يتناول على الفطور عادة، وهو طبق شعبى فى بورما، والحديث هنا عن نوع من المكرونة بدلاً من الأرز.

(١١) خيدربور Khidderpore: حى فى كلكتا.

(٤١)

كطفلة وحيدة فى المنزل، شغلتْ جايا لنكاسوكا وهى تكبر. كانتْ خالتها بيلا تعيش فى الدور العلوى؛ ورثت الشقة بعد موت والديها. لم تتزوجْ أبدًا، ووقعتْ على عاتقها بشكل أساسى مسئولية الاهتمام اليومى بجايا: فى شقتها تنام جايا وتأكل عادة.

لم يبعد رجكومار أبدًا: بعد رحيل دلّى، استمرَّ يعيش فى الدور الأرضى فى شقة أوما. كانتْ له غرفة صغيرة بمفرده قرب المطبخ، بها سرير ضيق ورفان من أرفف الكتب.

كان الشىء الوحيد غير الضرورى فى غرفة رجكومار هو الراديو- بيلارد من طراز قديم بصندوق خشبى وواجهة مغطاة بالقماش. كان رجكومار يأخذ غفوة بعد الظهيرة والراديو مفتوح دائمًا- تغلقه جايا عادة بعد العودة من المدرسة. وكان صمت الراديو يوقظه غالبًا من غفوته، فيجلس، مائلاً على مخدته، ويأخذ حفيدته بجواره. وحين يضع ذراعه حول كتفى جايا تختفى فى ثنية كوعه؛ كانت يداه ضخمتين، وبشرته داكنة، معرّقة بأوردة لونها أفتح، والشعر الأبيض على مفاصل أصابعه يبدو تناقضًا رهيبًا. كان يغلق عينيه وتمتلئ تجاويف وجهه بالثنايا الجلدية. وحين يتكلم، تتدفق الحكايات منه - عن أماكن لم تذهبْ إليها جايا أبدًا ولم ترها؛ عن صور ومشاهد كانت جلية كأنها تطفح من كوب الواقع إلى بحار الأحلام. عاشت فى حكاياته.

كان المكان المفضل الذى يتردد عليه رجكومار معبدًا بوذيًا صغيرًا فى مركز المدينة، مكانًا كانت دلّى أيضًا تحبُّ زيارته، فى الماضى. كان مكانًا تجتمع فيه الجالية

البورمية فى كلكتا، وفى مناسبات خاصة أخذ رجكومار جايا معه. كان المعبد فى الدور الرابع من بناية قديمة متداعية، فى منطقة تزدحم فيها حركة المرور ويمتلئ الهواء بعادم الديزل. كانا يشقان الطريق عبر البلدة فى حافلة وينزلان فى محطة مستشفى عدن. يصعدان سلالم رخامية قذرة وحين يصلان إلى القمة، يدخلان قاعة تبدو عالمًا بعيداً عما يحيط بها: مليئة بالأضواء، يفوح منها عبير زهور ندية، وأرضيتها تلمع من النظافة. وعلى الأرضية حصائر منسوجة بأنماط مميزة: تختلف عن الحصائر الهندية، وكانت فى الوقت نفسه متشابهة.

كان المعبد دائمًا فى أزهى لحظاته فى المهرجانات البورمية الكبرى – تِنْجيان[1]، مهرجان الماء وتستهل به السنة البورمية الجديدة: الواسو، الذى يحدد بداية الثادين، فترة الشهور الثلاثة السنوية من الصوم والزهد؛ والثادينجوت[2]، عيد النور، الذى يعلن نهاية الثادين.

ذات مرة وجايا فى العاشرة، أخذها رجكومار إلى المعبد فى الثادينجوت. كان المعبد مليئًا بالناس؛ النساء يمرحن فى لنجياتهن، استعداداً للعيد؛ والجدران متألقة بأنوار براقة لمئات اللمبات والشموع. فجأة، وسط الصخب والمرح، خيم السكون. جرت همسات فى الغرفة: "الأميرة... الأميرة الثانية، تصعد السلم..."

دخلت الأميرة، فتسارعت الأنفاس، وكثر وكز الكيعان ممن يعرفون أداء الشيكو. كانت الأميرة ترتدى هتامينًا قرمزيًا ووشاحًا، فى أواخر الستينيات من العمر، وكان شعرها الرمادى مربوطًا إلى مؤخرة رأسها فى كعكة صغيرة جداً. كانت ضئيلة، وجهها لطيف وعيناها سوداوان متألقتان. كانت تعيش فى الهند، فى محطة الهضبة فى كليمبُنْج. وكان معروفًا أن ظروفها سيئة جداً.

تبادلت الأميرة بعض الدعابات اللطيفة مع الناس من حولها. ثم وقعتْ عيناها على رجكومار فتجعد وجهها بابتسامة دافئة وبودة. قطعتْ أحاديثها؛ تفرق الحشد وشقت

طريقها ببطء عبر الغرفة. تركزتْ كل العيون في المعبد على رجكومار. شعرتْ جايا بالانتفاخ زهواً نيابة عن جدها.

حيت الأميرة رجكومار تحية حارة بالبورمية؛ لم تفهم جايا كلمة من محادثتهما، لكنها شاهدتْ وجهيهما بعناية، وتأملتْ تعبيراتهما المتغيرة، مبتسمة حين يبتسمان، ومقطبة حين يتجهمان. قدمها رجكومار: "وهذه حفيدتي..."

لم تكن جايا قد قابلت أميرة من قبل أبداً ولم تعرفْ ماذا تفعل. لكنها لم تفتقر إلى الحيلة؛ تذكرت فيلماً رأته منذ فترة قصيرة- الجمال النائم أم سندريلا[٣]؟- وقلدت انحناءة احترام، وهي تمسك بطرف ردائها بين إصبع والإبهام. كافأتها الأميرة بحضن.

فيما بعد التفَّ الناس حول رجكومار، متسائلين عن سر اختيارها له. سألوا: ماذا قالتْ سموها؟ كيف عرفتْك؟"

قال رجكومار بتلقائية: "أوه، عرفتُها معظم أيام حياتي."

"حقًّا؟"

"نعم. رأيتُها أول مرة في مندالي وعمرها ستة أشهر."

"أوه؟ وكيف حدث ذلك؟"

بدأ رجكومار من البداية، عاد إلى ذلك اليوم الذي انقضى عليه أكثر من ستين عاماً حين سمع صوت المدافع الإنجليزية تنطلق عبر السهل إلى جدران حصن مندالي.

***

فى ركن هادئ من لنكاسوكا، كانت هناك كوة بمثابة ضريح لوالدى جايا وخالها أرجون. فى الكوة صورتان فى إطارين: إحداهما لمنجو ونيل، التقطت يوم العرس– التقطت لهما وهما يرفعان عيونهما عن النار المقدسة فى دهشة. وقد انزلق حجاب منجو لحظة من فوق رأسها. كانا يبتسمان، ووجهاهما متألقان ومشرقان. والتقطت صورة أرجون فى محطة هورا: كان فى زيه، يضحك. وكان هناك وجه ثانٍ مميز بوضوح على كتفه: قالتْ بيلا لابنة أختها أنه مراسلة خالها، كيشان سنجه.

ثلاث مرات سنوياً، تقيم بيلا وجايا بعض الطقوس عند الضريح. تزينان الصورتين بالزهور وتحرقان بخوراً. تعطى بيلا الزهور لجايا، وتوجهها لتقدم تقديرها لأمها وأبيها وأرجون، خالها الذى لم تعرفْه أبداً. لكن وبيلا تشعل عيدان الدهوب(٥)، كانت هناك دائمًا أربع باقات، لا ثلاث. بدون أن يقال لها، عرفتْ جايا أن الباقة الإضافية من أجل كيشان سنجه: كان أيضًا من موتاهما.

وجايا لم تزل فى العاشرة، تنامى اهتمامها بالكاميرات والصور، وخطر ببالها أن تسأل خالتها عن الصور ومن التقطها.

اندهشتْ بيلا. قالت بارتباك: "اعتقدتُ أنك تعرفين. التقطها عمك دينو."

قالتْ جايا: "من؟" هكذا عرفت جايا أن لها عمًا– عمًا لم يُذكَر لأن مصيره مجهول. لم يتكلم أحدٌ أبدًا فى لنكاسوكا عن دينو – سواء رجكومار أو أوما أو بيلا. لا أحد كان يعرف ما جرى له. كان معروفًا أنه أقام فى مرننجسايد حتى الأسابيع الأخيرة من ١٩٤٢ . وفى وقت ما رحل إلى بورما. ولم يسمعْ عنه شىء بعد ذلك. توقع الجميع سرًا أن يكون ضحية أخرى من ضحايا الحرب، لكن لم يرغبْ أحد أن يكون أول من ينطق بهذه المخاوف، ولذا لم يذكر اسم دينو فى المنزل أبدًا.

فى أواخر أربعينيات القرن العشرين، كانت ظلال الحرب العالمية الثانية تتعمق فى بورما. فى البداية نشبت صراعات مدنية مؤجلة وثورة شيوعية على نطاق واسع. وفى

١٩٦٢ أمسك الجنرال نى وين(٥) بمقاليد السلطة بانقلاب وتعرضت البلاد لنزوات غريبة وجنونية من ديكتاتورها: صارت بورما، "الذهبية"، مرادفًا للفقر والطغيان وفساد الحكم. وكان دينو من بين ملايين كثيرة تلاشوا فى الظلام.

عاشتْ جايا، حتى يوم زواجها، فى لنكاسوكا مع خالتها وأوما ورجكومار. تزوَّجتْ صغيرة، فى السابعة عشرة. كان زوجها طبيبًا، يكبرها بعشر سنوات. نشأ بينهما حب قوى وبعد سنة من العرس رزقا بابن. لكن وهو ابن سنتين، حدثتْ مأساة: قُتِل والده فى حادث قطار.

بعد قليل عادت جايا إلى لنكاسوكا. بدعم خالتها بيلا التحقتْ بجامعة كلكتا، وحصلتْ على درجة علمية وعملتْ مدرسة فى كلية. عملت بجد لينال ابنها تعليمًا جيدًا. التحق بأفضل مدارس المدينة وكلياتها، وفى الثانية والعشرين فاز بمنحة تعليمية وسافر إلى الخارج.

الآن، لأول مرة فى سنوات، كان هناك وقت متاح لجايا. بدأتْ تعمل من جديد فى أطروحة دكتوراه الفلسفة فى تاريخ التصوير الفوتوغرافى فى الهند.

***

فى ١٩٩٦ أرسلت الكلية جايا لحضور مؤتمر عن التاريخ فى جامعة جوا. فى الطريق، وهى تغير الطائرة فى مطار بومباى، كمنتْ لها إحدى أسوأ الخبرات المحتملة فى المطارات: عند الوصول إلى مكتب المراجعة قيل لها إن الطائرة تحت الفحص. وإذا أرادت تأكيد الحجز، فعليها الانتظار يومين على الأقل؛ وبشكل بديل يمكن أن تتحمل شركة الطيران أجرة الانتقال بحافلة أو قطار.

ذهبت جايا إلى مكتب آخر ملوحة بتذكرتها. وجدتْ نفسها فى نهاية طابور طويل من الغاضبين؛ يصيحون جميعًا باللازمة نفسها فى الموظف: "لكن لنا حجوزات..."

كانت جايا نحيلة متوسطة الطول. وكان شعرها ناحلاً، ورمادياً وتبدو كما هى تماماً – أستاذة جامعية متواضعة ومنطوية، كثيراً ما وجدتْ صعوبة فى الحفاظ على النظام فى الفصل. عرفتْ أن إضافة صوتها إلى كورس السخط عند الطاولة بلا معنى: حيث احتشد الآخرون، لم يبدُ أحدٌ أقل قدرة على الانتصار من واحدة مثلها. قررت أن تستقل القطار.

لم تكن جايا تعرف مدينة بومباى جيداً. أخذت إيصالاً وذهبت إلى محطة شيفاجى(٦) فى حافلة وفَّرتْها شركة الطيران. أحضرتْ جدول الرحلات وعرفتْ أن أول قطار أمامه عدة ساعات. أخذتْ التذكرة وقررت أن تتمشى. وضعت حقيبتها فى الأمانات وخرجت من المحطة. كان وقت الأصيل، بداية ساعة الذروة؛ شقَّتْ طريقها بين الجماهير المتدافعة.

بعد برهة كانت تقف بجوار أبواب ملونة لجاليرى فنون مكيف الهواء. ترك نفَسُها هالة منداة على الزجاج الأخضر البارد. كان على الباب إعلان ينوه عن عرض لعمل اكتشف حديثاً لمصورة رائدة من بدايات القرن، امرأة بارسية كانت مجهولة حتى ذلك الوقت. وعلى قمة الإعلان صورة، نسخة مصغرة بالكمبيوتر لإحدى صور المعرض – بورتريه لمجموعة من أربعة أشخاص جالسين. كان فى الصورة شىء شدَّ عين جايا. فتحت الباب. كان الجاليرى شديد البرودة وخالياً تقريباً. وكانت الشوكيدارة الفظة المعتادة تجلس على كرسى، خلف منضدة، امرأة تبدو ضجرة، ترتدى سارياً من الحرير وتضع فى أنفها حلَقاً من الماس.

"هل يمكن أن تريني من فضلك الصورة التى فى هذا الإعلان؟"

لابد أن المرأة سمعتْ نبرة الإثارة فى صوت جايا، لأنها نهضتْ بسرعة وأخذتْها إلى الركن البعيد من الجاليرى: "هذه الصورة؟"

أومأتْ جايا. كانت الصورة بحجم كبير، أكبر من بوستر، بينما النسخة التى تتذكرها لا يزيد حجمها على بطاقة بريدية. عرفت الصورة طوال حياتها، لكنها تطلعتْ إليها كأنها تراها لأول مرة. التُقِطت الصورةُ فى حديقة مقر الجابى. كانت المقاعد الأربعة موضوعة فى نصف دائرة على عشب مشذب جيداً. أوما وزوجها وسط المجموعة، يجلس بجوارهما من الجانبين دُلِّى ورجكومار.

فى الخلف حديقة مستطيلة، تنحدر بشدة على جانب الهضبة. فى الحدود المظللة على مسافة متوسطة ظهر عدد من الناس، فى أوضاع منظمة بعناية- خدم وسُوَّاس وجناينية، وكل منهم مزوَّد بأدوات مهنته: مناجل وفؤوس وسياط. فى الخلفية، بامتداد الإطار، مشهد طبيعى - رائع ودرامى بدا وكأنه خلفية مرسومة: نهر يلتف حول هضبة ويتسع عند المصب، صف منحدرات تنبثق من بحر مزبد، شاطئ مصفوف بالنخيل ينزلق برقة فى خليج غسلتْه الشمس.

كان الجابى فى صدر الصورة، نحيلاً ورشيقًا، يرتدى بدلة من الكتان بثلاثة أزرار. يجلس على حافة مقعده مثل طائر يقظ، ورأسه منتصب بزاوية ثابتة تثير بعض الريبة. من ناحية أخرى، بدتْ أوما منبسطةً جداً. وكان فى سلوكها وفى الطريقة التى أراحت بها يدها بخفة على ركبتيها توازن معين وثقة فى الذات. كانت ترتدى سارياً بسيطًا فاتح اللون بحافة مطرزة؛ وأخيراً على رأسها شىء مجعد كالشال. كانت عيناها كبيرتين برموش طويلة، ووجهها سمحاً وقوياً أيضًا: تتذكره جايا جيداً من طفولتها. تذكَّرتْ باستغراب أن مظهر أوما لم يتغير إلا قليلاً على مدار حياتها.

قطعتْ صاحبة الجاليرى هذه التأملات. قالت: "أظنك تعرفين هذه الصورة؟"

"نعم. المرأة التى فى الوسط عمة أبى. اسمها أوما دى."

ثم لاحظت جايا تفصيلاً. قالت: "انظرى، انظرى كيف ترتدى ساريها."

مالتْ صاحبة الجاليرى لفحص الصورة: "لا أرى شيئًا غير عادى فيه. هكذا ترتديه كل النساء."

قالت جايا: "حقًا، أوما دى من أوائل نساء الهند اللائى ارتدين السارى بهذه الطريقة."

"أية طريقة؟"

"الطريقة التى أرتدى بها سارىَّ، على سبيل المثال- أو ترتدين بها ساريك."

تجهمت المرأة. قالتْ كأمر مسلم به: "هذه الطريقة يُلبَس بها السارى دائمًا. السارى رداء قديم جداً."

قالت جايا بهدوء: "نعم، إنه كذلك، لكن الطرق التى يلبس بها ليست كذلك. الأسلوب المعاصر لارتداء السارى مع بلوزة وجيبة ليس قديمًا جدًا على الإطلاق. ابتكره رجل أيام الحكم البريطانى."

فجأة، عبر السنوات، سمعتْ صوت أوما تشرح تطور ارتداء السارى. أصيبت جايا برجفة، حتى بعد تلك السنوات كلها، وهى تتذكر دهشتها حين سمعتْ القصة أول مرة. تخيلت دائمًا أن السارى جزءٌ من النظام الطبيعى للعالَم الهندى، يرجع إلى العصور السحيقة. وكان اكتشاف أن للرداء تاريخًا ابتكره أناس حقيقيون، إرادة إنسانية، صدمة لها.

توقفتْ جايا فى طريق الخروج من الجاليرى لشراء بطاقة بريدية عليها الصورة. كان فى ظهر البطاقة ملاحظة تفسيرية تقول: تقع رتناجيرى بين بومباى وجوا. باندفاع أخرجتْ جايا مواعيد القطارات من حقيبتها: رأت أن قطارها يتوقف فى رتناجيرى فى طريقه إلى جوا. فكَّرتْ فى التوقف هناك ليلة أو اثنتين: سيبدأ المؤتمر بعد يومين.

خرجتْ من الجاليرى ودخلت مطعمًا إيرانيًا(٧). طلبت بعض الشاى وجلست تفكر. تملكتها فجأة فكرة الذهاب إلى رتناجيرى: كثيرًا ما فكرتْ فى الذهاب ووجدتْ دائمًا أسبابًا للتخلى عن الفكرة. لكن ربما حان الوقت: بدت الصورة التى رأتْها فى الجاليرى إشارة من نوع ما– علامة تقريبًا. من رتناجيرى تنبع أصول تاريخها الخاص جدًا– لكن أقلقتها فكرة الذهاب إلى هناك، حركت الرواسب المنسية، رواسب القلق والانزعاج.

شعرتْ بحاجة للتحدث مع أحد. دفعت الفاتورة وخرجتْ. اندفعت مع الجماهير، ومشتْ فى الشارع مسافة طويلة حتى وصلت إلى كابينة تليفون. دخلتْها، طلبتْ نمرتها فى كلكتا. بعد رنتين ردّتْ خالتها: "جايا؟ أين أنت؟"

"فى بومباى..." شرحتْ جايا ما حدث. وهى تتحدث، تصوّرتْ خالتها تقف بجوار التليفون الأسود المكسر فى غرفة نومها، تتجهم فى قلق، ونظارة القراءة ذات الإطار الذهبى تنزلق على أنفها الطويل النحيل.

قالت جايا: "أفكر فى قضاء ليلتين فى رتناجيرى. يتوقف قطارى هناك فى الطريق إلى جوا."

كان هناك صمت. ثم سمعتْ صوت بيلا، تتكلم بهدوء فى التليفون: "نعم– بالطبع عليك أن تذهبى؛ كان عليك أن تذهبى منذ سنوات..."

***

كانت صورة رتناجيرى رائعة كما تخيلت جايا تمامًا. لكنها اكتشفتْ بسرعة أنه لم يتبق إلا القليل جدًا من الأماكن التى سمعتْ عنها فى طفولتها. كان المرفأ فى مندفى أنقاضًا منهارة؛ ومعبد بهاجفتى، وكان ذات يوم مجرد برج وضريح، كتلة شاهقة من الخرسانة المدهونة بالجير؛ هُدِم منزل أطرام، حيث عاش الملك ثيبو وحاشيته

حوالى خمسة وعشرين عاماً، وشيد من جديد. لم تعد رتناجيرى بلدة إقليمية صغيرة كما كانت أيام ثيبو. صارت مدينة مزدهرة، تجمعت حولها الصناعات بكثافة من كل الجهات.

لكن الغريب أن هذه البلدة، خلال هذا كله، نجحتْ بشكل ما فى الحفاظ على الملك ثيبو وذكراه نابضين بالحياة. كان الملك ثيبو فى كل مكان فى رتناجيرى: نقش اسمه على اليافطات ولوحات الإعلانات، فى أركان الشوارع وعلى المطاعم والفنادق. مات الملك منذ أكثر من ثمانين عاماً، لكن الناس يتحدثون عنه فى البازارات وكأنهم أول من عرفوه. وجدت جايا فى أن رجلاً مثل ثيبو مازال ثابتاً بعمق ويحظى بكل هذا الحب فى أرض منفاه، أمراً مؤثراً فى البداية ومحركًا للمشاعر بعمق.

كان مقر الجابى أول مكان حقيقى تعثر عليه جايا - المكان الذى عاشت فيه أوما. تبين أنه قريب من الفندق الذى تقيم فيه، على قمة هضبة تطل على الخليج والبلدة. كان المجمع ملك الحكومة وقد أحيط بسور هائل وعر. وأزيلت الأشجار من كان أرجاء الهضبة- وكانت كثيفة الأشجار أيام أوما- فصار المشهد دراميًا أكثر مما كان، بانوراما شاسعة من النهر والبحر والسماء. ورتناجيرى تمتدُّ تحتها، نموذج دقيق لبلدة فى مقاطعة استعمارية، بخط خفى يفصل بازاراتها المزدحمة عن "الكتشيرى"- المجمع الفيكتورى المشيد بالطوب الأحمر الذى يضم محاكم المقاطعة ومكاتبها.

كومت جايا، تواقة لإلقاء نظرة على مقر الحاكم، بعض الطوب بجوار سور المجمع ووقفت فوقه تنظر داخله. وجدت خيبة أمل أخرى فى الانتظار: اختفى البنجلو القديم برواقه اليونانى وعشبه المتدرج وحدائقه المستطيلة. قُسِّمت الأراضى لإقامة عدة منازل صغيرة عليها.

كانت جايا على وشك النزول حين بادرها بالكلام حارس مسلح. صاح: "هِيْ. ماذا تفعلين؟ انزلى من عندك."

جاء مسرعًا وأطلق وابلا من الأسئلة: من هى؟ من أين؟ وماذا تفعل هناك؟

لتصرف انتباهه أخرجت البطاقة البريدية التى اشترتها من الجاليرى فى بومباى. كان تأثيرها كما تمنتْ. حدَّق الحارس فى الصورة وسمح لها بالسير فى الطريق لإلقاء نظرة على لسان من الأرض معلق على الوادى.

قال وهو يشير: "هذا نهر كجالى ، وذلك شاطئ بهات(٨)."

ثم بدأ يطرح أسئلة عن الناس الذين فى الصورة – الجابى وأوما. حين أشار إصبعه إلى رجكومار، ضحك.

قال: "وانظرى إلى هذا الرفيق. يبدو كأنه يملك المكان."

نظرتْ جايا بدقة أكبر إلى الصورة. رأتْ رأس رجكومار يميل بشكل أنيق حقًا، وباستثناء ذلك بدا وقورًا تمامًا. وجهه ضخم بفك كبير، وعيناه قاتمتان؛ بدا عملاقًا بجانب الجسم النحيل الضئيل للجابى. كان يرتدى بنطلونًا غامقًا، وسترة من الكتان وقميصًا بياقة مدورة. لم تكن ملابسه أنيقة أو جيدة التفصيل كملابس الجابى، لكنه بدا أكثر انبساطًا بكثير؛ كانت ساقاه متقاطعتين قليلاً، وفى يده علبة سجائر فضية رقيقة. يمسك بها كأنها الورقة الرابحة، بين إصبعه وإبهامه.

قالت جايا على سبيل الشرح: "هذا جدى."

كان الحارس قد فقد بالفعل الاهتمام برجكومار أثناء ذلك وشردتْ عيناه فى دُلِّى، تجلس فى زاوية بجانب أوما، وجسمها يستدير عكس الكاميرا كأنها تحمى نفسها من نظرتها.

ترتدى دُلِّى لُنجيًّا أخضر من الحرير وبلوزة بيضاء. وجهها طويل ونحيل، وعظامها الرقيقة بارزة تحت بشرتها. شعرها مربوط إلى الخلف، وخصلة واحدة تسقط على

الصدغ. لم تكن تلبس أية مجوهرات، وكانت هناك زهور، فرنجيباني ببتلات بيضاء، مثبتة فوق إحدى أذنيها. وفي يديها إكليل من الياسمين الأبيض.

قال الحارس: "جميلة جداً."

قالت جايا: "نعم. الجميع قالوا ذلك..."

كان اليوم التالي اليوم الأخير لجايا في رتناجيري. وقت الأصيل استأجرتْ ركشو بدراجة وطلبتْ من السائق الذهاب إلى شاطئ بهات. انطلقت الدراجة عبر البلدة، بجوار مباني المدرسة الثانوية والكلية المشيدة بالطوب الأحمر، وفوق الجسر الذي يعبر المصب، على شاطئ في الطرف الجنوبي للخليج. عن بعد، انتفخت الشمس لتملأ فم الخليج، وازداد حجمها وهي تغطس باتجاه الأفق. كان الرمل بلون النحاس، ينزلق في المياه بميل رقيق. ونخيل جوز الهند ينمو بكثافة على طول حافة الشاطئ، وجذوعه تتمايل بشدة نتيجة الرياح. وعلى طول الخط، حيث يتحول الرمل إلى طمي، كميةٌ متشابكة بكثافة من العشب والقواقع والأعشاب البحرية الجافة.

هناك، مختبئة تحت الشجيرات، وجدتْ جايا ما تتطلع إليه - صخرة صغيرة تخليداً لذكرى زوج عمة أمها، الجابي. بهتت الكتابة المحفورة بفعل الرياح والمياه والرمال. كان الضوء كافيًا لقراءة الشاهد. عليه: "إلى ذكرى بيني براساد دي إسك، جابي مقاطعة، ١٩٠٥ - ١٩٠٦." وقفتْ جايا تنظر إلى الشاطئ الذي تجرفه الرياح ينحدر قليلاً تحت الأمواج. تحول الرمل الأحمر إلى رمادي مع غروب الشمس. أخبرتْها أوما، منذ زمن طويل، أنها إذا سارتْ من الشاهد إلى المياه في خط مستقيم، فسوف تمر بالبقعة التي وجد فيها جسد الجابي، مع حطام قاربه المقلوب.

هوامش

(١) ثِنْجيان Thingyan: يحدث الاحتفال فى وسط أبريل تقريبًا، وتستمر الاحتفالات خمسة أيام، ويتم تحديد اليوم بالتقويم البورمى.

(٢) ثادينجوت thadingyut: الشهر السابع من التقويم البورمى، ويتم الاحتفال بمهرجان النور لمدة ثلاثة أيام (اليوم السابق على اكتمال القمر، ويوم اكتماله، واليوم التالى له)، حيث يتم الاحتفال بعودة بوذا من مقره السماوى.

(٣) الجمال النائم Sleeping Beauty: حكاية خرافية كلاسيكية نشرت أول مرة عام ١٦٩٧، تحولت إلى فيلم من أفلام ولت ديزنى عام ١٩٥٩؛ سندريلا Cinderella: من القصص الشعبية المعروفة فى العالم كله بأشكال مختلفة، وقد مثلت مرات كثيرة.

(٤) الدهوب dhoop: بخور هندى يصنع من الزبدة وبعض الأعشاب الطبيعية والعطور.

(٥) الجنرال نى وين General Ne Win (١٩١١ - ٢٠٠٢) : رئيس بورما وقائدها العسكرى. كان رئيس الوزراء من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٠، ومن ١٩٦٢ إلى ١٩٧٤، وكان على رأس الدولة من ١٩٦٢ إلى , ١٩٨١

(٦) شيفاجى: Shivaji.

(٧) إيرانى Irani: الإيرانيون Iranis مجموعة عرقية دينية تسكن شبه القارة الهندية، ينحدرون من سلالة هاجرت من إيران فى القرون الأخيرة، وهم يختلفون ثقافيًا ولغويًا عن البارسيين Parsis الذين هاجروا إلى شبه القارة الهندية منذ أكثر من ألف سنة.

(٨) بهات: Bhate.

(٤٢)

بدأتْ جايا، بعد العودة إلى كلكتا، تنظر في مجموعة هائلة من الوثائق والأوراق التي تركتها أوما تحت تصرفها. داعبتْ جايا أحيانًا فكرة كتابة سيرة عمة أمها؛ عرض ناشر مهم عليها أن توقع عقدًا ذات يوم. عرفت جايا أن هناك، في الأيام الأخيرة، قدراً كبيراً من الاهتمام بإحياء ذكرى أوما، كشخصية سياسية رائدة. ساد اتجاه لكتابة سيرة عاجلة– اشمأزّتْ من التفكير في ظهورها تحت اسم شخص آخر.

استغرق الأمر من جايا عدة أيام لتصنيف أوراق أوما، وقد أكلت الحشرات الكثير منها. والغريب أنها كلما قرأتْ أكثر، ازداد تفكيرها في رجكومار. كأن عادات الطفولة بقيت معها في تداعي الأفكار. عاش جدُّها، في كل السنوات التي عرفتْه خلالها، في الدور الأرضي، في غرفة انتظار صغيرة في شقة أوما. لم يُستدَل على علاقة زواج من العيش بهذه الطريقة: كان من المفهوم أن وضع رجكومار بين أهل المنزل يقع في مكان ما بين قريب فقير ومستخدَم. لكن جغرافية المنزل كما كانت، وكما كانت تعني بالنسبة لجايا، تجعل التفكير في أحدهما يعني التفكير في الآخر: كان النزول لرؤية جدها يعني أيضًا رؤية عمة أمها.

تدفقت الذكريات على جايا. تذكرت النبرة الخاصة لصوت رجكومار وهو يقول، عدة مرات في اليوم: "آه، بورما – الآن، كانت بورما أرض الذهب..." تذكّرتْ كان يحب تدخين الشيروت على النمط البورمي – أطول من البيدي[1] وأسمك منه لكنه ليس غامقًا أو كبيراً كالسيجار. لم يكن العثور على هذا النوع من الشيروت سهلاً في الهند،

وكانت هناك بدائل معينة اعتبرها رجكومار مقبولة. كان قرب لنكاسوكا محل بان يخزن هذه الشيروت. ذهبتْ جايا أحيانًا إلى المحل مع جدها. تذكرت كيف كان يضيق عينيه وهو يشعل الشيروت. ثم ينفث سحابة هائلة من الدخان الرمادى ويبدأ: "آه، بورما- الآن..."

كان مالك محل البان عصبيًا إلى أقصى حد. تذكَّرتْ مناسبة سمعتْه يعنِّف فيها رجكومار: "نعم، نعم، لا حاجة إلى أن تخبرنا مرة أخرى. بورماك ذهبية جدًا حتى أنك تستطيع التقاط كتل من الذهب من براز الناس..."

تذكرت كيف كانت تذهب مع رجكومار لزيارة المعبد البورمى فى شمال كلكتا. تذكرت الناس الذين كانوا يجتمعون هناك- كثير منهم من الهنود، أناس تركوا بورما فى ١٩٤٢ مثل رجكومار تمامًا. كان هناك جوجيراتيون وبنغال وتاميل وسيخ وأوراسيون(٢). كانوا جميعًا يتحدثون البورمية فى المعبد. تحسَّنتْ أحوال بعضهم بعد الرحيل. أسسوا مشاريع أخرى، وبنوا بيوتًا لأنفسهم؛ وكرَّس آخرون أنفسهم لأبنائهم وأحفادهم - بالطريقة التى شيد بها رجكومار حياته الجديدة حول جايا. لم يكن كل الذين يذهبون إلى المعبد بوذيين بالميلاد أو بالاقتناع. يأتون لأنه المكان الوحيد الذى كانوا على يقين من أنهم سيلتقون فيه بأناس مثلهم؛ أناس يمكن أن يقولوا، "بورما أرض الذهب"، وهم يعرفون أن هناك مستمعين قادرين على تمرير هذه الكلمات من مناخل المنفى، ممحصين فى ظلالهم الخاصة جدًا. تذكرت تعطشهم لأخبار بورما - توقهم لسماع كلمة عما تركوه خلفهم. تذكرت حركة الترحيب بوافدين جدد؛ كيف كانوا يحاصرونهم بالأسئلة: "وماذا عن...؟" "... وهل سمعتَ عن كذا وكذا؟"

كان رجكومار دائمًا أكثر المتسائلين صخبًا، مستغلاً مزية صوته المدوِّى ليطرح الأسئلة بصوت عال - أسئلة عن شخص يحمل اسمًا بورميًا؛ شخصًا لم تعرف أنه عمها حتى أخبرتها بيلا وهى فى العاشرة - عمها دينو الذى لم تقابله أبدًا.

أثارت الذكريات سلسلة أخرى من التفكير. وضعتْ جايا أوراق أوما جانبًا وفتحتْ ملفًا خاصًا بها - من قصاصات قديمة جمعتها على مدى السنوات التسع الأخيرة. بدأت الملف فى ١٩٨٨، بقراءة عن مولد حركة ديموقراطية فى رنجون. وأشعلتْ هذه الأحداث من جديد اهتمامها الخامل بأرض مولدها. تتبعتْ نشأة قائدة الحركة، أُنْج سان سو كى[٣]، وقصَّتْ كثيرًا من مقالات المجلات والجرائد. فى أغسطس ١٩٨٨، حين قام المجلس العسكرى بانقلاب مضاد، وسجنت أُنْج سان سو كى وأُطلِقَ العنان لحملة القمع الهمجية، قضتْ جايا ليالى تسمع بى بى سى. اشترت كتيبات تصف الدماء المراقة التى تلت ذلك: إطلاق النار على نطاق واسع، السجن، تشتت النشطين.

لفت انتباه جايا، وهى تنظر إلى المحتويات المصفرة لملفها، صورة فى مجلة: صورة أُنْج سان سو كى. وأدهشها شيء مختلف فى الصورة؛ بها سمة تبعدها عن معظم صور المجلات. التقط المصور الوجه النحيل لأُنْج سان سو كى فى لحظة تأمل هادئ؛ كان فى تأطير الصورة شيء ذكَّرها بالصور ذات الإطارات الفضية فى تسريحة بيلا.

نظرتْ جايا إلى خط النسخة الرائعة على الحافة العليا للصورة. كانت الصورة منسوبة لشخص اسمه يو تون بى[٤]. نطقت الاسم بصوت مرتفع وتحرك شيءٌ عميقٌ فى الرواسب الراكدة لذاكرتها. صعدتْ وذهبتْ إلى بيلا: "هل تتذكرين الاسم البورمى لدينو كاكا[٥]؟"

"دعينى أتذكر..." توقفتْ بيلا، ممررة أصابعها فى شعرها الأبيض القصير المربوط. "كان تون - شيئًا من هذا القبيل. بالطبع، فى بورما تتغير البادئة كلما كبر المرء. المرأة تتحول من ما إلى دو والرجل يكون مُنْج ثم كو ثم يو[٦]. ومن ثم إذا كان يعيش اليوم، فسيكون اسمه يو تون... شيئًا من هذا القبيل على أية حال."

أخرجت الصورة وأشارتْ إلى السطر الذى يحمل الاسم: "هل يمكن أن يكون هذا؟"

غضنت بيلا أنفها وهى تنظر بنظارتها ذات الإطار الذهبى. همهمت بصوت منخفض: "يو تون بى؟ دعينى أتذكر... كو تون بى... يو تون بى... لماذا نعم! يبدو صحيحاً..." قلبت الورقة: "لكن متى التقطت هذه الصورة؟"

"سنة ١٩٨٨ ."

مطَّتْ بيلا شفتيها: "أعرف ما تفكرين فيه، جايا. لكن لا تذهبى بعيداً. يمكن أن يكون شخصاً آخر. آلاف الناس فى بورما يحملون الاسم نفسه. وعلى أية حال، كان دينو فى الرابعة والسبعين فى ١٩٨٨, أى أنه فى الثانية والثمانين إذا كان لا يزال على قيد الحياة. ولم يكن قوياً أبداً، إضافة إلى ساقه. شىء غير محتمل تماماً..."

قالتْ جايا وهى تستعيد الصورة: "ربما تكونين على حق. لكن علىَّ أن أكتشف الأمر. علىَّ أن أعرف بشكل مؤكد."

***

زوَّدتْ بيلا جايا بالخطوة التالية. قدَّمتْ لها اسماً: إلونجو ألاجبان(٧). "حاولى العثور عليه- إذا كان هناك مَنْ يعرف شيئاً عن دينو فسيكون هو."

تعوَّدتْ جايا على مدى السنتين التاليتين، لتبقى على اتصال مع ابنها، على البريد الإلكترونى والإنترنت. كانت تتعامل مع مركز تجارى للكمبيوتر وفى المرة التالية اشترت لنفسها نصف ساعة على الويب. فى البداية بحثتْ تحت كلمات "يو تون بى." لم يظهر شىء. ثم أراحتْ أصابعها على لوحة المفاتيح وأخذتْ نفساً عميقاً. ثم كتبتْ "إلونجو ألاجبان" وداستْ "إنتر."

ارتجف محرك البحث مثل كلب صيد استنشق قافلة حارة. على مدى دقيقة طويلة مثيرة للأعصاب، وَمَضَتْ أيقونة على الشاشة. فجأة ارتجفت الشاشة مرة أخرى وظهرت رسالة: وصلت المدونات تحت "إلونجو ألاجبان" إلى خمسمائة وستين بندًا. قامت جايا من مقعدها وذهبتْ إلى منضدة المدير: "أعتقد أنى قد أحتاج ساعة أخرى. وربما اثنتين..."

عادتْ إلى مقعدها وبدأت بالبند رقم واحد: بدأتْ تنسخ فقرات فى ملف منفصل. اكتشفتْ أن إلونجو شخصية بارزة فى السياسة الماليزية؛ كان وزيرًا فى الحكومة وقد كُرِّم بمنحه لقب "داتو[8]." بدأ مساره بعد الحرب، حين بدأ عمال المزارع تأسيس نقابات مهنية. نشط عدد كبير منهم فى مجال السياسة وكان إلونجو أحدهم؛ فى بضع سنوات صار من أهم أعضاء النقابات المهنية فى البلاد- شيئًا أسطوريًا فى المزارع. أسس تعاونية ووفر أموالاً كافية لشراء مزرعة مرننجسايد. كان ذلك حين انخفضت أسعار المطاط وفقد آلاف العمال وظائفهم. كان مسئولاً عن تحويل مرننجسايد إلى أحد المشاريع الرائدة فى الحركة التعاونية. وتحولت نقابات عمال المزارع إلى قصة نجاح غير عادية: كانت هناك نظم للرعاية الصحية والمعاشات، وبرامج تعليمية ومشاريع لإعادة تدريب العمال.

كان أحد البنود فى قائمة الشاشة عن "تعاونية مرننجسايد." قرَّرتْ جايا انتهاز الفرصة. دخلتْ على الموقع وتركتْ رسالة لإلونجو. قدَّمتْ نفسها وقالتْ إنها تجمع مادة كتاب – عن عمة أبيها أوما وجدها رجكومار. وعبَّرتْ عن رغبتها الشديدة فى الالتقاء به؛ وقالتْ إنها ستكون ممتنة إذا تعطف بالرد.

فى اليوم التالى تلَّقتْ مكالمة تليفونية من مدير مركز الكمبيوتر. كان مبتهجًا جدًا: "أخبار طيبة، ديدى[9]! رسالة لك! من ماليزيا! نحن سعداء جميعًا! أرسل إليك شخص ما تذكرة طائرة..."

***

كان التشابه بين إلونجو ورجكومار مذهلاً حتى أن جايا حين وضعتْ عينيها أول مرة عليه فى محطة قطار سنجى بتانى، وقف شعر رأسها. مثل رجكومار، كان إلونجو ضخمًا: طويلاً، عريض المنكبين، شديد السواد، وكان له أيضًا بطن حقيقى، ليس من النوع الناتج عن الكسل لكنه على الأرجح نتيجة مزيد من الطاقة - كانت معدته بمثابة خزان وقود إضافى مربوط خارج شاحنة. كان شعره أبيض ومجعدًا، وكثًا على كل أجزاء جسمه- ذراعيه وصدره وأصابعه: يتناقض بياضه بشدة مع لون بشرته. وكان فى وجهه، مثل وجه رجكومار، تجاعيد عميقة، مع لغد ثقيل وفكين ضخمين؛ كان هائلاً وشائكًا، بدا أنه تكوَّن أساسًا من درع، كأن الطبيعة زودته به ليبقى حيًا فى البحار العميقة.

صوته فقط وهو يتكلم جاء مدهشًا حقًا. لم يكن ينطق شيئًا مثل رجكومار بالإنجليزية أو الهندوستانية. إنجليزيته ماليزية واضحة - رقيقة، متبَّلة باستفهامات طليقة - لا[10]؟ - طريقة فى الكلام شديدة الجاذبية والتجانس.

خرجا من المحطة وقادها إلونجو إلى تويوتا لاند كروزر[11]، بأربع عجلات، تشبه الصندوق. كانتْ أبواب السيارة تحمل شعار التعاونية التى تمتلك مرننجسايد. ركبا السيارة وأخرج إلونجو علبة مسطحة من الصفيح وأشعل شيروتًا. كانت إضافة أخرى للتشابه الغريب مع رجكومار.

قال: "حدثينى إذن عن كتابك. عم يتحدث؟"

قالت: "لستُ متأكدة بعد. ربما تكون لدى فكرة أفضل بعد اللقاء بك."

فى الطريق إلى مرننجسايد، حدثَّها إلونجو عن مساره وعن إقامة تعاونية مرننجسايد. عمل تيموثى مارتينز[12]، أخو أليسون، مترجمًا فى الجيش الأمريكى أثناء الحرب. كان فى مسرح عمليات المحيط الهادى، وفى نهاية الحرب، جاء إلى سنجى

بتانى فى زيارة قصيرة. ذهب إلونجو لرؤيته. سأله: "ألن تذهب لزيارة مرننجسايد؟" فردَّ تيموثى بنفى قاطع. لم تكن لديه رغبة فى العودة؛ كانت العزبة تذكارًا حيًّا لكل ما يتمنى محوه من الذاكرة- موت أبويه وأخته وجده؛ لم يكن يريد أكثر من التصرف فيها. إضافة إلى أنه لم تكن لديه رغبة فى إدارة مزرعة. كان واضحًا أن مستقبل المطاط، كسلعة، لن يكون ساطعًا. حثت الحربُ على البحث؛ وكانت البدائل فى الطريق. قال تيموثى لإلونجو: "أعرضْ مرننجسايد للبيع. عليك أن تخبر الجميع."

ظلت العزبة معروضة للبيع سنتين تقريبًا. لم يكن هناك مشترون. لم يكن تيموثى رجل الأعمال الوحيد الذى رأى أن الاحتياج إلى المطاط انتهى. كان آلاف من عمال المزارع بلا عمل فى كل أرجاء الملايو؛ اشترى المستثمرون العِزَب وباعوا الأرض مجزأة. وفى النهاية قرر إلونجو أن يمسك الأمور فى يديه: أن يفعل ذلك أو يرى الجميع يُطرَدون. لفَّ بسلطانية، تسوَّل- بمعنى الكلمة- وفى النهاية وُجِدت الفلوس.

قال إلونجو، مشيرًا أمامه: "هذه هى، مرننجسايد."

سارا بالسيارة تحت علامة مقوسة. كانت أسطورة عزبة مرننجسايد مزخرفة عليها بحروف قوطية جميلة لكنها شاحبة. تحتها، أكثر سطوعًا وبحروف أبسط، ظهرت الكلمات: ملك تعاونية عمال المزارع الماليزيين. كان جننج جيراى أمامهما مباشرة، وقمته مغطاة بستارة كثيفة من السحب.

كان الطريق يتجه إلى أعلى الهضبة، ملتويًا فى المسارات المتعاقبة للمطاط ومحصول آخر - نخيل قصير سميك. قال لها إلونجو إنه نخيل الزيت، وكان استثمارًا أكثر ربحًا من المطاط: زادتْ مساحة محصول على حساب الآخر.

انبهرت جايا بنخيل الزيت: عناقيد من ثمار برتقالية مصفرة معلقة من جذوع تشبه الأعقاب، وكل منها فى حجم الحَمَل. كان الهواء ساكنًا جدًا وبدا قوامه لزجًا. بين النخيل أعشاش للطيور فوق أعمدة: قال إلونجو هناك أعشاش للبوم: تجتذب الثمار

الغنية بالزيت كميات كبيرة من القوارض؛ وتساعد الطيور على إبقاء أعدادها تحت السيطرة.

بدا منزل مرننجسايد أمامهما. دُهن حديثًا وبدا متألقًا ومبهجًا: كان سقفه ونوافذه حُمْرًا، بينما كان بقية المنزل بالأخضر الجيرى الباهت. ركنتْ شاحنات وسيارات أمامه - تحت الرواق وبطول المدخل. نشط الناس فى كل مكان.

قالت جايا: "يبدو أن بالمنزل شغلاً كثيراً."

قال إلونجو: "نعم. أودُّ أن أشعر بأنه يستغلُّ استغلالاً جيداً. لا نشغل أنا وأسرتى إلا جزءاً واحداً منه. ويستغلُّ الباقى كمكتب للتعاونية. لا أريد أن يكون المنزل تذكاراً. الأفضل أن يكون بهذا الشكل: يؤدى وظيفة مفيدة."

سارا بالسيارة حول المنزل إلى المدخل الخلفى. كانت مسز ألاجبان، زوجة إلونجو، فى الانتظار، طويلة رمادية الشعر، ترتدى ساريًا حريريًا أخضر. كان الاثنان يعيشان وحديهما فى الجزء المخصص لهما من المنزل: كبر الأبناء، جميعًا "استقروا تمامًا فى وضع جيد." إحدى بنتيهما موظفة؛ الأخرى طبيبة؛ والابن رجل أعمال، يقيم فى سنغافورة.

"نحن فقط الآن."

كل سنة، فى الشتاء، يأخذان أجازة على سفينة سياحية. وكان البيت مليئًا بأشياء تذكارية من زياراتهما لجنوب أفريقيا وموريشيوس وفيجى واستراليا؛ وكانت هناك صورة لهما وهما يرقصان فى قاعة رقص فى سفينة. كانت ترتدى ساريًا حريريًا؛ وكان يرتدى بدلة سفارى رمادية.

أعدَّتْ مسز ألاجبان إدلى ودوسا[١٣] توقُّعًا لوصول جايا. بعد الغداء ذهبتْ إلى غرفة الضيوف. دخلتْ من الباب فوجدتْ نفسها تطلُّ على جبل من نافذة مفتوحة. انقشعت السحب عن القمة. على جدار بجانب النافذة صورة ضخمة للمشهد نفسه.

اندهشتْ جايا تماماً، وهى تنظر من الصورة إلى الجبل والعكس. كان إلونجو يقف بجوارها. استدارتْ إليه، وقالتْ: "داتو؟ من التقط هذه الصورة؟"

ابتسم: "تعتقدين من؟"

"من؟"

"عمك- دينو."

"وهل لديك صور أخرى له؟"

"نعم- كثير. ترك مجموعة كبيرة معى هنا. لهذا أردْتُ أن تأتى. أعتقد أنه كان يريد أن تأخذيها. كبرْتُ الآن، ولا أريد أن تُنسَى. كتبْتُ إليه أسأله عما أفعل، ولم أتلقَّ الرد أبداً..."

"أنت على اتصال به إذن؟"

"لم أقلْ ذلك بالضبط - لكن تلَّقيْتُ أخباراً عنه ذات يوم."

"متى؟"

"أوه، مضى على ذلك وقت الآن..."

قال إلونجو: قرَّرت التعاونية، قبل خمس سنوات، أن تبدأ برنامجًا عن العمال المهاجرين. بدأت الثروة المتزايدة فى ماليزيا تجتذب كثيراً من المهاجرين من كل أرجاء المنطقة. وكان بعض هؤلاء العمال من بورما (أو ميانمار، كما تسمى الآن). لم يكن التسلل سراً من ميانمار إلى ماليزيا صعباً جداً: لا يفصل بين حدود البلدين إلا بضع مئات من الأميال على الشريط الساحلى. وكان من بين المهاجرين من ميانمار بعض النشطين فى الحركة الديموقراطية. كانوا يعملون تحت الأرض بعد الإجراءات القمعية

فى ١٩٨٨ وقرروا بعد ذلك الفرار عبر الحدود. بالصدفة تماماً، قابل إلونجو نشطاً من أصل هندى – طالباً شاباً يعرف دينو جيداً. قال إن دينو كان يعيش وحيداً فى رنجون – ينجون، كما تسمى الآن – حين سمع عنه آخر مرة.

عرف إلونجو أن دينو كان متزوجاً، لأكثر من ثلاثين عاماً، من كاتبة بورمية شهيرة. وكانت زوجته، دو ثين ثين آى[١٤]، على ارتباط وثيق بالحركة الديموقراطية. بعد الإجراءات القمعية، اعتقلتْ هى ودينو. وأُفرِج عنهما بعد ثلاث سنوات. لكن دو ثين ثين آى أصيبتْ بالدرن فى السجن وماتتْ بعد سنة من إطلاق سراحها. كان ذلك منذ أربع سنوات، فى ١٩٩٢ .

قال إلونجو: "سألتُ إن كانتْ هناك طريقة للاتصال به. فقال الولد لن يكون ذلك سهلاً – حرم المجلس دينو من التليفون والفاكس. وقال حتى الخطابات ليست سهلة، لكنها الطريقة الوحيدة. وهكذا كتبْتُ، لكنى لم أتلقَّ الردَّ أبداً. أفترض أن شخصاً حجز الخطاب..."

قالتْ جايا: "لكن لديك عنوانه، إذن؟"

"نعم." مدَّ إلونجو يده فى جيبه وأخرج ورقة: "لديه أستوديو تصوير صغير. يصور بورتريهات، وصور أفراح، وصوراً جماعية؛ شيئاً من هذا القبيل. العنوان عنوان الأستوديو: يسكن فوقه مباشرة."

أعطاها الورقة فأخذتها؛ كانت ملطخة ومجعدة. نظرتْ فيها بتمعن، كاشفة غموض الحروف. كانت الكلمات الأولى التى وقعتْ عليها عينيها **"القصر الزجاجى: أستوديو تصوير."**

هوامش

(١) البيدى bidi (هندى): نوع من السجائر الرفيعة معروف فى جنوب أسيا.

(٢) جوجيراتيون Gujaratis: سكان جوجيرات، وهى منطقة غرب الهند على بحر العرب. أوراسيون Eurasians: من أصول أوروبية آسيوية مختلطة.

(٣) أُنْج سان سو كى Aung San Suu Kyi: ولدت سنة ١٩٤٥ فى رنجون، قائدة الجمعية الوطنية من أجل الديموقراطية فى بورما، حصلت على جائزة نوبل للسلام ١٩٩١، وهن رهن الحجز الإجبارى فى منزلها منذ حوالى ١٨ سنة.

(٤) يو تون بى: U Tun Pe.

(٥) دينو كاكا Dinu-kaka: كاكا العم دينو (هندى).

(٦) ما: Ma؛ دو: Daw؛ مُنْج: Maung؛ كو: Ko؛ يو: U.

(٧) إلونجو ألاجبان: Ilongo Alagappan.

(٨) داتو: Dato.

(٩) ديدى didi: الأخت (هندى).

(١٠) لا la: هتاف للتوكيد أو التعجب.

(١١) تويوتا لاند كروزر: Toyota Land Cruiser.

(١٢) تيموثى مارتينز: Timothy Martins.

(١٣) إدلى idlis: كعك بالصعتر، شائع فى جنوب الهند. دوسا dosas: طعام من الأرز والعدس، شائع فى جنوب الهند.

(١٤) دو ثين ثين آى: Daw Thin Thin Aye.

(٤٣)

بعد بضعة أشهر، كانت جايا تسير فى شارع هادئ، غير مزدحم نسبياً فى أحد الأحياء القديمة فى ينجون. كانت حجارة الأرصفة فى ممرات المشاة ملتوية ومكسرة والأعشاب تنمو بين الشقوق. وكانت جدران المنازل على طول الطريق من الجص، معظمها ملطخ وباهت. لمحتْ أفنية بها أشجار تنمو على الأبواب. كان منتصف ديسمبر، يومًا بارداً وصافياً. كانت حركة المرور قليلة جداً؛ عاد الأطفال من المدارس، وكانوا يلعبون كرة القدم فى الطريق. بدتْ نوافذ عليها قضبان حديدية فى الناحية الأخرى من الشارع؛ خطر فى بال جايا أنها الوحيدة على مدى البصر التى ترتدى شيئًا غير اللُّنْجِي؛ كانت النسوة اللائى يرتدين السارى قليلاًت، وبدا أن رجال البوليس والجنود والرجال الذين يرتدون أزياء يرتدون البنطلون على وجه الحصر تقريباً. انتابها إحساس بأن عيونًا كثيرة ترصدها.

كانت تأشيرة جايا لا تسمح لها بالبقاء فى مينامار إلا أسبوعًا واحداً. بدا وقتاً قصيراً جداً للعثور على شخص. ماذا إذا كان دينو غائبًا يزور الأصدقاء، مسافراً؟ جاءتْها كوابيس حيث تنتظر فى فندق حقير فى مكان لا يعرف فيه أحداً.

قبل ذلك، فى مطار كلكتا، تبادلت النظرات مع المسافرين معها. حاولوا جميعًا استكشاف بعضهم: لماذا يذهب، أو تذهب، إلى ينجون؟ أية أعمال يمكن أن تأخذ شخصاً إلى مينامار؟ كان المسافرون جميعاً من الهنود، أناساً مثلها؛ تستطيع القول إنهم ذاهبون للغرض الذى تذهب من أجله: للبحث عن أقارب واستكشاف روابط عائلية قديمة.

عانتْ جايا لتحصل على مقعد بجوار نافذة فى الطيارة. تطلعتْ لمقارنة خبراتها فى الرحلة إلى ينجون بكل الروايات التى سمعتْها على مدار السنوات. لكن بمجرد الجلوس، تملَّكها إحساس بالفزع. إذا وجدتْ دينو، من يؤكد لها رغبته فى الكلام معها؟ كلما فكرت أكثر فى ذلك، بدا أن الأمور التى لا يمكن الحكم عليها تتعاظم أكثر.

وصلت إلى شارع يحمل الاسم الذى فى العنوان. كانت الأرقام على المنازل محيِّرة جداً: أرقام صحيحة وكسور وتحديدات أبجدية معقدة. ثبت أن المداخل الصغيرة التى تؤدى إلى الأفنية أزقة. توقفت فى صيدلية تسأل عن الاتجاه. نظر الرجل الذى وراء الطاولة إلى الورقة وأشار للمنزل المجاور. خرجت لتجد أنها تنظر إلى بابين فى مستوى الشارع يؤديان إلى غرفة حراسة لمنزل كبير من طراز قديم. ثم لاحظتْ يافطة صغيرة مرسومة باليد على المدخل. معظم الحروف بالبورمية، وأسفل اليافطة، كما لو بعد تدبر، كلمات قليلة بالإنجليزية: **القصر الزجاجى: أستوديو تصوير.**

كانت، بوضوح، فى المكان الصحيح، كان الباب مقفولاً والمكان مغلقًا. وهى على وشك الابتعاد محبطة رأت الرجل فى الصيدلية يشير لها فى اتجاه زقاق مجاور تماماً للقصر الزجاجى. نظرتْ فى الركن ورأتْ بابًا يبدو مغلقًا من الداخل. خلفه فناء وعتبة منزل قديم. نظرتْ فوق كتفها، رأت الصيدلى يشير إليها بقوة؛ كان يحثُّها على الدخول. طرقتْ على الباب، لم يكنْ هناك رد، طرقتْ بقوة، ضربت الخشب بقبضة يدها. انفتحت الأبواب فجأة. دخلتْ ووجدتْ نفسها فى فناء بسور. رأت امرأتين تقْرفصان فى ركن، تتابعان ناراً للطبخ. ذهبتْ إليهما وسألت: "يو تون بى؟" أومأتا مبتسمتين، وأشارتا إلى سلم لولبى يؤدى للدور الثانى.

سمعتْ جايا، وهى تصعد السلالم، صوتًا يتحدث البورمية، صوتَ رجلٍ عجوز، مرتجفًا وواهيًا: بدا أن المتكلم يقدم خطابًا- محاضرةً أو حديثًا. يتكلم فى اندفاعات متقطعة وتتقطع الجمل بالسعال والتوقفات. وصلتْ إلى بسطة تؤدى إلى شقة: على

الأرض عشرات الشباشب وصنادل المطاط ملقاة. كانتْ أبواب الشقة مفتوحة، والمدخل بزاوية فلم تستطعْ رؤية ما فى داخلها. إلا أنه كان واضحًا أن هناك عددًا كبيرًا من المجتمعين بداخلها وخطر ببالها أنها ربما وصلتْ صدفة إلى اجتماع سياسى، وربما كان اجتماعًا سريًا؛ بدأتْ تشك فى أن وجودها قد يكون اقتحامًا غير مرحب به. ثم اندهشتْ: سمعت المتحدث ينطق كلمات ليست بورمية؛ أسماء مألوفة لها فى تاريخ التصوير – إدوارد ويستون ويوجين أتجيه وبراساى[1]. وهنا تغلب الفضول على الحذر. خلعت الشبشب واجتازت الباب.

كانتْ غرفة واسعة بسقف عال: متخمة تمامًا بالناس. يجلس بعضهم على مقاعد، ويجلس معظمهم على حصير على الأرض. كان الحشد أكبر من أن تتسع له الغرفة بشكل مريح، وعلى على الرغم من من وجود عدد من مراوح المكاتب، كان الهواء ساخنًا ومكتومًا. كان فى الطرف البعيد من الغرفة نافذتان طويلتان بيضاوان. وكانت الجدران مشبعة بالرطوبة، وملطخة بالأزرق وأجزاء من السقف مسودة بالسخام.

كان المتحدث يجلس فى مقعد بذراعين من الرتان بكسوة خضراء. وُضِع المقعد بحيث يواجه معظم المستمعين: وجدتْ نفسها تنظر إليه مباشرة عبر الغرفة. شعره محلوقٌ بعناية ومفروقٌ، رماديٌّ عند الصدغين فقط. يرتدى لُنْجِيًا أرجوانيًا غامقًا وتى شيرت أزرقَ أنيقًا مع شعار منقوش على الصدر. كان نحيفًا وجبهته ووجنتاه مليئة بتجاعيد وشقوق بدا أنها تتحرك بانسيابية الموج على الماء. كان وجهًا رائعًا جدًا، غمرته آثار العمر: خلقتْ حركية خطوطه انطباعًا بمجالٍ إدراك وشعور يتجاوز المعتاد بكثير.

اندهشتْ جايا للمرة الأولى لأنها لم ترَ أبدًا صورة لعمها دينو: كان خلف الكاميرا دائمًا، ولم يكن أمامها أبدًا. هل يمكن أن يكون هو؟ لم ترَ جايا أى شبه برجكومار: بدا لها بورميًا تمامًا – لكن ذلك صحيح بالنسبة لكثير من الهنود أو أنصاف الهنود. لم تكن متأكدة على أية حال.

لاحظتْ جـايا أن المتـحـدث يمـسك بشيء في يديه – ملصـقًـا كـبيـراً. بدا أنه يسـتخدمـه لتوضـيح مـحـاضـرته. رأتْ صـورة لقوقـعة، صُوِّرتْ عن قرب. التفَّ نيلها المستدير بشهوانية في جذع بدا أنه يخرج من سطح الصورة تقريبًا. عرفتْ أنها نسخة من الصورة الشهيرة، نوتيلوس لويستون.

وقفت جايا على الباب دقيقتين دون أن يلاحظها أحدٌ. فجأة التفتتْ كل العيون في الغرفة تجاهها. خيَّم الصمتُ، وبدا أن المكان امتلأ، على الفور تقريبًا، بغيمة من الخوف. وضع المتحدث الملصق جانبًا ووقف على قدميه ببطء. وحده بدا هادئًا وغير خائف. مدَّ يده إلى عكاز وجاء يعرج، يجرُّ ساقه اليمنى خلفه. نظر إلى وجهها وقال شيئًا بالبورمية. هزَّتْ جايا رأسها وحاولتْ أن تبتسم. عرف أنها غريبة وسمعتْه يتنهد تقريبًا شاعرًا بارتياح.

قال بهدوء بالإنجليزية: "نعم؟ أية مساعدة؟"

غيَّرتْ جايا رأيها وهي على وشك أن تسأل عن يو تون بي. قالت: "أبحث عن مستر دينانث رها..."

ومضتْ تجاعيدُ وجهِه كأنَّ رياحًا عاصفةً اجتاحتْ بحيرةً فجأة. قال: "كيف عرفْتِ الاسم. سنوات طويلة، طويلة منذ سمعْتُه يُستخدَم آخر مرة."

قالتْ: "أنا ابنة أخيك. جايا – ابنة أخيك..."

"جايا!"

أدركتْ جايا أنهما انتقلا بشكل ما إلى لغة أخرى وأنه يتحدث إليها بالبنغالية. ترك عكازه يسقط، وضع يده على كتفها ونظر إليها بدقة، كأنه يبحث عن تأكيد لهويتها. "تعالي اجلسي بجواري"، انخفض صوته إلى مستوى الهمس: "لم يتبقَّ إلا بضع دقائق."

ساعدتْه جايا فى العودة إلى مقعده وجلستْ مربعة على الأرض وهو يواصل محاضرته. واجهت جمهور دينو ورأته خليطًا متنوعًا من الناس، مسنين وشبابًا، فتيات وأولادًا، رجالاً ونساء. كانوا جميعًا بورميين، لكن بدا البعض من أصول هندية، والبعض من أصول صينية. بعضهم أنيق الملبس، ويرتدى آخرون أسمالاً. كان هناك طالب يضع كابًا أسود مكتوب عليه جورجيو أرمانى(٢)، ويجلس فى ركن ثلاثة نساك فى أرواب زعفرانية. يستمعون جميعًا إلى دينو بانتباه شديد؛ ويسجل بعضهم ملاحظات.

رُصَّتْ صفوف من خزانات الكتب، بواجهات زجاجية، على الأرضية. وعلى الجدران عشرات، وربما مئات، من نسخ صور تبدو مقطوعة من كتب ومجلات. بعضها فى أطر خشبية؛ وبعضها ملصوق على ورق مقوى. تعرَّفتْ على عدد منها؛ كلها نسخ لصور شهيرة: صورة قوقعة البحر الشهيرة لويستون؛ نسخة من نسوة محجبات يقفن مجتمعات على قمة هضبة كشمير، لكرتير بريسون؛ وصورة رجهوبير سنجه(٣) لمنزل قديم فى كلكتا.

فى أحد أركان الغرفة طاولة مزخرفة بشكل جيد. فوقها راية مرسومة باليد؛ مكتوب عليها: "عيد ميلاد سعيد." وعلى الطاولة أكواب من الورق ووجبات خفيفة وهدايا ملفوفة فى ورق...

تمنَّتْ أن تعرف ما يحدث.

***

انتهى حديث دينو بانفجار مدوٍّ من الهتاف والضحك. ابتسم والتفتَ إليها معتذرًا عن تركها تنتظر: "جئتِ فى منتصف جلستى الأسبوعية... أسميه يوم **القصر الزجاجى**."

قالتْ: "لم يكن انتظاراً طويلاً، عم كنت تتحدث؟"

"الصور... الصور الفوتوغرافية... كل ما يخطر على البال. بمجرد أن أبدأ- يأتى دور الآخرين. يستمعون." ابتسم، متلفتًا حول الغرفة: كانت مليئة بمحادثات كثيرة مختلفة. فى الخلف، حفنة من أناس ينفخون بالونات.

سألتْ: "فصل دراسى؟ مجموعة محاضرات؟"

ضحك: "لا. يأتون فقط... كل أسبوع... يأتى البعض لأول مرة، وأتى البعض إلى هنا من قبل. بعضهم طلاب، بعضهم فنانون، لدى البعض طموح بأن يصبحوا مصورين... بالطبع لا يستطيع معظمهم شراء كاميرا - تعرفين كم نحن فقراء فى ميانمارنا" - ضحك استهجانًا وهو ينطق الكلمة - "وحتى لو استطاعوا، فلن يستطيعوا شراء فيلم أو دفع تكاليف طباعته أو تطوير... لكن لدى البعض فلوسًا - ربما كان آباؤهم مهربين أو مقاولين أو ضباطًا كباراً... لا أسأل... الأفضل ألا أعرف. يلتقطون صوراً ويأتون بها إلى هنا... نمرِّرها بيننا ونتناقش حولها... أو أفرجهم على نسخ من صور قديمة ونتحدث عن أسباب جمالها أو عدم جمالها. القصر الزجاجى المكان الوحيد فى ينجون الذى يمكن أن ترى فيه شيئًا من هذا القبيل... أعمال من الفن المعاصر..." حمل عكازه وأشار إلى خزانات الكتب: "كتب، مجلات... صعب جداً، مستحيل تقريبًا أن تعثرى عليها هنا بسبب الرقابة. هذا من الأماكن القليلة التى توجد فيها. الناس يعرفون، ولذا يأتون..."

سألتْ: "كيف حصلتَ على هذه الكتب؟"

ضحك: "كان الأمر صعبًا... كوَّنْتُ أصدقاء من جامعى النفايات وفارزى الزبالة. أخبرتُهم بما أريد وحافظوا عليها من أجلى. يميل الغرباء الذين يقيمون فى ينجون -

الدبلوماسيون وعمال الإغاثة إلخ- بشدة إلى القراءة... ليس هناك شيء آخر يمكن أن يفعلوه، كما ترين... إنهم مراقَبون طوال الوقت... يحضرون كتبًا ومجلات معهم ومن وقت لآخر يستغنون عنها... لحسن الحظ لا تواتي العسكريين فكرة السيطرة على نفايتهم... تجد تلك الأشياء طريقها إلينا. كل خزانات الكتب هذه- جمع محتوياتها واحداً واحداً جامعو القمامة. أفكر أحيانًا في دهشة الملاك الأصليين إذا عرفوا... استغرق الأمر وقتًا طويلاً... ثم انتشر الكلام وبدأ الناس يأتون... أتوا، نظروا ولم يفهموا غالبًا ما يرون، يسألونني وأعطيهم رأيي. في البداية كان العدد قليلاً، ثم زاد... وزاد. يأتون الآن أسبوعيًا... حتى حين لا أكون موجوداً يأتون... يتحدث شخص آخر... ينظرون إلى الصور... الذين يستطيعون الدفع يساهمون معًا- لشراء الشاي والحلوى والوجبات الخفيفة. والذين لا يستطيعون لا يساهمون... لم يُستبعَد أحدٌ أبداً. اليوم عيد ميلاد أحدهم..." أشار عبر الغرفة إلى شاب. "أقام أصدقاؤه حفلة هنا. كثيراً ما يحدث ذلك... هنا يشعرون بالحرية في الاستمتاع... أشجعهم على قول كل ما يحلو لهم... على الكلام بحرية، حتى عن الأشياء البسيطة - بالنسبة لهم مغامرة، اكتشاف..."

"ماذا تقصد؟"

قال: "عليك أن تفهمي أنهم تدربوا طوال حياتهم على أن يطيعوا... آباءهم، مدرسيهم، العسكريين... هذا ما يتعلمونه من تعليمهم: عادة الطاعة..."

ضحك، ورمشتْ عيناها: "حين يأتون هنا... لا يجدون أحداً يوبخهم على ما يقولون... يمكن أن ينتقدوا حتى آباءهم إذا أرادوا... هذه فكرة صادمة جداً لكثير منهم... لا يعود بعضهم أبداً... لكن الكثيرين يعودون، مرة ومرة..."

"هل يتكلمون في السياسة أيضاً؟"

"نعم. طوال الوقت. من المستحيل ألا يتكلموا، في ميانمار..."

"ألا يفعل العسكريون شيئًا؟ ألا يحاولون إيقافك؟ يرسلون جواسيس؟"

"نعم، بالطبع، يرسلون جواسيس... من المحتمل وجود بعضهم الآن- في ميانمار هناك جواسيس دائمًا، في كل مكان. لكن لم يتحدَّثْ أحدٌ هنا أبدًا عن مسائل تنظيمية؛ نتكلم فقط عن أفكار ويعرفون، أيضًا، أني لم أعد متورطًا مباشرةً مع أية حركة... جسدي لا يسمح لي... ينظرون إليَّ ويرون معوَّقًا عجوزًا مرهقًا... جسدي يحميني بشكل ما... عليك أن تفهمي أن وحشيتهم تشبه وحشية القرون الوسطى بشكل غريب... ليسوا متقدمين ليدركوا ما نفعل في هذه الغرفة. لم يفهموا أبدًا الجاذبية التي تشدُّ الناس إلى هنا، حتى لو كان البعض من أبنائهم... لا شيء يثير اهتمامهم هنا- لا سُكْر أو عقاقير أو متآمرين... هذا ما يحمينا. وحين نتحدث في السياسة يتم ذلك بطرق لا يستطيعون متابعتها... لا نقول ما يمكن أن يسجلوه... في ميانمار لا شيء يستحق القول يمكن أن يقال بلغة عادية... يتعلم الجميع وسائل أخرى للتواصل، لغاتٍ سريةً. اليوم، على سبيل المثال، تحدَّثْتُ عن نظرية إدوارد ويستون في ما قبل الرؤية[٤]... يمكن أن ترى حقيقة موضوعك في عقلك... بعد ذلك تكون الكاميرا عرَضية، غير مهمة... إذا أدركت حقيقة ما ترينه، فالبقية مجرد تنفيذ. لا شيء يمكن أن يحول بينك وبين رغبتك المتخيلة... لا كاميرا، ولا عدسات..." هزَّ كتفيه، مبتسمًا. "إلى هذه القائمة يمكن أن أضيف: لا توجد عصابة مجرمين مثل هذا النظام... لكني لا أريد أن أقول لهم ذلك بهذه الكلمات... فهموا ما كنت أقول... عرفوا... رأيتِ كيف ضحكوا وصفقوا... هنا في القصر الزجاجي التصوير أيضًا لغة سرية."

في الطرف الآخر من الغرفة، كانت حفلة عيد الميلاد قائمة. ارتفع الصخب يطالب بدينو عند الطاولة. نهض على قدميه وذهب، مائلاً بثقله على العصا. كانتْ هناك أطباق مشهيات مقلية، كعكة وزجاجتا كوكاكولا كبيرتان من البلاستيك. وعلبة كبيرة من البيرة

الكندية وسط الطاولة، نقية لم تمس، مثل إناء مزخرف. أوضح دينو أن أحد المنتظمين فى التردد على القصر الزجاجى ابن جنرال كبير. يحضر سراً بدون علم أسرته. ومن وقت لآخر يحضر أشياء غير متاحة إلا للمهربين وكبار ضباط المجلس. يمكن أن تبقى البيرة على الطاولة عاماً.

بدأ شخص يداعب أوتار الجيتار. وبدأ الكورس وقُطِّعت الكعكة. أشرف دينو على الاحتفال بمزاج كريم طيب وقدر كبير من الفكاهة والبهجة. تذكرتْ جايا مقولة مفضلة لدى رجكومار: "لا توجد فى أى مكان موهبة الضحك كما فى بورما..." إلا أنه كان واضحًا أن للضحك هنا حافةً خاصة، تُشحَذ على المخاوف التى لا تغيب أبداً بشكل تام. نوع شره من المرح، كأن الجميع يريدون أخذ أقصى ما يستطيعون.

دارتْ فى أجزاء أخرى من الغرفة عدة مناظرات ومناقشات. احتكمتْ أحيانًا مجموعة أو أخرى لدينو. بعد تدخل من هذا النوع التفت دينو إلى جايا يوضح لها: "يتجادلون حول الصورة التى تحدثتُ عنها - نوتيلوس ويستون... يرى بعضهم أنهم ثوريون... يصرون على أن القضايا الجمالية لا علاقة لها بوضعنا..."

"وماذا كان ردك؟"

"اقتبست عن ويستون... ويستون وهو يفكر فى تروتسكى... يمكن لأشكال الفن الثورى الجديد أن توقظ شعبًا، أن تهز قناعته أو يرتاب فى تصورات قديمة مع نبوءات بناءة للتغيير... لا يهم... هذا يحدث أسبوعيًا... كل أسبوع أقول الكلام نفسه."

جمع شابان مبلغًا من المال وخرجا لشراء بريانى(٥) من محل قريب. عادا بعد دقائق، محملين بعلب ورقية. ملأ دينو طبقًا وقدمه لجايا: اندهشتْ من روعة البريانى.

ببطء، والمساء على وشك الانتهاء، صار الجميع أهدأ. بدا أن رحيلاً قهرياً يبدأ، كأن الظلام يطرق النوافذ، مذكِّرا بديمومة يقظته.

قبل التاسعة بقليل، قال دينو لجايا: "أين تقيمين؟"

قالتْ له إنها تقيم فى فندق صغير حجزتْ فيه بشكل عشوائى.

قال: "أطلب منك أن تقيمى هنا. أعيش وحدى ويمكن أن تعتنى بنفسك... الأمر سهل... لكن الإجراء لسوء الحظ يستغرق وقتًا طويلاً."

أصيبتْ بالهلع: "إجراء لماذا؟"

قال معتذراً: "للضيوف. لا تنسى أنك فى ميانمار. لا شىء بسيط هنا. كل أسرة لها قائمة مسجلة من الأعضاء... لا أحد يستطيع قضاء الليل هناك بدون إذن. أعرف امرأة كان عليها بعد ثلاث سنوات من الزواج أن تقدم طلبًا كل أسبوع لتكون ضمن قائمة ضيوف عائلة زوجها..."

"ومن أين يأتى هذا الإذن؟"

"من رئيس مجلس الدائرة... فى كل حى واحد... يمكن أن يجعلوا حياتك جحيماً... يكرههم الجميع... وأنا بشكل خاص. هكذا، ترين، أريد أن أطلب منك البقاء، لكن... يقوم البوليس بتفتيش منتظم، خاصة فى الليل. لا تعرفين أبداً متى يأتون..."

ضرب دينو جايا على ظهرها: "الأفضل أن تذهبى الآن... يأخذك الآخرون إلى فندقك... لابدَّ أنهم رأوك وأنت قادمة إلى هنا، تأكدى من ذلك... هل كان هناك رجل فى الصيدلية فى المنزل المجاور؟ هناك... إذا لم يكن هناك بالصدفة، انتظرى حتى يراك تنصرفين... إذا لم يرك تنصرفين فتأكدى من أنه سيكون هناك طرق على بابى بعد وقت قصير. عودى غداً... مبكراً... سأجهز بعض الصور. سنتحدث كثيراً كما تريدين... لن نفعل شيئًا إلا الكلام... كل يوم وأنت هنا..."

هوامش

(١) يوجين أتجيه Eugène Atget (١٨٥٧ - ١٩٢٧) :: مصور فرنسي، اشتهر بتصوير المعمار ومشاهد الشوارع في باريس. براساي Brassaï (١٨٩٩ - ١٩٨٤) : مصور مجري ونحات، اشتهر في فرنسا.

(٢) جورجيو أرماني Giorgio Armani: مصمم أزياء إيطالي، ولد عام ١٩٣٤.

(٣) كرتير بريسون Cartier-Bresson (١٩٠٨ - ٢٠٠٤) : مصور فرنسي. رجهوبير سنجه Raghubir Singh (١٩٤٢ - ١٩٩٩) : مصور هندي شهير.

(٤) ما قبل الرؤية previsualization: تشير إلى العملية الذهنية للمصور وهو ينظر إلى مشهد لالتقاطه ويتخيل بدقة الصورة مطبوعة، متوقعًا كل الاحتمالات الفنية والآلية في الاعتبار.

(٥) برياني biryani: طبق هندي يحتوي على لحوم وأسماك، أو خضراوات وأرز عليه زعفران أو كركم.

(٤٤)

غادر دينو الملايو بعد موت أليسون بقليل. بعد الاحتلال اليابانى عمَّ الاضطراب عزب المطاط. ترك مئات العمال مرننجسايد وانضموا لجمعية الاستقلال الهندية والجيش الوطنى الهندى. وكان إلونجو واحداً منهم، وعن طريقه عرف دينو أن أرجون من أوائل من انضموا للجيش الوطنى الهندى بقيادة الكابتن موهون سنجه. حشدت الحركة قوة لم يكن لدينو حيلة إزاءها. إلا أن آراءه الخاصة بشأن الحرب بقيتْ على حالها، وبعد وصول أخبار موت أليسون إلى مرننجسايد، قرَّرَ التسلل سرًّا إلى بورما.

فى النهاية غادر دينو الملايو فى مركب صيد. كان يبحر فى الليل بشكل أساسى قافزًا من جزيرة إلى جزيرة، مخطِّطًا لشقِّ طريقه على طول برزخ كرا[١]. تركه المركب على شاطئ يبعد بضعة أميال عن مِرجوى[٢]، وهى بلدة فى أقصى جنوب بورما. كان دينو يأمل فى الوصول إلى رنجون بالطريق البرى، لكن الغزو اليابانى لبورما اكتمل، وقُطِعت الطرق إلى الشمال.

رافقت القواتِ اليابانيةَ الأرضيةَ مجموعةٌ صغيرة من المتطوعين البورميين– جيش الاستقلال البورمى. وكان يقود المجموعة أحد معارف دينو من رنجون، قائد الطلبة أُنْج سان. والجيش اليابانى يتقدم، حدثتْ صدامات دموية بين المجموعة التى يقودها الطالب وأناس فى المنطقة الحدودية– خاصة المسيحيين الأصليين، وقد بقى كثير منهم موالين للبريطانيين. عمَّ الاضطراب المنطقة الحدودية واستحال السفر إلى الشمال. بقى دينو فى مرجوى عدة أشهر.

بمرور الوقت شقَّ دينو طريقه إلى رنجون، في يونيو ١٩٤٢ والمدينة تحت الاحتلال الياباني. ذهب دينو إلى كمندين فوجد المنزل مهدَّمًا: تعرَّض المجمَّع لضربة مباشرة. بحث دينو عن ثيها سو، صديقه القديم، وعرف أنه فرَّ، مع كثير من اليساريين الآخرين، إلى الهند؛ تشتت أسرته في الريف. لم يتبق في رنجون إلا جدة ثيها سو: ترعاها قريبة شابة، فتاة اسمها ما ثين ثين آى. أخذت قريبتا ثيها سو دينو ومنحتاه ملاذاً؛ ومنهما علم دينو بموت نيل ورحيل أسرته بعد ذلك إلى هوى زيدى.

كانت معركة حامية لا تزال تشتعل فى شمال رنجون بين القوات اليابانية والجيش البريطانى المنسحب، ويكاد السفر إلى الريف يكون مستحيلاً: تمت السيطرة تماماً على كل الطرق وخطوط السكك الحديد بنظام مدروس من البطاقات والتصاريح. أقام اليابانيون حكومة جديدة فى رنجون بقيادة سياسى بورمى، دكتور با مو(٣). وكان أُنْج سان وكثير آخرون من جيش الاستقلال البورمى أعضاء فى هذه الحكومة – ومن بينهم عدد من أصدقاء دينو ومعارفه السابقين فى جامعة رنجون. ساعده أحدهم فى الحصول على جواز مرور أتاح له السفر إلى الشمال.

وصل دينو إلى هوى زيدى ليجد أسرته رحلتْ والقرية مهجورة تقريبًا. اكتشف أن تعاطف الناس فى هذه المنطقة كان قويًا مع الحلفاء: كان ريموند من بين كثير من الرجال من هوى زيدى الذين جندوا فى مجموعة أنصار الحلفاء – القوة ١٣٦ .

حين علم ريموند بوصول دينو، ظهر فجأة، ليرحب بعودته. لم يعدْ ريموند الطالب النعسان الذى فى ذاكرة دينو: كان يرتدى سترة كاكية ويحمل بندقية. أوضح أن أباه، دوه سى، حثَّ رجكومار ودلِّى على البقاء ووعد بعمل كل ما يستطيع للتأكد من توفير الراحة والأمان لهما. لكن بعد موت نيل كانت تصرفات منجو مزعجة وفى النهاية، خوفًا على عقلها، قرَّر رجكومار ودلِّى العودة بها إلى الهند. غادروا قبل وصول دينو بعدة أشهر؛ لم يكن لديه أمل للالتحاق بهم فى ذلك الوقت. قرر دينو البقاء مع دوه سى وريموند، فى معسكر فى أعماق الغابة.

في ١٩٤٤ قام الحلفاء بغزو مضاد لبورما، في طليعته الجيش الرابع عشر بقيادة الجنرال سليم. في بضعة أشهر دُفع اليابانيون بعيداً عن الحدود الهندية وفي أوائل ١٩٤٥ انسحبوا عشوائياً. وتلقوا ضربة أخيرة على يد الجنرال أُنْج سان، الذي عكس ولاءه بشكل درامي: مع أن جيش الاستقلال البورمي دخل البلاد بمساعدة اليابانيين، فلم يكونوا أكثر من حلفاء معارضين للاحتلال. في ١٩٤٥ أصدر الجنرال أنج سان أمراً سرياً لأتباعه بالانضمام لحملة إخراج اليابانيين من بورما. وبعد ذلك وضح أن الاحتلال الياباني في نهايته تقريباً.

لكن المعركة لم تنته. ذات يوم في مارس ١٩٤٥، أرسل دوه سي لدينو؛ أخبره بأنه تلقى أخباراً مزعجة. نشبتْ معركة كبيرة في بلدة ميكتيلا، على بعد بضع مئات من الأميال إلى الشمال. حقَّق الجيش الرابع عشر انتصاراً حاسماً وانسحب اليابانيون فجأة. لكن كان بعض آخر الباسلين من الجيش الوطني الهندي لا يزالون يقاتلون في وسط بورما، يعرقلون تقدم جيش الحلفاء. وانتشرتْ إحدى هذه الوحدات عبر نهر سيتانج وشاع اعتقاد بأنها تتقدم باتجاه معسكرهم. انشغل دوه سي باحتمال أن يسبب الجنود مشاكل للقرويين؛ طلب من دينو الخروج والتوسط عندهم. كان يأمل أن يستطيع دينو بفضل ارتباطاته الهندية، إقناعهم بالبقاء بعيداً عن قريتهم.

خرج دينو في الصباح التالي، ومعه ريموند ليرشده.

***

بعد الانتظار بضعة أيام، تم ترتيب لقاء من خلال عمدة قرية، يُعقَد في معسكر ساج مهجور في أعماق الغابة. كان المعسكر قديماً، من النوع الذي سمع دينو أباه يصفه – به طاي من خشب الساج وسط منطقة منزوعة الأشجار. كان معسكراً

مهجوراً لسنين طويلة، من قبل الحرب بكثير. امتدت الغابة من جديد إلى معظمه؛ ارتفعت فى المنطقة منزوعة الأشجار أعشابٌ يصل طولها إلى أربعة أقدام، وهدمت الرياح والأمطار الكثير من أكواخ الأوسيين. كان الطاى وحده لا يزال قائمًا، إلا أن سلمه التف عليه كَرْمة وانهارتْ أجزاء من سقفه.

جاءت التعليمات لدينو بالانتظار وحده. قاده ريموند إلى حافة المنطقة منزوعة الأشجار وانسلَّ للغابة. وقف دينو أمام الطاى، فى مكان يمكن أن يُرَى فيه عن بعد. كان يرتدى لُنْجيًا بنيًا وسترة كارن بالأبيض والأسود صناعة منزلية. كان يقف حليقًا بعد وصوله إلى هوى زيدى وقد غيَّرتْ لحيته مظهره بشكل كبير. كان حول رقبته ثوب أبيض وأحمر وعلى كتفه حقيبة منسوجة بها طعام ومياه وتبغ.

جلس دينو على جذل شجرة أمام الطاى مباشرة. بدأت نسمة رقيقة تهزُّ الأعشاب الطويلة فى المنطقة منزوعة الأشجار من المعسكر. وارتفعتْ حفنات من الندى من قمم أشجار تحيط بالغابة طولها مائة قدم. كانت الخضرة كثيفة، جداراً خاليًا: عرف دينو أن الجنود الهنود فى مكان ما وراءه، يراقبونه.

كان مع دينو، فى حقيبة الكتف المصنوعة من القماش، لفائف من الأرز المسلوق ملفوفًا فى أوراق موز. فتح واحدة وبدأ يأكل. وهو يأكل، استمع إلى أصوات الغابة: هياج بين سرب من الببغاوات يخبره باقتراب الجنود. جلس ساكنًا وواصل الأكل.

رأى، بزاوية عينه، جنديًا هنديًا يدخل المنطقة منزوعة الأشجار. لفَّ ورقة الموز على شكل كرة وألقاها بعيداً. ظهر رأس الجندى: كان يخوض وسط الأعشاب بخطى واسعة، مستخدمًا البندقية ليزيح الشجيرات جانبًا.

رأى دينو الرجل يقترب. كان وجهه هزيلا جداً وبدا ذاويا تقريبًا – مع أن دينو خمن، من مشيته وبنيته، أنه فى أوائل العشرينيات. كان زيه رثًا وحذاؤه ممزَّقًا بصورة

سيئة حتى أن أصابعه ظهرتْ منه؛ كان الحذاء مربوطًا فى قدميه برباط. توقَّف الجندى على بعد قدمين من دينو وأشار بمقدمة بندقيته. وقف دينو.

قال بالهندوستانية: "ليس معى أية أسلحة."

تجاهله الجندى. قال: "أرنى ما فى حقيبتك."

فتح دينو حقيبته القماش.

"ماذا فيها؟"

مدَّ دينو يده وأخرج إناء الماء ولفافة من الأرز المسلوق فى ورقة شجرة. رأى فى عينى الجندى نظرة أوقفتْه. فكَّ اللفافة وأعطاها له.

قال: "ها. خذها. كلْ."

وضع الجندى الحزمة فى فمه والتهم الأرز. رأى دينو أن حالته أسوأ حتى ممَّا ظن فى البداية: فى بياض عينيه مسحة صفراء ويعانى من سوء التغذية، مع شحوب بشرته وقروح فى زاويتى فمه. بعد دقيقة من رؤيته، بدا لدينو شىء مألوف فى الجندى. فجأة عرفه. قال غير مصدق: "كيشان سنجه؟" نظر الجندى إليه غير مستوعب، مضيِّقًا العينين المشوبتين بالصفار. "كيشان سنجه – ألا تتذكرنى؟"

أومأ الجندى والأرز مازال فى فمه. تغير تعبيره بالكاد: كأنه مرهق بدرجة لا تسمح له ببذل جهد للتعرف عليه.

قال دينو: "كيشان سنجه، هل أرجون معك؟"

أومأ كيشان سنجه مرة أخرى. ثم استدار على كعبه، وألقى بالورقة التى كان الأرز ملفوفًا فيها وعاد بين الأشجار.

مدَّ دينو يده إلى حقيبته القماش. أخرج شيروتًا وأشعله بيد مرتجفة. جلس مرة أخرى على الجذل. عن بعد، دخل شخص آخر إلى المنطقة منزوعة الأشجار، يتبعه حوالى ثلاثين رجلاً. وقف دينو. لسبب لم يفهمه، عرق كفَّاه، وانطفأ الشيروت.

توقف أرجون على بعد خطوات قليلة. وقف هو ودينو فى المواجهة عبر الجذل. لم ينطقْ أحد منهما بكلمة. أشار بتأنٍّ إلى الطاى: "لنذهب إلى هناك."

أومأ دينو موافقًا. وضع أرجون رجاله فى الحراسة حول الطاى، ثم صعد هو ودينو السلم، وجلسا على ألواح الأرضيات المتهرئة. عن قرب، بدا أرجون فى حالة أسوأ حتى من حالة كيشان سنجه. تآكل جزء من فروة رأسه نتيجة قرحة؛ امتدَّ الجرح من فوق أذنه اليمنى حتى عينه تقريبًا. وغطَّى الوجهَ تمزقٌ ولدغُ حشرات. فقد كابه وسقطتْ أزرار زيه؛ وكان أحد كمى سترته مقطوعًا.

ما كان دينو ليأتى لو عرف أنه سيقابل أرجون. انقضتْ ثلاث سنوات على آخر لقاء بينهما، وبقدرِ ما كان دينو يعتبر أرجون مذنبًا، بالتداعى، بشأن كثير من الرعب والدمار فى تلك السنوات. إلا أن دينو لم يشعرْ بغضب أو نفور وهما فى المواجهة. كأنه لا ينظر إلى أرجون بل إلى بقاياه المسحوقة، قشرة الرجل الذى كان ذات يوم. فتح دينو حقيبته القماش وأخرج اللفائف الباقية من الأرز.

قال: "ها. يبدو أنك فى حاجة إلى ما تأكله."

"ما هذا؟"

"بعض الأرز..."

رفع أرجون اللفائف إلى أنفه وشمَّها. قال: "رائع منك. سيمتن الرجال..."

نهض وذهب إلى السلم. سمع دينو أرجون يطلب من رجاله توزيع الأرز عليهم. حين عاد، رأى دينو أنه تنازل عن كل اللفائف. فهم أن الكبرياء منع أرجون من قبول طعام منه.

قال دينو: "وماذا عن الشيروت؟ هل يمكن أن أعطيك واحداً؟"

"نعم."

قدم له دينو شيروتًا وأشعل عود ثقاب. قال أرجون: "لماذا أنت هنا؟"

قال دينو: "طُلِب منى أن آتى. أعيش فى قرية... ليست بعيدة عن هنا. سمعوا أن رجالكم يتجهون إليهم... انتابهم القلق."

قال أرجون: "لا داعى للقلق. نحاول أن نبقى بعيداً عن السكان المحليين. لا خلاف بيننا وبينهم. يمكن أن تقول لهم إنهم فى أمان- بالنسبة لنا على أية حال."

"سيسعدون."

سحب أرجون نفَساً من الشيروت ونفثه من أنفه. قال: "سمعْتُ عن نيل. حزنْتُ – من أجلك، ومن أجل منجو..."

تقبل دينو ذلك بإيماءة.

قال أرجون: "وماذا عن أسرتك. هل لديك أخبار – عن منجو؟ الطفلة؟"

قال دينو: "لم أسمع أخباراً فى السنوات الثلاث الأخيرة. كانوا هنا لبعض الوقت... بعد وفاة دينو... فى المكان الذى أنا فيه الآن... مع عائلة تربطنا بها صداقة قديمة. ثم ذهبوا إلى موليك، ليحاولوا العبور... لم يُسمَع عنهم شىء بعد ذلك... أمى، أبى... لا أحد منهما..."

عضَّ دينو ظفر إبهامه وسلَّك حنجرته: "وهل سمعت عن أليسون... وجدِّها؟"

تكلم أرجون بصوت هامس: "لا. ماذا حدث؟"

"وهما يتجهان من مرننجسايد إلى الجنوب... تعطلت السيارة ووقعا فى أيدى الجنود اليابانيين... قُتِلا... لكنها قاومت..."

غطى أرجون وجهه بيديه. عرف دينو من الرجفة المنتظمة فى كتفيه أنه ينتحب. شعر دينو بالشفقة على أرجون، حينها فقط. مدَّ ذراعه عبر الأرضية ووضعها حول كتفيه.

"أرجون... توقفْ... لن يفيد..."

هزَّ أرجون رأسه بعنف، كأنه يريد الاستيقاظ من كابوس: "أتساءل أحيانًا إن كان ذلك سينتهى."

"لكن، أرجون..." اندهش دينو من رقة صوته: "أرجون... أنت الذى... أنت الذى انضممْتَ إليهم... بإرادتك الحرة. ومازلْتَ تقاتل- الآن... حتى بعد اليابانيين... لماذا؟ من أجل ماذا؟"

نظر أرجون إلى أعلى وعيناه مطبقتان: "ترى، دينو، لا تفهمُ حتى الآن. تعتقد أننى انضممتُ إليهم. لم انضم. انضممتُ إلى جيش هندى يقاتل لهدف هندى. ربما انتهت الحرب بالنسبة لليابانيين- لم تنتهِ بالنسبة لنا."

لا يزال صوت دينو رقيقًا: "لكن، أرجون... لابدَّ أن ترى أنه ليس لديك أمل..."

عند ذلك ضحك أرجون.

قال: "هل كان لدينا أمل فى أى وقت. نثور على إمبراطورية شكَّلتْ كل ما فى حياتنا؛ لوَّنتْ كل ما فى العالم كما نعرفه. وصمة هائلة، إزالتها مستحيلة لوثَتْنا جميعًا. لا نستطيع تدميرها بدون أن ندمِّرَ أنفسنا. وأفترض أننى فى هذا الموقف..."

وضع دينو ذراعه حول أرجون مرة أخرى. شعر بالدموع تتدفق من عينيه، لكن لم يكن هناك ما يقوله.

اعتقدَ أن الخطر الأكبر يكمن فى النقطة التى وصل إليها أرجون - حيث نسمح للقوى التى تشكلنا، ونحن نقاومها، بالسيطرة على كل المعانى؛ هذه لحظة انتصارهم:

أصيبوا بهذه الطريقة بهزيمتهم النهائية الأكثر بشاعة. لم يشعر تجاه أرجون بشفقة بل بتعاطف: بم تشعر وأنت ترى الهزيمة تتراكم، بشكل كامل إلى هذا الحد؟ كان فى ذلك نوع من الانتصار - بسالة - لم يشأْ أن يقلل من قيمتها بالجدل.

قال دينو: "يجب أن أذهب الآن."

"نعم."

نزلا السلم الملفوف بالكروم. أسفله، تعانقا مرة أخرى.

"احذرْ، أرجون... احذرْ."

ابتسم: "سأكون بخير. ذات يوم سوف نسخر من هذا." لوَّح وابتعد وسط الأعشاب التى تصل إلى الكتف.

استند دينو على سلم الطاى وشاهده يذهب. بقى مكانه وقتًا طويلاً بعد انصراف الجنود. حين ظهر ريموند، من بين الظلام، قال دينو: "لنبقَ هنا الليلة."

"لماذا؟"

"لا أشعر أنى فى حالة تسمح لى بالذهاب."

هزَّت المواجهة مع أرجون دينو بعمق: للمرة الأولى، بدأ يفهم حقيقة القرار الذى اتخذه أرجون، الحقيقة التى يستحيل التقليل من شأنها؛ رأى السبب الذى جعل كثيرين ممن عرفهم - رجالاً من قبيل أُنْج سان - يختارون الاختيارات نفسها. بدأ يرتاب فى إدانته المطلقة لهم. كيف يمكن للمرء أن يحكم على شخص يزعم أنه يعمل من أجل شعب خاضع، بلد؟ على أى أساس يمكن إثبات حقيقة هذا الادعاء أو دحضه؟ من يستطيع الحكم على وطنية شخص غير مَنْ يزعم أنه يعمل باسمهم - مواطنيه. إذا اختار شعب الهند اعتبار أرجون بطلاً؛ إذا رأتْ بورما أنج سان مُخلِّصَها - هل يمكن لشخص مثله، دينو، أن يفترض أن هناك واقعًا أكبر، قوة التاريخ، يمكن استدعاؤه لدحض هذه المعتقدات؟ لم يعد مقتنعًا بأن الأمر بهذه الصورة.

هوامش

(١) برزخ كرا Isthmus of Kra: شريط من الأرض يبلغ عرضه حوالى ٤٠ ميلاً، وهو أضيق نقطة تربط بين شبه جزيرة الملايو وقارة آسيا.

(٢) مرجوى Mergui: مدينة فى أقصى جنوب بورما على ساحل جزيرة فى بحر أندامان.

(٣) دكتور با مو Dr. Ba Maw (١٨٩٣ - ١٩٧٧) : قائد سياسى بورمى.

(٤٥)

كانتْ وحدة أرجون تضمُّ فى البداية حوالى خمسين رجلاً: لم يتبقَّ إلا ثمانية وعشرون. فُقِد قليلٌ منهم بنيران معادية. كان معظم المفقودين نتيجة الفرار.

منذ البداية انقسمت الوحدة بالتساوى بين الجنود المحترفين والمتطوعين. وكان المحترفون الذين جندوا فى الهند، رجالاً مثل كيشان سنجه وأرجون نفسه. حين سقطتْ سنغافورة، كان على الجزيرة حوالى خمسة وخمسين ألفًا من القوات الهندية. انضمَّ أكثر من نصفهم للجيش الوطنى الهندى. وكان المتطوعون مجندين من الجالية الهندية فى الملايو ومعظمهم من عمال المزارع التاميل.

فى البداية تشكَّكَ الضباط، رفاق أرجون، فى إمكانيات المجندين الجدد وقدراتهم على التحمل. كان الجيش الذى دربهم، الجيش الهندى البريطانى، لا يجند التاميل: اعتبروا إحدى الطوائف الهندية الكثيرة غير الصالحة عِرْقيًا للعسكرية. ولكونهم عسكريين محترفين، فقد تشبَّعوا بالأساطير العرقية لجيش المرتزقة القديم. وعلى العلى الرغم من من معرفتهم بأن تلك النظريات لا أساس لها، وجدوا صعوبة فى التخلص تمامًا من المفاهيم الإمبريالية القديمة بشأن نوعية الرجال الذين يصلحون للعسكرية والذين لا يصلحون. ولم يعترفوا بزيف هذه الأساطير إلا تحت النيران: كشفت الخبرة أن مجندى المزارع، على أية حال، أكثر صلابة وإخلاصًا من المحترفين.

وجد أرجون، فى وحدته، نمطًا واضحًا للفرار: كل الذين اختفوا تقريبًا من المحترفين؛ لم يرحلْ أحد من مجندى المزارع. حيَّره ذلك حتى كشف له كيشان سنجه

عن السبب: يعرف المحترفون الرجال على الجانب الآخر؛ الرجال الذين يحاربونهم أقاربهم وجيرانهم؛ كانوا يعرفون أنهم إذا فرّوا فلن يلقوا معاملة سيئة.

كان أرجون يعرف أن عمال المزارع يفهمون ذلك أيضًا. يعرفون الجنود المحترفين وأية طبقة انحدروا منها؛ يعرفون كيف تعمل عقولهم ولماذا يهربون. فى كل مرة يفقد فيها بضعة "محترفين" آخرين، يرى أرجون ازدراء أعمق فى عيونهم؛ كان يعرف أن رجال المزارع يسخرون سرًا من الحياة المدلّلة التى اعتاد عليها العسكريون، من الطريقة التى كان يطعمهم بها سادتهم ويسمنونهم. بدا أن مجنّدِى المزارع عرفوا ذلك فى النهاية، لم يكنْ صراعهم الصراع الذى يخوضه المحترفون؛ على أية حال، كانوا لا يخوضون حتى الحرب نفسها.

لم يكن كل مجندى المزارع يتحدثون الهندوستانية: كثيرًا ما وجد أرجون صعوبة فى التواصل معهم. رجل واحد فقط كان أرجون يتحدث معه بطلاقة: اسمه راجان[١]. كان هزيلاً ونحيلاً، جلدًا على عظم، بعينين منقطتين بالأحمر وشارب كث. جنده أرجون بنفسه فى سنجى بتانى. تساءل حينها إن كان راجان رجلاً مناسبًا. لكن بعد تجنيده، صار شخصًا مختلفًا تمامًا: غيَّره التدريب. بدا كأنه طوَّر استعدادًا للعسكرية وظهر كأقوى شخصية بين مجندى المزارع.

ذات مرة، وهم فوق حافة، طلب راجان من أرجون أن يحدد جهة الهند. أراه أرجون: إلى الغرب. وقف راجان طويلاً يحدِّق بعيدًا؛ وهكذا فعل كثير من الرجال الآخرين.

سأل أرجون: "هل زرْتَ الهند؟"

هزَّ راجان رأسه: "لا، سير."

"ماذا تعتقد أن تجد هناك؟"

هزَّ راجان كتفيه: لا يعرف وبطريقة ما بدا أنه لا يبالى. يكفى أن تكون الهند.

اكتشف أرجون فيما بعد أن راجان ولد فى الملايو؛ جاءتْ معلوماته عن الهند أساسًا من الحكايات التى حكاها والداه. كان الشىء نفسه صحيحًا بالنسبة لمجندى المزارع جميعًا: يقاتلون من أجل بلاد لم يروها أبدًا؛ بلاد قذفتْ آباءهم وبترتْهم. وكان هذا سر حماسهم الكبير. لماذا؟ ما دوافعهم؟ كان هناك الكثير عن حياتهم لا يعرفه أرجون ولا يستطيع سبر غوره - الطريقة التى تحدثوا بها عن "العبودية"، على سبيل المثال، مستخدمين الكلمة الإنجليزية دائمًا. فى البداية اعتقد أرجون أنهم يستخدمون المصطلح بشكل غير دقيق، نوع من المجاز - لأنه على الرغم من كل شىء، لم يكن صحيحًا تقنيًا أنهم عبيد؛ كان راجان يعرف ذلك كما يعرفه أرجون. ماذا يعنى، إذن؟ ماذا يعنى أن تكون عبدًا؟ حين يطرح أرجون هذا السؤال، يردُّ راجان دائمًا بشكل غير مباشر. يبدأ الكلام عن العمل الذى كانوا يؤدونه فى المزرعة - كل فعل يراقب ويُرصَد ويلاحظ باستمرار؛ كم أوقية من السماد بالضبط، وضعت بالضبط، فى حفر عرضها كم بوصة بالضبط. قال راجان لم يكن الأمر أنك تعامل كحيوان - لا، لأنه حتى الحيوانات لها غرائز استقلال. كنا نعامل كآلة: انتُزِع عقلك ووضعت مكانه آلية منتظمة. أى شىء أفضل من ذلك.

والهند- ماذا كانت الهند بالنسبة لهم؟ الأرض التى يقاتلون من أجل حريتها، الأرض التى لم يروها أبدًا لكنهم على استعداد للموت من أجلها؟ هل عرفوا ما خلَّفَ آباؤهم وأجدادهم وراءهم من فقر وجوع؟ هل عرفوا التقاليد التى تمنعهم من الشرب من آبار طائفة عليا؟ لم يكن شىء من ذلك حقيقيًا بالنسبة لهم؛ لم يجربوه أبدًا ولم يتخيلوه. كانت الهند الجبل الساطع خلف الأفق، قربان التضحية- استعارة للحرية كما كانت العبودية استعارة للمزرعة. تساءل أرجون، ماذا يجدون، حين يعبرون الأفق؟

ومن خلال طرح هذه الأسئلة بدأ أرجون يرى نفسه بعيونهم- محترفًا، مرتزقة، لم يستطع أبداً التخلص من وصمة ماضيه والسخرية التى أتتْ معه، العدمية. عرف السبب الذى قد يدعوهم للنظر إليه بازدراء - وحتى كعدو - لأنه كان صحيحًا، فى النهاية، أنه لا يخوض حربهم؛ لا يؤمن بما يؤمنون به؛ لا يحلم أحلامهم.

***

أعاد راجان كيشان سنجه ويداه مقيدتان، يتعثر فى الشجيرات. لم تسمح حالة كيشان سنجه له بالابتعاد كثيراً. وجده راجان مختفيًا تحت نتوء، مختبئًا يرتجف ويدعو.

دفع راجان كيشان سنجه، فوقع على ركبتيه.

قال أرجون: "انهضْ." لم يحتمل النظر إلى كيشان سنجه بهذه الصورة: "أُتُّو[٢] - انهض، كيشان سنجه."

أمسك راجان كيشان سنجه من ياقته وأوقفه. ازداد كيشان سنجه نحولاً، كان مثل العصا، دمية محطمة.

نظر راجان بازدراء لكيشان سنجه. كلَّم أرجون مباشرة، وهو ينظر فى عينيه: "وماذا تفعل له الآن؟"

لم يكن هناك "سير" أو "صاحب"، ولم يكن السؤال "ماذا يجب أن يتمَّ؟" بل "ماذا تفعل؟" رأى أرجون التحدى فى عينى راجان؛ عرف ما يدور فى عقل راجان- يتكاتف المحترفون معًا، وسيجد طريقة للعفو عن كيشان سنجه. الوقت. كان عليه أن يحدِّدَ وقتًا.

قال أرجون: "علينا أن نعقد مجلساً عسكرياً."

"هنا؟"

أومأ أرجون: "نعم. هناك إجراء. علينا أن نحاول ونلتزم به."

"إجراءات؟ هنا؟" كان التهكُّمُ واضحاً في صوته.

عرف أرجون أن راجان يحاول إحراجه أمام الرجال الآخرين. مستخدماً مزية طوله، ذهب إليه وحدَّق في عينيه.

قال أرجون: "نعم. إجراءات. وعلينا احترامها. هكذا تدار الجيوش- هذا ما يجعلها تختلف عن عصابات الشوارع."

هزَّ راجان كتفيه ومسح شفتيه بلسانه. قال: "لكن أين؟ أين تجد مكاناً لمجلس عسكري؟"

قال أرجون: "نعود إلى معسكر الساج. أسهل هناك."

"المعسكر؟ لكن ماذا إذا كان هناك من يتتبعنا؟"

"ليس بعد. سوف نذهب." المعسكر على بعد ساعة: يمكن أن يستغرق وقتاً أقل.

"طابور." أخذ أرجون المبادرة. لم يكن يريد مشاهدة كيشان سنجه مسحوباً ويداه معقودتان خلف ظهره.

تساقط المطر وكانوا مبللين حين وصلوا إلى المعسكر. سار أرجون في الطريق عبر المنطقة منزوعة الأشجار إلى الطاي. كانت المنطقة تحت الركائز جافة، محمية من الأمطار بالمبنى الذي فوقها. ترك راجان كيشان سنجه فغاص في الأرض جاثماً على مؤخرته يرتجف.

قال أرجون: "هنا. نعقد الجلسات هنا."

أحضر راجان مقعداً من الطاى ووضعه أمام أرجون. قال بلهجة تأدُّب ساخرة: "لك، سير، أنت القاضى."

تجاهله أرجون: "لنبدأ."

حاول أرجون إطالة الطقوس، طرح الأسئلة واستغرق فى التفاصيل. لكن الحقائق كانت واضحة: لا جدال فيها. حين طلب من كيشان سنجه أن يتكلم دفاعًا عن نفسه، لم يستطع إلا أن يتوسل عاقداً يديه معًا: "صاحب – زوجتى، أسرتى..."

كان راجان يشاهد أرجون، مبتسمًا: "أية إجراءات أخرى؟ سير؟"

"لا." رأى أرجون راجان والرجال الآخرين يشكلون دائرة: هو وكيشان سنجه وسطها. وقف أرجون: "اتخذتُ قرارى." التفتَ إلى راجان، قال: "أكلِّفك بمسئولية فرقة الإعدام. اطلب متطوعين. بسرعة."

نظر إليه راجان مباشرة، وهزَّ رأسه. قال: "لا. لا أحد منا سيتطوع. إنه واحد منكم – واحد من رجالك. تعاملْ معه بنفسك."

نظر أرجون إلى دائرة الرجال من حوله. ينظرون إليه جميعًا؛ وجوههم جامدة وعيونهم لا ترمش. استدار أرجون؛ طافتْ فى ذهنه نتف من الذكريات... هكذا يبدو التمرُّد على الجانب الآخر؛ أنت وحيد، ولا يمكن الاعتماد إلا على سلطة سلسلة طويلة من القيادة؛ على تهديدات عدالة الجيش، والجزاء النهائى بمجرد تحقيق النصر. لكن ماذا تعمل حين تعرف أنه لن يكون هناك نصر، حين تكون الهزيمة مؤكدة؟ كيف تستند إلى صلاحية المستقبل، وأنت تعرف أنه لن يكون مستقبلك؟

"تعال، كيشان سنجه." ساعد أرجون المراسلة السابق للوقوف. كان جسمه خفيفًا جدًا، بدون وزن تقريبًا. شعر أرجون بيديه تزدادان رقَّةً وهو يمسك بذراع كيشان سنجه. كان غريبًا أن يلمسه بهذه الطريقة، وهو يعرف ما يأتى.

"تعال، كيشان سنجه."

"صاحب."

وقف كيشان سنجه وأخذ أرجون بذراعه، ودفعه إلى الأمام، بعيدًا عن الآخرين، خارج مظلة الطاى، إلى المطر. خاضا فى الأعشاب الطويلة وتعثر كيشان سنجه. وضع أرجون ذراعه حوله وأوقفه. كان كيشان سنجه ضعيفًا، يمشى بالكاد؛ أراح رأسه على كتف أرجون.

جاء صوته ناعمًا، كما لو كان يهمس لحبيبة: "واصل المشى، كيشان سنجه. سَابَر كارو، كيشان سنجه – سينتهى ذلك عاجلاً."

"صاحب."

حين وصلا إلى حافة المنطقة منزوعة الأشجار، تركه أرجون. سقط كيشان سنجه على ركبتيه، وبقى منتصبًا بالتشبث بساق أرجون.

"صاحب."

"لماذا فعلْتَ ذلك، كيشان سنجه؟"

"صاحب، كنتُ خائفًا..."

فكَّ أرجون أزرار حافظته الجلدية بيد وأخرج سلاحه الجانبى– الويبلى الذى كان كيشان سنجه يصقله ويشحمه.

"لماذا فعلْتَ ذلك، كيشان سنجه؟"

"صاحب – لم أستطع الاستمرار..."

تطلع إلى الإصابات وقروح الغابة على رأس كيشان سنجه. فكَّر فى وقت آخر وكيشان سنجه يبرك بين قدميه، طالبًا حمايته؛ فكَّر فى صراحته وصدقه وبراءته، فى كيف حركه التاريخ الذى يكمن وراءهما – الطيبة والقوة اللتين رآهما فيه؛ كل الصفات التى فقدها هو نفسه وخانها – صفات لم تكن أبداً صفاته منذ البداية، هو الذى قفز جاهزًا ومشوَّهًا من عجلة الخزاف. كان يعرف أنه لا يستطيع أن يسمح لكيشان سنجه بخيانة نفسه، بأن يصبح غير ما كان عليه – أن يصبح مخلوقًا مثله، بشعًا، مسخًا. منحتْه الفكرةُ القوةَ لتصويب البندقية إلى رأس كيشان سنجه.

عند لمس المعدن البارد، رفع كيشان سنجه عينيه، ونظر إليه: "صاحب– تذكر أمى وبيتى وطفلى..."

أمسك أرجون برأس كيشان سنجه، لاعبًا بأصابعه فى شعره الملبَّد: "لأنى أتذكر ذلك علىَّ أن أفعل هذا، كيشان سنجه. حتى لا تنسى ما كنت عليه – لأحميك من خيانة نفسك."

سمع الطلقة وترنح باتجاه مجموعة من الأشجار. مدَّ يده إلى غصن ليحفظ توازنه، ورأى شريحة تنزُّ من اللحم والعظم معلقة فى الأغصان. لم يستطعْ إبعاد عينيه عنها: كانت جزءًا من كيشان سنجه، من رأس أمسك به للتو بين يديه. أخذ خطوة أخرى وسقط على ركبتيه. حين نظر إلى أعلى، كان راجان والرجال الآخرون يقفون ملتفين حوله، يشاهدون. وفى عيونهم نوع من الشفقة.

***

سادت البهجة فى المعسكر حين قرر دوه سى العودة إلى هوى زيدى. كانت الحركة فى المنحدر عرض انتصار مبهج اكتمل بالطبول والمزامير والأفيال.

وفَّرَ دوه سى مكانًا لدينو بمفرده على حافة القرية. لم يكد دينو يستقر فيه حتى عثر عليه ريموند.

قال ريموند: "تعال معى. عندى ما أخبرك به."

سارا بجوار الجدول وشاهدا أطفال القرية يصوِّبون على الأسماك من الأماكن الضحلة من جدول هوى زيدى بأقواس ورماح مصنوعة من البامبو.

"لدىَّ بعض الأخبار."

"ماذا؟"

قال ريموند: "مات أرجون. تتبعته وحدة من القوة ١٣٦؛ لحقوا به فى معسكر الساج القديم."

سأل دينو: "هل أنت الذى أرشدْتَهم إلى هناك؟"

"لا. هارب. واحد من رجاله– جندى قديم."

قال دينو: "لكنك كنت هناك؟ فى النهاية..."

"نعم."

"ماذا حدث؟"

"نادونى– الناس الذين اصطادوه. سمعوا أن كثيرًا من رجاله تركوه –"

"هل كان أرجون وحده إذن؟"

"نعم. وحده تماماً – عاد إلى معسكر الساج المهجور. غادر بقية الرجال المكان، رحلوا جميعًا – خلعوا أزياءهم، وارتدوا لنجيات واختفوا فى الغابة. حاولْتُ تتبعهم – كان الأمر مستحيلاً، كانوا يعرفون الغابة – تلاشوا."

"وأرجون؟"

"كان هناك كولونيل هندى. حاول أن يجعل أرجون يستسلم، قائلاً له إن المعركة انتهت، وأنه سيكون بخير. لكن أرجون ردَّ بإطلاق النار، وصفهم بالعبيد والمرتزقة. ثم خرج إلى فراندة الطاى، وأخذ يطلق النار..."

توقف ريموند ليلقى بحصاة فى الجدول.

قال: "كان واضحاً أنه لا يريد أن يعيش."

هوامش

(١) راجان: Rajan.

(٢) أثو: utho.

(٤٦)

فى ١٩٤٦، وبورما على وشك الحصول على استقلالها، قرَّر دوه سى مغادرة هوى زيدى والتحرك باتجاه الشرق، إلى المناطق الجبلية على حدود بورما وتايلاند.

جعلت الحرب أطراف البلاد ضد مركزها: وكان دوه سى واحداً من كثيرين لديهم شكوك عميقة بشأن ما يخبئه المستقبل لأقليات بورما.

وقد عمل معظم سكان هوى زيدى بنصيحة دوه سى، ومن بينهم دينو. هُجِرت القرية واستقرَّ سكانها فى لويكو[1]، بلدة حدودية صغيرة فى أعماق هضاب كارنى، بالقرب من الحدود مع تايلاند. وكان لوجود دينو فى لويكو مزية كبيرة: استطاع مرة أخرى العثور على المواد اللازمة للتصوير - هُرِّب الكثير منها عبر حدود تايلاند. أنشأ أستوديو وكان المصوِّر الوحيد المحترف على امتداد مئات الأميال. حتى فى الأوقات الصعبة، يتزوج الناس وينجبون - يريدون تسجيل تلك اللحظات وهم على استعداد للدفع، نقداً أحياناً وسلعاً فى معظم الأحيان.

فى ١٩٤٧، استعداداً للرحيل البريطانى، أقيمتْ أول انتخابات وطنية فى بورما. وفاز فيها الجنرال أُنْج سان. وساد على نطاق واسع اعتقاد بأنه الشخص الوحيد القادر على تأكيد وحدة البلاد واستقرارها. لكن فى ١٩ يوليو، قبل أن يتولى أنج سان المنصب بوقت قصير، اغتيل مع عدد من رفاقه. خلال شهور من الاغتيال، انفجر عصيان بقيادة شيوعية فى وسط بورما. تمرَّدتْ بعض وحدات الكارن فى الجيش.

والكارن أكبر مجموعة عرقية بعد البورمان؛ رفع تنظيم كارنىٌّ كبير السلاح ضد حكومة رنجون. وتبعتْهم مجموعات أخرى مباشرة. فى وقت قصير اندلع ستة عشر عصيانًا فى بورما.

ذات يوم، فى لويكو، جاء ولد يجرى إلى باب دينو: "كو تون بى- هناك شخص يسأل عنك." وتبعه طفل آخر ثم آخر. وقفوا فى المدخل يلهثون، ويشاهدون بعيون تترقب بشدة. قالوا جميعًا الشيء نفسه: "كو تون بى - هناك زائرة، تأتى مشيًا من محطة الأتوبيس."

تجاهلهم؛ بقى فى الأستوديو، لا يفعل شيئًا، ويحاول ألا ينظر من الشباك. ثم سمع مزيدًا من الأصوات تقترب - بدا أن موكبًا يشقُّ طريقه إلى كوخه. سمع أناسًا ينادون: "كو تون بى- انظر مَنْ هنا!" رأى ظلاً على العتبة ونظر. كانت دلِّى.

استغرق الأمر عدة أشهر من دلِّى لتتبع مسار دينو إلى لويكو. وصلتْ إلى بورما أواخر ١٩٤٨، أثناء فترة العصيان. حين وصلت إلى رنجون، اكتشفتْ أن سلطة الحكومة المنتخبة لا تمتدُّ أبعد من الحدود الإدارية للعاصمة. حتى المساحات التى على حدود مطار مينجلادون كانت فى أيدى المتمردين. كان معظم رنجون مهدَّمًا، ضرب بالقنابل وتحوَّل إلى رماد نتيجة الحملات الجوية المتتابعة. ومع احتراق منزل كمندين بالكامل، لم يكن هناك مكان تقيم فيه؛ قدَّمتْ لها صديقةٌ ملاذًا.

ذات يوم سمعتْ دلِّى أن ثيها سو، الصديق القديم لدينو، عاد إلى رنجون، ويعمل فى صحيفة. ذهبت إليه تسأله إن كانتْ لديه أخبار عن دينو. وتصادف أن يو ثيها سو حضر مؤخَّرًا مؤتمرًا سياسيًا حضره ريموند أيضًا. أخبر يو ثيها سو دلِّى بأن دينو يعيش فى أمان فى لويكو. غادرتْ دلِّى رنجون بمركب فى اليوم التالى. وبعد رحلة استغرقتْ عدة أسابيع استقلتْ أتوبيسًا قديمًا مقعقعًا فى طريقها إلى لويكو.

قضتْ دلى ودينو أيامًا يتحدثان. حدَّثْته عن موت نيل وموت منجو؛ عن المسيرة عبر الجبال وكيف قامتْ هى ورجكومار بالرحلة من حدود الهند، عبر أسام، إلى كلكتا؛ وفسَّرتْ له سبب عودتها إلى بورما وحدها.

التقط صوراً لها. كانت دلى نحيلة جداً، يمكن رؤية عظام وجهها بوضوح كأنها حواف كوب محزز. كان شعرها مربوطًا بإحكام إلى الخلف عند القفا: كان لا يزال أسود لامعًا، مع بضعة خطوط بيضاء عند الصدغ.

حثّته على الكتابة إلى والده: "اذهبْ وقابلْه؛ لن تكون هناك مشكلة معه كما كان يحدث من قبل؛ يحتاج إليك - إنه وحيد."

لم يقدِّمْ دينو وعوداً: "ربما. ذات يوم."

عرف، بدون أن تخبره، أنها لم تأتِ لتقيم. لم يندهشْ حين قالتْ: "فى الأسبوع القادم أغادر إلى ساجاينْج.

ذهب معها. أول مرة يجرؤ فيها على الذهاب إلى السهول منذ انتهاء الحرب. روَّعه الدمار. سافرا عبر مناطق لم تُحرَقْ مرة بل مرتين على أيدى الجيوش المنسحبة. كانت قنوات النهر مسدودة وخطوط السكك الحديد مخربة على عوارضها. من قرية لقرية كانت المسئولية فى يد مجموعة أو حزب مختلف. ردم الفلاحون حفر قنابل مستديرة؛ أشار الأطفال إلى مواضع بها ألغام لم تنفجر. كانا يلفَّان حول الطرق، حول المناطق التى قيل إنها شديدة الخطورة. مشيا واستأجرا عربات ثيران، واستقلا أحيانًا أتوبيسًا وقاربًا نهريًا. توقفا فى مندالى ليلة. تهدَّم معظم الحصن؛ ودمَّرتْ نيران المدفعية القصر؛ وحُرقتْ تمامًا الأجنحة التى عرفتْها دلِّى.

سارا آخر بضعة أميال إلى ساجاينج وعبرا إراودى فى عبَّارةٍ. شعرا بارتياح شديد لأن ساجاينج لم يتغير. كانت الهضاب ساكنة وجميلة، تزينها آلاف المعابد

البيضاء. أسرعتْ دلّى وهما يقتربان من الدير. عند المدخل عانقتْ دينو بقوة وقادتْها إيفلين إلى الداخل. فى اليوم التالى، حين ذهب دينو لزيارتها، كان رأسها حليقًا وترتدى روبًا زعفرانيًا. بدتْ مشعة.

تم الاتفاق على أن يعود ليراها مرة أخرى فى العام التالى. حان الوقت وعاد، من لويكو إلى ساجاينج، قاطعًا الرحلة الطويلة مرة أخرى. انتظر وقتًا طويلاً على بوابات الدير. أخيراً جاءت إيفلين. ابتسمتْ له ابتسامة رقيقة.

قالت: "رحلتْ أمك منذ شهر. لم نستطعْ إخبارك بسبب المشاكل. وقد يسعدك أن تعرف أنها رحلتْ سريعًا جداً ولم تتألمْ."

***

فى ١٩٥٥ مات دوه سى فى لويكو، وكان بطريركًا كبيرًا وقائدًا مهمًا. حزن الآلاف عليه. كان دوه سى بالنسبة لدينو أبًا بقدر ما كان معلمًا: كان موته صدمة كبيرة. بعد قليل، قرر دينو الانتقال إلى رنجون.

فى منتصف خمسينيات القرن العشرين هدأت الأمور نسبيًا فى بورما. توقّفتْ حالات العصيان وعملت الحكومة بشكل ديموقراطى. صار يو ثيها سو محررًا لصحيفة رائدة باللغة البورمية، كان تأثيرها كبيرًا فى رنجون.

عند وصول دينو إلى رنجون، ذهب لرؤية صديقه القديم: تحوّل من ولد نحيل وطويل إلى رجل مهيب عليه سمات ذوى النفوذ. كان يرتدى لنجيات ملونة وقمصانًا مشجرة، وفى يده غليون باستمرار تقريبًا. عمل دينو مصورًا فى جريدته. بعد ذلك، حين وجد دينو مكانًا مناسبًا لأستوديو، أقرضه يو ثيها سو المال لشرائه.

كان بعض أفضل المصورين فى رنجون قبل الحرب من اليابانيين. بعد الحرب أغلق كثير منهم الأستوديو وتخلصوا من الأدوات بأسعار زهيدة. فى السنوات التى

قضاها دينو في لويكو صار خبيراً في إصلاح أدوات التصوير القديمة والمهملة وإعادة تشغيلها: جهَّز الأستوديو بتكلفة زهيدة جداً.

كان يو ثيها سو من أوائل زوار أستوديو دينو. نظر إليه باستحسان. "رائع جداً، رائع جدا." توقَّفَ ليسحب نفَساً من غليونه. "لكن ألم تنسَ شيئًا؟"

"ماذا؟"

"اليافطة. لابد أن يحمل الأستوديو اسماً، على الرغم من كل شيء."

"لم أفكِّرْ في اسم..." تلفَّتَ دينو حوله. أينما نظر كان هناك زجاج: صور في إطارات، أسطح الطاولات، وعدسات الكاميرا.

قال فجأة: "القصر الزجاجي. سأطلق عليه هذا الاسم..."

"لماذا؟"

قال: "كانتْ عبارة مفضلة لأمي. فقط شيء تعوَّدتْ أن تقوله..."

كان للاسم صدى واكتسبتْ أعمال دينو الشهرة بسرعة. كانت الأميرة الرابعة تعيش في رنجون، وكان زوجُها فناناً. زارا القصر الزجاجي بانتظام. بسرعة كان لدى دينو عمل أكثر مما يستطيع إنجازه. بحث حوله عن مساعد ورشح له يو ثيها سو إحدى قريباته، امرأة شابة في حاجة لعمل نصف الوقت. وتبين أنها ما ثين ثين آي – الفتاة الصغيرة التي ساعدتْ دينو وقدمت له ملاذاً حين مرَّ برنجون في ١٩٤٢ . كانت في منتصف العشرينيات، طالبة في جامعة رنجون، تقوم ببحث في الأدب البورمي، تكتب أطروحة عن تاريخ القصر الزجاجي- تاريخ شهير للقرن التاسع عشر كُتِب في فترة حكم الملك بودوبايا(٢)، من أسلاف الملك ثيبو. أدهش اسم أستوديو دينو ما ثين ثين آي كصدفة سعيدة. شغلت الوظيفة.

كانتْ ما ثين ثين آى نحيلة، ضئيلة الجسم، ودقيقة فى حركاتها. كل يوم، فى الرابعة عصراً، تمشى فى الشارع، بجوار الصيدلية، إلى الباب الخشبى الذى يؤدى إلى القصر الزجاجي. تقف فى الخارج وتنادى باسمِ دينو - "يو تون بى!" - ليعرف أنها أتتْ. فى السابعة والنصف تغلق هى ودينو الأستوديو: تبتعد فى الشارع ويقفل دينو ويلفُّ حول الركن ليصعد السلالم إلى غرفته.

بعض بضعة أسابيع، اكتشف دينو أن ما ثين ثين آى لا تقضى أوقات الصباح كلها فى البحث فقط. كانت كاتبة أيضاً. كانت تزدهر فى رنجون ثقافة المجلات الأدبية الصغيرة. وقد نشرت إحداها بعض قصصها القصيرة.

تتبع دينو قصصها. أدهشتْه. كانت أعمالها مبتكرة وتجريبية؛ استخدمت البورمية بطرق جديدة، مزاوجة بين الكلاسيكية والاستخدام الشعبى. أدهشه ثراء التلميح، واستخدامها اللهجة العامية، وكثافة تركيزها على شخصياتها. بدا له أنها حقّقتْ كثيراً مما طمح لتحقيقه ذات يوم- طموحات هجرها منذ فترة طويلة.

كان دينو خوّافًا إلى حدٍّ ما، ومن الصعب أن يخبر ما ثين ثين آى بإعجابه بأعمالها. بدلاً من ذلك، بدأ يضايقها بطريقته المتقطعة الجادة. قال: "قصتك، القصة التى عن الشارع الذى تعيشين فيه... تقولين إن الناس فى الشارع من أماكن كثيرة مختلفة... من الشواطئ والهضاب... لكنهم فى قصتك يتحدثون البورمية جميعًا. كيف يحدث ذلك؟"

لم تنزعجْ إطلاقًا.

قالتْ برقة: "حيث أعيش، يتحدث كل منزل فى الشارع بلغة مختلفة. ليس أمامى من اختيار إلا أن أثق فى أن قارئى يتخيل صوت كل منزل. وإلا فلن أستطيع الكتابة عن شارعى أبداً - وأن تثق فى قارئك ليس شيئًا سيئًا."

واصل دينو، مازال مزعجًا: "لكن انظرى إلى بورما. نحن عالم بمفردنا... انظرى إلى شعبنا... كارن، كياه، كاشين، شان، راخين، وا، با أوه، شين، مون[٣]... ألا يكون مدهشًا إذا احتوتْ قصصك على كل لغة، وكل لهجة؟ إذا استطاع قارئك أن يسمع التنوع الموسيقى؟ الدهشة؟"

قالت: "لكنه يستطيع. لماذا تعتقد أنه لا يستطيع؟ الكلمة على الصفحة مثل الوتر فى آلة. يردد قرائى الموسيقى فى رؤوسهم، وتبدو لكل بشكل مختلف."

فى ذلك الوقت من حياة دينو، لم يعد التصوير هواية بالنسبة. لم يكن يصور إلا أعمالاً تجارية، يلتقط بورتريهات الأستوديو ويطبع نيجاتيف الآخرين. كان يولى ما يفعله قدراً كبيراً من العناية والاهتمام لكنه لا يجد فيه متعة: كان يشعر بالامتنان أساسًا لأنه يمتلك مهارة يمكن أن تكون رهانًا لتوفير سبل العيش. حين سأله الناس عن السبب فى أنه لم يعد يصور خارج الأستوديو، أخبرهم بأن عينيه فقدتا عادة النظر؛ ذبل بصره نتيجة عدم الممارسة.

لم يرَ الصور التى اعتقد أنها عمله الحقيقى إلا نادراً. وكانت هذه الصور، على أية حال، ضئيلة العدد. دُمِّرتْ نسخُه المبكرة والنيجاتيف حين أتت النيران على منزل كمندين؛ والأعمال التى صورها فى الملايو لا تزال فى مرننجسايد. كل ما فى حوزته من أعماله بضع صور التقطها فى لويكو - لأمه ودوه سى وريموند وأسرتيهما. وُضِع بعضها فى إطارات وعُلِّق على جدران شقته. قاوم الخجل لدعوة ما ثين ثين آى للصعود إلى الدور الثانى لرؤيتها. لا تزال صغيرة - أصغر منه بأكثر من عشر سنوات. وكان من المهم إلى حد بعيد أن لا تنظر إليه نظرة سيئة.

انقضتْ سنة، وكل يوم تغادر ما ثين ثين آى الأستوديو وتدخله من الباب الذى يؤدى إلى الشارع. ذات يوم قالتْ: "يو تون بى، هل تعرف أصعب ما فى كتاباتى؟"

"ماذا؟"

"حين أترك الشارع وأدخل منزلاً."

تجَّهم: "لماذا...؟ لماذا ذلك؟"

فركتْ يديها معًا فى حجرها، وبدت الطالبة الجادة تمامًا. قالتْ: "ذلك صعب جداً. بالنسبة لك قد يبدو شيئًا تافهًا. لكنى أعتقد أن هذه اللحظة تميز الاختلاف بين الكتابة الكلاسيكية والحديثة."

"أوه...! كيف؟"

"ترى، فى الكتابة الكلاسيكية، يحدث كل شىء فى الخارج - فى الشوارع والميادين العامة وساحات المعارك، فى القصور والحدائق - فى أماكن يتخيلها الجميع."

"لكنك لا تكتبين بهذا الشكل؟"

ضحكتْ: "لا. وحتى هذا اليوم، مع إنى لا أفعل ذلك إلا فى عقلى، لا شىء أكثر صعوبة من هذا- الدخول إلى منزل، اقتحامه، انتهاكه. وحتى مع أن ذلك فى رأسى فقط، أشعر بالخوف، وأنا أعبر العتبة، إلى منزل."

أومأ لكنه لم يعلِّقْ. أعطى نفسه وقتًا للتفكير فيما قالتْ. بعد ظهيرة أحد الأيام اشترى بريانى من شارع المغول ودعاها للصعود.

بعد بضعة أشهر تزوَّجَا. كان الاحتفال هادئًا وقد دعيا عدداً صغيراً جداً. بعد ذلك، انتقلتْ ما ثين ثين آى إلى غرفتى دينو. حدَّدتْ لنفسها ركنًا ووضعت فيه منضدة. بدأت تدرِّس الأدب فى الجامعة. وبعد الظهيرة تساعد فى الأستوديو. كانا سعيدين، قانعين بصغر عالمهما وخصوصيته. ولم يبدُ عدم الإنجاب نقصاً كبيراً. بدأتْ أعمالها تلفت الأنظار، حتى خارج الدوائر الأدبية. صارتْ واحدة من مجموعة مختارة من الكتاب البورميين الذين يُسعى لوجودهم بانتظام فى المهرجانات والريف.

ذات صباح، ودو ثين ثين آى توجه أحد طلابها الواعدين فى الجامعة سمعتْ صوت إطلاق نار قريب. ذهبتْ إلى الغرفة فرأتْ مئات الشباب والشابات يجرون، والبعض مغطى بالدماء.

شدَّها تلميذها بعيداً عن النافذة. اختبآ تحت منضدة. بعد بضع ساعات عثر عليهما أحد زملاء دو ثين ثين آى. عرفا أن هناك انقلاباً. تولى الجنرال نى وِن السلطة. وأطلقت النيران على عشرات الطلاب داخل الجامعة.

***

لم يكن دينو أو دو ثين ثين آى قد انخرطا فى السياسة مباشرة من قبل. بعد الانقلاب بقيا فى حالهما وانتظرا تغير الرياح. ولم يدركا إلا بعد سنوات أنها عاصفة جاءت لتبقى.

اعتقل يو ثيها سو وأُغلِقتْ جريدتُه. تلاعب الجنرال نى ون، الديكتاتور الجديد، بالعملة. خفض قيمة العملة وصارت بلا قيمة؛ فى ليلة، صارت ملايين الكات(٤) أوراقًا مهملة. فر آلاف الشباب اللامعين فى البلاد إلى الريف. تضاعف الثوار ونشطوا. عمل ريموند تحت الأرض مع مئات من أتباعه. فى الشرق، على حدود تايلاند، أطلق المتمردون اسمًا على المقاطعات التى سيطروا عليها: صارت ولاية كارن الحرة- كواثولى، وعاصمتها بلدة منربلو(٥) التى تقع على ضفاف النهر.

كل عام تزداد قوة الجنرالات ويزداد بقية أهل البلاد وهَنًا: كانت العسكرية مثل روح شريرة تمتصُّ الحياة من عائلها. مات يو ثيها سو فى سجن إنسين، فى ظروف غامضة. أُحضِر جسده إلى البيت وعليه علامات التعذيب ولم يُسمَحْ لأسرته بإقامة جنازة عامة. نشأ نظام رقابى جديد، نما من أسس النظام الذى خلَّفتْه وراءها حكومة الإمبريالية القديمة. كان لابد من تقديم كل كتاب ومجلة لهيئة فحص المطبوعات ليتمعن فيها جيش صغير من الضباط.

ذات يوم طُلِب من دو ثين ثين آى الحضور إلى مكتب هيئة الفحص. كان المبنى بسيطًا وعمليًا، مثل مدرسة، تفوح من دهاليزه الطويلة رائحة المراحيض والمبيدات. ذهبتْ إلى مكتب بباب خشبى من عدة طبقات وانتظرت ساعات على دكة. وحين عُرِضتْ فى النهاية، وجدت نفسها فى مواجهة ضابط بدا فى أواخر العشرينيات، يجلس على منضدة وأمامه مخطوطة من إحدى قصصها. كانت يداه فى حجره وبدا أنه يلعب فى شىء – لم تعرف ما هو.

وقفت عند المنضدة، تتململ ممسكة طرف بلوزتها. لم يطلب منها الجلوس. حدَّقَ فيها متمعنًا من أعلى إلى أسفل. ثم وخز إصبعه فى المخطوطة: "لماذا أرسلْتِها إلى هنا؟"

قالت بهدوء: "طُلِب منى ذلك، هذا هو القانون."

قال: "القانون للكُتَّاب. لا لأمثالك."

"ماذا تقصد؟"

"لا تعرفين كيف تكتبين البورمية. انظرى إلى كل هذه الأخطاء."

نظرتْ إلى المخطوطة ورأتْها مغطاة بعلامات من قلم أحمر، مثل كتاب مدرسى زاخرٍ بالأخطاء.

قال: "ضيعْتُ وقتًا طويلاً فى تصحيحها. ليست وظيفتى تعليم الناس الكتابة."

نهض من مقعده فرأتْه فى يديه عصا جولف. مدَّ يده إلى مخطوطتها وطبَّقها على شكل كرة بإحدى يديه. ألقاها على الأرض بين قدميه. خطا خطوات صغيرة وهو يُطوِّح رأس عصاه للخلف والأمام. تَأرْجحَ، وأبحرت كرة الورق عبر الغرفة. أخذ وضعًا للحظة، معجبًا بتأرجحه – الركبة المائلة والساق المثنية. التفتَ إليها. قال: "خذيها. خذيها إلى البيت وادرسيها. لا ترسلى شيئًا إلى هذا المكتب حتى تتعلمى كتابة البورمية بشكل صحيح."

فى الأتوبيس، فى الطريق للبيت، فردت الصفحات صفحةً صفحة. أدركت أن ألفاظه ألفاظ طفل؛ كان متعلمًا بالكاد. أجرى قلمه على كل ما لم يفهمه - التورية والتلميح والألفاظ المهجورة.

توقفتْ عن الكتابة. لا شيء يمكن نشره إلا بعد خضوعه لفحص الهيئة. كانت الكتابة صعبة بما يكفى، حتى لو لم يتعامل معها غيرك. وقد جعلت فكرة مواجهة أخرى من هذا القبيل الساعات التى تقضيها على المنضدة غير محتملة.

امتلأت الصحف باتهامات حادة للإمبريالية. بسبب الإمبرياليين عُزِلتْ بورما عن العالم؛ وكان على البلاد مقاومة الإمبريالية الجديدة والعدوان الأجنبى.

أسأمتْ هذه الخطب دينو. ذات يوم قال لزوجته: "انظرى إلى الطريقة التى يستخدم به هؤلاء السفاحون الماضى لتبرير الحاضر. هم أنفسهم أسوأ بكثير من الإمبرياليين؛ على الأقل فى سالف الأيام، كان يمكن أن تكتبى وتقرئى."

ابتسمتْ دو ثين ثين آى وهزَّتْ رأسها استنكارًا. قالتْ: "استخدام الماضى لتبرير الحاضر سيئ جدًا - لكن استخدام الحاضر لتبرير الماضى سيئ بالقدر نفسه. وتأكَّدْ أن هناك كثيرين يمكن أن يفعلوا ذلك أيضًا: لكن علينا فقط ألا نصبر عليهم."

صارتْ حياتهما هادئة جدًا وعقيمة: كانا نباتات شُذِّبتْ جذورها لتوضع فى آنية ضئيلة. يختلطان بعدد ضئيل جدًا من الناس ويحرصان دائمًا على ما يتفوهان به، حتى مع الأصدقاء. ظهرتْ عليهما تجاعيد العمر، فى الداخل والخارج؛ تحركا فى حجرتيهما بتأنٍّ وبطء، مثل أناس يخشون إسقاط أشيائهم.

لكن لم يكن كل شيء هادئًا حولهما. كانت هناك تغيُّرات لا يعلمان بها. كانت حياتهما هادئة جدًا، منعزلة جدًا، حتى أنهما لم يشعرا بالدمدمة الأولى تحت البركان. وحين أتى الانفجار، أثار دهشتهما.

بدأ بنزوات مجنونة أخرى للجنرال - تلاعب آخر بالعملة. لكن فى هذه المرة لم يقنع الناس برؤية مدَّخرات حياتهم تتحول إلى أوراق بلا قيمة. ظهرت اعتراضات، هادئة ومترددة فى البداية. ذات يوم، فى الجامعة، نشبتْ مشاجرة فى مطعم صغير - حدث صغير، يبدو تافهًا. لكن الفصول خلتْ فجأة وتدفق الطلاب إلى الشوارع؛ ظهر قادة وبسرعة مذهلة نشأتْ تنظيمات.

ذات يوم أُخِذتْ دو ثين ثين آى إلى اجتماع. ذهبتْ غير راغبة، يدفعها طلابها. بعد ذلك، ساعدتْ فى كتابة بيان. حين أمسكتْ بالقلم، ارتجفتْ يدها - رأتْ نفسها فى مكتب الرقيب مرة أخرى. لكن حين بدأت الكتابة، حدث شيء غريب. مع كل جملة رأتْ أوراقها المكورة تُبعَث إلى الحياة، ترتفع من الأرض وتضرب عصا الجولف، وتسقطها من يد الرائد.

بدأت تذهب إلى اجتماعات فى كل أرجاء البلدة. حاولتْ حثَّ دينو على الذهاب، لكنه قاوم. وذات يوم انتشرتْ أخبار عن متحدثة جديدة: ستخطب فى حشد كبير قرب شوى داجون - اسمها أُنْج سان سو كى، ابنةُ معرفةٍ قديمٍ من معارف دينو فى الجامعة - الجنرال أُنْج سان.

كان دينو فى الرابعة والسبعين؛ مع تقدم العمر يَبُسَتْ ساقه أكثر وكان يمشى بصعوبة، لكن كان للاسم الجديد تأثير منشِّط عليه. ذهب إلى الاجتماع وبعدها لم يستطع البقاء فى البيت مرة أخرى. التقط صورًا؛ سافر بالكاميرا، جمع تسجيلاً تصويريًا للحركة فى أعنف الأيام وأبهجها.

فى ٨ أغسطس ١٩٨٨، استيقظ دينو مصابًا بحمًّى بسيطة. أعدَّتْ له دو ثين ثين آى وجبة وطلبتْ منه البقاء فى السرير. كانت فى المدينة مسيرةٌ مهمة فى ذلك اليوم: غادرت المنزل فى وقت مبكر من الصباح. بعد حوالى ثلاث ساعات أو أربع، سمع دينو وابلاً متكرِّرًا من الطلقات النارية عن بعد. كان مريضًا بدرجة لا تسمح له بالخروج؛

استلقى فى السرير وانتظر عودة زوجته إلى البيت. فى وقت الأصيل سمع طَرْقًا على الباب. جرٍّ نفسه من السرير وفتح الباب.

كان هناك ثلاثة أو أربعة من رجال البوليس فى زيهم يقفون على السلم. وخلفهم عدة رجال يرتدون لنجيات وملابس بسيطة.

قال دينو: "نعم؟ ماذا تريدون؟"

اندفعوا خلفه بدون كلمة. وقف بلا حيلة وهم يتحركون فى الشقة، يفتحون الدواليب والخزانات، قاذفين محتوياتها. ثم أشار رجل ممن يرتدون الملابس العادية إلى صورة لريموند فى إطار. اجتمع الآخرون حوله، يتهامسون.

جاء أحد رجال البوليس إلى دينو وفى يده صورة فى إطار. قال لدينو: "هل تعرف هذا الرجل؟"

أومأ دينو: "نعم."

"هل تعرفه؟"

انتقى دينو كلماته بعناية: "أعرف اسمه."

"هل تعرف أنه قائد العصيان؟ هل تعرف أنه أحد أكثر الإرهابيين المطلوبين فى البلاد؟"

"لا." كانت إجابة دينو ملتبسة.

"على أية حال – يجب أن تأتى معنا."

قال دينو: "ليس الآن. لا أستطيع. أنا مريض وفى انتظار زوجتى."

قال الرجل الذى يرتدى الزى: "لا تقلق بشأنها. أُخذَتْ بالفعل إلى مكان آمن."

هوامش

(١) لويكو Loikaw: عاصمة ولاية كياها Kayah فى بورما، ومعظم سكان الولاية من الكياها (الكارنى Karenni).

(٢) بودوبايا Bodawpaya: ملك بورما (١٧٨١-١٨١٩) أسس أمارابورا واتخذها عاصمة له فى ١٧٨٢ بعد اعتلائه العرش مباشرة.

(٣) راخين Rakhine: مجموعة عرقية فى بورما، تشكل حوالى ٤٪ من السكان تقريبًا، يعيشون فى المناطق الساحلية فى ولاية تحمل اسمهم. شين Chin: مجموعة عرقية فى بورما، المجموعة الوحيدة المسيحية، تعيش فى غرب بورما فى ولاية تحمل اسمها، ويبلغ تعدادهم حوالى مليون ونصف. مون Mon: شعب بوذى يسكن منطقة شرق بورما والأجزاء المجاورة من تايلاند. الأجناس الأخرى وردت فى هوامش سابقة.

(٤) الكات kyats: وحدة العملة فى بورما.

(٥) كواثولى Kwathoolei؛ منربلو Manerplaw: منربلو عاصمة دولة كواثولى التى حاول الكارن Karen تأسيسها أواخر أربعينيات القرن العشرين، والمنطقة حاليًا جزء من ولاية كاين Kayin فى بورما.

(٤٧)

في اليوم الأخير لجايا في رنجون، وعدها دينو باصطحابها إلى ٣٨ شارع الجامعة، لحضور لقاء عام في منزل أنج سان سو كي.

شهد عام ١٩٩٦ توقيف أنج سان سو كي في منزلها للمرة السادسة. وعلى الرغم من حجزها، كان مجمع أنج سان سو كي لا يزال مركز الحياة السياسية في المدينة. تقيم لقاء في منزلها يومي السبت والأحد أسبوعيًا: يقف الناس في الخارج وتخطب فيهم من البوابة. صارتْ هذه اللقاءات زيارات مقدسة. يخيم الصمت على رنجون في عصر نهاية الأسبوع ويتدفق آلاف إلى المدينة من كل أرجاء البلاد.

ذهب دينو إلى فندق جايا لاصطحابها. أخذهما أحد أصدقائه في سيارته- سكودا تشيكية موديل ١٩٥٤. كانت السيارة تصدر صخبًا عاليًا يشبه السعال، يرتفع وهي تتسكع في الشارع. لاحظتْ جايا وهي تركب أن أبواب السيارة كلها مختلفة الألوان، وكلها مشوَّهة بشكل غريب، كأنها طُرِقت بهذا الشكل بمرزبة.

قالت: "سيارة غريبة جداً."

ضحك دينو: "نعم... سيارة جمعت بالكامل من قطع من سيارات أخرى... غطاء المحرك من أوهتا(١) يابانية قديمة... أحد الأبواب من فولجا(٢)... تسير بمعجزة."

كان لعادم محرك الأسكودا أثر في الشوارع وهم يبتعدون. كان مركز المدينة هادئًا بصورة تكاد تكون مخيفة، أكثر خلوًا مما رأتْه جايا في أي وقت من قبل. لكن

وهم يسيرون شمالاً زادتْ حركة المرور: ظهرتْ سيارات وأتوبيسات وشاحنات صغيرة. وصلوا إلى شارع واسع مظلل بالأشجار وممتلئ بفيلات كبيرة. ركنوا على مسافة مناسبة وانضموا إلى مئات آخرين يسيرون فى الشارع.

وصلوا إلى منزل بسياج أخضر وأصفر. كانت الجماهير غفيرة فى الخارج. لم تظهرْ أشياء كثيرة داخل المجمع: كان المنزل بعيداً عن الطريق، تحيط به أعمدة طويلة من البامبو، والبوابات معدنية برزات طويلة. اجتمع حولها حوالى عشرة آلاف، يجلس معظمهم فى صبر على الحافة المعشبة التى تغطى الشارع من الجانبين. أخلى الطريق رجال البوليس والمتطوعون، وانسابت حركة المرور خلاله، إلى البوابات، بخطى بطيئة وثابتة.

كان المتطوعون يرتدون سترات زعفرانية ولنجيات خضراء: عرفتْ جايا أنهما لونا الحركة الديموقراطية. تعرَّف على دينو عدد كبير من المتطوعين. لوَّحوا له إلى موقع ممتاز قريب جداً من البوابات. كان المشهد رائعًا وقضتْ جايا وقتًا طويلاً تتأمل الناس من حولها: كان بينهم كثير من الطلاب وعدد من الراهبات والرهبان البوذيين، لكن بدا أن معظمهم جماهير عادية. كان هناك عدد كبير من النساء، كثيرات منهن يصطحبن أطفالاً. كان جو ترقب لكنه خالٍ من التوتر؛ كان عدد كبير من باعة الأطعمة يشقون طريقهم بين الجماهير، يبيعون مشروبات ووجبات خفيفة.

وكز دينو كوع جايا وأشار إلى مصورٍ وبضعة رجال بنظارات شمسية بإطارات رفيعة. قال وهو يضحك ضحكة خافتة: "م.ع.، مخابرات عسكرية. يصورون فيلمًا ويأخذونه إلى مركز القيادة. سيشاهده رؤساؤهم غداً."

لاحظتْ جايا وجود عدد كبير من الهنود ضمن الجماهير. علَّقتْ على ذلك لدينو وقالتْ: نعم، ثقْ أن هذه الحقيقة لا تفوت على النظام... كثيراً ما تصف الأوراق الرسمية هذه الاجتماعات بأنها تجمعات للهنود الأشرار." ضحك.

فجأة حدث صخب هائل. قال دينو: "هى. أنج سان سو كى."

ظهرت امرأة نحيلة وجميلة. ظهر رأسها فقط فوق البوابة. شعرها أسود قاتم ملتفٌّ عند العنق. تضع زهوراً بيضاء فوق شعرها. جمالها يفوق التصور.

لوَّحتْ أنج سان سو كى للجماهير وبدأتْ تتكلم. تحدَّثتْ بالبورمية وكانتْ جايا لا تفهم ما تقول. لكن الأداء كان يختلف تمامًا عن كل ما سمعتْ من قبل. كانت تضحك باستمرار وكان فى أسلوبها سطوعٌ كهربى.

اعتقدتْ جايا أن الضحك كريزمتها. سمعتْ صدى ضحك أنج سان سو كى فى كل مكان من حولها، فى الجماهير. على الرغم من ممثلى الاستخبارات المحتشدين، لم يكن الجو ثقيلاً أو مليئًا بالخوف. سادتْ روح طيبة وبدا الأمر متناقضًا تمامًا مع المدينة الميتة خلفها. فهمتْ جايا لماذا يضع عدد كبير من الناس آمالهم على أنج سام سو كى؛ عرفتْ أنها نفسها يمكن أن تفعل أى شىء يطلب منها فى تلك اللحظة: من المستحيل أن تشاهد هذه المرأة ولا تعشقها.

كانا، هى ودينو، صامتين وهما عائدان إلى الأسكودا القديمة. ركباها، وحينها قال دينو: "غريب... عرفْتُ أباها... عرفتُ آخرين كثيرين يعملون فى السياسة... رجالاً كثيرين يعتبرون أبطالاً الآن... لكنها القائدة الوحيدة التى يمكن أن أؤمن بها."

"لماذا؟"

"لأنها الوحيدة التى يبدو أنها تفهم حقيقة وضع السياسة... ماذا يمكن أن تكون... يجب مقاومة الفوضى والطغيان، ويجب أيضًا مقاومة السياسة نفسها... لا يمكن أن يُسمَح لها بالتهام الحياة كلها، الوجود كله. بالنسبة لى هذه هى الإهانة الأكثر رهبة فى وضعنا – ليس فقط فى بورما لكن فى كثير من الأماكن الأخرى أيضًا... غزت السياسة كل شىء، لم تُبْقِ على شىء... الدين والفن والأسرة... تغلَّبتْ على كل شىء... لا مهرب منها... لكن ماذا يمكن أن يكون أكثر تفاهة فى النهاية؟ تفهم هذا... وحدها... وهذا ما يجعلها أعظم بكثير من مجرد سياسية..."

قالتْ جايا بتردد: "لكن إذا كان ذلك صحيحًا، ألا يجعل ذلك نجاحها أصعب بكثير - كسياسية؟"

ضحك دينو: "لكنها نجحتْ بالفعل... ألا ترين؟ مزَّقت الأقنعة من على وجوه الجنرالات... أرتْهم حدود ما تريد أن تفعله... وهذه الحدود تسجنهم أيضًا... تلازمهم بدون توقف، كل لحظة... جرَّدتْهم من الكلمات، من الخطاب. لا يستطيعون مقاومتها إلا بوصفها بالإمبريالية... وهو اتهام مضحك... لأنهم استعانوا بالقوانين الإمبريالية القديمة وتشريعاتها للحفاظ على السلطة فى أيديهم. الحقيقة أنهم خسروا ويعرفون هذا... هذا ما يجعلهم يائسين إلى هذا الحد... معرفة أنهم بعد وقت قصير لن يجدوا مكانًا يختبئون فيه... مسألة وقت فقط ويكون عليهم الردُّ على كل ما فعلوا."

هـوامش

(١) أوهتا: Ohta.

(٢) فولجا: Volga.

(٤٨)

وصل دينو إلى فندق جايا لاصطحابها إلى المطار. فى الطريق، وهما يسيران فى المدينة فى الأسكودا، قال دينو: "قضيْتِ هنا سبعة أيام ولم نذكرْ أبى أبداً."

قالتْ جايا بشعور بالذنب: "صحيح."

قال دينو: "حدثينى عن أيامه الأخيرة. هل كنْتِ معه؟"

"نعم، أتذكر ذلك جيداً. ماتتْ أوما عمة أمى قبله ببضعة أيام، ترى. كانا فى التسعين تقريباً..."

مات الاثنان فى بضعة أسابيع. رحلتْ أوما أولاً: ماتتْ فى نومها، وجدَها رجكومار. كان للخبر دوىٌّ: أقيمت لها جنازة رسمية حضرها المحافظ. وتراجعت العائلة إلى الخلفية فى هدوء.

مات رجكومار من نوبة قلبية بعد شهر. جاءتْ جنازته متواضعة بقدر مهابة جنازة أوما. حمل بعض أصدقائه من المعبد البورمى جثَّتَه إلى المحرقة. وبعد ذلك أخذتْ جايا وبيلا رماده إلى النهر. وبعثرتْه جايا فى المياه.

"تذكرتُ كيف كان يقول دائمًا لا يمكن أبداً، بالنسبة له، أن يكون الجَنْجِز[1] مثل إراودى."

نظرتْ جايا إلى دينو ورأتْه يبكى، والدموع تجرى فى تجاعيد وجهه. مدَّتْ يدها إلى يده.

قالتْ: "سـألَتَنى عن أيامـه الأخيرة، والحـقيقـة إن مـا قلتُ لك يخـتلف تمامًا عـمـا أتذكر."

"ماذا تتذكرين؟"

"أتذكر حكاية حكاها لى ابنى؟"

"ابنك؟ لم أعرف أن لك ابنًا."

"نعم، لى ابن. كبير. يعيش فى أمريكا منذ بضع سنوات."

"وما حكايته؟"

***

وأنا صغيراً جداً، ربما فى الرابعة أو الخامسة، كان لنكاسوكا بيتى أيضًا؛ كنتُ أعيش فى الدور العلوى مع أمى وخالتها بيلا. ويعيش رجكومار فى الدور الأرضى، فى شقة أوما، فى غرفة صغيرة بجوار المطبخ. فى الصباح، حين أستيقظ، كان أول ما أفعله النزول لإلقاء نظرة عليه.

فى ذلك الصباح ذهبتُ إلى غرفة رجكومار ولم أجدْه فى سريره. انتابتنى حالة ذعر. جريْتُ فى الشقة إلى غرفة نوم أوما لأخبرها بأن جدَّ أمى ليس موجوداً.

مع أن رجكومار عاش في شقة أوما حوالى عشرين عامًا، لم يحدث أبداً التباس بشأن نظام الحياة التى اتخذاها أو طبيعة العلاقة بينهما. فهم الجميع أن ارتباطهما نوع من الإحسان، مؤسس على مشاعر أوما تجاه دلّى. أوما محسنة خيِّرة؛ وهو لاجئ معدم تقريبًا. لم يكن وجوده فى المنزل بحال من الأحوال يعرض سمعة أوما كامرأة مستقلة متجمدة، أرملة فى حداد على زوجها لأكثر من نصف قرن.

عكستْ جغرافية شقة أوما العلاقة بينهما. كانت أوما تنام فى غرفة نوم السادة، غرفة تطل على الحديقة؛ وكانت غرفة رجكومار مخزنًا فى الأصل قرب المطبخ. لم يُسمَحْ له بدخول غرفة أوما إلا بعد الظهر وكان يجلس فى المكان نفسه دائمًا - أريكة كبيرة عليها حشايا محشوة بالقطن. عاشا بهذا الشكل عشرين عامًا.

لكن فى ذلك الصباح، حين جريْتُ إلى غرفة أوما، وجدتُ، لدهشتى، رجكومار فى سريرها. كانا نائمين بعمق، يتغطيان بملاءة رقيقة من القطن. ظهرا هادئين ومرهقين جداً، كأنهما يستريحان بعد جهد كبير. الرأسان ملقيان إلى الخلف على حافة مخدات مكومة والفمان مفتوحان. الوضع الذى نأخذه نحن الأطفال فى الألعاب التى تتطلب تمثيل الموت: رأس محنى للخلف، فم مفتوح، ولسان ناتئ بين الشفتين. حتى التبس على الأمر وظننْتُ أنه طبيعى.

صحْتُ: "هل أنتما ميتان؟"

استيقظا، ينظران بعدم تبصر. كانا ضعيفى البصر إلى حد بعيد وأدى ذلك إلى اضطراب من خبط السرير وقلب المخدات وهما يتحسسان نظارتيهما. وفى هذه العملية، انزلق الغطاء وتبين أنهما عاريان. بدت بشرة أوما رقيقة جداً مغطاة بزخرفة رقيقة لشقوق ضئيلة؛ كانت كل شعرة على جسم رجكومار قد انقلبتْ بيضاء، مما خلق تأثيراً رائعًا بشكل غريب مع بشرته السوداء.

قلْتُ بغباء: "لماذا، ثيابكما مخلوعة..."

عثرا على نظارتيهما وشداًّ الغطاء على جسميهما. أصدرتْ أوما صوت غرغرة مرتفعة، همهمة بركانية. كان فمها مجعّداً بشكل غريب، وعند النظر بدقة أكبر أدركْتُ أنها هى ورجكومار بدون الأسنان.

فُتِنتُ بأطقم الأسنان، كحال كل الأطفال، وكنْتُ أعرف أين تضع أوما طاقمها حين تخلعه فى الليل: لتحافظ عليه من الكسر، كانت تضعه بعيداً عن السرير، مغموراً فى مياه، فى قدح زجاجى كبير.

فى جهد للقيام بمساعدة، وصلْتُ إلى القدح لأجنِّبهما الحرج والارتباك وهما ينهضان عاريين من السرير. لكن حين نظرْتُ فى القدح، اكتشفْتُ أنه لا يوجد طاقم واحد بل طاقمان. والأكثر من ذلك أنهما متشابكان، حتى أن فكاهما تعشَّقا، ووصل كل منهما إلى أعماق فم الآخر، كان كل منهما يعض أسنان الآخر.

وفى مزيد من الجهد للقيام بمساعدة، حاولْتُ فصل الطاقمين. لكن نفد صبر رجكومار وانتزع القدح منى. لم يكتشف أن طاقم أسنان أوما مشبوك فى طاقمه إلا بعد أن وضعه فى فمه. ثم، وهو يجلس هناك، محدِّقًا بارتباك بعين مدورة فى الفكين القرنفليين اللذين يبرزان من فكيه، حدث شىء مذهل - مالتْ أوما إلى الأمام وأغلقتْ فمها على أسنانها. تشابك فماهما وأغلقا عيونهما.

لم أرَ أبداً قبلة من قبل. فى الهند، فى تلك الأيام، كان يقصُّ رقباءُ غير مرئيين هذه الأشياء من مجال الرؤية، فى الحياة الواقعية كما فى الأفلام. حتى وأنا لا أعرف أن هذا العناق له اسم، أدركْتُ أن البقاء فى الغرفة قد يكون انتهاكًا لشىء يتجاوز إدراكى. انسللْتُ مبتعداً.

ما رأيْتُ ذلك الصباح فى غرفة نوم خالة أمى يبقى إلى هذا اليوم الأكثر عاطفية والأكثر تحريكًا للمشاعر مما رأيْتُ طوال حياتى، ومنذ اليوم الذى جلسْتُ أكتب فيه هذا الكتاب - الكتاب الذى لن تكتبه أمى أبداً - عرفتُ أنه يجب أن ينتهى هنا.

هوامش

(١) الجنجز Ganges: نهر فى شمال الهند وبنجلاديش ينبع من جبال الهيمالايا ويبلغ طوله حوالى ١٥٦٠ ميلاً، يصب فى خليج البنغال، وهو نهر مقدس عند الهندوس.

المؤلف فى سطور:

أميتاف جوش

كاتب هندى بنغالى، ولد عام ١٩٥٦، فى كلكتا. تخرج فى جامعة دلهى، وحصل على دكتوراه الفلسفة فى الأنثروبولجيا الاجتماعية من جامعة أكسفورد. عاش فترة فى نيويورك، وفى عام ١٩٩٩ درّس الأدب المقارن فى بعض الجامعات. ويعمل أستاذاً زائراً فى جامعة هارفارد منذ عام ٢٠٠٥ . وعاد مؤخرا إلى جوا Goa فى الهند. ومن أهم أعماله الروائية:

١ – دائرة السبب The Circle of Reasons (١٩٨٦) .

٢ – ظل الخطوط The Shadow Lines (١٩٩٠) .

٣ – كروموزوم كلكتا The Calcutta Chromosome (١٩٩٥) .

٤ – القصر الزجاجى (٢٠٠٠).

٥ – المد الجائع The Hungry Tide (٢٠٠٤) .

٦ – بحر الأفيون Sea of Poppies (٢٠٠٨)

وله عدة أعمال غير قصصية من أهمها:

١ – فى أرض أثرية In an Antique Land (١٩٩٢) .

٢ – الرقص فى كمبوديا وفى بورما عموماً Dancing in Cambodia and At Large In Burma (مجموعة مقالات).

٣ – الإمام والهندى The Imam and the Indian (مجموعة مقالات).

٤ – ظروف مثيرة Incendiary Circumstances (مجموعة مقالات) (٢٠٠٦).

المترجم فى سطور:

عبد المقصود عبد الكريم

من مواليد قرية "طنامل" بمحافظة الدقهلية فى أول يونيو ١٩٥٦ .

عضو مؤسس فى "جماعة أصوات".

يعمل رئيساً لقسم الطب النفسى بمستشفى المطرية التعليمى.

من أهم أعماله:

الشعر:

أزدحم بالممالك: أصوات، ١٩٨٠ .

أزدحم بالممالك (١٩٨٨) : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢ .

يهبط الحلم بصاحبه: هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٣ ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٧

للعبد ديار وراحلة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠١ .

الترجمة:

فنتازيا الغريزة، د. هـ. لورانس: دار الهلال، ١٩٩٣ .

الحكمة والجنون والحماقة، ديفيد روبرت لانج: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦ .

نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، بشبندر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦طبعة ثانية، مكتبة الأسرة ٢٠٠٥ .

قصر الضحك، زبجنيف، هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٧ .

جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى، مجموعة من المؤلفين، إعداد وترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩ .

الرجل البطىء، كوتسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧ .

أسطنبول: المدينة والذكريات، أورهان باموق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨ .

إليزابيث كستلو، كوتسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨ .

العار، كوتسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩ .

جسد المرأة، كلمة المرأة، فدوى مالطى دوجلاس، تحت الطبع.

أنا أورخان ولى، مختارات من شعر أورخان ولى، تحت الطبع (نشر كاملاً فى أحد أعداد مجلة القاهرة)

التفرد والنرجسية، ماريو جاكوبى، تحت الطبع.

فيرونيكا قررت أن تموت، رواية، بابلو كويلهو، تحت الطبع.

مختارات شعرية، مايا أنجلو، تحت الطبع.

مختارات من الشعر الأمريكى، ألن جنسبرج وآخرون، تحت الطبع.

على ونينو، رواية، قربان سعيد، تحت الطبع.

الدراسة:

جماليات الحلم والنسيان: دراسة فى الحلم والشعر، تحت الطبع.

التصحيح اللغـوى : **ياسر مكى**
الإشـــراف الفنـــى : **حسن كامل**



القصر الزجاجى رواية للكاتب أميتاف جوش وهو واحد من أبرز الكتّاب الهنود المعاصرين. تبدأ الرواية فى بورما مع بداية الغزو البريطانى سنة 1885 وتنتهى فى بورما (مينامار) عام 1996، وقد تغير كل شىء. وفى ذلك الزمن الطويل تأخذنا عبر أحداث كبرى فى منطقة شاسعة من العالم وغنية بالشعوب والأعراق، منطقة الهند وجنوب شرق آسيا. تأخذنا من الغزو البريطانى لبورما إلى الحرب العالمية الثانية؛ حيث تتوقف الرواية طويلاً لتتناول أحداثها فى جنوب شرق آسيا، مروراً بالحرب العالمية الأولى. وتتجول بنا الرواية بين بورما والهند والملايو، متوقفة عند عادات شعوبها، بأعراقهم المختلفة، متناولة التغيرات التى طرأت عليها فى ذلك الزمن، وعارضة لنضال شعوبها ضد المحتل البريطانى. وتأخذنا الرواية، أيضًا، عبر الأجيال، بشخصياتها التاريخية وشخصياتها الروائية. إنها باختصار رواية مشبعة بروح الملحمة، رواية تأخذنا عبر الزمن والجغرافيا.

تصميم الغلاف: نادية كشك